نهج الأبرار

في اجتناب ما تُوُعِّد عليه بالنار

الإصدار الثاني

الكتاب يتناول ما تُوُعِّد عليه بالنار

من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية والعلاج

الجزء الأول

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

نهج الأبرار

في اجتناب ما توعد عليه بالنار

نهج الأبرار

في اجتناب ما توعد عليه بالنار

الجزء الأول

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان

دار اللؤلؤة
للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر

جميع الحقوق محفوظة

جميع الحقوق محفوظة ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو نقله بأي وسيلة من الوسائل سواء كانت إليكترونية أو ميكانيكية بما في ذلك النسخ أو التصوير وغير ذلك دون حصول علي إذن خطي من المؤلف والناشر .

الطبعة الأولى: ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م

رقم الإيداع: ٢٠٢٠/١٩٨٧٩

الرقم الدولي: 978-977-6838-49-9

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع

@DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com
الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .
01050144505 - 0225117747
المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .
01007868983 -0502357979

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة:

الحمدُ لله الذي جعلَ الآخرةَ دارَ الخلود والقرار، وجعلَ الدُّنيا سَفَرًا من الأسفار، أحمده تعالى على ما أفاضَ به على عباده الأخيار، من فضله المدرار، فهداهم لطريق الحق، ولسلوك نهج الأبرار، وإلى التزود من هذه الدَّار، لدارٍ باقية، لا همومَ فيها ولا أكدار، وهو العزيز الرحيم الغَفَّار، مكوِّر اللَّيل على النَّهار، ومكَوِّرُ النَّهار على اللَّيل؛ تذكرةً لأولى القلوب والأبصار، يخلقُ ما يشاء ويختار، ولا يعجزه من شيءٍ في الأرض ولا في السَّماء، وهو الواحد القهَّار.

أسأله جَلَّ وَعَلَا أن يعتق رقابنا من النَّار، ويدخلنا الجنة مع الأخيار، وأن ينفعنا بالاتِّعاظ والادِّكار، وأن يجعلنا ممن يسبحه بالعشي والإبكار، وأن يرزقنا ملازمة الطَّاعات والأذكار، حتى تشرق قلوبنا بالمحبةِ والقُرْبِ والأنوار، وعقولنا بالعلم والإبصار، وأن يجنبنا نهج المفسدين الأشرار، كما أسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى السلامة والعافية مما تُوُعِّدَ عليه بالعذاب في النَّار.

وأشهدُ أن لا إله إلا الله غافرُ الذَّنب، وقابل التَّوب للأبرار، شديد العقاب للمجرمين والفجَّار، وأشهد أنَّ محمدًا عبده ورسوله، النبي المختار، والمبعوث بالتبشير والإنذار، صلَّى الله عليه وعلى آله وأصحابه الأطهار، صلاة وسلامًا دائمين متعاقبين بتعاقب الليل والنهار.

أما بعد:

فإنَّ النَّاس يفزعون عندَ اشتداد الحرِّ إلى ظلٍّ ظليلٍ، أو مكانٍ بارد، ويهيئونَ ما يعينهم من الوسائلَ على تخفيف شِدَّةِ الحرِّ.

هذا حال النَّاس في اتخاذ أسبابِ الوقايةِ من حرِّ الشَّمس في الدُّنيا، وقد علموا أنَّ الدُّنيا ليست دارَ قرار، وأنهم راحلون منها، فهلَّا تفكَّروا في نارِ الآخرة، واتخذوا أسباب السَّلامة والوقاية منها؟ وقد علموا أنَّ الآخرةَ هي الدَّار الباقية.

وقد حذَّرنا الله عَزَّوَجَلَّ من نارِ الآخرة، وأمرنا باتخاذ أسباب الوقاية منها، ولا تكون الوقاية إلَّا بالعلم والعمل، فلا بدَّ للمكلَّف من معرفة المهلكاتِ وآثارها، حتى يتجنبها ويحترز عنها.

وحيث إنَّ ما تُوعِّدَ عليه بالنَّار في نصوص الكتاب والسُّنَّة هو من الكبائر الموبقات، وهو سبيل العصاة والمفسدين الفُجَّار، وأن ما يقابله من نهج الأبرار في الاعتقاد والسلوك من المنجِّيات من النَّار، كان لزامًا على كل مكلَّف عاقل يطلبُ الهدايةَ والنَّجاةَ أن يفقهَ ما قد يكون سببًا لشقائه فيتجنبه، وما يكون طريقًا لسعادته فيسلكه، وأن يتخذَ من الأسباب ما ينجيه من النَّار في الآخرة، ويبعده عنها، فمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ به خيرًا وفقه لذلك، فرزقَهُ بصيرةً وفرقانًا، فأبصرَ الحقَّ، وأنصفَ الخلق، وتجاوزَ العقباتِ التي تحولُ دونَ الهداية؛ للارتقاءِ إلى يفاعِ الاستبصار، ولاستنقاذِ النَّفسِ من دَرَكَاتِ النَّار.

وهذه تذكرة أتناول فيها ما توعد عليه بالنَّار في القرآن وصحيح السُّنَّة، وبيان نهج الصَّالحين الأبرار في اجتناب أعمال أهل النَّار، واتخاذ أسباب الوقاية من آفاتها، واغتنام ما يقابلها من الأعمال الصَّالحة الموصلة إلى النَّعيم الدَّائم، وإلى محبَّة الله عَزَّوَجَلَّ والقُرْب منه.

وأتناول في هذه الدراسة موضوع (التربية الوقائية)، وهو من أهم الموضوعات التي ينبغي أن يُعْنى بها؛ لأنه يعالج الخطر الذي قد يصيب الفرد، أو يهدد وحدة الأسرة، أو أمن المجتمع. ولا سيما ما يُروج له أو يخشى وقوعه في القريب، فينبغي أخذ أسباب الوقاية منه؛ لتجنب وقوعه؛ لأنه إذا وقع قد يستفحل خطره، ويعسر علاجه، فالوقاية من الخطر قبل وقوعه خير من العلاج بعد وقوعه.

وقد كان الاهتمام بهذه الموضوع جديًا لأهميته؛ لأن مجتمعاتنا بحاجةٍ إلى العافيةِ من كثير من الأمراض التي تصرف عن الهداية، وتعيق الفكر عن سديد النظر.

ولا شك أن الوقاية خير من العلاج، فهي تحصن الإنسان الذي يسلك طريق الهداية من أن تناله الآفات أو ينحرف عن طريق الحق، كما أن (التربية الوقائية) لا تحصن الفرد فحسب، ولكنها تحصن الأسرة، وتحصن المجتمع. وتكون التربية الوقائية بتحديد الخطر المتوعد عليه بالنار[(١)]، والتبصير بآثاره وعاقبته، وفي المقابل التوجيه إلى الطريق الصحيح.

ومن سُنَّة الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في الأمم أنَّه لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧].

وتحتاج الأمة في الفتن، عندما يلتبس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخ، والنظر الثاقب، وتمكينهم؛ حتى يعلو صوت الحق، وتخمد سَوْرَةُ الباطل، لكن الرجوع إلى المصلحين قبل وقوع الفتن خير من الرجوع إليهم بعد وقوعها؛ فمن شأن المصلحين أنهم يحذرون من الخطر قبل وقوعه؛ ليكون الناس على بينة وبصيرة، وأنهم يَبْدَؤون بالأهم

(١) موضوع التربية الوقائية من أعم الموضوعات بالنسبة لما يندرج تحته، فهو لا يتناول (الذنوب المتوعد عليها بالنار)، بل المتوعد عليها العذاب عمومًا، كما يتناول ما يصرف عن الهداية، أو يصرف الفكر عن سديد النظر، وقد أفردتُ ذلك بالبحث في كتاب مطوَّل، ولعله من أنفع في هذا الباب، وهو بعنوان: (عقبات في طريق الهداية وسبل الوقاية منها)، والكتاب يتناول خمسة وخمسين موضوعًا من حيث التعريف وبيان الخطر والتربية الوقائية. وقد أعددت كذلك كتابًا مختصرًا بعنوان: (الإرشاد إلى أسباب النجاة)، وتناولت فيه شيئًا من ذلك، ولم يطبع بعد، وكذلك في كتاب: (أخطار تهدد الأسرة)، وكتاب: (المحبة صورها وأحكامها)، وقد طُبِعا في إدارة مساجد محافظة الفروانية في (الكويت)، ثم أعيد طبع كتاب: (المحبة صورها وأحكامها) مع مزيد من التحقيق والإضافات، في دار اللؤلؤة، في (مصر)، ثم أعيد مع إضافات وتعديلات في (العبيكان)، وكتاب: (الإفساد في الأرض صوره وأسبابه وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة) في (العبيكان)، وكذلك كتاب: (التربية الوقائية من آفات تهدد الأسرة)، وهو إعادة صياغة وتحقيق لكتاب: (أخطار تهدد الأسرة)، وكلها من الموضوعات ذات الصلة بالتربية الوقائية، والتي يكمل بعضها بعضًا.

فالأهم، ويركزون على ما يخشى وقوعه في القريب من نحو ما وقع في بلد مجاور ويخشى انتقاله، أو من نحو ما أثاره دعاة الفتنة في مكان قريب ويخشى تفشيه وانتشاره.

وقد رجعت في ذلك إلى الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية، وأقوال العلماء. وخرَّجت الأحاديث والأقوال.

أما تخريج الأحاديث فيأتي على النَّحو التَّالي: إذا كان الحديث في الصَّحيحين، فإني أقتصر عليهما في التَّخريج، وإن كان في أحدهما دون الآخر، فإني أخرجه منه وأكتفي. وأمَّا إذا لم يكن الحديث موجودًا في الصَّحيحين أو أحدهما فإنِّي أسعى جاهدًا إلى تخريجه من المسانيد والسنن، وقد اعتمدت الترتيب على حسب تاريخ الوفاة، وذكر رقم الحديث فقط بالنسبة لكتب الحديث المرقمة بين مقفيين [**]، وذكر الجزء والصفحة بالنسبة للأحاديث غير المرقمة بين قوسين (**)، وإذا كثرت الطرق أكتفي بذكر أصحها، مع بيان الحكم على الحديث بما يغني عن عناء البحث، مع جمع وترتيب وتحقيق.

ولا أُبَرِّئُ نفسي من التَّقصير والخطأ والنقص، ولكن كما قال الإمام الشاطبي رَحِمَهُ اللَّهُ:

وظُنَّ به خيرًا وسامح نسيجه ... بالاغضاء والحسنى وإن كان هلهلا
وسَلِّمْ لإحدى الحسنيين إصابة ... والأُخرى اجتهاد رام صوبًا فأمحلا
وإن كان خرق فادركه بفضلة ... من الحلم وليصلحه من جاد مقولا[1]

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ:

وتخلل الفترات للعزمات أمـ ... ـر لازم لطبيعة الإنسان
وتولد النقصان من فتراته ... أو ليس سائرنا بني النقصان[2]

(١) متن الشاطبية (ص:٧).

(٢) متن القصيدة النونية (ص:٢٦٤).

وقد أعدت النظر في الكتاب مرة أخرى، ورأيت أن أضيف إليه فوائد قيمة، وصححت ما أمكن إصلاحه، في زمان قد ضرب الوباء فيه أصقاع الأرض، وعم البلاء، وكثر البغي والفساد، وتبدلت الأحوال، وشاع الخوف، وليس لها من دون الله كاشفة.

نسأل الله عَزَّوَجَلَّ صلاح الحال، والإخلاص في جميع الأقوال والأعمال، وأن يكشف الغمة، عن هذه الأمة، وأن يعيننا على ذكره وشكره وحسن عبادته.

ونعوذ به من زوال نعمته، وتحول عافيته، وجميع سخطه، ونعوذ به من مضلات الفتن والبدع والأهواء.

اللهم اسْتُرْ عوراتنا، وآمِنْ روعاتنا، واحفظنا من بين أيدينا، ومن خلفنا، وعن أيماننا، وعن شمائلنا، ومن فوقنا، ونعوذ بعظمتك أن نغتال من تحتنا. ونسأل الله عَزَّوَجَلَّ العفو والعافية في ديننا ودنيانا، وأهلينا وأموالنا، ونسأله جَلَّوَعَلَا موجبات رحمته، وعزائم مغفرته، والسَّلامةَ من كلِّ إثم، والغنيمة من كلِّ بِرٍّ، والفوز بالجنة، والنجاة من النار، ونسأله عيشة هنية، وميتة سوية، ومردًّا غير مخز ولا فاضح.

اللهم أحسن عاقبتنا في الأمور كلها، وأجرنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة.

اللهم اجعل خير أعمارنا آخرها، وخير أعمالنا خواتمها، وخير أيامنا يوم نلقاك.

اللهم اختم لنا بخاتمة السعادة، واجعلنا من الذين سبقت لهم منك الحسنى وزيادة.

د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان

الكويت حرسها الله تعالى

٢٤/شوال/١٤٤٠ هـ الموافق ٢٧/٦/٢٠١٩م

تمهيد

١ – التَّحذير من النار من خلال الآيات:

إن من أسباب العافية والهداية: امتثالُ ما أمَرَ الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ به، واجتناب ما نَهى الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عنه، واتقاء ما تُوعِّد عليه بالنَّار، في الكتاب وصحيح الأحاديث والأخبار، وقد جاءت الآيات مُحَذِّرَةً من النَّار، وآمرةً باتقائها.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:١٣١]. وقد دلت الآية على أن المؤمن الذي يتقي النَّار بفعل المأمور واجتناب المحظور لا يُعذَّب بها.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا حال أهل النَّار، آمرًا العباد باتقائها: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ يَا عِبَادِ فَاتَّقُونِ﴾ [الزمر:١٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَمَنْ حَقَّ عَلَيْهِ كَلِمَةُ الْعَذَابِ أَفَأَنْتَ تُنْقِذُ مَنْ فِي النَّارِ ﴿١٩﴾ لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِنْ فَوْقِهَا غُرَفٌ مَبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَعْدَ اللَّهِ لَا يُخْلِفُ اللَّهُ الْمِيعَادَ﴾ [الزمر:١٩-٢٠].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الزمان لا يثبت على حال، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران:١٤٠]، فتارة فقر، وتارة غنى، وتارة عز، وتارة ذل، وتارة يفرح الموالي، وتارة يشمت الأعادي. فالسعيد من لازم أصلًا واحدًا على كل حال، وهو تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فإنه إن استغنى، زانته، وإن افتقر، فتحت له أبواب الصبر، وإن عوفي، تمت النعمة عليه، وإن ابتلي، جملته. ولا يضره إن نزل به الزمان أو صعد، أو أعراه، أو أشبعه، أو أجاعه؛ لأن جميع تلك الأشياء تزول وتتغير، والتقوى أصل السلامة، حارس لا ينام، يأخذ باليد عند العثرة، ويواقف على الحدود. والمنكر من غرته لذة حصلت مع عدم التقوى، فإنها ستحول، وتخليه خاسرًا.

ولازم التقوى في كل حال، فإنك لا ترى في الضيق إلا السعة، وفي المرض إلا العافية، هذا نقدها العاجل، والآجل معلوم"(١).

وقد أخرج الحاكم عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾، قال: ((**علموا أنفسكم وأهليكم الخير**))(٢)، وقد دلَّ على أن العبدَ يبدأ بإصلاح نفسه، ثم الأقرب فالأقرب.

قال القشيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا﴾: "أي: فقِّهوهم، وأدِّبوهم، وادعوهم إلى طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وامنعوهم عن استحقاق العقوبة بإرشادهم وتعليمهم. ودلت الآية: على وجوب الأمر بالمعروف في الدين للأقرب فالأقرب.

---

(١) صيد الخاطر (ص:١٣٧).

(٢) أخرجه الحاكم في (المستدرك) وقال: "هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي. قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الفتح) (٦٥٩/٨): "رواته ثقات". وأخرجه كذلك البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٣٣١].

وقيل: أظهروا من أنفسكم العبادات؛ ليتعلَّموا منكم، ويعتادوا كعادتكم. ويقال: دلُّوهم على السُّنَّة والجماعة. ويقال: علِّموهم الأخلاق الحسان. ويقال: مروهم بقبول النصيحة"(١).

وفي معنى هذه الآية قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**))(٢).

قال الفقهاء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينًا لهم على العبادة؛ لكي يبلغوا وهم مستمرون على العبادة والطاعة، ومجانبة المعصية وترك المنكر (٣).

والصيام يعزز شعور المراقبة فهو جُنَّة ووجاء. وقل مثل ذلك في سائر العبادات والتكاليف؛ فإن لها مقاصد سامية ترتقي بالمكلف، وتصلح أحواله.

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فواجبٌ على كلِّ مسلم أن يعلِّمَ أهله ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، وينهاهم عما لا يحلُّ لهم"(٤).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ محذرًا مِن النَّار مَنْ خالف أمره فسلكَ طريق الشَّقاء، ومبينًا للعباد أن التقوى هي سبيلُ النَّجاة من النَّار: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل:١٤]، أي: تتلظى وتتوهج. ﴿لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى﴾ [الليل:١٥]، أي: لا يعذب بها إلا الأشقى، وهو: ﴿الَّذِى كَذَّبَ وَتَوَلَّى﴾ [الليل:١٦]، يعني: كفر. ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾﴾ [الليل:١٧-١٨]، أي: إن الأتقى هو يعطى الزكاة المفروضة، ويتطهر من الذنوب.

---

(١) لطائف الإشارات (٣/٦٠٧).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٨٢]، وأحمد [٦٦٨٩]، وأبو داود [٤٩٥]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق [٤٥٧]، والدارقطني [٨٨٧]، والحاكم [٧٠٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٠/٢٦)، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٣٢٣٣]، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (رياض الصالحين) (ص:١٢٦): "رواه أبو داود بإسناد حسن".

(٣) انظر: تفسير ابن كثير (٨/١٨٩).

(٤) الاستذكار (٣/٧٢).

قال الإمام مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قرأ عمر بن عبد العزيز رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في الصلاة، فلما بلغ: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾، خنقته العَبْرة فسكت، ثم قرأ فنابه ذلك، ثم قرأ فنابه ذلك، فتركها وقرأ: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ﴾ [الطارق:١][(١)]. وآيات التحذير من أعمال أهل النار كثيرة ستأتي ضمن مباحث الكتاب.

٢ – أحاديث في التَّحذير من النَّار:

جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**نَارُكُمْ جُزْءٌ من سَبْعِينَ جُزْءًا من نار جَهَنَّم**))، قيل يا رسول الله: إن كانت لكافية[(٢)]، قال: ((**فُضِّلَتْ عليها بِتِسْعَة وسِتِّين جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا**))[(٣)].

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣٤٤/٢). البيان والتحصيل (٥٧٠/١٧).

(٢) (إن) هي المخففة من المثقلة عند البصريين، وهذه اللام هي الفارقة بين (إن) النافية والمخففة من الثقيلة، وهي عند الكوفيين بمعنى: (ما)، واللام بمعنى: (إلا)، تقديره عندهم: ما كانت إلا كافية. وعند البصريين: إنها كانت كافية. والمعنى: إن هذه النار التي نراها في الدنيا كانت كافية في العقبى لاحتراق الكفار وعقوبة الفجار، فهلا اكتفي بها، ولأي شيء زيدت في حرها؟ وحاصل الجواب أنه لا بد من أن تفضل لحكمة كون عذاب الله عَزَّوَجَلَّ أشد من عذاب الناس؛ ولذلك أوثر ذكر النار على سائر أصناف العذاب في كثير من كتب السنة، منها: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة:١٧٥]، وقوله: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة:٢٤]. وإنما أظهر الله عَزَّوَجَلَّ هذا الجزء من النار في الدنيا أنموذجا لما في تلك الدار. قال الإمام الغزالي عليه رحمة الباري في (الإحياء): اعلم أنك أخطأت في القياس؛ فإن نار الدنيا لا تناسب نار جهنم، ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار، عرف عذاب جهنم بها، وهيهات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لخاضوها هربًا مما هم فيه. انظر: مرقاة المفاتيح (٣٦١٢/٥-٣٦١٣)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٨٧/٧)، الكواكب الدراري (١٩٤/١٣)، إحياء علوم الدين (٥٣١/٤).

(٣) صحيح البخاري [٣٢٦٥]، مسلم [٢٨٤٣].

وعن سِمَاك بن حَرْبٍ قال: سمعتُ النُّعْمَانَ بن بشيرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا يقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُب يقول: ((**أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ، أَنْذَرْتُكُمُ النَّارَ**))، حتى لو أَنَّ رَجُلًا كان بالسُّوق لَسَمِعَه من مَقامي هذا حتى وقعت خَمِيصَة كانت على عاتقه عند رِجْلَيْه(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ سمع وَجْبَة(٢)، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**تَدْرُونَ ما هذا؟**)) قال: قلنا: الله ورسوله أعلم، قال: ((**هذا حَجَرٌ رُمِيَ به في النَّار منذُ سبعينَ خريفًا، فهو يَهْوِي في النَّارِ الآن، حتى انتهى إلى قَعْرِهَا**))(٣).

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إنَّ أَهْوَنَ أهْلِ النَّار عذابًا يوم القيامة لَرَجُلٌ تُوضَعُ في أَخْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَةٌ، يَغْلِي منها دِمَاغُهُ**))(٤). وفي رواية: ((**إنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّار عَذَابًا يوم القيامة رَجُلٌ على أَخْمَص قدميه جَمْرَتَان يَغْلِي منهما دماغُهُ كما يغْلي المِرْجَلُ والقُمْقُم**))(٥).

(١) أخرجه الطيالسي [٧٩٢]، وأحمد [١٨٣٩٨]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٨٧/٢): "رواه أحمد رجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: الدارمي [٢٨٥٤]، والبزار [٣٢١٤]، والحاكم [١٠٥٨]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي.

(٢) ((وجبة)) -بفتح الواو وإسكان الجيم-: السقطة من علو إلى سفل بصوت قوي مزعج. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٩/١٧)، كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/ ٥٧٦).

(٣) صحيح مسلم [٢٨٤٤].

(٤) صحيح البخاري [٦٥٦١]، مسلم [٢١٣]. و((أخمص قدميه)): تجويف القدم الذي لا يصيب الأرض عند المشي.

(٥) صحيح البخاري [٦٥٦٢]. و((المرجل)) -بكسر الميم وفتح الجيم-، وهو قدر معروف سواء كان من حديد أو نحاس أو حجارة أو خزف هذا هو الأصح. وقيل: هو القدر من النحاس، يعني: خاصة، والأول أعرف، والميم فيه زائدة. يقال: ارتجل الرجلُ: طبخ في المِرْجَل. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٨٦/٣)، المحكم والمحيط الأعظم (٣٨٤/٧)، و((القمقم)): إناء ضيق الرأس يسخن فيه الماء يكون من نحاس وغيره.

وقد دلَّ هذا الحديث على شدة نار جهنم؛ لأنه إذا كان أخفها تغلي له الرؤوس، وتفور منه الأدمغة، فما بالك بما زاد على ذلك؟! كما دلَّ على أنَّ أهلَ النَّار يتفاوتون في العذاب فبعضهم أهون من بعض(١).

وقد دلَّ على هذا التفاوت أيضًا: ما جاء عن سمرة بن جندب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه سمع نبي الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **((إنَّ منهم من تَأْخُذُهُ النَّار إلى كَعْبَيْه، ومنهم من تَأْخُذُهُ إلى حُجْزَتِه، ومنهم من تَأْخُذُهُ إلى عُنُقِه))**(٢)، وفي رواية: **((إلى تَرْقُوَتِه))**(٣).

ومن التَّحذير من النَّار ما وردَ في كثيرٍ من الأحاديث من بيانِ صفةِ جهنَّم وسعتها وجبالها وأوديتها ومقامعها وسلاسلها وأغلالها وشرابها، وما فيها من ألوان العذاب(٤).

---

(١) انظر: منار القاري (٣٠٤/٥)، شرح النووي على صحيح مسلم (٨٦/٣).

(٢) صحيح مسلم (٣٢) [٢٨٤٥].

(٣) صحيح مسلم (٣٣) [٢٨٤٥]. و(الحجزَة): -بضم الحاء المهملة وإسكان الجيم وبالزاي-: معقد الإزار تحت السُّرَّة. و(التَّرْقُوَة) -بفتح التاء وضم القاف- هي العظم الذي عند ثُغْرَة النَّحر. وللإنسان تَرْقُوَتَان في جانبي النَّحر.

(٤) وقد أُفردت بالبحث قديمًا وحديثًا، فقد أفردها بالبحث ابنُ أبي الدنيا رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى سنة [٢٨١هـ] في كتابه: (صفة النار)، والحافظ عبد الغني بن عبد الواحد المقدسي الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى سنة [٦٠٠هـ] في كتابه: (ذكر النار)، والحافظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى سنة [٧٩٥هـ] في كتابه: (التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار). ومنهم من ذكرها ضمن أحوال الآخرة، كالإمام القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المتوفى سنة [٦٧١هـ] في (التذكرة)، ومنهم من ذكر ضمن مباحث مختلفة كـ(إحياء علوم الدين)، للإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، المتوفى سنة [٥٠٥هـ]، وغيرهم. ومن المعاصرين الدكتور عمر بن سليمان بن عبد الله الأشقر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في كتابه: (الجنة والنار) وغيره.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم: أن صفة جهنم تطول، وأيسر اليسير من ذلك ينبغي أن يكفي في التخويف، فإن كنت مؤمنًا بهذا فانتبه لنفسك، وخف ما بين يديك؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ لا يجمع على عبد خوفين[1]، ولسنا نعني بالخوف: رقَّة النساء، فتبكي ساعة ثم تترك العمل، وإنما نريد خوفًا يمنع عن المعاصي، ويحثُّ على الطاعة، فأما خوف الحمقى الذين اقتصروا على سماع الأهوال، وأن يقولوا: استعنا بالله، نعوذ بالله، يا رب سلم، وهم مع ذلك مصرون على القبائح، فالشيطان يسخر بهم كما يسخر ممن قصده سبع ضار، وهو إلى جانب حصن فيقول: أعوذ بالله من هذا، وهو لا يدخل الحصن، ولا يبرح مكانه"[2].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس الخائف من بكى وعصر عينيه، وإنما الخائف من ترك ما اشتهى من الحرام إذا قدر عليه"[3].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم أن صفة جهنم تطول، وأيسر اليسير من ذلك ينبغي أن يكفي في التخويف، فالمسكين من آثر لذة منقطعة، فاشترى بها عذابًا شديدًا دائمًا"[4].

٣ – بين الوعد والوعيد:

إن كل ذنب قرن به وعيد أو حد أو لعن فهو من الكبائر[5].

وما وعد الله عَزَّوَجَلَّ به المؤمنين الصَّالحين من النَّعيم في الآخرة فإنَّه حقٌّ وواقع.

---

(١) سيأتي حديث: ((وعزتي لا أجمع على عبدي خوفين..)).

(٢) مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة (ص:٤٠٣)، وانظر: إحياء علوم الدين (٤/٥٢٥ –٥٢٦).

(٣) رسائل ابن رجب (١/١٦٣).

(٤) منهاج القاصدين ومفيد الصادقين، لابن الجوزي (ص:١٠٩٠).

(٥) انظر: قواعد الأحكام في مصالح الأنام (١/٢٤).

ووعيد الله عَزَّوَجَلَّ للكافرين واقع كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّهُمْ أَصْحَابُ النَّارِ﴾ [غافر:٦].

أما وعيد الله عَزَّوَجَلَّ للعصاة من المؤمنين فلا يعني أنه من الموجبات له؛ لأنَّ الله عَزَّوَجَلَّ لا يخلف وعده للمؤمنين بحسن العقبى، ولكن المسامحة قد تقع في وعيد العصاة -كما سيأتي-.

ومن سلك نهج الأبرار كان حريصًا على اجتناب ما توعِّد عليه بالنَّار، وعلى الاجتهاد في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، المحسن إلى عباده، والمحب لأهل طاعته؛ ليلقى الله عَزَّوَجَلَّ لقاء المحبين، فيحظى بالدرجات العلى من القرب من المحبوب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والوعد يستعمل في الخير والشر، قال الفراء رَحِمَهُ ٱللَّهُ: يقال وعدته خيرًا، وعدته شرًّا، فإذا أسقطوا الخير والشَّرَّ قالوا في الخير: الْوَعْدُ والْعِدَةُ، وفي الشَّرِّ: الإيعاد، والوعيد(١).

ويقال: وعدته خيرًا أو شرًّا، فإذا قلت: وعدته لم يكن إلا للخير، وإذا قلت: أوعدته لم يكن إلا للشر(٢).

وقد قيل في (التفسير): يجوز أن يُحْمَل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ [آل عمران:٩] هذا على ميعاد الأولياء، دون وعيد الأعداء؛ لأنَّ خُلْفَ الوعيد كرمٌ عند العرب؛ لأنهم يمدحون بذلك.

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (وعد) (٢/٥٥١)، وانظر: المحكم والمحيط الأعظم (٢/٣٢٨)، المخصص (٣/٤١٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٢٠٦)، المفردات في غريب القرآن، للراغب (ص:٨٧٥).

(٢) معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٣/٥٣)، كتاب الأفعال، لابن القطاع (٣/٢٩٦).

ولا يلزم من أنه جَلَّوَعَلَا لا يخلف الوعد: القطع بوعيد الفساق -كما زعم المعتزلة-؛ لأن كل ما ورد في وعيد الفساق فهو عندنا مشروط بشرط عدم العفو، كما أنه بالاتفاق مشروط بشرط عدم التوبة بدليل منفصل(1).

قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الله تعالى يجوز أن يخلف الوعيد، وإن كان لا يجوز أن يخلف الوعد، بهذا وردت السنة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(2).

وقال -أعني: الواحدي-: "أخبرنا أبو بكر أحمد بن محمد الأصبهاني، أخبرنا عبد الله بن محمد الأصبهاني، حدثنا زكريا بن يحيى الساجي، وأبو حفص السلمي، وأبو يعلى الموصلي، قالوا: حدثنا هدبة بن خالد، حدثنا سهيل بن أبي حزم، حدثنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((من وعده الله على عمله ثَوَابًا فهو مُنْجِزُهُ له، ومن أوعده على عمله عِقَابًا فهو بالخيار))**(3).

---

(1) انظر: مفاتيح الغيب (١٥١/٧)، غرائب القرآن (١١١/٢)، البحر المحيط في التفسير (٣٤/٣)، السراج المنير، للخطيب الشربيني (١٩٨/١)، ابن عادل (٥/ ٤٨)، تفسير السَّمعاني (٤٦٥/١).

(2) انظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١٠٠/٢).

(3) الوسيط (١٠٠/٢)، والحديث أخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (السنة) [٩٦٠]، والبزار [٦٨٨٢]، وأبو يعلى [٣٣١٦]،، والخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٢٠٥]، والطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [٤٠٦٢]، والطبراني في (الأوسط) [٨٥١٦]، والكلاباذي في (بحر الفوائد) (ص:٢٣٦)، وابن بطة في (الإبانة [١٩٦٧]، وقد ضعف. انظر: كنز العمال [١٠٤١٦]. قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢١١/١٠): "رواه أبو يعلى، والطبراني في (الأوسط)، وفيه سهيل بن أبي حزم، وقد وثق على ضعفه، وبقية رجاله رجال الصحيح". قال البزار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سهيل، لا يتابع على حديثه". كشف الأستار عن زوائد البزار (٧٥/٤)، المطالب العالية (٥٦٦/١٢). قال في (الصحيحة) [٢٤٦٣]: "والحديث مع ضعف سنده فهو ثابت المتن عندي؛ فإن شطره الأول يشهد له آيات كثيرة في القرآن الكريم كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَا يُخْلِفُ اللَّهُ وَعْدَهُ﴾ [الروم:٦]، وقوله: ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَنْ سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾ [الأحقاف:١٦]. وأما الشطر الآخر، فيشهد له حديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا بلفظ: ((...ومن عبد الله ...وسمع وعصى، فإن الله تعالى من أمره بالخيار، إن شاء رحمه، وإن شاء عذبه)). أخرجه أحمد وغيره بسند حسن. وله طرق أخرى في (الصحيحين) وغيرهما بنحوه".

وقال -أعني: الواحدي-: أخبرنا أبو بكر، أخبرنا عبد الله، أخبرنا محمد بن حمزة، حدثنا أحمد بن الخليل، حدثنا الأصمعي، قال: جاء عمرو بن عبيد إلى أبي عمرو بن العلاء، فقال: يا أبا عمرو، يخلف الله ما وعد؟ قال: لا.

قال: قال: أفرأيت مَن أوعده الله على عمل عقابا، أيخلف الله وعده فيه؟ فقال أبو عمرو بن العلاء من العجمة: أتيت يا أبا عثمان؟ إن الوعد غير الوعيد، إن العرب لا تعد عارًا ولا خلفًا أن تعد شرًّا ثم لا تفعله، ترى ذلك كرمًا وفضلًا، وإنما الخلف أن تعد خيرًا ثم لا تفعله.

قال: فأوجدني هذا في العرب. قال: أما سمعت قول الأول:

وإني وإن أوعدته أو وعدته لمخلف ايعادي ومنجز موعدي(١)

والذي ذكره أبو عمرو بن العلاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ مذهب الكرام، ويستحسن عند كل أحد خلف الوعيد كما قال السري الموصلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

إذا وعد السـر أنجز وعده وإن أوعد الشر فالعفو مانعه(٢)

---

(١) ديوان عامر بن الطفيل (ص:٥٨)، برواية أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، ط: دار صادر، بيروت [١٣٩٩هـ]، انظر: الكشف والبيان (٢/٢٧٠)، مفاتيح الغيب (٢/٢٩٩)، القرطبي (٤/٣١٨)، تفسير ابن كثير (٥/٤٣٩)، غرائب القرآن (٢/١١٢)، حاشية الشهاب على البيضاوي (٣/٧)، حاشية الطيبي على الكشاف (٥/١٢٠)، عيون الأخبار (٢/١٥٨)، بصائر ذوي التمييز (٥/٢٣٨) روح المعاني (٢/٨٩)، الكشكول (١/١٥٤)، حياة الحيوان الكبرى (١/٤٢٣)، نهاية الأرب في فنون الأدب (٦/٩٥)، شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري (١/٣٤٣)، ربيع الأبرار، للزمخشري (٢/٥٢)، الحور العين (ص:٢٠٣)، محاضرات الأدباء (١/٦٥٤)، البصائر والذخائر (١/١٧٧).

(٢) انظر: التذكرة الفخرية، للصاحب بهاء الدين الإربلي (ص:٣٢٢)، شرح ديوان المتنبي، لأبي البقاء العكبري (٢/٢١٢).

وأحسن يحيى بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الفصل حيث قال: الوعد والوعيد حق، فالوعد حق العباد على الله عَزَّوَجَلَّ، ضمن لهم إذا فعلوا كذا أن يعطيهم كذا، ومن أولى بالوفاء من الله عَزَّوَجَلَّ؟ والوعيد حقه على العباد، قال: لا تفعلوا كذا فأعذبكم، ففعلوا، فإن شاء عفا، وإن شاء أخذ؛ لأنه حقه، وأولاهما بربنا: الكرم والعفو، إنه غفور رحيم(١).

قال الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: واعلم أنَّ المعتزلة حكوا أنَّ أبا عمرو بن العلاء لما قال هذا الكلام قال له عمرو بن عبيد: يا أبا عمرو فهل يسمَّى الله عَزَّوَجَلَّ مكذِّب نفسه؟ فقال: لا، فقال عمرو بن عبيد: فقد سقطت حجَّتك، قالوا: فانقطع أبو عمرو بن العلاء.

قال الرَّازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وعندي أنَّه كان لأبي عمرو بن العلاء أن يجيب عن هذا السُّؤال فيقول: إنَّك قستَ الوعيد على الوعد، وأنا إنما ذكرت هذا لبيان الفرق بين البابين؛ وذلك لأنَّ الوعد حقٌّ عليه، والوعيد حقٌّ له، ومن أسقط حقَّ نفسه فقد أتى بالجود والكرم، ومن أسقط حقَّ غيره فذلك هو اللُّؤم، فظهر الفرق بين الوعد والوعيد، وبطل قياسك، وإنما ذكرت هذا الشعر لإيضاح هذا الفرق.

فأمَّا قولك: لو لم يفعل لصار كاذبًا ومكذِّبًا نفسه، فجوابه: أنَّ هذا إنما يلزم لو كان الوعيد ثابتًا جزمًا من غير شرط، وعندي جميع الوعيدات مشروطة بعدم العفو، فلا يلزم من تركه دخول الكذب في كلام الله عَزَّوَجَلَّ، فهذا ما يتعلَّق بهذه الحكاية -والله أعلم-"(٢). وقال: "إن الأخبار على سبيل الوعيد مما يفيد الزجر عن المعاصي والإقدام على الطاعات، فإذا حصل هذا المقصود جاز أن لا يوجد المخبر عنه كما في الوعيد، وعند هذا قالوا: إن وعد الله عَزَّوَجَلَّ بالثواب حق لازم، وأما توعده بالعقاب فغير لازم، وإنما قصد به صلاح المكلفين مع رحمته الشاملة لهم، كالوالد يهدد ولده بالقتل والسمل

(١) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/١٠٠-١٠١).

(٢) تفسير الرَّازي (٧/١٥٢)، وانظر: روح المعاني (٢/ ٨٨- ٨٩).

والقطع والضرب، فإن قبل الولد أمره فقد انتفع، وإن لم يفعل فما في قلب الوالد من الشفقة يرده عن قتله وعقوبته"(١).

وهذا مختص بالعصاة من المؤمنين دون الكفرة -كما سيأتي-، فهم -أي: العصاة- تحت مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، إن شاء عذبهم، وإن شاء عفا عنهم. ولا يفهم من ذلك: ارتفاع العذاب عن العصاة مطلقًا، ولكنه إن دل فإنما يدل على جواز العفو والمسامحة لعصاةٍ اللهُ عَزَّوَجَلَّ أعلمُ بأحوالهم، والمعاصي تتفاوت -كما هو معلوم-.

ولا يخفى أن الاسترسال في المعاصي مع الاتكال على الرحمة من من كبائر الذنوب المتوعد عليها بالعذاب، وهو أسباب الخلان. كما سيأتي بيانه في مبحث: (الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ).

وقد جاء في الحديث: ما يدل على ما تقرَّر من كون العصاة تحت مشيئة الله عَزَّوَجَلَّ، فمن ذلك: ما صحَّ عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**بايعوني على أن لا تشركوا بالله شيئًا، ولا تسرقوا، ولا تزنوا، ولا تقتلوا أولادكم، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم، ولا تعصوا في معروف، فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب فهو كفارة له، ومن أصاب منها شيئًا من ذلك فستره الله، فهو إلى الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له**))(٢).

وفي رواية: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**خمس صلوات كَتَبَهُنَّ الله على العباد، فمن جاء بِهِنَّ لم يُضَيِّعْ مِنْهُنَّ شيئًا**

(١) مفاتيح الغيب (٢/٢٩٩).

(٢) صحيح البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]، مسلم [١٧٠٩].

استخفافًا بِحَقِّهِنَّ، كان له عند الله عهد أن يدخله الجنة، ومن لم يأت بِهِنَّ فليس له عند الله عهد، إن شاء عَذَّبَهُ، وإن شاء أدخله الجنة))(١).

وفي رواية: عن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من عبد الله لا يشرك به شيئا فأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وسمع وأطاع، فإن الله يدخله من أي أبواب الجنة شاء، ولها ثمانية أبواب، ومن عبد الله لا يشرك به شيئًا وأقام الصلاة، وآتى الزكاة، وسمع وعصى، فإن الله من أمره بالخيار إن شاء رحمه، وإن شاء عذبه**))(٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد ثبت أن الكافر يدخل النار لا محالة، فلا يجوز أن يقال فيه مثل هذا، فعلمنا أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قصد: من تركها وهو معتقد لوجوبها لا جاحدًا؛ لأن الجاحد يدخل النار لا محالة، ولا حجة لأحمد رَحِمَهُ اللَّهُ في إباءة إبليس من السجود وصار بذلك كافرا؛ لأنه عاند الله عَزَّ وَجَلَّ واستكبر، ورد على الله عَزَّ وَجَلَّ أمره، فجاهر بالمعصية لله عَزَّ وَجَلَّ، فهو أشد من الجاحد أو مثله؛ لأنه جحدها واستيقنتها نفسه"(٣).

---

(١) أخرجه مالك [٤٠٠]، وعبد الرزاق [٤٥٧٥]، والحميدي [٣٩٢]، وابن الجعد [١٥٧١]، وابن أبي شيبة [٦٨٥٢]، وأحمد [٢٢٦٩٣]، والدارمي [١٦١٨]، وابن ماجه [١٤٠١]، وأبو داود [١٤٢٠]، ومحمد بن نصر في (تعظيم قدر الصلاة) [١٠٢٩]، والنسائي [٤٦١]، وابن حبان [٢٤١٧]، والطبراني في (الشاميين) [٣٥]، والبيهقي [٢٢٢٦]، والضياء [٤٤٩]، قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ في (التمهيد ٢٣/٢٨٨): "حديث صحيح ثابت". وقال العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أخرجه أبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حبان من حديث: عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصححه ابن عبد البر". المغني عن حمل الأسفار (ص:١٧٣). وقال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في (الفتح) (١٢/٢٠٣): "أخرجه مالك وأصحاب السنن، وصححه ابن حبان وابن السكن وغيرهما".

(٢) أخرجه أحمد [٢٢٧٦٨]، وابن أبي عاصم في (السنة) [٩٦٨]، والبزار [٢٧٠٤]، والطبراني في (الشاميين) [١٦١١]، وابن عساكر (٦٦/٢٢٥). قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٥/٢١٦): "رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد ثقات".

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/ ٥٧٨- ٥٧٩).

وقيل: "شبه وعد الله عَزَّوَجَلَّ بإثابته المؤمنين علي أعمالهم بالعهد الموثوق به، الذي لا يخلف، ووكل أمر التارك إلي مشيئته تجويزًا لعفوه، وأنه لا يجب على الله عَزَّوَجَلَّ شيء، ومن ديدن الكرام: محافظة الوعد، والمسامحة في الوعيد"(١).

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ما أوعد الله عَزَّوَجَلَّ به الكفار لا يصح أن يخلفه بحال؛ لأن ادعاء جواز إخلافه؛ لأنه إيعاد، وأن العرب تعد الرجوع عن الإيعاد كرمًا يبطله أمران:

الأول: أنه يلزمه جواز ألا يدخل النار كافر أصلًا؛ لأن إيعادهم بإدخالهم النار مما زعموا أن الرجوع عنه كرم، وهذا لا شك في بطلانه.

الثاني: ما ذكرنا من الآيات الدالة: على أن الله عَزَّوَجَلَّ لا يخلف ما أوعد به الكفار من العذاب، كقوله: ﴿قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ۝٢٨ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ﴾ الآية [ق:٢٨-٢٩]، وقوله تعالى فيهم: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق:١٤]، وقوله فيهم: ﴿فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:١٤]. ومعنى حق: وجب وثبت، فلا وجه لانتفائه بحال"(٢).

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [ق:١٤]، هذه الآية الكريمة تدل على أن من كذب الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ يحق عليه العذاب، أي: يتحتم ويثبت في حقه ثبوتًا لا يصح معه تخلفه عنه. وهو دليل واضح على أن ما قاله بعض أهل العلم من أن الله عَزَّوَجَلَّ يصح أن يخلف وعيده؛ لأنه قال: إنه لا يخلف وعده، ولم يقل: إنه لا يخلف وعيده، وأن إخلاف الوعيد حسن لا قبيح، وإنما القبيح هو إخلاف الوعد، وأن الشاعر قال:

وإني وإن أوعدته أو وعدته ... لمخلف إيعادي ومنجز موعدي

يمدح نفسه بأنه يخلف الوعيد، لكنه ينجز الوعد. ولكن لا يصح الإطلاق؛ لذلك يقول الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا يصح -أي: الإطلاق- بحال؛ لأن وعيده جَلَّ وَعَلَا للكفار

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٣/٨٦٩)، وانظر: فيض القدير (٣/٤٥٢).

(٢) أضواء البيان (٥/٢٧٧).

حق ووجب عليهم بتكذيبهم للرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ كما دل عليه قوله هنا: ﴿كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾.

وقد تقرر في الأصول أن الفاء من حروف العلة، كقوله: سها فسجد، أي: لعلة سهوه، وسرق فقطعت يده، أي: لعلة سرقته، ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، فتكذيبهم الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ علة صحيحة؛ لكون الوعيد بالعذاب حق ووجب عليهم، فدعوى جواز تخلفه باطلة بلا شك، وما دلت عليه هذه الآية الكريمة جاء موضحًا في آيات أخر، كقوله عَزَّوَجَلَّ في هذه السورة الكريمة: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة:٣٨]، والتحقيق: أن المراد بالقول الذي لا يبدل لديه هو الوعيد الذي قدم به إليهم.

وقوله جَلَّ وَعَلَا في سورة: (ص): ﴿إِنْ كُلٌّ إِلَّا كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [ص:١٤]، وبهذا تعلم أن الوعيد الذي لا يمتنع إخلافه هو وعيد عصاة المسلمين بتعذيبهم على كبائر الذنوب؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ أوضح ذلك في قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، وهذا في الحقيقة تجاوز من الله عَزَّوَجَلَّ عن ذنوب عباده المؤمنين العاصين، ولا إشكال في ذلك، وقد أوضحنا هذا في كتابنا: (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب) في سورة: (الأنعام) في الكلام على قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ [الأنعام:١٢٨]"[1].

فمن أراد التوفيق والهداية فينبغي يجمع بين الخوف والرجاء، فهما الجناحان اللذان يرتقي بهما السالك إلى سُدَّة النجاة، ولا ينفعُ واحدٌ منهما دون الآخر، بل هما صِنوان، وبمثابةِ كفتي الميزان.

---

(١) أضواء البيان (٧/٤٢٥) وانظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص:٩٤-٩٧).

فمن الاغترار: التمادي في الذنوب مع رجاءِ العفو، وتوقُّع القرب من الله عَزَّوَجَلَّ بغير طاعة، وانتظارُ زرع الجنة بِبَذْر النار. فلا بدَّ من تحقيق التَّكافؤ والتَّوازن بين الخوف والرَّجاء؛ حتى تستقيم حياة المؤمن في الدُّنيا، ويفوز بالنَّعيم في الآخرة.

فلا يغلِّبُ العبدُ جانبَ الرجاء؛ لئلا يفضي به ذلك إلى الأمنِ من مكرِ الله؛ فيكونَ من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]. ولا يغلِّبُ جانبَ الخوف؛ لئلا يفضي به إلى اليأسِ من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ؛ فيكونَ من الذين قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]. ومن الذين قال الله جَلَّوَعَلَا فيهم: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. قال الحسن رَحِمَهُٱللَّهُ: إنَّ قومًا ألهتهُمُ الأمانيُّ حتى خرجوا من الدنيا بغيرِ توبة، يقول أحدهم: إني لأحسنُ الظنَّ بربي، وكَذَبَ لو أحسنَ الظنَّ لأحسن العمل(١). وكان قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ يقول: اللهم اجعلنا ممن يخاف وعيدك، ويرجو موعودك، يا بَارُّ، يا رحيم(٢). وسيأتي بيان ذلك مفصلًا.

---

(١) انظر: كشف المشكل، لابن الجوزي (٣/ ٣٢٣)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (ص:١٢٨)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص:٢٨).

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٤١٢/٧)، النكت والعيون (٣٥٩/٥)، تفسير القرطبي (٢٩/١٧).

المبحث الأول
الكفر بالله جَلَّ وَعَلَا

أولًا: تعريف الكفر وبيان أنواعه:

١ - الكفر لغة: مأخوذ من الستر والتغطية. وأصل الكفر: الستر والتغطية، ومنه الكافر؛ لأنه يستر الحق ويجحده، والزارع كافر؛ لأنه يستر الحب، والليل المظلم كافر؛ لأنه بظلمته يستر كل شيء(١).

ويأتي الكفر بمعنى البراءة، كقوله جَلَّ وَعَلَا -حكاية عن الشيطان-: ﴿إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ﴾ [إبراهيم:٢٢]، أي: تبرأت(٢).

٢ - الكفر في الاصطلاح:

إن الكفر في الاصطلاح الشرعي يأتي في مقابل الإيمان، وبمعنى: جحود النعمة، أو في مقابل الشكر. قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الصحاح): "الكفر: ضد الإيمان. وقد كفر بالله كفرًا. وجمع الكافر: كُفَّار وكَفَرَة وكِفارٌ أيضًا، مثل: جائع وجياع، ونائم نيام. وجمع

(١) انظر: تفسير النيسابوري (غرائب القرآن) (١/١٥١)، المفردات، للراغب، مادة: (كفر) (ص:٧١٤)، تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/٧٢).

(٢) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري، مادة: (كفر) (١٠/١١١)، تفسير مقاتل بن سليمان (١/٥١٦)، (٢/٤٠٣)، تفسير البيضاوي (٣/١٩٧)، تفسير أبي السعود (٥/٤٣).

الكافِرَة: الكَوافِرُ. والكفر أيضا: جحود النعمة، وهو ضد الشكر. وقد كفره كفورًا وكفرانًا"[١].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والكافر على الإطلاق متعارف فيمن يجحد الوحدانية، أو النبوة، أو الشريعة، أو ثلاثتها، وقد يقال: كفر لمن أخل بالشريعة، وترك ما لزمه من شكر الله عَزَّوَجَلَّ عليه"[٢].

وقال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكفر في الشريعة: جحد الربوبية، وجحد نبوة نبي من الأنبياء صحت نبوته في القرآن، أو جحد شيء مما أتى به رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مما صح عند جاحده بنقل الكافة، أو عمل شيء قام البرهان بأن العمل به كفر"[٣].

وقيل: "من جحد ما يعلم من دين الإسلام ضرورة[٤] حكم بردته وكفره، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه، فيعرف ذلك، فإن استمر حكم بكفره، وكذا حكم من استحل الزنى أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يعلم تحريمها ضرورة"[٥].

وقد اتفق الفقهاء على أنه من استخف بالقرآن، أو بالمصحف، أو بشيء منه، أو جحد حرفًا منه، أو كذب بشيء مما صرح به من حكم أو خبر، أو شك في شيء من ذلك، أو حاول إهانته بفعل معين، مثل إلقائه في القاذورات كفر بهذا الفعل[٦].

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (كفر) (٨٠٧/٢).

(٢) المفردات، للراغب، مادة: (كفر) (ص:٧١٤-٧١٥).

(٣) الفصل في الملل والأهواء والنحل (١١٨/٣)، وانظر: فتاوى السبكي (٥٨٦/٢).

(٤) كالصلاة وما أشبه ذلك مما يخرج من الدين.

(٥) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٥٠/١).

(٦) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٥١/٣)، جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٣٢٧/١)، المواقف، لعضد الدين الإيجي (٥٤٥/٣- ٥٤٧)، إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام، لابن دقيق العيد (٢٧٤/٢)، المحصول، للرازي (٣٨/٤)، إرشاد الفحول، للشوكاني (١٩٩/١).

قال القرافي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أصل الكفر: الجهل بالربوبية، وأصل الكبائر: الجرأة على مخالفة أمر الله تعالى بفعل ما نهى عنه وعظمت مفسدته؛ لاستيلاء الشهوة عليه، فما كان من المعاصي مقتضيًا الجهل بالربوبية نصًّا من نحو الشرك بالله تعالى، وجحد ما علم من الدين بالضرورة، كجحد وجوب الصلاة ونحوهما، ونحو: إلقاء المصحف في القاذورات، وجحد البعث، أو النبوات، أو وصفه جَلَّ وَعَلَا بكونه لا يعلم أو لا يريد أو ليس بحي ونحوه، فهو الكفر المتفق عليه"(١).

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن جحد الله عَزَّوَجَلَّ أو جعل له شريكًا، أو صاحبة، أو ولدًا، أو كذب الله عَزَّوَجَلَّ، أو سبه، أو كذب رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أو سبه، أو جحد نبيًّا، أو جحد كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، أو شيئًا منه، أو جحد أحد أركان الإسلام، أو أحلَّ محرمًا ظهر الإجماع على تحريمه، فقد ارتدَّ إلا أن يكون ممن تخفى عليه الواجبات والمحرمات فيعرف ذلك، فإن لم يقبل كفر"(٢).

والحاصل أن الكفر اسم يقع على ضروب من الذنوب، منها: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ومنها: الجحد للنبوة، ومنها: استحلال ما حرم الله جَلَّ وَعَلَا، ومنها: إنكار ما علم من الدين بالضرورة.

أما بيان وجه الصلة بين المعنى اللغوي والاصطلاحي فقد قال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنما سمي كافرًا؛ لأنه ستر بكفره الإيمان"(٣).

(١) الفروق، للقرافي (١/ ١٣٦).

(٢) عمدة الفقه (ص:١٣٩)، وانظر: العدة شرح العمدة (ص:٦١٧).

(٣) معاني القرآن وإعرابه (٢/٢٠٣).

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ويقال: سمي الكافر كافرًا؛ لستره نعمة الله عليه، أو لستره على نفسه شواهد ربوبية الله عَزَّوَجَلَّ، ودلائل توحيده"(١).

٣ - أوجه ورود الكفر في القرآن الكريم:

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذكر أهل التفسير أن الكفر في القرآن على خمسة أوجه:

أحدها: الكفر بالتوحيد: ومنه قوله جَلَّوَعَلَا في [البقرة:٦]: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ﴾، وفي [الحج:٢٥]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾، وهو الأعم في القرآن.

والثاني: كفران النعمة: ومنه قوله جَلَّوَعَلَا في [البقرة:١٥٢]: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾، وفي [الشعراء:١٩]: ﴿وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنْتَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾، وفي [النمل:٤٠]: ﴿أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾.

والثالث: التبري: ومنه قوله جَلَّوَعَلَا في [العنكبوت:٢٥]: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ﴾، أي: يتبرأ بعضكم من بعض. وفي [الممتحنة:٤]: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ﴾.

والرابع: الجحود: ومنه قوله جَلَّوَعَلَا في [البقرة:٨٩]: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾.

والخامس: التغطية: ومنه قوله جَلَّوَعَلَا في [الحديد:٢٠]: ﴿أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ﴾، يريد الزراع الذين يغطون الحب"(٢).

(١) معالم السنن (٤/ ٣١٦).

(٢) نزهة الأعين النواظر (ص:٥١٦- ٥١٧).

ثانيًا: التحذير من الكفر الأكبر، وبيان أنواعه:

١ – التحذير من الكفر الأكبر المتوعد عليه بالنار:

إنَّ الكفر المتوعد عليه بالخلود بالنَّار هو الكفر الأكبر المخرج عن الملة، وأما الكفر الأصغر فقد يكون من أسباب دخول النَّار، ولكن صاحبه يبقى داخلًا تحت المشيئة -كما سيأتي بيانه-.

و(الكفر الأكبر): أن يأتي المكلف بما يخرجه عن الإسلام من قول أو فعل أو اعتقاد. وهو الكفر المتوعد عليه بالخلود في النار، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان عاقبة الكافرين يوم القيامة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٣٩]. وقال: ﴿اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران:١١٦]، وقال: ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الرعد:٥]، وقال: ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ﴾ [الرعد:٣٥]، وقال: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ يَتَّخِذُوا عِبَادِي مِنْ دُونِي أَوْلِيَاءَ إِنَّا أَعْتَدْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ نُزُلًا﴾ [الكهف:١٠٢]، وقال: ﴿ذَلِكَ جَزَاؤُهُمْ جَهَنَّمُ بِمَا كَفَرُوا وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَرُسُلِي هُزُوًا﴾ [الكهف:١٠٦]، وقال: ﴿لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكُفُّونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ﴾ [الأنبياء:٣٩]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ﴾ [فاطر:٣٦]، وقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ

﴿٧١ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ٧٢﴾ [الزمر: ٧١-٧٢]..إلى غير ذلك من الآيات، وهي كثيرة.

وفي (تبيين المحارم): "الكفر هو أكبر الكبائر على الإطلاق، فلا كبيرة فوق الكفر، وإنما كان كذلك؛ لأنه يعدم المقصود الأصلي من خلق العالم. والمقصود من خلقه: معرفة ذات الله عَزَّوَجَلَّ وصفاته، وأسمائه، وأفعاله، وأحكامه، وكتبه، ورسله، والوسيلة المقرِّبَة إليه.

والكفرُ حجابٌ بين العبدِ وبين هذه المعارف، بخلاف سائر المعاصي.

والعبد بقدر جهله يبعد عن ربِّه عَزَّوَجَلَّ. وأعظم الجهل: الكفر بالله تعالى، ومن كفر فقد بعد من الله جَلَّوَعَلَا بعدًا أبديًّا"(١).

٢ - أنواع الكفر الأكبر:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أنواع (الكفر الأكبر): "وأما الكفر الأكبر، فخمسة أنواع(٢):

---

(١) انظر: تحقيقنا لكتاب: (تبيين المحارم)، لسنان الدين يوسف بن عبد الله الأماسي، الباب الأول: باب الكفر.

(٢) وقيل: الكفر على أربعة أنحاء: كفر إنكار، وكفر جحد، وكفر عناد، وكفر نفاق. فكفر الإنكار هو أن لا يعرف الله جَلَّوَعَلَا أصلًا، أو لا يعترف به، ولا يعرف ما يذكر له من التوحيد [يعني: أنه يكفر بقلبه ولسانه، فلا يعتقد الحق ولا يقر به]. وكفر الجحد: هو أن يعرف الله جَلَّوَعَلَا، ولكن يجحده، يعني: أن يعرف بقلبه ولا يقر بلسانه، ككفر إبليس. وكفر العناد: هو أن يعرف الله تعالى بقلبه، ويعترف بلسانه، ولكن لا يدين به. وأما كفر النفاق: أن يعترف باللسان ولا يعتقد بالقلب؛ فهذه أنواع الكفر؛ فمن لقي الله تعالى بنوع منها لم يغفر له. وقد أطلق الشارع الكفر على ما سوى الأربعة، وهو: كفران الحقوق والنعم. انظر: الكواكب الدراري، للكرماني (١/١٣٧)، تفسير السمعاني (١/٤٦)، تفسير البغوي (١/٨٦). وقال العيني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: و(الكفر المطلق) هو الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، وما دون ذلك يقرب منه، وتحقيق ذلك ما قاله الأزهري: الكفر بالله أنواع: إنكار، وجحود، وعناد، ونفاق. وهذه الأربعة من لقي الله عَزَّوَجَلَّ بواحد منها لم يغفر له. انظر ذلك مفصلًا في (عمدة القاري) (١/٢٠٠)، تهذيب اللغة، للأزهري، مادة: (كفر) (١٠/١١٠)، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (٤/١٨٥- ١٨٦).

الأول: **كفر الإباء والاستكبار**: نحو: كفر إبليس؛ فإنه لم يجحد أمر الله عَزَّوَجَلَّ، ولا قابله بالإنكار، وإنما تلقاه بالإباء والاستكبار، ومن هذا كفر من عرف صدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه جاء بالحق من عند الله عَزَّوَجَلَّ، ولم ينقد له إباء واستكبارًا(١).

الثاني: **كفر الإعراض**: أن يعرض بسمعه وقلبه عن الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لا يصدقه ولا يكذبه، ولا يواليه ولا يعاديه، ولا يصغي إلى ما جاء به البتة.

الثالث: **كفر الشك**: أنه لا يجزم بصدقه ولا يكذبه، بل يشك في أمره، وهذا لا يستمر شكه إلا إذا ألزم نفسه الإعراض عن النظر في آيات صدق الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جملة، فلا يسمعها ولا يلتفت إليها، وأما مع التفاته إليها، ونظره فيها فإنه لا يبقى معه شك؛ لأنها مستلزمة للصدق، ولا سيما بمجموعها؛ فإن دلالتها على الصدق كدلالة الشمس على النهار.

الرابع: **كفر النفاق**: أن يظهر بلسانه الإيمان، وينطوي بقلبه على التكذيب، فهذا هو النفاق الأكبر.

الخامس: **كفر الجحود**: وهو نوعان: كفر مطلق عام، وكفر مقيد خاص. فالمطلق: أن يجحد جملة ما أنزله الله عَزَّوَجَلَّ، وإرساله الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. والخاص المقيد: أن يجحد فرضًا من فروض الإسلام، أو تحريم محرم من محرماته، أو صفة وصف الله عَزَّوَجَلَّ بها نفسه، أو خبرًا أخبر الله عَزَّوَجَلَّ به، عمدًا، أو تقديمًا لقول من خالفه عليه؛ لغرض من الأغراض(٢).

---

(١) ككفر زعماء قريش الذين كانوا يقولون عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنه الصادق الأمين، وقالوا له: ما جرَّبنا عليك كذبًا.

(٢) انظر ذلك مفصلًا في (مدارج السالكين) (١/٣٤٦- ٣٤٨).

ثالثًا: التحذير من الكفر الأصغر، وبيان صوره:

١ – التحذير من الكفر الأصغر:

(الكفر الأصغر): وهو كل معصية ورد في الشرع تسميتها كفرًا، ولم تصل إلى حد الكفر الأكبر المخرج من الملة.

فكل معصية ورد في الشرع أنها كفر، أو أن فعلها من الكفر، ولم تصل إلى درجة الكفر الأكبر المخرج من الملة فهي (كفر أصغر)، وبعض أهل العلم يطلق عليه اسم: (كفر دون كفر)، وبعضهم يطلق عليه اسم: (كفر النعمة)، وهو تسمية له بمثال من أشهر أمثلته.

وحكم هذا الكفر: أنه محرم، وكبيرة من كبائر الذنوب؛ لأنه من أعمال الكفار التي حرمها الإسلام، ولكنه لا يخرج صاحبه من ملة الإسلام.

وللكفر الأصغر صور منها ما قد يكون سببًا في دخول النَّار -كما سيأتي-.

٢ – صور الكفر الأصغر:

الأولى: كفر النعمة والإحسان والحقوق:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة:١٥٢]، فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ هو من كفر النعمة(١).

---

(١) قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿تَكْفُرُونِ﴾ أي: نعمي وأيادي، وانحذفت نون الجماعة للجزم، وهذه نون المتكلم، وحذفت الياء التي بعدها تخفيفًا؛ لأنها رأس آية لتناسب الفواصل، ولو كان نهيًا عن الكفر ضد الإيمان لكان: ولا تكفروا، بغير النون". المحرر الوجيز (١/٢٢٦-٢٢٧). "أو ولا تكفروا بي". البحر المحيط، لأبي حيان (٢/٥٠).

جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أُرِيتُ النَّارَ فإذا أكثَرُ أهلها النِّساءُ، يَكْفُرْنَ**))، قيل: أَيَكْفُرْنَ بالله؟ قال: ((**يَكْفُرْنَ العشير، ويكفرن الإحسان، لو أحسنت إلى إِحْدَاهُنَّ الدَّهر، ثم رأت منك شيئًا، قالت: ما رأيت منك خيرًا قط**))(١). قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفيه جواز إطلاق الكفر على كفران الحقوق -وإن لم يكن ذلك الشخص كافرًا بالله عَزَّوَجَلَّ-"(٢).

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ في (شرحه): "إن الطاعات كما تسمى: إيمانًا كذلك المعاصي تسمى: كفرًا، لكن حيث يطلق عليها الكفر لا يراد الكفر المخرج من الملة.

وخص كفران العشير من بين أنواع الذنوب؛ لدقيقة بديعة، وهي قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لو أمرت أحدًا أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها**))(٣)، فقرن حق الزوج على الزوجة بحق الله جَلَّ وَعَلَا، فإذا كفرت المرأة حق زوجها -وقد بلغ من حقه عليها هذه الغاية- كان ذلك دليلًا على تهاونها بحق الله عَزَّوَجَلَّ، فلذلك يطلق عليها: الكفر، لكنه كفر لا يخرج عن الملة"(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٢٩، ١٠٥٢، ٥١٩٧]، مسلم [٩٠٧].

(٢) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٢١٣/٦).

(٣) الحديث أخرجه غير واحد، منهم: الترمذي [١١٥٩]، وحسنه عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قال العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:٤٩٨): "أخرجه الترمذي وابن حبان من حديث أبي هريرة، وكذلك رواه أبو داود من حديث قيس بن سعد، وابن ماجه من حديث عائشة، وابن حبان من حديث ابن أبي أوفى".

(٤) فتح الباري، لابن حجر (٨٣/١)، وانظر: عارضة الأحوذي، لابن العربي (٦١/١٠).

الثانية: قتال المسلم لأخيه المسلم:

قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**))[1].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا ترجعوا بعدي كفارًا، يضرب بعضكم رقاب بعض**))[2].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا محمول على من سبَّ مسلمًا أو قاتله من غير تأويل[3]، فقد قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في حاطب: دعني أضرب عنق هذا المنافق[4]، فلم ينكر عليه الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لتأويله"[5].

وقال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا ترجعوا بعدى كفارًا**)) لتحريم الدماء، وحقوق الإسلام، وحرمة المؤمنين، وليس يريد الكفر الذى هو ضد الإيمان؛ لما تقدم من إجماع أهل السنة أن المعاصي غير مخرجة من الإيمان"[6]، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى

(١) صحيح البخاري [٤٨، ٦٠٤٤، ٧٠٧٦]، مسلم [٦٤].

(٢) صحيح البخاري [١٢١، ١٧٣٩، ٤٤٠٣، ٤٤٠٥، ٦١٦٦، ٦٨٦٨، ٦٨٦٩، ٧٠٧٧، ٧٠٧٨، ٧٠٨٠]، مسلم [٦٥، ٦٦].

(٣) وعليه يحمل قوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار))، قيل يا رسول الله: هذا القاتل فما بال المقتول؟ قال: ((إنه كان حريصًا على قتل صاحبه)) صحيح البخاري [٣١، ٦٨٧٥، ٧٠٨٣]، مسلم [٢٨٨٨]. فإنه محمول على ما إذا كان القتال بينهما من غير تأويل سائغ. أما ما وقع بين بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقد كان عن تأويل سائغ القصد منه: إصلاح الدين والدنيا، فالمصيب منهم له أجران، والمخطئ له أجر. وهي مرحلة زمنية قد مضت، فينبغي للمسلم أن يعيش الحاضر، ويستفيد من دروس الماضي، وأن يعرف للصحابة قدرهم، ويقدر جهدهم في الإصلاح، وحرصهم على نشر الدين، وإصلاح أحوال الناس، ويتجنب الطعن أو إثارة الفتن بين المسلمين.

(٤) صحيح البخاري [٣٠٠٧، ٤٢٧٤].

(٥) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي (١/ ٢٩٩-٣٠٠).

(٦) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/٤٩٧).

فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الحجرات:٩].

وقال: "وليس معنى قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا ترجعوا بعدي كفارًا**)): النهي عن الكفر الذي هو ضد الإيمان بالله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وإنما المراد بالحديث: النهي عن كفر حق المسلم الذي أمر به النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من التناصر والتعاضد، والكفر فى لسان العرب: التغطية، وكذلك قوله: ((**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**))، يعني: قتاله كفر بحقه وترك موالاته؛ للإجماع على أن أهل المعاصي لا يكفرون بارتكابها.

وقال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: قيل: معناه لا يكفر بعضكم بعضًا فتستحلوا أن تقاتلوا ويضرب بعضكم رقاب بعض. وقيل: إنه أراد بالحديث أهل الردة، أخبرني إبراهيم بن فراس قال: سمعت موسى بن هارون يقول: هؤلاء أهل الردة قتلهم أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ"(١).

وقد ذكر ابن عبد البر(٢) رَحِمَهُ اللَّهُ أنه صحَّ عنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**))، وقال: ((**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**))(٣)، وقال: ((**لا ترغبوا عن آبائكم، فمن رغب عن أبيه فهو كفر**))(٤)..إلى آثار مثل هذه. وذكر أنه لا يُخرِج بها العلماء المؤمنَ من الإسلام، وإن كان بفعل ذلك فاسقًا عندهم(٥).

---

(١) المصدر السابق (١٨/١٠)، معالم السنن، للخطابي (٣١٦/٤)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٥٥/٢)، فتح الباري، لابن حجر (١٩٤/١٢).

(٢) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢٣٦/٤).

(٣) صحيح البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٧٨٢، ٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

(٤) صحيح البخاري [٦٧٦٨]، مسلم [٦٢].

(٥) انظر: صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني، فضيلة الشيخ إسماعيل المجذوب (ص:٦٧).

الثالثة والرابعة: الطعن في أنساب الآخرين، والنياحة على الميِّت:

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت**))(١).

الخامسة: انتساب الإنسان لغير أبيه:

قال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ليس من رجل ادعى لغير أبيه -وهو يعلمه- إلا كفر**))(٢).(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والقصد أن المعاصي كلها من نوع الكفر الأصغر؛ فإنها ضد الشكر، الذي هو العمل بالطاعة، فالسعي إما شكر، وإما كفر، وإما ثالث، لا من هذا ولا من هذا، والله أعلم"(٤).

رابعًا: التحذير من آفة التكفير:

التكفير نسبة الرجل أخاه الى الكفر، ومن المعلوم أنَّ الكفرَ ضدُّ الايمان، ولا يمكن أن يكون الإنسان جامعًا بينه وبين الايمان، فالإنسان إمَّا أن يكون مؤمنًا، وإمَّا أن يكون كافرًا. وللمؤمن أحكام، وللكافر أحكام كذلك.

فالكافر إذا كان كفره عارضًا، أي: كان بردَّةٍ، فإنه لا يُقَرُّ على كفره.

---

(١) صحيح مسلم [٦٧].

(٢) صحيح البخاري [٣٥٠٨]، مسلم [٦١].

(٣) بتصرف عن (تسهيل العقيدة الإسلامية)، عبد الله بن عبد العزيز الجبرين (ص: ٤٤٣- ٤٤٩).

(٤) مدارج السالكين (١/٣٤٦).

واذا كان كفره كفرًا أصليًّا، وثبت ذلك فإنَّ الأحكام تختلف. فمنها ما يتعلَّق بالكافر الحربي، ومنها ما يتعلَّق بالكافر الذِّمي، أو المعاهد. فأنواع المتَّصفين بالكفر الأصلي ثلاثة:

١ - **الكافر الحربي**: وهو الذي ليس له إيمان ولا أمان، وليس بينه وبين المسلمين ذمَّة ولا عهد، وكثير من النَّاس يفهم الكافر الحربي على أنه الذي يحارب المسلمين أو يحاربه المسلمون، وهذا الفهم خاطئ.

٢ - **والكافر المعاهد**: وهو الذي بينه وبين المسلمينَ عهدٌ مُبْرَمٌ مع إمام المسلمين أو من ينوب عنه، فالمسلمون يسعى بذِمَّتِهم أدناهم.

٣ - **والكافر الذِّمي**: وهو من رعايا الدَّولة الاسلامية، ويدفع الجزية للمسلمين، وله ما لهم وعليه ما عليهم فيما يتعلق بحقوق الأرض والمواطنة. وله حق الجوار، ويجب على المسلمين الدفاع عنه اذا اعتدى عليه أحد.

وقد أحرز الذِّميُّ دمه وماله، أي: جعلهما في حرز.

أما الكافر الحربي فغير معصوم الدم ولا المال ولا العرض.

وليس معنى عدم عصمته: لزوم قتله، وأخذ ماله، أو مشروعية ذلك، كما أننا إذا قلنا: فلان معصوم فليس معنى ذلك أنه تجب في حقِّه المعصية.

بل إن ما يشرع جهاده إذا اعتدى على المسلمين، أو وقف في وجه الدعوة ومنع الناس من الاستجابة لها، وعاند بعد دعوته وإقامة الحجة عليه.

ومن هنا فإن تكفير المسلم للمسلم معناه: الحكم عليه بالكفر، وهذا قد نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه حيث قال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:٩٤].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ﴿فَتَبَيَّنُوا﴾، أي: الأمر المشكل، أو (تثبتوا) ولا تعجلوا، المعنيان سواء. فإن قتله أحد فقد أتى منهيًّا عنه"[(١)].

وهذا يقتضي أنَّ من قال: (لا اله الا الله محمد رسول الله) وقد كان كافرًا قبل ذلك فإنه يدخل في مسمى الإسلام، ويحرز دمه وماله وعرضه حتى يأتي بما يقتضي إباحة ذلك.

وقد بين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ما يقتضي إباحة الدم في الإسلام فقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ((**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِم، يَشْهَدُ أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، إلا بإحدى ثلاث: الثَّيِّبُ الزَّانِي، والنَّفْسُ بِالنَّفْس، والتَّارِكُ لِدِينِه الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَة**))[(٢)].[(٣)].

ومن أعظم الآفاتِ التي قد تفشَّت في عصرنا الحاضر: انتشار ظاهرة التَّكفير بغير حجة ولا برهانٍ عندَ كثيرٍ من الجُهَّال المتصدِّرين لمنابر الدعوة، فتأمَّل كيف كان أمثالُ هؤلاءِ من الجُهَّالِ والغلاة سببًا في التَّفرق والاختلاف؟! وكم سُفِكَ بسببهم من دماء؟! وكم صدَّ الغلوُّ والتَّكفير أناسًا عن دين الله تعالى حيث عكس واقعًا مشوَّهًا مبنيًا على الجهل والتَّخلف والكراهية؟!

وتأمَّل كيف كان أمثالُ هؤلاءِ طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات، يمهِّدون لهم السبيل، ويفتحون لهم الأبواب؟ ففسدت بسببهم البلاد، وهلك العباد، وشاع الجهل.

"ومن مشكلات التكفير التي تؤدي إلى سوء الخاتمة أنَّ كثيرًا من الذين يكفرون المسلمين ينطلقون من واقع الإعجاب بأنفسهم وبإيمانهم فيحصل لهم ما يحصل للمتألي على الله عَزَّوَجَلَّ؛ لأن ما حملهم على ذلك أنهم يرون أنفسهم أفضل من غيرهم وأولى منهم بالإيمان، ولو راجعوا أنفسهم لوجدوا أن ما ينكرونه على أي مسلم ربما وقعوا في مثله.

---

(١) تفسير القرطبي (٥/٣٣٩).

(٢) صحيح البخاري [٦٨٧٨]، مسلم [١٦٧٦].

(٣) التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه، للدكتور الشيخ محمد الحسن ولد الددو، بتصرف واختصار (ص: ٥-٨).

وفي (الصحيح): ((**إذا قال الرجل: هَلَكَ النَّاسُ فهو أَهْلَكُهُمْ**))، قال أبو إسحاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا أدري، (أَهْلَكَهُمْ) –بالنَّصْب–، أو (أَهْلَكُهُمْ) –بالرَّفع–[1].

فرواية: (هو أَهْلَكَهُمْ) –بالفتح–، أي: هو الذي سعى لذلك؛ لأنه أراد حصول الفتنة بينهم، ورواية: (هو أَهْلَكُهُمْ) –بالضم–، أي: أشدهم هلاكًا حين قال ذلك.

وهذا الحديث مقيد بما إذا قال ذاك على سبيل التوجع على حال الأمة، فإن قاله على سبيل التوجع على حاله هو وحال الأمة فلا يكون داخلًا في الوعيد.

قال المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ[2]: وفسره مالك إذا قال ذلك معجبًا بنفسه مزدريًا بغيره فهو أشد هلاكًا منهم؛ لأنه لا يدري سرائر الله في خلقه.

وفي (الصحيح): عن جُنْدَبٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حدَّث ((**أنَّ رجلًا قال: والله لا يغفر الله لفلان، وإنَّ الله تعالى قال: من ذا الذي يَتَأَلَّى عَلَيَّ أن لا أغفر لفلان، فإني قد غفرت لفلان، وأحبطت عملك**))[3].

وكذلك أخرج الحاكم في (مستدركه): عن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من قال في مؤمن ما ليس فيه، حُبِسَ في رَدْغَةِ الْخَبَالِ حتى يَأْتِيَ بِالْمَخْرَجِ مِمَّا قال**))[4].

وأقوال أهل العلم في هذا الباب كثيرة، منها مثلًا قول الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "رأيت للأشعري كلمة أعجبتني، وهي ثابتة رواها البيهقي، سمعت أبا حازم العبدوي، سمعت زاهر بن أحمد السرخسي يقول: لما قرب حضور أجل أبي الحسن الأشعري في داري ببغداد،

---

(١) صحيح مسلم [٢٦٢٣].

(٢) الترغيب والترهيب (٣/٣٧٤).

(٣) صحيح مسلم [٢٦٢١]. و(يتألى): يَحْلِفُ، والأَلْيَة اليَمِين.

(٤) أخرجه الحاكم [٢٢٢٢]، وقال: " صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) [١١٤٤١].

دعاني فأتيته، فقال: اشهدْ عليَّ أني لا أكفِّر أحدًا من أهل القبلة؛ لأن الكل يشيرون إلى معبودٍ واحد، وإنما هذا كله اختلاف العبارات.

قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بعده: وبنحو هذا أدين، وكذا كان شيخنا ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أواخر أيامه يقول: أنا لا أكفر أحدًا من الأمة، ويقول: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**لا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**))[1] فمن لازم الصلوات بوضوء فهو مسلم"[2].

ولا شك أن آفة التكفير: الضَّلال والإضلال، فَيَضِلُّ السَّالكُ عن الحقِّ؛ لجهله المركَّب، وغروره، وبُعْدِه عن العلماء الرَّاسخين، وتَأَثُّرِه بأئمَّة الضَّلال، ويُضِلُّ غيره بالصَّدِّ والتنفير.

وواقعنا المعاصر -وللأسف- ساده الجهل والتخلف والغلو والتكفير، حيث أفل نجم الإصلاح، وتصدَّرَ الجهَّالُ منابرَ الدَّعوة، فأصاب الأمَّة ما أصابها من البلاء والركود، ونما التَّطرف إلى حدٍّ كبير.

ومن سُنَّة الله عَزَّوَجَلَّ في الأمم أنَّه لا يهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون كما قال سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ [هود:١١٧]، يعني: مصلحون في أعمالهم وأحكامهم وسياساتهم، وهذا هو الأساس الأعظم لعلم الاجتماع في حياة الأمم وموتها وعزتها وذلها. ولكنه يهلكها وأهلها مفسدون في الأرض كما ثبت في آيات كثيرة.

---

(١) الحديث مروي عن ثوبان، وقد أخرجه الطيالسي [١٠٨٩]، وأحمد [٢٢٣٧٨]، والدارمي [٦٨١]، وابن ماجه [٢٧٧]، قال البوصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤١/١): "هذا الحديث رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان، فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طرق أخرى متصلة". وأخرجه الروياني [٦١٤]، وابن حبان [١٠٣٧]، والطبراني [١٤٤٤]، والحاكم [٤٤٧]، والبيهقي [٣٨٤].

(٢) سير أعلام النبلاء (٨٨/١٥). التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٣٣- ٣٥).

وتحتاج الأمة في الفتن، عندما يلتبس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخ، والنظر الثاقب، وتمكينهم؛ حتى يعلو صوت الحق، وتخمد سَوْرَةُ الباطل.

ويحرص المنهج الإسلامي في الدعوة على البحث عن أدنى وسيلة لإدخال الناس في دين الله عَزَّوَجَلَّ، بينما الغلاة يبحثون للمسلم عن أدنى شبهة لإخراجه من دين الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن شأن المسلم: أن يحرص على تشجيع الناس وترغيبهم في الإسلام والتآلف والمحبة، والتعاضد والتعاون، ومن شأن الغلاة: البحث والتنقير عن شبهات منفرة وصادة.

وقد حذَّرَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحذيرًا عامًّا من الغلوِّ مبينًا آثاره فقال: ((**إياكم والغلو في الدين؛ فإنما أهلك من كان قبلكم: الغلو في الدين**))(١).

وعن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**صنفان من أمتي لا تنالهما شفاعتي: إمام ظلوم غشوم، وكل غال مارق**))(٢). روي (غالٍ) –بالتخفيف– من الغلو، و(غالٍّ) –بالتشديد– من الغلول.

والتكفير أمره عظيم، وخطره جسيم، وهو من الغلو، وقد جاء في الحديث: التَّحذير منه بخصوصه فيما رواه عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**أيما رجل قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما**))(٣).

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [١٣٩٠٩]، وأحمد [٣٢٤٨]، وابن ماجه [٣٠٢٩]، وابن أبي عاصم في (السنة) [٩٨]، والنسائي [٣٠٥٧]، وأبو يعلى [٢٤٢٧]، وابن الجارود [٤٧٣]، وابن خزيمة [٢٨٦٧]، وابن الأعرابي [٥١٨]، وابن حبان [٣٨٧١]، والطبراني في (الكبير) [٧٤٢]، والحاكم [١٧١١]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن الكبرى) [٩٥٣٤]، والضياء [٢٢]..عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) قال الهيثمي (٥/٢٣٥): "رواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط) ورجال الكبير ثقات".

(٣) صحيح البخاري [٦١٠٤]، مسلم [٦٠].

وفي رواية عند الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((**لا يرمي رجل رجلًا بالفسوق، ولا يرميه بالكفر، إلا ارتدت عليه، إن لم يكن صاحبه كذلك**))(١). وفي رواية عند الإمام مسلم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ((**ومن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه**))(٢).

قال الباجي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: إن كان المقول له كافرًا فهو كما قال، وإن لم يكن خيف على القائل أن يصير كذلك"(٣).

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "((**باء بها**)) أي: احتمل وزرها، فإذا قيل للمؤمن: يا كافر فقد باء قائل ذلك بوزر الكلمة، واحتمل إثمًا مبينًا وبهتانًا عظيمًا، إلا أنه لا يكفر بذلك؛ لأن الكفر لا يكون إلا بترك ما يكون به الإيمان. وفائدة هذا الحديث: النهي عن تكفير المؤمن وتفسيقه، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١١].

قال جماعة من المفسرين في هذه الآية هو قول الرجل لأخيه: يا كافر، يا فاسق. وممن قال بذلك: عكرمة والحسن وقتادة. وهو معنى قول مجاهد؛ لأنه قال هو الرجل يدعى بالكفر وهو مسلم"(٤).

وقال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا وعيد عظيم لمن كَفَّرَ أحدًا من المسلمين، وليس كذلك، وهي ورطة عظيمة وقع فيها خلق كثير من المتكلمين، ومن المنسوبين إلى السنة وأهل الحديث، لما اختلفوا في العقائد فغلظوا على مخالفيهم، وحكموا بكفرهم"(٥).

---

(١) صحيح البخاري [٦٠٤٥].

(٢) صحيح مسلم [٦١].

(٣) المنتقى شرح الموطأ (٧/ ٣٠٨).

(٤) الاستذكار (٨/ ٥٤٨- ٥٤٩).

(٥) إحكام الأحكام (٢/ ٢١٠).

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من الكبائر "قول إنسان لمسلم: يا كافر أو يا عَدُوَّ الله حيث لم يُكَفِّرْهُ به بأن لم يرد به تَسْمِيَةَ الْإِسْلَامِ كُفْرًا، وإنما أراد مُجَرَّدَ السَّبِّ". ثم ذكر الحديث(١).

وقال: "هذا وعيد شديد، وهو رجوع الكفر عليه أو عداوة الله له، وكونه كإثم القتل فلذلك كانت إحدى هاتين اللفظتين إما كفرًا بأن يسمى المسلم كافرًا أو عدو الله من جهة وصفه بالإسلام، فيكون قد سمى الإسلام كفرًا ومقتضيًا لعداوة الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا كفر، وإما كبيرة بأن لا يقصد ذلك فرجوع ذلك إليه حينئذ كناية عن شدة العذاب والإثم عليه، وهذا من أمارات الكبيرة؛ فلذا اتَّضَحَ عَدُّ هذين من الكبائر وإن لم أر من ذكره، ثم رأيت بعضهم عَدَّ من الكبائر رميَ المسلم بالكفر"(٢).

"فمن كَفَّرَ مسلمًا وحكم عليه بالردة بغير دليل فهو كمن رأى قتله بغير حقٍّ، فتأمل وعيد الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣]. وانظر ما ورد في ذلك من الوعيد في الأحاديث الواردة في سفك الدم الحرام، وراجع تشديد ابن عباس فيه، ثم اختر لدينك بعد ذلك ما شئت: التثبت والوقوف عند حدود الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ والورع والاحتياط، أو التهور والمغامرة باقتحام هذه المهلكات دون بصيرة أو برهان"(٣).

ومن شأن المسلمين أن يكونوا متآلفين متحابين متحدين، كالجسد الواحد في توادهم، وتراحمهم، وتعاطفهم -مهما اختلفت الرؤى، وتباينت وجهات النظر-. فما أحوجنا في هذا الزمان إلى محبة صادقة تؤلف بين القلوب، وتوحد الصفوف، فمتى قويت روابط الألفة، وتمكنت أسباب المحبة، امتد رواق السلام بين الأفراد والعشائر والأمم،

---

(١) يعني: قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((ومن دعا رجلًا بالكفر، أو قال: عدو الله وليس كذلك إلا حار عليه)).

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٢٠٥)، وانظر: التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٣١).

(٣) التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٣٢).

وتقاربت العقول والقلوب بالتفاهم، وتشابكت الأيدي في التعاون والتآزر، وتقرر الأمن، واطرد العمران[١].

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا ترجعوا بعدى كفارًا**)): "قال بعضهم: معناه: لا ترجعوا بعدي فرقًا مختلفين، يضرب بعضكم رقاب بعض فتكونوا بذلك مضاهين للكفار؛ فإن الكفار متعادون يضرب بعضهم رقاب بعض، والمسلمون متآخون يحقن بعضهم دماء بعض"[٢].

يعني هكذا ينبغي أن يكونوا، فهذه تعاليم دينهم التي انحرف بها الغلاة فأدخلوا الكثيرين في متاهات الضَّلال والتَّنافر، فضعفت شوكتهم، فطمع بهم الأعداء، فنصبوا لهم الشراك، وأذكوا نار الفرقة والاختلاف.

وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مبينًا خطر التكفير: ((**من قذف مؤمنًا بكفر فهو كقاتله**))[٣]، وقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إنما أَتخوَّفُ عليكم رجلًا قرأ القرآن حتى إذا رُئِيَ عليه بَهْجَتُه، وكان رِدْءًا للإسلام اعتزلَ إلى ما شاء الله، وخرج على جاره بسيفه، ورماه بالشِّرك**))[٤].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في التحذير من ظاهرة التكفير: "واعلم أن مذهب أهل الحق أنه لا يكفر أحد من أهل القبلة بذنب، ولا يكفر أهل الأهواء والبدع، وأن من جحد ما يعلم من دين الإسلام ضرورة حكم بردته وكفره، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ ببادية بعيدة ونحوه ممن يخفى عليه، فيعرف ذلك، فإن استمر حكم

---

(١) انظر: تفسير ابن باديس (ص:١١٣)، آثار ابن باديس (١/٢٨٢)، المحبة صورها وأحكامها (ص:١١).

(٢) معالم السنن (٤/٣١٦).

(٣) أخرجه الترمذي [٢٦٣٦]، وقال: "حسن صحيح".

(٤) أخرجه البزار [٢٧٩٣] وقال: "وهذا الحديث بهذا اللفظ لا نعلمه يروى إلا عن حذيفة بهذا الإسناد، وإسناده حسن". قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/١٨٨): "رواه البزار، وإسناده حسن"، وقال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التفسير) (٣/٥٠٩): "هذا إسناد جيد".

بكفره، وكذا حكم من استحل الزنى أو الخمر أو القتل أو غير ذلك من المحرمات التي يعلم تحريمها ضرورة"(١).

وقال: "مذهب أهل الحق أنه لا يكفر المسلم بالمعاصي كالقتل والزنا، وكذا قوله لأخيه: كافر من غير اعتقاد بطلان دين الإسلام"(٢).

وقال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن من أنكر طريق إثبات الشرع لم يكفر، كمن أنكر الإجماع، ومن أنكر الشرع بعد الاعتراف بطريقه كفر؛ لأنه مكذب"(٣).

وتأمل قول الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي يدل على مدى تحرز العلماء الراسخين من التكفير؛ لمجرد الشبهة أو الظن أو الهوى ما لم يقم الدليل القاطع البين، قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الحكم على الرجل المسلم بخروجه من دين الإسلام ودخوله في الكفر لا ينبغي لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يقدم عليه إلا ببرهان أوضح من شمس النهار"(٤).

فمن ثبت له عقد الإسلام بيقين لم يخرج منه إلا بيقين(٥). قال ابن حزم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحق هو أن كل من ثبت له عقد الإسلام فإنه لا يزول عنه إلا بنص أو إجماع، وأما بالدعوى والافتراء فلا، فوجب أن لا يكفر أحد بقول قاله إلا بأن يخالف ما قد صح عنده أن الله عَزَّوَجَلَّ قاله، أو أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قاله، فيستجيز خلاف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وخلاف رسوله عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ، وسواء كان ذلك في عقد دين أو في نحلة أو

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١/١٥٠).

(٢) المصدر السابق (٢/٤٩).

(٣) إحكام الأحكام (٢/٢١٢).

(٤) السيل الجرار (ص:٩٧٨).

(٥) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/٥٨٥)، فتح الباري، لابن حجر (١٢/٣٠١)، فيض القدير (٤/١٢٦)، إكفار الملحدين في ضروريات الدين، محمد أنور شاه الكشميري الهندي (ص:٢٧).

في فتيا، وسواء كان ما صح من ذلك عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منقولًا نقل إجماع تواترًا أو نقل آحاد"[١].

وقال الطحاوي رَحِمَهُ اللهُ: "ولا نُكَفِّر أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحله"[٢].

وقال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: "وقد اتفق أهل السنة والجماعة وهم أهل الفقه والأثر على أن أحدًا لا يخرجه ذنبه -وإن عظم- من الإسلام، وخالفهم أهل البدع، فالواجب في النظر أن لا يكفر إلا من اتفق الجميع على تكفيره، أو قام على تكفيره دليل لا مدفع له من كتاب أو سنة"[٣].

وقال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: "إنَّ إدخال كافر في الملة وإخراج مسلم عنها عظيم في الدين. ونقل عن بعض المحققين يجب الاحتراز من التكفير في أهل التأويل؛ فإنَّ استباحة دماء المصلين الموحدين خطر.

والخطأ في ترك ألف كافر أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم واحد.

وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**فإذا قالوها** - يعني: الشهادة - **عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله**))[٤].

---

(١) الفصل في الملل والأهواء والنحل (٣/١٣٨).

(٢) متن الطحاوية بتعليق الألباني (ص:٣١)، وانظر: لمعة الاعتقاد، لابن قدامة (ص:٣٨)، التيسير بشرح الجامع الصغير، للمناوي (٢/٩٤)، رد المحتار على الدر المختار، لابن عابدين (٣/٤٥). التذكرة في الفقه الشافعي، لابن الملقن (ص:٨)، المنثور في القواعد الفقهية، للزركشي (٢/١٣)، (٣/٨٧).

(٣) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (١٧/٢٢).

(٤) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/٥٩٥- ٥٩٦). والحديث متفق عليه.

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والذي ينبغي الاحتراز من التكفير ما وجد له سبيلًا؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصلين إلى القبلة المصرحين بقول: (لا إله إلا الله محمد رسول الله) خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة من دم مسلم"(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمبادرة إلى التكفير إنما تغلب على طباع من يغلب عليهم الجهل"(٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المفهم): "باب التكفير باب خطير أقدم عليه كثير من النَّاس فسقطوا، وتوقَّف فيه الفحول فسلموا، ولا نعدل بالسلامة شيئًا"(٣).

وروى ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أبي سفيان قال: قلت لجابر: أكنتم تقولون لأحد من أهل القبلة كافر؟ قال: لا، قلت: فمشرك، قال: معاذ الله، وفَزِع(٤).

ويتبين مما تقدَّم أنَّ الصَّحابة الكرام رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ ومن تبعهم بإحسانٍ من العلماء العاملين قد فقهوا خطرَ التَّكفير، وآثاره على الفرد والمجتمع بما آتاهم الله تعالى من العلم والفقه والبصيرة، والتريث قبل إطلاق أي حكم، ودقَّة النَّظر، وفقه الواقع، واعتبار المآلات، والحرص على سلامة النفس والدين.

---

(١) الاقتصاد في الاعتقاد، للغزالي (ص:١٣٥)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٣٠٠/١٢)، فيض القدير (١٢٦/٤).

(٢) بغية المرتاد (ص:٣٤٥).

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١١١/٣).

(٤) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٢١/١٧)، وهو صحيح موقوف. ذكره الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية) (٥٤٨/١٢)، وانظر: ترتيب الأمالي الخميسية، للشجري (٢٤/١).

وقد وضع الشَّارع شروطًا وضوابط للمتصدرين للقضاء، ولإطلاق نحو هذه الأحكام بعد فقه الشروط والموانع والآثار؛ لأنَّ التَّكفير حكم قضائي لا إفتائي -كما سيأتي-، وتنظر تلك الأحكام مفصَّلة في مظانها.

خامسًا: الوقاية من الغلو في التكفير والعلاج:

والوقاية من هذا الداء خير من العلاج -ولا سيما قبل تفشي المرض واستفحاله-، فإذا تفشى عظُم خطره، وربما أصابت آثاره البلاد والعباد.

وتكون الوقاية منه بالتنوير والتبصير بآفات وأخطار هذه الظاهرة، وعدم تساهل الدولة مع من يروج لها، والاشتغال بطلب العلم والتفقه في الدين، وملازمة العلماء الربانيين، والاحتراز عن التصدر للفتوى قبل التمكن، وعدم الحكم بالتكفير من قِبَل أفراد أو مفتين دون إحالة الحكم إلى القضاء، ونشر ثقافة التعايش السلمي والمحبة بين المختلفين، ونبذ ثقافة الكراهية، والتصنيف والتضليل.

وينبغي اتخاذ كافة وسائل الوقاية من خطر هذا الداء، من خلال وسائل الإعلام، والمناهج التربوية الصحيحة والسليمة في المدارس والجامعات، واعتماد التوجيه التربوي الهادف، والرقابة التي تهدف إلى الإصلاح، ومعالجة بوادر هذا الداء وغيره من الأمراض المنتشرة في مجتمعاتنا.

وسن قوانين رادعة لمن يروج له؛ لما يترتب على ذلك من الإخلال بالأمن، والصدِّ عن الدين.

سادسًا: النتائج:

١ - إن الكفر والضلال يقابلان الإيمان والهدى، فحقيقة الكفر المخرج من الملة هو الذي يأتي في مضادة الإيمان كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَأَنْذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنْذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة:٦].

والتكفير مرده إلى الشرع. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

الكفر حق الله ثم رسوله ... بالنص يثبت لا بقول فلان

من كان رب العالمين وعبده ... قد كفراه فذاك ذو الكفران[١]

"فلا يمكن أن يكفر إلا من كفره الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي: من جاء النص من الوحي بتكفيره؛ لأن الكفر يقابل الإيمان ونحن لا نعرف ما يدخل به الإنسان الإيمان لولا النص، فلو لم يرد عن الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تحديد ما يجب الإيمان به وما يكون إيمانًا وإسلامًا لما استطعنا نحن أن نحدد ذلك بعقولنا واجتهاداتنا"[٢].

يقول ابن الوزير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التكفير سمعي محضٌ لا مدخل للعقل فيه"[٣].

وقد بين العلماء خطورة من يفتي الناس بغير علم ولا تبصر، وتزداد خطورة القول بلا علم أو مع الاشتباه في مسألة التكفير؛ لما يترتب على التكفير من أحكام وآثار على الفرد والمجتمع.

٢ - إن لفظ الكفر يطلق على جحد النعم والستر، لكن الغالب عند مجرد الإطلاق حمله على ما يضاد الإيمان.

٣ - إن من أسباب الكفر: إنكار ما علم من الدين بالضرورة.

---

(١) متن القصيدة النونية (ص:٢٧٧).

(٢) التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٤٢-٤٣).

(٣) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (١٧٨/٤).

٤ - إن من أسباب الكفر: استباحة محرم أجمع المسلمون على تحريمه.

٥ - إن من أسباب الكفر: سب النبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ، أو الاستهزاء به، وكذا سب أي نبي من أنبياء الله عَزَّوَجَلَّ، وكذا سب الدين، والطعن في الكتاب والسنة، وترك الحكم بما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا استخفافًا به، أو احتقارًا، أو اعتقادًا أن غيره أصلح منه، وأنفع للخلق أو مثله[١].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن لم يحكم بما أنزل الله وهو لم يستخف به، ولم يحتقره، ولم يعتقد أن غيره أصلح منه لنفسه أو نحو ذلك، فهذا ظالم وليس بكافر، وتختلف مراتب ظلمه بحسب المحكوم به، ووسائل الحكم.

ومن لم يحكم بما أنزل الله لا استخفافًا بحكم الله تعالى، ولا احتقارًا، ولا اعتقادًا أن غيره أصلح، وأنفع للخلق أو مثله، وإنما حكم بغيره محاباة للمحكوم له، أو مراعاة لرشوة أو غيرها من عرض الدنيا فهذا فاسق، وليس بكافر وتختلف مراتب فسقه بحسب المحكوم به، ووسائل الحكم"[٢].

وقد أخرج الحاكم بسنده عن طاوس، قال: قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: إنه ليس بالكفر الذي تذهبون إليه، إنَّه ليس كفرًا ينقل عن الملة: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤] كفر دون كفر[٣].

وقد أفاض الشيخ محمد الحسن ولد الددو في بيان المراد من قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [المائدة:٤٤، ٤٥، ٤٧] في كتابه: (التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه)[٤].

---

(١) انظر: مجموع فتاوى ورسائل فضيلة الشيخ محمد بن صالح العثيمين (٦/١٦١).

(٢) المصدر السابق (٦/١٦١).

(٣) أخرجه الحاكم [٣٢١٩] وصححه، ووافقه الذهبي.

(٤) انظر: التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه، الشبهة الثالثة (ص:٨٧).

٦ - إن من أسباب الكفر: إلقاء المصحف في القاذورات، وكذا كتب الحديث؛ استهانة بها، واستخفافًا بما جاء فيها، ونحو ذلك.

٧ - إن من أسباب الكفر: الاستخفاف باسم من أسماء الله جَلَّ وَعَلَا، أو أمر من أوامره، أو نهي من نواهيه، أو وعد من وعوده(١).

٨ - إن الكفر يتفاوت، فمنه: (كفر أكبر)، ومنه: (كفر أصغر).

٩ - لا يصح إطلاق الحكم بالكفر قبل النظر إلى حال الجاحد، وأسباب الجحد.

١٠ - إنَّ التكفير حكم قضائي لا إفتائي، يحكم به القضاة الراسخون في العلم، والمعروفون بالورع والتقوى.

١١ - يتعين على القاضي قبل إطلاق الحكم بالكفر على معيَّن: بيان وجه الحق، ورفع اللبس والإشكال، والاستتابة، ولا حرج من الاستعانة بالعلماء الصادقين.

١٢ - لا يحكم بالكفر إلا بتوفر الشروط، وانتفاء الموانع(٢)، ولا يكون إلا بما اتفق على أنه مكفر(٣).

١٣ - إن من أنواع الكفر: الكفر العملي، وهو أن يقر الرجل بالوحدانية والنبوة بلسانه، ويعتقد ذلك بقلبه، لكنه يرتكب الكبائر من القتل، والسعي في الأرض بالفساد، ومنازعة الأمر أهله، وشق عصا المسلمين، ونحو ذلك، والذنوب التي وردت تسميتها في الكتاب والسنة كفرًا، وهي لا تصل إلى حد الكفر الأكبر، مثل كفر النعمة المذكور في قوله

---

(١) انظر: فقه السنة، سيد سابق (٢/٤٥٤).

(٢) فمن ذلك مثلًا: أن يكون المحكوم عليه مكلفًا مختارًا. ولا بدَّ في الحكم من ثبوت الفعل أو القول على المحكوم عليه. ولا بدَّ من إقامة الحجة على الفاعل، وأن يكون قاصدًا غير متأول. ولا بدَّ في الحكم من انتفاء الشبهة.

(٣) انظر: التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٤٤).

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ﴾ [النحل:١١٢].

١٤ – عدم تكفير المسلم بارتكاب الكبائر والموبقات –وإن وصفت تلك الموبقات في الأحاديث بأنها كفر– ..[(١)] –كما تقدم–.

١٥ – إن المسلم إذا عمل عملًا يَحْتَمِل الكفر ويَحْتَمِل غير الكفر حُمِل على أخف الاحتمالات[(٢)].

قال في (البحر الرائق): "وفي (جامع الفصولين)[(٣)] روى الطحاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أصحابنا: لا يُخرِجِ الرجلَ من الإيمان إلا جحودُ ما أدخله فيه، ثم ما تُيُقِّنَ أنه ردة يحكم بها، وما يُشك أنه ردة لا يحكم بها؛ إذ الإسلام الثابت لا يزول بشك.

وفي (الخلاصة) وغيرها إذا كان في المسألة وجوه توجب التكفير ووجه واحد يمنع التكفير فعلى المفتي أن يميل إلى الوجه الذي يمنع التكفير؛ تحسينًا للظن بالمسلم. وفي (التتارخانية): لا يكفر بالمحتمل لأن الكفر نهاية في العقوبة فيستدعي نهاية في الجناية ومع الاحتمال لا نهاية اهـ. ثم قال صاحب (البحر): "والذي تحرر أنه لا يفتى بتكفير مسلم أمكن حمل كلامه على محمل حسن أو كان في كفره اختلاف"[(٤)].

---

(١) صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني، فضيلة الشيخ إسماعيل المجذوب (ص:٦٦).

(٢) المصدر السابق (ص:٦٨).

(٣) جامع الفصولين في الفروع، لمحمود بن إسرائيل، الشهير بابن قاضي سِماوْنَة، الحنفي، المتوفى سنة [٨٢٣هـ]، وهو كتاب، مشهور متداول في أيدي الحكام، والمفتين؛ لكونه في المعاملات خاصة. جمع فيه بين فصول العمادي، وفصول الأسروشني، وأحاط، وأجاد. انظر: كشف الظنون (٥٦٦/١)، الأعلام، للزركلي (١٦٥/٧).

(٤) صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني (ص:٧٠-٧١)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق (١٣٤/٥-١٣٥)، وانظر: رد المحتار على الدر المختار (٢٢٣/٤- ٢٢٤)، مجمع الأنهر في شرح ملتقى الأبحر (٦٨٨/١).

١٦ - "لا يحكم في الأمور التي تقتضي الكفر بلا احتمال ولا خلاف فيها إذا صدرت من مسلم لا يحكم فيها بكفره إلا إذا وجدت الشروط وانتفت الموانع، فالذي نطق بكلمة الكفر بإكراه أو سبق لسان لا يُحكم بكفره؛ لوجود مانع، وعدم تحقق الشروط"[١].

١٧ - لا تكفير باللوازم والمآلات:

لا بدَّ أن يكون المكفَّر به صريحًا، فاللوازم أو مآلات الكلام لا يكفر بها، فكثير من المقالات أيًّا كانت لو نظرت إلى لوازمها وما يترتب عليها لوجدت أنها تؤول إلى الكفر، لكن لوازمها لم تخطر على بال صاحبها ولم يقلها، ولازم القول لا يعد قولًا؛ فلذلك لا يكفر بها أصحابها.

ومن هنا قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ لبعض الذين ناظروه: هذا الكلام لو قلته أنا لكفرت، وأما أنت فلا تكفر به[٢]، أي: لأنك لا تعرف لوازمه ومآلاته وما يترتب عليه. وكثير من أقوال المبتدعة لوازمها مكفرة، ولم يكفرهم أهل العلم؛ لأن تلك اللوازم لم تخطر لهم على بال، ولم يقصدوها[٣].

١٨ - ينبغي اتخاذ كافة وسائل الوقاية من خطر هذا الداء (التكفير).

١٩ - إن المحبة أساس الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ومنطلقها، فالدين محبة ورحمة ومعاملة.

(١) صفحات مضيئة في التصور والسلوك الديني (ص:٧١).

(٢) انظر: الرد على البكري (ص:٢٥٩)، مناظرات ابن تيمية لأهل الملل والنحل (ص:٧٨).

(٣) التكفير شروطه وضوابطه وأخطاره ومزالقه (ص:٤٩ - ٥٠).

سابعًا: الوقاية من خطر الكفر والعلاج:

١ – التمسك بما يقابل الكفر من الإيمان والتوحيد الخالص.

٢ – النظر والاستدلال الصحيح.

٣ – الاهتداءُ بنور الوحي، وقراءةُ النقل بالعقل، وتقويم العقل بالنقل، وتأملُ ما يدلُّ على صدقِ المبلِّغِ، وما يتحقَّقُ به الإعجاز، وأوجهه المتعددة؛ لأن الإعجاز مما يدلُّ على صدقِ مبلِّغ الخطاب، ومما يثبت أنَّ ما جاء به الرُّسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ حقٌّ وصدقٌ، ووحيٌ من عند الله عَزَّوَجَلَّ. ففي الإعجاز ما يدلُّ على إحكام آياتِ القرآن الكريم حيثُ أَعجزَ الإنسَ والجنَّ عن الإتيانِ بمثله، وتحدَّاهم مع قيام الدَّافع، وانتفاء المانع، كما أنَّه يُعَزِّزُ ثقةَ المخاطَب بالخطاب من خلال إقامةِ الحُجَّة، ودحضِ شُبَهِ المكذِّبين، مع بيان أنَّ تكذيب ما جاء به الرُّسلُ عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ لا يقومُ على حُجَّةٍ، وإنما له اعتباراتٌ أخرى، وأن الباحث عن الحقيقة بموضوعية وتحرر لا بدَّ أن يبصر الحق –إن شاء الله–.

٤ – الحرص على طلب الحقِّ، واتباع السُّبل الموصلة إليه.

٥ – اتخاذ أسباب الوقاية من المضلات عن الحق.

٦ – إتقان مهارة الاستماع والتَّأمل والتَّدبر.

٧ – البيئة والتربية السليمة، وغرس بذور الإيمان في نفوس الأبناء من أوَّل النشأة.

٨ – ملازمة أصحاب القلوب السليمة من أهل الفضل والصلاح، ومجالسة العلماء الصادقين، والأخذ عنهم، وعدم الاكتفاء بمطالعة الكتب.

٩ – اليقظة والتبصر بآفات الكفر وآثاره.

١٠ – الاعتبار بمآل الكافرين وعاقبتهم.

١١ – مطالعة سير السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان من العلماء الصَّادقين، وكم بذلوا من الجهد في سبيل التحقق بالعلم والمعرفة؟ وكيف انعكس ذلك على سلوكهم وأخلاقهم ومعاملاتهم وخوفهم من الله عَزَّوَجَلَّ؟

١٢ - درء موهم التعارض بين العقل والنقل بمنهج صحيح من الإدراك، والعلم بالدِّلالات والأحوال والمقاصد.

المبحث الثاني
الشرك بالله جَلَّ وَعَلَا

أولًا: تعريف الشرك:

١ - الشرك في اللغة:

الشرك في اللغة يدل على المقارنة، التي هي ضد الانفراد، وهو أن يكون الشيء بين اثنين، لا ينفرد به أحدهما. يقال: (لا تشرك بالله) أي: لا تعدل به غيره فتجعله شريكًا له، فمن عدل بالله أحدًا من خلقه فقد جعله له شريكًا[١].

يقال: شَرَكْتُه في الأمر أَشْرَكُه من باب: تَعِبَ شَرِكًا وشَرِكَة، وزان كَلِم وَكَلِمَة بفتح الأول وكسر الثاني: إذا صِرْتُ له شَرِيكًا. وجمع الشَّرِيك: شُرَكَاءُ وَأَشْرَاكٌ، مثل: شريف وشرفاء وأشراف. والمرأة شريكة، والنساء شرائك. وشاركت فلانًا: صرت شريكه. واشتركنا وتشاركنا في كذا. وشركته في البيع والميراث: أَشْرَكُهُ شِرْكَةً، والاسم: الشِّرْك. والإشراك مصدر: أشرك، وهو: اتخاذ الشريك، يقال: أشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، جعل له شريكًا في ملكه[٢].

---

(١) انظر: تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين (ص:١٥٠)، معجم مقاييس اللغة، مادة: (شرك) (٢٦٥/٣).

(٢) انظر: مادة: (شرك) في (الصحاح)، للجوهري (١٥٩٣/٤)، المصباح المنير (٣١١/١)، مقاييس اللغة (٢٦٥/٣)، لسان العرب (٤٤٨/١٠)، النهاية في غريب الحديث (٤٦٦/٢)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٥/٣٥).

٢ – الشرك اصطلاحًا:

إنَّ بين الشرك والكفر عموم وخصوص، من حيث المعنى الاصطلاحي، فقد تقدم أنَّ الكفر اسم يقع على ضروب من الذُّنوب، منها: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وهو اتخاذ إله مع الله عَزَّوَجَلَّ.

فالشرك ما يتعلق من الكفر بالإلهيات، أما الكفر فهو فإنه يزيد على ذلك، كإنكار معلومٍ من الدين بالضرورة، فهو أعم من الشرك، والشرك أخص، وذلك على الإطلاق العام. فعلى هذا يكون كل شرك كفرًا، وليس كل كفر شركًا إذا قصدنا بالشرك: (الشرك الأكبر) الناقل عن الملة.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشرك والكفر قد يطلقان بمعنى واحد، وهو الكفر بالله جَلَّوَعَلَا(١)، وقد يفرق بينهما فيخص الشرك بعبدة الأوثان وغيرها من المخلوقات مع اعترافهم بالله عَزَّوَجَلَّ، ككفار قريش، فيكون الكفر أعم من الشرك –والله أعلم–"(٢).

"والإشراك بالله جَلَّوَعَلَا جنس تحته أنواع، وكله مذموم، وإن كان بعضه أكبر من بعض.

والشرك له مراتب، فمنه الشرك الأكبر، ومنه الأصغر، وهو الشرك الخفي؛ لأنه يخفى على بعض النَّاس.

فالشرك الأكبر: اتخاذ الشَّريك أو النِّد مع الله عَزَّوَجَلَّ في الرُّبوبيَّة أو في العبادة أو في الأسماء والصفات، وهو المراد بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

---

(١) كما في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ۝٣٧ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ۝٣٨﴾ [الكهف:٣٧ -٣٨].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٧١).

وعن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي الذنب أعظم عند الله؟ قال: أن تجعل لله نِدًّا، وهو خلقك[1].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن الشرك نوع غير مغفور، وهو الشرك بالله في المحبة والتعظيم، بأن يحب مخلوقًا كما يحب الله جَلَّ وَعَلَا. فهذا من الشرك الذي لا يغفره الله، وهو الشرك الذي قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَادًا..﴾ [البقرة:١٦٥] الآية، وقال أصحاب هذا الشرك لآلهتهم، وقد جمعتهم الجحيم: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٩٧﴾ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٩٨﴾﴾ [الشعراء:٩٧- ٩٨]، ومعلوم أنهم ما سووهم به سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في الخلق والرزق، والإماتة والإحياء، والملك والقدرة، وإنما سووهم به في الحب والتأله، والخضوع لهم والتذلل. وهذا غاية الجهل والظلم فكيف يسوَّى من خلق من التراب، برب الأرباب؟ وكيف يسوَّى العبيد بمالك الرقاب، وكيف يسوى الفقير بالذات، الضعيف بالذات، العاجز بالذات، المحتاج بالذات، الذي ليس له من ذاته إلا العدم، بالغني بالذات، القادر بالذات، الذي غناه وقدرته وملكه ووجوده وإحسانه وعلمه ورحمته وكماله المطلق التام، من لوازم ذاته؟ فأي ظلم أقبح من هذا، وأي حكم أشد جورًا منه؟ حيث عَدَلَ مَنْ لا عِدْلَ لَهُ بِخَلْقِه، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ [الأنعام:١]"[2].

---

(١) صحيح البخاري [٤٤٧٧، ٤٧٦١، ٦٠٠١، ٦٨١١، ٦٨٦١، ٧٥٢٠، ٧٥٣٢]، مسلم [٨٦]. وفي رواية عن عبد الله، قال: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كلمة وقلت أخرى، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((من مات وهو يدعو من دون الله ندًّا دخل النار)) وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو لله ندًّا دخل الجنة. صحيح البخاري [١٢٣٨، ٤٤٩٧، ٦٦٨٣]، مسلم [٩٢].

(٢) الجواب الكافي (ص:١٣٢- ١٣٢)، وانظر: تفسير القاسمي (٢٢٨/٦- ٢٢٩)، الموسوعة الفقهية الكويتية، مادة: (شرك) (٥/٦-٧).

والشرك الأصغر هو الرياء والشرك الخفي الذي يتسلل إلى أعمال فيفسدها. وهو مراعاة غير الله تعالى في العبادة. وسيأتي بيانه في مبحث: (الرياء).

ثانيًا: الشرك المتوعد عليه بالنَّار:

إن الشرك المتوعد عليه بالخلود بالنَّار هو الشرك الأكبر بالله عَزَّوَجَلَّ، وأما الشرك الأصغر فهو من أسباب دخول النَّار، ولكن صاحبه يبقى داخلًا تحت المشيئة.

والشرك الأكبر هو اتخاذ الشريك أو النِّد مع الله عَزَّوَجَلَّ في الربوبية أو في العبادة أو في الأسماء والصفات.

والند هو النظير والمثيل، وقد نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن اتخاذ الأنداد، وذم الذين يتخذونها من دون الله في آيات كثيرة من القرآن، وتوعدهم بسوء العاقبة في الآخرة، فقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ﴾ [إبراهيم: ٣٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ﴾ [الزمر: ٨].

وقد حرَّمَ الحقُّ عَزَّوَجَلَّ الجنَّة على المشرك، وأخبر أنه خالد مخلد في نار جهنم في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢].

وفي الحديث: عن شقيق، عن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَةً وقلتُ أخرى، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من ماتَ وهو يَدْعُو من دُونِ اللهِ نِدًّا دَخَلَ**

النَّار))، وقلت أنا: من مات وهو لا يدعو لله ندًّا دخل الجنة(١). وفي لفظ: **((من ماتَ يُشْرِكُ بالله شَيْئًا دَخَلَ النَّار))**، وقلت أنا: ومن مات لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة(٢).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ۝١٣ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ۝١٤﴾ [فاطر:١٣-١٤].

وعند مسلم: عن جابرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: أتى النَّبِيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ رجلٌ فقال: يا رسول الله، ما الْمُوجِبَتَان؟ فقال: **((من ماتَ لا يُشْرِكُ بالله شَيْئًا دخلَ الجنَّة، ومن ماتَ يُشْرِكُ باللهِ شَيْئًا دخلَ النَّار))**(٣). وأما قوله: (ما الموجبتان؟) فمعناه: الخصلة الموجبة للجنة، والخصلة الموجبة للنار(٤).

والمشرك شرُّ الخلق عند الله جَلَّوَعَلَا، وأسوأ الخلق حالًا؛ لأنَّه منكر للحق بعد معرفته وقيام الدليل عليه، فهو مهلك لنفسه، وجالب الهلاك والشرور إلى غيره، وقد توعده الله عَزَّوَجَلَّ بالخلود في نار جهنم في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ فِي نَارِ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أُولَئِكَ هُمْ شَرُّ الْبَرِيَّةِ﴾ [البينة:٦].

فمن أشركَ بالله عَزَّوَجَلَّ فقد ضلَّ عن الحق والهداية، وبعد عن سبيل الرشاد؛ لانغماسه في الضلال الذي أعمى بصيرته، وسلوكه سبيل الغواية، وهو ضلال بعيد يفسد العقل، ويكدِّر صفاء الروح كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء:١١٦].

(١) صحيح البخاري [٤٤٩٧].
(٢) صحيح البخاري [١٢٣٨]، صحيح مسلم [٩٢].
(٣) صحيح مسلم [٩٣].
(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٩٦).

فالمشرك تتخطفه الشياطين والأهواء، ويهوي في مزالق الضلال كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج:٣١][(١)].

والشرك محبط للعمل كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام:٨٨]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الزمر:٦٥].

وفي الحديث: ((**كل ذنب عسى الله أن يغفره إلَّا من مات مشركًا، أو مؤمنًا قتل مؤمنًا متعمدًا**))[(٢)].

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾ [الزمر:٥٣] يسترها بعفوه -ولو بلا توبة إذا شاء- إلا الشرك"[(٣)].

والشرك أكبر الكبائر كما جاء في الحديث: عن عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه قال: قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**ألا أنبئكم بأكبر الكبائر؟**)) ثلاثًا، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: ((**الإشراك بالله، وعقوق الوالدين -وجلس وكان متكئًا فقال- ألا وقول الزور**))، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[(٤)].

---

(١) انظر في بيان المعنى: الكشاف، للزمخشري مع حاشية (الانتصاف)، لابن المنير الإسكندري (٣/١٥٥)، تفسير النسفي (٢/٤٤٠).

(٢) الحديث مروي عن معاوية، وعن أبي الدرداء، وعن عبادة بن الصامت. حديث معاوية: أخرجه أحمد [١٦٩٠٧]، والنسائي [٤٢٧٠]، والطبراني [٨٥٨]، والحاكم [٨٠٣١]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه الديلمي [٤٧٦٠]. حديث أبي الدرداء: أخرجه أبو داود [٤٢٧٠]، والبيهقي [١٥٦٣٩]. حديث عبادة بن الصامت: أخرجه البزار [٢٧٣٠]، قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "رواه البزار، ورجاله ثقات".

(٣) فيض القدير (٢/٦).

(٤) صحيح البخاري [٢٦٥٤، ٥٩٧٦، ٦٢٧٣]، مسلم [٨٧].

أما (الشرك الأصغر) فإن خطره عظيم، فهو محبط للعمل الذي لابسه، وهو من العوائق التي تعرقل سير العبد إلى الله عَزَّوَجَلَّ. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤].

ومن الناس من يقصد بعبادته وجهَ الله عَزَّوَجَلَّ، وحمدَ الناس، وقد جاء التحذير من ذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**قال الله** تَبَارَكَ وَتَعَالَى: **أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**))(١). قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير. والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه، ويأثم به"(٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "والرياء ينقسم قسمين: فإن كان الرياء في عقد الإيمان فهو كفر ونفاق، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار. وإن كان الرياء لمن سلم له عقد الإيمان من الشرك، ولحقه شيء من الرياء في بعض أعماله، فليس ذلك بمخرج من الإيمان إلا أنه مذموم فاعله؛ لأنه أشرك في بعض أعماله حَمْدَ المخلوقين مع حَمْدِ ربه، فحُرِم ثواب عمله ذلك"(٣).

والشرك الخفي قد يتسلل إلى بعض العبادات فيفسدها. وقد رُوِيَ أنَّ من الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل. وسيأتي بيان ذلك مفصلًا في مبحث: (الرياء).

---

(١) صحيح مسلم [٢٩٨٥].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٦).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١١٣).

ثالثًا: الوقاية من خطر الشرك:

ويقال في الوقاية من خطر (الشرك الأكبر) ما قيل في الوقاية من خطر (الكفر)؛ لما علمتَ من الصلة بينهما.

واتخاذ سبل الوقاية من أخطار الشرك بشقيه يقتضي أولًا: معرفة السبب والمسبِب، وثانيًا: العلاج النافع. ولا ريب أن تشخيص الداء –ولا سيما إذا لم يكن قد استفحل أمره- يعين على العلاج الناجع.

ومن أهم أسباب الوقاية من خطر (الشرك الأكبر):

١ - التمسك بما يقابل الشرك من التوحيد الخالص؛ فإن التحقق بالتوحيد يقي الإنسان من مخاطر الشرك وآثاره.

وتحقيق التوحيد إنما يكون بتخليصه من الشرك الأكبر والأصغر، ومن البدع والمعاصي.

٢ – اللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والاستعاذة من الشرك -كبيره وصغيره-:

وإذا كان العبدُ يسأل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الثبات على طاعته فينبغي في المقابل أن يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من الشرك -كبيره وصغيره-، وأن يستغفر الله عَزَّوَجَلَّ من الشرك الخفي المحتمل الذي قد يتسلل إلى بعض العبادات فيفسدها.

٣ - غرس بذور الإيمان والتوحيد في الأبناء من أول النشأة، والنأي بهم عن مواطن الشبهات والمعاصي والبدع.

٤ - الحذر من محبطات الأعمال، ومزيلات الإحسان من نحو: الألفاظ الشركية، كدعاء غير الله عَزَّوَجَلَّ، والحلف بغير الله جَلَّوَعَلَا، والاستغاثة والاستعانة بالمخلوقين فيما لا يقدر عليه إلا الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة:٧٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ

﴿مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ ﴿١٤﴾﴾ [فاطر:١٣-١٤].

٥ - إخلاص العمل والقصد والنية:

إن الرياء يذهب بمقاصد العبادات وغاياتها وآثارها، ويفرغها من حقيقتها وجوهرها، فتصبح من غير إخلاص جوفاء لا تحقق آثارها في القلب، ولا تدفع إلى العمل الصالح.

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥]: "الإخلاص هنا يراد به: التوحيد وترك الشرك أو ترك الرياء، وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال، وهذا الإخلاص في التوحيد من الشرك الجلي، وهذا الإخلاص في الأعمال من الشرك الخفي.

واعلم أن الأعمال ثلاثة أنواع: مأمورات ومنهيات ومباحات، فأما المأمورات فالإخلاص فيها عبارة عن خلوص النية لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، بحيث لا يشوبها بنية أخرى، فإن كانت كذلك فالعمل خالص مقبول، وإن كانت النية لغير وجه الله عَزَّوَجَلَّ، من طلب منفعة دنيوية، أو مدح أو غير ذلك فالعمل رياء محض مردود، وإن كانت النية مشتركة ففي ذلك تفصيل فيه نظر واحتمال.

وأما المنهيات فإن تركها دون نية خرج عن عهدتها، ولم يكن له أجر في تركها وإن تركها بنية وجه الله عَزَّوَجَلَّ حصل له الخروج عن عهدتها مع الأجر.

وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك فإن فعلها بغير نية لم يكن فيها أجر، وإن فعلها بنية وجه الله جَلَّ وَعَلَا فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به وجه الله جَلَّ وَعَلَا مثل أن يقصد بالأكل: القوة على العبادة، ويقصد بالجماع: التعفف عن الحرام"[(١)].

(١) تفسير ابن جزي (٢/ ٥٠١- ٥٠٢).

٦ – اليقظة والتبصر بآفات الشرك وعواقبه ومآلاته وآثاره.

٧ – التوبة والإنابة إلى الله عَزَّوَجَلَّ.

٨ – التفقه في الدين، ومجالسة العلماء الصادقين، والأخذ عنهم، وعدم الاكتفاء بمطالعة الكتب. قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العلماء هم الأدِلاءُ فإذا فُقِدُوا ضَلَّ السَّالِك"[١].

٩ – ملازمة أصحاب القلوب السليمة من أهل الفضل والصلاح.

وسيأتي بيان أسباب الوقاية والعلاج من خطر (الشرك الأصغر) في مبحث: (الرياء).

---

(١) التبصرة، لابن الجوزي (٢/ ١٩٢).

المبحث الثالث
النفاق

أولًا: خطورة النفاق وبيان عاقبته:

النفاق أن يظهر الإيمان باللسان، ويكتم الكفر بالقلب. ولا يطلق هذا الاسم على من يظهر شيئًا ويخفي غيره مما لا يختص بالعقيدة. وقد يطلق النفاق على الرياء[١]؛ لأن كليهما إظهار غير ما في الباطن[٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن أساس النفاق الذي بني عليه الكذب، وأن يقول الرجل بلسانه ما ليس في قلبه، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن المنافقين أنهم يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم"[٣].

والنفاق يعتمد على ثلاث خصال وهي: الكذب القولي، والكذب الفعلي، وهو الخداع، ويقارن ذلك الخوف؛ لأن الكذب والخداع إنما يصدران ممن يتوقى إظهار حقيقة

---

(١) لأنه يدخل في باب الكذب، الذي هو أساس النفاق، كمن يظهر للناس أنه عابد لله عَزَّوَجَلَّ، فيتقن العبادة عند اطلاع الخلق عليه؛ ليثنوا عليه خيرًا، ويتوصل إلى غايات ومصالح عندهم، فإذا خلا بنفسه فرَّط وأضاع، فهذا نوع من الكذب؛ لأن الكذب لا يكون بالقول فحسب، وإنما يكون كذلك بالفعل والمخادعة. وفي فعل المرائي إظهار لخلاف ما يبطن؛ فلذلك عده البعض نفاقًا.

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (نفق) (٥/٩٨)، لسان العرب (١٠/٣٥٩)، شرح سنن أبي داود، لبدر الدين العيني (٣/٢٣)، التعريفات (ص:٢٤٥)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٦/١٧٨)، (١٣/١٨٦).

(٣) منهاج السنة النبوية (٢/٤٦).

أمره، وذلك لا يكون إلا لخوف ضر، أو لخوف إخفاق سعي، وكلاهما مؤذن بقلة الشجاعة والثبات والثقة بالنفس وبحسن السلوك(١).

وقد حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المؤمنينَ من المنافقين، وجاء في الكتاب(٢) والسنة بيان صفاتهم وأحوالهم وعاقبتهم.

وإن الله جَلَّ وَعَلَا لا يضره كيد المنافقين وخداعهم، ولا يضر المؤمنين أن يظهر المنافقون الإيمان، فتسلم بذلك أموالهم، وتحقن دماؤهم(٣)؛ لأن كيدهم يعود عليهم بالخزي والفضيحة في الدنيا، والحزن المستمر بسبب ما يحصل للمؤمنين من القوة والنصرة. ثم في الآخرة لهم العذاب الأليم بسبب كذبهم وكفرهم وفجورهم.

وكما أن النفاق من أعظم الذنوب فهو كذلك أكبر خطر يهدد وحدة المسلمين. ويعظم الخطر إذا تصدَّر المنافقون منابرَ الدَّعوة والإعلام، وتبوؤا المناصب العالية، فأشاعوا الباطل وروجوا له، وأخمدوا صوت الحق، فاغتر بهم خلق كثير، فضلوا وأضلوا، وقد حذَّرنا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داعية يظهر خلاف ما يبطن، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**))(٤).

---

(١) التحرير والتنوير (٢٨١/١).

(٢) انظر الآيات: البقرة [٩-٢٠]، النساء [٦١-٦٣]، [٨٨-٨٩]، [١٣٨-١٤٥]، الأنفال [٤٩]، التوبة [٤٥-٧٠]، الأحزاب [١٢-٢٠]، [٥٩-٦٢]، [٧٣]، الفتح [٦]، الحديد [١٣-١٥]، المنافقون [١-٨]..الخ. ومن السور التي فضحت المنافقين مبينة صفاتهم وأحوالهم: (سورة التوبة)، وكذلك (سورة الأحزاب)، و(سورة المنافقين).

(٣) المنافق إذا لم يظهر ما في باطنه من مخالفة الدين، وأظهر الأعمال الظاهرة من الإسلام؛ فهو في الظاهر مسلم، وتجري عليه أحكام الإسلام الظاهرة في الدنيا، ويعامل معاملة المسلمين؛ لأننا لم نؤمر بالشق عن ما في القلوب، فلا اطلاع لنا على دخيلة الأنفس.

(٤) أخرجه أحمد [١٤٣]، وابن حميد [١١]، والبزار [٣٠٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٤١]، قال الهيثمي (١٨٧/١): "رواه البزار وأحمد وأبو يعلى، ورجاله موثقون". وأخرجه البزار [٣٥١٤]، والطبراني في=

والنفاق كالكفر والشرك درجات ومراتب؛ منها ما هو مخرج من الإسلام، ومنها غير مخرج منه:

والنفاق في الشرع ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: النفاق الأكبر:

وهو أن يظهر الإنسان الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، ويبطن الكفر، وقد نزل القرآن بذم أهله.

ويترتب على هذا النوع ما يترتب على الكفر الأكبر؛ من حيث انتفاء الإيمان عن صاحبه، وخلوده في جهنم؛ لكن المنافق أشد عذابًا من الكافر؛ كما أخبر الحق عَزَّوَجَلَّ أن المنافقين في الدرك الأسفل من النَّار، ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:١٤٦].

والنفاق: إذا أطلق ذكره في القرآن؛ فإن المراد به النفاق الأكبر المنافي للإيمان.

والثاني: النفاق الأصغر:

وهو نفاق العمل، وهو أن يظهر الإنسان علانية صالحة، ويبطن ما يخالف ذلك.

وأصول هذا النفاق ترجع إلى الخصال المذكورة في هذه الأحاديث، وهي خمسة:

أحدها: أن يحدث بحديث لمن يصدقه به وهو كاذب له.

والثاني: إذا وعد أخلف.

=(الكبير) [٥٩٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٩] عن عبد الله بن بريدة، عن عمران بن حصين.
قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١/١٨٧): "رواه الطبراني في (الكبير) والبزار، ورجاله رجال الصحيح".

والثالث: إذا خاصم فجر، ويعني بالفجور: أن يخرج عن الحق عمدًا حتى يصير الحق باطلًا والباطل حقًّا.

الرابع: إذا عاهد غدر، ولم يف بالعهد.

الخامس: الخيانة في الأمانة، فإذا اؤتمن الرجل أمانة، فالواجب عليه أن يؤديها(١).

والحاصل أن النفاق الأصغر هو نفاق الأعمال ونحوها، للحديث المشهور عنه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ((**آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إذا حَدَّثَ كَذَب، وإذا وَعَدَ أَخْلَف، وإذا اؤْتُمِنَ خَان**))(٢)، وقال صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ: ((**أربعٌ من كُنَّ فيه كان منافقًا خالصًا، ومن كانت فيه خَصْلَةٌ منهُنَّ كانت فيه خَصْلَةٌ من النِّفاق حتى يَدَعَهَا: إذا اؤْتُمِنَ خَان، وإذا حدَّثَ كَذَب، وإذا عاهدَ غَدَر، وإذا خاصم فَجَر**))(٣).

وفي رواية مسلم: ((**إذا وعدَ أخلفَ**)) بدل ((**وإذا ائتُمِن خان**))(٤).

ويسميه بعض أهل العلم: (النفاق العملي)؛ لأنه يتعلق بالأعمال، وليس في الاعتقاد، وأطلق عليه بعض أهل العلم أيضًا: (نفاقًا دون نفاق). وحكم هذا النفاق أنه محرم، وكبيرة من كبائر الذنوب، ومن فعل خصلة من خصاله فقد تشبه بالمنافقين، ولكنه لا يخرج من ملة الإسلام بإجماع أهل العلم(٥).

قال القاضي ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النفاق هو إظهار القول باللسان أو الفعل بخلاف ما في القلب من القول والاعتقاد.

---

(١) انظر: جامع العلوم والحكم (٢/٤٨١– ٤٨٨).

(٢) صحيح البخاري [٣٣، ٢٦٨٢، ٢٧٤٩، ٦٠٩٥]، مسلم [٥٩].

(٣) صحيح البخاري [٣٤، ٢٤٥٩، ٣١٧٨]، مسلم [٥٨].

(٤) صحيح مسلم [٥٨].

(٥) انظر: الجواهر المضية (ص:١٣)، تسهيل العقيدة الإسلامية، عبد الله الجبرين (ص:٤٥٣).

أصوله وهي قسمان: أحدهما: أن يكون الخبر أو الفعل في توحيد الله وتصديقه، أو يكون في الأعمال، فإن كان في التوحيد كان صريحًا، وإن كان في الأعمال كانت معصية، وكان نفاقًا دون نفاق -كما تقدم القول في كفر دون كفر-"(١).

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النفاق: هو إظهار الخير وإسرار الشر، وهو أنواع: اعتقادي، وهو الذي يخلد صاحبه في النار، وعملي وهو من أكبر الذنوب"(٢).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن بعض النفاق كفر دون بعض، والنفاق لغة: مخالفة الباطن للظاهر، فإن كان في اعتقاد الإيمان فهو نفاق الكفر، وإلا فهو نفاق العمل، ويدخل فيه: الفعل والترك، وتتفاوت مراتبه"(٣).

وقد توعد الله عَزَّوَجَلَّ المنافقين -النفاق الأكبر- بالعذاب في الآخرة فقال: ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٣٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، وقال: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء:١٤٥]، وقال: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة:٦٨]، وقال: ﴿لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ﴾ [الأحزاب:٧٣]، وقال: ﴿وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح:٦]، وقال: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ۝١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ

(١) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٩٧/١٠).
(٢) تفسير ابن كثير (١/ ١٧٦).
(٣) فتح الباري (٨٩/١).

فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ ﴿١٤﴾ فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلَا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلَاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٥﴾﴾ [الحديد:١٣-١٥]، وقال: ﴿سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ﴾ [المنافقون:٦].

ويقال في النفاق الأكبر ما قيل الكفر الأكبر، والشرك الأكبر من حيث الضَّلال والإضلال، بل إنَّ إضلال المنافق وخطره أعظم أثرًا؛ لما فيه من الخداع والكيد والمكر.

ويقال كذلك في النفاق الأصغر ما قيل في سابقيه من حيث كونه من أسباب الخذلان وعدم التوفيق، والاستدراج إلى الغواية، وأنه يجر إلى مفاسد عظيمة.

ثانيًا: الوقاية من خطر النفاق والعلاج:

يقال في الوقاية من خطر (النفاق الأكبر): ما قيل في أسباب الوقاية من (الكفر الأكبر)، وكذلك ما قيل في أسباب الوقاية من (الشرك الأكبر).

ويقال كذلك في أسباب الوقاية من (النفاق الأصغر): ما قيل في أسباب الوقاية من (الكفر الأصغر)، وكذلك ما قيل في أسباب الوقاية من (الشرك الأصغر).

ومن أسباب الوقاية من خطر النفاق:

١ - إعداد الأجيال على أسس سليمة من التربية المبينة على العقيدة الصحيحة، وما ينبثق عنها من القيم والأخلاق الفاضلة كالصدق والوفاء وحسن المعاملة.. الخ.

٢ – سلوك نهج الأبرار في صفاتهم وأعمالهم، والتخلق بأخلاقهم، والبعد عن صفات أهل النفاق.

قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إخلاف الوعد والكذب من خصال النفاق، فيكون الوفاء والصدق من شعب الإيمان"[1].

فمن صفات الأبرار: الصدق، والوفاء، والإخلاص، وغيرها من الصفات الفاضلة والنبيلة. ومن صفات المنافقين: الكذب، والغدر، والخيانة، والكيد، والخداع، والإفساد، وإظهار السوء وإشاعته في قالب النصح، والقصد إلى إظهار الجميل مع قبح النية وفساد الطوية، والأمر بالمنكر والنهي عن المعروف، ومن صفاتهم كذلك: أنهم يقبضون أيديهم عن الإنفاق في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ويتركون أمر الله جَلَّوَعَلَا والقيام بطاعته حتى يصير عندهم بمنزلة المنسي. ومن صفاتهم: التولي والإعراض عن حكم الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والاستهزاء بالدين وأهله، والسخرية من المؤمنين، والميل إلى أعداء الدين ومظاهرتهم ومناصرتهم على المسلمين، وبغض الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وبغض ما جاء به، وكراهية ظهور الإسلام، وإفساد الحرث والنسل، وكثرة الحلف كذبًا، والتكاسل عن الصلاة، وقلة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، والاستكبار عن قبول الحق، إلى غير ذلك من الصفات القبيحة والمذمومة، وتقاعسهم عن الجهاد، وارتيابهم كما أخبر الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم في نحو قوله: ﴿إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥]، وقوله: ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الأحزاب:١٢].

---

(١) الإكليل (ص:١٤٣).

٣ - الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ:

جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من مات ولم يَغْزُ، ولم يُحَدِّثْ به نفسه، مات على شُعْبَة مِنْ نِفَاق**))(١)، أي: نوع من أنواع النفاق؛ أي: من مات على هذا فقد أشبه المنافقين والمتخلفين عن الجهاد، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلِّفين عن الجهاد في هذا الوصف؛ فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق. وفي هذا الحديث: أن من نوى فعل عبادة فمات قبل فعلها لا يتوجَّه عليه من الذم ما يتوجَّه على من مات ولم ينوها"(٢).

٤ — الإخلاص في العمل، والبعد عن الرياء:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ﴾ [النساء:١٤٢].

٥ — الحرص على أداء الصلاة بأركانها وشروطها وآدابها، والقيام إلى الصلاة بهمَّةٍ ونشاطٍ ورغبة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن المؤمنين: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، وقال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾ [النساء:١٤٢]، ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا﴾ [المائدة:٥٨]، ﴿وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى﴾ [التوبة:٥٤]، أي: يصلون مراءاة وهم متكاسلون متثاقلون، لا يرجون ثوابًا ولا يعتقدون على تركها عقابًا(٣).

---

(١) صحيح مسلم [١٩١٠].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٥٦/١٣)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٢٤٧٠/٦).

(٣) تفسير القرطبي (٤٢٢/٥).

وجميع الصلوات ثقيلة على المنافقين، والعشاء والفجر أثقل عليهم من سائر الصلوات كما جاء في الحديث: ((**إن أثقل صلاة على المنافقين: صلاة العشاء، وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبوا..**))[(١)].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن كثيرا من المصلين لا يعرفون فائدة الصلاة حقيقة، ولا يقدرونها حق قدرها؛ ولذلك ثقلت الصلاة عليهم، ولم تكن قرة لأعينهم، ولا راحة لأنفسهم، ولا نورًا لقلوبهم. ترى كثيرًا منهم ينقرون الصلاة نقر الغراب لا يطمئنون فيها، ولا يذكرون الله جَلَّ وَعَلَا فيها إلا قليلًا، وهؤلاء لا صلاة لهم، ولو صلوا ألف مرة؛ لأن الطمأنينة في الصلاة ركن من أركانها؛ ولذلك قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للرجل الذي كان لا يطمئن في صلاته: ((**ارْجِعْ فَصَلِّ فإنَّكَ لم تُصَلِّ**))[(٢)]، فصلى عدة مرات، وكل مرة يقول له النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ارْجِعْ فَصَلِّ فإنَّكَ لم تُصَلِّ**))، حتى علَّمه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأمره بالطمأنينة"[(٣)].

وقد جاء في الحديث: عن العلاء بن عبد الرحمن أنه دخل على أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في داره بالبصرة، حين انصرف من الظهر، وداره بجنب المسجد، فلما دخلنا عليه، قال: أصليتم العصر؟ فقلنا له: إنما انصرفنا الساعة من الظهر، قال: فصلوا العصر، فقمنا، فصلينا، فلما انصرفنا، قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**تلك صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، يجلس يَرْقُبُ الشَّمس حتى إذا كانت بين قَرْنَي الشَّيطان، قامَ فَنَقَرَهَا أربعًا، لا يذكرُ الله فيها إلَّا قليلًا**))[(٤)].

(١) صحيح مسلم [٦٥١].

(٢) الحديث في (صحيح البخاري) [٧٥٧، ٧٩٣، ٦٢٥١، ٦٦٦٧]، و(صحيح مسلم) [٣٩٧].

(٣) الضياء اللامع (ص:١٣٢-١٣٣).

(٤) صحيح مسلم [٦٢٢].

وعن أبي عبد الله الأشعري قال: صلّى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأصحابه، ثم جلس في طائفة منهم، فدخل رجل، فقام يصلي، فجعل يركع وينقر في سجوده، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أترون هذا، من مات على هذا مات على غير ملة محمد، ينقر صلاته كما يَنْقُرُ الْغُرَابُ الدَّمَ، إنما مثل الذي يركع وينقر في سجوده كالجائع لا يأكل إلا التمرة والتمرتين، فماذا تغنيان عنه، فأسبغوا الوضوء، ويل للأعقاب من النار، أتموا الركوع والسجود**)) قال أبو صالح: فقلت لأبي عبد الله الأشعري: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: أمراء الأجناد: عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، ويزيد بن أبي سفيان، وشرحبيل بن حسنة، كل هؤلاء سمعوه من النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ(١).

٦ - كثرة الذكر والدعاء والتأمل والتدبر لآيات الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى:

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن المؤمنين: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [آل عمران:١٩١].

وقال عن المنافقين: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ أمان من النفاق؛ فإن المنافقين قليلوا الذكر لله عَزَّوَجَلَّ. وقال كعب: من أكثر ذكر الله عَزَّوَجَلَّ برئ من النفاق؛ ولهذا -والله أعلم- ختم الله عَزَّوَجَلَّ سورة المنافقين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩]، فإن في ذلك تحذيرًا من فتنة المنافقين الذين غفلوا عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فوقعوا في النفاق. والله عَزَّوَجَلَّ أكرم من أن يبتلي قلبًا ذاكرًا بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ"(٢).

(١) أخرجه البخاري في (التاريخ الكبير) (٢٤٧/٤)، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٤٩٤]، وابن خزيمة [٦٦٥]، والبيهقي [٢٥٧٣]، وابن عساكر (٢٣٩/٦٥).

(٢) باختصار من الوابل الصيب من الكلم الطيب (ص:٨٠-٨١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن أكثر ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، فقد باينهم في أوصافهم؛ ولهذا ختمت سورة المنافقين بالأمر بذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وأن لا يلهي المؤمن عن ذلك مال ولا ولد، وأن من ألهاه ذلك عن ذكر الله، فهو من الخاسرين"(١).

ومن أسباب الوقاية من خطر النفاق: الدعاء، فقد كان النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من النفاق كما جاء في الحديث عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول في دعائه: ((**اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل، والبخل والهرم، والقسوة والغفلة، والذِّلَّة والْمَسْكَنَة، وأعوذ بك من الفقر والكفر، والشرك والنفاق، والسمعة والرياء، وأعوذ بك من الصَّمَم والْبَكَم، والجنون، والبرص والجذام، وسَيِّئ الأسقام**))(٢).

وقد روي عن جبير بن نُفَيْرٍ قال: دخلت على أبي الدرداء رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ منزله بحمص فإذا هو قائم يصلي في مسجده، فلما جلس يتشهد جعل يَتَعَوَّذُ بالله من النفاق، فلما انصرف قلت: غفر الله لك يا أبا الدرداء ما أنت والنفاق؟ قال: اللهم غفرًا -ثلاثًا- من يأمنُ البلاء؟ من يأمنُ البلاء؟ والله إن الرجل ليفتتن في ساعة فينقلب عن دينه(٣).

٧ - أن لا يوافق الكافرين والمنافقين وأهل البدع والشِّقاق، وأن يَعِظَهم ويزجرهم:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ﴾ [الأحزاب:١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٥١٦).

(٢) أخرجه ابن حبان [١٠٢٣]، والطبراني في (الصغير) [٣١٦]، والحاكم [١٩٤٤] وقال: "صحيح على شرط الشيخين". وأخرجه أيضًا: الضياء [٢٣٧٠]. قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠/١٤٣): "قلت: في الصحيح بعضه. رواه الطبراني في الصغير، ورجاله رجال الصحيح".

(٣) شعب الإيمان [٨٣١]، صفة النفاق وذم المنافقين، للفريابي [٦٩].

[الأحزاب:٤٨]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِي أَنفُسِهِمْ قَوْلًا بَلِيغًا﴾ [النساء:٦٣].

وقد نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن الركون إلى المنافقين وموالاتهم. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ [آل عمران:١١٨]. ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

ومن الركون إليهم: تسويدهم، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن بُرَيْدَة عن أبيه، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا تقولوا للمنافق: سَيِّدٌ؛ فإنَّهُ إن يَكُ سَيِّدًا فقد أسخطتم ربَّكم** عَزَّوَجَلَّ))(١).

٨ - التنبه لخطرهم وعدم الاغترار بصفاتهم وأحوالهم:

ينبغي على المكلف أن لا يغتر بقول المنافقين أو صفاتهم، وأن يتنبه لخطرهم، ويكون على حيطة وحذر منهم. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون:٤].

ومن أسباب الوقاية من خطر النفاق: أن يحذر المكلف أهل البدع، قال ابن تيمية: "البدع مظان النفاق كما أن السنن شعائر الإيمان"(٢).

---

(١) أخرجه أحمد [٢٢٩٣٩]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٧٦٠]، وأبو داود [٤٩٧٧]، والبزار [٤٣٨٢]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٠٠٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٤٥٤٢]. قال الإمام النووي: "رواه أبو داود بإسنادٍ صحيح" رياض الصالحين (ص:٤٦٤). وقال المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣/٣٥٩): رواه أبو داود والنسائي بإسناد صحيح".

(٢) مجموع الفتاوى (٢/٢٦٩).

وينبغي على المسلمين أخذ الحيطة والحذر حتى يأمنوا شرَّ المنافقين، ويسلموا مما يكيدون ويمكرون؛ فإن المنافقين وإن كانوا يبطنون خلاف ما يظهرون، لكن قد يعلم من أحوالهم وصفاتهم ما يرشد إلى ضرورة التنبه والتتبع إلى أن يتبين أمرهم.

٩ - مجاهدة المنافقين بالعلم والبيان، وعدم المجادلة أو الدفاع عنهم:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما مجاهدة الغير فإنها تنقسم إلى قسمين: قسم بالعلم والبيان، وقسم بالسلاح.

أما من مجاهدته بالعلم والبيان فهو الذي يتسمى بالإسلام وليس من المسلمين؛ مثل المنافقين وأهل البدع المكفرة وما أشبه ذلك، فإن هؤلاء لا يمكن أن نجاهدهم بالسلاح؛ لأنهم يتظاهرون بالإسلام وأنهم معنا، ولكننا نجاهدهم بالعلم والبيان، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [التوبة:٧٣]، فجاهد الكفار يكون بالسلاح، وجهاد المنافقين يكون بالعلم والبيان.

ولهذا كان الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يعلم بأن في أصحابه منافقين، ويعلمهم بأعيانهم، ولكنه لا يقتلهم، واستؤذن في قتلهم فقال: ((**لا يتحدث الناس بأن محمدًا يقتل أصحابه**))(١)، فكذلك الذين ينضوون تحت لواء الإسلام من أهل البدع لا نقاتلهم بالسلاح، لكننا نقاتلهم بالعلم والبيان"(٢).

(١) صحيح البخاري [٤٩٠٥، ٤٩٠٧]، مسلم [٢٥٨٤].

(٢) شرح رياض الصالحين، محمد بن صالح العثيمين (٢/٥٥).

قال العز بن عبد السلام رَحِمَهُ اللَّهُ: "الغلظة على أهل الإيمان وفي غير مظانها قبيحة، كما أنها على أهل النفاق والكفر في مظانها حسنة"(١).

والمطلوب أن يجاهدهم بالعلم والبيان في مظانّه التي يُرجى فيها النَّفعُ، وأن يحذر الداعية الجدل المذموم، ونصرة الباطل، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُجَادِلْ عَنِ الَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ [النساء:١٠٧]، أي: يخونونها بالمعصية. وإنما قال: ﴿يَخْتَانُونَ أَنْفُسَهُمْ﴾ -وإن كانوا ما خانوا أنفسهم-؛ لأن مضرة خيانتهم راجعة إليهم، كما يقال فيمن ظلم غيره: ما ظلم إلا نفسه. وهذا يشمل النهي عن المجادلة، عن من أذنب وتوجه عليه عقوبة من حد أو تعزير، فإنه لا يجادل عنه بدفع ما صدر منه من الخيانة، أو بدفع ما ترتب على ذلك من العقوبة الشرعية.

١٠ - محبة الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

إنَّ من عقائد أهل السنة والجماعة: وجوب محبة أصحاب رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وتعظيمهم والاقتداء بهم؛ لما شرفهم الله عَزَّوَجَلَّ به من صحبة رسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والجهاد معه؛ لنصرة دين الإسلام، والهجرة في سبيله.

وقد دلت النصوص الصحيحة الصريحة على هذا المعتقد في كثير من الآيات والأحاديث(٢).

ولا شك أن من الخذلان الكبير وعدم التوفيق من الله تعالى للعبد: أن يجعل من نهجه وسعيه الوقوع في صحابة خير الخلق صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي عنهم، نصروا الدين ونشروه، وهم الذين قاتلوا المشركين، ونقلوا القرآن والسنَّة والأحكام، وبذلوا أنفسهم ودماءهم وأموالهم في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وقد اختارهم الله جَلَّ وَعَلَا لصحبة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلا يسبهم ولا يبغضهم إلا منافق.

---

(١) شجرة المعارف والأحوال (ص:٩٩).

(٢) انظر: المحبة صورها وأحكامها، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:١٥٣).

وقد جاء في الحديث: ((**آية الإيمان: حب الأنصار، وآية النفاق بغض الأنصار**))(١). ((**الأنصار لا يحبهم إلا مؤمن، ولا يبغضهم إلا منافق، فمن أحبهم أحبه الله، ومن أبغضهم أبغضه الله**))(٢).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكذلك حب المهاجرين -الذين هم أفضل من الأنصار- من الإيمان"(٣).

وقال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة، إنه لعهد النبي الأمي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلي: أن لا يحبني إلا مؤمن، ولا يبغضني إلا منافق(٤).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعنى هذه الأحاديث أن من عرف مرتبة الأنصار وما كان منهم في نصرة دين الإسلام، والسعي في إظهاره، وإيواء المسلمين، وقيامهم في مهمات دين الإسلام حق القيام، وحبهم النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحبه إياهم، وبذلهم أموالهم وأنفسهم بين يديه، وقتالهم ومعاداتهم سائر الناس؛ إيثارًا للإسلام، وعرف من علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قربه من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وحب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ له، وما كان منه في نصرة الإسلام، وسوابقه فيه، ثم أحب الأنصار وعليًا؛ لهذا، كان ذلك من دلائل صحة إيمانه، وصدقه في إسلامه؛ لسروره بظهور الإسلام، والقيام بما يرضي الله عَزَّ وَجَلَّ

(١) صحيح البخاري [١٧، ٣٧٨٤]، مسلم [٧٤].

(٢) صحيح البخاري [٣٧٨٣]، مسلم [٧٥].

(٣) فتح الباري، لابن رجب (٦٥/١). فضَّل الله عَزَّ وَجَلَّ المهاجرين على الأنصار، فقد بدأ بهم في قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ﴾ [التوبة:١١٧]، وقوله: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر:٨]، ثم قال في الأنصار: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾ [الحشر:٩]، وقد ذكر الله عَزَّ وَجَلَّ المهاجرين قبل الأنصار؛ لأن المهاجرين تركوا ديارهم وأموالهم وبيوتهم، وخرجوا طاعة لله عَزَّ وَجَلَّ، أما الأنصار فهم في بلدهم، في بيوتهم، وفي أموالهم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ جميعًا.

(٤) صحيح مسلم [٧٨].

ورسوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ومن أبغضهم كان بضد ذلك، واستدل به على نفاقه وفساد سريرته -والله أعلم-"(١).

قال بعض السلف رَحِمَهُمُ اللهُ: حب أبي بكر وعمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا إيمان، وبغضهما نفاق، وحب بني هاشم إيمان، وبغضهم نفاق(٢).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ اللهُ: ومن انتقص أحدًا منهم فهو مبتدع مخالف للسنة والسلف الصالح، وأخاف أن لا يصعد له عمل إلى السماء حتى يحبهم جميعًا، ويكون قلبه سليمًا"(٣).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ: "فإن القدح في خير القرون الذين صحبوا الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قدح في الرسول صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال مالك وغيره من أئمة العلم: هؤلاء طعنوا في أصحاب رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إنما طعنوا في أصحابه؛ ليقول القائل: رجل سوء كان له أصحاب سوء، ولو كان رجلًا صالحًا لكان أصحابه صالحين"(٤).

١١ – المحافظة على عبادة الخفاء:

جاء في الحديث: ((**إن الله يحب العبد التقي، الغني، الخفي**))(٥)، ففي الحديث إشارة إلى أن أحب العمل: ما كان خالصًا لله عَزَّ وَجَلَّ، وبعيدًا عن الرياء، وأن عبادة الخفاء فيها طهارة للقلب من النفاق، حيث يغيب عن الخلق، ولا يشهد على عمله إلا الخالق جَلَّ وَعَلَا. وسيأتي مزيد من البيان عن (عبادة الخفاء) في (الوقاية من الرياء).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٦٤).
(٢) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية (٤/٤٣٥).
(٣) الشفا بتعريف حقوق المصطفى (٢/١٢١).
(٤) مجموع الفتاوى (٤/٤٢٩).
(٥) أخرجه مسلم في (صحيحه) [٢٩٦٥].

١٢ - ترك البدع:

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "البدع مظان النفاق كما أن السنن شعائر الإيمان"(١).

١٣ – الاحتراز عن الذنوب، وترك الشبهات:

ومن الذنوب التي تورث النفاق: اعتياد سماع المعازف والأغاني(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اعلم أن للغناء خواصَّ لها تأثير في صبغ القلب بالنفاق، ونباته فيه كنبات الزرع بالماء. فمن خواصه: أنه يُلهي القلب ويصده عن فهم القرآن وتدبره، والعمل بما فيه، فإن الغناء والقرآن لا يجتمعان في القلب أبدًا؛ لما بينهما من التضاد؛ فإن القرآن ينهى عن اتباع الهوى، ويأمر بالعفة، ومجانبة شهوات النفوس، وأسباب الغيِّ، وينهى عن اتباع خطوات الشيطان، والغناء يأمر بضد ذلك كله، ويحسنه، ويهيِّج النفوس إلى شهوات الغيِّ، فيثير كامنها، ويزعج قاطنها، ويحركها إلى كل قبيح، ويسوقها إلى وصْل كل مليحة ومليح، فهو والخمر رضيعا لبان، وفي تهييجهما على القبائح فرسا رهان...الخ.

ويقول أيضا: فمن علامات النفاق: قلة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، والكسل عند القيام إلى الصلاة، ونقر الصلاة، وقل أن تجد مفتونًا بالغناء إلا وهذا وصفه.

وأيضًا فإن النفاق مؤسس على الكذب، والغناء من أكذب الشعر، فإنه يحسن القبيح ويزينه، ويأمر به، ويقبح الحسن ويزهد فيه، وذلك عين النفاق.

وأيضًا فإن النفاق غش ومكر وخداع، والغناء مؤسس على ذلك.

وأيضًا فإن المنافق يفسد من حيث يظن أنه يصلح، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ بذلك عن المنافقين، وصاحب السماع يفسد قلبه وحاله من حيث يظن أنه يصلحه. والمغنى يدعو القلوب إلى فتنة الشهوات، والمنافق يدعوها إلى فتنة الشبهات.

---

(١) مجموع الفتاوى (٢/٢٦٩).

(٢) إغاثة اللهفان (١/٢٤٨-٢٥٠)، انظر: مدارج السالكين (١/ ٤٨٣- ٤٨٤).

وقد كتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى مؤدب ولده: ليكن أول ما يعتقدون من أدبك: بغض الملاهي، التي بدؤها من الشيطان، وعاقبتها سخط الرحمن؛ فإنه بلغني عن الثقات من أهل العلم: أن صوت المعازف، واستماع الأغاني، واللهج بها ينبت النفاق في القلب كما ينبت العشب على الماء اهـ. فالغناء يفسد القلب، وإذا فسد القلب هاج فيه النفاق[1].

وإن من أعظم صفات المنافقين أنهم يتبعون الشبهات كما أخبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عنهم في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧][2].

١٤ - مجالسة العلماء والصالحين، ومطالعة سير السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان من العلماء الأبرار:

وقد كان السلف رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ يخافون الله عَزَّوَجَلَّ، ويخشون أن لا تقبل منهم أعمالهم. قال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في باب: (خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر): قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا. وقال ابن أبي مليكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل . ويذكر عن الحسن: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق. وما يحذر من الإصرار على النفاق

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان (١/٢٤٨-٢٥١)، انظر: مدارج السالكين (١/ ٤٨٣- ٤٨٤).

(٢) انظر: خطورة الشبهات في كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، عقبة (اشتباه الحقيقة) (١/٣٥١).

والعصيان من غير توبة؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥](١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما هذا -والله أعلم-؛ لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغيير ما لم يعهدوه، ولم يقدروا على إنكاره، فخشوا على أنفسهم أن يكونوا في حيز من داهن ونافق"(٢).

وخوفهم إنما كان من النفاق الأصغر لا الأكبر؛ لأنه لا يعقل أن يكون النفاق الذي خافه أولئك الصحابة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ هو إبطان الكفر؛ فإنهم يعلمون من أنفسهم أنهم لا يبطنون كفرًا، وقد زكاهم الله عَزَّوَجَلَّ وأثنى عليهم، فهم يعلمون براءتهم من هذا النفاق.

(١) صحيح البخاري (١٨/١).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠٩/١).

المبحث الرابع
السِحر

أولًا: تعريف السحر:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(السِحْر): الْأَخْذَةُ. وكلُّ ما لَطُفَ مَأْخَذُهُ وَدَقَّ فهو سِحْرٌ. وقد سَحَرَهُ يَسْحَرُهُ سِحْرًا. و(الساحر): العالِمُ. وسَحَرَهُ أيضًا: بمعنى: خَدَعَه. و(سَحَّرَهُ تَسْحِيرًا) مِثْلُه"[1].

وقيل: السِّحْرُ: كلُّ ما لَطُفَ ودَقَّ. سَحَرَهُ. إذا أبدى له أمرًا يَدِقُّ عليه ويَخْفَى[2].

قال الليث رَحِمَهُ ٱللَّهُ: السحر: عمل تُقُرِّبَ فيه إلى الشَّيْطَانِ وَبِمَعُونَةٍ منه، كلُّ ذلك الأمر كَيْنُونَةٌ لِلسِّحْر، ومن السحر: الأُخْذَةُ التي تأخذ العين حتى يُظَنَّ أن الأمر كما يُرَى، وليس الأصل على ما يُرى.

وقيل: إنما سمت العربُ السحرَ: سحرًا؛ لأنه يزيل الصحة إلى المرض، وإنما يقال: سحره، أي: أزاله عن البغض إلى الحب[3].

---

(١) الصحاح، مادة: (سحر)، (٦٧٩/٢).

(٢) انظر: الدر المصون (٣١/٢)، البحر المحيط في التفسير (٥١١/١)، ابن عادل (٣٢٧/٢).

(٣) انظر: تهذيب اللغة، للأزهري، مادة: (سحر) (١٦٩/٤-١٧٠)، لسان العرب (٣٤٨/٤).

وقد يسمى السحر: طبًّا. والمطبوب: المسحور. قال أبو عبيدة: إما سمي السحر: طبًّا على التفاؤل بالبُرْء. ومثله في (النهاية)(١).

ومن الألفاظ ذات الصلة: الكهانة، والعرافة، والتنجيم، والشعوذة.

وذكر بعض المفسرين أن السحر في القرآن على خمسة أوجه:

أحدها: السحر المعروف الذي يأخذ بالعين والقلب: ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢]، وقوله: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ﴾ [الأعراف:١١٦].

والثاني: العلم: ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾ [الزخرف:٤٩].

والثالث: الكذب: ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ﴾ [القمر:٢]، وقوله: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦].

والرابع: الجنون: ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَسْحُورًا﴾ [الإسراء:٤٧]، ومثله في [الفرقان:٨].

والخامس: الصرف: ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَنَّى تُسْحَرُونَ﴾ [المؤمنون:٨٩]، أي: تصرفون عن الحق(٢).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: (السحر) يطلق على معانٍ:

أحدها: ما لطف ودق: ومنه: (سحرت الصبي): خادعته واستملته، وكل من استمال شيئا فقد سحره، ومنه إطلاق الشعراء: سحر العيون؛ لاستمالتها النفوس، ومنه

---

(١) انظر: المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (طبب) (٩/١٣٥)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/١١٠)، لسان العرب (١/٥٥٣)، مقاييس اللغة (٣/٤٠٧)، تاج العروس (٣/٢٥٨).

(٢) نزهة الأعين النواظر (ص: ٣٥٤- ٣٥٥).

قول الأطباء: الطبيعة ساحرة، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾ [الحجر:١٥]، أي: مصروفون عن المعرفة ومنه حديث: ((**إنَّ من البيان لسِحْرًا**))(١).

الثاني: ما يقع بخداع وتخييلات لا حقيقة لها: نحو ما يفعله المشعوذ من صرف الأبصار عما يتعاطاه بخفة يده، وإلى ذلك الإشارة بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف:١١٦].

الثالث: ما يحصل بمعاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم: وإلى ذلك الإشارة بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَٰكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ﴾ [البقرة:١٠٢].

الرابع: ما يحصل بمخاطبة الكواكب واستنزال روحانياتها بزعمهم(٢).

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن لفظ: (السحر) في عرف الشرع مختص بكل أمر يخفى سببه، ويتخيل على غير حقيقته، ويجري مجرى التمويه والخداع، ومتى أطلق ولم يقيد أفاد ذم فاعله. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾ [الأعراف:١١٦]، يعني: موهوا عليهم حتى ظنوا أن حبالهم وعصيهم تسعى، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَىٰ﴾ [طه:٦٦]، وقد يستعمل مقيدا فيما يمدح ويحمد، ومنه قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**إنَّ من البيان لسِحْرًا**))(٣). قيل: معناه: من البيان ما يكتسب به من الإثم ما يكتسبه الساحر بسحره، فيكون فى معرض الذم. ويجوز أن يكون فى معرض المدح؛ لأنه تستمال به القلوب، ويرضى به الساخط، ويستنزل به الصعب. والسحر فى كلامهم: صرف الشيء عن وجهه"(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٥١٤٦، ٥٧٦٧].

(٢) انظر: المفردات، للراغب، مادة: (سحر) (ص:٤٠٠)، وانظر ذلك مفصلًا في (فتح الباري)، لابن حجر (٢٢٢/١٠).

(٣) تقدم.

(٤) انظر ذلك مفصلًا في (مفاتيح الغيب) (٦١٩/٣)، وغرائب القرآن (٣٤٦/١)، وابن عادل (٣٢٨/٢)، بصائر ذوي التمييز (١٩٧/٣).

ونحوه قول ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الزواجر)[(١)].

وقيل: السحر في الاصطلاح: مزاولة النفوس الخبيثة لأفعال وأقوال يترتب عليها أمور خارقة للعادة، ومذهب أهل السنة أنه حق، وله حقيقة، وأنه يؤلم ويمرض ويقتل، ويفرق ويجمع[(٢)].

وقال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المراد بالسحر: ما يستعان في تحصيله بالتقرب إلى الشيطان مما لا يستقل به الإنسان، وذلك لا يستتب إلا لمن يناسبه في الشرارة وخبث النفس"[(٣)].

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السحر هو نوع يستفاد من العلم بخواص الجواهر، وبأمور حسابية في مطالع النجوم، فيتخذ من تلك الجواهر هيكل على صورة الشخص المسحور، ويرصد به وقت مخصوص من المطالع، وتقرن به كلمات يتلفظ بها من الكفر والفحش المخالف للشرع، ويتوصل بسببها إلى الاستعانة بالشياطين، ويحصل من مجموع ذلك بحكم إجراء الله عَزَّوَجَلَّ العادة أحوال غريبة في الشخص المسحور"[(٤)].

وقال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحسر: عقد ورقى وكلام يتكلم به، أو يكتبه، أو يعمل شيئًا في بدن المسحور أو قلبه، أو عقله، من غير مباشرة له. وله حقيقة، فمنه ما يقتل، وما يمرض، ويأخذ الرجل عن امرأته فيمنعه وطأها، ومنه ما يفرق بين المرء وزوجه، وما يبغض أحدهما إلى الآخر، أو يحبب بين اثنين. وهذا قول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وذهب بعض أصحابه إلى أنه لا حقيقة له، إنما هو تخييل؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١٦٢/٢).

(٢) انظر: حاشيتا قليوبي وعميرة (١٧٠/٤)، مغني المحتاج (٣٩٤/٥)، تحفة المحتاج (٦٢/٩)، السراج المنير، للخطيب الشربيني (٨١/١).

(٣) تفسير البيضاوي (٩٧/١)، وانظر: حاشية الشهاب الخفاجي على البيضاوي (٢١٤/٢)، حاشية الطيبي على الكشاف (١٧/٣)، روح المعاني (٣٣٧/١).

(٤) إحياء علوم الدين (٢٩/١).

أَنَّهَا تَسْعَى﴾ [طه:٦٦]. وقال أصحاب أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن كان شيئًا يصل إلى بدن المسحور، كدخان ونحوه، جاز أن يحصل منه ذلك، فأما أن يحصل المرض والموت من غير أن يصل إلى بدنه شيء، فلا يجوز ذلك؛ لأنه لو جاز، لبطلت معجزات الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ؛ لأن ذلك يخرق العادات، فإذا جاز من غير الأنبياء عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، بطلت معجزاتهم وأدلتهم. ولنا، قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤﴾ [الفلق:١- ٤]، يعني: السواحر اللاتي يعقدن في سحرهن، وينفثن عليه، ولولا أن السحر له حقيقة، لما أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالاستعاذة منه. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَارُوتَ وَمَارُوتَ﴾ إلى قوله: ﴿فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾ [البقرة:١٠٢]...إلى غير ذلك"[(١)].

والسحر يطلق ويراد به:

١- الآلة التي يسحر بها.

٢- ويطلق ويراد به: فعل السحر.

والآلة تارة تكون معنى من المعاني فقط، كالرقى والنفث في العقد، وتارة تكون بالمحسوسات كتصوير الصورة على صورة المسحور، وتارة بجمع الأمرين الحسي والمعنوي، وهو أبلغ.

واختلف في السحر، فقيل: هو تخييل فقط ولا حقيقة له، وهذا اختيار أبي جعفر الإسترباذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الشافعية، وأبي بكر الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الحنفية، وابن حزم الظاهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وطائفة.

---

(١) المغني، لابن قدامة (٩/٢٨- ٢٩)، وانظر: الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٤/٣٠٧)، دقائق أولي النهى (٣/ ٤٠٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والصحيح أن له حقيقة، وبه قطع الجمهور، وعليه عامة العلماء، ويدل عليه الكتاب، والسنة الصحيحة المشهورة(١).

ثانيًا: الفرق بين السحر والمعجزة والكرامة:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والفرق بين السحر والمعجزة والكرامة: أن السحر يكون بمعاناة أقوال وأفعال حتى يتم للساحر ما يريد، والكرامة لا تحتاج إلى ذلك، بل إنما تقع غالبًا اتفاقًا. وأما المعجزة فتمتاز عن الكرامة بالتحدي. ونقل إمام الحرمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ الإجماع على أن السحر لا يظهر إلا من فاسق، وأن الكرامة لا تظهر على فاسق. ونقل النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (زيادات الروضة) عن المتولي نحو ذلك(٢). وينبغي أن يعتبر بحال من يقع الخارق منه، فإن كان متمسكًا بالشريعة، متجنبًا للموبقات، فالذي يظهر على يده من الخوارق: كرامة، وإلا فهو: سحر؛ لأنه ينشأ عن أحد أنواعه كإعانة الشياطين.

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٣): السحر: حيل صناعية يتوصل إليها بالاكتساب، غير أنها لدقتها لا يتوصل إليها إلا آحاد الناس. ومادته: الوقوف على خواص الأشياء، والعلم بوجوه تركيبها وأوقاته، وأكثرها تخييلات بغير حقيقة، وإيهامات بغير ثبوت، فيعظم عند من لا يعرف ذلك، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن سحرة فرعون: ﴿وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦] مع أن حبالهم وعصيهم لم تخرج عن كونها حبالًا وعصيًا.

---

(١) فتح الباري، لابن حجر (٢٢٢/١٠). وانظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين، للنووي (٣٤٦/٩)، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٢٠/٣).

(٢) انظر: روضة الطالبين وعمدة المفتين، للنووي (٣٤٦/٩)، وانظر: أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٨٢/٤)، مغني المحتاج (٣٩٤/٥)، حاشيتا قليوبي وعميرة (١٧٠/٤)، تحفة المحتاج (٦٢/٩).

(٣) يعني: صاحب (المفهم).

ثم قال: والحق أن لبعض أصناف السحر تأثيرًا في القلوب، كالحب والبغض، وإلقاء الخير والشر، وفي الأبدان بالألم والسَّقم، وإنما المنكور أن الجماد ينقلب حيوانًا أو عكسه بسحر الساحر، ونحو ذلك"(١).

وقال القرطبي (صاحب التفسير) رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال علماؤنا: السحر يوجد من الساحر وغيره، وقد يكون جماعة يعرفونه ويمكنهم الإتيان به في وقت واحد. والمعجزة لا يُمكِّن الله أحدًا أن يأتي بمثلها وبمعارضتها، ثم الساحر لم يدع النبوة، فالذي يصدر منه متميز عن المعجزة، فإن المعجزة شرطها اقتران دعوى النبوة والتحدي بها"(٢).

ويدل على ما تقدم قول الله عَزَّوَجَلَّ عن السحرة: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:١١٦].

فقوله: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا﴾، يعني: حبالهم وعصيهم. ﴿سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ﴾، يعني: صرفوا أعين الناس عن إدراك حقيقة ما فعلوا من التمويه والتخييل، وهذا هو السحر، وهذا هو الفرق بين السحر الذي هو فعل البشر، وبين معجزة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ التي هي فعل الله عَزَّوَجَلَّ؛ وذلك لأن السحر قلب الأعين وصرفها عن إدراك ذلك الشيء، والمعجزة قلب نفس الشيء عن حقيقته، كقلب عصا موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ حية تسعى"(٣).

وفي (حاشيتا قليوبي وعميرة): "واختلف هل فيه قلب أعيان، والأرجح: لا"(٤).

(١) فتح الباري (١٠/ ٢٢٣)، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٨/٥٧).

(٢) تفسير القرطبي (٢/٤٧).

(٣) تفسير الخازن (٢/٢٣٥- ٢٣٦).

(٤) انظر ذلك مفصلًا في (حاشيتا قليوبي وعميرة) (٤/١٧٠).

ثالثًا: السحر من الكبائر المتوعد عليها بالعذاب:

يتبين مما تقدم: أن السحرة مفسدون في الأرض، وأن الساحر خبيث النفس، يسعى غالبًا إلى إلحاق الضرر بالمسحور، وأن السحر لا يظهر إلا على يد فاسق لا يتورع عن الاستعانة بالشياطين، وعن التلفظ بكلمات من الكفر والفحش المخالف للشرع.

والسحر من كبائر الذنوب المتوعد عليها بالعذاب، كما جاء في حديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**اجتنبوا السبع الموبقات**))، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: ((**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**))[1].

ويدلُّ على عِظم هذا الذنب: أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قرَنه بالشرك، وعدَّه من السبع الموبقات، لما يترتَّب عليه من الأضرار الحسية والمعنوية، فهو من الذنوب العظيمة المهلكة، المورثة للآفات في الدنيا، والمتوعد عليها بالعذاب الشديد في الآخرة.

والساحر من أعظم المفسدين في الأرض، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس: ٨١].

وتعلم السحر وتعليمه حرام. قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: تعلم السحر حرام على المذهب الصحيح، وبه قطع الجمهور[2].

قال الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والصحيح من مذهب أصحابنا أن تعلمه حرام مطلقًا؛ لأنه توسل إلى محظور عنه غنى، وتوقيه بالتجنب أصلح وأحوط"[3].

(١) صحيح البخاري [٢٧٦٦، ٦٨٥٧]، مسلم [٨٩].

(٢) المجموع شرح المهذب (٢٧/١).

(٣) الكليات (ص: ٥١١).

وقال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وما للشيطان الملعون غرض في تعليمه الإنسان السحر إلا ليشرك به، قال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن هاروت وماروت: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ﴾..إلى أن قال: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ﴾ [البقرة:١٠٢]. فترى خلقًا كثيرًا من الضُّلَّال يدخلون في السِّحر ويظنُّونه حرامًا فقط، وما يشعرون أنه الكفر"(١). وقال بعض أهل العلم: ولا يظهر السحر إلا على يد فاسق إجماعًا(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "عمل السحر حرام، وهو من الكبائر بالإجماع، وقد عدَّه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من السبع الموبقات.

ومنه ما يكون كفرًا، ومنه ما لا يكون كفرًا، بل معصية كبيرة فإن كان فيه قول أو فعل يقتضي الكفر فهو كفر وإلا فلا وأما تعلمه وتعليمه فحرام فإن كان فيه ما يقتضي الكفر كفر واستتيب منه ولا يقتل فإن تاب قبلت توبته وإن لم يكن فيه ما يقتضي الكفر عزر وعن مالك الساحر كافر يقتل بالسحر ولا يستتاب بل يتحتم قتله كالزنديق"(٣).

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وبقول مالك قال أحمد وجماعة من الصحابة والتابعين"(٤).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التحقيق في هذه المسألة أن السحر نوعان –كما تقدم– منه ما هو كفر، ومنه ما لا يبلغ بصاحبه الكفر، فإن كان الساحر

---

(١) الكبائر، للذهبي (ص:١٠١)، بتحقيق: أبي عبيدة مشهور بن حسن.

(٢) انظر: البجيرمي على شرح المنهج (٤/ ١٩٧).

(٣) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٦/١٤)، فتح الباري، لابن حجر (٢٢٤/١٠) عمدة القاري (٢٧٩/٢١).

(٤) إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض (٤٤/٧).

استعمل السحر الذي هو كفر فلا شك في أنه يقتل كفرًا؛ لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من بدَّل دينه فاقتلوه**))(١).

وأظهر القولين عندي في استتابته أنه يستتاب، فإن تاب قبلت توبته. وقد بينت في كتابي: (دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب)(٢) في سورة: (آل عمران) أن أظهر القولين دليلًا: أن الزنديق تقبل توبته؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ لم يأمر نبيه ولا أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالتنقيب عن قلوب الناس، بل بالاكتفاء بالظاهر. وما يخفونه في سرائرهم أمره إلى الله عَزَّ وَجَلَّ. خلافًا للإمام مالك وأصحابه القائلين بأن الساحر له حكم الزنديق؛ لأنه مستمر بالكفر، والزنديق لا تقبل توبته عنده إلا إذا جاء تائبًا قبل الاطلاع عليه"(٣).

وقد جاء النهي عن تعاطي السحر وما يدخل في معناه، كما في حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**ما اقتبس رجلٌ علمًا من النُّجوم، إلا اقتبس بها شعبةً من السِّحْر، زاد ما زاد**))(٤).

وقوله: ((**اقتبس شعبة من السِّحْر**))، أي: قطعة. ((**زاد**))، أي: من السحر. ((**ما زاد**))، أي: من علم النجوم، أي: كلما زاد من هذا التعلم فإنه يزيد السحر. قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فوضع الماضي موضع المضارع للتحقيق"(٥).

---

(١) صحيح البخاري [٣٠١٧، ٦٩٢٢].

(٢) انظر: دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب (ص:٤٩- ٥٠).

(٣) أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن (٤/ ٥٢).

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٥٦٤٦]، وأحمد [٢٠٠٠]، وابن حميد [٧١٤]، وابن ماجه [٣٧٢٦]، وأبو داود [٣٩٠٥]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٧٣٢]، والطبراني في (الكبير) [١١٢٧٨]، وأبو الشيخ [٧٠١٢٢]، والبيهقي [١٦٥١٣]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "رواه أبو داود بإسناد صحيح" رياض الصالحين (ص:٣٦٩)، وقال العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص:١٤٦٠): "أخرجه أبو داود وابن ماجه بسند صحيح".

(٥) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٩/ ٢٩٩١).

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "علم النجوم المنهى عنه هو ما يدعيه أهل التنجيم من علم الكوائن والحوادث التي لم تقع وستقع في مستقبل الزمان كأخبارهم بأوقات هبوب الرياح، ومجيء المطر، وظهور الحر والبرد، وتغير الأسعار، وما كان في معانيها من الأمور، يزعمون أنهم يدركون معرفتها بسير الكبواكب في مجاريها، وباجتماعها واقترانها، ويدعون لها تأثيراً في السفليات، وأنها تتصرف على أحكامها، وتجري على قضايا موجباتها، وهذا منهم تحكم على الغيب، وتعاط لعلم استأثر الله عَزَّوَجَلَّ به، لا يعلم الغيب أحد سواه.

فأما علم النجوم الذي يدرك من طريق المشاهدة والحس، الذي يعرف به الزوال، ويعلم به جهة القبلة فإنه غير داخل فيما نهي عنه"[(١)].

وعلم التنجيم حرام، ويكون كفرًا وشركًا إذا اعتقد أن النجوم لها تأثير في المخلوقات وأنها فاعلة، وأما إذا أريد بعلم النجوم: معرفة الأوقات، ومعرفة الجهات كجهة القبلة، ومعرفة جهة السير في الليل؛ فإن هذا لا مانع منه، ولا بأس به، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل:١٦]، وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِى ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام:٩٧]، والناس يستدلون بالنجوم على جهات السير، وعلى جهة القبلة، وإذا حصل لهم أن ضاعوا في أسفارهم نظروا في مطالع النجوم ومغاربها، ونظروا إلى النجوم الثابتة التي تكون مستقرة، فيعرفون بذلك جهة القبلة، ويهتدون إلى جهة السير، وكذلك يعرفون الشمال من الجنوب والشرق من الغرب بالنجوم، فإن النجوم تطلع من الشرق، وتغرب في الغرب، ويعرف بذلك أيضاً الشمال والجنوب، فهذا تعلمه لا بأس به، وإنما المحذور تعلم العلم الذي فيه اعتقاد أن الكواكب والنجوم تؤثر في الكون، فهذا هو الأمر المحرم"[(٢)].

---

(١) معالم السنن (٤/٢٢٩-٢٣٠). ونحوه قول السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما ما يعلم به أوقات الصلاة وجهة القبلة فغير داخل فيه" حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/٤٠٤).

(٢) شرح سنن أبي داود، للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر، درس رقم [٤٤٠].

وفي (الصحيح): عن زيد بن خالد الجُهَنِيِّ، أنه قال: صَلَّى لنا رسول الله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ صلاة الصبح بالحديبية على إِثْرِ سَماءٍ كانت من الليلة، فلما انصرف أقبل على الناس، فقال: ((**هل تدرون ماذا قال ربكم؟**))، قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: ((**أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: مطرنا بفضل الله ورحمته، فذلك مؤمن بي وكافر بالكوكب، وأما من قال: بِنَوْءِ كذا وكذا، فذلك كافر بي ومؤمن بالكوكب**))(١).

قال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح رَحِمَهُاللَّهُ: "النوء في أصله ليس هو نفس الكوكب، فإنه مصدر: ناء النجم ينوء، أي: سقط وغاب.

وقيل: أي: نهض وطلع. فكان أهل الجاهلية إذا كان عند ذلك مطر ينسبونه إلى الساقط الغارب منهما.

وقيل: إلى الطالع منهما"(٢).

وقد نهى الشارع عن إتيان هؤلاء الكهان، وحذر من تصديقهم فيما يقولون، كما جاء في الحديث: عن معاوية بن الحكم السُّلَمِيِّ رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله أمورًا كنا نصنعها في الجاهلية، كنا نأتي الْكُهَّانَ، قال: ((**فلا تأتوا الْكُهَّانَ**))، قال: قلت: كنا نَتَطَيَّرُ قال: ((**ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه، فلا يَصُدَّنَّكُمْ**))(٣).

قال القاضي رَحِمَهُاللَّهُ: "كانت الْكِهَانَةُ في العرب على أضرب، منها: يكون للإنسان وَلِيٌّ من الْجِنِّ يخبره بما يسرقه من السمع من السماء، وهذا القسم بطل من حين بعث الله عَزَّوَجَلَّ نبينا صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

---

(١) صحيح البخاري [٨٤٦، ١٠٣٨]، مسلم [٧١].

(٢) انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦١/٢)، الكواكب الدراري (١٣٧/٦)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٣٧/٦).

(٣) صحيح مسلم [٥٣٧].

ومنها: أنه يخبره بما يطرأ أو يكون في أقطار الأرض، وما خفي عنه مما قرب أو بعد، وهذا لا يبعد وجوده.

ومنها: المنجمون، وهذا الضرب يخلق الله عَزَّوَجَلَّ فيه لبعض الناس قُوَّةً ما، لَكِنَّ الكذب فيه أغلب، ومن هذا الفن: العرافة، وصاحبها: عراف، وهو الذي يستدل على الأمور بأسباب ومقدمات يدعي معرفته بها، وهذه الأضرب كلها تسمى: الكهانة. وقد أكذبهم كلهم الشرع، ونهى عن تصديقهم وإتيانهم. ((**ذاك شيء يجده أحدكم في نفسه**)) معناه: أن كراهة ذلك تقع في نفوسكم في العادة ولكن لا تلتفتوا إليه ولا ترجعوا عما كنتم عزمتم عليه قبل هذا"(١).

وعن صفية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن بعض أزواج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن النبي عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ قال: ((**من أتى عَرَّافًا فسأله عن شيء، لم تقبل له صلاة أربعين ليلة**))(٢).

والعراف: من جملة أنواع الكهان. قال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "أراد بالعراف: الحازي أو المنجم الذي يدعي علم الغيب الذي استأثر الله بعلمه"(٣). والكاهن: هو الذي يتعاطى الخبر عن الكائنات في مستقبل الزمان، ويدعي معرفة الأسرار ومطالعة الغيب.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "والأصل فيه: استراق الجني السمع من كلام الملائكة، فيلقيه في أذن الكاهن. والكاهن لفظ يطلق على العراف، والذي يضرب بالحصى، والمنجم، ويطلق على من يقوم بأمر آخر، ويسعى في قضاء حوائجه. وقال في (المحكم):

---

(١) انظر: إكمال المعلم شرح صحيح مسلم، للقاضي عياض (٧/ ٧٦- ٧٧)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٢٢٣)، نيل الأوطار (٧/ ٢١٣)، الديباج على صحيح مسلم (٥/٢٤٥).

(٢) صحيح مسلم [٢٢٣٠].

(٣) تهذيب اللغة (٢/٢٠٩)، وانظر: غريب الحديث، لابن الجوزي (٢/٨٧)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (عرف) (٣/٢١٨).

الكاهن القاضي بالغيب"(١). والعرب تسمي كل من أذن بشيء قبل وقوعه: كاهنًا. كما يسمون كل من من يتعاطى علمًا دقيقًا: كاهنًا(٢).

وقال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والفرق بين الكاهن والعراف: أن الكاهن إنما يتعاطى الخبر عن الكوائن في مستقبل الزمان(٣)، ويدعي معرفة الأسرار، والعراف هو الذي يتعاطى معرفة الشيء المسروق، ومكان الضالة، ونحوهما من الأمور"(٤).

فالكاهن: هو الذي يدعي علم الغيب، ويخبر عن المغيبات، وغالبًا ما يكون ذلك باستخدام شياطين الجن، ومن المعلوم أن شياطين الجن ينتقلون بسرعة إلى أماكن مختلفة، ويقفون على ما يمكنهم الوقوف عليه، ولكنهم لا يعلمون الغيوب، ولا يعلم الغيب على الإطلاق إلا الله عَزَّوَجَلَّ، لكن لخفة وسرعة انتقالهم من مكان إلى مكان قد يعرفون الشيء الذي يكون في المكان، لكنهم لا يستطيعون أن يعرفوا كل شيء، أو أن يقفوا على كل شيء، قال الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه العزيز في قصة سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَنْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ [سبأ:١٤]، فالجن لا يطلعون على كل غيب، ولكنهم قد يطلعون على بعض الغيوب حينما ينتقلون من مكان إلى مكان، فيرون الشيء لخفتهم وسرعة انتقالهم، وإلا فإن الغيب على الإطلاق لا يعلمه إلا الله جَلَّ وَعَلَا. ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل:٦٥]، فالله عَزَّوَجَلَّ هو الذي تفرَّد بعلم الغيب والشهادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ"(٥).

---

(١) فتح الباري (١٠/ ٢١٦).

(٢) انظر: معالم السنن (٢١٩/٤)، فتح الباري (٢١٦/١٠-٢١٧)، عمدة القاري (٢٧٥/٢١).

(٣) "وهو شامل لكل من يدعي ذلك من منجم، وضراب بالحصباء، ونحو ذلك، فكل هؤلاء داخل تحت حكم الحديث، ولا يحل له ما يعطاه، ولا يحل لأحد تصديقه فيما يتعاطاه". سبل السلام (٧/٢).

(٤) معالم السنن (١٠٤/٣-١٠٥).

(٥) شرح سنن أبي داود، للشيخ عبد المحسن بن حمد العباد البدر، درس رقم [٤٤٠].

عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من أتى كاهنًا، أو عرافًا، فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد**))(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ((**الْعِرَافَةُ أولها ملامة، وآخرها ندامة، والعذاب يوم القيامة**))(٢).

وقد بين الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ طريقة حصول الكهان والسحرة على بعض المغيبات بقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانًا لقوله، كأنه سِلْسِلَةٌ على صَفْوَان، فإذا فُزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مُسْتَرِقُ السمع، ومسترق السمع هكذا بعضه فوق بعض**)) -ووصف سفيان بِكَفِّهِ فحرفها، وَبَدَّدَ بين أصابعه- ((**فيسمع الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدرك الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة، فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا: كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمع من السماء**))(٣).

وعبد الله بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: أخبرني رجل من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الأنصار، أنهم بينما هم جلوس ليلة مع رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رمي بنجم فاستنار، فقال لهم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ماذا كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟**))،

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه [٥٠٣]، أحمد [٩٥٣٦]، والحاكم [١٥]، وقال: "صحيح على شرطهما"، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) [١٦٤٩٦].

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٦٤٩]، والبيهقي [٢٠٢٢٦]. وحسن الألباني إسناده في (الصحيحة) [١٩٨٢].

(٣) صحيح البخاري [٤٧٠١، ٤٨٠٠، ٧٤٨١]. ((كأنه سلسلة على صفوان)) أي: لها صوت كصوت السلسة على الحجر الأملس. ((فزع عن قلوبهم)) زال عنها الخوف والفزع. ((قالوا)) أي: سأل عامة الملائكة خاصتهم. ((قالوا)) أي: الخاصة كجبريل وميكائيل عَلَيْهِمَا ٱلسَّلَامُ. ((للذي قال)) لأجل ما قضاه الله عَزَّ وَجَلَّ وقاله أو قالوا للذي سأل. ((مسترقو السمع)) وهم مردة الشياطين.

قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا تبارك وتعالى اسمه، إذا قضى أمرًا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ التسبيح أهل هذه السماء الدنيا**))، ثم قال: ((**الذين يلون حملة العرش لحملة العرش: ماذا قال ربكم؟ فيخبرونهم ماذا قال: قال فيستخبر بعض أهل السموات بعضًا، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فتخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون به، فما جاءوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يقرفون فيه ويزيدون**))(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، زوج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنها سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إن الملائكة تنزل في العَنَان، وهو السَّحَابُ ، فَتَذْكُرُ الأمر قُضِيَ في السماء، فَتَسْتَرِقُ الشَّياطينُ السَّمعَ فتسمعُهُ، فتوحيه إلى الكُهَّان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم**))(٢).

ففي هذه الأحاديث النهيُ عن إتيانِ العرافين والكهنة والسَّحرة وأمثالهم، وسؤالِهم وتصديقهم، والوعيدُ على ذلك؛ لأنهما يدَّعيان علم الغيب، وذلك من الكفر؛ ولأنهما لا يتوصلان إلى مقصدهما إلا بالوسائل المحرمة من نحو الاتصال بالجن، والاستعانة بالشياطين، ونطقهم بألفاظ الفحش المحرمة -كما تقدم-.

(١) صحيح مسلم [٢٢٢٩].

(٢) صحيح البخاري [٣٢١٠]، صحيح مسلم [٢٢٢٨].

رابعًا: الوقاية من آفات السحر والعلاج:

١ - تعلق العبد بالله عَزَّوَجَلَّ، وثقته به، ويقينه بأن النفع والضر بيده وحده:

فلا أحد يملك النفع والضرر إلا الله جَلَّوَعَلَا وحده لا شريك له، حتى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن:٢٠-٢٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد:١٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح:١١].

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا قال: كنت خلف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يومًا، فقال: **((يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهَكَ، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف))**[1].

وفي القرآن الكريم لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ السحرة قال: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢]، وقال: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦].

---

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا"، وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

٢ - الإكثار من قراءة القرآن والذِّكر والدعاء، والمحافظة على أذكار الصباح والمساء، الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من شياطين الإنس والجن:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ﴾ [الأعراف:٢٠٠]، وقال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد:٢٨].

وخير الدعاء: ما كان الرشيد الذي يستضاء فيه بأنوار الوحي من الكتاب وصحيح السنة، فمن الدعاء النافع في هذا الباب:

أ. من القرآن:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ ﴿٩٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ ﴿٩٨﴾﴾ [المؤمنون:٩٧-٩٨].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾﴾ [الفلق:١-٥].

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ﴿١﴾ مَلِكِ النَّاسِ ﴿٢﴾ إِلَٰهِ النَّاسِ ﴿٣﴾ مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ﴿٥﴾ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ﴿٦﴾﴾ [الناس:١-٦].

ب. من السنة:

ومن السنة: ما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُعَوِّذُ الحسن والحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، ويقول: ((**إن أباكما كان يُعَوِّذُ بها إسماعيل وإسحاق: أعوذ بكلمات الله التَّامَّة، من كل شيطان وَهَامَّة، ومن كل عين لَامَّةٍ**))[1].

(١) صحيح البخاري [٣٣٧١].

وعن خولة بنت حكيم السلمية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**من نزلَ مَنْزِلًا ثم قال: أعوذ بكلمات الله التَّامَّاتِ من شَرِّ ما خلق، لم يضره شيء، حتى يرتحل من منزله ذلك**))(١).

وعثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**ما من عبد يقول في صباح كل يوم، ومساء كل ليلة: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، ثلاث مرات، فيضره شيء**)).

وفي لفظ: ((**من قال حين يصبح: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء، وهو السميع العليم، حفظ حتى يمسي، ومن قالها حين يمسي حفظ حتى يصبح**))(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من قال: لا إله إلا الله، وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، في يوم مائة مرة، كانت له عدل عشر رقاب، وكتبت له مائة حسنة، ومحيت عنه مائة سيئة، وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي، ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به، إلا أحد عمل أكثر من ذلك**))(٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٠٨]. و((التامات)) قيل معناه: الكاملات التي لا يدخل فيها نقص ولا عيب. وقيل: النافعة الشافية. وقيل المراد بالكلمات هنا: القرآن.

(٢) الحديث أخرجه الطيالسي [٧٩]، وابن أبي شيبة [٢٩٢٧٥]، وأحمد [٤٤٦]، وابن حميد [٥٤]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٦٠]، وابن ماجه [٣٨٦٩]، وأبو داود [٥٠٨٨]، والترمذي [٣٣٨٨]، وقال: "حسن صحيح غريب". كما أخرجه البزار [٣٥٧]، والنسائي في (الكبرى) [١٠١٠٦]، وابن حبان [٨٥٢]، والطبراني في (الدعاء) [٣١٧]، والحاكم [١٨٩٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٤٢/٩)، والبيهقي في (الدعوات) [٣٤].

(٣) صحيح البخاري [٣٢٩٣، ٦٤٠٣]، مسلم [٢٦٩١].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وظاهر إطلاق الحديث أنه يحصل هذا الأجر المذكور في هذا الحديث من قال هذا التهليل مائة مرة في يومه، سواء قالها متوالية، أو متفرقة في مجالس، أو بعضها أول النهار وبعضها آخره، لكن الأفضل أن يأتي بها متوالية في أول النهار؛ ليكون حرزًا له في جميع نهاره"(١).

٣ – المواظبة على قراءة: (سورة البقرة):

جاء في (صحيح مسلم): عن معاوية -يعني: ابن سلام-، عن زيد، أنه سمع أبا سلام، يقول: حدثني أبو أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**اقرءوا سورة البقرة، فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها الْبَطَلَةُ**)) الحديث. قال معاوية: بلغني أن البطلة: السَّحَرَة(٢).

و(البطلة) -بفتح الباء والطاء-: السحرة: تسمية لهم باسم فعلهم؛ لأن ما يأتون به باطل، وإنما لم يقدروا على قراءتها؛ لزيغهم عن الحق، وانهماكهم في الباطل. وقيل: البطلة: أهل البطالة الذين لم يؤهلوا لذلك، ولم يوفقوا له، أي: لا يستطيعون قراءة ألفاظها، وتدبر معانيها، لبطالتهم وكسلهم(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، إن الشيطان ينفر من البيت الذي تقرأ فيه سورة البقرة**))(٤).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/ ١٧)، وانظر: شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (١٨٢٠/٦)، عمدة القاري (٢٦/٢٣).

(٢) صحيح مسلم [٨٠٤].

(٣) انظر: فيض القدير (٢/ ٦٣).

(٤) صحيح مسلم [٧٨٠].

وعن أبي مسعود البدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الآيتان من آخر سورة البقرة، من قرأهما في ليلة كفتاه**))[(١)].

وعن النعمان بن بشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إن الله كتب كتابًا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفي عام، أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة، ولا يقرآن في دار ثلاث ليال فيقربها شيطان**))[(٢)].

٤ – التَّحصن بآية الكرسي:

أ. عند النوم :

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: وكلني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته، وقلت: والله لأرفعنك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: إني محتاج، وعلي عيال، ولي حاجة شديدة، قال: فخليت عنه، فأصبحت، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك البارحة؟**))، قال: قلت: يا رسول الله، شكا حاجة شديدة، وعيالًا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: ((**أما إنه قد كذبك، وسيعود**))، فعرفت أنه سيعود، لقول رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إنه سيعود، فرصدته، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: دعني فإني محتاج وعلي عيال، لا أعود، فرحمته، فخليت سبيله، فأصبحت، فقال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يا أبا هريرة، ما فعل أسيرك؟**))، قلت:

---

(١) صحيح البخاري [٤٠٠٨، ٥٠٠٩، ٥٠٤٠، ٥٠٥١]، مسلم [٨٠٧، ٨٠٨].

(٢) الحديث مروي عن النعمان بن بشير، وعن شداد بن أوس. حديث النعمان بن بشير: أبو عبيد في (فضائل القرآن) [٤٢٥]، وأحمد [١٨٤١٤]، والدارمي [٣٤٣٠]، والترمذي [٢٨٨٢]، وقال: "حسن غريب". كما أخرجه البزار [٣٢٩٦]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٧٣٧]، وابن حبان [٧٨٢] مختصرًا. والحاكم [٣٠٣١]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٢١٧٩]، والطبراني في (الأوسط) [١٩٨٨]. حديث أسماء عن شداد بن أوس: أخرجه الطبراني في (الكبير) [٧١٤٦]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٣١٢/٦): "رجاله ثقات".

يا رسول الله شكا حاجة شديدة، وعيالًا، فرحمته، فخليت سبيله، قال: ((**أما إنه قد كذبك وسيعود**))، فرصدته الثالثة، فجاء يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله، وهذا آخر ثلاث مرات، أنك تزعم لا تعود، ثم تعود، قال: دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها، قلت: ما هو؟ قال: إذا أويت إلى فراشك، فاقرأ آية الكرسي: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، حتى تختم الآية، فإنك لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربنك شيطان حتى تصبح، فخليت سبيله، فأصبحت فقال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما فعل أسيرك البارحة؟**))، قلت: يا رسول الله، زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها، فخليت سبيله، قال: ((**ما هي؟**))، قلت: قال لي: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، وقال لي: لن يزال عليك من الله حافظ، ولا يقربك شيطان حتى تصبح -وكانوا أحرص شيء على الخير- فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أما إنه قد صدقك، وهو كذوب، تعلم من تخاطب منذ ثلاث ليال يا أبا هريرة؟**))، قال: لا، قال: ((**ذاك شيطان**))(١).

ب. في الصباح والمساء:

وقد جاء في الحديث: عن أبي بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه كان له جرن من تمر، فكان ينقص، فحرسه ذات ليلة، فإذا هو بدابة شبه الغلام المحتلم، فسلم عليه، فرد عليه السلام، فقال: ما أنت، جني أم إنسي؟ قال: لا بل جني. قال: فناولني يدك. فناوله يده، فإذا يده يد كلب، وشعره شعر كلب، قال: هكذا خلق الجن، قال: قد علمت الجن أن ما فيهم رجل أشد مني، قال: فما جاء بك؟ قال: بلغنا أنك تحب الصدقة، فجئنا نصيب من طعامك. قال: فما ينجينا منكم؟ قال: هذه الآية التي في (سورة البقرة): ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾ [البقرة:٢٥٥]، من قالها حين يمسي أجير منا حتى يصبح، ومن قالها حين

(١) صحيح البخاري [٢٣١١، ٣٢٧٥، ٥٠١٠].

يصبح أجير منا حتى يمسي، فلما أصبح أتى رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فذكر ذلك له فقال: **((صدق الخبيث))**[(١)].

٥ – المحافظة على أداء الفرائض، والإكثار من النوافل:

وقد جاء في الحديث: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إن الله قال: من عادى لي وليًّا فقد آذنته بالحرب، وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته: كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وأنا أكره مساءته))**[(٢)]:

٦ – التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ، والتقوى بالتزام ما أمر به الشارع والانتهاء عما نهى، والعمل الصالح:

إن تقوى الله عَزَّوَجَلَّ، ومراقبته في السر والعلن، وتحقيق العبودية له، وإخلاص العبادة له من أهم الأسباب التي تحصِّنُ المسلم من الشرور والآفات، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَى مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ﴿٢٢١﴾ تَنَزَّلُ عَلَى كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٢٢٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثَرُهُمْ كَاذِبُونَ ﴿٢٢٣﴾ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴿٢٢٦﴾ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَذَكَرُوا اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الشعراء: ٢٢١-٢٢٧].

---

(١) أخرجه الحارث كما في (بغية الباحث) [١٠٥١]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٧٣٠]، وابن حبان [٧٨٤]، والطبراني في (الكبير) [٥٤١]، واللفظ له، وأبو الشيخ [٢١٢]، والحاكم [٢٠٦٤]، والضياء [١٢٦٢]. قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١١٧/١٠): "رواه الطبراني، ورجاله ثقات".

(٢) صحيح البخاري [٦٥٠٢]، قوله: ((ما ترددت)): كناية عن اللطف والشفقة وعدم الإسراع بقبض روحه. و((مساءته)): إساءته بفعل ما يكره.

فمن اتَّقى الله تولَّى الله عَزَّوَجَلَّ حفظه ولم يكله إلى غيره. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق:٢-٣]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ﴾ [الأعراف:١٩٦].

٧ – التصبح بتمرات:

جاء في الحديث: عن عامر بن سعد، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة، لم يَضُرَّهُ في ذلك اليوم سُمٌّ ولا سِحْرٌ**)). وفي لفظ: ((**من اصطبح كل يوم تمرات عجوة، لم يَضُرَّهُ سُمٌّ، ولا سِحْرٌ ذلك اليوم إلى الليل**))، وقال غيره: ((**سبعَ تمراتٍ**))(١).

وفي لفظ عند مسلم: ((**من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها حين يصبح، لم يضره سم حتى يمسي**))(٢).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إن في عجوة العالية شفاء –أو إنها تِرْيَاقٌ– أَوَّلَ الْبُكْرَة**))(٣).

وفي لفظ: ((**في عجوة العالية، أول البكرة على ريق النفس شفاء من كل سحر، أو سم**))(٤).

و(اللابتان) هما: الحرتان، والمراد: لابتا المدينة. قال الأصمعي: اللابة: الحرة، وهي الأرض الملبسة حجارة سودًا، وجمع اللابة: لابات ما بين الثلاث إلى العشر، فإذا كثرت فهي اللاب واللوب. ويقال: لابة ولوبة ونوبة –النون– حكاهن أبو عبيد والجوهري، ومن

---

(١) أخرجه البخاري [٥٤٤٥، ٥٧٦٨، ٥٧٦٩، ٥٧٧٩]، صحيح مسلم [٢٠٤٧] (١٥٥).

(٢) صحيح مسلم [٢٠٤٧] (١٥٤).

(٣) صحيح مسلم [٢٠٤٨].

(٤) أخرجه إسحاق بن راهويه [١١١٧]، وأحمد بإسناد صحيح، واللفظ له [٢٤٧٣٥].

لا يحصى من أهل اللغة. قالوا: ومنه قيل للأسود: لوبي ونوبي -باللام والنون-، قالوا وجمع اللابة: لوب ولاب ولابات. والمدينة بين حرتين يكتنفانها، إحداهما: شرقية، والأخرى: غربية[1].

و(السم): معروف، وهو بفتح السين وضمها وكسرها، والفتح أفصح. و(الترياق): بكسر التاء وضمها لغتان. و(العالية): ما كان من الحوائط والقرى والعمارات من جهة المدينة العليا مما يلى نجد، أو السافلة من الجهة الأخرى مما يلي تِهَامَة. قال القاضي: وأدنى العالية: ثلاثة أميال، وأبعدها ثمانية أميال من المدينة. والعجوة: نوع جيد من التمر[2].

ومعنى: (تصبح): أكلهن وقت الصباح قبل أن يأكل شيئًا.

قال أبو سليمان الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكونها عوذة من السم والسحر إنما هو من طريق التبرك لدعوة من الرسول صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ سبقت فيها، لا لأن من طبع التمر أن يصنع شيئًا من ذلك"[3].

وقال النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذه الأحاديث: فضيلة تمر المدينة وعجوتها، وفضيلة التصبح بسبع تمرات منه. وتخصيص عجوة المدينة دون غيرها، وعدد السبع من الأمور التي علمها الشارع، ولا نعلم نحن حكمتها، فيجب الإيمان بها، واعتقاد فضلها، والحكمة فيها،

---

(١) انظر: غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام (٣١٤/١)، الصحاح، للجوهري، مادة: (لوب) (٢٢٠/١- ٢٢١)، شرح النووي على صحيح مسلم (٢٢٦/٧)، كشف المشكل، لابن الجوزي (٢٣٥/١- ٢٣٦)، عمدة القاري (٢٣١/١٠)، الكواكب الدراري (٦١/٦).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٤-٣)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٦/ ٢٧٢)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢٨٤٧/٩).

(٣) أعلام الحديث، لأبي سليمان الخطابي (٢٠٥٤/٣).

وهذا كأعداد الصلوات، ونُصُبِ الزكاة وغيرها، فهذا هو الصواب في هذا الحديث[1]. وقال المظهر: يجوز أن يكون في ذلك النوع منه هذه الخاصية[2].

وليس ذلك عامًّا في العجوة، بل خاصًّا بعجوة المدينة، بدليل رواية مسلم: **((من أكل سبع تمرات مما بين لابتيها))**، أي: المدينة لم يضره ذلك اليوم سم[3].

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمطلق هاتين الروايتين مقيد بالأخرى، فحيث أطلق العجوة هنا أراد: عجوة المدينة"[4].

٨ - التحذير من السحر والدجل والشعوذة، ومكافحة انتشار الشعوذة بالعلم والتوعية والقوانين الرادعة.

٩ - تعويذ الصبيان كما كان النبي يعوذ الحسن والحسين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا -كما تقدم-.

١٠ - استخراج السِّحر -إن أمكن- وإبطاله، وإن لم يتيسر ذلك فإنه يُعمد إلى الرقية الشرعية.

١١ - مسألة علاج السحر بسحر مثله:

أما علاج السحر بسحر مثله فقد نصَّ كثير من أهل العلم على عدم جوازه؛ لأن السحر محرَّم، بل هو من أعظم المحرمات -كما تقدم-، ولم يجعل الله عَزَّوَجَلَّ شفاء المسلمين فيما حرَّم عليهم، كما جاء في (الصحيح): عن ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنه قال: **((إن الله لم يجعل شفاءكم فيما حرَّم عليكم))**[5].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/١٤).

(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٧١/٢١)، الكواكب الدراري (٥٩/٢٠).

(٣) فيض القدير (١٠٥/٦).

(٤) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (١٧/ ٣٨).

(٥) صحيح البخاري (٧/ ١١٠).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سئل رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن النُّشْرَة فقال: ((**من عمل الشيطان**))(١).

وعن الحسن قال: سئل أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النُّشْرَة فقال: ذكر لي أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سئل عنها فقال: ((**هي من عمل الشيطان**))(٢).

قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "(النُّشْرَة): ضربٌ من الرقية والعلاج يعالج به من كان يظن به مس الجن. وقيل: سميت نشرة؛ لأنه ينشر بها عنه، أي: يحل عنه ما خامره من الداء"(٣).

وقال السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: "(النُّشْرَة) -بضم النون وسكون الشين المعجمة- نوع من الرقية يعالج بها المجنون. وقد جاء النهي عنها، ولعل النهي عما كان مشتملًا على أسماء الشياطين، أو كان بلسان غير معلوم؛ فلذلك جاء أنها سحر(٤). سُمِّيَ النَّشْرَةَ؛ لانتشار الداء، وانكشاف البلاء"(٥).

والنشرة إذا كانت بطرق غير شرعية، كالرجوع إلى الكهان والمشعوذين، أو الاستعانة بالشياطين، أو كانت بلسان غير معلوم(٦) فإن ذلك حرام، وهو من عمل الشيطان، وهو الذي كان يفعله أهل الجاهلية.

---

(١) أخرجه أحمد [١٤١٣٥]، وأبو داود [٣٨٦٨]. قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في (الفتح) (٢٣٣/١٠): "وصله أحمد وأبو داود بسند حسن عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ".

(٢) أخرجه أبو داود في (المراسيل) [٤٥٣]، البزار [٦٧٠٩]، والحاكم [٨٢٩٢]، وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (١٦٥/٧). قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٠٢/٥): "رواه البزار، والطبراني في (الأوسط)، إلا أنه قال: ذكروا أنها من عمل الشيطان. ورجال البزار رجال الصحيح".

(٣) معالم السنن (٢٢٠/٤).

(٤) قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "عن الحسن قال: النشرة من السحر، قال: وأنشدنا الأصمعي من قول جرير: (أدعوك دعوة ملهوف كأن به***مسًّا من الجن أو ريحًا من النشر)" معالم السنن (٢٢٠/٤).

(٥) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٣٦١/٢).

(٦) قال في (المرقاة) (٢٨٨٠/٧): "وأما على لغة العبرانية ونحوها، فيمتنع لاحتمال الشرك فيها".

وأما ما كان من الآيات القرآنية، والأسماء والصفات الربانية، وبالأدعية المباحة وبالتعوذات فلا بأس.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والنُّشْرَة: حَلُّ السِّحْرِ عن المسْحُور، وهي نوعان:

[**الأول**:] حل سحر بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشَّيطان؛ فإن السِّحْر من عمله، فيتقرب إليه الناشر والمنتشر بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية، والتعوذات والدعوات والأدوية المباحة، فهذا جائز، بل مستحب، وعلى النوع المذموم يحمل قول الحسن: (لا يحل السحر إلا ساحر)"(١).

ويمكن حمل روي عن الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ من إجازته النشرة على ذلك -أي: على النشرة بالرقية الشرعية، والأدعية المباحة والتعوذات- وليس على النشرة السحرية(٢).

وقد رخص بعض أهل العلم فك السحر بالسحر للضرورة. قال ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في إبطال السحر بالسحر قولان(٣).

وفي (صحيح البخاري): "قال قتادة: قلت لسعيد بن المسيب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: رجل به طب، أو: يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟ قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع الناس فلم ينه عنه"(٤).

قال في (تحفة المحتاج): "وظاهر المنقول عن ابن المسيب جواز حله عن الغير ولو بسحر. قال: لأنه حينئذ صلاح لا ضرر، لكن خالفه الحسن وغيره، وهو الحق؛ لأنه داء

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣٠١/٤).

(٢) ينظر: فتح الباري (٢٣٣/١٠).

(٣) انظر: التاج والإكليل لمختصر خليل (٣٣٠/٨).

(٤) صحيح البخاري (١٣٧/٧).

خبيث من شأن العالم به الطبع على الإفساد والإضرار به ففطم الناس عنه رأسا وبهذا يرد على من اختار حله إذا تعين لرد قوم يخشى منهم"(١).

والحاصل أن حل السحر عن المسحور يكون بطريقتين:

الأولى: أن يحل بالرقى المباحة والتعوذ المشروع، كالفاتحة والمعوذتين والاستعاذات المأثورة عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو غير المأثورة، ولكنها من جنس المأثور، فهذا النوع جائز إجماعًا. وقد ورد أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما سحر، استخرج المشط والمشاطة اللتين سحر بهما، ثم كان يقرأ بالمعوذتين، فشفاه الله عَزَّ وَجَلَّ.

الثانية: أن يحل السحر بسحر مثله. وهذا النوع اختلف فيه على قولين:

الأول: أنه حرام لا يجوز؛ لأنه سحر، وتنطبق عليه أدلة تحريم السحر المتقدم بيانها. وهذا منقول عن ابن مسعود، والحسن، وابن سيرين، وإليه ذهب ابن القيم.

القول الثاني: أن حل السحر بسحر مثله جائز، للضرورة. وقد استدل على هذا القول بما نقل عن ابن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ -كما تقدم- والقولان أيضا عند المالكية والحنابلة(٢).

قال في (المغني): "وأما من يحل السحر، فإن كان بشيء من القرآن، أو شيء من الذكر والإقسام والكلام الذي لا بأس به، فلا بأس به، وإن كان بشيء من السحر، فقد توقف أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ عنه. قال الأثرم رَحِمَهُ اللَّهُ: سمعت أبا عبد الله سئل عن رجل يزعم أنه يحل السحر، فقال: قد رخص فيه بعض الناس"(٣).

---

(١) انظر: تحفة المحتاج في شرح المنهاج (٦٢/٩)، إعانة الطالبين (١٣٨/٤).

(٢) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٦٥/٢٤).

(٣) المغني، لابن قدامة (٣٢/٩)، وانظر: الفروع ومعه تصحيح الفروع (٢٠٩/١٠)، كشاف القناع (١٨٨/٦)، مطالب أولي النهى (٦٠٤/٣).

وفي (الإقناع): "ولا بأس بحل السحر بشيء من القرآن والذكر والأقسام والكلام المباح، وإن كان بشيء من السحر فقد توقف فيه أحمد، والمذهب جوازه ضرورة"(١).

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التحقيق الذي لا ينبغي العدول عنه في هذه المسألة: أن استخراج السحر إن كان بالقرآن كالمعوذتين، وآية الكرسي ونحو ذلك مما تجوز الرقيا به فلا مانع من ذلك. وإن كان بسحر أو بألفاظ عجمية، أو بما لا يفهم معناه، أو بنوع آخر مما لا يجوز فإنه ممنوع. وهذا واضح، وهو الصواب إن شاء الله تعالى"(٢).

١١ - الأسباب العشرة التي ذكرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

وقد أجمل ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ الأسباب التي إذا التزمها العبد زال عنه شر الحاسد والعائن والساحر.

السبب الأول: التحصن بالله عَزَّوَجَلَّ، واللجأ إليه، والتعوذ به من شر الحاسد والعائن والساحر، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق:١-٥].

والله جَلَّوَعَلَا سميع لمن استعاذ به، عليم بما يستعيذ منه، قادر على كل شيء، وهو وحده المستعاذ به، لا يستعاذ بأحد من خلقه، ولا يُلجأُ إلى أحد سواه، بل هو الذي يعيذ المستعيذين ويعصمهم ويحميهم من شَرِّ ما استعاذوا من شره.

وحقيقة الاستعاذة: الهروب من شيء تخافه إلى من يعصمك ويحميك منه، ولا حافظ للعبد ولا معيذ له إلا الله عَزَّوَجَلَّ، وهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ حَسْبُ من توكَّلَ عليه، وكافي من لجأ إليه، وهو الذي يُأَمِّنُ خوف الخائف، ويجير المستجير، وهو نعم المولى ونعم النصير.

---

(١) الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٤/ ٣٠٨).

(٢) أضواء البيان (٤/٥٧).

السبب الثاني: تقوى الله عَزَّوَجَلَّ وحفظُه عند أمره ونهيه، فمن اتقى الله تولَّى حفظه ولم يكله إلى غيره، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [آل عمران:١٢٠]، وقال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ((**احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهَكَ**))(١). فمن حفظ الله عَزَّوَجَلَّ حفظه الله، ووجده أمامه أينما توجه، ومن كان الله عَزَّوَجَلَّ حافظه وأمامه فممن يخاف، وممن يحذر؟

السبب الثالث: الصبر على عدوه، وأن لا يقاتله، ولا يشكوه، ولا يحدث نفسه بأذاه أصلًا، فما نُصِرَ على حاسده وعدوِّه بمثل الصبر عليه، وكلما زاد بغي الحاسد كان بغيُه جندًا وقوَّة للمبغي عليه، يقاتل بها الباغي نفسه وهو لا يشعر، فبغيه سهم يرميها من نفسه إلى نفسه، ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣]، فإذا صبر المحسود، ولم يستطل الأمر نال حسن العاقبة بإذن الله جَلَّوَعَلَا.

السبب الرابع: التوكل على الله عَزَّوَجَلَّ، فمن يتوكل على الله فهو حسبه، والتوكل من أقوى الأسباب التي يدفع بها العبد ما لا يطيق من أذى الخلق وظلمهم وعدوانهم، ومن كان الله عَزَّوَجَلَّ كافيه فلا مطمع فيه لعدو، ولو توكل العبد على الله عَزَّوَجَلَّ حق توكله، وكادته السموات والأرض ومن فيهن لجعل له مخرجًا من ذلك وكفاه ونصره.

السبب الخامس: فراغ القلب من الاشتغال بالحاسد، والفكر فيه، وأن يقصد أن يَمْحوه من باله كلما خطر له، فلا يلتفت إليه، ولا يخافه، ولا يملأ قلبه بالفكر فيه، وهذا من أنفع الأدوية وأقوى الأسباب المعينة على اندفاع شره، فإن هذا بمنزلة من يطلبه عدوه ليمسكه ويؤذيه، فإذا لم يتعرض له ولا تماسك هو وإياه، بل انعزل عنه لم يقدر عليه، فإذا تماسكا، وتعلق كل منهما بصاحبه حصل الشر، وهكذا الأرواح سواء، فإذا تعلقت كل

(١) تقدم .

روح منهما بالأخرى عُدِمَ القرار، ودام الشَّرُّ حتى يهلك أحدهما، فإذا جبذ روحه عنه وصانها عن الفكر فيه، والتعلق به، وأخذ يشغل باله بما هو أنفع له بقي الحاسد الباغي يأكل بعضه بعضًا، فإن الحسد كالنَّار، إذا لم تجد ما تأكله أكل بعضها بعضًا.

السبب السادس: الإقبال على الله عَزَّوَجَلَّ، والإخلاص له، وجعل محبته ونيل رضاه، والإنابة إليه في كل خواطر نفسه وأمانيها، تدب فيها دبيب تلك الخواطر شيئا فشيئا حتى يقهرها ويغمرها ويذهبها بالكلية، فتبقى خواطره وهواجسه وأمانيه كلها في محاب الرب والتقرب إليه وذكره والثناء عليه، قال الله جَلَّوَعَلَا عن عدوه إبليس أنه قال: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٨٣﴾﴾ [ص:٨٢-٨٣]، فالمخلص بمثابة من آوى إلى حصن حصين، لا خوف على من تحصن به، ولا ضيعة على من آوى إليه، ولا مطمع للعدو في الدنو منه.

السبب السابع: تجريد التوبة إلى الله عَزَّوَجَلَّ من الذنوب التي سلطت عليه أعداءه، فإن الله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى:٣٠]، فما سلط على العبد من يؤذيه إلا بذنب، يعلمه أو لا يعلمه، وما لا يعلمه العبد من ذنوبه أضعاف ما يعلمه منها، وما ينساه مما علمه وعمله أضعاف ما يذكره، وفي الدعاء المشهور: ((**اللهم إني أعوذ بك أن أشرك بك وأنا أعلم، وأستغفرك لما لا أعلم**))(١)، فما يحتاج العبد إلى الاستغفار منه مما لا يعلمه أضعاف أضعاف ما يعلمه، فما سلط عليه مؤذ إلا بذنب، وليس في الوجود شر إلا الذنوب وموجباتها، فإذا عوفي من الذنوب عوفي من موجباتها، فليس للعبد إذا بغي عليه وأوذي وتسلط عليه خصومه شيء أنفع له من التوبة النصوح من الذنوب التي كانت سببًا لتسلط عدوه عليه.

---

(١) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) عن معقل بن يسار [٧١٦]، وصححه الألباني في (صحيح الأدب).

السبب الثامن: الصدقة والإحسان ما أمكنه؛ فإن لذلك تأثيرًا عجيبًا في دفع البلاء، ودفع العين، وشَرِّ الحاسد، فما يكاد العين والحسد والأذى يتسلَّط على محسنٍ مُتصدِّق، وإن أصابه شيءٌ من ذلك كان معامَلًا فيه باللطف والمعونة والتأييد، وكانت له فيه العاقبة الحميدة، والصدقة والإحسان من شكر النعمة، والشكر حارس النعمة من كل ما يكون سببًا لزوالها.

السبب التاسع: أن يطفئ نار الحاسد والباغي والمؤذي بالإحسان إليه، فكلما ازداد أذى وشرًّا وبغيًا وحسدًا ازددت إليه إحسانًا، وله نصيحة، وعليه شفقة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت:٣٤-٣٥]، وتأمل في ذلك حال النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي حكى عنه نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه ضربه قومه حتى أدموه فجعل يسلت الدم عنه ويقول: ((**اللهم اغفر لقومي؛ فإنهم لا يعلمون**))(١).

السبب العاشر: تجريد التوحيد، والترحل بالفكر في الأسباب إلى المسبب العزيز الحكيم، والعلم بأن كل شيء لا يضر ولا ينفع إلا بإذن الله عَزَّوَجَلَّ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس:١٠٧]، وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ((**واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك إلا بشيء كتبه الله عليك**))(٢)، فإذا جرَّدَ العبدُ التوحيدَ فقد خرج من قلبه خوفُ ما سواه، وكان عدوُّه أهونَ عليه من أن يخافه مع الله عَزَّوَجَلَّ، بل يفرد الله عَزَّوَجَلَّ بالمخافة، ويرى أن إعماله فكره في أمر عدوه، وخوفه منه، واشتغاله به من نقص توحيده، وإلا فلو

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٧، ٦٩٢٩]، مسلم [١٧٩٢].

(٢) تقدم.

جرَّدَ توحيدَه لكان له فيه شغل شاغل، والله عَزَّوَجَلَّ يتولَّى حفظه، والدفع عنه؛ فإن الله عَزَّوَجَلَّ يدافع عن الذين آمنوا، فإن كان مؤمنًا، فالله عَزَّوَجَلَّ يدافع عنه ولا بدَّ، وبحسب إيمانه يكون دفاعُ الله عنه، فإن كمل إيمانه كان دفاع الله عنه أتمَّ دفع، وإن مزج مزج له، وإن كان مرة ومرة فالله له مرَّة ومرَّة، كما قال بعض السلف: (من أقْبَلَ على الله بكليَّتِه أَقْبَلَ الله عليه جُملة، ومن أعرض عن الله عَزَّوَجَلَّ بكليته أعرض الله عنه جملة، ومن كان مرَّة ومرَّة، فالله له مرَّة مرَّة).

فالتوحيد حصن الله عَزَّوَجَلَّ الأعظم الذي من دخله كان من الآمنين، قال بعض السلف: (من خاف الله عَزَّوَجَلَّ خافه كل شيء، ومن لم يخف الله عَزَّوَجَلَّ أخافه الله من كل شيء).

فهذه عشرة أسباب عظيمة يندفع بها شر الحاسد والعائن والساحر، ونسأل الله الكريم أن يقينا والمسلمين من الشرور كلها إنه سميع مجيب[(١)].

---

(١) بقليل من التصرف عن (بدائع الفوائد)، لابن قيم الجوزية (٢/٢٣٨- ٢٤٦)، فقه الأدعية والأذكار، عبد الرزاق بن عبد المحسن البدر (٣/٢١٤- ٢١٨).

المبحث الخامس
قاتل النفس بغير حق

أولًا: القتل بغير حق من الذنوب المتوعد عليها بالنار:

إن الإسلام دين مبني على العدل والرحمة والمحبة، وتقرير حقوق الإنسان، وأنَّ نفس كل إنسان وماله وعرضه من المحرمات على غيره من أبناء جنسه بصرف النظر عن دينه ومذهبه وعنصره وجنسيته، فلا يجوز الاعتداء عليها بحال من الأحوال؛ فلم تشرع الحدود الشرعيّة إلَّا لصيانة هذه الضرورات الخمس: (الدِّين والنَّفس والنَّسب والعقل والمال)، وحماية هذه الحقوق الإنسانية كلها، كما هو مقرر في أصول التشريع الإسلامي.

وقد جعل الإسلام لحياة الإنسان قداسة مكرمة، وللنفس الإنسانية مكانة محترمة، فمدح الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم إحياء النفس، وذمَّ قتلها، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [سورة المائدة:٣٢].

قال سعيد بن جبير رَحِمَهُٱللَّهُ: من استحلَّ دمَ مسلمٍ فكأنما استحلَّ دماءَ النَّاس جميعًا، ومن حرَّم دمَ مسلم فكأنما حرَّم دماءَ النَّاس جميعًا[1].

وقد وعد الله عَزَّوَجَلَّ قاتل النفس المؤمنة بجهنم والخلود فيها، والغضب واللعنة والعذاب العظيم فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٩٣].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٩٣).

وقد نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن قتل النفس إلا بالحق فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام:١٥١]. فلا يجوز في دينِ الله عَزَّوَجَلَّ قتل النفس المسلمة إلا بإحدى ثلاث، كما في الحديث: عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**لا يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ، يَشْهَدُ أن لا إِلَهَ إِلَّا الله وأَنِّي رَسُولُ الله، إِلَّا بإحدى ثلاث: النَّفْسُ بالنَّفْس، والثَّيِّبُ الزَّانِي، والمَارِقُ من الدِّين، التَّارِكُ لِلْجَمَاعَةِ**))[1]. والأمر بإقامة الحدود هو لولي الأمر، وليس هذا خطابًا للأفراد.

ولِقُبْحِ وشناعةِ وفحشِ قتل المسلم، وعظم حرمته بيَّن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أن أهل السموات والأرض لو اشتركوا في قتله لعذبهم جميعًا في النَّار، كما جاء في الحديث: عن أبي سعيدٍ الخدريِّ وأبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**لو أنَّ أَهْلَ السَّمَاء وَالأرض اشْتَرَكُوا في دَمِ مُؤْمِنٍ لَأَكَبَّهُمُ اللهُ في النَّار**))[2]. وقال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**لَزَوَالُ الدُّنيا أهونُ على الله من قَتْل مؤمن بغير حَقٍّ**))[3].

وعن طريف أبي تميمة، قال: شهدت صفوان وجندبًا وأصحابه وهو يوصيهم، فقالوا: هل سمعت من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ شيئًا؟ قال: سمعته يقول: ((**من سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ به يوم القيامة، قال: ومن يُشَاقِقْ يَشْقُقِ اللهُ عليه يوم القيامة**))، فقالوا: أوصنا، فقال: إن أول ما ينتن من الإنسان بطنه، فمن استطاع أن لا يأكل إلا طيبا فليفعل، ومن

(١) صحيح البخاري [٦٨٧٨]، مسلم [١٦٧٦].

(٢) أخرجه الترمذي [١٣٩٨]، وقال: "حديث غريب". قال المنذري رَحِمَهُٱللَّهُ في (الترغيب والترهيب) (٢٠١/٣): "رواه الترمذي وقال: حديث حسن غريب".

(٣) أخرجه ابن ماجه [٢٦١٩]. وفي (الزوائد) (١٢٢/٣): إسناده صحيح ورجاله موثقون.

اسْتَطَاعَ أن لا يُحَالَ بينه وبين الجنَّة بملْءِ كَفِّهِ من دَمٍ أَهْرَاقَهُ فليفعل، قلت لأبي عبد الله: من يقول سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جندب، قال: نعم جندب[1].

وقد جاءت الشريعة الإسلامية الغراء بكل ما يحفظ النفس المسلمة من التعدي عليها، أو قتلها بغير حق، كما جعلت ارتكاب ذلك من الكبائر التي تستحق القصاص، وسدَّت جميع الطرق الموصلة إلى ذلك، من نحو الإشارة إلى المسلم بالسلاح؛ سدًّا للذريعة، ولنزعات الشيطان، وحسمًا لمادَّة الشَّر التي قد تفضي إلى القتل، كما جاء في (الصحيحين) من حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لا يُشِيرُ أحدُكُمْ على أخيه بالسِّلاح، فإنَّهُ لا يدري، لعلَّ الشَّيطانَ يَنْزِعُ**[2] **في يده، فيقعُ في حُفْرَةٍ من النَّار**))[3].

---

(١) صحيح البخاري [٧١٥٢]. ((سمع)) -بتشديد الميم فيهما-، أي: من شهر نفسه بكرم أو غيره فخرا أو رياء شهره الله يوم القيامة بين أهل العرصات بأنه مراء كذاب، بأن أعلم الله الناس بريائه وسمعته، وقرع باب أسماع خلقه فيفتضح بين الناس. وقيل: أشاع عيوب المؤمنين. يقال: سمعت بالرجل: إذا أذعت عنه عيبًا. "و(أهَرَاقَهُ) -بفتح الهاء ويُسَكَّن-، أي: صَبَّه. قال ابن التين: وقع في روايتنا: إهراقه، والأصل: أراقه، والهاء فيه زائدة". انظر: عمدة القاري (٢٣٠/٢٤)، مرقاة المفاتيح (٢١١٠/٥)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢٢٠/٨).

(٢) في رواية: ((ينزغ)). قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولعل الشيطان ينزع ضبطناه بالعين المهملة، وكذا نقله القاضي عن جميع روايات مسلم وكذا هو في نسخ بلادنا، ومعناه: يرمي في يده ويحقق ضربته ورميته. وروي في غير مسلم بالغين المعجمة، وهو بمعنى: الإغراء، أي: يحمل على تحقيق الضرب به، ويزين ذلك". شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٠/١٦). وقوله: ((فيقع في حفرة من نار)) كناية عن وقوعه في المعصية التي تفضي به إلى دخول النار.

(٣) صحيح البخاري [٧٠٧٢]، مسلم [٢٦١٧].

وعن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النَّار)) قلت: يا رسول الله، هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال: ((إنَّه كان حريصًا على قَتْل صاحبه))**[١].

ولشناعة حرمة الدماء فأنها أول ما يُقْضَى فيه يوم القيامة، فعن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((أوَّل ما يُقْضَى بين النَّاس في الدِّماء))**[٢].

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سمعت نبيكم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **((يأتي المقتولُ مُتعَلِّقًا رَأْسهُ بإحدى يديه، مُتَلَبِّبًا قَاتِلَهُ بيده الأخرى، تَشْجُبُ أَوْدَاجُهُ دَمًا، حتى يأتي به تحت العرش فيقول المقتول لله: رَبِّ هذا قَتَلَنِي، فيقول الله للقاتل: تَعِسْتَ، وَيُذْهَبُ به إلى النَّار))**[٣].

والمؤمنُ لا يزالُ في فُسْحَةٍ من دينه، وسعة من رحمة الله تعالى، منشرح الصدر، مطمئن النفس ما لم يصب دمًا حرامًا، فإذا فعل ذلك ضاق عليه دِينُه، وكان في ضيقٍ بسبب ذنبه العظيم، كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((لن يزال المؤمن في فُسْحَةٍ من دِينِه، ما لم يُصِبْ دمًا حَرَامًا))**[٤].

---

(١) صحيح البخاري [٣١، ٦٨٧٥]، مسلم [٢٨٨٨]. الحديث محمول على ما إذا كان القتال بينهما من غير تأويل سائغ. أما ما وقع بين بعض الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ فقد كان عن تأويل سائغ، القصد منه: إصلاح الدين والدنيا، فالمصيب منهم له أجران، والمخطئ له أجر. وهي مرحلة زمنية قد مضت، فينبغي للمسلم أن يعيش الحاضر، ويستفيد من دروس الماضي، وأن يعرف للصحابة قدرهم، ويقدر جهدهم في الإصلاح، وحرصهم على نشر الدين وإصلاح أحوال الناس، ويتجنب الطعن أو إثارة الفتن بين المسلمين. وقوله: ((حريصًا)) أي: عازمًا، وهو لا ينافي حديث: ((من هم بسيئة فلم يعملها، لم تكتب))؛ لأن الهم دون العزم، فالعزم أقوى، بدليل حمله هنا لآلة القتل.

(٢) صحيح البخاري [٦٥٣٣، ٦٨٦٤]، مسلم [١٦٧٨].

(٣) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٠٧٤٢]، و(الأوسط) [٤٢١٧]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٧/ ٢٩٧): "رجاله رجال الصحيح". و((أوداجه)): العروق المحيطة بالعنق التي تقطع حالة الذبح، و((تشخب)): تسيل.

(٤) صحيح البخاري [٦٨٦٢].

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "المعنى: أنه في أيِّ ذنب وقع كان له في الدين والشرع مخرج إلا القتل، فإن أمره صعب، ويوضح هذا ما في تمام الحديث عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إنَّ من وَرطَات الأمور، التي لا مَخْرَجَ لمن أوقع نفسه فيها: سَفْكَ الدَّمِ الحَرَامِ بِغَيْرِ حِلِّهِ**))[1].

والوَرَطات: جمع وَرْطَة، وهي: كل بلاء لا يكاد صاحبه يتخلص منه. يقال: تَوَرَّطَ واسْتَوْرَط"[2]؛ ولذا فإن العبد الصالح أبى أن يقاتل أخاه؛ خشية أن يكون من أهل النار، فباء القاتل بإثمه وإثم أخيه وكان من أصحاب النَّار كما أخبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [المائدة:٢٧- ٣٠].

ومما يؤكد حرمة الدماء المعصومة، وظلم من تعدَّى عليها، وسوء عاقبته في الآخرة: حديث: عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا تُقْتَلُ نَفْسٌ ظُلْمًا، إلَّا كان على ابنِ آدمَ الأَوَّلِ كِفْلٌ من دمها؛ لأَنَّهُ أَوَّلُ من سَنَّ القَتْل**))[3].

ومن كان من غير المسلمين بينه وبينهم عهد أو أمان أو ذمة فإنه لا يجوز قتله، بل ولا يجوز الاعتداء على ماله ولا على عرضه، كما جاء في (الصحيح) من حديث عبد الله

(١) صحيح البخاري [٦٨٦٣].

(٢) كشف المشكل من حديث الصحيحين، لابن الجوزي (٢/ ٥٩٠).

(٣) صحيح البخاري [٣٣٣٥، ٧٣٢١]، مسلم [١٦٧٧].

بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من قَتَلَ مُعَاهَدًا لم يرح**[١] **رائحة الجَنَّة، وإنَّ ريحَهَا تُوجَدُ من مَسِيرَة أربعينَ عامًا**))[٢]. وقد ذكره الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ في باب: (إثم من قتل معاهدا بغير جرم).

وقد ورد بلفظ: ((**من قتل نفسًا معاهدة بغير حلها**))[٣].

وورد لفظ: ((**من قتل معاهدا في غير كُنْهِهِ حرَّم الله عليه الجنَّة**))[٤].

والتقييد معلوم من قواعد الشرع[٥].

---

(١) اختلفت الرواية في يرح على ثلاثة أوجه: أحدها: يرح بفتح الياء وكسر الراء. والثاني: بضم الياء وكسر الراء. والثالث: بفتح الياء والراء، وهي اختيار أبي عبيد، وهي الصحيحة، فيقال: رحت الشيء أراحه وأريحه، وأرحته أريحه: إذا وجدت ريحه. والمعاهد: المشرك الذي يأخذ من المسلمين عهدا، فواجب حفظ ما عوهد عليه. كشف المشكل (١٢٠/٤). قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "(راح) الشيء يَرَاحُهُ وَيَرِيحُه، أي: وجد ريحه. ومنه الحديث: ((من قتل نفسًا معاهدة لم يرح رائحة الجنة)) جعله أبو عبيد من رَاحَ يَرَاحُ، ففتح الراء. وجعله أبو عمرو من رَاحَ يَرِيحُ، فكسرها. وقال الكسائي: لم يُرِحْ بضم الياء وكسر الراء جعله من أَرَاحَ بمعنى راح أيضا. وقال الأصمعي: لا أدري هو من راح أو من أراح. الصحاح، مادة: (روح) (٣٧٠/١). وانظر: غريب الحديث، لأبي عبيد القاسم بن سلام (١١٥/١). الكواكب الدراري (١٣٢/١٣)، الميسر في شرح مصابيح السنة (٨٠٩/٣). وقال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "((لم يرح رائحة الجنة))، يريد: لم يجد ريحها. يقال: راح يراح، إذا وجد الريح. ويروى أيضًا: لم يرح- بضم الياء وكسر الراء- من أراح يريح، والأول أجود" أعلام الحديث (١٤٦٤/٢).

(٢) صحيح البخاري [٣١٦٦، ٦٩١٤].

(٣) أخرجه عبد الرزاق [١٨٥٢١]، وابن أبي شيبة [٢٧٩٤٤]، وأحمد [٢٠٣٨٣]، والنسائي [٤٧٤٨]، والبيهقي [١٨٧٣٤] عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وقد روي أيضًا بلفظ: ((بغير حقها)).

(٤) أخرجه الطيالسي [٩٢٠]، وابن أبي شيبة [٢٧٩٤٦]، وأحمد [٢٠٣٧٧]، والدارمي [٢٥٤٦]، والبزار [٣٦٧٩]، والنسائي في (الكبرى) [٦٩٢٣]، والحاكم [٢٦٣١]، وصححه، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي [١٨٨٤٩].

(٥) سبل السلام (٥٠١/٢).

قوله: ((**في غير كُنْهِه**)) -بضم الكاف وسكون النون- أي: في غير وقته، أو غاية أمره، والذي يحل فيه قتله، و(كنه الأمر): حقيقته، أو وقته، أو غايته. والمراد: الوقت الذي بيننا وبينه فيه عهد أو أمان. ((**حرَّم الله عليه الجنَّة**)) ما دام ملطخًا بذنبه ذلك، فإذا طهر بالنار صار إلى ديار الأبرار.

وقال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ عليه الجنَّة ليس فيه ما يدل على الدوام والإقناط الكلي فضلًا عن القطع.

وقال غيره: هذا التحريم مخصوص بزمان ما؛ لقيام الأدلة على أن من مات مسلمًا لا يخلد في النَّار وإن ارتكب كل كبيرة ومات على الإصرار[(١)].

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله: ((**لم يرح رائحةَ الجَنَّة**)): "هذا على طريق الوعيد، والله جَلَّوَعَلَا فيه بالخيار[(٢)].

وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لم يرد به أنه لا يجد أصلًا، بل أول ما يجدها سائر المسلمين الذين لم يقترفوا الكبائر؛ توفيقًا بينه وبين ما تعاضدت به الدلائل النقلية والعقلية، علي أن صاحب الكبيرة إذا كان موحدًا محكومًا بإسلامه لا يخلد في النار، ولا يحرم من الجنة"[(٣)].

وقال العلامة السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: لم يشم ريحها، وهو كناية عن عدم الدخول فيها ابتداء، بمعنى: أنه لا يستحق ذلك، أو المعنى: أنه لا يجد ريحها وإن دخلها"[(٤)].

---

(١) فيض القدير (٦/١٩٣)، وانظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (كنه) (٤/٢٠٦)، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٨/٢٤٥٧)، مرقاة المفاتيح (٦/٢٢٦٢).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥/٣٤١).

(٣) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٨/٢٤٥٧).

(٤) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/١٥٢)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٥/٢١٣٧).

وعن هلال بن يساف، عن رجل، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: **((سيكون قوم لهم عهد، فمن قتل رجلًا منهم لم يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين عامًا))**[(١)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((ألا من قتل نفسًا معاهدًا، له ذِمَّةُ الله وذِمَّةُ رسوله، فقد أَخْفَرَ بِذِمَّةِ الله، فلا يرح رائحة الجنة، وإن ريحها ليوجد من مسيرة سبعين خريفًا))**[(٢)].

وعن جندب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بلغني أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((من يخفر ذِمَّتِي كنتُ خصمُه، ومن خَاصَمْتُهُ خَصَمْتُهُ))**[(٣)]. **((من يخفر ذمتي))** أي: يزيل عهدي وينقصه.

و(الخفرة) -بضم الخاء-: العهد والذمام[(٤)]. **((كنت خصمه))** في رواية: **((يوم القيامة))**. **((ومن خاصمته خصمته))**؛ لأني المؤيد بالحجج الباهرة والبراهين القاطعة، المنصور في الدارين[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد [١٦٥٩٠]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦/٢٩٣): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح"

(٢) أخرجه ابن ماجة [٢٦٨٧]، والترمذي [١٤٠٣]، واللفظ له، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: الحاكم [٢٥٨١]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي.

(٣) أخرجه الطبراني [١٦٦٨]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦/٢٩٣): "رواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط)، ورجاله ثقات".

(٤) قال الطيبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقال: خفر يخفر -بالكسر- خفرًا فهو خفير إذا أجار، وكذلك خفر يخفر تخفيرًا. وأخفرته للتعدية إلى مفعول ثان، بمعنى: جعلت له خفيرًا، أو للسلب بمعنى: غادرته ونقضت عهده، وعليه معنى قوله: ((فلا تخفروا الله في ذمته))، أي: لا تعاملوا معاملة الغادر في نقض عهده، واغتيال مؤمنه، والذمة الأمان، وأذمه أجاره، أي له أمان الله نكال الكفار، وما شرع لهم من القتل والقتال" شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (٢/٤٥٥)، وانظر: لسان العرب، مادة: (خفر) (٤/٢٥٣).

(٥) فيض القدير (٦/٢٤١)، التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/٤٤٨).

((**من قتل معاهدًا**)) أي: من له عهد منا بنحو أمان.

قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأكثر ما يطلق في الحديث على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب مدة ما"(١).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تعاضدت الأدلة العقلية والنقلية أن من مات مسلمًا -ولو كان من أهل الكبائر- فهو محكوم بإسلامه غير مخلَّدٍ في النار، ومآله إلى الجنة -ولو عذب قبل ذلك-"(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ريح الجنة نوعان: نوع يوجد في الدنيا تشمه الأرواح أحيانًا لا تدركه العبارة. ونوع يدرك بحاسة الشم للأبد، كما يشم رائحة الأزهار ونحوها وذا يشترك أهل الجنة في إدراكه في الآخرة من قرب ومن بعد، يدركه الخواص في الدنيا، وقد أشهد الله عَزَّوَجَلَّ عباده في هذه الدار آثارًا من آثار الجنة، وأنموذجًا منها من الرائحة الطيبة، واللذة الشهية، والمناظر البهية، والمناكح الشهية، والنعيم والسرور وقرة العين"(٣).

وأمَّا قتل المعاهد خطأ، فقد أوجب الله عَزَّوَجَلَّ فيه الدية والكفارة، كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ كَانَ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ فَدِيَةٌ مُسَلَّمَةٌ إِلَى أَهْلِهِ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ فَمَنْ لَمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِنَ اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء:٩٢].

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (عهد) (٣٢٥/٣).
(٢) فتح الباري (٢٥٩/١٢)، وانظر: نيل الأوطار (١٩/٧)، فيض القدير (١٩٣/٦).
(٣) فيض القدير (١٩٣/٦)، حادي الأرواح إلى بلاد الأفراح (ص:١٦١- ١٦١).

ثانيًا: الوقاية من آفات القتل والعلاج:

١ - بناء العقيدة السليمة في نفوس الأبناء من أول النشأة، وغرسُ بذور الإيمان والتقوى:

إن العقيدة الصحيحة هي التي توجه الإنسان إلى ملازمة الصفات والميول الخيرة؛ لأن الإنسان مركب من صفات يمكن أن تستعمل في الشر كما تستعمل في الخير.

ومن هذه الصفات: القوة وما يتفرع عنها من النزوع إلى السيطرة والعظمة والجاه، وإلى التسابق في ميدان من الصراع الدموي على السلطان والجاه والممتلكات -إن استعملت في الشر-.

والعقيدةَ السليمة تكبحُ جماح النَّفس عن الاسترسال في الشَّهوات، والظلم والشر، وتحملُها على ما فيه صلاحُها وسعادتها في الدنيا والآخرة، وتنهضُ بها إلى المعالي.

٢ - الأخذ بأسباب السلامة من النأي عن مواطن الفتنة، وقرناء السوء.

٣ - نشر ثقافة المحبة، وتعميم مفهومها، فعموم محبة الخير للناس هو الذي يعكس سلامة الصدر، وصفاء النفس، وطهارة القلب، ومتانة المنهج؛ فإن المحبة أساس الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ومنطلقها، فالدين محبة ورحمة ومعاملة وإحسان، فالمسلم بعيد عن الحقد والغل وعن القتل وأسبابه من الترهيب والتحريض والإفساد، وإعانة الظالمين.

٤ — الإصلاح بين الناس: إن الاختلاف من سجايا البشر، والتنازع من عاداتهم؛ وذلك لاختلاف أخلاقهم وطباعهم؛ ولتنافسهم على حظوظ الدنيا، والشيطان ينزغ ويحرش بين المتخاصمين؛ ليشعل نار الفتنة حتى يؤول الأمر إلى الاقتتال، فإذا حصل فالواجب على المؤمنين الآخرين الصلح بينهما، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩

﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾ [الحجرات:٩-١٠]. فالصلحُ نهجٌ شرعيٌ يُصان به الناس، وتُحفظ به المجتمعات من الخصام والتفكك.

٤ – إقامة الحدود التي شرعها الله عَزَّوَجَلَّ:

أمرَ الله عَزَّوَجَلَّ بعبادته وطاعته، وفِعْل ما أمر به، واجتناب ما نهى عنه، وحدَّ حدودًا؛ لحفظ مصالح عباده، وتقرير الأمن، واطراد العمران، ولردع المجرمين، ومن تسول له نفسه باقتفاء أثرهم، ولمنع انتشار الشرور والفساد في الأرض.

فالحدود رحمة من الله عَزَّوَجَلَّ، ونعمة على الجميع، فهي للمحدود طهرة من إثم المعصية، وكفارة عن عقابها الأخروي، وهي له ولغيره رادعة عن الوقوع في المعاصي، فهي أمان وضمان للعباد على دمائهم وأعراضهم وأموالهم، وبإقامتها يصلح الكون، ويسود الأمن والعدل، وتحصل الطمأنينة، وبتركها ينتشر الشر، ويكثر الفساد، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٩].

المبحث السادس
الاعتداء في القتل بعد العفو أو الصلح

أولًا: خطورة الاعتداء في القتل بعد العفو أو الصلح:

إن من الذنوب المنكرة، والمتوعد عليها بالعذاب: الاعتداء في القتل بعد العفو أو الصلح: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٨].

قوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ أي: قتل بعد قبول الدية. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد اختلف في تفسير العذاب في هذه الآية: فقيل: يتعلق بالآخرة، وأما في الدنيا فهو لمن قتل ابتداء، وهذا قول الجمهور.

وعن عكرمة وقتادة والسدي رَحِمَهُمُ اللَّهُ: يتحتم القتل، ولا يتمكن الولي من أخذ الدية"[١].

وقال ابن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: "واختلف في العذاب الأليم الذي يلحقه: فقال فريق من العلماء منهم مالك رَحِمَهُ اللَّهُ[٢]: هو كمن قتل ابتداء إن شاء الولي قتله، وإن شاء عفا عنه، وعذابه في الآخرة.

(١) فتح الباري (١٢/ ٢٠٩).

(٢) في (تفسير القرطبي): "منهم مالك والشافعي رَحِمَهُمَا اللَّهُ".

وقال قتادة وعكرمة والسدي وغيرهم: عذابه أن يقتل البتة، ولا يمكن الحاكم الولي من العفو.

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عذابه أن يرد الدية فقط ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة، وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أمره إلى الإمام يصنع فيه ما رأى"[١].

وفي (البحر): "وظاهر هذا العذاب أنه في الآخرة؛ لأن معظم ما ورد من هذه التوعدات إنما هي في الآخرة.

وقيل: العذاب الأليم هو في الدنيا، وهو قتله قصاصًا، قاله عكرمة، وابن جبير، والضحاك.

وقيل: هو قتله البتة حدًّا، ولا يمكن الحاكم الولي من العفو، قاله عكرمة أيضًا، وقتادة، والسدي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

وقيل: عذابه أن يرد الدية، ويبقى إثمه إلى عذاب الآخرة، قاله الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

وقيل: عذابه تمكين الإمام منه يصنع فيه ما يرى، قاله عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

ومذهب جماعة من العلماء أنه إذا قتل بعد سقوط الدم هو كمن قتل ابتداء، إن شاء الولي قتله، وإن شاء عفا عنه"[٢].

وقد اختلف العلماء في أخذ الدية من قاتل العمد، فقالت طائفة: وليُّ المقتول بالخيار؛ إن شاء اقتص، وإن شاء أخذ الدية، وإن لم يرض القاتل. روي هذا عن سعيد بن المسيب وعطاء والحسن رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، ورواه أشهب عن مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبه قال الليث والأوزاعي والشافعي وأحمد، وإسحاق، وأبو ثور رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ.

---

(١) المحرر الوجيز (١/٢٤٦)، تفسير القرطبي (٢/٢٥٥- ٢٥٦).

(٢) البحر المحيط في التفسير، لأبي حيان (٢/١٥٣)، وانظر: روح المعاني (١/٤٤٨)، فتح القدير، للشوكاني (١/٢٠٢- ٢٠٣)، النكت والعيون (١/٢٣٠- ٢٣١).

وقال آخرون: ليس لولي المقتول عمدًا إلا القصاص، ولا يأخذ الدية إلا أن يرضى القاتل، رواه ابن القاسم عن مالك، وهو المشهور عنه رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وبه قال الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ والكوفيون، فإن ترك الولي حقه من القصاص لم يكن له أن يأخذ الدية.

وتظهر فائدة الخلاف في صور منها: لو عفا الولي عن القصاص إن قلنا: الواجب أحد الأمرين سقط القصاص ووجبت الدية، وإن قلنا: الواجب القصاص بعينه لم يجب قصاص ولا دية، وهذا الحديث محمول على القتل عمدًا فإنه لا يجب القصاص في غير العمد(١). وقد بسط الفقهاء القول في ذلك.

وفي (صحيح البخاري) عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: يقول: ((**كان في بني إسرائيل القصاص، ولم تكن فيهم الدية**)). فقال الله عَزَّوَجَلَّ لهذه الأمة: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾: ((**فالعفو أن يقبل الدية في العمد**)). ﴿فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ﴾: ((**يتبع بالمعروف ويؤدي بإحسان**)). ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾: ((**مما كتب على من كان قبلكم**)). ﴿فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾: ((**قتل بعد قبول الدية**))(٢).

---

(١) انظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/٥٠٦)، وشرح النووي على صحيح مسلم (٩/١٢٩).

(٢) صحيح البخاري [٤٤٩٨]. وقد فسر بن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا العفو بقبول الدية في العمد وقبول الدية راجع إلى الأولياء الذين لهم طلب القصاص. وأيضا: فإنما لزمت القاتل الدية بغير رضاه؛ لأنه مأمور بإحياء نفسه؛ لعموم قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [النساء:٢٩] فإذا رضي أولياء المقتول بأخذ الدية له لم يكن للقاتل أن يمتنع من ذلك. قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ معنى قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ إشارة إلى أن أخذ الدية لم يكن في بني إسرائيل، بل كان القصاص متحتمًا، فخفف الله عَزَّوَجَلَّ عن هذه الأمة بمشروعية أخذ الدية إذا رضي أولياء المقتول.." انظر ذلك مفصلًا في (فتح الباري)، لابن حجر (١٢/٢٠٥)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/٥٠٦)، نيل الأوطار، للشوكاني (٧/١٣).

وفي (تبيين المحارم): "قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: "كان في شريعة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ القصاص لا غير، وفي شريعة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ العفو لا غير، وفي شريعتنا القصاص، والعفو حسن، والصلح جائز على حسب ما يراه العبد أنفع له، وأشفى لقلبه، وأوفق لمراده، فمن اعتدى بعد ذلك ولم يقبل رحمة الله جَلَّ وَعَلَا وتخفيفه بأن قتل قاتل وليه بعد العفو والصلح، أو قتل غير الجاني وتعدى حد الشرع، فله عذاب أليم في الدنيا بالقصاص، وفي الآخرة بالنار.

وفي الآية دليل على أن القاتل لا يصير كافرًا بالقتل؛ لأن الله عَزَّ وَجَلَّ خاطبه بعد القتل بخطاب الإيمان فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى..﴾، وفي آخر الآية: ﴿فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ﴾، وأراد به: أخوة الإيمان، فلم يقطع الأخوة بينهما بالقتل، وفي الآية أقوال كثيرة ذكرت في (التفسير)"[1].

وفي (الصحيحين)، واللفظ لمسلم: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما فتح الله عَزَّ وَجَلَّ على رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مكة، قام في الناس، فحمد الله وأثنى عليه. ثم قال: ((**ومن قُتِلَ له قَتِيلٌ فهو بِخَيْرِ النَّظَرَيْنِ: إمَّا أن يُعْطَى -يعني الدِّيَةَ-، وإمَّا أَنْ يُقَادَ -أَهْلُ الْقَتِيلِ-**))[2].

وعند (مسلم): عن عَلْقَمَةَ بن وائل، حدثه أن أباه، حدثه، قال: إني لقاعد مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذ جاء رجل يقود آخر بِنِسْعَةٍ، فقال: يا رسول الله، هذا قَتَلَ أخي، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أقتلته؟**)) - فقال: إنه لو لم يعترف أقمت عليه البينة- قال: نعم قتلته، قال: ((**كيف قتلته؟**))، قال: كنت أنا وهو نَخْتَبِطُ من شجرة، فَسَبَّنِي،

---

(١) من تحقيقنا لتبيين المحارم.

(٢) صحيح البخاري [٢٤٣٤]، مسلم [١٣٥٥] بألفاظ متقاربة، فعند البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ: ((إمَّا يُودَى، وإمَّا يُقَادُ))، صحيح البخاري [٦٨٨٠]. وعند (البخاري) أيضًا [١١٢]: ((إمَّا أنْ يُعْقَلَ، وإمَّا أن يُقَادَ أهلُ القَتِيلِ))، وعنده أيضًا [٢٤٣٤]: ((إمَّا أن يُفْدَى، وإمَّا أن يُقِيدَ)).

فأغضبني، فضربته بالفأس على قَرْنِهِ، فقتلته، فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**هل لك من شيء تُؤَدِّيهِ عن نفسك؟**)) قال: ما لي مال إلا كسائي وفأسي، قال: ((**فترى قومك يشترونك؟**)) قال: أنا أهون على قومي من ذاك، فرمى إليه بِنِسْعَتِه، وقال: ((**دونك صاحبك**))، فانطلق به الرجل، فلما وَلَّى قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن قَتَلَهُ فهو مِثْلُهُ**))، فرجع، فقال: يا رسول الله، إنه بلغني أنك قلت: ((**إن قتله فهو مثله**))، وأَخَذْتُهُ بأمرك، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أما تريد أن يبوء بإثمك، وإثم صاحبك؟**)) قال: يا نبي الله -لعله قال- بلى، قال: ((**فإن ذاك كذاك**))، قال: فرمى بِنِسْعَتِهِ وخَلَّى سبيله[1].

وفي (صحيح البخاري): عن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: لطمت الرُّبَيِّع بنت النضر جارية فكسرت ثَنِيَّتَها، فطلبوا إليهم العفو فأبوا، وعرضوا الأَرْشَ عليهم فأبوا، فأتوا النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فأمرهم بالقصاص، فقال أنس بن النضر: أَتُكْسَرُ ثَنِيَّةُ الرُّبَيِّعِ يا رسول الله، لا والذي بعثك بالحق لا تُكْسَرُ ثَنِيَّتُهَا، فقال: ((**يا أنس كتاب الله القصاص**))، فرضي القوم وعفوا، فقال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأَبَرَّهُ**)). زاد الفَزَارِيُّ، عن حميد، عن أنس، فرضي القوم، وقبلوا الأرش[2].

وروى الشافعيُّ رَحِمَهُ اللهُ عن ابن أبي فديك عن ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي شريح الكعبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إن الله حرم مكة..**)) فذكر الحديث، إلى أن قال: ((**من قتل قتيلا فأهله خِيَرَتَيْن: إن أحبوا اقتادوا، وإن أحبوا أخذوا العَقْلَ**))، تابعه يحيى القطان، وجماعة عن ابن أبي ذئب رَحِمَهُ اللهُ[3].

---

(١) صحيح مسلم [١٦٨٠]. وقوله: ((بنسعة)) هي حبل من جلود مضفورة جعلها كالزمام له يقوده بها.

(٢) صحيح البخاري [٢٧٠٣، ٤٦١١]. و(الأرش): دية الجراحة أو الأطراف.

(٣) أخرجه الشافعي [١٦٣٠]، وأحمد [٢٧١٦٠]، وأبو داود [٤٥٠٤]، والترمذي [١٤٠٦]، وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه الطبراني في (الكبير) [٤٨٦]، والدارقطني [٣١٤٥]، والبيهقي [١٦٠٣٧]. قال=

وفي (التفسير): إن أهل (التوراة) كتب عليهم القصاص البتة، وحُرِّم العفو وأخذ الدية، وعلى أهل (الإنجيل) العفو، وحرِّم القصاص والدية، وخيرت هذه الأمَّة بين الثلاث: القصاص، والدية، والعفو؛ توسعة عليهم وتيسيرًا، فهذا معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ﴾. وقوله: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى﴾ أي: قتل بعد العفو وأخذ الدية. ﴿فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ في الآخرة. وقيل: في الدنيا بأن يقتل لا محالة"[1].

والحاصل أن الاعتداء في القتل بعد العفو أو الصلح من الذنوب المتوعد عليها بالعذاب، وهو فعلٌ مستقبح؛ لما فيه من الغَدْرِ، والتجاوز لحدودِ الله عَزَّوَجَلَّ، من القتل بغير حق، ومن إشاعة الفوضى في المجتمع بسبب البعد عن التحاكم إلى شرع الله عَزَّوَجَلَّ، والركون إلى العصبية الجاهلية. حتى قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن قتل بعد العفو أو أخذ الدية فهو أعظم جرمًا ممن قتل ابتداء، حتى قال بعض العلماء: إنه يجب قتله حدًّا، ولا يكون أمره لأولياء المقتول"[2].

=البغوي في (شرح السنة) (٣٠١/٧): "هذا حديث متفق على صحته". و(العقل): الدية. وأصله أن القاتل كان إذا قتل قتيلًا جمع الدية من الإبل فعقلها بفناء أولياء المقتول، أي: شدها في عقلها ليسلمها إليهم، ويقبضوها منه.

(١) انظر: الكشاف (٢٢٢/١)، تفسير السمعاني (١٧٤/١)، تفسير البيضاوي (١٢٢/١)، تفسير النسفي (١٥٦/١)، السراج المنير، للخطيب الشربيني (١١٦/١)، الإكليل في استنباط التنزيل (ص:٣٧).

(٢) مجموع الفتاوى (٣٧٤/٢٨).

ثانيًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب:

١ – الوقوف عند حدود الله عَزَّوَجَلَّ التي شرعها لعباده، وهو أعلم بما هو أصلح لهم:

ولا يخفى أن الاعتداء بالقتل بعد العفو أو الصلح هو من أنواع القتل المحرمة والمنكرة، وهو من التجاوز لحدود الله جَلَّوَعَلَا التي شرعها لعباده، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ ﴿١٤﴾﴾ [النساء:١٣-١٤]. ولا يخفى أن تجاوز حدود الله عَزَّوَجَلَّ من أسباب الفساد والفوضى والهلاك.

٢ – الاحتراز عن مسببات ذلك الفعل من نحو: الغضب:

والغضب مرض يصيب النفس، فيؤثر فيها، وينعكس أثره على سلوك المريض ومزاجه، وهو مفتاح لكثير من الشرور؛ فإنه إذا ملك ابن آدم كان كالآمر والناهي له، وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**لا يَقْضِيَنَّ حَكَمٌ بين اثْنَيْن وَهُوَ غَضْبَانُ**))[(١)]. وقد قيل: الغضب ريح تهب على سراج العقل فتطفئه. قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "والغضب غول العقل، فإذا اغتال الغضب عقله حتى لم يعلم ما يقول"[(٢)].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: "الغضب من نزغات الشيطان؛ ولهذا يَخْرُجُ به الإنسان عن اعتدال حاله، ويتكلم بالباطل، ويفعل المذموم، وينوي الحقد والبغض وغير ذلك من القبائح المترتبة على الغضب؛ ولهذا قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ للذي قال له: أوصني: ((**لا**

(١) صحيح البخاري [٦٧٣٩]، مسلم [٤٥٨٧].

(٢) إغاثة اللهفان في حكم طلاق الغضبان (ص:٣٩).

تغضب)) فردد مرارًا، قال: ((**لا تغضب**))(١)، فلم يزده في الوصية على (لا تغضب) مع تكراره الطلب، وهذا دليل ظاهر في عظم مفسدة الغضب، وما ينشأ منه"(٢).

وقال القاضي البيضاوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جميع المفاسد التي تعرض للإنسان إنما هي من شهوته وغضبه"(٣).

وقال الحافظ ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الغضب يحمل صاحبه على أن يقول غير الحق، ويفعل غير العدل"(٤).

وكثيرًا ما يحصل منه المرض الذي لا شفاء له، أعني: زوال العقل والعز والحرمة، وحصول الندامة والخسران.

ومن مسببات هذا الفعل أيضًا: الإصغاء إلى شياطين الإنس ممن يحرض على القتل بعد العفو والصلح.

٣ – الاحتراز عن خطوات الشيطان:

وقد حذَّرنا الله عَزَّوَجَلَّ من اتِّباع خطوات الشَّيطان، وبيَّن أنه عدوٌّ مبين، يقودُ إلى الهلاك والشرِّ المستطير، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [البقرة:١٦٨]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [النور:٢١].

---

(١) صحيح البخاري [٦١١٦].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٦٣).

(٣) فتح الباري، لابن حجر (١٠/٥٢٠)، عمدة القاري (٢٢/١٦٤)، مرقاة المفاتيح (٨/٣١٨٧)، فيض القدير (١/١٥٢).

(٤) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي (١/١٦٦).

٤ - التفقه في الدين، ومعرفة حدود الله عَزَّوَجَلَّ وأحكامه، ومجالسة العلماء الربانيين؛ فإن الأخذ عنهم يورث استقامة في الفكر والسلوك.

٥ — النظر إلى مآلات هذا الفعل وعاقبته في الدنيا والآخرة.

٦ - أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب، ويجتنب أسبابه، وأن يكون على بصيرة بعواقبه.

٧ - التأنِّي وعدم العجلة:

والأناة خُلُقٌ يحبه الله عَزَّوَجَلَّ، ويتصف به العقلاءُ الموفَّقون، فلا يقدمون على أمر إلا بعد دراسة وتحقق، والعجلة تمنع من التثبت، والنظر في العواقب، وتوجب وضع الشيء في غير محله، وتجلب الشرور.

وحيث إن الاعتداء بالقتل بعد العفو أو الصلح من أنواع القتل المحرمة والمنكرة فيقال في أسباب الوقاية منه ما قيل في أسباب الوقاية من من آفات القتل والعلاج.

المبحث السابع
شرب الخمر

أولًا: تعريف المسكر:

المسكر: اسم فاعل من أسكر الشراب فهو مسكر، إذا جعل صاحبه سكرانًا، والسُّكْر: هو اختلاط العقل.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "السَكْران: خلافُ الصاحي، والجمع سَكْرى وَسَكارى"[1]، وسُكارى. والمرأة سَكْرى. ولغةٌ في بني أسد: سَكْرانَة.

والخمر: كل ما خامر العقل، أي: غطاه من أيِّ مادة كان[2]، وهو محرم بالكتاب والسنة والإجماع.

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (سكر) (٢/٦٨٧)، وانظر: الملخص الفقهي (٢/٥٤٠- ٥٤١)، المبدع في شرح المقنع (٧/٤١٥)، كشاف القناع (٦/١١٦)، مطالب أولي النهى (٦/٢١٠)، أضواء البيان (٢/٤٠٧-٤٠٩).

(٢) اختلف الفقهاء في تعريف الخمر بناء على اختلافهم في حقيقتها في اللغة وإطلاق الشرع. فذهب أهل المدينة، وسائر الحجازيين، وأهل الحديث كلهم، والحنابلة، وبعض الشافعية إلى أن الخمر تطلق على ما يسكر قليله أو كثيره، سواء اتخذ من العنب أو التمر أو الحنطة أو الشعير أو غيرها. وذهب أكثر الشافعية، وأبو يوسف ومحمد رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ من الحنفية، وبعض المالكية إلى أن الخمر هي المسكر من عصير العنب إذا اشتد، سواء أقذف بالزبد أم لا، وهو الأظهر عند الشرنبلالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وذهب أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ وبعض الشافعية إلى أن الخمر هي عصير العنب إذا اشتد [قوي تأثيره بحيث يصير مسكرًا]. وقيده أبو حنيفة وحده بأن يقذف بالزبد [رمى بالرغوة] بعد اشتداده. واشترط الحنفية في عصير العنب كونه نيئًا. والمسألة مبسوطة في مظانها. انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (١٢/٥-١٣).

وقد جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كُلُّ مُسْكِرٍ خَمْر، وَكُلُّ مُسْكِرٍ حَرَام**))(١).

وفي (الصحيحين) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**كُلُّ شَرَابٍ أَسْكَرَ فَهُوَ حَرَامٌ**))(٢).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: سمعت عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ على منبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**أما بعد، أيها الناس إنه نزل تحريم الخمر، وهي من خمسة من: العنب والتمر والعسل والحنطة والشعير، والخمر ما خامر العقل**))(٣).

"وعند أبي داود والنسائي، وصححه ابن حبان من حديث: جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَام**)) وللنسائي من حديث: عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده مثله، وسنده إلى عمرو صحيح.."(٤).

وعن المختار بن فُلْفُل يقول: سألت أَنَسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الْمُزَفَّت، وقال: كل مسكر حرام، قال: فقلت له: صدقت المسكر حرام، فالشربة والشربتان على الطعام، فقال: ((**ما أَسْكَرَ كَثِيرُهُ فَقَلِيلُهُ حَرَام**))، وهذا سند صحيح على شرط مسلم(٥).

---

(١) صحيح مسلم [٢٠٠٣].

(٢) صحيح البخاري [٢٤٢، ٥٥٨٥، ٥٥٨٦]، مسلم [٢٠٠١].

(٣) صحيح البخاري [٤٦١٩، ٥٥٨١، ٥٥٨٨]، مسلم [٣٠٣٢].

(٤) فتح الباري، لابن حجر (١٠/٤٣).

(٥) المصدر السابق (١٠/٤٤-٤٥).

ثانيًا: آفات الخمر وبيان أنه من الذنوب المتوعد عليها بالنار:

إن الخمر من الآفات العظيمة التي تفتكُ بجسدِ الأمة، وتهددُ حضارتها بالاضمحلال، وقيمها بالزوال، وثرواتها بالتلف؛ فهي تفتحُ أوسع أبواب الشَّر، وتقود إلى جرائمَ كبيرة، وآثامٍ خطيرة، فتهدم سياج الأخلاق، وتفسد الدين، وتهلك الأبدان، وتضيع الأموال، وتدمر العقول، وتؤذن بالهلاك، وتقتل في الإنسان الأمل والطموح، وتعيق عن التوبة والهداية والتَّبصر. فما حلَّت في مجتمع إلا وانتشرت فيه الرذيلة، وانعدمت الفضيلة عند من يتعاطى هذه السموم، ومن يروج لها.

ولا يخفى أن المسكرات تتفاوت من حيث الأثر، فأعظمها خطرًا: المخدرات؛ لما تورث من الإدمان، ولما تترك من الأثر على متعاطيها، فهي تسيطر عليه سيطرةً كاملة تؤدي إلى غياب الوعي، وإلى الانهيار النفسي والبدني والعقلي، فلا هدف بعد ذلك ولا غاية في الحياة سوى الظفر بهذه السموم مهما كان السبيل إلى ذلك، ومهما كان الثمن، فأي خطر فوق هذا؟!

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ باجتناب المسكرات بكافة أنواعها مُبيِّنًا جملةً من أضرارها وأخطارها، ومُنبِّهًا إلى أن تزيين شُربها والإغراء بها من عمل الشيطان؛ ليُوقع به العدوان والبغضاء بين المسلمين، ويصدَّهم عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وعن الصلاة، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رِجْسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [المائدة: ٩٠- ٩١].
وقد قرنها بعظائم أفعال الجاهلية وكبائرها؛ للتدليل على خطرها، وسوء مآل صاحبها.

وقد بيَّن الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّه أحلَّ الطيبات وحرَّم الخبائث، وجعل ذلك من مقاصد بعثة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ

الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف:١٥٧]. والخبائثُ تتفاوت، والخمر أم الخبائث، كما جاء في الحديث: ((**الخمر أم الخبائث، ومن شربها لم يقبل الله منه صلاة أربعين يومًا، فإن مات وهي في بطنه مات ميتة جاهلية**))(١).

وعن عثمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: ((اجتنبوا الخمر؛ فإنها أم الخبائث، إنه كان رجل ممن خلا قبلكم تعبد، فَعَلِقَتْهُ امرأة غَوِيَّةٌ، فأرسلت إليه جاريتها، فقالت له: إنا ندعوك للشهادة، فانطلق مع جاريتها فَطَفِقَتْ كلما دخل بابًا أغلقته دونه، حتى أفضى إلى امرأة وضِيئَةٍ عندها غُلامٌ وبَاطِيَةُ خَمْرٍ(٢)، فقالت: إني والله ما دعوتك للشهادة، ولكن دعوتك لتقعَ عَلَيَّ، أو تشربَ من هذه الخمرة كأسًا، أو تقتلَ هذا الغلام، قال: فاسقيني من هذا الخمر كأسًا، فسقته كأسًا، قال: زيدوني فلم يَرِمْ(٣) حتى وقع عليها، وقتل النفس، فاجتنبوا الخمر، فإنها والله لا يجتمع الإيمان، وإدمان الخمر إلَّا ليوشك أن يُخرجَ أحدُهما صاحبَهُ))(٤).

---

(١) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٣٦٦٧]، والدارقطني [٤٦١٠]، والقضاعي [٥٧] الجملة الأولى منه. قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ (٣/٥٠٨): "فيه الحكم بن عبد الرحمن البجلي أورده الذهبي في (الضعفاء) وقال: مختلف فيه". قال العجلوني رَحِمَهُ اللَّهُ (١/٤٣٩): "رواه القضاعي بسند حسن".

(٢) (الباطية): إناء، قيل: هو معرَّب. وهو (الناجود) كما في (الصحاح)، وأنشد: (قرَّبُوا عودًا وباطية***فبذا أدركتُ حاجَتِيْه). وقال الأزهري رَحِمَهُ اللَّهُ: الباطية من الزجاج عظيمة تملأ من الشراب وتوضع بين الشرب يغرفون منها ويشربون. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (بطا) (٦/٢٢٨١)، تاج العروس (٣٧/١٧٤)، تهذيب اللغة، للأزهري (١٤/٢٨).

(٣) -بفتح أوله وكسر الراء-، أي: لم يبرح.

(٤) أخرجه عبد الرزاق [١٧٠٦٠]، والنسائي [٥٦٦٦]، وابن حبان [٥٣٤٨]، والبيهقي في (السنن) [١٧٣٣٩]، وفي (شعب الإيمان) [٥١٩٨]، والضياء [٣٧١]. قال المتقي الهندي في (كنز العمال) [١٣٦٩٦]: أخرجه: "عبد الرزاق، والنسائي، ورسته في (الإيمان)، وابن حبان، ورواه ابن أبي الدنيا في (ذم المسكر)، وابن أبي عاصم، وابن حبان، والبيهقي في (السنن الكبرى)، وفي (شعب الإيمان)، والضياء مرفوعًا، وقال الضياء: سئل الدارقطني عنه فقال: أسنده عمر بن سعيد عن الزهري، ووقفه يونس ومعمر وشعيب=

وإذا تقرَّر أنَّ الخبائث تتفاوت، وأن الخمر أم الخبائث، فلا شك أن أعظم المسكرات خطرًا: (المخدرات).

أما الحشيشة فقد قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والحشِيشَة نجسة في الأصَحِّ، وهي حرام سَكِرَ منها أو لم يَسْكَرْ، والْمُسْكِرُ منها حرام باتِّفَاق المسلمين، وضررُهَا من بعض الوجوه أعظمُ من ضرر الخمر"(١).

وهذه الحشيشة وسائر المخدرات من أعظم ما يفتك اليوم بشباب المسلمين، وهي أعظم سلاح يصدره الأعداء ضدنا، ويروجها المفسدون في الأرض؛ ليفتكوا بالمسلمين، ويفسدوا شبابهم، ويعطلوهم عن الاتجاه للعمل لمجتمعاتهم، والجهاد لدينهم، وصد عدوان المعتدين على شعوبهم وبلادهم، حتى أصبح كثير من شباب المسلمين مخدرين، عالة على مجتمعهم، أو يعيشون رهن السجون، كل ذلك من آثار رواج تلك المخدرات والمسكرات في بلاد المسلمين -فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم-(٢).

والخمر -عمومًا- من المضلات عن الحق، وهي جالبة لأنواع من الشر في الحال والمآل.

وقد توعد الله عَزَّوَجَلَّ شارب الخمر بالعذاب بالنار في الآخرة كما جاء في الحديث: عن جابرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّ رجُلًا قَدِمَ من جَيْشَانَ، وَجَيْشَانُ من اليمن، فسأل النَّبيَّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن شرابٍ يشربونه بأرضِهِم من الذُّرَة، يقال له: الْمِزْرُ، فقال النَّبيُّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**أَوَ مُسْكِرٌ هو؟**))، قال: نعم، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**كلُّ**

=وغيرهم عن الزهري، والموقوف هو الصواب. وقال البيهقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شعب الإيمان): الموقوف هو المحفوظ. وأورد ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ المرفوع في (الواهيات)، وصحح الوقف"اهـ. وقال الإمام الزيلعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا الحديث رواه البيهقي في (سننه) موقوفًا على عثمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، وهو أصح" نصب الراية (٤/٢٩٧).

(١) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٥/٥٢٩).

(٢) انظر: الملخص الفقهي، للشيخ صالح الفوزان (٢/ ٥٤١- ٥٤٢).

مُسْكِرٍ حَرَامٌ، إنَّ على الله عَزَّوَجَلَّ **عَهْدًا لمن يشرب المُسْكِرَ أن يَسْقِيَهُ من طِينَة الْخَبَال))**، قالوا: يا رسول الله، وما طينةُ الخبال؟ قال: **((عَرَقُ أَهْلِ النَّارِ))**، أو **((عُصَارَةُ أَهْل النَّار))**[1].

و**((عُصَارَةُ أهل النَّار))**: ما يسيل عنهم من الدَّم والصَّديد. و**((الخبال))** في الأصل: الفسادُ، ويكون في الأفعال والأبدان والعقول[2].

ومن الوعيد الشديد الوارد فيها: ما جاء في الحديث عن عبد الله بن يسار، عن سالم بن عبد الله، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((ثلاثة لا ينظر الله عز وجل إليهم يوم القيامة: العاقُّ لوالديه، والمرأةُ الْمُتَرَجِّلَة، والدَّيُّوث. وثلاثة لا يدخلون الجنَّة: العاقُّ لوالديه، والمدمِنُ على الخمر، والمنَّانُ بما أعطى))**[3].

ولا يشربُ الخمرَ حين يشربُ إلا ناقصُ الإيمان، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشرب وهو مؤمن، ولا يسرق حين يسرق وهو مؤمن))**[4].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث مما اختلف العلماء في معناه، فالقول الصحيح الذي قاله المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله، كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة. وإنما تأولناه على ما ذكرناه؛ لحديث أبي ذر

---

(١) صحيح مسلم [٢٠٠٢].

(٢) حاشية السيوطي على سنن النسائي (٨/٣٠١).

(٣) أخرجه أحمد [٦١٨٠]، والبزار [٦٠٥٠]، والنسائي [٢٥٦٢]، وأبو يعلى [٥٥٥٦]، والروياني [١٤٠٠]، والطبراني في (الكبير) [١٣١٨٠]، و(الأوسط) [٢٤٤٣]، والحاكم [٢٤٤]، وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٨/١٤٨): "رواه البزار بإسنادين ورجالهما ثقات".

(٤) أخرجه البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢]، ومسلم [٥٧].

رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره من قال: ((**لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق**))(١)، وحديث عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الصحيح المشهور أنهم بايعوه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن لا يسرقوا، ولا يزنوا، ولا يعصوا..إلى آخره. ثم قال: لهم صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**فمن وفى منكم فأجره على الله، ومن فعل شيئًا من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارته، ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه**))(٢)، فهذان الحديثان مع نظائرهما في (الصحيح) مع قوله الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان إن تابوا سقطت عقوبتهم، وإن ماتوا مصرِّين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله عَزَّ وَجَلَّ عفا عنهم وأدخلهم الجنة أوَّلًا، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة"(٣).

ونحوه قول ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (التمهيد) أنه يريد من قوله: ((**وهو مؤمن**)): "مستكمل الإيمان، ولم يرد به نفي جميع الإيمان عن فاعل ذلك، بدليل الإجماع على توريث الزاني والسارق وشارب الخمر إذا صلوا للقبلة، وانتحلوا دعوة الإسلام من قرابتهم المؤمنين الذين آمنوا بتلك الأحوال. وفي إجماعهم على ذلك مع إجماعهم على أن الكافر لا يرث المسلم أوضح الدلائل على صحة قولنا: إن مرتكب الذنوب ناقص الإيمان بفعله

---

(١) صحيح البخاري [٥٨٢٧]، مسلم [٩٤]. وفي لفظ: ((من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة))، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: ((وإن زنى وإن سرق)) وهو في (الصحيحين).

(٢) حديث عبادة أخرجه البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٤٨٩٤، ٦٧٨٤، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]، ومسلم [١٧٠٩]. و((وفى)): ثبت على العهد.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٤١- ٤٢)، وانظر: فتح الباري (١٢/٦٠)، عمدة القاري (١٣/٢٧)، طرح التثريب (٧/٢٦٠).

ذلك، وليس بكافر كما زعمت الخوارج في تكفيرهم المذنبين. وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ في ارتكاب الكبائر حدودًا جعلها كفارة وتطهيرًا"[1].

وقد حرَّمَ الشَّارعُ بيعَ الخمر، كما جاء في الحديث: عن جابرِ بنِ عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنه قال: ((**إن الله ورسوله حَرَّمَ بيع الخمر**)). وفي لفظ: ((**إن الله ورسوله حَرَّمَ بيع الخمر، والمَيْتَةِ والخنزير والأصنام**))[2].

وعن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: ((**لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة في الرِّبَا، قرأها رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **على الناس، ثم حَرَّمَ التجارةَ في الخمر**))[3].

أما الذي يبيع الخمر وهو مستحل لشربها وبيعها فهو كافر مجاهر بمعصيته وكفره.

وأخبر النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنَّ من أشراط الساعة: قلَّةَ العلم، وكثرةَ الجهل، وكثرةَ شرب الخمر، فلا يكترثُ الشَّارب بما جاء في التَّحذير من سوء عاقبة شارب الخمر، بل ربما جاهر بذلك في جرأة ووقاحة، كما جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**إن من أشراط الساعة: أن يُرْفَعَ العلمُ، ويَثْبُتَ الجهلُ، ويُشْرَبَ الخمر، ويَظْهَرَ الزِّنَا**))[4]. وفي رواية: عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: لأحدثنكم حديثا سمعته من رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لا يحدثكم به أحد غيري: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: ((**إن من أشراط الساعة: أن يرفع العلم، ويكثر الجهل، ويكثر الزنا، ويكثر شرب الخمر، ويَقِلَّ الرجال، ويكثر النساء حتى يكون لِخَمْسِينَ امْرَأَةً القَيِّمُ الواحد**))[5].

---

(١) التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد (٩/ ٢٤٣-٢٤٤).

(٢) أخرجه البخاري [٢٢٣٦، ٤٢٩٦]، ومسلم [١٥٨١].

(٣) أخرجه البخاري [٢٠٨٤ ، ٢٢٢٦، ٤٥٤٠، ٤٥٤١، ٤٥٤٢، ٤٥٤٣]، ومسلم [١٥٨٠].

(٤) أخرجه البخاري [٨٠]، ومسلم (٨) [٢٦٧١].

(٥)أخرجه البخاري [٥٢٣١، ٥٥٧٧، ٦٨٠٨]، ومسلم (٩) [٢٦٧١].

وذلك يوجبُ الحذرَ من هذا الذَّنب العظيم، وأن لا يغترَّ المسلم وطالب الهداية والتوفيق بكثرة المفسدين والضَّالين عن الحقِّ، والمنغمسين في أوحال المعاصي.

ثالثًا: الوقاية من هذا الداء والعلاج:

والوقاية من هذا الدَّاء العضال خيرٌ من العلاج، وتكون ببناء الأجيال بناءً سليمًا يغرس في النَّاشئة القيمَ والأخلاق الفاضلة، ولا يكون البناء سليمًا إلَّا بالرجوع إلى العقيدة الصحيحة، واللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ؛ لطلب الهداية والعافية، والاستعانة به، ثم الأخذ بأسباب السلامة من النأي عن مواطن الفتنة، وقرناء السوء، واغتنام الأوقات، وملئها بالعلم النافع، والعمل الصالح، وتعقب أوكار الإجرام، وإنزال العقاب بصُنَّاع الفساد، وتجار الأرواح، والمروجين لهذه السموم.

ومن وسائل الوقاية من هذا الداء: الإسهام في حملات توعية تبين خطر هذه السموم، وتوضح آثارها.

أما علاج المريض المصاب بهذا الداء فلا يقتصر فيه على الجانب الجسدي فحسب، بل لا بدَّ من العلاج النفسي، والبحث عن الدوافع والمسببات، وإعادة تأهيل المريض حتى يكون ذا نفع في مجتمعه.

المبحث الثامن
الكِبْر

أولًا: الكبر من الذنوب المتوعد عليها بالنَّار:

إن الكبر[1] من أسباب الإعراض عن الحق، وهو من الذنوب المتوعد عليها بالنار. جاء في ذلك آيات كثيرة، فمنها قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [الأعراف:٣٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ ﴿٤٠﴾ لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ ﴿٤١﴾﴾ [الأعراف:٤٠-٤١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ قُلُوبُهُمْ مُنْكِرَةٌ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ ﴿٢٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴿٢٣﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [النحل:٢٢-٢٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَى رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ وَعَتَوْا عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلَائِكَةَ لَا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ

(١) ينظر تعريف الكبر، وبيان أقسامه وآفاته في كتاب (عقبات في طريق الهداية)، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان.

لِلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا ﴿٢٢﴾ وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا ﴿٢٣﴾ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْرٌ مُسْتَقَرًّا وَأَحْسَنُ مَقِيلًا ﴿٢٤﴾﴾ [الفرقان:٢١-٢٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل:٢٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [الزمر:٧٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ ﴿٤٨﴾﴾ [غافر:٤٧-٤٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر:٧٦].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ وَأَمَّا الَّذِينَ اسْتَنْكَفُوا وَاسْتَكْبَرُوا فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿١٧٣﴾﴾ [النساء:١٧٢-١٧٣].

ومن مظاهر الكبر المتوعد عليها بالعذاب في الآخرة: جر الثوب خيلاء كما جاء في (الصحيح): عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يَنْظُرُ اللهُ إلى مَنْ جَرَّ ثَوْبَهُ خُيَلَاءَ**))(١).

(١) صحيح البخاري [٣٦٦٥، ٥٧٨٣، ٥٧٨٤، ٥٧٩١]، صحيح مسلم [٢٠٨٥].

والخِيَلاء والأَخْيَل والخَيْلَة والمخِيلَة، كلُّه: الكِبْر. وقد اخْتَالَ، وهو ذو خُيلاءَ، وذُو خَالٍ وذُو مَخِيلَة، أَي: ذُو كِبْر. يقال: خَالَ الرجلُ يَخُولُ خَوْلًا واخْتَالَ إذا تَكَبَّرَ، وهو ذُو مَخِيلة[1].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال العلماء: الخُيَلَاءُ -بالمدِّ- والْمَخِيلَة والْبَطَر والْكِبْر وَالزَّهْو والتَّبختر كلها بمعنى واحد، وهو حرام. ويقال: خال الرجل خالا واختال اختيالا إذا تَكَبَّرَ، وهو رجل خال، أي: مُتَكَبِّرٌ، وصاحب خال، أي: صاحب كبر[2]. ومعنى: (لا ينظر الله إليه) أي: لا يرحمه ولا ينظر إليه نظر رحمة"[3].

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((بينما رجل يَجُرُّ إزَارَهُ من الخُيلاَء، خُسِفَ به، فهو يَتَجَلْجَلُ في الأرض إلى يوم القيامة))**[4].

ويتفاوت خطر الكبر من حيث اختلاف أقسامه، فالتكبر على الله عَزَّوَجَلَّ أفحش أنواع الكبر، ولا مثار له إلَّا الجهل المحض والطغيان، مثل ما كان من نمرود وفرعون، فإنه كان يحدث نفسه بأنه يقاتل رب السماء، وكما يحكى عن جماعة من الجهلة.

ومن أقسامه: التكبر على الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ من حيث تعزز النفس وترفعها على الانقياد لبشر مثل سائر الناس، وذلك تارة يصرف عن الفكر والاستبصار، فيبقى في ظلمة الجهل بكبره فيمتنع عن الانقياد.

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (خيل) (٤/١٦٩١)، لسان العرب (١١/ ٢٢٦).

(٢) قال أحمد بن عبد الرحيم العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح الترمذي): وكأنه مأخوذ من (التخيل)، أي: الظن، وهو أن يخيل له أنه بصفة عظيمة بلباسه لذلك اللباس، أو لغير ذلك. انتهى. وهو محتمل. ويقال: للكبر أيضًا: خيل وأخيل وخيلة -بكسر الخاء- ذكر ذلك في (المحكم)". طرح التثريب في شرح التقريب (٨/١٧١)، و(طرح الترثيب) للحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي، وقد أكمله ابنه أحمد.

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/٦٠-٦١).

(٤) صحيح البخاري [٣٤٨٥].

ومنها: التكبر على العباد: وذلك بأن يستعظم نفسه ويستحقر غيره، فتأبى نفسه الانقياد لهم، وتدعوه إلى الترفع عليهم، فيزدريهم ويستصغرهم.

وآفة الكبر عظيمة، وقد أخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه: ((**لا يدخل الْجَنَّةَ من كان في قلبه مثقال ذَرَّةٍ من كِبْرٍ**))(١).

وإنما صار حجابًا دون الجنة؛ لأنه يحول بين العبد وبين أخلاق المؤمنين؛ لأن صاحبه لا يقدر أن يحب للمؤمنين ما يحب لنفسه، فلا يقدر على التواضع، ولا على ترك الحقد والحسد والغضب، ولا على كظم الغيظ، وقبول النصح، ولا يسلم من الازدراء بالناس واغتيابهم. فما من خلق ذميم إلا وهو مضطر إليه.

وفي (تبيين المحارم): "اعلم أن الكبر من السنن التي وضعها الشيطان، وهو من أكبر الأخلاق المذمومة، وصاحبه منازع لله عَزَّوَجَلَّ في صفة الكبرياء والعظمة، وقد ذمَّ الله عَزَّوَجَلَّ الكبر في كتابه في مواضع كثيرة وقال [عن الشيطان]: ﴿أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٣٤]، وقال: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف:١٤٦]، وقال: ﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧٢]، وقال: ﴿الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣]، وغير ذلك من الآيات(٢).

وقد جاء في الحديث: عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**))، قال رجل: إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسنًا، ونعله حسنة، قال: ((**إن الله جميل يحب الجمال، الكبر بَطَرُ الحق، وَغَمْطُ الناس**))(٣).

(١) صحيح مسلم [٩١].

(٢) من تحقيقنا لتبيين المحارم، لم يطبع.

(٣) صحيح مسلم [٩١]. و((بطر الحق)) يعني: رده، و((غمط الناس)) يعني: احتقارهم وازدراءهم.

وقال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حاكيًا عن الله جَلَّ وَعَلَا: **((الكبرياءُ رِدَائِي، والْعَظَمَةُ إِزَارِي، فمن نَازَعَنِي واحدًا منهما، قَذَفْتُهُ في النَّار))**(١).

وهو عند (مسلم) بلفظ: **((الْعِزُّ إزارُهُ، والكبرياءُ رِدَاؤُه، فمن يُنَازِعُنِي عَذَّبْتُه))**(٢).

وعن عمرو بن شعيب، عن أبيه، عن جده رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((يحشر المُتَكَبِّرُونَ يوم القيامة أمثال الذَّرِّ في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يُسَمَّى: بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الأَنْيَار، يسقون من عصارة أهل النار، طينةَ الخبال))**(٣).

---

(١) الحديث مروي عن أبي هريرة، وعن ابن عباس. حديث أبي هريرة: أخرجه الحميدي [١١٨٣]، وإسحاق بن راهويه [٢٨٥]، وأحمد [٧٣٨٢]، وهناد في (الزهد) [٨٢٥]، وابن ماجه [٤١٧٤]، وأبو داود [٤٠٩٠]، وابن حبان [٥٦٧١]. حديث ابن عباس: أخرجه ابن ماجه [٤١٧٥]، قال البوصيري (٢٢٩/٤): "هذا إسناد رجاله ثقات إلا أن عطاء بن السائب اختلط بآخره، ولم يعرف حال عبد الرحمن بن محمد المحاربي هل روى عنه قبل الاختلاط أو بعده". والحديث أخرجه أيضًا: البزار [٥١٠٦]، ابن حبان [٥٦٧٢]، الضياء [٢٤٨].

(٢) صحيح مسلم [٢٦٢٠]. عن أبي سعيد الخدري، وأبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: ((العز إزاره)) هكذا هو في جميع النسخ، فالضمير في إزاره ورداؤه يعود إلى الله عَزَّ وَجَلَّ للعلم به، وفيه محذوف تقديره: قال الله تعالى. ومعنى ينازعني: يتخلق بذلك، فيصير في معنى المشارك، وهذا وعيد شديد في الكبر، مصرح بتحريمه. وأما تسميته: إزارًا ورداء فمجاز واستعارة حسنة، كما تقول العرب: فلان شعاره الزهد، ودثاره التقوى، لا يريدون الثوب الذي هو شعار أو دثار، بل معناه: صفته كذا. قال المازري: ومعنى الاستعارة هنا: أن الإزار والرداء يلصقان بالإنسان ويلزمانه، وهما جمال له. قال فضرب ذلك مثلًا؛ لكون العز والكبرياء بالله عَزَّ وَجَلَّ أحق وله ألزم، واقتضاهما جلاله. ومن مشهور كلام العرب: فلان واسع الرداء، وغمر الرداء، أي: واسع العطية" شرح النووي على صحيح مسلم (١٧٣/١٦- ١٧٤).

(٣) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (٥٢/٢)، والحميدي [٦٠٩]، وابن أبي شيبة [٢٦٥٨٢]، وأحمد [٦٦٧٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٥٥٧]، والترمذي [٢٤٩٢]، وقال: "حسن". وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [١١٨٢٧].

والأخبار والآثار في هذا أكثر من أن تحصى.

والكبر صفة الكفار، فيجب على المؤمن أن يبعد عنه بعد المشرقين.

وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ الكفار بالكبر، وقال: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الصافات:٣٥]، وقال: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مُوسَى بِالْبَيِّنَاتِ فَاسْتَكْبَرُوا﴾ [العنكبوت:٣٩]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر:٦٠]، وقال: ﴿فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [غافر:٧٦]، وقال: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل:٢٣].

ومدح المؤمنين بقوله: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان:٦٣].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا))**(١).

ثانيًا: الوقاية من آفات الكبر والعلاج:

يمكن إجمال علاج الكبر باتباع الأساليب والوسائل التالية:

١ - استئصال أصله وقطع شجرته، وذلك بأن يعرف الإنسان نفسه، ويعرف ربه، وأن يتفكر في طبيعة الخلق وعلته، وفي العاقبة والمآل.

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "ومن تكبر لرياسة نالها دلَّ ذلك على دناءة عنصره، ومن تفكر في تركيب ذاته، فعرف مبدأه ومنتهاه وأوساطه عرف نقصه، ورفض كبره، وقد نبَّه الله عَزَّوَجَلَّ على ذلك أحسن تنبيه بقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ۝٥ خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ ۝٦﴾ [الطارق:٥-٧]، وبقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ۝١٧ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ۝١٨ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ۝١٩﴾ [عبس:١٧-١٩]، ثم قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ

(١) صحيح مسلم [٢٥٨٨]. بتصرف عن (تبيين المحارم) من تحقيقنا للكتاب، ولم يطبع.

أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ﴾ [الإنسان:٢]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ [يس:٧٧].

وإلى هذا المعنى نظر مطرف بن عبد الله بن الشخير(١). فقد روي أن مُطَرِّف بن عَبْدِ الله بن الشِّخِّير رأى الْمُهَلَّبَ بن أبي صُفْرَةَ وهو يَتَبَخْتَرُ في جُبَّةِ خزٍّ، فقال: يا عبد الله هذه مِشْيَةٌ يُبْغِضُهَا الله وَرَسُولُه، فقال له الْمُهَلَّب: أما تعرفني؟ فقال: بلى أعرفك، أَوَّلُك نُطْفَةٌ مَذِرَة، وآخِرُك جِيفَةٌ قَذِرَة، وأنتَ بين ذلك تَحْمِلُ الْعَذِرَةَ، فمضى المهلب، وترك مِشْيَتَهُ تلك(٢).

٢ - التواضع بالفعل لله عَزَّوَجَلَّ ولعباده، وذلك بالمواظبة على استعمال خلق المتواضعين.

٣ - من اعتراه الكبر من جهة النَّسب، فليعلم أنَّ هذا تعزُّز بكمال غيره، ثم يعلم أباه وجده، فإنَّ أباه القريب نطفة قذرة، وأباه البعيد تراب. ومن اعتراه الكبر بالجمال فلينظر إلى باطنه نظر العقلاء، ولا ينظر إلى ظاهره نظر البهائم. ومن اعتراه من جهة القوة فليعلم أنَّه لو آلمه عرق عاد أعجز من كلِّ عاجز، ولو أن شوكة دخلت في رجله لأعجزته، وبقَّة لو دخلت في أذنه لأقلقته. من تكبر بالغنى، فإذا تأمل خلقًا من اليهود وجدهم أغنى منه، فأفٍّ لشرف تسبقه به اليهود، ويستلبه السارق في لحظة، فيعود صاحبه ذليلًا. ومن تكبر بسبب العلم ، فليعلم أنَّ حجة الله على العالم آكد من حجته على الجاهل، وليتفكر في الخطر العظيم الذي هو بصدده، فإنَّ خطره أعظم من خطر غيره، كما أنَّ قدره أعظم من قدر غيره.

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص: ٢١٤- ٢١٥).

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٣/٣٤٠)، الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي (١/١١٨)، بريقة محمودية (٢/٩٢).

٤ – أن يعلمَ أنَّ الكِبْر لا يليق إلا بالله عَزَّوَجَلَّ، وأنَّه إذا تكبر صار ممقوتًا عند الله بغيضًا عنده، وقد أحبَّ الله عَزَّوَجَلَّ منه أن يتواضع، وكذلك كلُّ سبب يعالجه بنقيضه، ويستعمل التواضع(١).

٥ – تذكير النفس بالعواقب والآثار المترتبة على التكبر.

٦ – عيادة المرضى، ومشاهدة المحتضرين وأهل البلاء وتشييع الجنائز، وزيارة القبور، فلعل ذلك أيضًا يحركه قلبه، ويجعله يرجع إلى ربِّه بالإخبات والتواضع.

٧ – الانسلاخ من صحبة المتكبرين، والارتماء في أحضان المتواضعين المخبتين، فربما تعكس هذه الصحبة بمرور الأيام شعاعها عليه.

٨ – مجالسة ضعاف النَّاس وفقرائهم، وذوى العاهات منهم، بل ومؤاكلتهم ومشاربتهم؛ فإن هذا مما يهذِّب النَّفس، ويجعلها تقلع عن غيِّها، وتعود إلى رشدها

٩ – النَّظر في سير وأخبار المتكبرين، كيف كانوا؟ وإلى أي شيء صاروا؟(٢).

١٠ – شكر المنعم على نعمه، ويكون بمعرفة مصدر تلك النعم، فمن الذي منح العبد تلك النعم، وكيف حاله لو سلبت منه نعمة واحدة فضلًا عن سلب نعم كثيرة أو عن سلب النعم كلها.

١١ – حضور مجالس العلم، وملازمة العلماء الربانيين. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مجالسة العارف تدعوك من ست إلى ست: من الشك إلى اليقين، ومن الرياء إلى الإخلاص، ومن الغفلة إلى الذكر، ومن الرغبة في الدنيا إلى الرغبة في الآخرة، ومن الكبر إلى التواضع، ومن سوء الطوية إلى النصيحة"(٣).

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (مختصر منهاج القاصدين)، لابن قدامة المقدسي (ص:٢٣١- ٢٣٣).

(٢) انظر: آفات على الطريق، د. السيد محمد نوح (ص:١١٤-١١٦).

(٣) مدارج السالكين (٣/٣٢٢).

١٢ - مجاهدة النفس وتهذيبها بالأخلاق الفاضلة، وحملها على التواضع في سائر الأحوال والأفعال.

١٣ — الرجوع عن الخطأ، والاعتراف بالتقصير، والاعتذار لما بدر من زلات.

١٤ — الدعاء بخشوع وتذلل لله عَزَّوَجَلَّ، والمواظبة على الطاعات، والإكثار من النوافل.

١٥ — أن لا يغيب عنه في كل حال ميزان التفاضل بين الخلق، وهو التقوى، والتنافس في فعل الخيرات.

١٦ - عدم الرضا عن النفس؛ لأنه أصل جميع الصفات المذمومة[1].

---

(١) انظر: عقبات في طريق الهداية، عقبة الرضا عن النفس، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٦٢٣-٦٣١).

المبحث التاسع
ترك الصلاة

أولًا: مكانة الصلاة وعقوبة تاركها:

إنَّ الدنيا ليست دار قرار، ولكنها دار ابتلاء واختبار، والعبودية لله عَزَّوَجَلَّ تقتضي التكليف، وهو من الاختبار الذي يحقِّق في العبد أهدافًا سامية؛ لأن التكليف إذعان لشرعة الله عَزَّوَجَلَّ، العالِمِ بأحوال عباده، وبما هو أصلح وأنفع لهم، ذلك الإذعان الذي يخرج المكلَّف إلى حدِّ الإنسانية، وإلى مقام العبودية؛ إذ إن العبادات والتكاليف الشرعية لها مقاصد سامية، فالصَّلاة ليست مجرَّد حركاتٍ يؤديها الإنسان دون أن يكون لها الأثر النَّاجع في المكلَّف، فقد بيَّن الحقُّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنها تورث المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فتزكو نفس العبد، وتعلو همته، ويبتعد عما يسخط الله عَزَّوَجَلَّ من قول أو فعل؛ لأن الانتهاء لا يكون إلا من ذاكر الله عَزَّوَجَلَّ مراقبه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥].

"فالصلاة تطهر الروح، وتزكي النفس؛ لأنها تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتربي في المصلي ملكة مراقبة الله تعالى وخشيته لدى الإساءة، وحبه والرجاء فيه عند الإحسان، وتذكره دائمًا بكماله المطلق، فتوجه همته دائمًا إلى طلب الكمال"(١).

(١) انظر: تفسير المنار (٦/ ٢١٤).

و"النفوس في حاجة إلى مذكِّر يرقى بها إلى العالم الروحي، ويخلعها من عالم الحس، ويوجهها إلى مراقبة من برأها وفطرها حتى تطهر من تلك الأرجاس والأدران، وتترفع عن البغي والعدوان، وتميل إلى العدل والإحسان، ذلك المذكر هى الصلاة التي تنهى عن الفحشاء والمنكر، وتنفي الجزع والهلع عند المصايب، وتعلِّم البخيل الكرم والجود"(١).

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الطهارة شرطًا للدخول فى الصلاة؛ لأنها تطهر البدن وتنشطه؛ لاستقبال الصلاة، وللوقوف بين يدي الله عَزَّوَجَلَّ، والعبد على أعدل حال، وهو طاهر الظاهر والباطن، فيسهل بذلك العمل من عبادة وغيرها.

وإذا كان على المؤمن أن يطهر ظاهره، فباطنه أحق بذلك وأولى، كما دلت على ذلك النصوص، نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ﴾ [الأنفال:١١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة:٢٢٢].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ يعني: من الذنوب، و﴿يُحِبُّ التَّوَّابِينَ﴾ أي: من الأقذار، فالتطهر شامل للطهارتين الحسية والمعنوية، أي: المتطهرين من الأقذار والأحداث، ومن الفواحش والمنكرات.

ومن نعم الله عَزَّوَجَلَّ على عباده أنه نزل عليهم من السماء ماء يتطهرون به. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا﴾ [الفرقان:٤٨]، أي: مُطَهِّرًا؛ لقوله: ﴿لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ﴾ [الأنفال:١١]. وهذه الآية أصل في الطهارة بالماء.

(١) انظر: تفسير المراغي (٢/ ٢٠١).

ووصف الماء به؛ إشعار بتمام النعمة فيه، وتتميم للنعمة فيما بعده؛ فإنَّ الماء الطهور أهنأ وأنفع مما خالطه ما يزيل طهوريته، وتنبيه على أن ظواهرهم لما كانت مما ينبغي أن يطهروها فبواطنهم أحق بذلك وأولى(١).

والصلاة سبب لمحو الخطايا، وغفران الذنوب، ولطهارة ظاهر المؤمن وباطنه، كما جاء في (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسلُ منه كُلَّ يوم خمسَ مَرَّاتٍ، هل يَبْقَى من دَرَنِهِ شيءٌ؟**)) قالوا: لا يبقى من دَرَنِهِ شيء، قال: ((**فذلك مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْس، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخطايا**))(٢).

وكذلك سائر العبادات لها مقاصد سامية. فالصيام –مثلًا– يعزز شعور المراقبة فهو جُنَّة ووجاء. وقل مثل ذلك في سائر العبادات والتكاليف؛ فإن لها مقاصد تسمو بالمكلف، وتصلح أحواله.

والعبادة سبب للتبصُّرِ والتَّفطن كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن بلاغه إنما يعيه قوم عابدون حيث قال: ﴿إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٦].

والحاصل أن العبودية لله عَزَّوَجَلَّ شرفٌ وعزةٌ، وعطاء وإحسان، أما العبودية للبشر فهي نقيصةٌ وذلٌّ؛ لأنَّ السيِّدَ يريد أن يأخذ خير عبده.

وقد وُصِف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالعبوديَّة في سياق ذكر حادثة (الإسراء). قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ﴾ [الإسراء:١].

ووصِفَ بها الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء:٧٣].

(١) انظر: تفسير البيضاوي (٤/ ١٢٧)، تفسير أبي السعود (٦/ ٢٢٤).

(٢) صحيح البخاري [٥٢٨]، مسلم [٦٦٧].

وَوَصْفُ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ بالعبوديَّة مشعرٌ بأنهم قد حصَّلوا معنى العبودية بسبب الاجتهاد في الطاعة، والإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ؛ فإنَّ التَّحقق بالعبودية لله عَزَّ وَجَلَّ يسمو بالروح، ويطهرُ النَّفْسَ، ويرتقي بالإنسان.

وقد جاء في الحديث: عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أتكلف هذا؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: ((**أفلا أكون عبدًا شكورًا**))(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلى قام حتى تَفطَّرَ رجلاه، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فقال: ((**يا عائشة أفلا أكون عبدًا شكورًا**))(٢).

والله عَزَّ وَجَلَّ غنيٌّ عن عباده، وهم الفقراء إليه، وحاجتهم الدنيويَّة، وكذلك الأخرويَّة هي التي تحوجهم إلى هذه الدينونة له بالعبادة. وهذا مما لا يختلف فيه اثنان.

"فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يأمر الخلق وينهاهم لا لأنه تضره معصيتهم، ولا تنفعه طاعتهم، بل نفع طاعتهم لهم وضرر معصيتهم عليهم، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء:٧]، وقال: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت:٤٦]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]"(٣).

---

(١) صحيح البخاري [١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١]، مسلم [٢٨١٩] واللفظ له.

(٢) صحيح البخاري [٤٨٣٧،]، مسلم [٢٨٢٠] واللفظ له.

(٣) أضواء البيان (١/ ٢٠٣).

وفي (صحيح مسلم): عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيما يرويه عن ربه عَزَّوَجَلَّ أنه قال: ((**يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئًا، يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل منكم ما نقص ذلك من ملكي شيئًا**)) الحديث(1).

وقد أرسل الله عَزَّوَجَلَّ الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ لإخراج الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن الظلمات إلى النور، والناس سواسية لا فضل لأحد إلا بتقوى الله عَزَّوَجَلَّ، فلا ينبغي لمسلم قد رسخت في نفسه العقيدة الصحيحة أن يذل نفسه إلا لله عَزَّوَجَلَّ.

وإن الصلاة هي الرُّكن الثاني من أركان الإسلام، وهي عمود الدِّين، وهي الصِّلة بين العبد وربه عَزَّوَجَلَّ، وهي دليلٌ على محبَّة العبدِ لربِّه عَزَّوَجَلَّ، وتقديره لنعمه التي لا تُحصى.

والصلاة تنمي في العبد شعور المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فتنهاه عن الفحشاء والمنكر والبغي كما أخبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في قوله: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ﴾ [العنكبوت:٤٥]؛ لأنها تجعَل العبد دائمًا مراقبًا لله عَزَّوَجَلَّ في أعماله وأقواله وأحواله.

والمواظبة على الصلاة عنوان فلاح المؤمن في الدنيا والآخرة، وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ عباده الأخيار بأنهم ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [الأنعام:٩٢]، ووصفهم بأنهم: ﴿عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ﴾ [المعارج:٢٣]، وبأنهم مهتمون بالصلاة، وحريصون على أدائها في أوقاتها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣].

والصلاة هي الفريضة الوحيدة التي فرضت ليلة (الإسراء والمعراج) في السماء السابعة، وبدون واسطة، فأصبحت الركن الثاني من أركان الإسلام، وعماد الدين، من تركها وأهملها فكأنه هدم دينه وأضاعه. وفي هذا دليل على أهمية الصلاة؛ ولذلك شدَّد الإسلام عليها كلَّ التشديد، وأمر بالقيام بها في السفر والحضر، والأمن والخوف، والصحة

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٧].

والمرض. إنَّ الصلاة هي المعراج الروحي لكل مسلم، فهي صلة بين العبد وربه عَزَّوَجَلَّ. هذه الفريضة التي تجعل المرء على موعد مع ربه عَزَّوَجَلَّ، وقد فرضت أول ما فرضت خمسين صلاة، ثم مازال النبيُّ صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يسأل ربَّه التخفيف بإشارة أخيه موسى عَلَيْهِالسَّلَامُ حتى خفَّفَ الله عَزَّوَجَلَّ عنهم هذه الصلوات إلى خمس. فهي خمس في الفرض، وخمسون في الأجر؛ لأن الحسنة بعشر أمثالها.

والصلاة تمد المؤمن بقوة روحية تعينه على تحمل الشدائد والمكاره، فقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ أن خير ما يستعان به على ذلك: الصبر والصلاة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة:٤٥]. وقد كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة(١).

وكانت الأنبياء عَلَيْهِمُالسَّلَامُ إذا نزل بهم أمر فزعوا إلى الصلاة، كما في حديث: صهيب رَضِيَاللَّهُعَنْهُ فيما حكاه النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن نبي من الأنبياء السابقين: ((**فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة**))(٢).

والصلاة هي الغذاء الروحي الذي يعين على مقاومة الجزع إذا مسَّ الإنسانَ الضُّرُ، والمنع والإمساك إذا مَسَّهُ الخيرُ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ۝١٩ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ۝٢٠ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ۝٢١ إِلَّا الْمُصَلِّينَ ۝٢٢ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ دَائِمُونَ ۝٢٣﴾ [المعارج:١٩-٢٣]، أي: إلا الذين يطيعون الله بأداء ما افترض عليهم من الصلاة، وهم على أداء ذلك مقيمون لا يضيعون منها شيئًا.

---

(١) جاء في الحديث: عن حذيفة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قال: ((كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إذا حزبه أمر، صلَّى)) أخرجه أحمد [٢٣٢٩٩]، وأبو داود [١٣١٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٩١٢]. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُاللَّهُ في (الفتح) (١٧٢/٣): "أخرجه أبو داود بإسناد حسن".

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٨٠]، وأحمد بإسناد صحيح [١٨٩٣٧]، والبزار [٢٠٨٩]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٧٥]، وابن حبان [١٩٧٥]، والضياء [٥٢]، وقال: "إسناده صحيح".

والصلاة تعلم العبد التواضع والشكر، وتملأ قلبه بالرحمة، وفيه تدريب على النظام.

وصلاة الجماعة مظهر من مظاهر الوحدة والمساواة بين المسلمين، وتقوية لروابط المحبة فيما بينهم، فهي سبب لتآلف القلوب، ووحدة الكلمة.

وقد توعد الله عَزَّوَجَلَّ تارك الصلاة بالعذاب في الآخرة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]. يقال لعَقِب الخير: خلَفٌ –بفتح اللام–، ولعقب شر خلْفٌ –بالسكون– أي فعقَبهم وجاء بعدهم عَقِبُ سوء[(١)].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعنى الآية الكريمة: أن هذا الخلف السيئ الذي خلف من بعد أولئك النبيين الكرام كان من صفاتهم القبيحة: أنهم أضاعوا الصلاة، واتبعوا الشهوات.

واختلف أهل العلم في المراد بإضاعتهم الصلاة، فقال بعضهم: المراد بإضاعتها: تأخيرها عن وقتها، وممن يروى عنه هذا القول ابن مسعود، والنخعي، والقاسم بن مخيمرة، ومجاهد، وعمر بن عبد العزيز وغيرهم، وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير هذه الآية: إن هذا القول هو الصحيح.

وقال بعضهم: إضاعتها الإخلال بشروطها، وممن اختار هذا القول الزجاج، وقال بعضهم: المراد بإضاعتها جحد وجوبها، ويروى هذا القول وما قبله عن محمد بن كعب القرظي رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وقيل: إضاعتها: إقامتها في غير الجماعات، وقيل: إضاعتها: تعطيل المساجد والاشتغال بالصنائع والأسباب.

---

(١) تفسير أبي السعود (٥/٢٧٢).

قال مقيده -عفا الله عنه وغفر له-: وكل هذه الأقوال تدخل في الآية؛ لأن تأخيرها عن وقتها، وعدم إقامتها في الجماعة، والإخلال بشروطها، وجحد وجوبها، وتعطيل المساجد منها كل ذلك إضاعة لها، وإن كانت أنواع الإضاعة تتفاوت"(١).

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، أي: أقبلوا على شهوات الدنيا وملاذِّها، ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنُّوا بها، فهؤلاء سيلقون غيًّا؛ أي: خسارًا يوم القيامة، وقدِ اختلفوا في المراد بإضاعة الصلاة ها هنا، فقال قائلون: المرادُ بإضاعتها تركها بالكلية، وقال غيرهم كالأوزاعي: إنما أضاعوا المواقيت، ولو كان تركًا كان كفرًا.

وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قرأ عمرُ بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ﴾، ثم قال: لم تكن إضاعتهم تركها، ولكن أضاعوا الوقت.

وقال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذلك عند قيام الساعة، وذهاب صالحي أمَّة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينزو(٢) بعضهم على بعض في الأزقَّة.

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عطَّلوا المساجد، ولزموا الضيعات(٣).

وقال سعيد بن المسيب -إمام التابعين- رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو أن لا يصلي الظهر حتى يأتي العصر، ولا يصلي العصر إلى المغرب، ولا يصلي المغرب إلى العشاء، ولا يصلي العشاء إلى الفجر، ولا يصلي الفجر إلى طلوع الشمس، فمن مات وهو مصرٌّ على هذه الحالة ولم يتب توعده الله عَزَّوَجَلَّ بغي، وهو واد في جهنم، بعيد قعره، خبيث طعمه(٤).

---

(١) أضواء البيان (٣/٤٤٤).

(٢) (نزا): وثب.

(٣) تفسير ابن كثير (٥/٢٤٤- ٢٤٥).

(٤) انظر: الوسيط، للواحدي (٣/١٨٨)، تفسير البغوي (٣/٢٣٩-٢٤٠)، الكشف والبيان (٦/٢٢٢)، السراج المنير (٢/٤٣٥).

﴿فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾، أي: عذابًا مضاعفًا شديدًا. وقد ذكروا في الغي وجوها: أحدها: أن كل شر عند العرب غي، وكل خير رشاد(١). وقال الزجاج رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هو على حذف المضاف، أي: يلقون جزاء الغي، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨]، أي: مجازاة الآثام. وثالثها: غيًّا عن طريق الجنة. ورابعها: الغي واد في جهنم يستعيذ منه أوديتها(٢).

قال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والوجهان الأولان أقرب فإن كان في جهنم موضع يسمى بذلك جاز، ولا يخرج من أن يكون المراد ما قدمنا؛ لأنه المعقول في اللغة"(٣).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ وَقَدْ كَانُوا يُدْعَوْنَ إِلَى السُّجُودِ وَهُمْ سَالِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ [القلم:٤٢-٤٣].

وقد قيل: السجود في هذا الموضع: الصلاة المكتوبة(٤).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ﴿٤٧﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ارْكَعُوا لَا يَرْكَعُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [المرسلات:٤٧-٤٨]. قيل: عُني بالركوع في هذا الموضع: الصلاة(٥).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مخبرًا عن أصحاب الجحيم: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [المدثر:٤٢-٤٨].

---

(١) انظر: الكشاف (٣/٢٦).

(٢) تفسير الرازي (٢١/٥٥٢)، غرائب القرآن (٤/ ٤٩٥)، معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٣/٣٣٦)، معاني القرآن، لأبي جعفر النحاس (٤/٣٤١)، المحرر الوجيز (٤/٢٢-٢٣).

(٣) تفسير الرازي (٢١/ ٥٥٢).

(٤) انظر: تفسير الطبري (٢٣/٥٦٠)، معالم التنزيل (٥/١٤٢)، الدر المنثور (٨/٢٥٦).

(٥) انظر: تفسير الطبري (٢٤/١٤٥)، المحرر الوجيز (٥/٤٢١).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٤-٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿سَاهُونَ﴾ عن وقتها الأول فيؤخرونها إلى آخره دائمًا أو غالبًا. وإما عن أدائها بأركانها وشروطها على الوجه المأمور به. وإما عن الخشوع فيها والتدبر لمعانيها، فاللفظ يشمل هذا كله"(١).

وقد جاء عن عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ، وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنهما قالا: الحمد لله الذي قال: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾، ولم يقل: (في صلاتهم)(٢).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

قيل: المراد بذكر الله في هذه الآية: الصلوات الخمس(٣).

وجاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عَمَلِه صَلاتُه، فإن صَلُحَتْ فقد أَفْلَحَ وأَنْجح، وإن فَسَدَتْ فقد خابَ وخَسِر))**(٤).

(١) تفسير ابن كثير (٢/٦٨١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤/ ٦٣٣)، الكشف والبيان (١٠/٣٠٥)، تفسير ابن كثير (٨/٤٦٨)، الدر المنثور (٨/٦٤٣)، أضواء البيان (٩/١١٥)، الإتقان في علوم القرآن (٢/١٦٧)، معترك الأقران (١/٣٨٩).

(٣) انظر: تفسير الطبري (٢٣/٤١٠)، الوجيز، للواحدي (ص:١١٠٠)، معالم التنزيل (٥/١٠١)، الكشاف (٤/٥٤٤).

(٤) أخرجه ابن ماجه [١٤٢٥]، والنسائي [٤٦٥]، والترمذي [٤١٣]، وقال: "حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه". وللحديث طرق أخرى.

وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن بين الرجل وبين الشرك والكفر ترك الصلاة**))(١).

وفي رواية: ((**العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر**))(٢)، أي: وهو جاحد لها على قول كثير من أهل العلم، وإلا فهو فاسق إذا تهاون في أداء الصلاة من غير إنكار وجحد.

وفي (صحيح البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ) أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله**))(٣).

وعن عبد الله بن عمرو رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه: ذكر الصلاة يومًا فقال: ((**من حافظ عليها؟ كانت له نورًا، وبرهانًا، ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم يكن له نور، ولا برهان، ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون، وفرعون، وهامان، وأبي بن خلف**))(٤).

"وفيه أنه لا انتفاع للمصلي بصلاته إلا إذا كان محافظًا عليها؛ لأنه إذا انتفى كونها نورًا وبرهانًا ونجاة مع عدم المحافظة انتهى نفعها"(٥).

وهذا وعيد شديد لمن يصلي ويترك، فلا بدَّ من محافظة المسلم على الصلاة حتى تكون له يوم القيامة نورًا وبرهانًا ونجاة.

---

(١) صحيح مسلم [٨٢].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٠٣٩٦]، وأحمد [٢٢٩٣٧]، وابن ماجه [١٠٧٩]، والترمذي [٢٦٢١]، وقال: "حسن صحيح غريب". وأخرجه أيضًا: النسائي [٤٦٣]، وابن حبان [١٤٥٤]، والحاكم [١١]، وقال: صحيح الإسناد. قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: صحيح ولا تعرف له علة. وأخرجه أيضًا: البيهقي [٦٤٩٩].

(٣) صحيح البخاري [٥٥٣].

(٤) أخرجه أحمد [٦٥٧٦]، قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٢٩٢/١): "رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: عبد بن حميد [٣٥٣]، والدارمي [٢٧٦٣]. والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٥٦٥].

(٥) نيل الأوطار (٣٦٤/١).

وفي (صحيح مسلم): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكي، يقول: يا وَيْلَه**[1] -وفي رواية أبي كريب: **يا ويلي- أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة، وأمرتُ بالسجود فأبيتُ فَلِيَ النار**)). حدثني زهير بن حرب، حدثنا وكيع، حدثنا الأعمش بهذا الإسناد، مثله غير أنه قال: ((**فعصيتُ فَلِيَ النار**))[2].

وفي (صحيح مسلم): عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كيف أنت إذا كانت عليك أمراء يؤخرون الصلاة عن وقتها؟** -أو- **يميتون الصلاة عن وقتها؟**))، قال: قلت: فما تأمرني؟ قال: ((**صل الصلاة لوقتها، فإن أدركتها معهم، فصل، فإنها لك نافلة**))[3].

ثانيًا: الوقاية من آفات ترك الصلاة والعلاج:

١ – تقوية الوازع الإيماني من خلال سماع الدروس الدينية والمواعظ المفيدة، ومجالسة العلماء والصالحين.

٢ – تعليم الأهل والأولاد أحكام الصلاة وفضلها، وحثهم على أدائها في وقتها:

---

(١) هو من آداب الكلام، وهو أنه إذا عرض في الحكاية عن الغير ما فيه سوء، واقتضت الحكاية رجوع الضمير إلى المتكلم صرف الحاكي الضمير عن نفسه؛ تصاونًا عن صورة إضافة السوء إلى نفسه. شرح النووي على صحيح مسلم (٧١/٢).

(٢) صحيح مسلم [٨١].

(٣) صحيح مسلم [٦٤٨].

وقد جاء في الحديث: ((**مروا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم عليها وهم أبناء عشر سنين، وفرقوا بينهم في المضاجع**))(١).

قال الفقهاء: وهكذا في الصوم؛ ليكون ذلك تمرينًا لهم على العبادة؛ لكي يبلغوا وهم مستمرون على العبادة والطاعة، ومجانبة المعصية وترك المنكر(٢).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فواجبٌ على كلِّ مسلم أن يعلِّمَ أهله ما بهم الحاجة إليه من أمر دينهم، وينهاهم عما لا يحلُّ لهم"(٣).

٣ - أن يفقه المكلف مكانة الصلاة وفضلها وأحكامها، وأن يسأل أهل العلم عما جهله منها:

إنَّ المحافظةَ على الصَّلاة عمومًا يُعَدُّ من المنجيات من العذاب كما دلَّت النُّصوص على ذلك. وقد وردت أحاديث لفضلِ صلواتٍ مخصوصة، والنَّص على أنها من المنجيات من النَّار.

فمن الأحاديث الدالة على أن المحافظة على الصَّلاة عمومًا من المنجيات: ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إنَّ الميت إذا وضع في قبره إنه ليسمع خَفْقَ نِعَالِهِمْ حين يُوَلُّونَ عنه، فإذا كان مؤمنًا كانت الصَّلَاةُ عند رأسه،**

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٤٨٢]، وأحمد [٦٦٨٩]، وأبو داود [٤٩٥]، والخرائطي في (مكارم الأخلاق [٤٥٧]، والدارقطني [٨٨٧]، والحاكم [٧٠٨]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٦/١٠)، والبيهقي في (السنن الكبرى) [٣٢٣٣]، عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده. قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (رياض الصالحين) (ص:١٢٦): "رواه أبو داود بإسناد حسن".

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (١٨٩/٨).

(٣) الاستذكار (٧٢/٣).

والزَّكاةُ عن يمينه، والصَّوم عن شماله، وفعلُ الخيرات، والمعروفُ، والإحسانُ إلى النَّاس عند رجليه)) الحديث(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((إن أول ما يحاسب به العبد يوم القيامة من عَمَلِهِ صَلَاتُه، فإن صَلُحَتْ فقد أَفْلَحَ وأَنْجَح، وإن فَسَدَتْ فقد خابَ وخَسِرَ))**(٢).

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **((أرأيتم لو أن نهرًا بباب أحدكم يغتسلُ منه كُلَّ يوم خمسَ مَرَّاتٍ، هل يَبْقَى من دَرَنِهِ شيءٌ؟))**، قالوا: لا يبقى من دَرَنِهِ شيء، قال: **((فذلك مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْس، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الخطايا))**(٣).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **((الصَّلَاةُ الخَمْس، والجُمْعَة إلى الجُمْعَة، كَفَّارَةٌ لما بَيْنَهُنَّ، ما لم تُغْشَ الكبائر))**(٤).

وعن حَنْظَلَةَ الأُسَيْدِيِّ، أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: **((من حافظ على الصَّلوات الْخَمْسِ، على وُضُوئِهَا، ومواقيتِهَا، وركوعِهَا، وسجودها، يراها حقًّا للهِ عليه، حُرِّمَ على النَّار))**(٥).

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في (المصنف) [٦٧٠٣]، وابن أبي شيبة [١٢٠٦٢]، وابن حبان [٣١١٣]، والطبراني في (الأوسط) [٢٦٣٠]، والبيهقي في (إثبات عذاب القبر) [٦٧]، قال الهيثمي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ (٣/٥١- ٥٢): "رواه الطبراني في (الأوسط)، وإسناده حسن".

(٢) أخرجه ابن ماجه [١٤٢٥]، والنسائي [٤٦٥]، والترمذي [٤١٣]، وقال: "حسن غريب من هذا الوجه، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه". وللحديث طرق أخرى.

(٣) صحيح البخاري [٥٢٨]، مسلم [٦٦٧].

(٤) صحيح مسلم [٢٣٣].

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٣٢]، وأحمد [١٨٣٤٦]، والطبراني [٣٤٩٤]. قال الهيثمي (١/٢٨٩): "رواه أحمد والطبراني في (الكبير)، ورجال أحمد رجال الصحيح". كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٥٦٦].

وفي الحديث: ((**حَرَّمَ الله على النَّار أن تَأْكُلَ أَثَرَ السُّجود**))(١). إلى غير ذلك من الأحاديث، وهي كثيرة.

*ومن الأحاديث الدَّالة على فضل صلواتٍ مخصوصة، والنَّصِ على أنها من المنجيات من النار ما جاء في (صحيح مسلم) عن أبي بكرِ بنِ عُمَارَةَ بنِ رُؤَيْبَة، عن أبيه، قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**لن يَلِجَ النَّارَ أَحَدٌ صَلَّى قبل طلوع الشمس، وقبل غروبها**))، يعني: الفجر والعصر(٢).

وفي (الصحيحين): ((**من صَلَّى البَرْدَيْن دخل الجنَّة**))(٣).

قوله: ((**البَرْدَيْن**)): تثنية برد، بفتح الباء الموحدة وسكون الراء، والمراد بهما: صلاة الفجر والعصر(٤).

قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال كثير من العلماء: هما الفجر والعصر، وسُمِّيا بذلك؛ لأنهما يفعلان في وقتي البرد"(٥).

وقال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: "لأنهما يصليان في بردي النهار، وهما طرفاه حين يطيب الهواء وتذهب سَوْرَةُ الحرِّ"(٦).

---

(١) صحيح البخاري [٧٤٣٧]، مسلم [١٨٢].

(٢) صحيح مسلم [٦٣٤].

(٣) صحيح البخاري [٥٧٤]، مسلم [٦٣٥].

(٤) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥٣/٢)، عمدة القاري (٧١/٥)، مرعاة المفاتيح (٣٣١/٢).

(٥) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٢٦٢/٢).

(٦) انظر: غريب الحديث، لأبي سليمان الخطابي (١٨٥/١- ١٨٨)، فتح الباري، لابن حجر (٥٣/٢)، عمدة القاري (٧١/٥). و(سَوْرَة الحر): وُثُوبُه واشتداده.

وقال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: الفجر والعصر، وخصهما؛ لكونهما شاقين، فمن واظب عليهما واظب على غيرهما بالأولى"(١).

وعن جرير بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كنا عند النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فنظر إلى القمر ليلة -يعني البدر- فقال: ((**إنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُّونَ في رؤيته، فإن استطعتم أن لا تُغْلَبُوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا**))، ثم قرأ: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق:٣٩]، قال إسماعيل: افعلوا لا تفوتنكم(٢).

وعن أُمِّ حَبِيبَةَ -زوج النَّبِيِّ- رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**من حافظ على أربع ركعاتٍ قبل الظُّهر، وأربعٍ بعدها، حَرُمَ عَلَى النَّارِ**))(٣).

٤ - الإخلاص لله عَزَّ وَجَلَّ في سائر الأعمال:

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله عَزَّ وَجَلَّ فهو مردود على فاعله، وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾[الماعون:٤-٧]، ولهذا قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]"(٤).

---

(١) التيسير بشرح الجامع الصغير (٢/ ٣٠٣).

(٢) صحيح البخاري [٥٥٤، ٥٧٣، ٤٨٥١، ٧٤٣٤]، مسلم [٦٣٣].

(٣) أخرجه أبو داود [١٢٦٩]، والترمذي [٤٢٨]، وقال: "حسن صحيح غريب". وأخرجه أيضًا: النسائي [١٨١٦]، والطبراني في (الكبير) [٤٤١]، و(الأوسط) [٣٠٨٣]، والشاميين [١٢٦٣]، والحاكم [١١٧٥]، والبيهقي في (السنن) [٤٢٦٤].

(٤) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٥).

٥ – تذكر الموت والآخرة، والتزود من دار الفناء لدار البقاء.

٦ – الاهتمام بمواقيت الصلاة، والتعود على النظام، واحترام المواعيد. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء:١٠٣]، فلا يجوز تأخير الصلاة عن وقتها إلا لعذر شرعي من نوم أو إغماء أو نسيان أو نحوه.

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ "مسوق مساق التعليل للحرص على أدائها في أوقاتها. والموقوت: المحدود بأوقات، والمنجم عليها، وقد يستعمل بمعنى المفروض على طريق المجاز. والأول أظهر هنا"(١).

٧ – الابتعاد عن الذنوب والمعاصي، ومجاهدة النفس والهوى والشيطان.

٨ – تدبر الآيات، ومطالعة سيرة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحاله في صلاته، وحال أصحابه الكرام رضوان الله عليهم، وحال السلف الصالح في صلاتهم وقراءتهم أو سماعهم لآيات القرآن الكريم:

فقد جاء عن عبد الله بن الشِّخِّير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: رأيت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يصلي وفي صدره أزيز كأزيز المرجل من البكاء(٢).

و((**الأزيز**)) -بفتح الألف بعدها زاي مكسورة ثم تحتانية ساكنة ثم زاي أيضًا-: وهو صوت القدر. قال في (النهاية): هو أن يجيش جوفه ويغلي من البكاء.

و((**المرجل**)) -بكسر الميم وسكون الراء وفتح الجيم-، قدر من نحاس، وقد يطلق على كل قدر يطبخ فيها. ولعله المراد في الحديث.

---

(١) التحرير والتنوير (٥/ ١٨٩).

(٢) أخرجه أحمد [١٦٣١٧]، وأبو داود [٩٠٤]، والنسائي [١٢١٤]، وأبو يعلى [١٥٩٩]، وابن خزيمة [٩٠٠]، وابن حبان [٦٦٥]، والحاكم [٩٧١]، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: تمام [١٦١٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/ ٢١١)، والبيهقي [٣٣٥٦].

وفي رواية أبي داود: ((**كأزيز الرحا**)) يعني: الطاحون[1].

وعندما مرض رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، واشتد عليه المرض قال: ((**مروا أبا بكر فليصل بالناس**)) قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: إنه رجل رقيق، إذا قام مقامك لم يستطع أن يصلي بالناس، قال: ((**مروا أبا بكر فليصل بالناس**)) فعاودته، فقال: ((**مروه فيصلي، إنكن صواحب يوسف**))، فصلَّى بالنَّاس في حياة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ[2].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: خرجنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غزوة ذات الرقاع، فأصيبت امرأة من المشركين، فلما انصرف رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قافلًا، وجاء زوجها وكان غائبًا، فحلف أن لا ينتهي حتى يهريق دما في أصحاب محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فخرج يتبع أثر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فنزل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منزلًا، فقال: ((**من رجل يكلؤنا ليلتنا هذه؟**))، فانتدب رجل من المهاجرين، ورجل من الأنصار، فقالا: نحن يا رسول الله، قال: ((**فكونوا بفم الشعب**))، قال: وكانوا نزلوا إلى شعب من الوادي، فلما خرج الرجلان إلى فم الشعب، قال الأنصاري للمهاجري: أي الليل أحب إليك أن أكفيكه؟ أوله أو آخره؟ قال: اكفني أوله، فاضطجع المهاجري فنام، وقام الأنصاري يصلي، وأتى الرجل، فلما رأى شخص الرجل عرف أنه ربيئة القوم[3]، فرماه بسهم، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، ثم رماه بسهم آخر، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، وثبت قائمًا، ثم عاد له بثالث، فوضعه فيه، فنزعه فوضعه، ثم ركع وسجد، ثم

---

(١) نيل الأوطار (٢/٣٧٥)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة (أزز) (١/٤٥).

(٢) صحيح البخاري [٦٦٤، ٦٧٨، ٦٧٩، ٦٨٢، ٧١٢، ٧١٣، ٧١٦، ٣٣٨٤، ٣٣٨٥، ٧٣٠٣]، مسلم [٤١٨، ٤٢٠]. ((صواحب يوسف)) أي: مثل صواحبه في التظاهر على ما يردن من كثرة الإلحاح فيما يمكن أن يكون.

(٣) ربيئة القوم: -بفتح راء وكسر موحدة وياء ساكنة وهمزة بعدها، وقد تشدد الياء وتترك الهمزة تخفيفًا-، وهو الرقيب والجاسوس والحارس الذي يكون في طليعة القوم.

أهب(١) صاحبه، فقال: اجلس فقد أُوتيت، فوثب، فلما رآهما الرجل عرف أن قد نذروا(٢) به فهرب، فلما رأى المهاجري ما بالأنصاري من الدماء، قال: سبحان الله، ألا أهببتني، قال: كنت في سورة أقرؤها، فلم أحب أن أقطعها حتى أُنْفِذَهَا، فلما تابع الرمي ركعت فَأُرِيتُكَ، وايم الله، لولا أن أضيع ثغرًا أمرني رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحفظه، لقطع نفسي قبل أن أقطعها(٣)، أو أُنْفِذَهَا(٤).

٩ - أن يبادر المكلف إلى الصلاة برغبة منه ومحبة لشرع الله عَزَّوَجَلَّ:

يجب على كل مسلم محبَّة ما شرع الله عَزَّوَجَلَّ من أحكام؛ فمن أبغض شريعة الرسول عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، أو أبغض شعيرة من شعائر الإسلام، أو أبغض أيَّ طاعة مما يتعبد به الناس في دين الإسلام فإنه يبطل عمله؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد:٩]. ولا شكَّ أنَّ الشَّرع فيه تكاليف، وفيه ما يَشُقُّ على النُّفوس، وهذا هو السَّبب في تسمية الأحكام بالتَّكليف؛ لأنَّ الجنة حُفَّت بالمكاره، وقد يكون ذلك في بداية الأمر، فإذا اعتاده وأدرك ما فيه من المصلحة والصلة والمقصد فإنه يتلذَّذ بالطَّاعة. والرَّسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**أرحنا يا بلال بالصَّلاة**))(٥).

---

(١) (أهبَّ) بتشديد الباء، أي: أيقظ.

(٢) (نذروا به) -بفتح نون وكسر ذال معجمة-، أي: شعروا به، وعلموا بمكانه.

(٣) أي: الصلاة.

(٤) أخرجه أحمد [١٤٧٠٤]، وأبو داود [١٩٨]، وابن خزيمة [٣٦]، وابن حبان [١٠٩٦]، والدارقطني [٨٦٩]، والحاكم [٥٥٧]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [٦٦٣].

(٥) قال في (الكشف): "رواه أبو داود عن سالم بن أبي الجعد قال: قال رجل: ليتني صليت فاسترحت، فكأنهم عابوا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((يا بلال أقم الصلاة أرحنا بها)). ولأبي داود عن محمد بن الحنفية أنه قال: انطلقت أنا وأبي إلى صهر لنا في الأنصار نعوده فحضرت الصلاة فقال لبعض أهله: يا جارية: ائتوني بوضوء لعلي أصلي فأستريح، قال: فأنكرنا ذلك عليه، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((قم يا بلال فأرحنا بالصلاة))" كشف الخفاء [٣١٢]. والحديث له أطراف كثيرة.

ويقول: ((**وَجُعِلَ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ**))(١).

ولا بد في التكليف من الاصطبار -ولا سيما في بداية الأمر قبل أن يعتاده- كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢].

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر**))(٢). قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "معناه: أن كل مؤمن مسجون ممنوع في الدنيا من الشهوات المحرمة والمكروهة، مكلف بفعل الطاعات الشاقة، فإذا مات استراح من هذا، وانقلب إلى ما أعد الله عَزَّوَجَلَّ له من النعيم الدائم، والراحة الخالصة من النقصان. وأما الكافر فإنما له من ذلك ما حصل في الدنيا -مع قلته وتكديره بالمنغصات- فإذا مات صار إلى العذاب الدائم، وشقاء الأبد"(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "ولا يزال العبد يعاني الطاعة ويألفها ويحبها ويؤثرها حتى يرسل الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى برحمته عليه الملائكة تؤُزُّهُ إليها أزًا، وتحرضه عليها، وتزعجه عن فراشه ومجلسه إليها. ولا يزال يألف المعاصي ويحبها ويؤثرها، حتى يرسل الله عَزَّوَجَلَّ إليه الشياطين، فتؤزه إليها أزًا.

فالأول قويٌّ جنَّدَ الطَّاعَةَ بالمدد، فكانوا من أكبر أعوانه، وهذا قوي جنَّدَ المعصية بالمدد فكانوا أعوانًا عليه"(٤). وقد بيت في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها): الأسباب التي تعين على محبة الطاعات.

---

(١) أخرجه أحمد [١٢٢٩٣]، والنسائي [٣٩٣٩]، وأبو يعلى [٣٤٨٢]، والطبراني في (الأوسط) [٥٢٠٣]، و(الصغير) [٧٤١]، والحاكم [٢٦٧٦]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٣٤٥٤]، كلهم عن أنس. كما أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٠١٢] عن المغيرة.

(٢) صحيح مسلم [٢٩٥٦].

(٣) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٩٣/١٨).

(٤) الجواب الكافي (ص:٥٦).

المبحث العاشر
ترك الزكاة

أولًا: مكانة الزكاة وعقوبة تاركها:

إن من بين أركان الإسلام العظيمة ركن الزكاة، وهو ثالث أركان الدين كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت**))[1].

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: الزكاة في اللغة لمعنيين:

أحدهما: النماء.

والثاني: الطهارة.

فمن الأول. قولهم: زكاة الزرع. ومن الثاني: قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣].

وسمي هذا الحق زكاة بالاعتبارين. أما بالاعتبار الأول: فبمعنى أن يكون إخراجها سببًا للنماء في المال، كما صح في الحديث: ((**ما نقص مال من صدقة**))[2].

---

(١) صحيح البخاري [٨]، مسلم [١٦].

(٢) أخرجه مسلم بلفظ: ((ما نقصت صدقة من مال)). وسيأتي، والحديث: أخرجه أحمد [١٨٠٣١]، وابن حميد [١٥٩]، والترمذي [٢٣٢٥]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: البزار [١٠٣٢]، وأبو يعلى=

ووجه الدليل منه: أن النقصان محسوس بإخراج القدر الواجب. فلا يكون غير ناقص إلا بزيادة تبلغه إلى ما كان عليه، على المعنيين جميعًا. أعني: المعنوي والحسي في الزيادة. أو بمعنى: أن متعلقها الأموال ذات النماء. وسميت بالنماء؛ لتعلقها به أو بمعنى تضعيف أجورها. كما جاء في الحديث: ((**إن الله يربي الصدقة حتى تكون كالجبل**))(١).

وأما بالمعنى الثاني: فلأنها طهرة للنفس من رذيلة البخل، أو لأنها تطهر من الذنوب. وهذا الحق أثبته الشارع لمصلحة الدافع والآخذ معا. أما في حق الدافع: فتطهيره وتضعيف أجوره. وأما في حق الآخذ: فلسد خلته"(٢).

ويظهر فضل الزكاة من أوجه: منها: اقترانها بالصلاة في كتاب الله تعالى.

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: لما توفي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ واستخلف أبو بكر بعده، وكفر من كفر من العرب، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لأبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كيف تقاتل الناس، وقد قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله**))، فقال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله لأقاتلن من فَرَّقَ بين الصلاة، والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقاتلتهم على منعه، فقال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: فو الله، ما هو إلا أن رأيت الله عَزَّ وَجَلَّ قد شرح صدر أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للقتال، فعرفت أنه الحق(٣).

=[٨٤٩]، والطبراني [٨٥٥]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٣/ ١٠٥): "رواه أحمد وأبو يعلى والبزار، وفيه رجل لم يسم، وله عند البزار طريق عن أبي سلمة عن أبيه، وقال: إن الرواية هذه أصح".

(١) متفق عليه، وسيأتي.

(٢) إحكام الإحكام (١/ ٣٧٤- ٣٧٥).

(٣) صحيح البخاري [١٣٩٩، ١٤٠٠، ٦٩٢٤، ٦٩٢٥، ٧٢٨٤]، مسلم [٢٠]، واللفظ له. قوله: ((وحسابه على الله)) معناه: أي فيما يستسرون به ويخفونه دون ما يخلون به في الظاهر من الأحكام الواجبة. وأما (العقال) فقد اختلفوا في تفسيره، فقال أبو عبيد القاسم بن سلام رَحِمَهُ اللَّهُ: العقال صدقة عام. وقال=

ومنها: أنها ثالث أركان الإسلام الخمسة -كما تقدم-.

وهي من حيث هي فريضة أفضل من سائر الصدقات، كما جاء في الحديث القدسي: ((**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه**))[1].

والمحافظة على أداء فريضة الزكاة بنفس طيبة من أسباب دخول الجنة، ورفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس، على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلًا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه، وأدى الأمانة**))، قيل: يا نبي الله،

=غيره: العقال الحبل الذي يعقل به البعير وهو مأخوذ مع الفريضة؛ لأن على صاحبها التسليم، وإنما يقع قبضها برباطها" معالم السنن (١٢/٢). وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: ذهب كثير من المحققين إلى أن المراد بالعقال: الحبل الذي يعقل به البعير، وهذا القول يحكى عن مالك وابن أبي ذئب وغيرهما، وهو اختيار صاحب التحرير، وجماعة من حذاق المتأخرين. قال صاحب التحرير: قول من قال: المراد صدقة عام تعسف وذهاب من طريقة العرب؛ لأن الكلام خرج مخرج التضييق والتشديد والمبالغة فيقتضي قلة ما علق به العقال وحقارته، وإذا حمل على صدقة العام لم يحصل هذا المعنى. قال النووي: وهذا الذي اختاره هو الصحيح الذي لا ينبغي غيره. قال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: وكذلك أقول أنا. ثم اختلفوا المراد بقوله: ((منعوني عقالا)) فقيل: قدر قيمته في زكاة الذهب والفضة والمعشرات والمعدن والركاز والفطرة والمواشي في بعض أحوالها، وهو حيث يجوز دفع القيمة. وقيل: زكاة عقال إذا كان من عروض التجارة. وقيل: المراد المبالغة ولا يمكن تصويره ويرده ما تقدم. وقيل: إنه العقال الذي يؤخذ مع الفريضة؛ لأن على صاحبها تسليمها برباطها. شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠٨/١-٢٠٩)، نيل الأوطار (١٤٦/٤). وعند البخاري [٧٢٨٤]: قال ابن بكير، وعبد الله عن الليث: عناقًا، وهو أصح. و(العناق): الأنثى من أولاد المعز ما لم يتم لها سنة.

(١) صحيح البخاري [٦٥٠٢].

وما أداء الأمانة؟ قال: ((**الغسل من الجنابة، إن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها**))(١).

وعن عمرو بن مرة الجهني قال: جاء رجل من قضاعة إلى رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وصمت رمضان وقته، وآتيت الزكاة، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من مات على هذا كان من الصديقين والشهداء**))(٢).

وقد شرعت الزكاة لحكم عظيمة، ومصالح جمة تعود على الأفراد والمجتمعات بالخير والفضل العظيم، فهذا الحق أثبته الشارع لمصلحة الدافع والآخذ معا -كما تقدم-. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة:١٠٣]. فالزكاة تطهر النفس من درن الشح والبخل، وهي سبب لحصول النماء والبركة في المال.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩].

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٢٩]، ومحمد بن نصر المروزي في (الوتر) (ص:٢٧٢)، والطبراني كما في (مجمع الزوائد) قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٧/١): "رواه الطبراني في (الكبير) وإسناده جيد". وقال أيضًا المنذري رَحِمَهُ اللَّهُ (١٤٨/١): "إسناده جيد". وأخرجه أيضًا: وأبو نعيم في (الحلية) (٢٣٤/٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٥٥٨]، والبزار كما في (كشف الأستار) [٢٥]، وابن خزيمة [٢٢١٢]، وابن حبان [٣٤٣٨]، والطبراني في (الشاميين) [٢٩٣٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٣٤٥]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٦/١): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح خلا شيخي البزار، وأرجو إسناده أنه إسناد حسن أو صحيح".

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**ما نقصت صدقة من مال**))(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما تَصَدَّقَ أحد بصدقة من طيب، ولا يقبل الله إلا الطَّيِّبَ، إلا أخذها الرحمن بيمينه، وإن كانت تمرة، فَتَرْبُو في كَفِّ الرحمن حتى تكون أعظم من الجبل، كما يُرَبِّي أحدكم فَلُوَّهُ أو فَصِيلَه**))(٢).

فليست الزكاة محض مال يؤخذ من الجيوب، بل غرس للرحمة والرأفة في القلوب.

وإن منع الزكاة بخلًا بها وحرصًا وجشعًا من أكبر الكبائر، وأقبح المنكرات؛ ولذلك جاء الوعيد الشديد في حق تارك الزكاة، وقد أخبرت النصوص أن عذابهم بها على وجوه:

منها: أن يمثل لصاحب المال مالُه شجاعًا أقرع له زبيبتان، فيطوق عنقه، ويأخذ بلهزمتي صاحبه، قائلاً له: أنا مالك، أنا كنزك، كما جاء في (صحيح البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من آتاه الله مالًا، فلم يُؤَدِّ زكاته مُثِّلَ له ماله يوم القيامة شجاعًا أقرع له زبيبتان يُطَوَّقُهُ يوم القيامة، ثم يأخذ بِلِهْزِمَتَيْه** –يعني: بِشِدْقَيْه– **ثم يقول: أنا مالك، أنا كنزك**)).

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٨٨].

(٢) صحيح البخاري [١٤١٠، ٧٤٣٠]، صحيح مسلم، واللفظ له [١٠١٤]. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((فَتَرْبُو في كَفِّ الرحمن)) قيل: إن المراد بذلك تعظيم أجرها، وتضعيف ثوابها. قال: ويصح أن يكون على ظاهره، وأن تعظم ذاتها، ويبارك الله جَلَّ وَعَلَا فيها، ويزيدها من فضله حتى تثقل في الميزان. وهذا الحديث نحو قول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((كما يربي أحدكم فلوه أو فصيله)). قال أهل اللغة: (الفلو): المهر، سمي بذلك؛ لأنه فلي عن أمه، أي: فصل وعزل. و(الفصيل): ولد الناقة إذا فصل من إرضاع أمه، فعيل بمعنى مفعول، كجريح وقتيل بمعنى مجروح ومقتول، وفي (الفلو) لغتان فصيحتان أفصحهما وأشهرهما: فتح الفاء وضم اللام وتشديد الواو، والثانية: كسر الفاء وإسكان اللام وتخفيف الواو. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٩٩).

ثم تلا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [آل عمران: ١٨٠]))(١).

و(الشجاع الأقرع): الحية الذكر المتمعط شعر رأسه؛ لكثر سمه، و(الزبيبتان): نقطتان سوداوان فوق عيني الحية.

ومنها: أن يؤتى بالمال نفسه الذي منع زكاته، فإن كان من الذهب والفضة جعل صفائح من نار، ثم عذب به صاحبه، وإن كان المال حيوانًا -إبلاً أو بقرًا أو غنمًا- أرسل على صاحبه فعذب به، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [التوبة: ٣٤-٣٥](٢).

وفي (صحيح مسلم): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((ما من صاحب ذهب ولا فضة، لا يُؤَدِّي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة، صُفِّحَتْ له صفائح من نار، فأحمي عليها في نار جهنم، فيكوى بها جنبه وجبينه وظهره، كلما بردت أعيدت له، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله، إما إلى الجنة، وإما إلى النار))**.

قيل: يا رسول الله، فالإبل؟

(١) صحيح البخاري [١٤٠٣، ٤٥٦٥].

(٢) القيامة الكبرى (ص: ١٤٢- ١٤٢).

قال: ((**ولا صاحب إبل لا يؤدي منها حقها، ومن حقها حَلَبُهَا[1] يوم وِرْدِهَا، إلا إذا كان يوم القيامة، بُطِحَ[2] لها بِقَاعٍ[3] قَرْقَرٍ[4]، أَوْفَرَ ما كانت[5]، لا يَفْقِدُ منها فصيلًا واحدًا، تَطَؤُهُ بأخْفَافِهَا وتَعَضُّهُ بأفواهها، كلما مَرَّ عليه أولاها رُدَّ عليه أخراها،**

(١) هو بفتح اللام على اللغة المشهورة. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٤).

(٢) بطح قال جماعة: معناه: ألقي على وجهه. وقال القاضي: ليس من شرط البطح كونه على الوجه، وإنما هو في اللغة بمعنى: البسط والمد، فقد يكون على وجهه، وقد يكون على ظهره، ومنه سميت: بطحاء مكة؛ لانبساطها. إكمال المعلم، للقاضي عياض (٣/٢٥٩-٢٦٠)، شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٤-٦٥).

(٣) القاع: المستوي من الأرض. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٤)، الصحاح، للجوهري، مادة: (قوع) (٣/١٢٧٤).

(٤) والقرقر: المستوي أيضًا من الأرض، الواسع، وهو بفتح القافين. إكمال المعلم (٣/٢٥٩)، شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٤).

(٥) قال في (طرح التثريب): قوله: "((أوفر ما كانت)) أي: عند مانع زكاتها؛ لأنها قد تكون عنده على حالات: مرة هزيلة، ومرة سمينة، ومرة صغيرة، وأخرى كبيرة، فتأتي يوم القيامة على أوفر أحوالها عنده؛ زيادة في عقوبته بقوتها، وكمال خلقها، فتكون أثقل في وطئها. وأيضا فيأتي جميعها لا يفقد منها شيئًا، حتى (الفصيل) وهو بفتح الفاء وكسر الصاد: ولد الناقة إذا فصل عن أمه، وقد تجب فيه الزكاة إما لبلوغه حولًا، وإما لبناء حوله على حول أمه، وهذا الذي ذكرته هو الظاهر، وذكر معه والدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في شرح الترمذي احتمالين آخرين: أحدهما: أنها تأتي أوفر ما كانت في الدنيا مطلقًا فقد تكون عند صاحبها الذي منع زكاتها هزيلة في جميع مدتها عنده، وتسمن بعد ذلك عند غيره، أو تكون قبل أن يملكها سمينة، فتحشر على أتم حالاتها؛ تغليظًا عليه. الاحتمال الثاني: أنها تجيء على أعظم حالات الإبل مطلقًا -هي وغيرها-، وكذلك البقر والغنم. ويدل له قوله بعد ذلك: ((ليس فيها عقصاء ولا جلحاء ولا عضباء)). وفي حديث جابر عند مسلم أيضًا: ((ليس فيها جماء ولا منكسر قرنها)) وربما كان في بقره وغنمه في الدنيا ما هو بهذه الصفة من النقص فأخبر عَلَيۡهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أنها تأتي تامة الخلقة؛ تغليظًا عليه". طرح التثريب في شرح التقريب (٤/١٢-١٣). وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في الرواية الأخرى: ((أعظم ما كانت)) هذا للزيادة في عقوبته بكثرتها وقوتها وكمال خلقها، فتكون أثقل في وطئها، كما أن ذوات القرون تكون بقرونها؛ ليكون أنكى وأصوب لطعنها ونطحها". شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٥).

في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار)).

قيل: يا رسول الله، فالبقر والغنم؟ قال: ((**ولا صاحب بقر، ولا غنم، لا يؤدي منها حقها، إلا إذا كان يوم القيامة بطح لها بقاع قرقر، لا يفقد منها شيئًا، ليس فيها عَقْصَاء، ولا جَلْحَاء**[1]**، ولا عَضْبَاء، تنطحه بقرونها، وتطؤه بأظلافها**[2]**، كلما مر عليه أولاها رد عليه أخراها، في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة، حتى يقضى بين العباد، فيرى سبيله إما إلى الجنة، وإما إلى النار)).**

قيل: يا رسول الله، فالخيل؟ قال: ((**الخيل ثلاثة: هي لرجل وِزْرٌ، وهي لرجل سِتْرٌ، وهي لرجل أجر، فأما التي هي له وزر فرجل ربطها رِيَاءً وفَخْرًا ونِوَاء**[3] **على أهل الإسلام، فهي له وزر. وأما التي هي له ستر، فرجل ربطها في سبيل الله، ثم لم يَنْسَ حق الله في ظهورها ولا رقابها**[4]**، فهي له ستر. وأما التي هي له أجر، فرجل**

---

(١) قال أهل اللغة: (العقصاء): ملتوية القرنين، و(الجلحاء): التي لا قرن لها والعضباء التي انكسر قرنها الداخل. شرح النووي على صحيح مسلم (٦٥/٧)، وانظر: طرح التثريب (١٣/٤).

(٢) (الظلف) للبقر والغنم والظباء، وهو المنشق من القوائم، و(الخف) للبعير، و(القدم) للآدمي، و(الحافر) للفرس والبغل والحمار. شرح النووي على صحيح مسلم (٦٥/٧).

(٣) أي: مناوأة ومعاداة.

(٤) قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "استدل به أبو حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ على وجوب الزكاة في الخيل. ومذهبه: أنه إن كانت الخيل كلها ذكورًا فلا زكاة فيها، وإن كانت إناثًا أو ذكورًا وإناثًا وجبت الزكاة. وهو بالخيار إن شاء أخرج عن كل فرس دينارًا، وإن شاء قومها وأخرج ربع عشر القيمة. وقال مالك والشافعي وجماهير العلماء: لا زكاة في الخيل بحال؛ لحديث: ((ليس على المسلم في فرسه صدقة)) صحيح البخاري [١٤٦٣، ١٤٦٤]، مسلم [٩٨٢]. وتأولوا هذا الحديث على أن المراد أنه يجاهد بها. وقد يجب الجهاد بها إذا تعين. وقيل: يحتمل أن المراد بالحق في رقابها الإحسان إليها والقيام بعلفها وسائر مؤنها. والمراد بظهورها: إطراق فحلها إذا طلب منه إعارته، وهذا على سبيل الندب وقيل: المراد حق الله مما يكسبه من مال العدو على ظهورها، وهو خمس=

ربطها في سبيل الله لأهل الإسلام، في مَرْجٍ وروضة[1]، فما أكلت من ذلك المرج، أو الروضة من شيء، إلا كتب له، عدد ما أكلت حسنات، وكتب له، عدد أرواثها وأبوالها، حسنات، ولا تقطع طِوَلَهَا[2] فَاسْتَنَّتْ شَرَفًا، أو شَرَفَيْنِ[3]، إلا كتب الله له عدد آثارها[4] وأرواثها[5] حسنات، ولا مر بها صاحبها على نهر[6]، فشربت منه ولا يريد أن يسقيها[7]، إلا كتب الله له، عدد ما شربت، حسنات)).

=الغنيمة. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٦٦/٧)، وانظر: طرح التثريب (١٤/٤). وانظر الحكم مفصلًا في (الموسوعة الفقهية الكويتية) (٢٦١/٢٣- ٢٦٢)، تفسير القرطبي (٧٨/١٠).

(١) قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (المرج): الأرض الواسعة ذات نبات كثير، تَمْرُجُ فيه الدواب، أي: تُخَلَّى تَسْرَح مختلطة اهـ. و(الروضة) أخص من المرعى. النهاية في غريب الحديث والأثر (٣١٥/٤)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٢٦٥/٤).

(٢) هو بكسر الطاء وفتح الواو. ويقال: طيلها –بالياء– كذا جاء في (الموطأ). والطول والطيل: الحبل الذي تربط فيه. شرح النووي على صحيح مسلم (٦٦/٧)، وفي (المرقاة) (١٢٦٦/٤): "حبلها الطويل الذي شد أحد طرفيه في يد الفرس، والآخر في وتد أو غيره؛ لتدور فيه، وترعى من جوانبها، ولا تذهب لوجهها".

(٣) (فاسْتَنَّتْ) –بتشديد النون– أي: عدت ومرجت ونشطت لِمَرَاحِهَا أو نشاطها. (ولا راكب عليها شرفا) أي: شوطًا أو ميدانًا أو موضعا عاليًا من الأرض، أو ذهابًا إلى إخراج المرج أو مع العود إلى مَحَلِّهَا. (أو شرفين) وإنما سمي شرفًا؛ لأن الدابة تعدو حتى تبلغ شرفًا من الأرض، أي: مرتفعًا فتقف عند ذلك وقفة، ثم تعدو ما بدا لها. مرقاة المفاتيح (٤/ ١٢٦٦).

(٤) أي: بعدد خطاها.

(٥) أي: في تلك الحالة.

(٦) بفتح الهاء وسكونها.

(٧) بفتح الياء وضمها.

قيل: يا رسول الله، فالْحُمُر؟ قال: **((ما أنزل علي في الْحُمُر شيء، إلا هذه الآية الْفَاذَّةُ**[1] **الجامعة:** ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ۝٧ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ ۝٨﴾ [الزلزلة:٧- ٨]))[2].

هذا بالنسبة لعقوبته الأخروية. أما بالنسبة للعقوبة الدنيوية فقد جاء في الحديث: **((ما منع قوم الزكاة إلا ابتلاهم الله بالسنين))**[3]، أي: بالجدب والقحط.

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال: أقبل علينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: **((يا معشر المهاجرين، خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون، والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين، وشدة المئونة، وجور السلطان عليهم، ولم يمنعوا زكاة أموالهم، إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله، وعهد رسوله، إلا سلط الله عليهم عدوا من غيرهم، فأخذوا بعض ما في أيديهم، وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله، ويتخيروا مما أنزل الله، إلا جعل الله بأسهم بينهم))**[4].

---

(١) القليلة النظير والجامعة، أي: العامة المتناولة لكل خير ومعروف. ومعنى الحديث: لم ينزل علي فيها نص بعينها، لكن نزلت هذه الآية العامة. شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٦٧).

(٢) صحيح مسلم [٩٨٧].

(٣) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٤٥٧٧]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٣/٦٦): "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: تمام في (الفوائد) [٩٤٠].

(٤) أخرجه ابن ماجه واللفظ له [٤٠١٩]، والبزار [٦١٧٥]، والحاكم [٨٦٢٣]، وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضًا: أبو نعيم (٨/٣٣٣)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٠٤٢]، وابن عساكر (٣٥/٢٦٠). قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٥/٣١٧): "رواه البزار ورجاله ثقات".

وفي رواية: عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما نقض قوم العهد قط، إلا كان القتل بينهم، ولا ظهرت الفاحشة في قوم قط، إلا سلط الله عليهم الموت، ولا منع قوم الزكاة، إلا حبس الله عنهم القطر**))(1).

ومن منع الزكاة وهو في قبضة الإمام تؤخذ منه قهرًا؛ لقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فمن قال: لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله، ونفسه، إلا بحقه وحسابه على الله**))(2). ومن حق المال: الزكاة. قال أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمحضر الصحابة: الزكاة حق المال(3). وقال رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: والله لو منعوني عقالًا كانوا يؤدونه إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لقاتلتهم عليه(4). وأقره الصَّحابة على ذلك، والحكم مبسوط في مظانه.

ثانيًا: الوقاية من آفات ترك الزكاة والعلاج:

١ - أن يفقه المكلف أحكام الزكاة، وأن يسأل أهل العلم عما جهله منها.

٢ - اليقين الجازم بأن هذه الدنيا وما فيها عرض زائل، وما فيها من النِعم والمتاع إنما هو ابتلاء واختبار:

---

(١) أخرجه البزار [٤٤٦٣]، والحاكم [٢٥٧٧]، واللفظ له، وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٦٣٩٧]، وفي (شعب الإيمان) [٣٠٤٠]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٦٩/٧): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح غير رجاء بن محمد وهو ثقة".

(٢) تقدم.

(٣) تقدم.

(٤) تقدم.

ينبغي على طالب العلم والهداية أن يحذر الاغترار بالدنيا بما فيها، ويبتعد عن الأسباب المؤدية للانهماك فيها، أو الزيادة على الحاجة؛ فإنها عرض زائل، وحال حائل، وما فيها من النعيم أو من السرور محفوف بالأحزان والتنكيد، فما من فرح في الدنيا إلا ويتلوه ترح وحزن.

فهذا نعيم الدنيا الذي يُرى ويُحَسُّ، ولكنَّه لا يدوم، ؛ فهو في وشك الزوال، ومظنة الترحال، وما عند الله عَزَّوَجَلَّ أعظمُ وأبقى. ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا﴾ [النساء:٧٧].

قال الشاعر:

أشـــد الغم عندي في سرور   تيقن عنه صاحبه انتقالا[١]

يعني: أن السرور الذي تيقن صاحبه الانتقال عنه هو أشدُّ الغمِّ؛ لأنه يراعي وقت زواله، ولا يطيب له ذلك السرور، وهذا من أبلغ الكلام وأوعظه.

وإنما يُعْنى العاقل بسرور لا ينقطع، فيعمل في الدنيا صالحًا؛ ليحيا حياة طيبة، ثم يوفى الأجر والثواب في الآخرة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقد ذكر الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه الكريم جملة من الشهوات والملذات التي يستمتع بها الناس في حياتهم الدنيا، وتتطلبها الغرائز الإنسانية على سبيل الامتنان والتذكير بها، إلَّا أنه بين أن هناك ما هو أولى منها، وهو ما عند الله تعالى في الآخرة؛ حثًّا للإنسان على عدم الاسترسال والإغراق في هذه الشهوات التي تحول بينه وبين ما هو أولى، كما أن الاسترسال في الشهوات له مضار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية، فلا ينبغي لهم أن يجعلوا كل همهم في هذا المتاع القريب العاجل، بحيث يشغلهم عن الاستعداد لما هو خير منه في الآجل. قال عزَّ من قائل: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ

(١) ديوان المتنبي (ص:١٤٠).

وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾ [آل عمران:١٤-١٥].

وقد جعل الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ المالَ قوامًا للأمم، ومعززًا للدين، ووسيلة لإقامة ركنين من أركانه(١)، ومن أعظم أسباب التقرب إليه. فعلى المؤمن المتقي ألا يفتنَ بهذه الشهوات، ويجعلَها أكبرَ همه، والشاغلَ له عن آخرته، فإذا اتقى ذلك، واستمتع بها بالقصد والاعتدال، والوقوف عند حدود الله عَزَّوَجَلَّ، فهو السعيد في الدارين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ ﴿٢٠١﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٢٠٢﴾﴾ [البقرة:٢٠١-٢٠٢](٢)، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ [القصص:٧٧].

وينبغي على المكلف أن يعلم أن كل شيء في هذه الحياة الدنيا من النِعم والمتاع إنما هو ابتلاء واختبار، فالمال ظل زائل، وعارية مستردة، والدنيا مهما طالت فهي قصيرة، ومهما عظمت فهي حقيرة.

ومن ثم فلا ينبغي أن ينسيه هذا المال أو الجاه ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وافتقاره إليه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥]، وعليه أن يعلم بأن هذا اليقين هو أساس الإيمان الصادق، وأنه منه، (أي: اليقين من الإيمان) بمنزلة الروح من الجسد(٣).

---

(١) يعني: الزكاة والحج.

(٢) بتصرف عن (تفسير المنار) (٣/٢٠٢).

(٣) انظر: نضرة النعيم (١/٤٢).

ولأن كل شيء -من النعم والمتاع- ابتلاء واختبار من الله عَزَّوَجَلَّ، فقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ المال من أعظم أنواع الابتلاء؛ وذلك لما يحقق من المصالح.

وفي الحديث: عن ابن كعب بن مالك الأنصاري، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**))(١).

وعن حكيم بن حزام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني ثم قال: ((**يا حكيم، إن هذا المال خضرة حلوة، فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خير من اليد السفلى**))(٢).

قال العلماء: "إشراف النفس: تطلعها إليه، وتعرضها له، وطمعها فيه. وأما طيب النفس فذكر القاضي فيه احتمالين؛ أظهرهما: أنه عائد على الآخذ، ومعناه: من أخذه بغير سؤال ولا إشراف وتطلع بورك له فيه. والثاني: أنه عائد إلى الدافع، ومعناه: من أخذه ممن يدفع منشرحًا بدفعه إليه طيب النفس لا بسؤال اضطره إليه أو نحوه مما لا تطيب معه نفس الدافع.

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٣٧٦]، وأحمد [١٥٧٨٤]، والدارمي [٢٧٧٢]، والترمذي [٢٣٧٦]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٢٢٨]، والطبراني [١٨٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٨٣].
قوله: (بأفسد لها) أي: بأكثر فسادًا للغنم. (والشرف) أي: الجاه، معطوف على المال. واللام في قوله: (لدينه) لام البيان، كهي في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، كأنه قيل لمن؟ قال: لمن أراد. وكذا هنا، كأنه قيل: بأفسد لأي شيء؟ فقيل: لدينه. ولا يصح جعلها متعلقة بأفسد؛ لأنه لا يجوز تعلق حرفي جرٍّ بلفظ واحد، ومعنى واحد بعامل واحد إلا على سبل البدل". انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان البكري الشافعي (٤/٤١٩- ٤٢٠). وفيه مبالغة في الذم لمن جعل المال والجاه غاية.

(٢) صحيح البخاري [١٤٧٢،٢٧٥٠، ٣١٤٣]، مسلم [١٠٣٥].

وأما قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كالذي يأكل ولا يشبع**)) فقيل: هو الذي به داء لا يشبع بسببه. وقيل: يحتمل أن المراد التشبيه بالبهيمة الراعية. وفي هذا الحديث وما قبله وما بعده: الحث على التعفف والقناعة والرضا بما تيسر في عفاف -وإن كان قليلًا- والإجمال في الكسب، وأنه لا يغتر الإنسان بكثرة ما يحصل له بإشراف ونحوه؛ فإنه لا يبارك له فيه، وهو قريب من قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]"(١).

فالمال وسيلة وليس غاية؛ لأنه متى أصبح غاية قضى على صاحبه؛ لأنه سيعيش لاهثًا خلفه، طالبًا للزيادة، خائفًا من زواله، فيورث صاحبه من الهموم والغموم والأحزان، وتنفتح أمامه أبواب الفتن والفساد بسبب المال. فمهما كان غنيًا فإن فقره بين عينيه، والآفات محدقة بماله، وبجسده من المرض إلى الموت. قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له**))(٢).

فينبغي على المسلم أن يتذكر دائمًا أن التوسعة في الرزق ليست إلا اختبارًا له من مولاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وليست دليلًا على الرضا، فقد نفى القرآن الكريم أن تكون كثرة المال أو الولد دليلًا على رضى المولى عَزَّ وَجَلَّ، وإنما العمل الصالح هو الوسيلة للحصول على هذا الرضوان والقرب من الله عَزَّ وَجَلَّ. يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ

---

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٢٦/٧)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٢٩٨/٣).

(٢) الحديث مروي عن أنس وعن زيد بن ثابت. حديث أنس: أخرجه هناد (٣٥٥/٢)، والترمذي [٢٤٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٣٠٧/٦). حديث زيد بن ثابت: أخرجه الطيالسي [٦١٧]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجه [٤١٠٥]. وابن حبان [٦٨٠]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٩١]، وتمام [١٤٦١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٥]. قال العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٧٣٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد".

فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبأ:٣٧]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾ [الأنفال:٢٨]، أي: بلاء واختبار، يحملكم على كسب الحرام، ومنع حق الله تعالى، فلا تطيعوهم في معصية الله عَزَّوَجَلَّ. وقد قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [المنافقون:٩].

٣ - أن يطهر المسلم نفسه عن أدران الشح، وأن يتعوَّد على الإحسان في جميع الأحوال:

إن الموفق من يوق شُحَّ نفسه، فيخالفها فيما يغلب عليها من حبِّ المال، وبغض الإنفاق، وهو الفائز بالسعادتين.

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن الإنسان أنه لحب الخير لشديد، فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ﴾ [العاديات:٨]. والخير هنا: المال اتفاقًا[1].

ومعناه: وإنه لأجل حب المال لبخيل ممسك، أو إنه لحب المال لقوي، وهو لحب عبادة الله عَزَّوَجَلَّ ضعيف، أي: إنه لأجل حب المال بخيل؛ فلذلك يحتجب به غارزًا رأسه في تحصيله وحفظه وجمعه ومنعه، مشغولًا به عن الحق، معرضًا به عن جنابه.

وفي الحديث: ((**إن المكثرين هم المقلون يوم القيامة، إلَّا من أعطاه الله خيرًا، فنفح فيه يمينه وشماله وبين يديه ووراءه، وعمل فيه خيرًا**))[2].

ومن أدل الآيات على أن حب المال غريزة في النفس مقتضية للحرص على المنع -الذي هو البخل- قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩].

---

(١) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥/ ٣٩٨).

(٢) صحيح البخاري [٦٤٤٣]، مسلم [٩٤]. والمراد بـ: ((يمينه وشماله)): ما سبق أنه جميع وجوه المكارم والخير. و((نفح)) -بالحاء المهملة-، أي: ضرب يديه فيه بالعطاء والنفح: الرمي والضرب.

ومن الآيات التي تحذر من حب المال مع الحرص والطمع قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ۝١٩ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ۝٢٠﴾ [الفجر:١٩-٢٠]، أي: حبًّا كثيرًا مع حرص وطمع. ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا﴾ إلى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ الآيات [الفجر:٢١-٢٦]، وهي ردع عن أكل التراث، وعن حب المال؛ فماذا يفيد أكل حقوق الغير عند دخول القبر؟ وماذا يجدي حب المال عند المآل؟ وماذا يفيد النعيم الزائل عند العذاب الدائم؟

فينبغي أن يطهر المسلم نفسه عن أدران الشح وأوضار التخلف، وعن حب المال الذي كان التخلف بسببه، وعن سائر الأخلاق الذميمة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة:١٠٣].

والحق أن شهوة حب المال عمت غالب الخلق حتى فُتِنوا بالدنيا وزهرتها، وصارت غاية قصدهم، فلها يطلبون، وبها يرضون، ومن أجلها يغضبون، وبسببها يوالون، وعليها يعادون. فكم قطعت أرحام في سبيلها، وسفكت دماء بسببها، ووقعت فواحش من أجلها، ونزلت القطيعة وحلَّت البغضاء، وفُرِّق بين الأخ وأخيه، وتقاتل الأب مع ابنه، وتعادى الأصحاب والخلان.

وفي الحديث: عن عبد الله بن عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أنه قال: ((**إذا فتحت عليكم فارس والروم، أي قوم أنتم؟**)) قال عبد الرحمن بن عوف: نقول كما أمرنا الله عَزَّوَجَلَّ، قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**أو غير ذلك، تتنافسون، ثم تتحاسدون، ثم تتدابرون، ثم تتباغضون، أو نحو ذلك، ثم تنطلقون في مساكين المهاجرين، فتجعلون بعضهم على رقاب بعض**))[١].

(١) صحيح مسلم [٢٩٦٢].

وقد بين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن الإيمان ليس بالادعاء، وإنما هو مجموعة من الصفات ينبغي أن يتصف الإنسان حتى يكون مؤمنًا، ومنها: بذل المال، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ۝٣ أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ [الأنفال:٢-٤]، ﴿الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ﴾ [آل عمران:١٣٤]، وفي ذلك إشارة إلى أن النفوس يجب أن تكون كريمة مهما ألحَّ عليها الفقر، وأن تتعوَّدَ الإحسان بقدر الطاقة، كما قال جَلَّ وَعَلَا في آية أخرى: ﴿لِيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِهِ وَمَنْ قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُ فَلْيُنْفِقْ مِمَّا آتَاهُ اللَّهُ﴾ [الطلاق:٧].

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**سبق درهم مائة ألف درهم**))، قالوا: وكيف؟ قال: ((**كان لرجل درهمان تصدق بأحدهما، وانطلق رجل إلى عرض ماله، فأخذ منه مائة ألف درهم فتصدق بها**))[(١)]. فالنفس التي تجود بنصف ما تملك، ولا يتبقى لها إلا درهم، خير من أخرى تنفق جزءًا ضئيلًا مما تملك، ويتبقى لها المال الكثير.

والجهاد يكون بالمال والنفس يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [التوبة:٤١].

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) (٢/ ٢٣)، وابن زنجويه في (الأموال) [١٣٣٦]، والبزار [٨٨٩٧]، والنسائي [٢٥٢٧]، وابن خزيمة [٢٤٤٣]، وابن حبان [٣٣٤٧]، والحاكم [١٥١٩]، وقال: "صحيح على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: البيهقي [٧٧٧٩].

ولذلك فإنك ترى أن الشارع جعل من أهم علامات التقوى: بذل المال، وإعانة المحتاج، محذرًا من الشح، مبينًا عاقبته، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح؛ فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**))[1].

٤ - أن يحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ويشكره على ما أنعم به عليه، وأن ينظر إلى كل عطاء على أنه اختبار من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ﴾ [النمل:٤٠].

٥ - أداء حق الله عَزَّوَجَلَّ في هذا المال: ويتمثل ذلك في إخراج الزكاة، والصدقة والبر، والإحسان إلى الفقراء والمساكين.

٦ - أن ينفق المال على حبه:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ﴾ [البقرة:١٧٧]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، ويقول: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان:٨]، أي: على حبِّ الله عَزَّوَجَلَّ، أو حب المال، أو حب الإيتاء. يريد: أن يعطيه وهو طيب النفس بإعطائه[2].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: قوله: ﴿وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ﴾، أي: أخرجه، وهو محب له، راغب فيه. نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف، كما ثبت في (الصحيحين) من حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٨].

(٢) انظر: الكشاف (٢١٩/١)، تفسير النسفي (١٥٣/١).

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، أي الصدقة أعظم أجرًا؟ قال: ((**أن تَصَدَّقَ وأنت صحيحٌ شَحِيحٌ، تَخْشَى الفقر، وتَأْمُلُ الغِنَى**))(١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٨-٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ [آل عمران:٩٢]، وقوله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩] نمط آخر أرفع من هذا، وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه، وهؤلاء أعطوا وأطعموا ما هم محبون له"(٢).

والإيثار من أسمى معاني الإحسان، وهو يحقق مفهوم الجسد الواحد من التآلف والتعاون والتعاضد، يطهر النفس من آفات الشح.

ومن الآيات الدالة على أسمى معاني الإيثار قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر:٩]. فبين الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن هذا الإيثار ليس عن غنى عن المال، ولكنه عن حاجة وخصاصة، فالإيثار: هو تقديم حاجة الغير على حاجة النفس، سخاءً وتفضلًا. وهذا لا يكون إلَّا من نفوس مهيأة للتضحية..

و(الإيثار): ضد الأثرة، وهي: حب النفس حبًّا يعميها عن كل شيء، فلا يرى المرء إلَّا ذاته، ولا يعمل إلَّا من خلال هذه الذات، وما يحقق لها من نفع ذاتي لا يشاركها فيه أحد.

(١) صحيح البخاري [١٤١٩]، مسلم [١٠٣٢].

(٢) تفسير ابن كثير (٤٨٦/١)، بتصرف.

و(الخصاصة): الحاجة، والفقر الذي يعجز الإنسان عن إدراك الضروري من مطالب الحياة.

٧ - أن يطالع سير الصحابة والسلف الصالح رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمۡ في بذل المحبوبات في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ والإيثار:

وآثار السلف في بذل المحبوبات في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ كثيرة، فمن ذلك: ما جاء في (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أن رجلًا أتى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فبعث إلى نسائه فقلن: ما معنا إلَّا الماء، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**من يضم أو يضيف هذا؟**))، فقال رجل من الأنصار: أنا، فانطلق به إلى امرأته، فقال: أكرمي ضيف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقالت: ما عندنا إلَّا قوت صبياني، فقال: هيئي طعامك، وأصبحي سراجك، ونومي صبيانك إذا أرادوا عشاء، فهيأت طعامها، وأصبحت سراجها، ونومت صبيانها، ثم قامت كأنها تصلح سراجها فأطفأته، فجعلا يريانه أنهما يأكلان، فباتا طاويين، فلما أصبح غدا إلى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فقال: ((**ضحك الله الليلة، أو عجب، من فعالكما**[1])) فأنزل الله: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر:٩][2].

وفي الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ قال: بينما نحن في سفر مع النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ إذ جاء رجل على راحلة له، قال: فجعل يصرف بصره يمينًا وشمالًا، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**من كان معه فضل ظهر، فليعد به على من لا ظهر له، ومن**

---

(١) في (صحيح مسلم) [٢٠٥٤]: ((صنيعكما)).

(٢) صحيح البخاري [٣٧٩٨، ٤٨٨٩]، مسلم [٢٠٥٤]. قوله: (رجل) هو أبو طلحة زيد بن سهل الأنصاري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ. (أصبحي): أوقدي. (يريانه)، أي: يتظاهران بذلك. قوله: (طاويين)، حال تثنية طاو، وهو الجائع الذي يطوي ليله بالجوع. (يؤثرون): يختارون ويفضلون. (خصاصة): حاجة. (يوق شح نفسه): يخالف هواها ويغلبها على ما أمرته بتوفيق الله عَزَّوَجَلَّ وعونه من (الوقاية)، وهي الحفظ من الشح البخل والحرص.

كان له فضل من زاد، فليعد به على من لا زاد له))، قال: فذكر من أصناف المال ما ذكر حتى رأينا أنه لا حق لأحد منا في فضل[1].

٨ - الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في سائر الأعمال:

إن من الآيات الدالة على الإخلاص لله تعالى في إنفاق المال ابتغاء مرضاته وحده، وعدم الرياء فيه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١]، وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا ۝٨ إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩﴾ [الإنسان:٨-٩]. والنصوص في ذلك كثيرة.

فلا يوجد دينٌ يحثُّ أبناءَه على التَّحَابُب والمودة والإيثار كدين الإسلام. والنماذج الدَّالة على الإيثار من النصوص ومن حياة السلف كثيرة، ولو طبق الناس ما جاء في الآيات والأحاديث من معاني الإيثار لم يبق محتاجٌ.

٩ – البعد عن الصفات المذمومة المهلكة من نحو التكبر والعظمة والظلم والاستعلاء والغرور والحسد، والبغي، والغل، والخداع، والمكر إلى غير ذلك.

ورياضة النفس بحملها على الفضائل، والنأي بها عن الرذائل، ورياضة الجسد، وذلك بالإكثار من الطاعات والنوافل، والتخفف من التنعم بملذات الدنيا، وتزكية النفس واتهامها ومحاسبتها والتنقيب عن عيوبها ونقائصها، فإن محاسبة النفس هو طريق استقامتها وكمالها وفلاحها وسعادتها.

---

(١) صحيح مسلم [١٧٢٨].

١٠ – استحضار ما جاء من النصوص في فضل الإنفاق، وما جاء في ذمِّ الشح والبخل.

١١ – مكافحة البطالة، وشغل الوقت بما ينفع من العلم والعمل.

١٢ – صحبة أهل الخير والعدل والفضل والزهد.

١٣ – تجنب الشبع، وحمل النفس على القصد أو التقلل من المأكل والمشرب والملبس والمركب، والتوسط في ذلك من غير إسراف ولا تقتير.

١٤ – التفكر في آثار الإسراف وعواقبه المترتبة على البدن والقلب والفكر والسلوك.

١٥ – دوام النَّظر في سُنَّة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسيرته العطرة، فهو خير قدوة في الزهد، وفي القصد والاعتدال، وفي التطلع إلى الآخرة مع عدم إغفال الحقوق والواجبات، وفي العناية بالنهوض والريادة لهذه الأمة في سائر المجالات.

١٦ – تذكر الموت والآخرة.

المبحث الحادي عشر
الإفطار في رمضان من غير عذر

أولًا: تعريف الصوم:

الصِّيَامُ والصَّوْمُ: مصدر صام. صام الرجل صَوْمًا وصِيَامًا. قيل: هو مطلق الإمساك في اللُّغَة، ثم أُسْتُعْمِلَ في الشَّرْعِ في إمساكٍ مخصوص. قال أبو عبيدة: كُلُّ ممسكٍ عن طعام أو كلام أو سير فهو صائم. يقال: صامت الخيل: إذا أمسكت عن السير. وصامت الريح: إذا أمسكت عن الهبوب. ورجل صائمٌ وصَوَّام مبالغة.

والعرب تسمي كل ممسك صائمًا، ومنه: الصوم في الكلام. وفي التنزيل: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم:٢٦][(١)].

وهو في الشرع: عبارة عن الإمساك عن أشياء مخصوصة، في زمن مخصوص، من شخص مخصوص، بنية مخصوصة[(٢)].

---

(١) انظر: العين، مادة: (صوم) (١٧١/٧)، الصحاح، للجوهري (١٩٧٠/٥- ١٩٧١)، تهذيب اللغة (١٨٢/١٢)، المصباح المنير (٣٥٢/١)، المخصص (٥٩/٤)، المحيط (٢٣٧/٢)، المطلع على ألفاظ المقنع (ص:١٨٢)، وانظر: روح المعاني (٤٥٣/١)، البحر المحيط في التفسير (١٧٢/٢)، غرائب القرآن (٤٩٤/١).

(٢) انظر: روح المعاني (١/ ٤٥٣)، المطلع على ألفاظ المقنع (ص:١٨٢).

وقيل: الإمساك عن أشياء مخصوصة، وهي: الأكل، والشرب، والجماع، بشرائط مخصوصة[(١)].

وقيل: "هو ترك الأكل والشُّرب والجماع من الصُّبح إلى الغروب بنيَّةٍ من أهله"[(٢)].

وفي (المقدمات): "إمساك عن أشياء مخصوصة، في أزمان معلومة على وجوه مخصوصة، فهو إمساك عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، مع اقتران النيات به على اقتران وجوهها، من فرض واجب، أو تطوع غير لازم، أو كفارة يمين، أو غيره، فمتى انخرم وجه من هذه الوجوه لم يكن صائمًا شرعًا، وإن صحَّ أن يسمَّى: صائمًا في اللغة -على ما قدمناه-"[(٣)].

وقال النيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصيام في الشرع: عبارة عن الإمساك عن أشياء مخصوصة تسمى: المفطرات، كالأكل والشرب والوقاع، في زمان مخصوص، هو من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس. ولا بد في صحته من النية، وأن يقع في غير يومي العيد بالاتفاق، وفي غير أيام التشريق عند الأكثرين. ويوافقه الجديد من قول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (ومن غير يوم الشك بلا ورد ونذر وقضاء وكفارة). ولا بد للصائم من الإسلام، والنقاء عن الحيض والنفاس، ومن العقل كل اليوم، ومن انتفاء الإغماء في جزء من اليوم"[(٤)].

---

(١) بدائع الصنائع (٢/٧٥).

(٢) انظر: كنز الدقائق (ص:٢١٩)، وانظر: تبيين الحقائق (١/٣١٢)، البحر الرائق (٢/٢٧٨)، رد المحتار على الدر المختار (٢/٣٧١)، درر الحكام (١/١٩٦).

(٣) المقدمات الممهدات، لأبي الوليد محمد بن رشد القرطبي (١/٢٣٧- ٢٣٨).

(٤) غرائب القرآن (١/٤٩٤).

ثانيًا: صيام رمضان ركن من أركان الإسلام:

إنَّ من بين أركان الإسلام العظيمة: ركن الصيام، وهو رابع أركان الدين، كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت))**(١).

وقد ورد في صيام رمضان آيات كريمة، وأحاديث عظيمة تدلُّ على تمام الإكرام من الله عَزَّ وَجَلَّ، فمن الأحاديث: ما جاء في (الصحيحين): عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: **((كل عمل ابن آدم له إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به، والصيام جُنَّةٌ، فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يَرْفُثْ**(٢) **ولا يَصْخَبْ**(٣)**، فإن سَابَّهُ أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم. والذي نفس محمد بيده، لَخُلُوفُ فم الصائم**(٤) **أطيب عند الله، يوم القيامة، من ريح المسك. وللصائم فرحتان يَفْرَحُهُمَا: إذا أفطر فرح بفطره، وإذا لقي ربه فرح بصومه))**(٥).

---

(١) صحيح البخاري [٨]، مسلم [١٦].

(٢) الرفث: الجماع وما دونه من التعريض به، وذكر ما يفحش من القول.

(٣) ((يصخب)) من الصخب وهو الخصام والصياح، وأن يكثر لغطه. وعند مسلم: ((ولا يسخب))، قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هكذا هو هنا بالسين، ويقال بالسين والصاد، وهو الصياح، وهو بمعنى الرواية الأخرى: ((ولا يجهل، ولا يرفث))". شرح النووي على صحيح مسلم (٣١/٨)، وانظر: إكمال المعلم، للقاضي عياض (٥٨/٤). والرواية الأخرى: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((الصيام جنة فلا يرفث ولا يجهل، وإن امرؤ قاتله أو شاتمه فليقل: إني صائم مرتين)) أخرجه البخاري [١٨٩٤]. واللفظ عند (مسلم) [١١٥١]: ((إذا أصبح أحدكم يومًا صائمًا، فلا يرفث ولا يجهل، فإن امرؤ شاتمه أو قاتله، فليقل: إني صائم، إني صائم)).

(٤) الخلوف: تغير رائحة الفم من أثر الصيام لخلو المعدة من الطعام.

(٥) صحيح البخاري [١٩٠٤، ٧٤٩٢]، مسلم [١١٥١].

فقوله: ((**كل عمل ابن آدم له، إلا الصيام، فإنه لي وأنا أجزي به**)) بيان لعظم فضله؛ لأن الكريم إذا تولى الجزاء بنفسه اقتضى عظم قدر الجزاء، وسعة العطاء.

وصيام رمضان من أسباب دخول الجنة، ورفعة الدرجات، كما جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**خمس من جاء بهن مع إيمان دخل الجنة: من حافظ على الصلوات الخمس، على وضوئهن وركوعهن وسجودهن ومواقيتهن، وصام رمضان، وحج البيت إن استطاع إليه سبيلًا، وأعطى الزكاة طيبة بها نفسه، وأدى الأمانة**))، قيل: يا نبي الله، وما أداء الأمانة؟ قال: ((**الغسل من الجنابة، إن الله لم يأمن ابن آدم على شيء من دينه غيرها**))(1).

وعن عمرو بن مرة الجهني قال: جاء رجل من قضاعة إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني شهدت أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وصليت الصلوات الخمس، وصمت رمضان وقمته، وآتيت الزكاة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من مات على هذا كان من الصديقين والشهداء**))(2).

لقد اختص الله عَزَّ وَجَلَّ بعض الأزمنة وشرفها بمزايا وفضائل دائمة مستمرة غير منقطعة، وخصَّها بقرب تؤدى فيها، وضاعف لعباده الأجر فيها، وحثهم على التعبد له فيها، كشهر رمضان، والعشر الأواخر منه، وليلة القدر

---

(١) أخرجه أبو داود [٤٢٩]، ومحمد بن نصر المروزي في (الوتر) (ص:٢٧٢)، والطبراني كما في (مجمع الزوائد) قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٧/١): رواه الطبراني في (الكبير) وإسناده جيد". وقال أيضًا المنذري رَحِمَهُ اللَّهُ (١٤٨/١): "إسناده جيد". وأخرجه أيضًا: وأبو نعيم في (الحلية) (٢٣٤/٢).

(٢) أخرجه ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٥٥٨]، والبزار كما في (كشف الأستار) [٢٥]، وابن خزيمة [٢٢١٢]، وابن حبان [٣٤٣٨]، والطبراني في (الشاميين) [٢٩٣٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٣٣٤٥]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٦/١): "رواه البزار، ورجاله رجال الصحيح خلا شيخي البزار، وأرجو إسناده أنه إسناد حسن أو صحيح".

وقد فاضَل الحقُّ عَزَّوَجَلَّ بين الأزمنة كما فاضَلَ بين الأمكنة، وكما فاضَلَ بين الخلائق. فمن الأزمنة الفاضلة من أيام الأسبوع: يوم الجمعة، ومن أيام السنة: يوم عرفة، ومن ليالي السنة: ليلة القدر، ومن شهور السنة: شهر رمضان.

وقد نصَّ العلماء على أن الأعمال الصالحة يتضاعف ثوابها؛ لشرف الزمان، أو شرف المكان، أو بهما معًا، وكذا المعصية يتضاعف وزرها في الأماكن المفضلة، كمكة -شرفها الله جَلَّوَعَلَا-، وفي الأزمنة المفضلة، كرمضان وغيره.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّ الله جَلَّوَعَلَا إذا أحبَّ عبدًا استعمله في الأوقات الفاضلة بفواضل الأعمال، وإذا مقته استعمله في الأوقات الفاضلة بسيء الأعمال؛ ليكون ذلك أوجع في عقابه، وأشد لمقته؛ لحرمانه بركة الوقت، وانتهاكه حرمة الوقت"(١).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العمل المفضول في الوقت الفاضل يلتحق بالعمل الفاضل في غيره، ويزيد عليه لمضاعفة ثوابه وأجره"(٢).

وقال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الآداب الشرعية): "زيادة الوزر كزيادة الأجر في الأزمنة والأمكنة المعظمة"(٣).

قال الشيخ تقي الدين ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المعاصي في الأيام المعظمة والأمكنة المعظمة تغلظ معصيتها وعقابها بقدر فضيلة الزمان والمكان"(٤).

---

(١) إحياء علوم الدين (١/١٨٨).

(٢) لطائف المعارف (ص:٢٦١).

(٣) الآداب الشرعية (٣/٤٣٠).

(٤) الفتاوى الكبرى، لابن تيمية (٣/٤١٢).

ومن فضائل شهر رمضان:

١ – نزول القرآن الكريم: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ﴾[البقرة:١٨٥]، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ۝٣ فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ۝٤ أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ۝٥ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ۝٦﴾ [الدخان:٣-٦]، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ [القدر:١].

٢ – غفران الذُّنوب، وتكفير السيئات: كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من صام رمضان، إيمانًا واحتسابًا، غفر له ما تقدم من ذنبه، ومن قام ليلة القدر إيمانًا واحتسابًا غفر له ما تقدم من ذنبه**))[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقول: ((**الصلوات الخمس، والجمعة إلى الجمعة، ورمضان إلى رمضان، مكفرات ما بينهن إذا اجتنب الكبائر**))[2].

٣ – استجابة الدعاء: كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ثلاثة لا ترد دعوتهم**))، وذكر منهم: ((**الصائم حين يفطر**))[3].

٤ – فيه ليلة القدر: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِى لَيْلَةِ الْقَدْرِ ۝١ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ ۝٢ لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ ۝٣ تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ ۝٤ سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ ۝٥﴾ [القدر:١-٥].

---

(١) صحيح البخاري [٢٠١٤]، مسلم [٧٦٠].

(٢) صحيح مسلم [٢٣٣].

(٣) أخرجه إسحاق بن راهويه [٣٠٠]، وأحمد [٨٠٤٣]، وابن ماجه [١٧٥٢]، والترمذي [٣٥٩٨]، وقال: "هذا حديث حسن". وأخرجه أيضًا: ابن خزيمة [١٩٠١]، وابن حبان [٣٤٢٨]، والبيهقي [٦٣٩٣].

٥ - تُصَفَّدُ فيه الشياطين: كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إذا جاء رمضان فتحت أبواب الجنة، وغلقت أبواب النار، وَصُفِّدَتِ الشياطين**))(١). وفي لفظ: ((**وسلسلت الشياطين**))(٢).

٦ - العمرة فيه يعدل ثوابها ثواب حجة مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كما جاء في الحديث: ((**عمرة في رمضان تَقْضِي حَجَّةً أو حَجَّةً معي**))(٣).

ورمضان موسم الخير، تضاعف فيه الحسنات، وترجى فيه المغفرة، والمحروم حقًا في هذا الشهر من حرم رحمة الله عَزَّ وَجَلَّ، من أدرك رمضان ولم يغفر له، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**رَغِمَ أَنْفُ رجل ذكرت عنده فلم يُصَلِّ عَلَيَّ، ورَغِمَ أَنْفُ رجل دخل عليه رمضان ثم انْسَلَخَ قبل أن يُغْفَرَ له، ورَغِمَ أَنْفُ رجل أدرك عنده أبواه الكبر فلم يدخلاه الجنة**))(٤). وقوله: ((**رَغِمَ أَنْفُ**)): أي: لَصِقَ بِالرُّغَام، وهو التُّراب، كناية عن غاية الذل والهوان، وهو إِخْبَارٌ أو دعاء.

وإنما تنال رحمة الله بالإقبال عليه والاجتهاد في طاعته وعبادته. جاء في الحديث: عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن في الجنة بابا يقال له: الريان، يدخل منه الصائمون يوم القيامة، لا يدخل معهم أحد غيرهم، يقال: أين الصائمون؟ فيدخلون منه، فإذا دخل آخرهم، أغلق فلم يدخل منه أحد**))(٥).

---

(١) صحيح مسلم [١٠٧٩]. و(الصفد) هو الغل، أي: أوثقت بالأغلال.

(٢) صحيح البخاري [١٨٩٩، ٣٢٧٧]، مسلم (٢) [١٠٧٩]. و((سلست الشياطين)): شدت بالسلاسل، ومنعت من الوصول إلى بغيتها من إفساد المسلمين بالقدر الذي كانت تفعله في غير رمضان.

(٣) صحيح البخاري [١٨٦٣].

(٤) أخرجه أحمد [٧٤٥١]، والترمذي [٣٥٤٥]، وقال: "حسن غريب". وأخرجه أيضًا: البزار [٨٤٦٥]، وابن حبان [٩٠٨].

(٥) صحيح البخاري [١٨٩٦]، مسلم [١١٥٢].

والصيام جُنَّة ووجاء، شرع لتصفية مرآة القلب والعقل، ولرياضة النفس بحبسها عن شهواتها، ولكبحها عن الاسترسال في اللذات، وإمساكها عن خسيس العادات. فهو تصفية للقلب من كدورات البشرية، وتشبه بالملائكة الروحانية، وتعرض لنفحات الله عَزَّوَجَلَّ ورحماته، ومغفرة للذنوب، وإجابة للدعوات، واكتساب للحسنات، وتنقية لصحائف الأعمال من المخالفات، وخضوع لله عَزَّوَجَلَّ، وتعود على الصبر والمكاره، ومواساة للفقراء والمساكين، وحفظ للسان والجوارح، وتنظيم للوقت، وقوة للجسد، وتقوية للإرادة، فهو قيادة للنفس، فمن لم يستطع أن يقود نفسه هيهات أن يقود غيره!! ومن لم ينتصر على نفسه هيهات أن ينتصر على عدوه!!

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن ما في الصوم من كبت وحرمان ليس هدفه هذا الكبت والحرمان، وإنما الصوم وسيلة إلى غاية نبيلة.

إنه التدريب على السيادة والقيادة، قيادة النفس وضبط زمامها، وكفها عن أهوائها ونزواتها، بل إنه التسامي بتلك القيادة إلى أعلى مراتبها. فلقد كنت في بحبوحة الإفطار إنما تحمى جوفك عن تناول السُّحت والخبيث، فأصبحت في حظيرة الصوم تفطمه حتى عن الحلال الطيب. ولقد كنت بالأمس تكف لسانك عن الشتم والإيذاء، فأصبحت اليوم تصونه حتى عن رد الإساءة وعن إجابة التحريش والاستفزاز، فإن خاصمك أحد أو شاتمك، لم تزد على أن تقول : (إني صائم، إني صائم)، هكذا ملكت بالصوم زمامي شهوتك وغضبك.. وإنه لصبر يجر إلى صبر، ونصر يقود إلى نصر. فلئن كان الصوم قد علمك أن تصبر اليوم طائعًا مختارًا في وقت الأمن والرخاء، فأنت غدًا أقدر على الصبر والمصابرة، في البأساء والضراء وحين البأس، ولئن كان الصوم قد علمك كيف تنتصر اليوم على نفسك، فلقد أصبحت به أجدر أن تنتصر غدًا على عدوك. وتلك عاقبة التقوى، التي أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يرشحك لها بالصيام.

إن هذا الهدف الذي صورناه وحدَّدناه، إنما يقوم في منتصف الطريق، الذي رسمه الله عَزَّوَجَلَّ للصائمين، وإن في نهاية هذا الطريق، هدفًا آخر، بل أهدافًا أخرى أهم وأعظم.

إن شريعة الصوم عبادة ذات شطرين، وليس شطرها الأول إلا تمهيدًا وإعدادًا لشطرها الثاني، إنها شجرة جذعها الصبر، وأغصانها الشكر، وأوراقها وثمارها الذكر والفكر.

وإن من تأمل كلمة التقوى التي عبَّر عنها القرآن في حكمة الصيام يجدها منطوية على هذين الشطرين، فهي في شطرها الأول: كف وانتهاء، وابتعاد واجتناب، لكنها في شطرها الثاني: إقبال واقتراب، وإنشاء وبناء.

وهذا الجانب الإيجابي هو الشطر الثاني لشريعة الصوم، ولما جعل الله عَزَّوَجَلَّ شهر الصوم موسمًا لانطلاق الروح من عقالها، فتح للأرواح بابين تندفق منهما: بابًا إنسانيًّا، وبابًا ربانيًّا.

فأما انطلاق الروح من الباب الإنساني فذلك أنه أرشدنا إلى أن يكون زهدنا في الطعام والشراب ليس قبضًا وإمساكًا بالحفظ والادخار، بل بسطًا وسخاء بالبذل والإيثار.

وأما انطلاق الروح من الباب الثاني فذلك أن الإسلام فتح فيه للطاعة مسالك مسلوكة: تسبيح وتحميد، وتكبير وتمجيد، تضرع وابتهال، ودعاء وسؤال، ركوع وسجود، وقيام وتشمير ونهوض"[١].

---

(١) انظر: الصوم تربية وجهاد، د. محمد عبد الله دراز (ص:٤٥-٥٠)، مقالات الإسلاميين في الصيام (ص:٢٦٥-٢٦٦)، مجلة التمدن الإسلامي، ج (٢١-٢٤)، مجلد [٢٩]، سنة [١٣٨٢هـ]، (ص:٤٥٣-٤٥٤).

وفي الصوم خصيصة ليست في غيره، وهى إضافته إلى الله عَزَّوَجَلَّ حيث يقول سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ((**الصوم لي وأنا أجزى به**))، وكفى بهذه الإضافة شرفًا، كما شرف البيت بإضافته إليه في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِيَ﴾ [الحج:٢٦]. وإنما فضل الصوم لمعنيين:

أحدهما: أنه سر وعمل باطن، لا يراه الخلق، ولا يدخله رياء.

الثـاني: أنه قهر لعدو الله؛ لأن وسيلة العدو الشهوات، وإنما تقوى الشهوات بالأكل والشرب، وما دامت أرض الشهوات مُخْصِبَةٌ، فالشياطين يترددون إلى ذلك المرعى، وبترك الشهوات تضيق عليهم المسالك(١).

وأهم مقاصد الصيام أنه يورث المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ والتقوى؛ إذ هو يكف النفس عن كثير مما تتطلع إليه، حيث إنه ينمي في الصائم شعور المراقبة لله تعالى، فالإنسان الذي يخلو بنفسه لا يمنعه شيء عن الأكل والشرب سوى شعوره بأن الله جَلَّ وَعَلَا مطلع عليه في كل ما يصنع، فيبتعد عما يسخط الله تعالى من قول أو عمل، وهذا معنى قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**والصِّيَامُ جُنَّة**)).

أما إذا كان الصيام قد أصبح عند الكثيرين عادة، أو أنه يصوم لنصيحة طبيب لا عن عقيدة وإيمان واحتساب فإن الصيام لا يثمر في نفسه تلك الثمرات الناشئة عن المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ، فإذا انعدم شعور الصائم بالمراقبة فليس له من صيامه إلا الجوع والعطش، وهذا معنى قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من لم يدع قول الزور والعمل به، فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه**))(٢)، وقوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من صام رمضان، إيمانًا واحْتِسَابًا..**))، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]. فليس المراد مجرَّد الإمساك عن الطعام

---

(١) مختصر منهاج القاصدين (ص:٤٣).

(٢) صحيح البخاري [١٩٠٣، ٦٠٥٧].

والشراب والجماع دون ما يحقق الصيام من الأثر في الصائم، وهو التقوى، وهي صيانة المرء نفسه عما يضر في الآخرة.

وقد فرض الله عَزَّوَجَلَّ الصيام على أمة محمد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما فرضه على من قبلها من الأمم؛ لأن الصيام يمتاز عن بقية العبادات بأنه مدرسة تدريبية فعالة تحمل المسلم على ترك الماديات والشهوات والعادات السلوكية المنحرفة، فتسموا روح الصائم، وتزكو نفسه، ويشرق قلبه، وعند ذلك يجد لذَّة العبادة، ويتذوق حلاوة الطاعة.

وليس كالصوم شيءٌ يصلحُ النفوسَ، ويحملها على أمهات الفضائل، ويجملها بمكارم الأخلاق، ويزيدها تحرزًا عن كل خلق قبيح. فبالصوم يكون المسلم عفيفًا مهذبًا لا يسب ولا يغتاب. وينبغي أن يكون هذا حاله بعد الصيام؛ لأنه قد استفاد من هذه المدرسة. وفي الحديث: ((**فإذا كان يوم صوم أحدكم، فلا يَرْفُثْ ولا يَصْخَب، فإن سَابَّهُ أحد أو قاتله، فليقل: إني امرؤ صائم**))[1].

وأما تأثير الصوم في المجتمعات فيتجلى في تحقيق الشعور والحس المرهف بالمساواة بين الناس، فالصائم عندما يجوع يتذكر الفقير فيواسيه، فتظهر وحدة المسلمين، وتماسكهم، وتعاطفهم.

وإذا كان في الصوم فرصة لتقوية الروح ففيه كذلك فرصة لتقوية البدن، فإن كثيرًا مما يصيب الناس من أمراض إنما هو بسبب بطونهم التي يتخمونها بكل ما تشتهي، وقد قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما ملأ آدمي وعاء شرًّا من بطن، بحسب ابن آدم أكلات يقمن صلبه، فإن كان لا محالة فثلث لطعامه، وثلث لشرابه، وثلث لنفسه**))[2].

---

(١) تقدم.

(٢) أخرجه أحمد [١٧١٨٦]، وابن ماجه [٣٣٤٩]، والترمذي [٢٣٨٠]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٦٧٣٧]، وابن حبان [٦٧٤] والطبراني [٦٤٤]، والحاكم [٧١٣٩]، وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي.

وإذا كان البطن مستنقع البلايا فإن الحمية رأس الدواء، وليس كالصوم فرصة تستريح فيها المعدة، ويتخلص الجسد من كثير من فضلاته الضارة.

وفي الصوم تقوية للإرادة، وتربية على الصبر، فالصائم يجوع وأمامه شهي الطعام، ويعطش وبين يديه بارد الماء، ويعف وإلى جانبه زوجته، لا رقيب عليه في ذلك إلا ربه، يتكرر ذلك خمس عشرة ساعة أو أكثر كل يوم، وتسعة وعشرين أو ثلاثين يومًا في كل عام، عدا النوافلَ والكفارات والقضاء والمنذورات.

فأي مدرسة تقوم بتربية الإرادة الإنسانية، وتعليم الصبر الجميل كمدرسة الصوم التي يفتحها الإسلام إجباريًّا للمسلمين في شهر رمضان. وحسبك أن تسمع نداء النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ للشباب: ((**يا معشر الشباب، من استطاع الباءة فليتزوج، فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وِجَاءٌ**))(١).

إن الإسلام ليس دين استسلام وخمول وكسل، بل هو دين جهاد وكفاح متواصل، وهمة عالية. وأول عدة الجهاد: الصبر والإرادة القوية، فمن لم يجاهد نفسه هيهات أن يجاهد عدوا، ومن لم ينتصر على نفسه وشهواتها هيهات أن ينتصر على عدوه. ومن لم يصبر على جوع هيهات أن يصبر على فراق أهل ووطن من أجل هدف كبير.

والحاصل أن لفرض الصيام حِكمًا اجتماعية، من اجتماعِهم على عبادة واحدة، في وقت واحد، وصبرِهم جميعًا، قويِّهم وضعيفِهم، شريفِهم ووضيعَهم، غنيَهم وفقيرَهم، على معاناتِها وتحملِها، مما يسبب ربْطَ قلوبهم، وتآلف أرواحهم، ولَمَّ كلمتهم. كما أنه سبب عطف بعضهم على بعض، ورحمةِ بعضهم بعضًا، حينما يُحِس الغنيَ ألم الجوع، ولَدْغَ الظَّمأ فيتذكر أن أخاه الفقير يعاني هذه الآلام دَهْرَه كله، فيجود عليه من ماله بشيء يزيل الضغائن والأحقاد، ويحل محلها المحبةُ والوئام.

---

(١) صحيح البخاري [١٩٠٥، ٥٠٦٥، ٥٠٦٦]، مسلم [١٤٠٠].

ومنها، حكم أخلاقية تَربوِية، فهو يعلِّم الصبر والتحمل، ويقوي العزيمة والإرادة، ويُمرِّن على ملاقاة الشدائد وتذليلها، والصعاب وتهوينها.

ومنها: حكم صِحَّيَّة، فإن المعدة بيت الداء، والحمية رأس الدواء كما تقدم.

ثالثًا: عقوبة من أفطر في رمضان من غير عذر:

ومَن ترَك صِيام رمضان بغير عذر فلا يخلو إمَّا أنْ يترُكه جحودًا، أو كسَلًا، فإن تركه ترَكه جُحودًا فهو كافر؛ لأنَّه أنكَر أمرًا مجمعًا معلومًا من الدِّين بالضَّرورة، ورُكنًا من أركان الإسلام، وأمَّا مَن ترَكه كسَلًا فهو فاسق، وقد ورد في حقِّه وعيد شديد.

ويتساهَلُ البعضُ بتعمُّد الإفطار في رمضان، فيفطر أيامًا منه من غير عذر، ويفطر البعض رمضان كله وهو في عافية من الأمراض، وسلامة من الأعذار، ولكنه يتبع النفس والهوى والشيطان.

والأخطَرُ من ذلك مَن يُجاهِرُ بالإفطار في رَمضان منتهكًا حرمة الشهر، وحرمة المجتمع، فتجدُه يتحدَّى مشاعرَ المسلمين الصائمين، فيُدخِّن ويأكُل ويشرَب في العمل أو في الشارع.

قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **((من أفطر يومًا من رمضان من غير رخصة من الله لقي الله به، وإن صام الدهر كله إن شاء غفر له، وإن شاء عذبه))**[1].

(١) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [٧٤٧٦]، والطبراني في (الكبير) [٩٥٧٤]. قال الهيثمي (١٦٨/٣): "رواه الطبراني في (الكبير)، ورجاله ثقات".

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الكبائر): "وعند المؤمنين مقرر أن من ترك صوم رمضان بلا مرض ولا غرض[1] أنه شر من الزاني، والمكَّاس، ومدمن الخمر، بل يشكون في إسلامه، ويظنون به الزندقة والانحلال"[2].

وقد ورد الوعيد الشديد فيمن أفطر في نهار رمضان من غير عذر كما جاء في الحديث عن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**بينا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بِضَبْعَيَّ فأتيا بي جَبَلًا وَعْرًا، فقالا لي: اصْعَدْ حتى إذا كنتُ في سَوَاءِ الجَبَل، فإذا أنا بِصَوْتٍ شَدِيد، فقلتُ: ما هذه الأصواتُ؟ قال: هذا عُوَاءُ أهلِ النَّار، ثم انْطَلَقَ بي فإذا أنا بقوم مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ، مُشَقَّقَة أَشْدَاقُهُمْ، تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا، فقلتُ: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء الذين يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ، ثم انْطَلَقَ بي، فإذا بِقَوْم أشَدِّ شيءٍ انْتِفَاخًا، وأَنْتَنِه رِيحًا، وأَسْوَئِه مَنْظَرًا، فقلت: من هؤلاء؟ قِيلَ: الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي، ثم انْطَلَقَ بي، فإذا بنسَاءٍ تَنْهَشُ ثَدْيَهُنَّ الْحَيَّاتُ، قلتُ: ما بال هؤلاء؟ قيل: هَؤُلَاءِ اللَّاتي يَمْنَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ، ثم انْطَلَقَ بي، فإذا أنا بِغِلْمَانٍ يَلْعَبُونَ بين نَهْرَيْن، فقلتُ: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء ذَرَارِيُّ المؤمنين، ثم شَرَفَ بي شَرَفًا، فإذا أنا بثلاثةٍ يشربونَ من خمْرٍ لهم، فقلتُ: من هؤلاء؟ قالوا: هذا إبراهيمُ، وموسى، وعيسى وهم ينتظرونكَ**))[3].

والحديث يفيد الوعيد الشديد في حقِّ من أفطر في نهار رمضان من غير عذر، وأن العذاب واقع بهم، فيُرَوْنَ مُعلَّقين بعَراقِيبهم كما يُعلِّق الجَزَّارُ الذبيحةَ، وقد شُقَّتْ أشداقهم، والدم يسيل منها.

---

(١) أي: بلا عذر يبيح ذلك.

(٢) الكبائر، للذهبي (ص:١٥٧)، بتحقيق: مشهور بن حسن.

(٣) أخرجه: ابن خزيمة [١٩٨٦]، وابن حبان [٧٤٩١]، والطبراني [٧٦٦٧]، والحاكم [٢٨٣٧]، وقال: "حديث صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذهبي.

وقوله: ((**قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ**)) معناه: يفطرون قبل وقت الإفطار، أي: قبل تحقق دخول وقته.

قال الشيخ الألباني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذه عقوبة من صام ثم أفطر عمدًا قبل حلول وقت الإفطار، فكيف يكون حال من لا يصوم أصلًا؟! نسأل الله السلامة والعافية في الدنيا والآخرة"(١).

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وظاهر أن مثل ذلك: ترك واجب مضيق من نذر وكفارة، فيكون كبيرة كالإفطار منه بغير عذر، وظاهر -والله أعلم- أن حكمة كثرة ما جاء من الوعيد في ترك الصلاة والزكاة دون الصوم: أنه لا يتركه كسلًا مع القدرة عليه إلا الفذ النادر، بخلاف ترك الصلاة والزكاة فإنه كثير في الناس، بل أكثر الناس يتهاونون بالصلاة والزكاة، ومع ذلك يثابرون على الصوم، ومن ثم تجد كثيرين يصومون وهم لا يصلون وكثيرين لا يصلون إلا في رمضان دون غيره"(٢).

أما عقوبة من أفطر عمدًا في رمضان من غير عذر في الدنيا فقد اختلف العلماء فيها، فقال الحنفية: إن تارك الصوم كتارك الصلاة، إذا كان عمدًا كسلًا، فإنه يحبس حتى يصوم. وقيل: يضرب في حبسه. كما جاء في (البحر): "والمفطر في رمضان يعزر ويحبس"(٣).

وقال الخطيب الشربيني الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ووجوبه معلوم من الدين بالضرورة، فمن جحد وجوبه فهو كافر، إلا أن يكون قريب عهد بالإسلام، أو نشأ بعيدًا عن العلماء.

---

(١) سلسلة الأحاديث الصحيحة (٧/١٦٧١- ١٦٧٢).

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٣٢٤).

(٣) البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٥/٤٦)، وانظر: رد المحتار على الدر المختار (٤/٦٧).

ومن ترك صومه غير جاحد من غير عذر كمرض وسفر كأن قال: الصوم واجب عليَّ ولكن لا أصوم، حبس ومنع الطعام والشراب نهارًا؛ ليحصل له صورة الصوم بذلك"(١).

وقال: أبو اسحاق الشيرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن أفطر في رمضان بغير جماع من غير عذر وجب عليه القضاء، والإمساك بقية النهار؛ لأنه أفطر بغير عذر، فلزمه إمساك بقية النهار، ولا تجب عليه الكفارة، وإن بلغ ذلك السلطان عذَّره؛ لأنه محرَّم ليس فيه حدٌّ ولا كفارة، فثبت فيه التعزيز، كالمباشرة فيما دون الفرج من الأجنبية"(٢). وبه قال أحمد وداود(٣).

وفي (منح الجليل): "وجب تأديب ومعاقبة الشخص المفطر في أداء رمضان عمدًا، اختيارًا، بلا تأويل قريب، بما يراه الإمام من ضرب، أو سجن، أو منهما معًا. وإن كان فطره بموجب حدٍّ كزنا وشرب مسكر حُدَّ وأُدِّب، وإن كان رجمًا قُدِّم الأدبُ. واستظهر بعضهم سقوط الأدب بالرجم؛ لإتيان القتل على الجميع"(٤).

ومفهومه: أنه إن كان الحدُّ جلدًا، فإنه يُقدَّم على الأدب. فإن جاء المفطر عمدًا قبل الاطلاع عليه، حال كونه تائبًا، قبل الظهور عليه، فلا يؤدب(٥).

---

(١) الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (١/٢٣٤) مغني المحتاج (٢/١٤٠)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٢/٣٧٢)، نهاية الزين في إرشاد المبتدئين (ص:١٨٤).

(٢) المهذب في فقه الإمام الشافعي (١/ ٣٣٦- ٣٣٧)، وانظر: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء (٣/١٦٥).

(٣) انظر: حلية العلماء في معرفة مذاهب الفقهاء (٣/١٦٥).

(٤) منح الجليل شرح مختصر خليل (٢/ ١٥٤)، وانظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير (١/٥٣٧).

(٥) انظر: حاشية الدسوقي على الشرح الكبير، للدردير (١/٥٣٧)، جواهر الإكليل (١/١٥٤)، منح الجليل (١/٤١٢-٤١٣)، شرح الزرقاني بحاشية البناني (٢/٢١٥-٢١٦).

وقال ابن جُزَي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما العقوبة فهي للمنتهك لصوم رمضان، وذلك بقدر اجتهاد الإمام، وصورة حاله"(١). ولعل هذا القول هو الأقرب إلى مقاصد التشريع.

رابعًا: الوقاية والعلاج من آفات الإفطار من غير عذر:

١ - العلم بأركان الإسلام، وأن الصيام رابعها.

٢ - معرفة فضل الصيام، وأحكامه وآدابه، وتعليمها للأولاد والطلاب.

٣ - العلم بعاقبة من ترك صيام شهر رمضان من غير عذر، أو ترك صيام يوم أو أيام منه من غير عذر.

٤ - مراقبة الله جَلَّ وَعَلَا في سائر الأحوال، وأنْ يتذكَّر العبد أنَّ الله عَزَّوَجَلَّ مُطَّلعٌ على السرائر.

٥ - تذكر الموت والآخرة.

٦ - الاستعانة على الصيام بالإكثار من النوافل.

٧ - حضور مجالس العلماء التي تذكر بالآخرة، والتفقه في الدين، ومن ذلك: تعلم آداب الصيام وأحكامه.

٨ - الاستعانة على الصيام بأكلة السَّحر:

جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**تسحروا؛ فإن في السحور بركة**))(٢).

---

(١) القوانين الفقهية (ص:٨٤).

(٢) صحيح البخاري [١٩٢٣]، مسلم [١٠٩٥].

ويستحب تأخير السحور؛ لأنه أقرب إلى حصول المقصود منه من حفظ القوى، والتقوي به على النشاط كما جاء في الحديث: عن زيد بن ثابت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**تسحرنا مع النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **ثم قام إلى الصلاة**))، قلت: كم كان بين الأذان والسحور؟ قال: ((**قدر خمسين آية**))[١]. وفي رواية: ((**قدر خمسين أو ستين**))، يعني: آية[٢].

قال ابن دقيق العيد رَحِمَهُ اللَّهُ: "فيه دليل على استحباب السحور للصائم. وتعليل ذلك بأن فيه بركة. وهذه البركة: يجوز أن تعود إلى الأمور الأخروية؛ فإن إقامة السنة توجب الأجر وزيادته. ويحتمل أن تعود إلى الأمور الدنيوية؛ لقوة البدن على الصوم، وتيسيره من غير إجحاف به. و(السحور) بفتح السين: ما يتسحر به. وبضمها الفعل. هذا هو الأشهر.

و(البركة) محتملة لأن تضاف إلى كل واحد من الفعل والمتسحر به معًا"[٣].

٩ – تدريب الأولاد منذ الصغر على الصيام.

١٠ – الإكثار من الجلوس في المساجد:

(١) صحيح البخاري [١٩٢١]، مسلم [١٠٩٧].

(٢) صحيح البخاري [٥٧٥].

(٣) إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (٩/٢). قال ابن الملقن رَحِمَهُ اللَّهُ: ويجوز أن تكون البركة بمجموع الأمرين: وحاصل البركة في السحور يتنوع أنواعًا: أولها: اتباع السنَّة والاقتداء. ثانيها: مخالفة أهل الكتاب في الزيادة في الأكل على الإفطار. ثالثها: التقوي به والنشاط للصوم سيما الصبيان. رابعها: التسبب للصدقة على من يسأل إذ ذاك. خامسها: التسبب لذكر الله والدعاء وللرحمة فإنه وقت الإجابة. سادسها: التسبب في حسن الخلق؛ فإنه إذا جاع ربما ساء خلقه. سابعها: تجديد نية الصوم فيخرج من خلاف من أوجب تجديدها إذا نام ثم تنبه. ثم قال: أجمع العلماء على استحباب السحور، وأنه ليس بواجب، وإنما الأمر به أمر إرشاد، وهو من خصائص هذه الأمة". الإعلام بفوائد عمدة الأحكام، لابن الملقن (١٨٧/٥– ١٨٨).

أخرج ابن أبي شيبة عن أبي المتوكل، أن أبا هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وأصحابه كانوا إذا صاموا جلسوا في المسجد[1]. وقالوا: نطهر صيامنا[2].

١١ – صحبة الصالحين، وأصحاب الهمم، والبعد عن صحبة المجاهرين بالمعاصي.

١٢ – البعد عن أماكن الشبهات، والإعلام الهابط.

١٣ – الواجب على أفطر من رمضان من غير عذر، أن يتوبَ إلى الله جَلَّ وَعَلَا توبةً نصوحًا، وأن يندمَ على ما فات، ويعقد العزم على عدم العود، وأن يقضيَ الأيام التي أفطرها إذا كان الإفطارُ عاريًا عن الجماع، وإلا فإنه يقضي ويكفر.

١٤– مخالفة النفس والشيطان والهوى.

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٨٨٨١].

(٢) حلية الأولياء (١/٣٨٢).

المبحث الثاني عشر
الزنا

أولًا: بيان خطورة الزنا وعاقبته وآثاره:

لقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بحفظ الفرج، ومدح الحافظين له، وجعل ذلك من سمات الفلاح، وأسباب دخول الجنة، والنجاة من العذاب في الآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝١ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ۝٢ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ۝٣ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ۝٤ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝٥ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المؤمنون:١-٦]، وفي (المعارج) ذكر الله عَزَّوَجَلَّ صفات المؤمنين السالكين طريق النجاة، ومنها: حفظ الفروج إلَّا من الزَّوجة والسُّرِّيَّة[(١)]، وقال بيان العاقبة: ﴿أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُكْرَمُونَ﴾ [المعارج:٣٥]. وفي (الأحزاب): ﴿إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِمَاتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَالْقَانِتِينَ وَالْقَانِتَاتِ وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ وَالْمُتَصَدِّقِينَ وَالْمُتَصَدِّقَاتِ وَالصَّائِمِينَ وَالصَّائِمَاتِ وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:٣٥].

---

(١) (السُّرِّيَّة): بضم أوله وكسر ثانيه: الأمَة التي بَوَّأْتَهَا بيتًا، وهي فُعْلِيَّةٌ منسوبة إلى السر، وهو الإخفاء؛ لأن الإنسان كثيرا ما يسرها ويسترها عن حرته. انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (سرر) (٢/٦٨٢).

وقد جاء في الحديث: ما يدلُّ على أن حفظ الفرج من أسباب دخول الجنَّة، وفي المقابل فإن من أكثر أسباب دخول النَّار: عدم حفظه. يقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إذا صلت المرأة خمسها، وصامت شهرها، وحصنت فرجها، وأطاعت بعلها دخلت من أيِّ أبواب الجنة شاءت))**(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((يا شباب قريش: لا تزنوا، احفظوا فروجكم، ألا من حفظ فرجه فله الجنة))**(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سئل رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن أكثر ما يدخل الناس الجنة، فقال: **((تقوى الله، وحسن الخلق))**، وسئل عن أكثر ما يدخل الناس النار، فقال: **((الفم والفرج))**(٣).

---

(١) الحديث مروي عن أبي هريرة وعبد الرحمن بن عوف وأنس. حديث أبي هريرة: أخرجه ابن حبان [٤١٦٣]، والطبراني في (الأوسط) [٤٥٩٨]. حديث عبد الرحمن بن عوف: أخرجه أحمد [١٦٦١]، والطبراني في (الأوسط) [٨٨٠٥]، قال المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣/٣٣- ٣٤): "رواته رواة الصحيح خلا ابن لهيعة، وحديثه حسن في المتابعات". وقال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤/٣٠٦): "فيه ابن لهيعة وحديثه حسن وبقية رجاله رجال الصحيح". حديث أنس: أخرجه البزار [٧٤٨٠]، وأبو نعيم في (الحلية) (٦/٣٠٨)، قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤/٣٠٥): "فيه داود بن الجراح، وثقه أحمد وجماعة، وضعفه جماعة، وقال ابن معين: وهم في هذا الحديث، وبقية رجاله رجال الصحيح. وأخرجه أيضًا: ابن عدي، ترجمة [٦٥٢] ربيع بن صبيح، وقال: "أحاديثه صالحة مستقيمة، ولم أر له حديثا منكرًا جدًّا، وأرجو أنه لا بأس به وبرواياته".

(٢) أخرجه البزار [٤٧٢٩]، والطبراني في (الكبير) [١٢٧٧٦]، و(الأوسط) [٦٨٥٠]، والحاكم [٨٠٦٢]، وقال: "صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه"، سكت عنه الذهبي في التلخيص. وأخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٥٠٤٢]. قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤/٢٥٢- ٢٥٣): "رواه البزار، والطبراني في (الكبير) و(الأوسط)، ورجاله رجال الصحيح".

(٣) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٢٩٤]، وابن ماجه [٤٢٤٦]، والترمذي [٢٠٠٤] وقال: "صحيح غريب". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٧٦]، والحاكم [٧٩١٩]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

ويدخل في حفظ الفرج: حفظه من الزنى، واللواط، والمساحقة، وحفظه من الإبداء للناس والانكشاف لهم إلا من الزوجة والسرية.

وفي الحديث: عن سهل بن سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((من يضمن لي ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه أضمن له الجنة))**[1].

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأكثر بلاء الناس من قبل فروجهم وألسنتهم، فمن سلم من ضرر هذين فقد سلم"[2].

وقد جاءت الشريعة الإسلامية بما فيه صلاح الناس، فأوجبت واجباتٍ، وفرضت حدودًا، وأحلَّت للناس الطَّيبات، وحرَّمت عليهم الخبائث والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ومن الفواحش المحرمة: جريمة الزنا، وهي من كبائر الذنوب، ومن أفحش الجرائم، فهي أصلٌ لكثيرٍ من المفاسد، وهي من أعظمِ الآفاتِ أثرًا وفتكًا في جسد الأمة.

وقد قرن اللهُ عَزَّوَجَلَّ الزنا بالشركِ، وقتلِ النفس؛ للدلالة على عظيم خطره وأثره؛ فهو أصل في فساد الأخلاق، وإضاعة الأنساب، وانتهاك الحرمات، وإشعال العداوة والبغضاء بين الناس.

وقد بيَّن اللهُ عَزَّوَجَلَّ أن من صفاتِ المهتدين من عبادِ الرحمن: عدم الإشراك به، وعدم قتل النفس المحرمة، وأنهم يحفظون فروجهم عن الفواحش فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨].

---

(١) صحيح البخاري [٦٤٧٤]. والمراد بالضمان: الوفاء بترك المعاصي بهما. فأطلق الضمان وأراد لازمه، وهو أداء الحق الذي عليه. و((ما بين لحييه)): لسانه. واللحي -بفتح اللام وكسرها-: العظم الذي تنبت عليه اللحية من الإنسان. و((ما بين رجليه)): فرجه.

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/ ٤٢٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولما كانت مفسدة الزنى من أعظم المفاسد، وهي منافية لمصلحة نظام العالم في حفظ الأنساب، وحماية الفروج، وصيانة الحرمات، وتوقي ما يوقع أعظم العداوة والبغضاء بين الناس، من إفساد كل منهم امرأة صاحبه وبنته وأخته وأمه، وفي ذلك خراب العالم، كانت تلي مفسدة القتل في الكبر، ولهذا قرنها الله عَزَّوَجَلَّ بها في كتابه، ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في سنته.

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ولا أعلم بعد قتل النفس شيئا أعظم من الزنى.

وقد أكد الله عَزَّوَجَلَّ حرمته بقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ﴾ [الفرقان:٦٨-٧٠].

فقرن الزنى بالشرك وقتل النفس، وجعل جزاء ذلك الخلود في العذاب المضاعف، ما لم يرفع العبد موجب ذلك بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

فأخبر عن فحشه في نفسه، وهو القبيح الذي قد تناهى قبحه حتى استقر فحشه في العقول.

ثم أخبر عن غايته بأنه ﴿وَسَاءَ سَبِيلًا﴾؛ فإنه سبيل هلكة وبوار وافتقار في الدنيا، وعذاب وخزي ونكال في الآخرة.

ولما كان نكاح أزواج الآباء من أقبحه خصه بمزيد ذم، فقال: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: ٢٢].

وعلق الله عَزَّوَجَلَّ فلاح العبد على حفظ فرجه منه، فلا سبيل إلى الفلاح بدونه، فقال: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ ﴿٢﴾ وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ ﴿٤﴾ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَى

أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝٦ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ ۝٧﴾ [سورة المؤمنون:١- ٧]"(١).

وفي الحديث: قال عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال رجل: يا رسول الله، أيُّ الذنب أكبر عند الله؟ قال: ((**أن تدعو لله نِدًّا وهو خلقك**))، قال: ثم أي؟ قال: ((**ثم أن تقتل ولدك خشية أن يَطْعَمَ معك**))، قال: ثم أي؟ قال: ((**ثم أن تُزَانِيَ بِحَلِيلَة جارك**))، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا﴾ [الفرقان:٦٨] الآية(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أما أحكام هذا الحديث ففيه: أن أكبر المعاصي: الشرك، وهذا ظاهر لا خفاء فيه، وأن القتل بغير حق يليه، وكذلك قال أصحابنا: أكبر الكبائر بعد الشرك: القتل، وكذا نص عليه الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ في كتاب الشهادات من (مختصر المزني). وأما ما سواهما من الزنى، واللواط، وعقوق الوالدين، والسحر، وقذف المحصنات، والفرار يوم الزحف، وأكل الربا، وغير ذلك من الكبائر فلها تفاصيل وأحكام تعرف بها مراتبها، ويختلف أمرها باختلاف الأحوال والمفاسد المرتبة عليها، وعلى هذا يقال في كل واحدة واحدة منها هي من أكبر الكبائر، وإن جاء في موضع أنها أكبر الكبائر كان المراد من أكبر الكبائر"(٣).

وفي (مطالب أولي النهى): "وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ القتل بإزاء الشرك، ويقرب منه: الزنا واللواطة؛ فإن هذا يفسد الأديان، وهذا يفسد الأبدان، وهذا يفسد الأنساب. قال الإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ: لا أعلم بعد القتل ذنبًا أعظم من الزنا. واحتج بحديث: عبد الله بن

---

(١) الجواب الكافي (ص:١٥٠-١٥١).

(٢) صحيح البخاري [٤٧٦١، ٦٠٠١، ٦٨٦١، ٧٥٣٢]، مسلم [٨٦].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٨١/٢).

مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ(١) أنه قال: يا رسول الله؛ أي: الذنب أعظم؟ قال: ((**أن تجعل لله نِدًّا وهو خلقك**))، قال: قلت ثم أي؟ قال: ((**أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك**))، قال: قلت: ثم أي؟ قال: ((**أن تُزَانِيَ بِحَلِيلَة جارك**))، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ تصديقها: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان:٦٨] الآية. والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذكر من كل نوع أعلاه ليطابق جوابه سؤال السائل؛ فإن سأله عن أعظم الذنب فأجابه بما تضمن ذكر أعظم أنواعها، وما هو أعظم كل نوع. فأعظم أنواع الشرك أن يجعل العبد لله ندًا، وأعظم أنواع القتل: أن يقتل ولده خشية أن يشاركه في طعامه وشرابه، وأعظم أنواع الزنا: أن يزني بحليلة جاره؛ فإن مفسدة الزنا تضاعف بتضاعف ما انتهكه من الحق. وعلم منه أن الزنا يتفاوت إثمه ويعظم جرمه بحسب موارده"(٢).

ومما يدل كذلك على خطورة هذا الفعل المنكر: ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إذا زنى العبد خرج منه الإيمان فكان فوق رأسه كالظُّلَّة، فإذا خرج من ذلك العمل عاد إليه الإيمان**))(٣).

وفي (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن**))(٤).

---

(١) تقدم.

(٢) مطالب أولي النهى في شرح غاية المنتهى (٦/١٧٢-١٧٣).

(٣) أخرجه أبو داود [٤٦٩٠]، والحاكم [٥٦]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٤٩٧٩].

(٤) صحيح البخاري [٢٤٧٥، ٥٥٧٨، ٦٧٧٢، ٦٨١٠]، مسلم [٥٧].

هذا وأمثاله حمله العلماء على التغليظ، أو على كمال الإيمان.

وقيل: أراد بالإيمان الحياء؛ لكونه شعبة من الإيمان، والمعنى: لا يزني الزاني وهو يستحيي من الله عَزَّوَجَلَّ.

وقيل: المراد من المؤمن هو ذو الأمن من العذاب.

وقيل: النفي بمعنى: النهي، أي: لا ينبغي للزاني أن يزني والحال أنه مؤمن؛ فإن مقتضى الإيمان أنه لا يقع في مثل هذه الفاحشة(١).

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نفى عنه بِقِلَّة التجويد للإيمان اسمهُ، وكذلك قول حذيفة للرجل: ((**ما صليت**))، أي: صلاة كاملة، ((**ولو متَّ متَّ على غير فطرة محمد** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))"(٢).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اختلف العلماء في معنى هذا الحديث، والصحيح الذي قاله المحققون أن معناه: لا يفعل هذه المعاصي وهو كامل الإيمان، وهذا من الألفاظ التي تطلق على نفي الشيء ويراد نفي كماله. ومختاره كما يقال: لا علم إلا ما نفع، ولا مال إلا الإبل، ولا عيش إلا عيش الآخرة. وإنما تأولناه على ما ذكرناه؛ لحديث أبي ذر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وغيره: ((**من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنى وإن سرق**))(٣). وحديث: عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ الصحيح المشهور أنهم بايعوه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أن لا يسرقوا ولا يزنوا ولا يعصوا إلى آخره.

---

(١) انظر: حاشية العلامة السندي على سنن ابن ماجه (٤٦١/٢)، حاشية السندي على سنن النسائي (٦٤/٨).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٤٠٧/٢). وحديث: حذيفة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في (صحيح البخاري) [٧٩١، ٨٠٨]: عن حذيفة، رأى رجلًا لا يتم ركوعه، ولا سجوده فلما قضى صلاته قال له حذيفة: ((ما صليت، ولو مت مت على غير سنة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)).

(٣) صحيح البخاري [٥٨٢٧]، مسلم [٩٤]. وفي لفظ: ((من مات من أمتي لا يشرك بالله شيئًا دخل الجنة))، قلت: وإن زنى وإن سرق؟ قال: ((وإن زنى وإن سرق)) وهو في (الصحيحين).

ثم قال لهم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**فمن وَفَى منكم فأجره على الله، ومن فعل شيئًا من ذلك فعوقب في الدنيا فهو كفارته، ومن فعل ولم يعاقب فهو إلى الله تعالى إن شاء عفا عنه وإن شاء عذبه**))(١). فهذان الحديثان مع نظائرهما في (الصحيح)، مع قوله الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، مع إجماع أهل الحق على أن الزاني والسارق والقاتل وغيرهم من أصحاب الكبائر غير الشرك لا يكفرون بذلك، بل هم مؤمنون ناقصوا الإيمان. إن تابوا سقطت عقوبتهم وإن ماتوا مصرين على الكبائر كانوا في المشيئة، فإن شاء الله عَزَّوَجَلَّ عفا عنهم وأدخلهم الجنة أولًا، وإن شاء عذبهم ثم أدخلهم الجنة"(٢).

"وقال آخرون: عنى بذلك: لا يزني الزاني وهو مستحل للزنا غير مؤمن بتحريم الله ذلك عليه، فأما إن زنا وهو معتقد تحريمه فهو مؤمن، روي ذلك عن عكرمة عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. وحجة هذه المقالة: حديث: أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من قال: لا إله إلا الله دخل الجنة وإن زنا وإن سرق**))"(٣).

والحاصل أن النصوص الواردة بنفي الإيمان عن أصحاب الكبائر ليس المراد منها: أنه يخرج من الإيمان كله، ولا نفي أصل الإيمان عنه، بل المراد: نفي كمال الإيمان، وإن كان بقي معه من أصله ما يمنع خروجه من الملة، أو خلوده في النار.

ولقد توعَّد الله عَزَّوَجَلَّ من أقدم على هذا الفعل المنكر بالعذاب في الآخرة، وهذا العذاب يبدأ عقب موته من البرزخ، كما جاء في حديث المنام في وصف الذين يعذَّبون في البرزخ: ((**فانطلقنا، فأتينا على مِثْل التَّنُّور، فإذا فيه لغط وأصوات**))، قال: ((**فَاطَّلَعْنَا**

---

(١) صحيح البخاري [١٨، ٣٨٩٢، ٤٨٩٤، ٦٧٨٤، ٦٨٠١، ٧٢١٣، ٧٤٦٨]، مسلم [١٧٠٩]. و(وفى): ثبت على العهد.

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/٤١-٤٢).

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٨/ ٣٨٩).

فيه، فإذا فيه رجال ونساء عراة، وإذا هم يأتيهم لهب من أَسْفَلَ منهم، فإذا أتاهم ذلك اللهب ضَوْضَوْا))[١]، أي: ضجوا وصاحوا، وارتفعت أصواتهم متألمين. وفي رواية: **((فانطلقنا إلى ثقب مثل التنور، أعلاه ضيق وأسفله واسع، يَتَوَقَّدُ تَحْتَهُ نارًا، فإذا اقترب ارتفعوا حتى كاد أن يخرجوا، فإذا خمدت رجعوا فيها))**[٢].

وجاء في تمام الحديث بيان حال أولئك المعذبين أنهم الزناة من الرجال، والزواني من النساء. قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مناسبة العُرْي لهم؛ لاستحقاقهم أن يفضحوا؛ لأن عادتهم أن يستتروا في الخلوة، فعوقبوا بالهتك. والحكمة في إتيان العذاب من تحتهم: كون جنايتهم من أعضائهم السفلى"[٣].

وعن أبي أمامة الباهلي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**بينا أنا نائم إذ أتاني رجلان فأخذا بِضَبْعَيَّ فأتيا بي جَبَلًا وَعْرًا، فقالا لي: اصْعَدْ حتى إذا كنتُ في سَوَاءِ الجَبَل، فإذا أنا بِصَوْتٍ شَدِيد، فقلتُ: ما هذه الأصواتُ؟ قال: هذا عُوَاءُ أهلِ النَّار، ثم انْطَلَقَ بي فإذا أنا بقوم مُعَلَّقِينَ بِعَرَاقِيبِهِمْ، مُشَقَّقَة أَشْدَاقُهُمْ، تَسِيلُ أَشْدَاقُهُمْ دَمًا، فقلتُ: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء الذين يُفْطِرُونَ قَبْلَ تَحِلَّةِ صَوْمِهِمْ، ثم انْطَلَقَ بي، فإذا بِقَوْم أَشَدِّ شيءٍ انْتِفَاخًا، وأَنْتَنِه رِيحًا، وأَسْوَئِهِ مَنْظَرًا، فقلت: من هؤلاء؟ قِيلَ: الزَّانُونَ وَالزَّوَانِي، ثم انْطَلَقَ بي، فإذا بنسَاءٍ تَنْهَشُ ثَدْيَهُنَّ الْحَيَّاتُ، قلتُ: ما بال هؤلاء؟ قيل: هَؤُلَاءِ اللَّاتي يَمْنَعْنَ أَوْلَادَهُنَّ أَلْبَانَهُنَّ، ثم انْطَلَقَ بي، فإذا أنا بِغِلْمَانٍ يَلْعَبُونَ بين نَهْرَيْن، فقلتُ: من هؤلاء؟ فقيل: هؤلاء ذَرَارِيُّ**

(١) صحيح البخاري [٧٠٤٧].

(٢) صحيح البخاري [١٣٨٦].

(٣) فتح الباري (١٢/٤٤٥).

المؤمنين، ثم شَرَفَ بي شَرَفًا، فإذا أنا بثلاثةٍ يشربونَ من خَمْرٍ لهم، فقلتُ: من هؤلاء؟ قالوا: هذا إبراهيمُ، وموسى، وعيسى وهم ينتظرونك))(١).

ويمتد عذاب الزناة من الرجال والزواني من النساء بعد البرزخ، فينالهم العذاب في نار جنهم إذا لم تقع منهم التوبة النصوح، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿٧٠﴾﴾ [الفرقان:٦٨- ٧٠].

فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلاَ يَزْنُونَ﴾، أي: لا يرتكبون جريمة الزنى. ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذلك يَلْقَ أَثَامًا﴾، أي: ومن يقترف تلك الموبقات العظيمة من الشرك والقتل والزنى يجد في الآخرة النكال والعقوبة. ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾، أي: يُضاعف عقابُه ويُغلَّظ بسبب الشرك وبسبب المعاصي. ﴿وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾، أي: يُخلد في ذلك العذاب حقيرًا ذليلًا. ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾.

وذلك يوجب على كل مسلم الحذرَ غايةَ الحذرِ من هذا الذنب، وأن يحذرَ أسبابه وما يوصل إليه، كالخلوة المحرمة، أو تعاطي أسباب الفتنة، مثل: التبرج وإظهار مفاتن المرأة، والنظر إلى المحرمات، إلى غير ذلك من المحرضات على الفاحشة.

فلا يجوز إطلاقُ البصر فيما يسخِطُ الربَّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَى، كالنظرِ إلى المحرماتِ والعوراتِ في الشاشاتِ ومواقع الأنترنت، وفي الشوارعِ والساحاتِ، إلى الغادياتِ والرائحاتِ، فالبصرُ سهمٌ مسمومٌ من سهام إبليس، بسببه انتكسَ من انتكسَ عن الدين، وخرجَ عن طاعة رب العالمين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ

---

(١) أخرجه: ابن خزيمة [١٩٨٦]، والخرائطي في (اعتلال القلوب) [١٦٥]، وابن حبان [٧٤٩١]، والطبراني [٧٦٦٧]، والحاكم [٢٨٣٧]، وقال: "حديث صحيح على شرط مسلم" ووافقه الذهبي. كما أخرجه: البيهقي [٨٠٠٦].

وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾ [النور:٣٠]. والأمر بحفظ الفروج عقب الأمر بالغض من الأبصار؛ لأن النظر رائد الزنى.

وقد نهانا الله عَزَّوَجَلَّ عن الزنا وما يدعو إليه فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَا إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٣٢].

وإذا كان الله عَزَّوَجَلَّ قد حذَّرنا من مقدمات الزنا فالتحذير من ارتكابه أولى وأشد؛ لأنه يفسد الأخلاق، ويهتك الأعراض، ويوقع البلايا والأمراض الخبيثة القاتلة.

وقد جاء في الحديث: التحذير من المقدمات التي قد تكون مدخلًا لهذا الفعل المنكر، وبيان أنها من مراتب الزنا المجازي، كما جاء عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: ما رأيت شيئًا أشبه باللمم مما قال أبو هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العينين النظر، وزنا اللسان النطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه**))(١)، أي: إن الفاحشة العظيمة، والزنا التام الموجب للحد في الدنيا، وعقاب الزاني في الآخرة هو للفرج، وغيره له حظه من الإثم(٢). وسمى النُّطق والنَّظر: زنًا؛ لأنهما من مقدماته، وحقيقته، إنما يقع بالفرج(٣).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "تفضل الله عَزَّوَجَلَّ على عباده بغفران اللمم إذا لم يكن للفرج تصديق بها، فإذا صدقها الفرج كان ذلك كبيرة"(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٦٢٤٣، ٦٦١٢]، مسلم [٢٦٥٧].

(٢) إكمال المعلم (٨/٧١).

(٣) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٣/١٥٧).

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/٢٣).

وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سمى هذه الأشياء باسم الزنا؛ لأنها مقدمات له، مؤذنة بوقوعه، ونسب التصديق والتكذيب إلى الفرج؛ لأنه منشؤه ومكانه، أي: يصدقه بالإتيان لما هو المراد منه، ويكذبه بالكف عنه والترك"(١).

ثانيًا: الوقاية من آفات الزنا والعلاج:

١ – المبادرة إلى الزواج:

وقد حثَّ الإسلام على الزواج، تحفيظًا للفرج، وللحفاظ على القيم الأخلاقية في المجتمع، ولوقاية أفراده من الانحراف والضياع، أو الخضوع لسلطان الهوى والرغبات الجامحة، ولتكثير نسل أمة محمد صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولإحصان الزوجين، وللاستجابة لحاجة النفس في حدود ما شرعه الله عَزَّ وَجَلَّ، ولإنجاب الذرية الصالحة، وتأسيس أسرة قائمة على ركائز من المحبة والمودة والرحمة. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [النور:٣٢].

وبين النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن الزواج من هديه وسنته في قوله للجماعة الذين التزم أحدهم أن يصوم فلا يفطر، والتزم ثانيهم أن يقوم فلا ينام، والتزم الثالث أن يعتزل النساء فلا يتزوج أبدًا: ((**أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**))(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمراد: من ترك طريقتي وأخذ بطريقة غيري فليس مني. ولمح بذلك إلى طريق الرهبانية، فإنهم الذين ابتدعوا التشديد كما وصفهم الله تعالى، وقد عابهم بأنهم ما وفوه بما التزموه. وطريقة النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الحنيفية السمحة، فيفطر؛

---

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) (٢/٥٣٩)، وانظر: فيض القدير
(٢) صحيح البخاري [٥٠٦٣].

ليتقوى على الصوم، وينام؛ ليتقوى على القيام، ويتزوج؛ لكسر الشهوة، وإعفاف النفس، وتكثير النسل"(١).

ويختلف حكم الزواج باختلاف الأحوال من حيث القدرة أو الحاجة. فيجب على من كان قادرًا، ويخشى إذا ترك الزواج أن يقع في الفاحشة، بخلاف من أمن الوقوع في الفاحشة، فإن الزواج بالنسبة له يكون مندوبًا أو مستحبًا. قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اختلف العلماء في هذا الأمر على ثلاثة أقوال، فقال علماؤنا: يختلف الحكم في ذلك باختلاف حال المؤمن من خوف العنت، ومن عدم صبره، ومن قوته على الصبر وزوال خشية العنت عنه. وإذا خاف الهلاك في الدين أو الدنيا أو فيهما فالنكاح حتم. وإن لم يخش شيئًا وكانت الحال مطلقة، فقال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: النكاح مباح. وقال مالك وأبو حنيفة رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ: هو مستحب. تعلق الشافعي بأنه قضاء لذة فكان مباحًا كالأكل والشرب. وتعلق علماؤنا بالحديث الصحيح: ((**من رغب عن سنتي فليس مني**))"(٢).

و"الزواج سنة الأنبياء والمرسلين عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ [الرعد:٣٨].

وهو سبيل المؤمنين؛ استجابة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَائِكُمْ إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٢-٣٣]. فهذا أمرٌ من الله -عز شأنه- للأولياء بإنكاح من تحت ولايتهم من الأيامى -جمع أيم- وهم من لا أزواج لهم من رجال ونساء، وهو من باب أولى أمر لهم بإنكاح أنفسهم؛ طلبًا للعفة، والصيانة من الفاحشة، واستجابة لأمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ فيما رواه ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنۡهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيۡهِ وَسَلَّمَ قال: ((**يا معشر الشباب: من استطاع منكم**

(١) فتح الباري (٩/ ١٠٥).

(٢) تفسير القرطبي (١٢/ ٢٣٩).

الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء))[١] متفق على صحته"[٢].

وفي الحديث: عن معقل بن يسار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: إني أصبت امرأة ذات حسب وجمال، وإنها لا تلد، أفأتزوجها؟ قال: ((**لا**))، ثم أتاه الثانية فنهاه، ثم أتاه الثالثة، فقال: ((**تزوجوا الودود الولود؛ فإني مكاثر بكم الأمم**))[٣].

وفي رواية: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمر بالباءة، وينهى عن التبتل نهيًا شديدًا، ويقول: ((**تزوجوا الودود الولود، إني مكاثر الأنبياء يوم القيامة**))[٤].

"والزواج تلبية لما في النوعين: الرجل والمرأة من غريزة النكاح -الغريزة الجنسية- بطريق نظيف مثمر.

---

(١) صحيح البخاري [١٩٠٥، ٥٠٦٥، ٥٠٦٦]، مسلم [١٤٠٠].

(٢) حراسة الفضيلة، بكر بن عبد الله أبو زيد (ص:٧٧).

(٣) أخرجه أبو داود [٢٠٥٠]، والنسائي في (السنن) [٣٢٢٧]، وفي (الكبرى) [٥٣٢٣]، وابن حبان [٤٠٥٦]، والطبراني [٥٠٨]، والحاكم [٢٦٨٥]، وقال "صحيح الإسناد" ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٦٢/٣)، والبيهقي [١٣٤٧٥].

(٤) أخرجه سعيد بن منصور في (السنن) [٤٩٠]، وأحمد [١٢٦١٣]، وابن حبان [٤٠٢٨]، والطبراني في (الأوسط) [٥٠٩٩]، والبيهقي [١٣٤٧٦]، والضياء [١٨٨٩]. قال الهيثمي (٢٥٢/٤): "رواه أحمد والطبراني في (الأوسط) من طريق حفص بن عمر عن أنس، وقد ذكره ابن أبي حاتم، وروى عنه جماعة، وبقية رجاله رجال الصحيح". وقال في موضع آخر (٢٥٨/٤): "وإسناده حسن". قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في (البلوغ) (٦٥/٢-٦٦): "رواه أحمد ، وصححه ابن حبان، وله شاهد: عند أبي داود، والنسائي، وابن حبان أيضًا من حديث معقل بن يسار".

ولهذه المعاني وغيرها لا يختلف المسلمون في مشروعية الزواج، وأن الأصل فيه الوجوب لمن خاف على نفسه العنت والوقوع في الفاحشة، ولا سيما مع رقة الدين، وكثرة المغريات، إذ العبد ملزم بإعفاف نفسه، وصرفها عن الحرام، وطريق ذلك: الزواج.

ولذا استحب العلماء للمتزوج أن ينوي بزواجه إصابة السنة، وصيانة دينه وعرضه، ولهذا نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن العَضْلِ، وهو: منع المرأة من الزواج، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَنْ يَنْكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ﴾ [البقرة:٢٣٢]"(١).

وأخرج ابن جرير عن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: التمسوا الغنى في النكاح، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ يَكُونُوا فُقَرَاءَ يُغْنِهِمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٢](٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**ثلاثة حق على الله عونهم: المجاهد في سبيل الله، والمكاتب الذي يريد الأداء، والناكح الذي يريد العفاف**))(٣).

إنَّ حفظ الفروج وما يستلزمه من غضِّ البصر، والعفَّة عن المحارم يؤدِّي إلى تماسك بنيان المجتمع، وسلامته من الأمراض الاجتماعيَّة الفتَّاكة كاختلاط الأنساب، والأمراض الصِّحِّيَّة المهلكة كمرض الإيدز وغيره. أما على المستوى الفرديِّ فإنَّ حفظ الفرج يجنِّب صاحبه ويلات الزّنا –وما أكثرها–.

---

(١) حراسة الفضيلة، بكر بن عبد الله أبو زيد (ص:٧٧- ٧٨).

(٢) تفسير الطبري (١٩/١٦٦).

(٣) أخرجه أحمد [٧٤١٦]، والترمذي [١٦٥٥]، وقال: "حسن". وأخرجه أيضًا: ابن ماجه [٢٥١٨]، والبزار [٨٥٠٠]، والنسائي [٣١٢٠]، وابن حبان [٤٠٣٠]، والحاكم [٢٨٥٩] وقال: "صحيح على شرط مسلم". ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: تمام [٦٥٢]، والبيهقي [١٣٤٥٦].

قال ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الزِّنا يجمع خلال الشَّرِّ كلها من قلَّة الدِّين، وذهاب الورع، وفساد المروءة، وقلِّة الغيرة، فلا تجد زانيًا معه ورع، ولا وفاء بعهد، ولا صدق في حديث، ولا محافظة على صديق؛ إذ الغدر، والكذب، والخيانة، وقلَّة الحياء، وعدم المراقبة، وعدم الأنفة للحرم، وذهاب الغيرة من شعبه وموجباته[1].

ومفهوم ذلك: أنَّ الذي يحافظ على فرجه يقي نفسه هذه الخلال السَّيِّئة ويتَّصف بأضدادها من كمال الدين والمروءة والغيرة والوفاء والمراقبة ونحوها مما يسعد المرء في الدنيا والآخرة"[2].

وقد ذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ خمس فوائد للنكاح على النحو التالي:

الفائدة الأولى: الولد وهو الأصل وله وضع النكاح، والمقصود إبقاء النسل، وأن لا يخلو العالم عن جنس الإنس.

الفائدة الثانية: التحصن من الشيطان، وكسر التوقان، ودفع غوائل الشهوة، وغض البصر، وحفظ الفرج.

الفائدة الثالثة: ترويح النفس وإيناسها بالمجالسة والنظر والملاعبة إراحة للقلب، وتقوية له على العبادة؛ فإن النفس ملول، وهي عن الحق نفور؛ لأنه على خلاف طبعها، فلو كلفت المداومة بالإكراه على ما يخالفها جمحت وثابت، وإذا روحت باللذات في بعض الأوقات قويت ونشطت. وفي الاستئناس بالنساء من الاستراحة ما يزيل الكرب، ويروح القلب، وينبغي أن يكون لنفوس المتقين استراحات بالمباحات؛ ولذلك قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف:١٨٩].

---

(١) روضة المحبين ونزهة المشتاقين (ص:٣٦٠).

(٢) نضرة النعيم (٥/١٦٥٤- ١٦٥٥) بتصرف يسير.

الفائدة الرابعة: تفريغ القلب عن تدبير المنزل، والتكفل بشغل الطبخ والكنس والفرش وتنظيف الأواني، وتهيئة أسباب المعيشة، فإن الإنسان لو لم يكن له شهوة الوقاع لتعذر عليه العيش في منزله وحده؛ إذ لو تكفل بجميع أشغال المنزل لضاع أكثر أوقاته ولم يتفرغ للعلم والعمل، فالمرأة الصالحة للمنزل عون على الدين بهذه الطريق.

الفائدة الخامسة: مجاهدة النفس ورياضتها بالرعاية والولاية، والقيام بحقوق الأهل، والصبر على أخلاقهن، واحتمال الأذى منهن، والسعي في إصلاحهن وإرشادهن إلى طريق الدين، والاجتهاد في كسب الحلال لأجلهن، والقيام بتربيته لأولاده، فكل هذه أعمال عظيمة الفضل؛ فإنها رعاية وولاية، والأهل والولد رعية، وفضل الرعاية عظيم، إنما يحترز منها من يحترز خيفة من القصور عن القيام بحقها"(١).

٢ - صبرُ وعِفَّةُ من لا يجد طولًا أن ينكح المحصنات إلى أن يغنيه الله عَزَّوَجَلَّ، والاستعانة بالصبر والصلاة والعمل:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلْيَسْتَعْفِفِ الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّى يُغْنِيَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾ [النور:٣٣].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٣].

وفي الحديث: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**يا معشر الشباب: من استطاع منكم الباءة فليتزوج؛ فإنه أغض للبصر، وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم، فإنه له وجاء**))(٢).

---

(١) انظر ذلك مفصلا في (إحياء علوم الدين) (٢/٢٤-٣٣).

(٢) تقدم.

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ندب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأمته النكاح؛ ليكونوا على كمال من أمر دينهم، وصيانة لأنفسهم في غض أبصارهم، وحفظ فروجهم لما يخشى على من زين الله عَزَّ وَجَلَّ في قلبه حب أعظم الشهوات، ثم [بين] عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ أن الناس كلهم لا يجدون طولًا إلى النساء، وربما خافوا العنت بفقد النكاح فعوضهم منه ما يدافعون به سورة شهواتهم، وهو الصيام. فإنه وجاء.

والوجاء: القطع، يعنى: أنه مقطعة للانتشار وحركة العروق التي تتحرك عند شهوة الجماع، وأصل الوجاء عند العرب: أن ترض البيضتان، يقال: وجأ فلان الكبش، وهو كبش موجوء، فإذا سلت البيضتان، فهو الخصي"[(١)].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واختلف العلماء في المراد بالباءة هنا على قولين يرجعان إلى معنى واحد:

أصحهما: أن المراد معناها اللغوي، وهو الجماع، فتقديره: من استطاع منكم الجماع؛ لقدرته على مؤنه، وهي مؤن النكاح فليتزوج، ومن لم يستطع الجماع؛ لعجزه عن مؤنه فعليه بالصوم؛ ليدفع شهوته، ويقطع شر منيه، كما يقطعه الوجاء. وعلى هذا القول وقع الخطاب مع الشبان الذين هم مظنة شهوة النساء، ولا ينفكون عنها غالبًا.

والقول الثاني: أن المراد هنا بالباءة: مؤن النكاح، سميت باسم ما يلازمها، وتقديره: من استطاع منكم مؤن النكاح فليتزوج، ومن لم يستطعها فليصم؛ ليدفع شهوته. والذي حمل القائلين بهذا على هذا أنهم قالوا: قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ومن لم يستطع فعليه بالصوم**))، قالوا: والعاجز عن الجماع لا يحتاج إلى الصوم لدفع الشهوة، فوجب تأويل الباءة على المؤن. وأجاب الأولون بأن تقدير الكلام: من لم يستطع الجماع؛ لعجزه عن مؤنه وهو محتاج إلى الجماع فعليه بالصوم -والله أعلم-.

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٤/٢٥- ٢٦).

وأما (الوجاء) فبكسر الواو وبالمد، وهو رض الخصيتين، والمراد هنا: أن الصوم يقطع الشهوة، ويقطع شر المني، كما يفعله الوجاء، وفي هذا الحديث: الأمر بالنكاح لمن استطاعه وتاقت إليه نفسه"[1].

وفي الحديث: ((**والصيام جُنَّة**))[2]، أي: حجاب وحصن للصائم من المعاصي في الدنيا، ومن النار في العقبى؛ لأنه يورث المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ.

٣ – أن يعلم الآثار المترتبة على اختيار ترك الزواج:

فمن تلك الآثار: إطلاق النظر فيما حرم الله عَزَّوَجَلَّ، وتشتت الفكر، والتعرض للفتنة، والانقطاع من الذرية والتي قد تكون عونًا له في دنياه، وذخرًا له في آخرته إذا أحسن التربية، وأمرهم بالمعروف، ونهاهم عن المنكر.

٤ – إعانة الفقراء على الزواج، وتيسير أمر المهور والصداق.

٥ – البعد عن الاختلاط في المدارس والجامعات وأماكن العمل، والتحذير من ذلك، وبيان مخاطره، والبعد عن التبرج:

ولا نعني بذلك أن المرأة لا يمكنها الخروج من البيت والدخول في المجتمع لأداء أعمالها، بل القصد المحافظة على كيان المرأة، وتنظيم علاقتها مع الرجل، من حيث تحريم المعاشرة غير الشرعية، وكذلك الاحتراز عن مقدمات الزنا، وعن السبل الممهدة له، من نحو الجلوس مع غير المحارم، وقضاء الأوقات، وتبادل الكلام لغير حاجة، فالحرية في هذا الباب تخلق الفساد وتزلزل كيان الأسرة.

والمجتمع الإسلامي يحظر كل ما من شأنه أن يكون ممهدًا للإثم والفساد والفواحش؛ فإنه يزلزل أركان الأسرة، ويرفع حاجز الحياء.

---

(١) شرح النووي على صحيح النووي (٩/ ١٧٣).

(٢) صحيح البخاري [١٩٠٤]، مسلم [١١٥١].

وعن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إياكم والدخول على النساء**)) فقال رجل من الأنصار: يا رسول الله، أفرأيت الحمو؟ قال: ((**الحمو الموت**))(١).

فسمى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخول قريب الرجل على امرأته وهو غير محرم لها باسم الموت، ولا شك أن تلك العبارة هي أبلغ عبارات التحذير والتغليظ(٢).

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "قوله: ((**إياكم والدخول**)) –بالنصب– على التحذير، وهو تنبيه المخاطب على محذور؛ ليحترز عنه كما قيل: (إياك والأسد). وقوله: (إياكم) مفعول بفعل مضمر تقديره: اتقوا، وتقدير الكلام: اتقوا أنفسكم أن تدخلوا على النساء، والنساء أن يدخلن عليكم. ووقع في رواية ابن وهب بلفظ: ((**لا تدخلوا على النساء**))، وتضمن منع الدخول منع الخلوة بها بطريق الأولى"(٣).

وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ [الأحزاب:٥٣].

قال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فتحذيره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هذا التحذير البالغ من دخول الرجال على النساء، وتعبيره عن دخول القريب على زوجة قريبه باسم الموت دليل صحيح نبوي على أن قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾ عام في جميع

---

(١) صحيح البخاري [٥٢٣٢]، مسلم [٢١٧٢].

(٢) قال الليث رَحِمَهُ اللَّهُ: الحمو أخو الزوج، وما أشبه من أقارب الزوج ابن العم ونحوهم. قال الإمام النووي: اتفق أهل اللغة على أن الأحماء أقارب زوج المرأة، كأبيه وعمه وأخيه وابن عمه ونحوهم. وشبه الحمو بالموت؛ لما يترتب على دخوله الذي لا ينكر، من الفتنة والهلاك في الدين فجعله كهلاك الموت، فورد الكلام مورد التغليط. قال الحافظ رَحِمَهُ اللَّهُ في (الفتح): والعرب تصف الشيء المكروه بالموت. انظر ذلك مفصلًا في (شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/١٥٤)، إحكام الإحكام شرح عمدة الأحكام (٢/١٨١)، فتح الباري، لابن حجر (٩/٣٣١).

(٣) فتح الباري (٩/٣٣١).

النساء -كما ترى-؛ إذ لو كان حكمه خاصًّا بأزواجه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما حذر الرجال هذا التحذير البالغ العام من الدخول على النساء. وظاهر الحديث: التحذير من الدخول عليهن ولو لم تحصل الخلوة بينهما، وهو كذلك، فالدخول عليهن والخلوة بهن كلاهما محرم تحريمًا شديدًا بانفراده، كما قدمنا أن مسلمًا رَحِمَهُ اللهُ أخرج هذا الحديث في باب: (تحريم الخلوة بالأجنبية والدخول عليها)، فدل على أن كليهما حرام. وتعليله تعالى لهذا الحكم الذي هو إيجاب الحجاب بكونه أطهر لقلوب الرجال والنساء من الريبة، في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ﴾ قرينة واضحة على إرادة تعميم الحكم"(١).

وعن أنس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: ((**قلت: يا رسول الله، يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب**))(٢).

وفي الصحيح: عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنه: سمع النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**لا يخلون رجل بامرأة، ولا تسافرن امرأة إلا ومعها محرم**))(٣).

وعن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا قالت: ((**يرحم الله نساء المهاجرات الأُوَل، لما أنزل الله تعالى**: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾ [النور:٣١] **شَقَّقْنَ مُرُوطَهُنَّ فَاخْتَمَرْنَ بها**))(٤).

---

(١) أضواء البيان (٢٤٢/٦) بتصرف واختصار.

(٢) صحيح البخاري [٤٤٨٣، ٤٧٩٠].

(٣) صحيح البخاري [٣٠٠٦، ٥٢٣٣]، مسلم [١٣٤١].

(٤) صحيح البخاري [٤٧٥٨]. قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ﴾، أي يسترن الرؤوس والأعناق والصدور. و(الخمر) جمع خمار وهو غطاء الرأس. و(الجيوب) جمع جيب، وهو شق الثوب من ناحية الرأس والمراد ما يظهر منه. و(مرطوهن) جمع مِرْطٍ وهو الإزار والإزار هو الملاءة. قال الحافظ رَحِمَهُ اللهُ: "(فاختمرن) أي: غطين وجوههن. وصفة ذلك: أن تضع الخمار على رأسها وترميه من الجانب الأيمن على العاتق الأيسر، وهو التقنع. قال الفراء رَحِمَهُ اللهُ: كانوا في الجاهلية تسدل المرأة خمارها من ورائها وتكشف ما قدامها فأمرن بالاستتار" فتح الباري (٤٩٠/٨).

وفي لفظ: ((**أَخَذْنَ أُزْرَهُنَّ فَشَقَّقْنَهَا من قِبَلِ الحَوَاشِي فَاخْتَمَرْنَ بها**))(١).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ﴾ [الأحزاب:٥٩].

وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ﴾. الجلباب: الرداء، أو القناع، أو كل ثوب تلبسه المرأة فوق ثيابها. وإدناؤه: أن تشد به رأسها وتلقيه فوق خمارها حتى لا ترى ثغرة نحرها، أو تغطي به وجهها(٢).

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(الجلباب): ثوب واسع أوسع من الخمار ودون الرداء، تلويه المرأة على رأسها وتبقي منه ما ترسله على صدرها. وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: الرداء الذي يستر من فوق إلى أسفل. وقيل: الملحفة وكل ما يستتر به من كساء أو غيره"(٣).

ويتبين مما تقدم أن الحجاب إنما يتحقق بأحد أمرين:

الأول: ملازمة البيوت:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّسَاءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِى فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ وَآتِينَ الزَّكَاةَ وَأَطِعْنَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الأحزاب:٣٢-٣٣].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذه آداب أمر الله عَزَّوَجَلَّ بها نساء النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونساء الأمة تبع لهن في ذلك"(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٤٧٥٩].

(٢) انظر: تفسير العز بن عبد السلام (٢/٥٩٠)، تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٤/٤٢٣- ٤٢٤).

(٣) الكشاف (٣/٥٥٩- ٥٦٠).

(٤) تفسير ابن كثير (٦/ ٤٠٩).

والثاني: الحجاب باللباس عند الخروج لضرورة أو حاجة:

فمن أسباب الوقاية من دواعي الزنا: عدم خروج النساء كاسيات عاريات مُمِيلَاتٌ مائلات، رؤوسهن كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ المائلة، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**صنفان من أهل النار لم أرهما، قوم معهم سياط كأذناب البقر يضربون بها الناس، ونساء كاسيات عاريات مُمِيلَاتٌ مائلات، رءوسهن كَأَسْنِمَةِ الْبُخْتِ المائلة، لا يدخلن الجنة، ولا يجدن ريحها، وإن ريحها ليوجد من مسيرة كذا وكذا**))(١).

ومعنى: (كاسيات)، أي: من نعمة الله عَزَّوَجَلَّ عاريات من شكرها.

وقيل: معناه: تستر بعض بدنها وتكشف بعضه؛ إظهارًا لجمالها ونحوه.

وقيل: تلبس ثوبًا رقيقًا يصف لون بدنها، وهو المختار.

ومعنى: (مائلات) [أي:] عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وما يلزمهن حفظه.

(مميلات) أي: يعلمن غيرهن فعلهن المذموم.

وقيل: يمشين متبخترات مميلات لأكتافهن.

وقيل: مائلات يتمشطن المشطة الميلاء(٢)، وهي مشطة البغايا.

و(مميلات) يمشطن غيرهن تلك المشطة.

ومعنى: رؤوسهن كأسنمة البخت، أي: يكبرنها ويعظمنها بلف عمامة أو نحوها -والله أعلم-"(٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢١٢٨].

(٢) المشطة الميلاء هي: مشطة معروفة عندهم، كأنهن يملن فيها العقاص. انظر: الفائق في غريب الحديث والأثر، للزمخشري (٣/ ٢٦٠). و(العقاص) خيط تشد به أطراف الذوائب، جمع عقص.

(٣) المجموع شرح المهذب (٤/٤٧٠- ٤٧١)، وانظر: شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/١١٠).

٥ – البعد عن تشبه الرجال بالنساء، والنساء بالرجال:

وسيأتي بيان ذلك مفصلًا في (التحذير من تغيير خلق الله عَزَّوَجَلَّ).

٦- غض البصر:

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ﴾ [النور:٣٠].

وهذا أمر من الله جَلَّوَعَلَا لعباده المؤمنين أن يغضوا من أبصارهم عما حرم عليهم، فلا ينظروا إلا إلى ما أباح لهم النظر إليه، وأن يغضوا أبصارهم عن المحارم، فإن اتفق أن وقع البصر على محرم من غير قصد، فليصرف بصره عنه سريعًا، كما روى مسلم في (صحيحه)، من حديث: جرير بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: ((**سألت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن نظر الفجاءة فأمرني أن أصرف بصري**))(١).

وعن ابن بريدة، عن أبيه، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لعلي رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: ((**يا علي لا تتبع النظرة النظرة، فإن لك الأولى وليست لك الآخرة**))(٢).

وفي (الصحيح): عن أبي سعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**إياكم والجلوس بالطرقات**))، فقالوا: يا رسول الله، ما لنا من مجالسنا بد نتحدث فيها، فقال: ((**إذا أبيتم إلا المجلس، فأعطوا الطريق حقه**))، قالوا: وما حق الطريق يا رسول الله؟ قال: ((**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر**))(٣).

---

(١) صحيح مسلم [٢١٥٩]. بتصرف عن (تفسير ابن كثير) (٦/ ٤١).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [١٧٢١٨]، وأحمد [٢٢٩٧٤]، وأبو داود [٢١٤٩]، والترمذي [٢٧٧٧]، والروياني [٢٢]، والحاكم [٢٧٨٨]، وقال: "صحيح على شرط مسلم". ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٣٥١٥].

(٣) صحيح البخاري [٢٤٦٥، ٦٢٢٩]، مسلم [٢١٢١، ٢١٦١].

ولما كان النظر داعية إلى فساد القلب، كما قال بعض السلف: النَّظَرُ سهم سُمٍّ إلى القلب؛ ولذلك أمر الله عَزَّوَجَلَّ بحفظ الفروج كما أمر بحفظ الأبصار التي هي بواعث إلى ذلك، فقال: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور:٣٠]. وحفظ الفرج تارة يكون بمنعه من الزنى، كما قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝﴾ [المؤمنون:٥- ٦]، وتارة يكون بحفظه من النظر إليه، كما جاء في الحديث: ((**احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك**))(١). ﴿ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ﴾، أي: أطهر لقلوبهم، وأنقى لدينهم، كما قيل: من حفظ بصره، أورثه الله نورًا في بصيرته أو في قلبه(٢).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والنظر أصل عامة الحوادث التي تصيب الإنسان، فالنظرة تولد خطرة، ثم تولد الخطرة فكرة، ثم تولد الفكرة شهوة، ثم تولد الشهوة إرادة، ثم تقوى فتصير عزيمة جازمة، فيقع الفعل ولا بد، ما لم يمنع منه مانع. وفي هذا قيل: الصبر على غض البصر أيسر من الصبر على ألم ما بعده(٣).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والنظرة تفعل في القلب ما يفعل السهم في الرَّمِيَّة، فإن لم تقتله جرحته، وهي بمنزلة الشرارة من النار ترمى في الحشيش اليابس، فإن لم تحرقه كله أحرقت بعضه، كما قيل:

كل الحــوادث مبداها من النَّــظر ... ومعظم النار من مستصغر الشرر
كم نظرة فتكت في قلب صاحبها ... فتك السهام بلا قوس ولا وتر(٤)

---

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) بتصرف عن (تفسير ابن كثير) (٦/ ٤٢- ٤٣).

(٣) الجواب الكافي (ص:١٥٣).

(٤) روضة المحبين (ص:٩٧).

والنظر بشهوة إلى ما حرم الله عَزَّوَجَلَّ من الصغائر التي تفضي إلى الكبائر.

ويدخل فيه: النظر المباشر، والعكوف أمام شاشات التلفاز أو المواقع التي سفك فيها دمُ الحياء، ووئدتْ فيها الفضيلةُ..

فهل أنتجت مشاهدُ الإثارة ولقطات التَّهييج وصورُ العريِّ إلا خرق سياج العفَّة والشَّرف؟ وشيوع الجريمة الأخلاقيَّة؟ وفقدان الأمن وانتشار الاعتداءات المروِّعة؟ وهل يحمل الإلحاح الغريزيُّ الجامح، والسُّعَار الجنسيُّ الهائج إلَّا على السَّفَه والخفَّة وركوب الشرِّ؟ وما عساه يُجنَى من أفلامٍ ومجلاتٍ وقصصٍ وروايَاتٍ وأطباقٍ وقنواتٍ ومواقعَ جعلت الإثارةَ إحدى ركائزها، وتأجيجَ الغرائزِ أساس قيامها، ومحاربة العفَّة والطَّهارة من أولويات أهدافها؟! فأيُّ خطر يهدد القيم الأخلاقية أعظم من هذا؟! فما الذي يردع تلك الشرائح التي لا تقلد الغرب إلا في هذا، ويعدون ذلك من التقدم والحرية؟! فما يزيدهم ذلك إلَّا انحرافًا وتخلفًا. وليتهم نظروا إلى مواضع الخلل، وأحسنوا الاقتداء بالآخرين بما ينفعهم في دنياهم.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الله عَزَّوَجَلَّ يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام"[(١)].

وفضول النظر هو إطلاق النظر إلى الشيء بملء العين، والنظر إلى ما لا يحل النظر إليه، وهو على العكس من غض البصر.

قال بعض الحكماء: ترك فضول الكلام يثمر النطق بالحكمة، وترك فضول النظر يثمر الخشوع والخشية، وترك فضول الطعام يثمر حلاوة العبادة، وترك الضحك يثمر حلاوة لهيبة، وترك الرغبة في الحرام يثمر المحبة.."[(٢)].

---

(١) إحياء علوم الدين (٣٩٥/٤).

(٢) بحر الدموع، لابن الجوزي (ص:١٢٦).

وقال أبو نعيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان داود الطائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يشرب الفتيت(١)، ولا يأكل الخبز.

وقال: بين مضغ الخبز وشرب الفتيت قراءة خمسين آية.

ودخل إليه يومًا رجل فقال: إن في سقف بيتك جذعًا قد انكسر، فقال: يا ابن أخي، إني في هذا البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف. وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون فضول الكلام(٢).

وقد جاء التحذير الشديد من جميع أسباب الزنا ومقدماته، كالنظر إلى المرأة الأجنبية، والحديث إليها، وسماع حديثها، ولمسها بشهوة؛ فإن ذلك محرَّم -وإن كان من الصغائر-، وقد سماه النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: زنًا؛ تنبيهًا على خطورته؛ لأنه يؤدي إلى الزنا، ويسوق إليه(٣).

وقد حذرنا النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الاستهانة بصغائر الذنوب، فقال: ((**إياكم ومُحقَّرات الذنوب؛ فإنما مثل محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بطن واد، فجاء ذا**

---

(١) الفتيت: كل ما هو مفتوت، والشيء يسقط فيتقطَّع ويتفتَّت. وفَتَّ الخبز: كسَّرَهُ قطعًا صغيرة.

(٢) انظر: إحياء علوم الدين (٤/٤٠٩)، التوابين، لابن قدامة (ص:١٢٦)، المجالسة وجواهر العلم (١/ ٣٤٦).

(٣) انظر: منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري، حمزة محمد قاسم (٥/٢٦١). جاء في الحديث: ((إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنا، أدرك ذلك لا محالة، فزنا العين النظر، وزنا اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك كله ويكذبه)). صحيح البخاري [٦٢٤٣، ٦٦١٢]، مسلم [٢٦٥٧]. ((حظه)) أي: نصيبه. ((أدرك ذلك لا محالة)) لا حيلة له ولا خلاص من الوقوع فيما كتب عليه وقدر له. وقوله: ((فزنا العين النظر)) يعني: إلى العورات والنساء الأجنبيات. ((وزنا اللسان المنطق)) يعني: النطق بالفحش وما يتعلق بالفجور. ((والنفس تمنى)) تسول لصاحبها وتحركه. ((والفرج)) الذي هو آلة الزنا الحقيقي. ((يصدق ذلك)) بفعل ما تمنته النفس. ((ويكذبه)) بالترك والبعد عن الفواحش ومقدماتها.

بعود وجاء ذا بعود، ثم حملوا ما أنضجوا به خبزهم، وإن مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ متى يُؤْخَذْ بها صَاحِبُهَا تُهْلِكْه))(١).

فقوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إياكم ومُحَقَّرات الذنوب**))، "أي: صغائرها؛ لأن صغارها أسباب تؤدي إلى ارتكاب كبارها، كما أن صغار الطاعات أسباب مؤدية إلى تحري كبارها"(٢). فالصغائر إذا اجتمعت ولم تُكَفَّر - بأن لم يوجد لها مكفرًا- أهلكت؛ لمصيرها كبائر بالإصرار"(٣).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللهُ: "صغائر المعاصي يجر بعضها إلى بعض حتى تفوت أهل السعادة بهدم أصل الإيمان عند الخاتمة"(٤).

---

(١) الحديث مروي عن سهل بن سعد، وعن عبد الله بن مسعود بألفاظ متقاربة. حديث سهل: أخرجه أحمد [٢٢٨٠٨]، والروياني [١٠٦٥]، والطبراني في (الكبير) [٥٨٧٢]، و(الأوسط) [٧٣٢٣]، و(الصغير) [٩٠٤]، والرامهرمزي في (أمثال الحديث) (ص:١٠٥)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٨٨١]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللهُ: (١٩٠/١٠): "رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح، ورواه الطبراني في الثلاثة من طريقين، ورجال إحداهما رجال الصحيح غير عبد الوهاب بن عبد الحكم وهو ثقة". حديث ابن مسعود: أخرجه الطيالسي [٤٠٠]، وأحمد [٣٨١٨]، والطبراني في (الكبير) [١٠٥٠٠]، وفي (الأوسط) [٢٥٢٩]، وأبو الشيخ [٣١٩]، والبيهقي في (الكبرى) [٢٠٧٦٢]، و(شعب الإيمان) [٢٨١]. وقال المناوي رَحِمَهُ اللهُ: "قال الحافظ العراقي: إسناده جيد، وقال العلائي: حديث جيد على شرط الشيخين". فيض القدير (١٢٨/٣)، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللهُ (١٨٩/١٠): "رواه أحمد، والطبراني في الأوسط، ورجالهما رجال الصحيح غير عمران بن داود القطان، وقد وثق". وقال ابن حجر رَحِمَهُ اللهُ: التعبير بالمحقرات وقع في حديث سهل بن سعد رفعه. وقد أخرجه أحمد بسند حسن، ونحوه عند أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود. وعند النسائي وابن ماجه عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال لها: ((يا عائشة إياك ومحقرات الذنوب؛ فإن لها من الله طالبًا)). وصححه ابن حبان" فتح الباري، لابن حجر (٣٢٩/١١).

(٢) فيض القدير (٣/ ١٢٧)

(٣) التيسير بشرح الجامع الصغير (٤٠٥/١).

(٤) إحياء علوم الدين (٦٠/٣).

وفي (الصحيح): عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**إنكم لتعملون أعمالًا، هي أدَقُّ في أعيُنِكُم من الشَّعَر، إن كنَّا لنعدُّها على عهد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الموبقات**)). قال أبو عبد الله: "يعني بذلك: المهلكات"[1].

وقد قيل:

خَلِّ الذُّنوب صغيرها ... وكبيرها ذاك التقى

واصنع كماشٍ فوق أر ... ض الشَّوك يحذر ما يرى

لا تَحْقِرَنَّ صغيرة ... إنَّ الجبال من الحصا[2]

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللَّهُ: "كثيرٌ من الناس يتسامحون في أمور يظنونها قريبة، كإطلاق البصر؛ هوانًا بتلك الخطيئة، وكفتوى من لا يعلم؛ لئلَّا يقال: هو جاهل، ونحو ذلك مما يظنه صغيرًا، وهو عظيم"[3].

٧ - تجنب الأخطار التي تهدد الأسرة، وقد أفردتها في مصنف مستقل.

٨ - مجاهدة النفس والشيطان والهوى:

---

(١) صحيح البخاري [٦٤٩٢].

(٢) انظر: الكشف والبيان (١٤٢/١)، تفسير القرطبي (١٦٢/١)، تفسير ابن كثير (١٦٤/١)، غرائب القرآن (١٣٨/١- ١٣٩)، جامع العلوم والحكم (٤٠٢/١)، التبصرة، لابن الجوزي (ص:٣٤١).

(٣) صيد الخاطر (ص:١٤٩) بتصرف. وقد حدَّث النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذنوبٍ يظنُّ البعض أنها هينة، ولكنها ليست كذلك، فقد مَرَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحائط من حيطان المدينة، أو مكة، فسمع صوت إنسانين يعذبان في قبورهما، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((يعذبان، وما يعذبان في كبير))، ثم قال: ((بلى، كان أحدهما لا يستتر من بوله، وكان الآخر يمشي بالنميمة)) صحيح البخاري [٢١٦، ٢١٨، ١٣٦١، ٦٠٥٢، ٦٠٥٥]، مسلم [٢٩٢]. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((وما يعذبان في كبير)) ذكر العلماء فيه تأويلين أحدهما: أنه ليس بكبير في زعمهما، والثاني: أنه ليس بكبير تركه عليهما. وحكى القاضي عياض رَحِمَهُ اللَّهُ تأويلًا ثالثًا، أي: ليس بأكبر الكبائر. شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٢٠١/٣)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (٦٤/٢).

وقد حذَّرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من اتباع الهوى، وأوضح أنه من المضلات عن الهداية، حيث قال: ((**إن مما أخشى عليكم: شهوات الغَيِّ في بطونكم وفروجكم، ومضلات الهوى**))(١).

وفي رواية: ((**ومضلات الفتن**))(٢).

وفي المقابل فإنَّ مخالفة الهوى سبيل الفلاح كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝٤٠ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى ۝٤١﴾ [النازعات:٤٠-٤١].

٩ - اختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة:

إن اختيار الزوج الصالح والزوجة الصالحة من أهم أسباب العفة والوقاية من آفات الشرود والاضطراب النفسي.

وفي المقابل فإن سوء الاختيار له من الآثار والنتائج ما يهدد الأمن الأسري؛ لأن بناء الأسرة لم يكن على أساس قوي وسليم كما حسن الاختيار قبل الزواج من الضمانات لاستمرار حياة زوجية قائمة على المودة والرحمة.

ويلاحظ أن التشريعات الإسلامية تتناغم مع العقل والعاطفة؛ حيث تبرز مقومات الاختيار، وفي الوقت نفسه لا تلغي دور العاطفة.

فمن المقومات: أن تكون المرأة من أهل الاحتشام والعفة، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ

---

(١) أخرجه أحمد [١٩٧٧٣]، والبزار [٣٨٤٤]، والطبراني في (الصغير) [٥١١]. قال المنذري (١٠١/٣): "بعض أسانيدهم رجاله ثقات". وقال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٨٨/١): "رجاله رجال الصحيح؛ لأن أبا الحكم البناني الراوي عن أبي برزة بينه الطبراني فقال: عن أبي الحكم هو الحارث بن الحكم، وقد روى له البخاري وأصحاب السنن". كما أخرجه أبو نعيم في (الحلية) (٣٢/٢)، والبيهقي في (الزهد الكبير) [٣٧١].

(٢) أخرجه أحمد [١٩٧٧٢]. قال الهيثمي (٧/ ٣٠٥-٣٠٦): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح".

وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَافِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِي أَخْدَانٍ﴾ [المائدة:٥].

ومن علامات عفة المرأة: الحجاب والاستقامة في السلوك، والمنبت الطيب، فلا يعرف عنها -مثلًا- تبرج، ولا تردد على أماكن الشبهات.

وأن يمنعها حياؤها عن إبراز مفاتن جسدها؛ لما جاء في الحديث: ((**خير نسائكم: الودود، الولود، المواتية، المواسية، إذا اتقين الله، وشر نسائكم: المتبرجات، المتخيلات، وهن المنافقات لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم**))(١).

ومن المقومات: ما جاء في الحديث: ((**تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبها وجمالها ولدينها، فاظفر بذات الدين، تربت يداك**))(٢).

ويقال في الرجل كذلك ما يقال في المرأة من اعتبار كونه من أهل الاحتشام والعفة. فقد جاء في الحديث: ((**إذا أتاكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير**))(٣).

---

(١) أخرجه البيهقي [١٣٤٧٨] عن أبي أذينة الصدفي. قال البيهقي: وروى بإسناد صحيح عن سليمان بن يسار عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرسلًا إلى قوله: ((إذا اتقين الله)). قال الحافظ ابن حجر: "أبو أذينة: قال البغوي: من أهل مصر، روى عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حديثًا، ولا أدري له صحبة أم لا؟ وقال ابن السكن: أبو أذينة الصدفي له صحبة، وحديثه في أهل مصر" الإصابة في تمييز الصحابة (٧/٧). ولطرفه الأول شواهد، وطرفه الأخير له شاهد صحيح. انظر: الصحيحة [١٨٤٩]. قوله: ((المواسية المواتية)) أي: الموافقة للزوج. و((المتخيلات)) أي: المعجبات المتكبرات، و(الخيلاء) بالضم: العجب والتكبر. ((وهن المنافقات)) أي: يشبههن. ((لا يدخل الجنة منهن إلا مثل الغراب الأعصم)) الأبيض الجناحين أو الرجلين أراد قلة من يدخل الجنة منهن؛ لأن هذا الوصف في الغراب عزيز. انظر: فيض القدير (٣/٤٩٢).

(٢) صحيح البخاري [٥٠٩٠]، مسلم [١٤٦٦].

(٣) أخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة [١٠٨٤] ورجح إرساله. ثم أخرجه من حديث أبي حاتم المزني [١٠٨٥] وحسنه.

فنلاحظ اعتبار مقومات الاختيار؛ لتبنى الأسرة بناء سليمًا معافى، وإن كانت هذه المقومات تتفاوت، ويبرز الأهم منها في ذات الدين، صاحبة الخلق.

وهو ما يعني أن الإنسان لا ينبغي أن ينساق وراء عاطفته انسياقًا لا يبصره بالعيوب، وفي الوقت نفسه فإن مما يهدد الأمن الأسري أن يلغي دور العاطفة تمامًا، ففي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: كنت عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأتاه رجل فأخبره أنه تزوج امرأة من الأنصار، فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أنظرت إليها؟**))، قال: لا، قال: ((**فاذهب فانظر إليها، فإن في أعين الأنصار شيئًا**))[1].

١٠ - الاستئذان قبل الدخول في البيوت، وتعليم الأولاد الآداب العامة للاستئذان.

١١ - حكمة الداعية في تنفيره من الزنا وترغيبه في العفة:

ينبغي على كل داعية أن يكون حكيمًا في دعوته ليِّنًا متفهمًا ناصحًا ومرشدًا، وله في رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أسوة حسنة، فقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يتعامل مع العصاة برفق ولين، وكان شديد الشفقة على الخلق أجمعين، حريصًا على هدايتهم إلى الصراط المستقيم، حتى خاطبه ربه جَلَّ وَعَلَا بقوله: ﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ [الكهف:٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء:٣]. قال الزمخشري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "والمراد: بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها؛ رجاء إيمانهم"[2].

ومن الصور المشرقة من سياسة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحكمته في الدعوة في هذا الباب: ما جاء في الحديث: عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: إن فَتًى شَابًّا أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، ائْذَنْ لي بالزنا، فأقبل القوم عليه فزجروه وقالوا: مَهْ. مَهْ.

---

(١) صحيح مسلم [١٤٢٤].

(٢) الكشاف (١٩/٢).

فقال: ((**ادْنُهْ**))، فدنا منه قريبًا، قال: فجلس قال: ((**أتحبه لأمك؟**))، قال: لا والله -جعلني الله فداءك-، قال: ((**ولا الناس يحبونه لأمهاتهم**))، قال: ((**أفتحبه لابنتك؟**))، قال: لا والله يا رسول الله -جعلني الله فداءك-، قال: ((**ولا الناس يحبونه لبناتهم**))، قال: ((**أفتحبه لأختك؟**))، قال: لا والله -جعلني الله فداءك-، قال: ((**ولا الناس يحبونه لأخواتهم**))، قال: ((**أفتحبه لعمتك؟**)) قال: لا -والله جعلني الله فداءك- قال: ((**ولا الناس يحبونه لعماتهم**))، قال: ((**أفتحبه لخالتك؟**))، قال: لا -والله جعلني الله فداءك-، قال: ((**ولا الناس يحبونه لخالاتهم**))، قال: فوضع يده عليه وقال: ((**اللهم اغفر ذنبه، وطهر قلبه، وحصن فرجه**))، قال: فلم يكن بعد ذلك الفتى يلتفت إلى شيء[(١)].

ومن الحكمة: التنفير من الزنا من خلال بيان قبح هذا الفعل، وعاقبته وآثاره في الدنيا والآخرة.

١٢ - مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في السِّر والعلن والحياء منه جَلَّوَعَلَا:

جاء في الحديث: عن بهز بن حكيم قال: حدثني أبي، عن جدي، قال: قلت: يا رسول الله عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟ قال: ((**احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك**))، فقال: الرجل يكون مع الرجل؟ قال: ((**إن استطعت أن لا يراها أحد فافعل**))، قلت: والرجل يكون خاليا، قال: ((**فالله أحق أن يستحيا منه**))[(٢)].

---

(١) أخرجه أحمد [٢٢٢١١]، والطبراني في (الكبير) [٧٦٧٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٥٠٣٢]. قال الهيثمي (١٢٩/١): "رواه أحمد والطبراني في (الكبير)، ورجاله رجال الصحيح". وقال العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص:٨١٢): "رواه أحمد بإسناد جيد رجاله رجال الصحيح".

(٢) أخرجه عبد الرزاق [١١٠٦]، وأحمد [٢٠٠٣٤]، وابن ماجه [١٩٢٠]، وأبو داود [٤٠١٧]، والترمذي [٢٧٦٩] وقال: "حديث حسن"، وأخرجه أيضًا: الطبراني [٩٩٢]، والحاكم [٧٣٥٨]، وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. كما أخرجه: البيهقي [٩٦٠].

١٣ – النأي بالأهل والأولاد عن أماكن الشبهات، والرقابة الحكيمة التي لا تورث نفورًا من التكليف، بل ما تجعله محبوبًا، وقد جاء بيان ذلك في غير موضع.

١٤ – الحرص على بيئة صالحة ينشأ فيها الأولاد، وقد بينت ذلك في غير موضع.

١٥ – مكافحة جريمة الزنا من خلال التبصير والتنوير، وتطبيق حدود الله عَزَّوَجَلَّ، وعدم التساهل والتهاون فيها:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ۝٢ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ۝٣﴾ [النور:٢-٣].

١٦ – وضع قوانين وضوابط للإعلام تكافح الرذيلة، وتحظر الفساد الأخلاقي، والإعلام الوافد الذي يعمل في دأب على هدم القيم الأخلاقية، ومراقبة الكتب والمجلات والإذاعة والتلفزيون وجميع وسائل الإعلام ومنع الأشياء الضارة فيها مما يهيج الغرائز، ويثير الشهوات.

١٧ – البعد عن الأماكن التي ينتشر فيها الفجور، من نحو أماكن اللهو والطرب والأماكن التي ينتشر فيها التعري، وشرب الخمر إلى غير ذلك من المعاصي التي تخرق سياج الفضيلة.

١٨ – تقوية الرادع الإيماني في نفوس الأولاد من أول النشأة من خلال الترغيب والترهيب والوعظ والإرشاد.

١٩ – حضور مجالس العلماء الربانيين، والاستماع إلى المواعظ التي ترغب في الآخرة، والتفقه في الدين.

٢٠ – زيارة المقابر، وتذكر الموت، والدار الآخرة.

٢١- العمل على منع الاختلاط في أماكن العمل والمدارس والمعاهد والجامعات.

٢٢ – البعد عن صحبة الفساق، وملازمة أهل الصلاح والتقوى.

٢٣ - منع التحرش الجنسي بالوسائل الرادعة.

٢٤ - الأخذ بأسباب إضعاف الشهوة عند العزاب كالصيام وسائر العبادات.

المبحث الثالث عشر
الربا

أولًا: الربا من الكبائر المتوعد عليها بالعقاب:

جاء الإنفاق في القرآن في مقابل الربا وذلك أن الإنفاق إعانة للمحتاج، أما الربا فهي استغلال لحاجته؛ لأكل ماله؛ فلذلك فهي ضد الإنفاق والصدقة. ومن ثم لم يرد الربا في القرآن الكريم إلا ذم وقبح، ومدحت في المقابل الزكاة والصدقة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِنْ رِبًا لِيَرْبُوَ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ فَلَا يَرْبُو عِنْدَ اللَّهِ وَمَا آتَيْتُمْ مِنْ زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ﴾ [الروم:٣٩].

"ومن الربا ما أجمع المسلمون على منعه، ولم يخالف فيه أحد، وذلك كربا الجاهلية، وهو أن يزيده في الأجل على أن يزيده الآخر في قدر الدين، وربا النَّسَاءِ بين الذهب والذهب، والفضة والفضة، وبين الذهب والفضة، وبين الْبُرِّ وَالْبُرِّ، وبين الشعير والشعير، وبين التمر والتمر، وبين الملح والملح، وكذلك بين هذه الأربعة بعضها مع بعض.

وكذلك حكى غير واحد الإجماع على تحريم ربا الفضل، بين كل واحد من الستة المذكورة فلا يجوز الفضل بين الذهب والذهب، ولا بين الفضة والفضة، ولا بين الْبُرِّ وَالْبُرِّ،

ولا بين الشعير والشعير، ولا بين التمر والتمر، ولا بين الملح والملح، ولو يدا بيد. والحق الذي لا شك فيه منع ربا الفضل في النوع الواحد من الأصناف الستة المذكورة.."[1].

وقد جاء في الحديث: عبد الرحمن بن أبي بكرة، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**نهى رسول الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عن الفضة بالفضة، والذهب بالذهب، إلا سواء بسواء، وأمرنا أن نشتري الفضة بالذهب كيف شئنا، ونشتري الذهب بالفضة كيف شئنا**))، قال: فسأله رجل، فقال: يدًا بيد؟ فقال: ((**هكذا سمعت**))[2].

وفي رواية: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((الذَّهَبُ بالذَّهَب، والْفِضَّة بالْفِضَّة، والْبُرُّ بالْبُرِّ، والشَّعِير بالشَّعِير، والتَّمْر بالتَّمْر، والملح بالملح، مِثْلًا بِمِثْلٍ، يدًا بيد، فمن زاد، أو استزاد، فقد أَرْبَى، الآخذُ والمعطِي فيه سواء))**[3].

وعن عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((الذَّهَبُ بالذَّهَب، والفِضَّة بالفِضَّة، والْبُرُّ بالْبُرِّ، والشَّعِير بالشَّعِير، والتَّمْر بالتَّمْر، والْمِلح بالملح، مِثْلًا بِمِثْلٍ، سواءً بسواءٍ، يدًا بيد، فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم، إذا كان يدًا بيد))**[4].

---

(١) أضواء البيان (١/١٦٠). وانظر بيان الحكمة من تحريم الربا في هذه الأصناف في (إعلام الموقعين)، لابن القيم (٢/١٠٧).

(٢) صحيح البخاري [٢١٧٥، ٢١٨٢]، مسلم [١٥٩٠].

(٣) صحيح مسلم [١٥٨٤].

(٤) صحيح مسلم [١٥٨٧].

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لا تبيعوا الذهب بالذهب إلا مِثْلًا بِمِثْلٍ، ولا تُشِفُّوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا الوَرِقَ بِالوَرِقِ إلا مِثْلًا بِمِثْلٍ، ولا تُشِفُّوا بعضها على بعض، ولا تبيعوا منها غائبا بِنَاجِزٍ**))(١).

قوله: ((**ولا تُشِفُّوا**)) قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هو بضم التاء وكسر الشين المعجمة وتشديد الفاء، أي: لا تفضلوا، والشِّفُّ: -بكسر الشين-: الزيادة، ويطلق أيضًا على: النقصان، فهو من الأضداد. يقال: شَفَّ الدرهم -بفتح الشين- يَشِفُّ -بكسرها- إذا زاد وإذا نقص، وأشَفَّهُ غيرُهُ يَشِفُّه.

قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ولا تبيعوا منها غائبًا بناجز**)) المراد بالناجز: الحاضر، وبالغائب: المؤجل.

وقد أجمع العلماء على تحريم بيع الذهب بالذهب أو بالفضة مؤجلًا، وكذلك الحنطة بالحنطة، أو بالشعير(٢)، وكذلك كل شيئين اشتركا في علَّة الربا"(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٢١٧٧]، مسلم [١٥٨٤].

(٢) قال ابن هبيرة رَحِمَهُ اللَّهُ: "واتفقوا على أنه لا يجوز بيع الجيد بالرديء من جنس واحد مما يجزي فيه الربا إلا مثلا بمثل سواء بسواء. واتفقوا على أنه يجوز بيع الحنطة بالشعير، والعسل بالزيت، متفاضلًا، يدًا بيد، وأنه لا يجوز نساء. واتفقوا على أن بيع الحنطة بالذهب والفضة جائز نساء. واتفقوا على أنه لا يجوز بيع التمر بالملح، والملح بالتمر نساء على الإطلاق. واختلفوا في الحنطة والشعير هل هما جنس واحد أو جنسان؟ فقال أبو حنيفة وأحمد -في أظهر روايتيه- والشافعي: إنهما جنسان يجوز التفاضل فيهما والمماثلة. وقال مالك وأحمد في الرواية الأخرى: هي جنس واحد، فلا يجوز عندهما إذا بيع بعضها ببعض إلا مثلًا بمثل، يدًا بيد" اختلاف الأئمة العلماء، لابن هبيرة الذهلي (١/٣٥٩-٣٦٠)، وانظر: مختصر اختلاف العلماء، لأبي جعفر الطحاوي (٣/٣٧).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/١٠).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**التمر بالتمر، والحنطة بالحنطة، والشعير بالشعير، والملح بالملح، مثلا بمثل، يدا بيد، فمن زاد، أو استزاد، فقد أربى، إلا ما اختلفت ألوانه**))(١).

قوله: ((**إلا ما اختلفت ألوانه**))، أي: أجناسه كالذهب بالتمر، أو التمر بالشعير، فإنه لا يشترط فيهما: المماثلة، وإنما يشترط: التقابض، كما جاء في الرواية الأخرى: ((**فإذا اختلفت هذه الأصناف، فبيعوا كيف شئتم، إذا كان يدًا بيد**)).

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ فصل "الدليل على تحريمها من وجوه: منها: أن الله جَلَّ وَعَلَا حرَّم الربا، والعينة وسيلة إلى الربا، بل هي من أقرب وسائله، والوسيلة إلى الحرام حرام، فهنا مقامان:

أحدهما: بيان كونها وسيلة.

والثاني : بيان أن الوسيلة إلى الحرام حرام"(٢).

وقد ذكروا في سبب تحريم الربا وجوها:

منها: أن الربا يقتضي أخذ مال الإنسان من غير عوض؛ لأن من يبيع الدرهم بالدرهمين -نقدًا أو نسيئة- يحصل له زيادة درهم من غير عوض، ومال الإنسان متعلق حاجته، وله حرمة عظيمة.

ومنها: أن الربا يمنع الناس من الاشتغال بالمكاسب؛ لأن صاحب الدرهم إذا تمكن بواسطة عقد الربا من تحصيل الدرهم الزائد نقدًا كان أو نسيئة خف عليه اكتساب وجه المعيشة، فلا يكاد يتحمل مشقة الكسب والتجارة والصناعات الشاقة، وذلك يفضي إلى انقطاع منافع الخلق التي لا تنتظم إلا بالتجارات والحرف والصناعات والعمارات.

---

(١) صحيح مسلم [١٥٨٨].

(٢) تهذيب سنن أبي داود وإيضاح مشكلاته (٥/١٦٢٦)، مكتبة المعارف، الرياض [١٤٢٨هـ].

ومنها: أن الربا يفضي إلى انقطاع المعروف بين الناس من القرض؛ لأن الربا إذا حرم طابت النفوس بقرض الدرهم واسترجاع مثله، ولو حل الربا لكانت حاجة المحتاج تحمله على أخذ الدرهم بدرهمين، فيفضي إلى انقطاع المواساة والمعروف والإحسان.

ومنها: أن الغالب أن المقرض يكون غنيًّا، والمستقرض يكون فقيرًا، فالقول بتجويز عقد الربا تمكين للغني من أن يأخذ من الفقير الضعيف مالًا زائدًا، وذلك غير جائز.

ومنها: أن حرمة الربا قد ثبتت بالنص، ولا يجب أن يكون حكم جميع التكاليف معلومة للخلق، فوجب القطع بحرمة عقد الربا، وإن كنا لا نعلم الوجه فيه(١).

وقد حرم الشارع الوسائل المفضية إلى الربا كبيع (العِيْنة) -بكسر العين المهملة ثم ياء تحتية ساكنة ثم نون- في قول أكثر أهل العلم. وهي أن يبيع سلعة بثمن مؤجل لشخص، ثم يعود ويشتريها من الشخص نفسه بثمن حاضر أقل من الثمن المؤجل. فهذا نوع من المعاملات الربوية ذات التحايل على الشرع(٢).

وقد وصف الله عَزَّوَجَلَّ الذين يتعاملون بالربا، ويمتصون دماء الناس بأنهم لا يقومون من قبورهم يوم القيامة. ﴿إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾ [البقرة:٢٧٥]، أي: إلا كما يقوم المصروع حال صرعه. قال ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما ألفاظ الآية فكانت تحتمل تشبيه حال القائم بحرص وجشع إلى تجارة الربا بقيام المجنون؛ لأن الطمع والرغبة تستفزه حتى تضطرب أعضاؤه، وهذا كما تقول لمسرع في مشيه، يَخْلِطُ في هيئة حركاته، إما من فزع أو غيره: قد جُنَّ هذا"(٣).

---

(١) انظر: (التفسير الكبير) للفخر الرازي (٧/٧٤).

(٢) انظر: نيل الأوطار، للشوكاني (٥/٢٤٥-٢٤٦)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٩/٩٥- ٩٧). وهناك تعريفات وصور أخرى اختلف الفقهاء فيها وفي حكمها تنظر في مظانها. وانظر: مصطلح: (بيع العينة) من (الموسوعة الفقهية الكويتية).

(٣) المحرر الوجيز (١/٣٧٢).

وذلك أن الناس إذا قاموا من قبورهم يوم القيامة فإنهم يذهبون مسرعين إلى المحشر إلا آكلي الربا فإنهم يقومون ويسقطون؛ لأن الربا قد أثقل بطونهم، فعظمت وثقلت عليهم. ويقال: إنهم يبعثون يوم القيامة قد انتفخت بطونهم كالحبالى، وكلما قاموا سقطوا والناس يمشون عليهم. وقال بعض العلماء: إنما ذلك شعار لهم يعرفون به يوم القيامة، ثم العذاب من وراء ذلك(١).

وقد توعَّد الله عَزَّوَجَلَّ من أكل الربا واستحلَّه بالخلود في النار في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللَّهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة:٢٧٥].

وقد روى البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عن سَمُرَة بن جندب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في حديث المنام الطويل: ((**فانطلقنا، فأتينا على نهر** -حسبت أنه كان يقول:- **أحمر مثل الدم، وإذا في النهر رجل سابح يسبح، وإذا على شط النهر رجل قد جَمَعَ عنده حجارة كثيرة، وإذا ذلك السابح يسبح ما يسبح، ثم يأتي ذلك الذي قد جمع عنده الحجارة، فَيَفْغَرُ له فاه**(٢) **فيلقمه حجرًا فينطلق يسبح، ثم يرجع إليه كلما رجع إليه فَغَرَ له فاه فألقمه حجرًا**))(٣). وجاء في تمام الحديث بيان حال هذا الرجل الذي يسبح في نهر الدم ويلقم الحجارة بأنه: آكل الربا.

---

(١) انظر: تفسير أبي الليث السمرقندي (بحر العلوم) (١/١٨٢)، تفسير القرطبي (٣/٣٥٤).

(٢) أي: يفتح له فمه.

(٣) صحيح البخاري [٧٠٤٧]. قال ابن هبيرة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنما عوقب آكل الربا بسباحته في النهر الأحمر وإلقامه الحجر؛ لأن أصل الربا يجري في الذهب، وهو أحمر. وأما إلقام الملك له الحجر فإنه إشارة إلى أنه لا يغني عنه شيئًا، وكذلك الربا، فإن صاحبه يتخيل أن ماله يزداد، والله عَزَّوَجَلَّ من ورائه يمحقه. فتح الباري (١٢/٤٤٥).

والربا من الكبائر الموبقات، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**اجتنبوا السبع الموبقات**))، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: ((**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**))(١).

ومن عقاب آكل الربا: الحرب من الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِنْ تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾﴾ [البقرة:٢٧٨-٢٧٩]. ومن حاربه الله عَزَّ وَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا يفلح أبدًا. وفيه إيماء إلى سوء الخاتمة إن أصرَّ ودام على أكله.

ومن عقاب آكل الربا: ذهاب بركة المال، أو هلاك المال الذي يدخل فيه. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ﴾ [البقرة:٢٧٦]. فالمحْقُ يشمل المحق بالكلِّية، بحيث يذهب المال من يد المرابي دون أن ينتفع به، أو محق بركة المال مهما كثر، كما جاء في الحديث: ((**إنَّ الرِّبَا وإن كَثُرَ فإنَّ عَاقِبَتَهُ إلى قُلٍّ**))(٢).

ومن عقاب آكل الربا: العذاب الأليم في الآخرة، كما قال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: ﴿وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء:١٦١].

---

(١) صحيح البخاري [٢٧٦٦، ٦٨٥٧]، مسلم [٨٩].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٠٥]، وأحمد [٣٧٥٤]، والبزار [٢٠٤٢]، وأبو يعلى [٥٠٤٢]، والحاكم [٢٢٦٢] وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٥١٢٣]، والديلمي [٣٣٠٤].

ومن عقاب آكل الربا: أن لعنة الله عَزَّوَجَلَّ عليه وعلى كل من اشترك في عقد الرِّبا كما جاء في الحديث: عن جابر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: لعن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ آكل الربا، ومؤكله، وكاتبه، وشاهديه، وقال: **((هم سواء))**(١).

وعن عون بن أبي جحيفة، عن أبيه: أنه اشترى غلامًا حجامًا، فقال: إن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نهى عن ثمن الدم، وثمن الكلب، وكسب البغي، ولعن آكل الربا وموكله، والواشمة والمستوشمة والمصور(٢). فلا يجوز احتراف ما يؤدي إلى الحرام، أو ما يكون فيه إعانة عليه، كالوشم: لما فيه من تغيير خلق الله عَزَّوَجَلَّ، وككتابة الربا؛ لما فيه من الإعانة على أكل أموال الناس بالباطل، ونحو ذلك(٣).

ثانيًا: الوقاية من آفات الربا والعلاج:

١ - أن يفقه المكلف أحكام المعاملات المالية، وأن يسأل أهل العلم عما جهله منها:

وقد أرشد النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ إلى كيفية تجنب التعامل بالعقود الربوية، وبيان المخرج من ذلك بأن يكون مكانها عقود صحيحة سالمة من الربا، فمن ذلك: ما جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ استعمل رجلًا على خيبر، فجاءه بتمر جَنِيب، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((أَكُلُّ تمر خيبر هكذا؟))**، قال: لا والله يا رسول الله إنا لنأخذ الصَّاعَ من هذا بالصَّاعَيْن، والصَّاعين بالثَّلاثة، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((لا تفعل، بِعْ الجمع بالدَّراهم، ثم ابْتَعْ**

---

(١) صحيح مسلم [١٥٩٨].

(٢) صحيح البخاري [٥٩٦٢].

(٣) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٧٣/٢).

بِالدَّرَاهِمِ جَنِيبًا))[١]، وقال في الميزان مثل ذلك[٢]، أي: في الموزون مثل ذلك، يعني: لا تبع رطلًا منه برطلين، بل بع بالدراهم، ثم ابتع بالدراهم.

و(**الجنيب**): نوعٌ من التمر، وهو تمرٌ جيدٌ من خيار التمر.

وكانوا يبيعون الصاع من الجنيب بالصَّاعين من الجمع، والجمع: هو المختلط من التمر، فنهاهم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن ذلك، وبين لهم المخرج، وهو أن يبيع الرديء بدراهم، ثم يشتري بالدراهم التي يقبضها تمرًا جيدًا.

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللهُ: "فيه من الفقه: أن التمر كله جنس واحد رديئه وجيده، لا يجوز التفاضل في شيء منه، ويدخل في معنى التمر جميع الطعام، فلا يجوز في الجنس الواحد التفاضل ولا النسيئة بإجماع، فإن كانا جنسين جاز فيهما التفاضل يدا بيد، ولم تجز النسيئة، هذا حكم الطعام المقتات كله عند مالك. وعند الشافعي الطعام كله مقتات أو غير مقتات. وعند الكوفيين: الطعام المكيل كله والموزون دون غيره. وفيه من الفقه: أن من لم يعلم تحريم الشيء فلا حرج عليه حتى يعلمه"[٣].

"وبيع الطَّعام بالطَّعام يدًا بيد مثل الصَّرف سواء، وهو شبيهه في المعنى"[٤].

وفي رواية: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: جاء بلال رَضِيَ اللهُ عَنْهُ إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِتَمْرٍ بَرْنِيٍّ، فقال له النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من أين هذا؟**))، قال بلال: كان عندنا تَمْرٌ رَدِيٌّ، فبعت منه صاعين بصاع، لنطعم النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال النبي

---

(١) صحيح البخاري [٢٢٠١، ٢٣٠٢، ٤٢٤٤، ٧٣٥٠]، مسلم [١٥٩٣].

(٢) صحيح البخاري [٢٣٠٢].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٦/٣٢٢).

(٤) المصدر السابق (٦/٤٣٦).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ذلك: **((أَوَّهْ أَوَّهْ، عَيْنُ الرِّبَا عَيْنُ الرِّبَا، لا تفعل، ولكن إذا أردت أن تشتري فَبِعِ التَّمْرَ بِبَيْعٍ آخَرَ، ثُمَّ اشْتَرِهِ))**(1).

وقوله: ((**بَرْنِيٍّ**)) -بفتح الموحدة وسكون الراء وكسر النون بعدها ياء مشددة-: وهو ضرب من التمر أصفر مدور، وهو أجود التمور، قال أبو حنيفة رَحِمَهُ اللَّهُ: أصله فارسي. قاله: صاحب (المحكم)(2).

و((**أَوَّهْ**)) -بفتح الهمزة وشدة الواو وسكون الهاء-: قول عند الشكاية والحزن، وبعضهم يقول: (آوَّهْ) -بالمدِّ والتشديد وفتح الواو ساكنة الهاء-، لتطويل الصوت بالشكاية(3).

٢ - أن يفقه المكلف آفات الربا وآثاره في الدنيا، وعاقبته في الآخرة. من المحق وذهاب البركة إلى الحرب من الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونفي محبة الله جَلَّ وَعَلَا للمرابي، ومجازاته بالعذاب في النار في الآخرة.

٣ - تحذير العلماء من مضار الربا وآفاته.

٤ - أن تقوم وسائل الإعلام بواجبها من التبصير والتذكير.

٥ - إيجاد البدائل الإسلامية المباحة، والإرشاد إليها.

٦ - أن يعلم الناس أن النظام الاقتصادي الإسلامي نظام متكامل، يعمل على إعانة المحتاجين من غير استغلال لهم.

---

(١) صحيح البخاري [٢٣١٢]، مسلم [١٥٩٤].

(٢) المحكم والمحيط الأعظم، مادة: (برن) (١٠/٢٦٤)، وانظر: تحرير ألفاظ التنبيه (ص:١٧٩).

(٣) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (أوه) (٦/٢٢٢٥)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٢/١٤٩)، الكواكب الدراري (١٠/١٤٢).

٧ - أن تولي الدولة الاهتمام بدراسة علم الاقتصاد الإسلامي في المعاهد والجامعات، وأن تعمل على تأهيل الكوادر من أصحاب الكفاءات.

٨ - الاهتمام بالبنوك الإسلامية ودعمها وتشجيعها.

٩ - البعد عن الشبهات في المعاملات.

١٠ - غرس بذور الإيمان والتقوى في نفوس الأبناء من أول النشأة.

١١ - اليقين الجازم بأن هذه الدنيا وما فيها عرض زائل، وما فيها من النِعم والمتاع إنما هو ابتلاء واختبار.

١٢ - أن يطهر المسلم نفسه عن أدران الشح، وأن يتعوَّد على الإحسان في جميع الأحوال.

١٣ - أن يحمد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ويشكره على ما أنعم به عليه، وأن ينظر إلى كل عطاء على أنه اختبار من الله عَزَّوَجَلَّ.

١٤ - أن يطهر المسلم نفسه من آفات النفس كالأثرة والأنانية والجشع والطمع والبخل، وأن يحملها على الفضائل، وأن يعودها على التضحية والإيثار والإحسان في سائر الأحوال -كما تقدم- في الوقاية من آفات ترك الزكاة

ويقال في الوقاية من آفات الربا ما قيل في الوقاية من آفات ترك الزكاة.

المبحث الرابع عشر
الفِرَار من الزَّحْف

أولًا: خطورة الفرار من الزحف وبيان عاقبته:

(الْوَلْي) -بسكون اللام-: القرب والدنو. يقال: تباعد بعد وَلْيٍ. وكُلْ مما يليك، أي: مما يقاربك. وتَوَلَّى العملَ تقلَّدَ. وتولَّى عنه: أَعْرَض.

وقد وَلَّى الشيءُ وتولَّى، إذا ذهب هاربًا ومدبرًا، وتَولَّى عنه: إذا أعرض(١).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتَّوَلِّي قد يكون بالجسم، وقد يكون بترك الإصغاء والائتمار"(٢).

وقال القاضي أبو محمد ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تَوَلَّى: تَفَعَّل، وأصله: الإعراض والإدبار عن الشيء بالجسم، ثم استعمل في الإعراض عن الأمور والأديان والمعتقدات اتساعًا ومجازًا"(٣).

وقيل: التولي: الإعراض المتكلف بما يفهمه التفعل. قاله الحرالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٤).

وقال الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "التولي: الاعراض مطلقًا ولا يلزمه الإدبار. والتولي بالإدبار قد يكون على حقيقته كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ﴾ [الأنبياء:٥٧]، وقد

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (ولي) (٦/٢٥٢٨- ٢٥٢٩)، النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٢٣٠).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (ولي) (ص:٨٨٦).

(٣) المحرر الوجيز (١/١٥٩).

(٤) انظر: نظم الدرر (١/٤٦٢)، التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١١٣).

يكون كناية عن الانهزام كما في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة:٢٥]. والتولي: قد يكون لحاجة تدعو إلى الانصراف مع ثبوت العقد"(١).

وقد اتفق الفقهاء على وجوب الثبات، وحرمة الفرار إذا التقى المسلمون والكفار بدليل قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:١٥-١٦]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأنفال:٤٥].

قال ابن النحاس رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أن الفرار من الزحف حيث لا يجوز، من أعظم كبائر الذنوب عند الله جَلَّ وَعَلَا بإجماع العلماء، وفاعله مستحق لغضب الله عَزَّ وَجَلَّ ومقته، وأليم عذابه، وقد ورد في الترهيب من ذلك، والتحذير من فعله، جملة أحاديث"(٢).

فقد ذكر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الفرار يوم الزحف، فعدَّه من الكبائر الموبقات، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**اجتنبوا السبع الموبقات**))، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: ((**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**))(٣).

---

(١) الكليات (ص:٢٨).

(٢) انظر: مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ومثير الغرام إلى دار السلام، لأبي زكريا أحمد بن إبراهيم، المشهور بابن النحاس (ص:٥٦٦).

(٣) صحيح البخاري [٢٧٦٦، ٦٨٥٧]، مسلم [٨٩].

وإنما يجب الثبات بشرطين:

أحدهما: أن يكون الكفار لا يزيدون على ضعف المسلمين، فإن زادوا عليه جاز الفرار؛ لقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال:٦٦]. وهذا إن كان لفظه لفظ الخبر، فهو أمر، بدليل قوله: ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ﴾، ولو كان خبرًا على حقيقته، لم يكن ردنا من غلبة الواحد للعشرة إلى غلبة الاثنين تخفيفًا، ولأن خبر الله جَلَّوَعَلَا صدق لا يقع بخلاف مخبره وقد علم أن الظفر والغلبة لا يحصل للمسلمين في كل موطن يكون العدو فيه ضعف المسلمين فما دون، فعلم أنه أمر وفرض، ولم يأت شيء ينسخ هذه الآية، لا في كتاب ولا سنة، فوجب الحكم بها.

قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: ((**لما نزلت:** ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٥] **شق ذلك على المسلمين، حين فرض عليهم أن لا يفر واحد من عشرة، فجاء التخفيف، فقال:** ﴿الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأنفال:٦٦]، **قال:** ((**فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم**))(١).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من فَرَّ من اثْنَيْنِ فقد فَرَّ، ومن فَرَّ من ثَلَاثَةٍ فلم يَفِرَّ**))(٢).

الثاني: أن لا يقصد بفراره التحيز إلى فئة، ولا التحرف لقتال، فإن قصد أحد هذين، فهو مباح له؛ لأن الله عَزَّوَجَلَّ قال: ﴿إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ﴾ [الأنفال:١٦].

---

(١) صحيح البخاري [٤٦٥٣].

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١١١٥١]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٥/٣٢٨): "رجاله ثقات".

ومعنى التحرف للقتال: أن ينحاز إلى موضع يكون القتال فيه أمكن، مثل أن ينحاز من مواجهة الشمس، أو الريح إلى استدبارهما، أو من نزلة إلى علو، أو من معطشة إلى موضع ماء، أو يفر بين أيديهم؛ لتنتقض صفوفهم، أو تنفرد خيلهم من رجالتهم، أو ليجد فيهم فرصة، أو ليستند إلى جبل، ونحو ذلك مما جرت به عادة أهل الحرب.

وأما التحيز إلى فئة، فهو أن يصير إلى فئة من المسلمين، ليكون معهم، فيقوى بهم على عدوهم وسواء بعدت المسافة أو قربت(١).

ولا فرق في هذا بين أن يكون الجهاد فرض عين أم فرض كفاية، قال ابن النحاس الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الجهاد إذا كان فرض كفاية على الإنسان، ثم حضر الصف صار عليه فرض عين، وحرم عليه الفرار(٢)، وإنما يحرم الفرار، إذا لم يزد عدد الكفار على المثلين، فإن فرَّ متحرفًا لقتال كمن ينصرف ليكمن في موضع ويهجم، أو يكون في مضيق فينصرف ليتبعه العدو إلى متسع يسهل القتال فيه، أو يتحول من مقابلة الشمس والريح ونحو هذا، جاز، وكذلك إذا فرَّ متحيزًا إلى فئة يستنجد بها، جاز، وسواء كانت تلك الفئة قليلة أو كثيرة، قريبة أو بعيدة على الصحيح .

ومن عجز بمرض أو نحوه أو لم يبق معه سلاح فله الانهزام إن لم يمكنه الرمي بالحجارة، فإن أمكنه الرمي بالحجارة حرم عليه الانهزام على الأصح. ويسن لمن وقع له شيء من الأعذار وأراد أن يولي أن يولي متحرفًا أو متحيزًا، ولو مات فرسُه وهو لا يقدر على القتال راجلًا فله الانهزام، ولو غلب على ظنه أنه إن ثبت قُتل لم يجز له الانهزام على

---

(١) انظر: المغني، لابن قدامة (٣١٩/٩)، الكبائر، للذهبي (ص:١٦١)، بتحقيق: مشهور بن حسن.

(٢) وقد ذكر العلماء أن الجهاد يكون فرض عين في الأحوال التالية: ١- عند حضور الصف. ٢ - إذا حاصر العدو البلد. ٣ - إذا استنفره الإمام. ٤ - إذا دَعَت الحاجة إليه بعينه: مثل أن يكون عارفًا بنوع من السلاح، ولا يستخدمه إلا مثلُه، فهنا يتعين عليه أن يباشِر القتال بهذا السلاح الذي لا يعرفه إلا هو. وتفصيل ذلك في مظانه من كتب الفقه.

الصحيح[1]، وإن زاد عدد الكفار على المثلين جاز الانهزام، وإن كانوا رَجَّالَة والمسلمون فرسانًا، فلو كان المسلمون رجالة والكفار فرسانًا حرمت الهزيمة "[2].

وقال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ [الأنفال:١٥-١٦]: "والذي أرى في فقه هذه الآية: أن ظاهر الآية هو تحريم التولي على آحادهم وجماعتهم إذا التقوا مع أعدائهم في ملاحم القتال والمجالدة، بحيث إن المسلمين إذا توجهوا إلى قتال المشركين، أو إذا نزل المشركون لمقاتلتهم وعزموا على المقاتلة، فإذا التقى الجيشان للقتال وجب على المسلمين الثبات والصبر للقتال، ولو كانوا أقل من جيش المشركين، فإما أن ينتصروا، وإما أن يتشهدوا، وعلى هذا فللمسلمين النظر قبل اللقاء، هل هم بحيث يستطيعون الثبات وجهه أو لا، فإن وقت المجالدة يضيق عن التدبير، فعلى الجيش النظر في عَدده وعُدد ونسبة ذلك من جيش عدوهم، فإذا أزمعوا الزحف وجب عليهم الثبات، وكذلك يكون شأنهم في مدة نزولهم بدار العدو، فإذا رأوا للعدو نجدة أو ازدياد قوة نظروا في أمرهم، هل يثبتون لقتاله أو ينصرفون بإذن أميرهم، فإما أن يأمرهم بالكف عن متابعة ذلك العدو، وإما أن يأمرهم بالاستنجاد والعودة إلى قتال العدو كما صنع المسلمون في غزوة إفريقية الأولى، وهذا هو الذي يشهد له قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأنفال:٤٥]، وما ثبت في (الصحيح): أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم الأحزاب قام في الناس

---

(١) اتفق العلماء على أنه يحرم على من لزمه الجهاد -وهو المسلم الذكر الحر المكلف المستطيع- الانصراف عن الصف عند التقاء صفوف المسلمين والكفار؛ وإن غلب على ظنه أنه إن ثبت قُتل، إلا أن يكون متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة من المسلمين ينضم إليهم محاربا، فإن زاد عدد الكفار عن مثلي المسلمين جاز الانصراف عن الصف -كما تقدم-.

(٢) مشارع الأشواق إلى مصارع العشاق، ومثير الغرام إلى دار السلام، لابن النحاس (ص:٥٦٩).

فقال: ((**يا أيها الناس: لا تتمنوا لقاء العدو، فإذا لقيتموهم فاصبروا، واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف**))(١).

ولعل حكمة ذلك: أن يمضي المسلمون في نصر الدين. وعلى هذا الوجه يكون لأمير الجيش، إذا رأى المصلحة في الانجلاء عن دار العدو وترك قتالهم أن يغادر دار الحرب، ويرجع إلى مقره إذا أمن أن يلحق به العدو، وكان له من القوة ما يستطيع به دفاعهم إذا لحقوا به، فذلك لا يسمى تولية أدبار، بل هو رأي ومصلحة.

وإنما حرم الله عَزَّوَجَلَّ الفرار في وقت مناجزة المشركين ومجالدتهم وهو وقت اللقاء؛ لأن الفرار حينئذ يوقع في الهزيمة الشنيعة والتقتيل، وذلك أن الله أوجب على المسلمين قتال المشركين فإذا أقدم المسلمون على القتال لم يكن نصرهم إلا بصبرهم وتأييد الله إياهم، فلو انكشفوا بالفرار لأعمل المشركون الرماح في ظهورهم فاستأصلوهم، فلذلك أمرهم الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالصبر والثبات، فيكون ما في هذه الآية هو حكم الصبر عند اللقاء، وبهذا يكون التقييد بحال الزحف للاحتراز عن اللقاء في غير تلك الحالة"(٢).

(١) صحيح البخاري [٢٩٦٦، ٣٠٢٤]، مسلم [١٧٤٢].

(٢) التحرير والتنوير (٩/٢٩١- ٢٩٣).

ثانيًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج:

١ – أن يفقه المسلم أحكام الجهاد، وفضله، وأهدافه ومقاصده، وعاقبته، وأن يكون مُحبًّا للجهاد، ولبذل النفس في سبيل الله جَلَّوَعَلَا. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

والقتال من الضرورات التي لا يحبها الناس بطبعهم، ومعلوم أن كراهية الطبع الفعل لا تنافي تلقي التكليف به برضا؛ لأن أكثر التكليف لا يخلو عن مشقة.

وقد علم المؤمن ما في الجهاد من إحقاق الحق، ودفع الباطل، ورفع الظلم، وحفظ الأمة، وإقامة العدل، وما فيه من الثواب العظيم في الآخرة، والفوز برضوان الله ومحبته، وفي المقابل فإن تركه يفضي إلى ضرر عظيم؛ فلذلك كان المؤمن محبًّا له لأجل ذلك.

والمعنى: "فرض عليكم أيها المسلمون قتال الكفار، وهو كره لكم، ولعلَّكم تكرهون شيئًا وهو خير لكم، ولعلكم تحبون شيئًا وهو شرّ لكم، إذ هم يكرهون القتال. وفيه: الفتح والغنيمة والشهادة والقوة. ويحبون القعود، وفيه: الذل والاستعباد، والله يعلم ما هو خير لكم مما هو شر لكم. فلا تكرهوا ما فرض عليكم من القتال. فإنّه يعلم أنه خير لكم في عاجلكم، ولا تحبوا القعود، فإنّه شر لكم، فإنّ الدنيا بنيت على التدافع، وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الله عَزَّوَجَلَّ"(١).

ومن الأحاديث الدَّالة على أن الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ من أسباب الوقاية من النَّار: ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَاللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**لا**

(١) تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس (ص:١٢٧).

يلجُ النَّارَ رجلٌ بكى من خشية الله حتى يعود اللبن في الضَّرْع، ولا يجتمع غُبَارٌ في سبيل الله ودخانُ جهنم))(١).

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ((**عَيْنَان لا تَمَسُّهُمَا النَّار: عَيْنٌ بَكَتْ من خَشْيَةِ الله، وعَيْنٌ بَاتَتْ تَحْرُسُ في سبيل الله تعالى**))(٢).

وعن أبي أمامة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**ليس شيء أحَبَّ إلى الله من قَطْرَتَيْن وأَثَرَيْن، قَطْرَةٌ من دموعٍ في خشية الله، وقَطْرَةُ دَمٍ تُهَرَاق في سبيل الله، وأمَّا الأَثَرَان: فَأَثَرٌ في سبيل الله، وَأَثَرٌ في فَرِيضَة من فرائض الله**))(٣).

٢ - أن يكون العبد على دراية بعاقبة الفرار من الزحف وآثاره.

٣ – أن يحمد العبد مولاه عَزَّوَجَلَّ في كل حال، وأن يوطن نفسه على الصبر:

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ: "الدنيا وضعت للبلاء، فمن الجهل أن يخفى على الإنسان مراد التكليف؛ فإنه موضوع على عكس الأغراض، فينبغي للعاقل أن يأنس بانعكاس الأغراض، فإن دعا، وسأل بلوغ غرض، تعبد الله بالدعاء: فإن أعطي مراده شكر، وإن لم ينل مراده فلا ينبغي أن يلح في الطلب؛ لأن الدنيا ليست لبلوغ الأغراض، وليقل لنفسه: ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [١٩٣٦٤]، وأحمد [١٠٥٦٠]، وهناد [٤٦٥]، والترمذي [١٦٣٣]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي [٣١٠٨]، والحاكم [٧٦٦٧] وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٧٧٩].

(٢) الحديث مروي عن ابن عباس وعن أنس. حديث ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أخرجه الترمذي [١٦٣٩] وقال: "حسن". حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أخرجه أبو يعلى [٤٣٤٦]. قال الهيثمي رَحِمَهُٱللَّهُ (٥/٢٨٨): "رواه أبو يعلى والطبراني في (الأوسط) بنحوه إلا أنه قال: (لا يريان النار). ورجال أبي يعلى ثقات". والحديث له طرق أخرى.

(٣) أخرجه الترمذي [١٦٦٩]، وقال: "حديث حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٧٩١٨].

ومن أعظم الجهل: أن يمتعض في باطنه لانعكاس أغراضه، وربما اعترض في الباطن، أو ربما قال: حصول غرضي لا يضر، ودعائي لم يستجب!"[(١)].

وهذا كله دليل على جهله، وقلة إيمانه وتسليمه للحكمة. ومن الذي حصل له غرض ثم لم يكدر؟! فالدنيا وضعت للبلاء. فينبغي للعاقل أن يوطن نفسه على الصبر، وأن يعلم أن ما حصل من المراد، فلطف، وما لم يحصل، فعلى أصل الخلق والجبلة للدنيا، كما قيل[(٢)]:

طبعت على كدر وأنت تريدها ... صفوًا من الأقذاء والأكدار
ومُكَلِّـــفُ الأيام ضد طباعِهَا ... متطلب في الماء جَذْوَةَ نَار[(٣)]

فالموفق من يستقيم على دين الله عَزَّوَجَلَّ في سائر الأحوال، فيكون عابدًا شاكرًا لله في حال السراء، وصابرًا مُحْتَسِبًا في حال الضراء. "فكم يترتب على الضراء من عواقب حميدة، ومواهب كريمة يستحق الحمد عليها؟ ﴿وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ﴾ [البقرة:٢١٦].

قال في (الحكم): من ظن انفكاك لطفه عن قدره فذاك لقصور نظره[(٤)].

---

(١) صيد الخاطر (ص:٣٩٩). وقد جاء في الحديث عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((يستجاب لأحدكم ما لم يعجل، يقول: دعوت فلم يستجب لي)) صحيح البخاري [٦٣٤٠]. وعند مسلم [٢٧٣٥]: ((لا يزال يستجاب للعبد، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم، ما لم يستعجل)) قيل: يا رسول الله ما الاستعجال؟ قال: يقول: ((قد دعوت وقد دعوت، فلم أر يستجيب لي، فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء)).

(٢) البيتان لأبي الحسن التهامي من قصيدته الرائية المشهورة التي رثى بها ابنه. انظر: تاريخ دمشق (٢٢٢/٤٣)، تاريخ بغداد (٣٨/١٩)، وفيات الأعيان (٣٨٠/٣)، الوافي بالوفيات (٧٨/٢٢).

(٣) صيد الخاطر (ص:٣٩٩-٤٠٠).

(٤) انظر: الحكمة السادسة بعد المائة من (الحكم العطائية) بشرح ابن عباد (ص:٦٤).

وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا شدة إلا وفي جنبها نعم لله عَزَّوَجَلَّ، فليلزم الحمد والشكر على تلك النعم المقترنة بها(١).

وعن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا رأى ما يحب قال: ((**الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات**))، وإذا رأى ما يكره قال: ((**الحمد لله على كل حال**))(٢).

٤ – حثُّ الناس على الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى الثبات عند لقاء الأعداء.

٥ – أن يكون العبد على دراية بمكانة الشهيد ومنزلته:

لا يختلف أحدٌ على عظم مكانة الشَّهيد في الإسلام، الَّذي بذل نفسه وماله في سبيل الله جَلَّ وَعَلَا، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

حيث مثَّل الله عَزَّوَجَلَّ إثابتهم بالجنَّة على بذلهم أنفسهم وأموالهم في سبيله بالشِّراء. وقدَّمَ الأنفس على الأموال ابتداء بالأشرف وبما لا عِوَضَ له إذا فُقِدَ(٣).

وهذا وعدٌ مؤكد أخبر اللهُ عَزَّوَجَلَّ أنَّ هذا الوعد الذي وعده للمجاهدين في سبيله، وعد ثابت، وقد أثبته في التوراة، والإنجيل كما أثبته في القرآن. ناهيك من صفقة البائع

(١) فيض القدير (٢/ ١٣٣).

(٢) أخرجه ابن ماجه [٣٨٠٣]، قال في (الزوائد): (١٣١/٤)، "إسناده صحيح ورجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الأوسط) [٦٦٦٣]، وابن السني [٣٧٨]، والحاكم [١٨٤٠]، وقال: "صحيح الإسناد". قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الأذكار) (ص:٣٢٠): "إسناده جيد". وضعفه العراقي (ص:٣٦٤)، ولكن للحديث طرق يتقوى بها.

(٣) انظر: البحر المحيط في التفسير (٥٠٩/٥).

فيها ربُّ العالمين، والثَّمن جنَّةُ المأوى. ثم قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾، أي: لا أحد أوفى منه.

ولا شك أن بلوغَ الأهدافِ الكُبرى والنبيلة في الحياة يستلزم تضحياتٍ كبرى، ولا ريب أن سمو الأهداف، وشرف المقاصد، ونبل الغايات، تقتضي سموَّ التضحيات، وشرفها، ورُقِيَّ منازلها، وإذا كان أشرفُ التضحيات وأسماها ما كان ابتغاءَ رضوان الله تعالى ومحبته، ورجاءَ نيل النعيم المقيم في جنات النعيم، فإنَّ الذود عن حياض هذا الدين، والذَّبَّ عن حوذته، والمنافحة عن كتابه وشرعه ومقدساته يتبوأُ أرفع درجات هذا الرضوان. ثم إن للتضحيات ألوانًا كثيرة ودروبًا متعددة، لكن تأتي في الذروة منها: التضحية بالنفس، وبذل الروح رخيصة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ لدحر أعداء الله جَلَّوَعَلَا، ونصر دينه، وهذا هو المراد من مصطلح الشهادة والاستشهاد في حقيقته؛ فإن من أعظم علامات الصدق في المحبة: بذل النفس في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وقول المسلم: أحب الله عَزَّوَجَلَّ هي دعوى ينبغي أن يصدقها العمل، ولا عمل فوق هذا. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَنْ يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء:٧٤].

فتبين أن الجهاد في سبيل الله جَلَّوَعَلَا محمود في عاقبته، وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة:٥٢].

وفي السنة بيان دقيق لفضل الشهادة، ومنازل الشهداء وحالهم في دار الكرامة عند مليك مقتدر. فعن مسروق، قال: سألنا عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران:١٦٩]، قال: أما إنا قد سألنا عن ذلك، فقال: ((**أَرْوَاحُهُمْ فِي جَوْفِ طَيْرٍ خُضْرٍ، لها قَنَادِيلُ مُعَلَّقَةٌ**

بالعرش، تَسْرَحُ من الجَنَّة حيث شاءت، ثمَّ تأوي إلى تلك القناديل، فَاطَّلَعَ إليهم ربُّهُمُ اطِّلَاعَة))، فقال: ((هل تَشْتَهُونَ شيئًا؟ قالوا: أَيَّ شَيْءٍ نَشْتَهِي ونحن نَسْرَحُ من الجَنَّة حيث شئنا، ففعل ذلك بهم ثلاث مرَّاتٍ، فلمَّا رأَوْا أَنَّهُمْ لن يُتْرَكُوا من أن يُسْأَلُوا، قالوا: يا رَبِّ، نُرِيدُ أن تَرُدَّ أرواحَنا في أَجْسَادِنَا حتَّى نُقْتَلَ في سبيلكَ مرَّةً أخرى، فلمَّا رأى أن ليس لهم حاجَةٌ تُرِكُوا))[(١)].

وعن المقدام بن معدي كرب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**للشهيد عند الله ست خصال: يغفر له في أول دفعة، ويرى مقعده من الجنة، ويجار من عذاب القبر، ويأمن من الفزع الأكبر، ويوضع على رأسه تاج الوقار، الياقوتة منها خير من الدنيا وما فيها، ويزوج اثنتين وسبعين زوجة من الحور العين، ويشفع في سبعين من أقاربه**))[(٢)].

ومن خصائص الشهيد: أنه يخفف عنه مس الموت حتى إنه لا يجد من ألمه إلا كما يجد أحدنا من مس القرصة، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما يجد الشهيد من مس القتل إلا كما يجد أحدكم من مَسِّ القَرْصَة**))[(٣)].

ودار الشهداء في الجنة أحسن الدُّور وأفضلها، كما جاء في الحديث: عن سَمُرَة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**رأيت الليلة رجلين أتياني، فَصَعِدَا بي الشجرة**

---

(١) صحيح مسلم [١٨٨٧].

(٢) أخرجه أحمد [١٧١٨٢]، وابن ماجه [٢٧٩٩]، والترمذي [١٦٦٣]، واللفظ له، وقال: "حديث صحيح غريب".

(٣) أخرجه أحمد [٧٩٥٣]، والترمذي [١٦٦٨]، وقال: "حديث حسن صحيح غريب" وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٦٥٥].

فأدخلاني دارًا هي أحسن وأفضل، لم أر قط أحسن منها، قالا: أما هذه الدار فدار الشهداء))(١).

ومن إكرام الله تعالى للشهيد: أن الملائكة تُظِلُّه بأجنحتها كما جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: لما قتل أبي جعلت أكشف الثوب عن وجهه أبكي، ويَنْهَوْنِي عنه، والنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لا ينهاني، فجعلت عمتي فاطمة تبكي، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((تبكين أو لا تبكين ما زالت الملائكة تُظِلُّه بأجنحتها حتى رفعتموه))**(٢).

وليس هناك أحد يتمنى ويرغب أن يفارق الجنة بعد دخولها، ويعود إلى الدنيا مرة أخرى. ولو أعطي الأرض كلها بما فيها من كنوز ونفائس، وما عليها من قصور عالية، وحدائق غناء إلا الشهيد، فإنه يحب العودة إلى الدنيا عشر مرات؛ لكي يجاهد كل مرة في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، ويستشهد فيفوز بالشهادة عشر مرات بدل مرة واحدة، وذلك لما يرى من الكرامة التي يلاقيها الشهداء(٣) كما في حديث: أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((ما أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع إلى الدنيا، وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يتمنى أن يرجع إلى الدنيا، فيقتل عشر مرات؛ لما يرى من الكرامة))**(٤).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث أجل ما جاء في فضل الشهادة، والحض عليها، والترغيب فيها، وإنما يتمنى أن يقتل عشر مرات -والله أعلم-؛ لعلمه بأن ذلك مما يرضي الله تعالى ويقرب منه؛ لأن من بذل نفسه ودمه في إعزاز دين الله عَزَّوَجَلَّ ونصرة دينه

---

(١) صحيح البخاري [٢٧٩١].

(٢) صحيح البخاري [١٢٤٤، ١٢٩٣، ٢٨١٦، ٤٠٨٠]، مسلم [٢٤٧١].

(٣) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٤/٩١).

(٤) صحيح البخاري [٢٧٩٥، ٢٨١٧]، مسلم [١٨٧٧].

ونبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فلم تبق غاية وراء ذلك، وليس في أعمال البر ما تبذل فيه النفس غير الجهاد؛ فلذلك عظم الثواب عليه –والله أعلم–"[١].

ومن نهج الأبرار: المسارعة إلى تلبية نداء الجهاد؛ لعلمهم بعظيم فضله، وهم يرغبون في النصر أو الشهادة في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ.

وقد جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: انطلق رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأصحابه حتى سبقوا المشركين إلى بدر، وجاء المشركون، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يُقَدِّمَنَّ أحد منكم إلى شيء حتى أكون أنا دونه**))، فدنا المشركون، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض**))، قال: -يقول عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَام الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:- يا رسول الله، جنة عرضها السموات والأرض؟ قال: ((**نعم**))، قال: بخ بخ، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما يحملك على قولك: بخ بخ؟**))، قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاءة أن أكون من أهلها، قال: ((**فإنك من أهلها**))، فأخرج تمرات من قَرَنِه، فجعل يأكل منهن، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر، ثم قاتلهم حتى قتل[٢].

وأحيل في بيان (فضل الشهادة وأحكام الشهيد) إلى تحقيقنا لشرح منظومتي الشهداء، (داعي الهدى بشرح منظومة الشهدا)، لأحمد بن عبد الرَّزاق المغربي الرَّشيدي رَحِمَهُ اللَّهُ، و(شرح منظومة الشهداء)، لعلي بن محمد الأجهوري رَحِمَهُ اللَّهُ[٣].

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٣٠/٥).

(٢) صحيح مسلم [١٩٠١].

(٣) وقد طبعا معًا في (دار الضياء)، الكويت، والتحقيق بالتعاون مع فضيلة الشيخ مصطفى محمود سليخ، الطبعة الأولى [١٤٣٤هـ].

٦ – إعداد العدة للقتال:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠].

المبحث الخامس عشر
ترك جهاد الأعداء عند تعينه

أولًا: تعريف الجهاد وبيان فضله ومراتبه:

الجهاد مصدر: جاهد، وهو من (الجهد) -بفتح الجيم وضمها-، أي: الطاقة. وقرئ بهما قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ﴾ [التوبة:٧٩]. والجهد بالفتح: المشقة. يقال: جهد دابته وأجهدها: إذا حمل عليها في السير فوق طاقتها. وجهد الرجل في كذا: أي: جَدَّ فيه وبالغ. وجهد الرجل فهو مجهود من المشقة. وجاهد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ مجاهدة وجهادًا. والاجتهاد والتجاهد: بذل الوسع والمجهود[(١)].

وقال الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجهاد: هو الدعاء إلى الدين الحق"[(٢)].

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الجهاد والمجاهدة: استفراغ الوسع في مدافعة العدو، والجهاد ثلاثة أضرب:

١ - مجاهدة العدو الظاهر.

٢ - ومجاهدة الشيطان.

٣ - ومجاهدة النفس.."[(٣)].

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (جهد) (٤٦٠/٢)، المصباح المنير (١١٢/١).

(٢) التعريفات (ص:٨٠)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٣٣)، الكليات (ص:٣٥٤).

(٣) المفردات في غريب القرآن، مادة: (جهد) (ص:٢٠٨)، وانظر: روح المعاني (١٩٨/٩).

قال الشيخ السايس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهو قسمان عظيمان، تحت كل منهما أنواع، فالقسم الأول: جهاد العدو الباطن، وتحته نوعان:

١- جهاد النفس.

٢- جهاد الشيطان.

والقسم الثاني: جهاد العدو الظاهر، وتحته ثلاثة أنواع:

١ - جهاد الكفار.

٢ - جهاد المنافقين.

٣ - جهاد أهل الظلم، والبدع والضلالات الاعتقادية والعملية"[(١)].

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " الجهاد -بكسر الجيم- أصله لغة: المشقة، يقال: جهدت جهادًا: بلغت المشقة.

وشرعًا: بذل الجهد في قتال الكفار، ويطلق أيضًا على مجاهدة النفس، والشيطان، والفساق.

فأما مجاهدة النفس فعلى تعلم أمور الدين، ثم على العمل بها، ثم على تعليمها.

وأما مجاهدة الشيطان فعلى دفع ما يأتي به من الشبهات، وما يزينه من الشهوات.

وأما مجاهدة الكفار فتقع باليد، والمال، واللسان، والقلب.

وأما مجاهدة الفساق فباليد، ثم اللسان، ثم القلب"[(٢)].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجهاد أربع مراتب:

١ - جهاد النفس.

٢ - وجهاد الشيطان.

(١) تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس (ص:٥٢٢).

(٢) فتح الباري (٣/٦).

٣ – وجهاد الكفار.

٤ – وجهاد المنافقين.

فجهاد النفس أربع مراتب أيضًا:

إحداها: أن يجاهدها على تعلم الهدى ودين الحق الذي لا فلاح لها، ولا سعادة في معاشها ومعادها إلا به، ومتى فاتها علمه شقيت في الدارين.

الثانية: أن يجاهدها على العمل به بعد علمه، وإلا فمجرد العلم بلا عمل إن لم يضرها لم ينفعها.

الثالثة: أن يجاهدها على الدعوة إليه، وتعليمه من لا يعلمه، وإلا كان من الذين يكتمون ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ من الهدى والبينات، ولا ينفعه علمه، ولا ينجيه من عذاب الله عَزَّوَجَلَّ.

الرابعة: أن يجاهدها على الصبر على مشاق الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وأذى الخلق، ويتحمل ذلك كله لله عَزَّوَجَلَّ. فإذا استكمل هذه المراتب الأربع صار من الربانيين، فإن السلف مجمعون على أن العالم لا يستحق أن يسمى ربانيًا حتى يعرف الحق، ويعمل به، ويعلمه، فمن علم وعمل وعلم فذاك يدعى عظيمًا في ملكوت السموات.

وأما جهاد الشيطان فمرتبتان:

إحداهما: جهاده على دفع ما يلقي إلى العبد من الشبهات والشكوك القادحة في الإيمان.

الثانية: جهاده على دفع ما يلقي إليه من الإرادات الفاسدة، والشهوات، فالجهاد الأول يكون بعده اليقين، والثاني: يكون بعده الصبر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤] فأخبر أن إمامة الدين إنما تنال بالصبر واليقين، فالصبر يدفع الشهوات والإرادات الفاسدة، واليقين يدفع الشكوك والشبهات.

وأما جهاد الكفار والمنافقين فأربع مراتب:

١ - بالقلب.

٢ - واللسان.

٣ - والمال.

٤ - والنفس.

وجهاد الكفار أخص باليد، وجهاد المنافقين أخص باللسان.

وأما جهاد أرباب الظلم والبدع والمنكرات فثلاث مراتب:

الأولى: باليد إذا قدر.

فإن عجز انتقل إلى اللسان.

فإن عجز جاهد بقلبه.

فهذه ثلاثة عشر مرتبة من الجهاد"[(١)].

وجهاد النَّفس والشيطان فرض عين لا ينوب فيه أحد عن أحد.

وأما جهاد الكفار والمنافقين فقد يكتفى فيه ببعض الأمة إذا حصل منهم مقصود الجهاد.

وأكمل الخلق عند الله عَزَّوَجَلَّ من كمل مراتب الجهاد كلها.

والخلق متفاوتون في منازلهم عند الله عَزَّوَجَلَّ تفاوتهم في مراتب الجهاد[(٢)].

والجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ من أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: سئل النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٩-١٠).

(٢) انظر: زاد المعاد في هدي خير العباد، لابن القيم (٣/١١).

أَيُّ الأعمال أفضل؟ قال: ((**إيمان بالله ورسوله**))، قيل: ثم ماذا؟ قال: ((**جهاد في سبيل الله**))، قيل: ثم ماذا؟ قال: ((**حج مبرور**))(١).

ونحوه حديث: أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سألت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أي العمل أفضل؟ قال: ((**إيمان بالله، وجهاد في سبيله**))(٢).

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما جعل الجهاد في هذا الحديث أفضل من الحج؛ لأن ذلك كان في أول الإسلام وقلّته، وكان الجهاد فرضًا متعينًا على كل أحد، فأما إذ ظهر الإسلام وفشا، وصار الجهاد من فروض الكفاية على من قام به، فالحج حينئذ أفضل؛ ألا ترى قوله لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: ((**إن أفضل جهادكن: الحج**))(٣) لما لم يكنَّ من أهل القتال والجهاد للمشركين، فإن حلَّ العدو ببلدة، واحتيج إلى دفعه، وكان له ظهور وقوة وخيف منه؛ توجه فرض الجهاد على العيان، وكان أفضل من الحج -والله أعلم-"(٤).

وفي الحديث: ((**رأسُ الأمرِ: الإسلامُ، وعَمُودُهُ: الصَّلاة، وذِرْوَةُ سَنَامِه: الجهادُ**))(٥).

---

(١) صحيح البخاري [١٥١٩]، مسلم [٨٣].

(٢) صحيح البخاري [٢٥١٨]، صحيح مسلم [٨٤].

(٣) ونص الحديث عند الإمام البخاري رَحِمَهُ اللَّهُ [٢٨٧٥]: عن عائشة -أم المؤمنين- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: استأذنت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجهاد، فقال: ((جهادكن الحج)). وفي رواية: عن عائشة أم المؤمنين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: يا رسول الله، نرى الجهاد أفضل العمل، أفلا نجاهد؟ قال: ((لا، لكن أفضل الجهاد: حج مبرور)) صحيح البخاري [١٥٢٠، ٢٧٨٤].

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٩٠/٤).

(٥) أخرجه معمر بن أبي عمرو راشد [٢٠٣٠٣]، والطيالسي [٥٦١]، وابن حميد [١١٢]، وأحمد [٢٢٠١٦]، وابن ماجه [٣٩٧٣]، والترمذي [٢٦١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [١١٣٣٠]، والطبراني [٢٩١]، والحاكم [٣٥٤٨]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٢٠٤٩].

ومن أفضل الجهاد من حيث معناه اللغوي العام: ما جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إن من أعظم الجهاد: كلمة حق عند سلطان جائر**))(١).

قوله: ((**كلمة حق**)) بالإضافة، ويجوز تركها وتنوينها. وفي رواية للترمذي: ((**عدل**)) بدل: ((**حق**)). وأراد بالكلمة: الكلام وما يقوم مقامه كالخط. ((**عند سلطان جائر**)) أي: ظالم؛ لأن مجاهد العدو متردد بين رجاء وخوف، وصاحب السلطان إذا أمره بمعروف تعرض للتلف، فهو أفضل من جهة غلبة خوفه، ولأن ظلم السلطان يسري إلى جم غفير، فإذا كفه فقد أوصل النفع إلى خلق كثير، بخلاف قتل كافر(٢).

وقد سئل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أي العمل أحبُّ إلى الله؟ قال: ((**الصلاة على وقتها**))، قيل: ثم أي؟ قال: ((**ثم بر الوالدين**))، قيل: ثم أي؟ قال: ((**الجهاد في سبيل الله**))(٣).

وقدم في الحديث: برَّ الوالدين على الجهاد؛ إشارةً إلى أن حقوق العباد اللَّازمة (التي هي من فروض الأعيان) تقدم على التطوع بالجهاد(٤)، يعني: من باب تقديم فرض العين على فرض الكفاية. ويدل عليه حديث: عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستأذنه في الجهاد، فقال: ((**أحيٌّ والداك؟**))، قال: نعم، قال: ((**ففيهما فجاهد**))(٥).

---

(١) أخرجه ابن ماجه [٤٠١١]، وأبو داود [٤٣٤٤]، والترمذي [٢١٧٤]، وقال: "حسن غريب". والطبراني في (مكارم الأخلاق) [١٣٣]، والقضاعي [١٢٨٧].

(٢) انظر: فيض القدير (٢/٣٠)، معالم السنن (٤/٣٥٠).

(٣) صحيح البخاري [٥٢٧، ٥٩٧٠]، مسلم [٨٥] عن عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٤) انظر: فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن رجب (٤/٢١٦).

(٥) صحيح البخاري [٣٠٠٤، ٥٩٧٢]، مسلم [٢٥٤٩].

قال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (شرح السنة): "هذا في جهاد التطوع لا يخرج إلَّا بإذن الأبوين إذا كانا مسلمين. فإن كان الجهاد فرضًا متعينًا، فلا حاجة إلى إذنهما، وإن منعاه عصاهما وخرج.

وإن كان الأبوان كافرين، فيخرج دون إذنهما، فرضًا كان الجهاد أو تطوعًا، وكذلك لا يخرج إلى شيء من التطوعات كالحج والعمرة والزيارة، ولا يصوم التطوع إذا كره الوالدان المسلمان أو أحدهما إلا بإذنهما، وما كان فرضًا فلا يحتاج فيه إلى إذنهما، وكذلك لا يخرج إلى جهاد التطوع إلا بإذن الغرماء إذا كان لهم عليه دين عاجل، كما لا يخرج إلى الحج إلا بإذنهم، فإن تعين عليه فرض الجهاد لم يُعَرِّجْ على الإذن"(١).

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى حديث: ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن الصلاة المفروضة، وبر الوالدين، والجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ أفضل الأعمال بعد الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك أن من ضيع الصلاة المفروضة، حتى خرج وقتها لغير عذر فقدرته مع خِفَّةِ مُؤْنَتِهَا، وعظم فضلها، فهو لا شك لغيرها من أمر الدين والإسلام أشد تضيعًا، وبه أشد تهاونًا واستخفافًا، وكذلك من ترك بر والديه، وضيع حقوقهما، مع عظيم حقهما عليه، بتربيتهما إياه، وتقطعهما عليه، ورفقهما به صغيرًا، وإحسانهما إليه كثيرًا، وخالف أمر الله عَزَّوَجَلَّ ووصيته إياه فيهما، فهو لغير ذلك من حقوق الله أشد تضييعًا، وكذلك من ترك جهاد أعداء الله عَزَّوَجَلَّ، وخالف أمره فى قتالهم مع كفرهم بالله عَزَّوَجَلَّ، ومناصبتهم أنبياءه وأولياءه للحرب، فهو لجهاد من دونهم من فساق أهل التوحيد، ومحاربة من سواهم من أهل الزيغ والنفاق أشد تركًا، فهذه الأمور الثلاثه تجمع المحافظة عليهن الدلالة لمن

---

(١) انظر: شرح السنة، للبغوي (١٠/٣٧٨). "ولو منعه أبواه الكافران عن الخروج للجهاد الكفائي، مخافة عليه، ومشقة لهما بخروجه وتركهما، فعند الحنفية: لهما ذلك، ولا يخرج إلا بإذنهما برًا بهما وطاعة لهما، إلا إذا كان منعهما له لكراهة قتال أهل دينهما، فإنه لا يطيعهما ويخرج له" الموسوعة الفقهية الكويتية (٨/٦٦)، حاشية ابن عابدين (٣/٢٢٠).

حافظهن أنه محافظ على ما سواهن، ويجمع تضييعهن الدلالة على تضييع ما سواهن من أمر الدين والإسلام؛ فلذلك خصهن صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بأنهن أفضل الأعمال"(١).

ولا شك أن بلوغَ الأهدافِ الكُبرى والنبيلة في الحياة يستلزم تضحياتٍ كبرى، ولا ريب أن سمو الأهداف، وشرف المقاصد، ونبل الغايات، تقتضي سموَّ التضحيات، وشرفها، ورُقِيَّ منازلها، وإذا كان أشرفُ التضحيات وأسماها ما كان ابتغاءَ رضوان الله تعالى ومحبته، ورجاءَ نيل النعيم المقيم في جنات النعيم، فإنَّ الذود عن حياض هذا الدين، والذَّبَّ عن حوذته، والمنافحة عن كتابه وشرعه ومقدساته يتبوأُ أرفع درجات هذا الرضوان. ثم إن للتضحيات ألوانًا كثيرة ودروبًا متعددة، لكن تأتي في الذروة منها: التضحية بالنفس، وبذل الروح رخيصة في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لدحر أعداء الله عَزَّ وَجَلَّ، ونصر دينه، وهذا هو المراد من مصطلح الشهادة والاستشهاد في حقيقته؛ فإن من أعظم علامات الصدق في المحبة: بذل النفس في سبيل الله عَزَّ وَجَلَّ، وقول المسلم: أحب الله عَزَّ وَجَلَّ هي دعوى ينبغي أن يصدقها العمل، ولا عمل فوق هذا. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ﴾ [الصف:٤]. فليس هو مجرد القتال، ولكنه هو القتال في سبيله. وفي الحديث: عن أبي موسى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله ما القتال في سبيل الله؟ فإن أحدنا يقاتل غضبًا، ويقاتل حَمِيَّةً، فرفع إليه رأسه، قال: وما رفع إليه رأسه إلا أنه كان قائمًا، فقال: ((**من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله** عَزَّ وَجَلَّ))(٢).

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٦/٥)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٤/٦)، عمدة القاري، لبدر الدين العينى (٧٩/١٤).

(٢) صحيح البخاري [١٢٣، ٢٨١٠، ٣١٢٦، ٧٤٥٨]، مسلم [١٩٠٤].

والآيات التي تحث على الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وتبين عاقبته، والغاية من تشريعه كثيرة، فمن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ ﴿١٤١﴾ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران:١٣٩-١٤٢].

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٤٨﴾﴾ [آل عمران:١٤٦-١٤٨].

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا غُزًّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [آل عمران:١٥٦-١٥٧].

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ومن ذلك فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾ [آل عمران:١٩٥].

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ مبينًا أن الجهاد في سبيله سبب للرفعة والعز والبقاء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى

الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [المائدة:٥٤].

ومن ذلك قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِى سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴿٢٠﴾ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ ﴿٢١﴾ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٢٢﴾﴾ [التوبة:١٩-٢٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا عاقبة الجهاد في سبيله: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة:١١١].

قوله: ﴿وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ﴾ إخبار من الله عَزَّوَجَلَّ: أن في فريضة الجهاد استحقاق الجنة بها، قد ثبت الوعد بها من الله عَزَّوَجَلَّ في التوراة والإنجيل، كما وقع في القرآن(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾ وَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ ﴿٤٠﴾﴾ [الأنفال:٣٩-٤٠].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠].

---

(١) انظر: فتح القدير، للشوكاني (٢/٤٦٤)، التحرير والتنوير (١١/٣٧).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُمْ مُدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [الحج:٥٨-٥٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ﴿٤﴾ سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴿٧﴾﴾ [محمد:٤-٧].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿١٠﴾ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١١﴾ يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٢﴾ وَأُخْرَى تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٣﴾﴾ [الصف:١٠-١٣].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هَا أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ﴾ [محمد:٣٨].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد:١٠].

فمن الواجب الذي لم تغفله الشرائع، بل حثت عليه: الدفاع عن الوطن إذا داهمه عدو، وهذا النوع من الجهاد واجب على كل من قدر على حمل السلاح. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة:١٩٠].

ومن الواجب: الدفاع عن النفس، والعرض، والمال، والوطن عند الاعتداء. وفي الحديث: عن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **((من**

قتل دون ماله فهو شهيد، ومن قتل دون دينه فهو شهيد، ومن قتل دون دمه فهو شهيد، ومن قتل دون أهله فهو شهيد))[1]. ويقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ﴾ [البقرة:٢٤٦].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ للوطن قداسة، وأمر بالذود عنه، فأذن بالقتال لمن أخرج من دياره بغير حق، ولا يتسنى له إقامة الشعائر الإسلامية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ۝٣٩ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج:٣٩-٤٠].

وقد تقدم في مبحث: (خطورة الفرار من الزحف وبيان عاقبته) أن الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ من أسباب الوقاية من النَّار.

والجهاد سبب عز الإسلام والمسلمين، وقد شرع لدفع الفساد عن العباد، ولإعلاء كلمة الله عَزَّوَجَلَّ، ولتمحيص للقلوب، واختبار النفوس، وهو من أسباب التمكين في الأرض، ففيه خير الدنيا من العز والتمكين، والآخرة من رفعة الدرجات، والثواب الجزيل.

وإذا كان هذا فضل الجهاد فإن عاقبة التخلف عنه من غير عذر: سوء الخاتمة، والعذاب في الآخرة –كما سيأتي– قال النيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي ترك الجهاد استحقاق النار والعذاب"[2].

---

(١) أخرجه أحمد [١٦٥٢]، وعبد بن حميد [١٠٦]، وأبو داود [٤٧٧٢]، والترمذي [١٤٢١]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه النسائي [٤٠٩٥]، والبيهقي [٦٠٦٢]، والضياء [١٠٩٣]، وقال: "إسناده حسن".

(٢) غرائب القرآن (٦١١/١).

فإذا تبين لك مراتب الجهاد علمتَ أن المراد المقصود من البحث هو بيان عاقبة التخلف عن جهاد العدو الظاهر من الكفار والمنافقين ومن في حكمهم، وأنه من الذنوب المتوعد عليها بالنار.

ثانيًا: خطورة ترك الجهاد عند تعينه:

الجهاد فرض عين عند النفير العام، وكفاية عند عدمه. والتخلف عنه عند تعينه من غير عذر من الكبائر المتوعد عليها بالعذاب في الآخرة.

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ترك الجهاد عند تعينه بأن دخل الحربيون دار الإسلام، أو أخذوا مسلمًا وأمكن تخليصه منهم، وترك الناس الجهاد من أصله، وترك أهل الإقليم تحصين ثغورهم بحيث يخاف عليها من استيلاء الكفار بسبب ترك ذلك التحصين"(١).

وقد فرض الجهاد لإعزاز دين الله عَزَّوَجَلَّ، ودفع الفساد عن العباد، وكل ما هو كذلك فهو فرض كفاية إذا حصل المقصود بالبعض، وإلا ففرض عين.

وهذا الحكم في فرضية الجهاد متفق عليه بين الفقهاء، ولكن من لا قدرة له فلا يطالب بالجهاد؛ لأنه معذور، وقد نفى الله عَزَّوَجَلَّ الحرج عن ذوي العاهات في التخلف عن الغزو، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [الفتح:١٧].

فذكر الأعذار في ترك الجهاد، فمنها: لازم، كالعمى، والعرج المستمر، وعارض، كالمرض الذي يطرأ أيامًا ثم يزول، فهو في حال مرضه ملحق بذوي الأعذار اللازمة حتى يبرأ.

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٢٦٩).

ثم قال سُبْحَانَهُوَتَعَالَى مرغبًا في الجهاد وطاعة الله جَلَّوَعَلَا ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ﴾، أي: ينكل عن الجهاد، ويقبل على المعاش. ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ في الدنيا بالمذلة، وفي الآخرة بالنار[1].

وقال: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة:٩١-٩٥].

وقد تقدم أن القتال من الضرورات التي لا يحبها الناس بطبعهم، ومعلوم أن كراهية الطبع الفعل لا تنافي تلقي التكليف به برضا؛ لأن أكثر التكليف لا يخلو عن مشقة.

وقد علم المؤمن ما في الجهاد من إحقاق الحق، ودفع الباطل، ورفع الظلم، وحفظ الأمة، وإقامة العدل، وما فيه من الثواب العظيم في الآخرة، والفوز برضوان الله عَزَّوَجَلَّ ومحبته، وفي المقابل فإن تركه يفضي إلى ضرر عظيم؛ فلذلك كان المؤمن محبًّا له لأجل ذلك.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢١٦].

---

(١) تفسير ابن كثير (٧/٣٣٩).

والمعنى: "فرض عليكم أيها المسلمون قتال الكفار، وهو كره لكم، ولعلَّكم تكرهون شيئًا وهو خير لكم، ولعلكم تحبون شيئًا وهو شرّ لكم، إذ هم يكرهون القتال. وفيه: الفتح والغنيمة والشهادة والقوة. ويحبون القعود، وفيه: الذل والاستعباد، والله يعلم ما هو خير لكم مما هو شر لكم. فلا تكرهوا ما فرض عليكم من القتال. فإنّه يعلم أنه خير لكم في عاجلكم، ولا تحبوا القعود، فإنّه شر لكم، فإنّ الدنيا بنيت على التدافع، وأنتم لا تعلمون ما يعلمه الله عَزَّوَجَلَّ"(١).

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني بذلك جل ثناؤه: ولا تكرهوا القتالَ، فإنكم لعلكم أن تكرهوه وهو خيرٌ لكم، ولا تحبوا تركَ الجهاد، فلعلكم أن تحبوه وهو شر لكم.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ يعني بذلك جل ثناؤه: والله يعلم ما هو خيرٌ لكم، مما هو شر لكم، فلا تكرهوا ما كتبتُ عليكم من جهاد عدوكم، وقتال من أمرتكم بقتاله، فإني أعلم أنَّ قتالكم إياهم، هو خيرٌ لكم في عاجلكم ومعادكم، وترككم قتالهم شر لكم، وأنتم لا تعلمون من ذلك ما أعلم، يحضُّهم جل ذكره بذلك على جهاد أعدائه، ويرغِّبهم في قتال من كفر به"(٢).

و"ترك الجهاد وإن كان يفيد في الحال صون النفس عن خطر القتل وصون المال عن الإنفاق، ولكن فيه أنواع من المفاسد والمضار، أدناها: تسلط الكفار واستيلاؤهم على ديار المسلمين، وربما يؤدي إلى أن استباحوا بيضة الإسلام، واستناخوا بحريمهم، واستأصلوهم عن آخرهم.

وأما منافع الجهاد فمنها: الظفر بالغنائم، ومنها: الفرح العظيم بالاستيلاء على العدو.

---

(١) تفسير آيات الأحكام، محمد علي السايس (ص:١٢٧).

(٢) تفسير الطبري (٤/ ٢٩٨- ٢٩٩).

وأما ما يتعلق بالدين فالثبات عليه، والثواب في الآخرة، وترغيب الناس في الإسلام، وإعلاء كلمة الله عَزَّوَجَلَّ، وتوطين النفس للفراق عن دار البلاء، والانقطاع عن عالم الحس"[١].

وإن ترك الجهاد عند تعينه من أسباب الهلاك، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن ذلك في قوله: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة:١٩٥]. قيل: إن الآية نزلت في ترك الجهاد، والإخلاد إلى الراحة، وإصلاح الأموال، قاله أبو أيوب[٢]، كما جاء في الحديث: عن أسلم أبي عمران التُّجِيبِيِّ، قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صَفًّا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عقبة بن عامر، وعلى الجماعة فَضَالَةُ بن عبيد، فحمل رجل من المسلمين على صَفِّ الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فقال: يا أيها الناس: إنكم لتؤولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار لما أَعَزَّ الله الإسلام وكَثُرَ ناصروه، فقال بعضنا لبعض سِرًّا دون رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن أموالنا قد ضاعت، وإن الله عَزَّوَجَلَّ قد أَعَزَّ الإسلام وكَثُرَ ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا، فأصلحنا ما ضاع منها. فأنزل الله جَلَّ وَعَلَا على نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرُدُّ علينا ما قلنا: ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]، فكانت التهلكة: الإقامة على الأموال

---

(١) غرائب القرآن ورغائب الفرقان (١/ ٥٩٤)، مفاتيح الغيب (٦/٣٨٥).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٣/٥٩٠)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١/٣٣٠)، بحر العلوم (١/١٢٩)، الكشف والبيان (٢/٩٢)، تفسير السمعاني (١/١٩٥)، تفسير ابن كثير (١/٥٢٨)، البحر المحيط في التفسير (٢/٢٥١)، أحكام القرآن، للجصاص (١/٣٢٧)، أحكام القرآن، للكيا الهراسي (١/٨٧).

وإصلاحها، وتركنا الغزو. فما زال أبو أيوب، شاخصًا في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ حتى دفن بأرض الروم(١).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد فهم من قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥]: انغماس الرجل في العدو حتى بين له أبو أيوب الأنصاري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن هذا ليس من الإلقاء بيده إلى التهلكة، بل هو من بيع الرجل نفسه ابتغاء مرضات الله عَزَّوَجَلَّ، وأن الإلقاء بيده إلى التهلكة هو ترك الجهاد والإقبال على الدنيا وعمارتها"(٢).

ومن أسباب الهلاك: طاعة الذين كفروا فيما يدعون إليه من ترك الجهاد، وما يروجون له من المناهج التي تحمل الناس على الكفر والشرك. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٩]. قيل: معناه: إن تطيعوهم فيما يأمرونكم به من ترك الجهاد ﴿يَرُدُّوكُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ يعني: يرجعوكم إلى أمركم الأول، وهو الكفر والشرك بالله عَزَّوَجَلَّ بعد الإيمان به؛ لأن قبول قولهم في الدعوة إلى الكفر كفر. ﴿فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾، يعني: مغبونين في الدنيا والآخرة. أما خسار الدنيا فهو طاعة الكفار والتذلل للأعداء، وأما خسار الآخرة فهو دخول النار، وحرمان دار القرار(٣).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا أن الجهاد لا ينقص أجلًا قدره الله عَزَّوَجَلَّ على أحد من خلقه: ﴿قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [آل عمران:١٥٤]. فشتان

---

(١) أخرجه الطيالسي في (مسنده) [٦٠٠]، وأبو داود [٢٥١٢]، والترمذي [٢٩٧٢]، واللفظ له، وقال: "حسن صحيح غريب"، وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [١٠٩٦٢]، وابن حبان [٤٧١١]، والحاكم [٢٤٣٤]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين" ووافقه الذهبي.

(٢) إعلام الموقعين عن رب العالمين (٢٦٦/١).

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل، للخازن (٣٠٦/١-٣٠٧).

بين من يموت في سبيل الله عزيزًا، فينال شرف الشهادة، وينقلب إلى ما أعده الله عَزَّوَجَلَّ له في الآخرة من النعيم الدائم في دار الخلد والكرامة، وبين من يموت خانعًا ذليلًا قد باع دينه وشرفه وعرضه، وينقلب إلى ما أعده الله عَزَّوَجَلَّ له في الآخرة من العذاب الدائم.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ عن المثبطين الذين لا يستطيعون أن يدفعوا عن أنفسهم قدر الله عَزَّوَجَلَّ إذا حضرهم الموت: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]، أي: إن كنتم صادقين أنكم تقدرون على دفع القتل عمن كتب عليه فادفعوا عن أنفسكم الموت وأسبابه، فإنه أحرى بكم، فكما أن الحذر لا يغني من القدر كذلك فإن الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلًا ولا يباعده، بل الأجل المحتوم، والرزق المقسوم مقدر مقنن، لا يزاد فيه، ولا ينقص منه.

ونحوه قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا وَاجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصِيرًا ۝٧٥ الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ۝٧٦ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً وَقَالُوا رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا الْقِتَالَ لَوْلَا أَخَّرْتَنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ۝٧٧ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِكْكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُشَيَّدَةٍ﴾ [النساء:٧٥-٧٨].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ يعاتبهم على ترك الجهاد ويحرضهم عليه. وفيه دليل على أن الجهاد واجب، والمعنى: لا عذر لكم في ترك الجهاد وقد بلغ حال المستضعفين ما بلغ من الضعف والأذى(١).

(١) انظر: معالم التنزيل (٦٦٣/١)، تفسير الإيجي (٣٧٦/١)، تفسير القرطبي (٣٦١/٢)، لباب التأويل (٣٩٩/١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ محرضًا على الجهاد في سبيله: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنْكِيلًا﴾ [النساء:٨٤].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة:٢٤].

فقوله في هذه الأشياء: إذا كانت ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ﴾ يدل على أن محبة هذه الأشياء في الأصل لا حرج فيها، فالإنسان يحب والده، ويحب ولده، ويحب أخاه، ويحب قبيلته، ويحب ماله، ويحب تجارته، ويحب مسكنه. فأصل المحبة لهذه الأشياء مباح؛ لأنها من المحبة الطبيعية، لكن إنما يأتي اللوم إذا قدَّم محبة هذه الأشياء على محبة الله عَزَّوَجَلَّ فأخَّرته هذه الأشياء عن طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وعن الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ [التوبة:٣٨-٣٩].

فقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ قال المفسرون: معناه: تثاقلتم وتباطأتم إلى الأرض، أي: لزمتم أرضكم ومساكنكم، وهذا توبيخ على ترك الجهاد، وعتاب في التقاعد عن المبادرة إلى الخروج. وأصله: تثاقلتم، أدغمت التاء في الثاء لقربها منها، واحتاجت إلى ألف الوصل لتصل إلى النطق بالساكن[1].

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٤٠/٨)، أحكام القرآن، للقاضي أبي بكر بن العربي (٥١٠/٢).

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا﴾، أي: ولا تضروا الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا بتوليكم عن الجهاد وتخاذلكم وتثاقلكم عنه. ﴿وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾، أي: قادر على الانتصار من الأعداء بدونكم.

وقد أخرج الحاكم: عن نجدة بن نفيع، قال: سألت ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ قال: استنفر رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حيًّا من أحياء العرب، فتثاقلوا، فأمسك عنهم المطر، وكان عذابهم(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿انْفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ وَلَكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا اللَّهُ عَنْكَ لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴿٤٩﴾﴾ [التوبة:٤١-٤٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا أن ترك الجهاد من غير عذر من صفات المنافقين: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ﴾ [التوبة:٦٧].

---

(١) أخرجه الحاكم [٢٥٠٤]، وقال: "صحيح الإسناد ولم يخرجاه" ووافقه الذهبي.

قيل: إن قبض أيديهم عبارة عن ترك الجهاد، وفيما يجب عليهم من حق[1].

قال الإمام الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه أربعة أقاويل:

أحدها: يقبضونها عن الإنفاق في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، قاله الحسن ومجاهد رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ.

والثاني: يقبضونها عن كل خير، قاله قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

والثالث: يقبضونها عن الجهاد مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قاله بعض المتأخرين.

والرابع: يقبضون أيديهم عن رفعها في الدعاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ"[2].

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قيل عن كل خير واجب من زكاة وصدقة وإنفاق في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وهذا أقرب؛ لأنه تعالى لا يذمهم إلا بترك الواجب، ويدخل فيه: ترك الإنفاق في الجهاد، ونبه بذلك على تخلفهم عن الجهاد، والأصل في هذا أن المعطي يمد يده ويبسطها بالعطاء، فقيل لمن منع وبخل: قد قبض يده.

والمنافق إذا أمره الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالمسارعة إلى الجهاد فإنه يتخلف بنفسه، ويثبط غيره، كما وصفه الله عَزَّوَجَلَّ بذلك، والمؤمنون بالضد منهم"[3].

ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ لَكِنِ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٨٨﴾ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿٨٩﴾ وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى

(١) تفسير القرطبي (١٩٩/٨).

(٢) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٣٧٩/٢)، وانظر: زاد المسير (٢٧٦/٢)، البحر المحيط في التفسير (٤٥٥/٥)، تفسير السمعاني (٣٢٥/٢).

(٣) مفاتيح الغيب (٩٧/١٦)، (١٠١/١٦).

الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ ﴿٩٢﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٤﴾ سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة:٨٦-٩٥].

وقال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾﴾ [التوبة:١٢٠-١٢١].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَا أَمْوَالُنَا وَأَهْلُونَا فَاسْتَغْفِرْ لَنَا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَى أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ [الفتح:١١-١٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلَى مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونَا كَذَلِكُمْ قَالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ

أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ [الفتح:١٥-١٦].

قال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا أن من عاقبة التخلف عن الجهاد من غير عذر: سوء الخاتمة، والعذاب في الآخرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾ [محمد:٢٥-٢٨].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ﴾ سنطيعكم في التظافر على عداوة رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والقعود عن الجهاد معه، وكانوا يقولونه سِرًّا، فأخبر الله عَزَّوَجَلَّ عنهم. ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ﴾. فكيف يكون حالهم إذا توفتهم الملائكة ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ﴾؟! يعني ذلك الضرب ﴿بِأَنَّهُمْ﴾ يعني: بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾ يعني: ترك الجهاد مع رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ(١).

وترك الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ مما يدخل في عموم ما أسخط الله جَلَّوَعَلَا.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**من مات ولم يَغْزُ، ولم يُحَدِّثْ به نفسه، مات على شُعْبَة مِنْ نِفَاق**))(٢)، أي: نوع من أنواع النفاق؛ أي: من مات على هذا فقد أشبه المنافقين والمتخلفين عن الجهاد، ومن تشبه بقوم فهو منهم.

---

(١) انظر: الكشاف (٣٢٧/٤)، البحر المحيط في التفسير (٤٧٤/٩)، غرائب القرآن (١٣٧/٦)، الخازن (١٤٩/٤)، الكشف والبيان (٣٧/٩) تفسير البغوي (٢١٧/٤).

(٢) صحيح مسلم [١٩١٠].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المراد أن من فعل هذا فقد أشبه المنافقين المتخلِّفين عن الجهاد في هذا الوصف؛ فإن ترك الجهاد أحد شعب النفاق. وفي هذا الحديث: أن من نوى فعل عبادة فمات قبل فعلها لا يتوجَّه عليه من الذم ما يتوجَّه على من مات ولم ينوها"(١).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أن رجالًا من المنافقين على عهد رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا خرج رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الغزو تخلفوا عنه، وفرحوا بمقعدهم خلاف رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإذا قدم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اعتذروا إليه، وحلفوا وأحبوا أن يحمدوا بما لم يفعلوا، فنزلت: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ [آل عمران:١٨٨](٢).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا يقول: سمعت النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة**))، قال: فينزل عيسى ابن مريم عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ فيقول أميرهم: تعال صل لنا، فيقول: لا، إن بعضكم على بعض أمراء تكرمة الله هذه الأمة(٣).

وفي رواية: عن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من يرد الله به خيرا يُفَقِّهْهُ في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم، إلى يوم القيامة**))(٤).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٣/ ٥٦)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٤٧٠).
(٢) صحيح البخاري [٤٥٦٧]، صحيح مسلم [٢٧٧٧].
(٣) صحيح مسلم [١٥٦، ١٩٢٣].
(٤) صحيح مسلم [١٠٣٧].

والحاصل أن التخلف عن الجهاد، والقعود عنه من غير عذر عند تعينه من كبائر الذنوب المتوعد عليها بالعذاب في الآخرة، ويترتب عليه الكثير من المفاسد العاجلة والآجلة، فأما العاجلة فإنه يطمع الأعداء، ويجعل الأمة ضعيفة خاضعة ذليلة مؤتمرة، كما أنه يهدد وجودها وهويتها وثقافتها واستقلالها، وهو من مظاهر النِّفاق، وسوء الأخلاق، وسبب لتفشي الفساد، ولكثير من الشرور التي تورث الذل والصغار.

وأما الآجلة فهو سبب لسخط الله عَزَّوَجَلَّ، واستحقاق النار والعذاب.

ثالثًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج:

١ – أن يفقه المسلم أحكام الجهاد، وفضله، وأهدافه ومقاصده، وعاقبته، وأن يكون مُحبًّا للجهاد، ولبذل النفس في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ:

وقد تقدم بيان ذلك في أسباب الوقاية من (خطورة الفرار من الزحف).

٢ – أن يكون العبد على دراية بعاقبة ترك الجهاد أو التخلف عنه من غير عذر، والآثار المترتبة على ذلك في الدنيا والآخرة.

٤ – حثُّ الناس على الجهاد في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى الثبات عند لقاء الأعداء.

٥ – أن يكون العبد على دراية بمكانة الشهيد ومنزلته:

وقد تقدم بيان ذلك في أسباب الوقاية من (خطورة الفرار من الزحف).

٦ – إعداد العدة للقتال:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٦٠].

٧ – جهاد النفس والهوى والشيطان:

إن أول عدة الجهاد: الصبر والإرادة القوية، فمن لم يجاهد نفسه هيهات أن يجاهد عدوًّا، ومن لم ينتصر على نفسه وشهواتها هيهات أن ينتصر على عدوه. ومن لم يصبر على جوع هيهات أن يصبر على فراق أهل ووطن من أجل هدف كبير.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: علق الله عَزَّوَجَلَّ الهداية بالجهاد، فأكمل الناس هداية أعظمهم جهادًا، وأفرض الجهاد: جهاد النفس، وجهاد الهوى، وجهاد الشيطان، وجهاد الدنيا. فمن جاهد هذه الأربعة في الله عَزَّوَجَلَّ هداه الله سبل رضاه الموصلة إلى جنته، ومن ترك الجهاد فاته من الهدى بحسب ما عطل من الجهاد.

قال الجنيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا﴾ أهواءهم فينا بالتوبة ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ﴾ سبل الإخلاص، ولا يتمكن من جهاد عدوه في الظاهر إلا من جاهد هذه الأعداء باطنًا، فمن نصر عليها نصر على عدوه، ومن نصرت عليه نصر عليه عدوه"(١).

فلا ينبغي للمسلم أن يسترسل في اتباع رغبات النفس؛ فإن الاسترسال في متابعة النفس والهوى له مضار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية.

ومن أراد أن يسلك طريق السعادة فعليه أن يخالف النفس والهوى والشيطان، وأن يتبع منهج الله عَزَّوَجَلَّ القويم، وشِرعته المباركة، التي أنزلها ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، فذلك السبيل الذي ينجو به الناس من الغواية، وسلطان الهوى، فلا سبيل إلا بالاتباع، ولا نجاة إلَّا بالانقياد.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سمعت شيخنا –يعني: ابن تيمية– يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين؛ فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه

(١) الفوائد، لابن القيم (ص:٥٩).

أولًا حتى يخرج إليهم"(١). "فمن قهر هواه عز وساد، ومن قهره هواه ذل وهان وهلك وباد"(٢).

ومجاهدة النفس والهوى تقرِّب العبدَ إلى الله جَلَّ وَعَلَا، فيكون في حفظ الله عَزَّ وَجَلَّ ورعايته.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه". وقال: "إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله عَزَّ وَجَلَّ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى"(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولما كان جهاد أعداء الله عَزَّ وَجَلَّ في الخارج فرعًا على جهاد العبد نفسه في ذات الله عَزَّ وَجَلَّ، كما قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((المجاهد من جاهد نفسه في طاعة الله))**(٤)، **((والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه))**(٥) كان جهاد النَّفس مقدَّمًا على جهاد العدوّ في الخارج، وأصلًا له، فإنَّه ما لم يجاهد نفسه أوّلا لتفعل ما أمرت به، وتترك ما نهيت عنه، ويحاربها في الله عَزَّ وَجَلَّ، لم يمكنه جهاد عدوّه في الخارج. فهذان العدوّان: عدو الخارج، وعدو النَّفس، وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهادهما إلَّا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبِّط العبد عن جهادهما، فكان جهاده هو الأصل لجهادهما، وهو

---

(١) روضة المحبين (ص:٤٧٨).

(٢) غذاء الألباب في شرح منظومة الآداب، للسفاريني الحنبلي (٢/ ٤٥٨).

(٣) روضة المحبين (١/٤٨٤-٤٨٥).

(٤) أخرجه ابن المبارك في (الجهاد) [١٧٥]، وأحمد [٢٣٩٥١]، والترمذي [١٦٢١]، وقال: "حسن صحيح".
وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (الجهاد) [١٤]، والنسائي في (الكبرى) [١١٧٩٤]، وابن حبان [٤٦٢٤]، والطبراني [٧٩٧]، والقضاعي [١٨٤]، والبيهقي في (الزهد الكبير) [٣٦٩]، والديلمي [٦٦٢٩].

(٥) صحيح البخاري [١٠، ٦٤٨٤].

الشَّيطان، فهذه الأعداء الثَّلاثة أمر العبد بمحاربتها وجهادها، وقد بلي بمحاربتها في هذه الدَّار، وسلِّطت عليه؛ امتحانًا من الله عَزَّوَجَلَّ له وابتلاء، فأعطى الله عَزَّوَجَلَّ العبد مددًا وعدَّة وأعوانًا وسلاحًا لهذا الجهاد"[1].

*** ***

ويقال أيضًا في (أسباب الوقاية من آفات التخلف عن الجهاد بغير عذر) ما قيل في (أسباب الوقاية من الفِرَار من الزَّحْف).

(١) زاد المعاد في هدي خير العباد (٣/٥-٨).

المبحث السادس عشر
الانتحار

أولًا: الانتحار من حيث كونه من الكبائر المتوعد عليها بالنار:

إن الانتحار من كبائر الذنوب، ومن الذنوب المتوعد عليها بالنار، وقد بيَّن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن المنتحر يعذَّبُ بمثلِ ما قتلَ به نفسه كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من تَرَدَّى من جبل فقتل نفسه، فهو في نار جهنم يَتَرَدَّى فيه خالدًا مخلدًا فيها أبدًا، ومن تَحَسَّى سُمًّا فقتل نفسه، فَسُمُّهُ في يده يَتَحَسَّاهُ في نار جهنم خالدًا مُخَلَّدًا فيها أبدًا، ومن قتل نفسه بحديدة، فحديدته في يده يجأ بها في بطنه في نار جهنم خالدًا مخلدًا فيها أبدًا**))(١).

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ اللهُ: "فإن قيل: غاية هذه الأشياء أنها معصية لا كفر فيها، فما وجه الخلود؟ فالجواب: أن ذكر الخلود إنما هو في رواية أبي صالح: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، وقد رواه سعيد المقبري والأعرج: عن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ولم يذكرا فيه: ((**خالدًا مخلدًا أبدًا**)). قال الترمذي رَحِمَهُ اللهُ: وهذا أصح؛ [لأن الروايات إنما تَجِيءُ بأن أهل التوحيد يُعَذَّبُونَ في النار، ثم يُخْرَجُونَ منها، ولم يُذْكَرْ أنهم يُخَلَّدُونَ فيها].

---

(١) صحيح البخاري [٥٧٧٨]، مسلم [١٠٩]. و((تردى)) بمعنى: سقط. و((يجأ بها)): أي: يضرب بها.

وقال القاضي أبو يعلى رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هذا محمول على من فعل ذلك مستحلًا لقتله، ومكذِّبًا بتحريم ذلك، بدليل الأحاديث المروية في أن المسلمين لا يخلَّدُون"[1].

وقد تمسك به المعتزلة وغيرهم ممن قال بتخليد أصحاب المعاصي في النار.

وأجاب أهل السنة عن ذلك بأجوبة منها: ما تقدم من قول الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأجاب غيره بحمل ذلك على من استحله فإنه يصير باستحلاله كافرًا، والكافر مخلد بلا ريب.

وقيل: ورد مورد الزجر والتغليظ، وحقيقته غير مرادة.

وقيل: المعنى أن هذا جزاؤه، لكن قد تكرم الله عَزَّوَجَلَّ على الموحدين فأخرجهم من النار بتوحيدهم.

وقيل: التقدير مخلدًا فيها إلى أن يشاء الله جَلَّوَعَلَا.

وقيل: المراد بالخلود طول المدة لا حقيقة الدوام، كأنه يقول: يخلد مدة معينة، وهذا أبعدها"[2].

وقال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا الحديث يشهد لصحة نهى الله عَزَّوَجَلَّ في كتابه المؤمن عن قتل نفسه فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء:٢٩-٣٠]، فأما من شرب سمًا للتداوي ولم يقصد به قتل نفسه وشرب منه مقدرًا مثله، أو خلطه بغيره مما يكسر ضره فليس بداخل في الوعيد؛ لأنه لم يقتل نفسه غير أنه يكره له ذلك؛ لما روى

---

(١) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/٤٥٣)، سنن الترمذي [٢٠٤٤].

(٢) فتح الباري (٣/٢٢٧-٢٢٨).

الترمذي قال: حدثنا بن نصر، حدثنا ابن المبارك، عن يونس بن أبي إسحاق، عن مجاهد، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**نهى النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **عن الدواء الخبيث**))[(١)].

قال أبو عيسى رَحِمَهُ اللَّهُ: يعنى: السُّمَّ"[(٢)].

فلا يجوز لمسلم أن يعرض نفسه للهلاك، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ [البقرة:١٩٥].

وجريمة الانتحار فيها التعدِّي على حق الله تعالى، فالنفس ليست ملكًا لصاحبها، وإنما ملك لله عَزَّ وَجَلَّ الذي خلقها، وهيَّأها لعبادته جَلَّ وَعَلَا، ولعمارة الكون بالخير والصلاح، وحرَّم إزهاقها بغير حقٍّ، فليس للإنسان يزهق نفسه أو يتصرف فيها؛ لأن ذلك من تصرف الإنسان فيما لا يملكه. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان:٦٨].

وعن ثابت بن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من قتل نفسه بشيء في الدنيا عذب به يوم القيامة**))[(٣)].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٣٤٢٧]، وأحمد [٨٠٤٨]، وابن ماجه [٣٤٥٩]، وأبو داود [٣٨٧٠]، والترمذي [٢٠٤٥]، والبزار [٩٣٥٨] والحاكم [٨٢٦٠]، وقال: حديث صحيح على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٣٧٤/٨)، والبيهقي [١٩٦٨٢]. وقد فسر الحاكم (الدواء الخبيث): بالخمر. فقال: هو الخمر بعينه بلا شك فيه. وقد اتفق الشيخان على حديث الثوري، وشعبة، عن منصور، عن أبي وائل، عن عبد الله: ((أن الله تعالى لم يجعل شفاءكم فيما حرم عليكم)). وأخرج (مسلم) وحده حديث شعبة، عن سماك بن حرب، عن علقمة بن وائل، عن أبيه، عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أنها ليست بدواء ولكنها داء)).كما حمل البيهقي في (السنن الكبرى) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((ولا تداووا بحرام))، وقول أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ((نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الدواء الخبيث)) على التداوي بالمسكر، أو على التداوي بكل حرام في غير حال الضرورة.

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٤٥٣/٩- ٤٥٤)، سنن الترمذي [٢٠٤٥].

(٣) صحيح البخاري [٦٠٤٧، ٦١٠٥، ٦٦٥٢]، مسلم [١١٠].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الذي يخنق نفسه يخنقها في النار، والذي يطعنها يطعنها في النار**))(١).

وعن جُنْدُب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال : قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كان فيمن كان قبلكم رجل به جُرْحٌ، فَجَزِعَ، فأخذ سِكِّينًا فَحَزَّ بها يده، فما رَقَأَ الدَّمُ حتى مات، قال الله تعالى: بَادَرَنِي عبدي بنفسه، حَرَّمْتُ عليه الجنة**))(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: شهدنا مع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال لرجل ممن يَدَّعِي الإسلام: ((**هذا من أهل النار**))، فلما حضر القتال قاتل الرجل قتالًا شديدًا فأصابته جِرَاحَةٌ، فقيل: يا رسول الله، الذي قلت له: إنه من أهل النار، فإنه قد قاتل اليوم قتالًا شديدًا وقد مات، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إلى النار**))، قال: فكاد بعض الناس أن يرتاب، فبينما هم على ذلك، إذ قيل: إنه لم يمت، ولكن به جراحًا شديدًا، فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، فأخبر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بذلك، فقال: ((**الله أكبر، أشهد أني عبد الله ورسوله**))، ثم أمر بلالًا فنادى بالناس: ((**إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة، وإن الله لَيُؤَيِّدُ هذا الدين بالرجل الفاجر**))(٣).

وعن سهل بن سعد السَّاعِدِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: التقى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والمشركون في بعض مَغَازِيهِ، فاقتتلوا، فمال كل قوم إلى عسكرهم، وفي المسلمين رجل لا يدع من المشركين شَاذَّةً ولا فَاذَّةً إلا اتَّبَعَهَا فضربها بسيفه، فقيل: يا رسول الله، ما أَجْزَأَ أَحَدٌ مَا أَجْزَأَ فُلاَنٌ، فقال: ((**إنه من أهل النار**))، فقالوا: أينا من أهل الجنة، إن كان هذا من أهل النار؟ فقال رجل من القوم: لَأَتَّبِعَنَّهُ، فإذا أسرع وأبطأ كنت معه، حتى جُرِحَ، فاستَعْجَلَ الموتَ، فوضعَ نِصَابَ سَيْفِه بالأرض، وَذُبَابَهُ بين ثَدْيَيْه، ثم تحامل عليه فقتل نفسه، فجاء

(١) صحيح البخاري [١٣٦٥].
(٢) صحيح البخاري [٣٤٦٣]، مسلم [١١٣].
(٣) صحيح البخاري [٣٠٦٢، ٤٢٠٣، ٦٦٠٦]، مسلم [١١١].

الرجل إلى النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: أشهد أنك رسول الله، فقال: ((**وما ذاك؟**))، فأخبره، فقال: ((**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وإنه لمن أهل النار، ويعمل بعمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة**))(١).

ويحمل هذا الحديث على التغليظ والتشديد، وعلى من فعل ذلك مستحلًّا ومكذِّبًا، بدليل الأحاديث المروية في أن المسلمين لا يخلَّدُون، فهو ليس كفرًا مخرجًا من الملة، بل هو من كبائر الذنوب التي يكون صاحبها في مشيئة الله تعالى إن شاء عفا عنه، وإن شاء عذبه، والله تعالى لا يظلم عباده.

وقد وردت الأحاديث في التغليظ والتشديد في عقوبة من قتل نفسه، وقد وقع التساهل في ذلك من كثيرين؛ لضعف إيمانهم. ولكن تختلف أحوال العباد في ذلك، والبواعث على هذا الفعل، فمن مستحلٍّ مكذِّبٍ، إلى متهاونٍ متساهلٍ جَزِعٍ لا يصبر على قضاء الله تعالى وقدره، إلى مريض لا يميز، فَقَدَ الاختيار والقدرة على التحمل، فلا يستوون.

كما تختلف قوة المرض، وقوة الدافع، فمن الأشخاص من يستحوذ الاكتئاب على نفسه، ويفقده التمييز، ومنهم من يغلق الغضب عليه أو وَقْعُ ما أصابه من نازلة منافذَ التعقل، ومنهم من يَضِلُّ في فهمه وتأويله، فمن أقدم مستحلًا لفعله فقد أنكر معلومًا من الدين بالضرورة، فلا يعذر.

ومن الأسرى من يقتل نفسه خشية من إجباره على إفشاء أسرار تضر بالمسلمين، فهذا حاله ليس كحال من قتل نفسه جزعًا، فتختلف أحوال الناس في ذلك.

فلا ينبغي لمسلم أن يقطع بمصير من أقدم على هذا الفعل، بل يكل أمره إلى الله عَزَّوَجَلَّ، وهو الحكم العدل، وهو أعلم بأحوال عباده.

---

(١) صحيح البخاري [٢٨٩٨، ٤٢٠٢]، مسلم [١١٢].

ولا يمنع الانتحار من الدعاء بالرحمة والمغفرة لمن ابتلي بذلك، بل هو أحوج إلى الدعاء شأنه شأن من أصاب كبيرة من الكبائر. وقد جاء في (صحيح مسلم)، باب: (الدليل على أن قاتل نفسه لا يكفر): عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن الطُّفَيْلَ بْنَ عَمْرٍو الدَّوْسِيَّ، أتى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: يا رسول الله، هل لك في حِصْنٍ حَصِينٍ وَمَنْعَةٍ؟[١] -قال: حصن كان لدوس في الجاهلية- فأبى ذلك النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للذي ذَخَرَ اللهُ لِلْأَنْصَارِ[٢]، فلما هاجر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى المدينة، هاجر إليه الطفيل بن عمرو وهاجر معه رجل من قومه، فَاجْتَوَوُا المدينة[٣]، فمرض، فَجَزِعَ، فأخذ مَشَاقِصَ له[٤]، فَقَطَعَ بها بَرَاجِمَه[٥]،

---

(١) (منعة) بفتح الميم وبفتح النون وإسكانها لغتان. ذكرهما ابن السكيت والجوهري وغيرهما، والفتح أفصح، وهي العِزَّة والامتناع ممن يريده. وقيل: المنعة جمع مانع كظالم وظلمة، أي: جماعة يمنعونك ممن يقصدك بمكروه. شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣١).

(٢) أما امتناع رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الحصن؛ فإن التحصن بالجدران فعل الجبان، وإنما التحصن بالسيوف والمبارزة فعل الشجاع. وسمي الحصن حصنا من الامتناع. والمنعة: ما تمنع. وهذا إنما عرضه عليه لما كان بمكة. كشف المشكل من حديث الصحيحين (٣/١٠٤).

(٣) (اجتووا المدينة): كرهوها ولم توافقهم. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "(فاجتووا المدينة) هو بضم الواو الثانية ضمير جمع، وهو ضمير يعود على الطفيل، والرجل المذكور ومن يتعلق بهما. ومعناه: كرهوا المقام بها؛ لضجر ونوع من سقم. قال أبو عبيد والجوهري وغيرهما: اجتويت البلد إذا كرهت المقام به وإن كنت في نعمة. قال الخطابي: وأصله من (الجوى)، وهو داء يصيب الجوف" شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣١).

(٤) (مشاقص) هي بفتح الميم وبالشين المعجمة وبالقاف والصاد المهملة، وهي جمع (مشقص) بكسر الميم وفتح القاف. قال الخليل وابن فارس وغيرهما: هو سهم فيه نصل عريض. وقال آخرون: سهم طويل ليس بالعريض. وقال الجوهري: المشقص ما طال وعرض، وهذا هو الظاهر هنا؛ لقوله: ((قطع بها براجمه)) ولا يحصل ذلك إلا بالعريض. شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣١).

(٥) (البراجم) بفتح الباء الموحدة وبالجيم فهي مفاصل الأصابع واحدتها: برجمة. شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣١).

فَشَخَبَتْ يداه[1] حتى مات، فرآه الطفيل بن عمرو في منامه، فرآه وَهَيْئَتُهُ حسنة، ورآه مُغَطِّيًا يديه، فقال له: ما صنع بك ربك؟ فقال: غفر لي بهجرتي إلى نبيه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ما لي أراك مُغَطِّيًا يديك؟ قال: قيل لي: لن نُصْلِحَ مِنْكَ مَا أَفْسَدْتَ، فَقَصَّهَا الطُّفَيْلُ على رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**اللهم وَلِيَدَيْهِ فاغفر**))[2].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللهُ: "أما أحكام الحديث ففيه حجة لقاعدة عظيمة لأهل السنة: أن من قتل نفسه، أو ارتكب معصية غيرها ومات من غير توبة فليس بكافر، ولا يقطع له بالنار، بل هو في حكم المشيئة. وهذا الحديث شرح للأحاديث التي قبله الموهم ظاهرها تخليد قاتل النفس وغيره من أصحاب الكبائر في النار"[3].

قال التُّوربشْتِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "هذا الحديث وإن كان فيه ذكر رؤيا أريها الصحابي للاعتبار بما يؤول تعبيره، فإن قول النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**اللهم وليديه فاغفر**)) من جملة ما ذكرنا من الأحاديث الدالة على أن الخلود غير واقع في حق من أتى بالشهادتين، وإن قتل نفسه؛ لأن نبي الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دعا للجاني على نفسه بالمغفرة، ولا يجوز في حقه أن يستغفر لمن وجب عليه الخلود بعد أن نُهِيَ عنه"[4].

---

(١) (فشخبت يداه) هو بفتح الشين والخاء المعجمتين، أي: سال دمهما. وقيل: سال بقوة. شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣١).

(٢) صحيح مسلم [١١٦]. قوله: ((اللهم وَلِيَدَيْهِ فاغفر)) عطف على مقدر، أي: تجاوز عنه وليديه فاغفر. قال الطيبي رَحِمَهُ اللهُ: "عطف من حيث المعنى على قوله: (وقيل لي: لن نصلح منك ما أفسدت)؛ لأن التقدير: قيل لي: غفرنا لك سائر أعضائك إلا يديك، فقال رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((اللهم وليديه فاغفر)). واللام متعلق بقوله: فاغفر". شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن (٨/٢٤٥٨)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٢٦٣).

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/١٣١- ١٣٢).

(٤) الميسر في شرح مصابيح السنة، لشهاب الدين التُّوربشتي (٣/٨١٠)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٢٦٣).

وقد اختلف في الصلاة على من قتل نفسه؛ لما جاء في الحديث: عن جابر بن سَمُرَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**أُتِيَ النَّبِيُّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بِرَجُلٍ قَتَلَ نَفْسَه بِمَشَاقِصَ، فلم يُصَلِّ عليه**))(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "هذا الحديث دليل لمن يقول: لا يصلى على قاتل نفسه؛ لعصيانه، وهذا مذهب عمر بن عبد العزيز والأوزاعي. وقال الحسن والنخعي وقتادة ومالك وأبو حنيفة والشافعي وجماهير العلماء: يصلى عليه، وأجابوا عن هذا الحديث بأن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يصل عليه بنفسه زجرًا للناس عن مثل فعله وصلت عليه الصحابة"(٢).

ولا تخلو أسباب الانتحار من أحوال تصيب النفس، أو تصيب الجسد، أو تصيب النفس والجسد.

فأعظم ما يصيب النفس مما يسبب الانتحار: الاكتئاب، ويكون بسبب: اليأس والقنوط، والفقر المنسي، وما يصيب العبد من ظلم أو نازلة.

وما يصيب الجسد من أمراض وآفاتٍ كالكِبَرِ والضعف.

قال المنفلوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الانتحار منتهى ما تصل إليه النفس من الجبن والخور، وما يصل إليه العقل من الاضطراب والهوس، وأحسب ألا يقدم الإنسان على الانتحار وفي نفسه ذرة من العزم، أو في عقله لمحة من الحزم.

---

(١) صحيح مسلم [٩٧٨].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٤٧/٧)، وانظر: المغني، لابن قدامة (٤١٥/٢)، المعتصر من المختصر من مشكل الآثار (١٠٧/١)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٢١٥/٢)، الكافي في فقه الإمام أحمد (٣٦٧/١)، كشاف القناع (١٢٣/٢)، مطالب أولي النهى (٨٩٢/١)، الموسوعة الفقهية الكويتية (٢٩٤/٦).

حب النفس غريزة وضعها الله عَزَّوَجَلَّ في نفس الإنسان؛ لتكون ينبوع العمل، ومبعث الحركة، ومطلع شمس المدنية والعمران، والمنتحر يبغض نفسه بأشد مما يبغض الإنسان أعدى أعدائه، فهو شاذ في طبيعته، غريب في خلقه، معاند لإرادة الله جَلَّوَعَلَا في حياة الكون وعمرانه، ومن كان هذا شأنه كان بلا قلب ولا عقل.

لا عذر للمنتحر في انتحاره مهما امتلأ قلبه من الهم، ونفسه من الأسى، ومهما ألمت به كوارث الدهر، ونزلت به ضائقات العيش، فإن ما أقدم عليه أشد مما فر منه، وما خسره أضعاف ما كسبه.

لو كان ذا عقل لعلم أن سكرات الموت تجمع في لحظة واحدة جميع ما تفرق من آلام النفوس وشدائدها، وأن قضاء ساعة واحدة فيما أعد الله عَزَّوَجَلَّ لقاتل نفسه من العذاب الأليم الدائم أشد مما يلاقيه من مصائب الحياة، وأرزائها لو يعمر ألف سنة.

ما أكثر هموم الدنيا وما أطول أحزانها، لا يفيق المرء فيها من هم إلا إلى هم ولا يرتاح من فاجعة إلا إلى مثلها، ولا يزال بنوها يترجحون ما بين صحة ومرض، وفقر وغنى، وعز وذل، وسعادة وشقاء، فإذا صح لكل مهموم أن يكره حياته، وكل محزون أن يقتل نفسه خلت الدنيا من أهلها، واستحال المقام فيها، بل استحال الوفود إليها، وتبدلت سنة الله تعالى في خلقه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

يخدع المنتحر نفسه إن ظن أنه مقتنع بفضل الموت على الحياة، وأنه يفعل فعلته عن روية وبصيرة فإنه لا يكاد يضع قدمه في المأزق الأول من مآزق الموت حتى يثوب إليه رشده وهداه، ويحاول التخلص مما وقع فيه لو وجد إلى ذلك سبيلًا.

إن ألقى نفسه في الماء تخبط، ومد يده إلى من يرجو الخلاص على يده، وود لو يفتدى نفسه بكل ما تملك يمينه.."[1]. وهذا واقع ومشاهد، فلا ينبغي لعاقل أن يتعجل بإزهاق نفسه فيندم حيث لا ينفعه الندم.

---

(١) النظرات (٢/١٣٠-١٣١).

ومن يتأمَّلُ واقعَ المسلمين وما أصاب الكثيرين منهم من الفقر والتخلف بسبب كثرة الصراعات والظلم والاستبداد يعلم أن مجتمعاتنا بحاجةٍ إلى العافيةِ من كثيرٍ من الأمراض التي تعيقُ الفكرَ عن سديدِ النظر، ومن هذه الأمراض: اليأسُ والقنوطُ والإحباطُ والقلقُ والخوفُ، وكلها من الأمراض التي تصيب النفس، فتجد الكثيرين ممن أصابهم اليأس والقنوط في همٍّ وغمٍّ، فلا يرتقي إلى المعالي، ولا يطلب الهداية، بل يركن إلى البطالة والكسل، ويغلق على نفسه باب التنافس في الخير، وبالتالي ربما كان ذلك من مسببات الانتحار بالنسبة لكثيرين.

ومن أسباب الانتحار: تعاطي المسكرات والمخدرات، هذه السموم التي تفتك بالجسد، وتسبب تلف خلايا المخ، وتهيمن على النفس، وتؤدي إلى الانهيار النفسي والبدني والعقلي، فلا هدف بعد ذلك ولا غاية في الحياة سوى الظفر بهذه السموم مهما كان السبيل إلى ذلك، وبالتالي يصبح المدمن عرضة للانتحار في أيِّ وقت.

ومن أسباب الانتحار: ضَعف الوازع الديني عند الإنسان، وعدم إدراك خطورة هذا الفعل، وعاقبته في الآخرة.

ومن أسباب الانتحار: جهل المكلف بالأحكام الضرورية التي تلزمه.

ومن أسباب الانتحار: الجزع وعدم الصبر والرضا، والاستسلام لليأس والقنوط.

ومن أسباب الانتحار: المشاكل الاقتصادية: كالفقر، والبطالة، أو فقدان العمل، أو خسارة المال.

ومن أسباب الانتحار: الإعلام المضل الذي يعمل على هدم القيم والثوابت، وإلى تقليد الآخرين في مناهجهم وطريقة حياتهم.

ومن أسباب الانتحار: المشاكل الأسرية، ولا سيما بين الوالدين، والتي ينعكس أثرها على الأولاد.

ومن أسباب الانتحار: إهمال التربية، والمناهج المضلة في التعليم.

ومن أسباب الانتحار: انتشار ثقافة الغلو والتطرف في المجتمع.

ومن أسباب الانتحار: الفشل المهني أو العاطفي أو الاجتماعي أو الدراسي إلى غير ذلك.

ومن أسباب الانتحار: الشعور بالذنب.

ومن أسباب الانتحار: المشاكل الصحية الصعبة أو مشاكل الشيخوخة والكبر.

وقد نهى الإسلام عن مقدماتٍ قد تمهد للانتحار من نحو: ضر يصيب المسلم في نفسه أو ماله، فيتمنى الموت لأجل ذلك. كما جاء في الحديث: عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((لا يَتَمَنَّيَنَّ أحدُكم الموتَ من ضُرٍّ أصابه، فإن كان لا بُدَّ فاعلًا، فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي))**[1].

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "**((لا يتمنين أحدكم الموت لضرّ نزل به))** فقد يكون له في ذلك الضر خير لدينه ودنياه، إما تمحيص لذنوب سلفت له، وطهور من سيئات كما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للشيخ الذى زاره في مرضه، وقد أصابته الحمى فقال: صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((لا بأس طهور إن شاء الله))**[2]. وقد يكون له في المرض منافع، منها: أن يكون المرض سببًا إلى امتناعه من سيئات كان يعملها لو كان صحيحًا، أو بلاء يندفع عنه في نفسه وماله، فالله أنظر لعبده المؤمن فينبغي له الرضا عن الله جَلَّ وَعَلَا في مرضه وصحته، ولا يتهم قدره، ويعلم أنه أنظر له من نفسه، ولا يسأله الوفاة عند ضيق نفسه بمرضه أو تعذُّر أمور

(١) صحيح البخاري [٥٦٧١]، مسلم [٢٦٨٠].

(٢) انظر: صحيح البخاري [٣٦١٦، ٥٦٥٦، ٥٦٦٢، ٧٤٧٠].

دنياه عليه. وقد جاء وجهُ سؤالُ الموتِ فيه مباح، وهو: خوف فتنة تكون سببًا لإتلاف الدين، فقد قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**وإذا أردت بقومٍ فتنةً فاقبضني إليك غير مفتون**))(١).

وجه آخر وهو: عند خوف المؤمن أن يضعف عن القيام بما قلده الله، كما قال عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط(٢). فخشى عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أن يطول عمره، ويزيد ضعفه، ولا يقدر على القيام بما قلده الله وألزمه القيام به من أمور رعيته، وكان سنه حين دعا بذلك ستين سنةً أو نحوها، وكذلك فعل عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللهُ، إذ سأل لنفسه الوفاة وسنُّه في الأربعين؛ حرصًا على السلامة من التغيير، فهذان الوجهان مباح أن يسأل فيهما الموت"(٣).

قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللهُ: "وإنما نهى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن تمني الموت عند نزول المصائب، وحلول البلاء؛ تسخطا للقضاء، وقلة رضى، وعدم صبر على الإيذاء. وأما إذا كان ذلك شحًا من المرءِ على دينه، وخوفًا من أن يفتن؛ لما يرى من عموم الفتن، فليس ذلك من معنى ما نهى عنه النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ"(٤).

---

(١) كان النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول في دعائه : ((اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون)) الحديث رواه غير واحد، وهو مروي عن ابن عباس، ومعاذ بن جبل وغيرهما. حديث ابن عباس: أخرجه أحمد [٣٤٨٤]، وعبد بن حميد [٦٨٢]، والترمذي [٣٢٣٣]، وقال: "حسن غريب". حديث معاذ بن جبل: أخرجه الترمذي [٣٢٣٥]، وقال: "حسن صحيح".

(٢) أخرجه معمر بن راشد في (جامعه) [٢٠٦٣٨]، ومالك في (الموطأ) [٣٠٤٤]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٩٠]، وأبو نعيم في (الحلية) (١/٥٤).

(٣) شرح ابن بطال على صحيح البخاري (١٠/١١١- ١١٢).

(٤) الاستذكار (٧/ ٤٨٩).

ثانيًا: سبل الوقاية من آفة الانتحار والعلاج:

١ – صيانة الإيمان:

إنَّ الوقاية من هذا الداء لا تكون إلا بصيانة الإيمان الذي يسهم في استئصال أسباب الانتحار؛ فإن نور الإيمان يدفع عن المسلم ما ينتابه من صنوف الوحشة، وما يناله من النوازل. وهو قائم على ركائز من الثقة بالله جَلَّ وَعَلَا، والتوكل عليه، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق:٢-٣].

ومن أراد سلوك طريق السعادة فلا بد من صيانة النفس بالتزام تقوى الله جَلَّ وَعَلَا، والعناية والارتقاء بها وفق منهج الله عَزَّوَجَلَّ الذي فيه صلاحها وسعادتها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وغياب الإيمان هو سبب الشقاء والنكد كما قال النبي صَلَّىٰاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((من كانت الآخرة همه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شمله، وأتته الدنيا وهي راغمة، ومن كانت الدنيا همه جعل الله فقره بين عينيه، وفرق عليه شمله، ولم يأته من الدنيا إلا ما قدر له))**(١).

٢ – أن يعلم أن كل شيء بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، وأن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، شبابها يهرم، وحيها يموت، فالمغرور من اغتر بها، وهي دار

---

(١) الحديث مروي عن أنس وعن زيد بن ثابت. حديث أنس: أخرجه هناد (٢/٣٥٥)، والترمذي [٢٤٦٥]، وأبو نعيم في (الحلية) (٦/٣٠٧). حديث زيد بن ثابت: أخرجه الطيالسي [٦١٧]، وأحمد [٢١٥٩٠]، وابن ماجه [٤١٠٥]. وابن حبان [٦٨٠]، والطبراني في (الكبير) [٤٨٩١]، وتمام [١٤٦١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٨٥٥]. قال العراقي رَحِمَهُٱللَّهُ في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٧٣٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد".

ابتلاء واختبار، وليست دار إقامة، وأن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، وأن الله تعالى يقبل التوبة عن عباده، ويغفر الذنوب، وأن مع العسر يسرًا، وأن فرج الله قريب، وأن من ألمت به نازلة فصبر وشكر الله عَزَّوَجَلَّ فإنه ينال أجرًا عظيمًا، وأن الله عَزَّوَجَلَّ سيكشف عنه الضر والبلاء.

ومن أصول العقيدة: تحقيق التوحيد الخاص لله، واعتقاد أنَّ كُلَّ ما يصيب الإنسان من فتنة وبلاء إنما هو بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقَدَرِه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]. قال علقمة: عن عبد الله، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: ((**هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي وعرف أنها من الله**))(١).

فينبغي التعامل مع الحوادث والنوازل من منطلق إيماني، وقد جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه**))(٢).

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له**))(٣).

---

(١) صحيح البخاري (٦/١٥٥).

(٢) أخرجه البزار [٤١٠٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢١١]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١/٥٨): "رواه البزار، وقال: إسناده حسن". وفي لفظ: ((لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه)). قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٧/١٩٧): "رواه أحمد، والطبراني، ورجاله ثقات، ورواه الطبراني في (الأوسط)".

(٣) صحيح مسلم [٢٩٩٩].

٣ – الرجاء إذا صاحبه العمل:

وتكون الوقاية من هذا الداء كذلك: بالرجاء إذا صاحبه العمل؛ فإنه يعدل ميزان الخوف، ويدفع اليأس، ويعزز في النفس الصبر والاحتساب. والعمل الصالح على اختلاف أنواعه، وتعدُّد أبوابه له أثر على صاحبه يملأ قلبه سرورًا ومحبةً وانشراحًا ونورًا.

٤ – حسن الظنِّ بالخالق عَزَّوَجَلَّ، وأن يمتلئ القلب بالفأل الصادق:

إن المسلم لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو يوقن بأن ما يقع في الأرض إنما يقع بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ووفق إرادته، وهو خير في جانب من جوانبه، ولله عَزَّوَجَلَّ فيه حِكَمٌ. ويعلمُ كذلك أن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب. والمؤمن مكلَّف بتحقيق شرعة الإسلام في نفسه، والنظام الإسلامي في مجتمعه على أن يتحمَّل في سبيل ذلك الكثير من الشدائد؛ حتى يتحقق فيه معنى التكليف المتفرع عن عبوديته لله عَزَّوَجَلَّ. والمسلم يتفاءل بوعد الله عَزَّوَجَلَّ، ويسعى لتحقيق النصر، ودفع الظلم، وإزالة الباطل.

فعليك أيها المسلم أن تحسنَ الظنَّ بخالقك، وأن يمتلئَ قلبُك بالفأل الصادق، والأملِ المشرق الذي يوسِّع ما ضيَّقته الخطوبُ والنَّوازل، فبالأمل تذوقُ طعم السَّعادة، وبالتفاؤل تحسُّ ببهجة الحياة. فالتَّفاؤل سُنَّة نبويَّة، وصفة إيجابيَّة للنفس السويَّة، يترك أثره على تصرفات الإنسان ومواقفه، ويمنحه سلامةَ النفس، والهمةَ العالية، ويزرع فيه الأمل، ويحفزه على الانبعاث إلى العمل.

والتفاؤل ما هو إلَّا تعبير صادق عن الرُّؤية الطيبة والإيجابية للحياة.

قال الشاعر:

أعلِّل النَّفـــس بالآمـــال أرقبــهـا ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ(١)

---

(١) البيت يعزى للوزير مؤيد الدين الطغرائي. انظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١٤٢/٢)، خزانة الأدب وغاية الأرب (١٨٧/١)، الكشكول (٣٠٢/١).

فالأمل يبعث الحياة في الناس، واليأس يقتلهم.

اليأس يوقع الناس صرعى كالأموات، ويقتل النبوغ والخصال الحميدة، ويصرف عن التأمل والتبصر في العاقبة، والأمل يعزز الثقة بالنفس، وينهض بها من بين الأموات، وهو يحتاج إلى رعاية مستمرة، وتنمية متواصلة، ومراقبة دائمة؛ حتى لا ينحرف إلى إفراط يقع بالإنسان في طول الأمل، والركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، أو ينحرف إلى تفريط يقع بالإنسان في اليأس والقنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

والدعاة بوصفهم الدالين على طريق الله عَزَّوَجَلَّ، الآخذين بأيدي السالكين إلى صراطه المستقيم، ولكونهم أكثر الفئات احتكاكًا مع مشاكل الناس وحاجاتهم اليومية والاجتماعية، فهم مطالبون بالوقوف على مسؤوليتهم الدعوية والدينية والاجتماعية في نشر ثقافة الأمل في عالم ساده الإحباط، وعمَّه اليأس، وغلبه القنوط، بسبب كثرة الإخفاقات والهزائم والانكسارات..

والداعية الفطن يجب أن يبثَّ رسائل الأمل في قلوب المدعوين، وأن يكون خطابه الدعوي في أوقات الأزمات، واشتداد الخطوب، وكثرة الإحباطات، قائمًا على محاربة اليأس والقنوط.

وإن التفاؤل يقوي العزائم، ويبعث على الجد، ويعين على الظفر، وينتشل السالكين من دروب الضياع، وبراثن الضلال، ويقاوم المرض، فقد ثبت طبيًّا أن الذين يعيشون تفاؤلًا هم أسرع من غيرهم على تجاوز الأمراض أو الامتثال للشفاء.

والتفاؤل يدفع الإنسان لتجاوز المحن، ويحفِّزُه للعمل، ويورثه طمأنينة النفس، وراحة القلب، وهو السلوك الذي يصنع به الرجال مجدهم، ويرفعون به رؤوسهم، فهو نور وقت شدة الظلمات، ومخرج وقت اشتداد الأزمات، ومتنفس وقت ضيق الكربات، وهو منبثق من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، والتوكل عليه، والثقة بوعده.

فمن اليقين بالله عَزَّوَجَلَّ والثقة بوعده ينبثق الفجر، وتنجلي سحب الظلام واليأس. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف:١١٠]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

والمتفائل لا يبني من المصيبة سجنًا يحبس فيه نفسه، لكنَّهُ يتطلَّعُ للفرج الذي يعقب كل ضيق، ولليسر الذي يَتْبَعُ كل عسر.

والنصوص التي تبعث الأمل في النفوس، وتحارب: الاكتئاب والانطواء على النفس؛ انتظارًا للموت، أو هربًا من الواقع كثيرة.

ولنا في سيرة رسولنا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته البررة خير قدوة، فمن طائفة مستضعفة من قبل قومهم، إلى خلفاء وملوك وفاتحين وصلوا لكافة أصقاع الدنيا، ونشروا بمبادئهم وسيرتهم العطرة: العدل والمحبة والسلام، فدخل الناس في دين الله أفواجًا، ولله الحمد والمنَّة.

ولقد كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمامًا في التفاؤل والثقة بوعد الله تعالى، وكان يحارب اليأس والتشاؤم، ويصنع الحياة، ويزرع الأمل.

وقد علمنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ التفاؤل بسلوكه وقوله، ففي حادثة الهجرة -مثلًا- عندما أحدقت الأخطار بالغار، وأحاط المشركون به، وعلى الرغم من هذه الشدائد والأخطار كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ آمنًا مطمئنًا، متوكلًا على ربه عَزَّوَجَلَّ، واثقًا بنصره وحفظه. يقول أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كنت مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: ((**ما ظنك باثنين الله**

ثالثهما))[1]. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:٤٠].

٥ - الصبر على ما يصب المسلم من الشدة والبلاء والكوارث:

إن من أهم سبل الوقاية من آفة الانتحار: صبر المسلم على ما يصيبه من الشدة والبلاء، وأن يستعينَ بالله جَلَّوَعَلَا، وبكثرة الصلاة والدعاء، وأن يتقرب إلى الله عَزَّوَجَلَّ بسائر الطاعات، وأن يعلم أن كل شدَّة تصيبه هي أهون من عذاب الآخرة، والسلامة من عذاب الله تعالى في الآخرة لا تكون إلا بالتزام أمره، واجتناب نهية، وقد نهى الله عَزَّوَجَلَّ الإنسانَ عن قتل نفسه، وبيَّن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عاقبة من يقتل نفسه.

فلا يفرُّ العاقلُ من نازلةٍ وشدَّةٍ مؤقتة إلى ما هو أعظم خطرًا، وأبقى عذابًا.

وقد جعلَ الله عَزَّوَجَلَّ الدنيا دارَ ابتلاءٍ وامتحان واختبار، وليست دارَ خلودٍ واستقرار، وإنما هي دارُ رحيلٍ وانتقال، يمتحن العبادُ فيها ويُختبرُون؛ ليميز الله عَزَّوَجَلَّ الخبيث من الطيب.

والابتلاءُ سنَّةٌ من سننه الرَّبانيَّة الجارية كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت:١- ٣]، والابتلاءُ يمحِّص الصَّادقين من الكاذبين، ويكفِّرُ الذُّنوب، ويرفعُ درجاتِ المؤمنين الصَّابرين والمخلصين.

وقد أصاب البلاء سادات البشر، وهم الأنبياء والرسل والصالحون، وأصاب كذلك شر البشر وهم الكافرون والملحدون، فهو سنة كونية لا يكاد يسلم منها أحد.

(١) صحيح البخاري [٤٦٦٣]، مسلم [٢٣٨١].

فإذا أحسن المؤمن التعامل معها فصبر وشكر، ورجع إلى الله عَزَّوَجَلَّ، واجتهد في العبادات والطاعات كانت عاقبة البلاء خيرًا له كما جاء في الحديث: عن أبي سعيد الخدري، وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**ما يصيب المسلم، من نَصَبٍ ولا وَصَب، ولا هَمٍّ ولا حزن ولا أَذًى ولا غَمٍّ، حتى الشوكة يشاكها، إلا كَفَّرَ الله بها من خطاياه**))(١).

ومن علامة حب الله عَزَّوَجَلَّ للعبد المؤمن: صبره ورضاه على ما يصيبه من الكوارث، وما يقع عليه من الابتلاء؛ ففي الحديث: ((**إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مع عِظَمِ البَلَاء، وإنَّ الله إذا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، ومَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَط**))(٢). من الله أولًا، والغضب عليه آخرًا. فالمصائب والبلاء امتحانٌ للعبد، وهي علامة على حب الله عَزَّوَجَلَّ له.

قال العلامة المناوي رَحِمَهُٱللَّهُ: "((**وإن الله إذا أحبَّ قومًا ابتلاهم**)) بأنواع البلايا؛ حتى يمحصهم من الذنوب، ويفرغ قلوبهم من الشغل بالدنيا، غيرة منه عليهم أن يقعوا فيما يضرهم في الآخرة. وجميع ما يبتليهم به من ضنك المعيشة، وكدر الدنيا، وتسليط أهلها؛ ليشهد صدقهم معه، وصبرهم في المجاهدة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ﴾ [محمد:٣١]"(٣). وفي الحديث: ((**إذا أحبَّ الله قومًا ابتلاهم، فمن صبر فله الصبر، ومن جزع فله الجزع**))(٤).

---

(١) صحيح البخاري [٥٦٤١]. و(نصب): تعب، و(وصب): مرض.

(٢) أخرجه ابن ماجه [٤٠٣١]، والترمذي [٢٣٩٦]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: القضاعي [١١٢١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٢٥].

(٣) فيض القدير (٢٤٦/١).

(٤) أخرجه أحمد في (مسنده) عن محمود بن لبيد [٢٣٦٢٣، ٢٣٦٣٣، ٢٣٦٤١]. قال الهيثمي رَحِمَهُٱللَّهُ (٢٩١/٢): "رواه أحمد ورجاله ثقات". كما أخرجه: البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٣٢٧]. قال الحافظ=

والله جَلَّوَعَلَا يعين العبد الصالح، ويصبره على ما أصابه من البلاء كما في الحديث عن إبراهيم بن مهدي السلمي عن أبيه، عن جده -وكانت له صحبة من رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ- قال: سمعت رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يقول: ((**إن العبد إذا سبقت له من الله منزلة، لم يبلغها بعمله ابتلاه الله في جسده، أو في ماله، أو في ولده**))، قال أبو داود: زاد ابن نفيل: ((**ثم صبره على ذلك حتى يبلغه المنزلة التي سبقت له من الله تعالى**))[1].

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة:١٥٥]. وأفضل الصبر ما كان عند الصَّدْمَة الأولى، كما جاء في الحديث: قال صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**الصَّبْرُ عند الصَّدْمة الأولَى**))[2]، أي: إنما الصَّبر الشَّاقُّ على النَّفس الذي يَعْظُمُ الثواب عليه إنما هو عند هجوم المصيبة وحرارتها؛ فإنه يدل على قوة القلب، وتثبته في مقام الصبر، وأما إذا بردت حرارة المصيبة فكل أحد يصبر إذ ذاك. ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ [البقرة:١٥٦-

---

=رَحِمَهُٱللَّهُ في (الفتح) (١٠/١٠٨): "رواته ثقات إلَّا أن محمود بن لبيد اختلف في سماعه من النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وقد رآه وهو صغير، وله شاهد من حديث أنس عند الترمذي وحسنه".

(١) الحديث مروي عن محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده، وقد صححه الألباني في (صحيح أبي داود) [٢٦٤٩]، وفي (الصحيحة) [٢٥٩٩] بلفظ: ((إن الرجل ليكون له عند الله المنزلة، فما يبلغها بعمل، فلا يزال الله يبتليه بما يكره حتى يبلغه إياها)). وقد أخرجه أحمد [٢٢٣٣٨]، وأبو داود [٣٠٩٠]، وابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [١٤١٦]، وأبو يعلى [٩٢٣]، والطبراني [٨٠١]، وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) من طريق الحسن بن سفيان [٦٧٦٢] والبيهقي في (السنن) [٢٢٣٣٨]. قال الهيثمي رَحِمَهُٱللَّهُ (٢/٢٩٢): "رواه الطبراني في (الكبير)، و(الأوسط)، وأحمد، ومحمد بن خالد، وأبوه لم أعرفهما -والله أعلم-".

(٢) صحيح البخاري [١٢٨٣، ١٣٠٢]، مسلم [٩٢٦].

١٥٧]. جعل الله جَلَّ وَعَلَا هذه الكلمات ملجأ لذوي المصائب؛ لما جمعت من المعاني المباركة، فإنَّ قوله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ﴾ توحيد وإقرار بالعبودية والملك. وقوله: ﴿وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ إقرار بالهلاك في الدنيا ثم الْبَعْثِ من القُبُور. قال سعيد ابن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لم تعط هذه الكلمات نبيا قبل نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ولو عرفها يعقوب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما قال: يا أسفى على يوسف.

وروى مسلم: عن أمِّ سَلَمَة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **((ما من مسلم تصيبه مصيبة، فيقول ما أمره الله: ﴿إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾، اللهُمَّ أْجُرْنِي في مصيبتي، وَأَخْلِفْ لي خيرًا منها، إلا أَخْلَفَ الله له خيرًا منها))**(١). فهذا تنبيه على قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ إما بالخلف كما أَخْلَفَ الله لأمِّ سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا رسولَ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فإنه تزوجها لما مات أبو سلمة زوجها، وإما بالثَّواب الجزيل في الآخرة.

ويكون الصَّبر كذلك على مشاقِّ التَّكليف -كما تقدَّم-، ويكون على أداء الفرائض كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا﴾ [طه:١٣٢]. ويكون كذلك على ترك المعاصي، وخاصَّة مع كثرة الدَّواعي، وغلبة الشَّهوات، وقوَّة البواعث على متابعة الهوى، فملازمةُ العبادة حينئذ أشد.

وقد قيل: الصَّبر صبران: صبر عن معصية الله، فهذا مجاهد، وصبر على طاعة الله، فهذا عابد. فإذا صبر عن معصية الله، وصبر على طاعة الله أورثه الله الرضا بقضائه، وعلامة الرضا: سكون القلب بما ورد على النفس من المكروهات والمحبوبات(٢).

---

(١) صحيح مسلم [٩١٨].

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٢/١٧٤- ١٧٦).

٦ – حسن الظنِّ بالله جَلَّ وَعَلَا.

٧ – شكر الله عَزَّ وَجَلَّ على نعمه.

٨ – أن ينظر المصاب إلى من هو دونه، وإلى ما أعده الله عَزَّ وَجَلَّ لعباده الصابرين من الأجر الجزيل والثواب في الآخرة.

٩ – أن يدرك المنتحر أن قتل النفس لا يعالج أي مشكلة، بل ينقل القاتل إلى مآل هو أعظم خطرًا، وأبقى أثرًا.

١٠ – لا ينبغي التغافل عن مسببات الانتحار في المجتمع، والعمل على معالجتها من خلال الوسائل:

أ. علاج المصاب من خلال متخصصين في الطب النفسي والجسدي.

ب. إعانة المحتاج.

ج. نصرة المظلوم.

د. برامج في التوعية والتنوير من خلال وسائل التعليم والمساجد وسائر وسائل الإعلام.

هـ. العدالة الاجتماعية.

و. الصرامة في تطبيق القانون من غير محاباة ولا تمييز.

ز. الوعظ من خلال التذكير بالآخرة، وبيان حقيقة الحياة الدنيا، وعاقبة المنتحر في الآخرة.

١١ – ملاحظة من تظهر عليه علامة من العلامات التي قد تكون من الدوافع للإقدام على هذا الفعل، كالاكتئاب، والقلق النفسي، والخمول والكسل والبطالة، وتغير الحال إلى الانعزال والانطواء، والسلوك إلى ما يثير الريبة، من نحو: إهمالٍ في الدراسة، أو تقاعسٍ عن العمل، أو إهمال للمظهر والشكل الخارجي، أو النظرة السلبية للمجتمع.

ومن العلامات: فَقْد اهتمام الشخص بالأنشطة المعتادة، وعدم متعته بالأمور المحببة إليه، وغرابة حديثه، كحديثه –مثلًا– عن فَقْد الأمل، أو الشعور بالذنب، أو نقله لأقوال شاذة ومتطرفة.

ومن العلامات: صحبة غال أو متطرف، أو تعاطي المخدرات والمسكرات، أو امتناع المريض عن العلاج أو أخذ دواء ضروري.. ونحو ذلك.

والعمل على معالجة ذلك في بداياته أفضل وأيسر؛ حتى لا يتفاقم الأمر، والعلاج يبدأ من الاهتمام والملاحظة والمتابعة من قبل الوالدين للأولاد في البيت والحي والمدرسة إلى المتابعة العامة من قبل المجتمع والدولة لمن تظهر عليه علامة أو مؤشر لسلوك منحرف أو فكر متطرف.

١٢ – أن ينهج المربون نهجًا سليمًا في التربية بعيدًا عن التعنيف أو الاستهزاء أو الانتقاص أو الإجبار بما يخالف رغبة الولد مع توفر خيارات أخرى، من نحو الإجبار مثلًا على الزواج بمن لا يرغب، أو الحمل على تخصص دراسي أو عمل غير مناسب ونحو ذلك.

١٣ – أن يراعي المربي الظروف والأحوال، ويلتمس الأعذار، ويتسامح، وأن يكون لين الكلام، وناصحًا حكيمًا، ومنصتًا متتبعًا، بعيدًا الصفات الأخلاق المذمومة، عاملًا بما يعلم.

١٤ - معالجة الأمراض والاضطرابات النفسية والسلوكية كالاكتئاب، والفصام، والإدمان من خلال التوجه إلى الطبيب المتخصص، أو إلى المصحة النفسية عند الحاجة.

١٥ – العمل على تطهير المجتمع من كثير من الأمراض التي تفشت فيه، كالطبقية والأنانية والقطيعة، وبالمقابل ينبغي تعزيز منظومة القيم الإسلامية والأخلاقية ولا سيما قيم التَّراحُم والتَّواصُل.

١٦ – أن يشغل الإنسان نفسه بما يفيده؛ لأن الفراغ يولد آفات في النفس، وأن يضع السالك طريق الهداية والرشاد نصب عينيه أهدافًا سامية، وأن يسعى إلى المعالي بهمة وعزم، وأن يدرك قيمة الهدف الذي يسعى إليه؛ فإن ذلك مما يحرض الدافعية عنده للسعي والعمل، فيستسهل في سبيل ذلك الصعاب، ويحتمل ما يصيبه من الجهد والبلاء بنفس راضية. كما قال الشاعر:

لأستسهلنَّ الصعب أو أُدرِكَ المنى ... فما انقادَتِ الآمالُ إلا لِصابِرِ[١]

(١) البيت من الطويل، وهو بلا نسبة.

المبحث السابع عشر
الرياء

أولًا: تعريف الرياء وبيان خطره:

١ – تعريف الرياء لغة واصطلاحًا:

الرياء -بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد-، مشتق من الرؤية. يقال: أَرَيْتُهُ الشيء فرآه، وأصله: أَرْأَيْتُه. وارْتَآهُ: افتعل من الرأي والتدبير. وفلان مُرَاءٍ، وقوم مُرَاءُونَ. والاسم: الرِّيَاءُ. يقال: فعل ذلك رياء وسمعة. وتَرَاءَى الجمعان: رأى بعضهم بعضًا. وفلان يَتَرَاءَى، أي: ينظر إلى وجهه في المرآة(١).

أما تعريف الرياء في الاصطلاح فقد عرفه الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه: "ترك الإخلاص في العمل بملاحظة غير الله جَلَّ وَعَلَا فيه"(٢).

وفي (المصباح): "الرياء هو إظهار العمل للناس؛ ليروه ويظنوا به خيرًا، فالعمل لغير الله، نعوذ بالله منه"(٣).

وقيل: الفعل المقصود به رؤية الخلق غفلة عن الخالق وعماية عنه.

وقيل: ملاحظة الأشكال في الأعمال.

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (رأى) (٦/٢٣٤٨).

(٢) التعريفات (ص:١١٣).

(٣) المصباح المنير، مادة: (روي) (١/٢٤٦).

وقيل: سهولة الطاعة بمشهد الجماعة.

وقيل: سقوط النشاط في الخلاء، وزوال المشاق في الملأ(١).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الرياء: طلب المنزلة في قلوب الناس بإيرائهم خصال الخير إلا أن الجاه والمنزلة تطلب في القلب بأعمال سوى العبادات وتطلب بالعبادات، واسم الرياء مخصوص بحكم العادة بطلب المنزلة في القلوب بالعبادة"(٢).

وقال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وحقيقة الرياء: طلب ما في الدنيا بالعبادات، وأصله: طلب المنزلة في قلوب الناس"(٣).

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حدُّ الرِّياء المذموم: إرادة العامل بعبادته غير وجه الله تعالى، كأن يقصد اطلاع الناس على عبادته وكماله، فيحصل له منهم نحو مال أو جاه أو ثناء"(٤).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان الفرق بين (الرِّياء) و(السُّمعة): "(الرياء): بكسر الراء وتخفيف التحتانية والمد وهو مشتق من الرؤية، والمراد به: إظهار العبادة؛ لقصد رؤية الناس لها، فيحمدوا صاحبها. و(والسُّمْعَة): بضم المهملة وسكون الميم مشتقة من سَمِعَ، والمراد بها نحو ما في الرياء، لكنها تتعلق بحاسة السمع، والرياء بحاسة البصر. وقال ابن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ (الرياء): أن يعمل لغير الله عَزَّوَجَلَّ، و(السمعة): أن يخفي عمله لله ثم يحدث به الناس"(٥). والرياء والسمعة في الأعمال أو الأقوال من الشرك الأصغر، فكلاهما من المزالق الخطيرة إلى الضلال.

---

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:١٨٤).

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٢٩٧).

(٣) أحكام القرآن (٤/٤٥٤)، وانظر: تفسير القرطبي (٢٠/٢١٢).

(٤) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٦٩).

(٥) فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٣٣٦)، وانظر: عمدة القاري (٢٣/٨٦).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(الشرك الصغير): مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرياء والنفاق المشار إليه بقوله: ﴿جَعَلَا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف:١٩٠]، ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف:١٠٦]"(١).

وقال ابن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما الرياء فهو أن يريد الناس بطاعة الله عَزَّوَجَلَّ وعبادته، وهما ضربان:

أحدهما: أن لا يريد بتلك الطاعة إلا الناس.

والثاني: أن يريد بطاعته الناس ورب الناس وهذا أخف الريائين؛ لأنه أقبل على الله عَزَّوَجَلَّ من وجه، وعلى الناس من وجه. وأما الأول فإنه إعراض عن الله جَلَّوَعَلَا بالكلية، وإقبال على الناس، وكلاهما محبط للعمل؛ لقول الله عَزَّوَجَلَّ: ((**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**))(٢)"(٣).

٢ – أسباب الرياء:

للرياء أسباب، منها: حب الجاه والمنزلة والمدح والحمد والثناء، وحب الجاه إما لذاته؛ لأجل تلذذه بنفس الجاه كمن يقصد بعبادته اشتهاره بالصلاح وكثرة المريدين وكمن يرى جماعة يعبدون الله فيوافقهم؛ لئلا ينسبونه إلى الكسل، أو للتوصل به إلى مصالح وأغراض دنيوية أخرى.

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (شرك) (ص:٤٥٢).

(٢) صحيح مسلم [٢٩٨٥].

(٣) مقاصد الرعاية لحقوق الله عَزَّوَجَلَّ أو مختصر رعاية المحاسبي (ص:٥٥)، وانظر: الرعاية لحقوق الله، للحارث المحاسبي (ص:١٦٣- ١٦٤).

فمن أسباب السقوط في مزالق الرياء: محبة المرائي للمدح والثناء، أما المخلِص فلا يعمل إلا لله جَلَّوَعَلَا، ولا يلتفت إلى مدح الناس أو ذمِّهم له؛ إذ لا كمالَ بمدحهم ولا نقص بذمهم.

ومن أسباب الرياء: الطمع فيما في أيدي الناس.

ومنها: الفرار من ألم الذم.

ومنها: الجهل بحقيقة الرياء وعاقبته، والجهل بما يقابله من فوائد الإخلاص.

٣ – بيان ما يورث الرياء من الأخلاق المذمومة:

يورث الرياء خصالًا مذمومة منها: حب الرياسة، والمباهاة بالعلم والعمل والتفاخر بالدين والدنيا، ومحبة العلو، والتكاثر بالمال وغيره من أمور الدنيا، وبالعلم والعمل والتحاسد عليهما من غير منافسة، بل خوفًا من أن ينال من يحاسده من المنزلة والحمد ما لا يناله، هو ورد الحق على من أمر به، أو ناظر فيه؛ لئلا يقال: هو أعلم منه، وحب الغلبة في المناظرة، وترك تعلم من يحتاج إلى تعليمه[1].

٤ – أمارات الرياء:

روي عن علي بن أبي طالب رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أنه قال: للمرائي ثلاث علامات:

أ. يكسل إذا كان وحده.

ب. ينشط إذا كان في النَّاس.

(١) انظر ذلك مفصلًا في (الرعاية لحقوق الله تعالى)، للحارث المحاسبي (ص:٢٢٣-٢٢٨). و(مقاصد الرعاية لحقوق الله تعالى)، لابن عبد السلام (ص:٨٠-٨٣).

ج. يزيد في العمل إذا أثني عليه، وينقص إذا ذم[1].

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما[2].

وقال الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "من أراد أن يعلم من نفسه أنه مراء أو مخلص فعلامة كونه مرائيًا: أن يحب الحمد على الطاعة، ويكره الذم، فيفعل الطاعة؛ خوفًا من الذم.

وإذا أخلص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، أو علم علمًا لا يعلمه الناس لم يقنع بعلم الله منه ذلك، وهاج قلبه لمحبة إطلاع الناس عليه، فأحب الناس إليه من يمدحه على ذلك.

وإن طالب نفسه بطاعة خفية ثقلت عليه ولم تطاوعه على ذلك، ولا تتمنى طاعة لا يعلم بها أحد.

وينفي الرياء بأن يعمل العبد العمل لا يريد به إلا الله جَلَّوَعَلَا؛ اقتصارًا على علم الله الذي بيده النفع والضر، فقد يعمل العمل في السر بجوارحه أو بقلبه كالفكر الذي يهيج البكاء والأحزان فتجزع نفسه من خفاء ذلك عن الناس فتقول له: كيف تخفي مثل هذه الفضيلة عن الناس، ولو علموا بها لقمت عندهم مقامًا عظيمًا؟

ولا يعلم العبد أن في ذلك ضعة قدره عند ربه عَزَّوَجَلَّ حتى يلزم قلبه الإخلاص فيقنع بعلم الله عَزَّوَجَلَّ، فإن اطلع عليه منع قلبه من الارتياح إلى اطلاعهم عليه، فإن غلبته على الارتياح رد عليها بالكراهة والإباء، وامتنع من الركون إليه، ولا يزال حذرًا حتى يفرغ من العمل، فإذا فرغ من العمل منع نفسه من طلب التسميع به، فإن كان العمل ظاهرًا

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٢٩٦)، الزواجر (٦٩/١).

(٢) انظر: الأذكار، للإمام النووي (ص:٧)، التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي (ص:٣٢)، المجالس الوعظية، للسفيري الشافعي (١٢٥/١)، الزواجر (ص:٦٩)، الرسالة القشيرية (٤١/١)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢٦٦/١).

كتشييع الجنائز، وطلب العلم، والتطوع يوم الجمعة في المسجد، فليوطن نفسه على أن تقنع بعلم الله تعالى، ولا ينظر إلى علم من لا يضر ولا ينفع ولا يلتفت إليه"[(١)].

٥ – أقسام الرياء:

أ. الرياء جلي وخفي:

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الرياء: جلي وخفي، فالجلي هو الذي يبعث على العمل ويحمل عليه ولو قصد الثواب، وهو أجلاه، وأخفى منه قليلًا: هو ما لا يحمل على العمل بمجرده إلا أنه يُخَفِّفُ العمل الذي يريد به وجه الله تعالى، كالذي يعتاد التهجد كل ليلة ويثقل عليه، فإذا نزل عنده ضيف تنشط له وخف عليه.

وأخفى من ذلك: ما لا يؤثر في العمل، ولا بالتسهيل والتخفيف أيضًا ولكنه مع ذلك مُسْتَبْطِنٌ في القلب، وأجلى علاماته: أن يُسَرَّ باطلاع الناس على طاعته، فَرُبَّ عبد يخلص في عمله، ولا يعتقد الرياء، بل يكرهُهُ ويَرُدُّهُ ويُتَمِّمُ العملَ كذلك، ولكن إذا اطلع عليه الناس سره ذلك وارتاح له ورَوَّحَ ذلك عن قلبه شدة العبادة، وهذا السرور يدل على رياء خفي منه يُرَشِّحُ السُّرُورَ، ولولا التفات القلب إلى الناس ما ظهر سروره عند اطلاع الناس، فلقد كان الرياء مستكنًا في القلب استكنان النَّار في الحجر، فأظهر منه اطلاع الخلق أثر الفرح والسرور، ثم إذا استشعر لذة السرور بالاطلاع ولم يقابل ذلك بكراهية فيصير ذلك قوتا وغذاء لِلْعِرْقِ الْخَفِيِّ في الرياء حتى يتحرك على نفسه حركة خفية فيتقاضى تقاضيًا خفيًّا أن يتكلف سببًا يطلع عليه بالتعريض أو بالشمائل كخفض الصوت وآثار الدموع.

---

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله تعالى، لابن عبد السلام (ص: ٨٤– ٨٥)، وانظر: الرعاية لحقوق الله تعالى، للحارث المحاسبي (ص:٢٢٨-٢٢٩).

وأخفى من ذلك: أن يختفي بحيث لا يريد الاطلاع، ولا يسر بظهور طاعته ولكنه مع ذلك إذا رأى الناس أحب أن يقابلوه بالبشاشة والتوقير، وأن يثنوا عليه، وأن ينشطوا في قضاء حوائجه، وأن يسامحوه في البيع والشراء، وأن يوسعوا له في المكان، فإن قصر فيه مُقَصِّرٌ ثقل ذلك على قلبه ووجد لذلك استبعادًا في نفسه كأنه يتقاضى الاحترام مع الطاعة التي أخفاها، ومهما لم يكن وجود العبادة كعدمها في كل ما يتعلق بالخلق لم يكن خاليًا عن شَوْبٍ خَفِيٍّ من الرياء أخفى من دبيب النمل، وكل ذلك يوشك أن يحبط الأجر، ولا يسلم منه إلا الصِّدِّيقُونَ.

ولم يزل المخلصون خائفين من الرياء الخفي يجتهدون في إخفائها أعظم مما يحرص الناس على إخفاء فواحشهم، كل ذلك رجاء أن تخلص أعمالهم الصالحة فيجازيهم الله في يوم القيامة بإخلاصهم، إذ علموا أن الله لا يقبل في القيامة إلا الخالص وعلموا شدة حاجتهم وفاقتهم في القيامة، وأنه يوم لا ينفع فيه مال، ولا بنون، ولا يجزي والد عن ولده..."(١).

ب. الرياء بحسب ما يراءى به:

ذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ الرِّياء بحسب ما يراءى به خمسة أقسام:

الأوَّل: الرِّياء في الدِّين بالبدن، وذلك بإظهار النُّحول والصَّفار؛ ليوهم بذلك شدَّة الاجتهاد، وعظم الحزن على أمر الدِّين وغلبة خوف الآخرة.

الثَّاني: الرياء بالهيئة والزي، وذلك بتشعيث شعر الرَّأس، وإبقاء أثر السُّجود على الوجه، وغلظ الثّياب، وتقصير الأكمام، وترك تنظيف الثَّوب، وتركه مخرَّقًا، كلّ ذلك لإظهار أنَّه متَّبع للسُّنَّة.

(١) انظر ذلك مفصلًا في (إحياء علوم الدين) (٣/٣٠٥)، موعظة المؤمنين (ص:٢٣٧).

الثّالث: الرِّياء بالقول، ويكون من أهل الدِّين بالوعظ والتّذكير، والنُّطق بالحكمة، وحفظ الأخبار والآثار؛ لإظهار غزارة العلم، ومن ذلك: تحريك الشَّفتين بالذِّكر في محضر النَّاس، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر أمامهم.

الرّابع: الرِّياء بالعمل، وذلك كمراءاة المصلِّي بطول القيام والرُّكوع والسُّجود ونحو ذلك.

الخامس: المراءاة بالأصحاب والزَّائرين، كأن يطلب المرائي من عالم أن يزوره ليقال: إنَّ فلانًا قد زار فلانًا، ومن ذلك: كثرةُ ذكر الشُّيوخ. فهذه الخمسة هي مجامع ما يرائي[(١)].

ج. درجات الرياء بحسب قصد المرائي:

ذكر الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن للرِّياء بحسب قصد المرائي أربع درجات:

الأولى: وهي أغلظها ألا يكون مراده الثَّواب أصلًا، كالذي يصلي أمام الناس، ولو انفرد فإنه لا يصلي، وربّما دفعه الرّياء إلى الصّلاة من غير طهر.

الثانية: أنَّ قصده للثَّواب أقلّ من قصده لإظهار عمله. وهذا النوع قريب مما قبله في الإثم.

الثَّالثة: أن يتساوى قصد الثَّواب وقصد الرِّياء، بحيث إنَّ أحدهما وحده لا يبعثه على العمل، ولكن لما اجتمع القصدان انبعثت فيه الرَّغبة في العمل، وهذا قد أفسد بمقدار ما أصلح، وظواهر الأخبار تدلُّ على أنّه لا يسلم من العقاب.

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٩٧).

الرَّابعة: أن يكون اطلاع الناس مرجِّحًا ومقوِّيًا لنشاطه، ولو لم يكن ذلك ما ترك العبادة، وهذا النَّوع لا يحبط أصل الثَّواب ولكنَّه ينقص منه أو يعاقب صاحبه على مقدار قصد الرِّياء، ويثاب على مقدار قصد الثَّواب"(١).

٦ - ما يتوهم أنه رياء وليس برياء:

جاء في الحديث: عن أبي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قيل لرسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أرأيت الرجل يعملُ العمل من الخير، ويَحْمَدُهُ الناس عليه؟ قال: ((**تلك عاجلُ بشرى المؤمن**))(٢).

وفي لفظ عند أحمد وابن ماجة والبزار: عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قلت: يا رسول الله، الرجل يعمل لنفسه فيحبه الناس؟ قال: ((**تلك عاجل بشرى المؤمن**))(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال العلماء: معناه: هذه البشرى الْمُعَجَّلَةُ له بالخير، وهي دليل على رِضَاءِ الله تعالى عنه، وَمَحَبَّتِهِ له، فَيُحَبِّبُهُ إلى الخلق، ثم يوضع له القبول في الأرض. هذا كُلُّهُ إذا حَمِدَهُ الناس من غير تَعَرُّضٍ منه لحمدهم، وإلا فالتعرض مذموم"(٤).

ويرفعُ الله عَزَّوَجَلَّ العالمَ على غيرِ العالمِ إذا أخلصَ النيةَ والقصدَ لله جَلَّوَعَلَا، فيُحَبَّب كذلك إلى الخلق، ويحمده الناس من غير أن يتعرض هو لذلك، أو يطلبه، أو يكون من قصده، فيكون مُكَرَّمًا في الدنيا والآخرة؛ لسلامته من غوائل الرياء كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١]. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "يرفع الله عَزَّوَجَلَّ المؤمن العالم على المؤمن غير العالم، ورفعة الدرجات تدل على

(١) المصدر السابق (٣/٣٠١- ٣٠٢).

(٢) صحيح مسلم [٢٦٤٢].

(٣) أخرجه أحمد [٢١٤٧٧]، وابن ماجة [٤٢٢٥]، والبزار [٣٩٥٥].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/١٨٩).

الفضل؛ إذ المراد به كثرة الثواب وبها ترتفع الدرجات، ورفعتها تشمل المعنوية في الدنيا بعلو المنزلة وحسن الصيت، والحسية في الآخرة بعلو المنزلة في الجنة"[(١)].

ثانيًا: التحذير من الرياء وبيان خطره وعاقبته:

إن الرياء هو الشرك الأصغر الخفي الذي يتسلل إلى أعمال فيفسدها.

وقد نهى الله عَزَّوَجَلَّ عن الإشراك في عبادته فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "نزل فيمن يقصد بعبادته وجهَ الله عَزَّوَجَلَّ وحمدَ الناس. فكن حذرًا مُتَّقِيًا من هذا الشرك، واستشعر الخجلة في قلبك إن وصفت نفسك بأنك لست من المشركين من غير براءة عن هذا الشرك؛ فإن اسم الشرك يقع على القليل والكثير منه"[(٢)].

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يحتمل أن يريد: الشرك بالله، وهو عبادة غيره، فيكون راجعًا إلى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾، أو يريد الرياء؛ لأنه الشرك الأصغر، واللفظ يحتمل الوجهين، ولا يبعد أن يحمل على العموم في المعنيين –والله أعلم–"[(٣)].

وقد جاء في كثير من النصوص التحذير من الرياء وبيان عاقبته؛ وما ذاك إلا لأن المرائي قد استعمل العبادةَ فيما لَم تُشرَع لأجله.

---

(١) فتح الباري (١/١٤١).

(٢) إحياء علوم الدين (١/١٦٧).

(٣) تفسير ابن جزي (التسهيل لعلوم التنزيل) (١/٤٧٦).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن الرياء حرام والمرائي عند الله تعالى ممقوت، وقد شهدت لذلك الآيات والأخبار والآثار"[١].

فمن كان يريد بعمله الدنيا العاجلة ولها يعمل ويسعى، وإياها يبتغي، فإنه يعجل له في الدنيا ما يشاء من بسط الدنيا عليه، أو تقتيرها لمن أراد الله عَزَّوَجَلَّ أن يفعل ذلك به، أو إهلاكه بما يشاء من عقوباته؛ لأنَّه لم يُخلص العمل لله عَزَّوَجَلَّ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٨-١٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود:١٥-١٦].

والرياء خطره عظيم، فهو محبط للعمل الذي لابسه، وهو من العوائق التي تعرقل سير العبد إلى الله جَلَّوَعَلَا. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَالْأَذَى كَالَّذِي يُنْفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة:٢٦٤]. إن القلب الصلد المغطَّى بالرياء، مثله كمثل صفوان عليه تراب، إنه حجر لا خصب فيه ولا ليونة، يغطيه تراب خفيف، يحجب صلادته عن العين، كما أن الرياء يحجب صلادة القلب الخالي من الإيمان..ثم جاء المطر الغزير فذهب بالتراب القليل! فانكشف الحجر بجدبه وقساوته، ولم ينبت زرعه، ولم يثمر ثمرة، كذلك القلب الذي أنفق ماله رئاء الناس، فلم يثمر خيرًا ولم يعقب مثوبة. فهذا مثل ضربه الله عَزَّوَجَلَّ لنفقة المنافق والمرائي والمؤمن الذي يَمُنُّ بصدقته وَيُؤْذِي، يعني: أن الناس يرون في الظاهر أنَّ

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٩٣).

لهؤلاء أعمالًا كما يُرَى التراب على هذا الصَّفْوان، فإذا كان يوم القيامة اضمحل كُلُّهُ وَاضْمَحَلَّ؛ لأنَّه لم يكن لله جَلَّوَعَلَا، كأنّه لم يكن كما أذهب الْوَابِلُ ما كان على الصَّفْوَان من التراب.

﴿فَتَرَكَهُ صَلْدًا﴾: أجرد لا شيء عليه.

﴿لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ﴾: على ثواب شيء.

﴿مِمَّا كَسَبُوا﴾ عملوا في الدنيا؛ لأنهم لم يعملوه لله عَزَّوَجَلَّ وطلب ما عنده، وإنَّما عملوه رياءَ الناس، وطلبَ حمدهم فصار ذلك معظم من أعمالهم"(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة:٢٦٦].

قال الإمام الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما جعل جل ثناؤه البستانَ من النخيل والأعناب الذي قال جل ثناؤه لعباده المؤمنين: ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ﴾: مثلًا لنفقة المنافق التي ينفقها رياء الناس، لا ابتغاء مرضاة الله، فالناس -بما يظهر لهم من صدقته، وإعطائه لما يُعْطَى وعمله الظاهر يثنون عليه ويحمدونه بعمله ذلك أيام حياته. في حُسْنِهِ كحسن البستان، وهي الجنة التي ضربها الله عَزَّوَجَلَّ لعمله مثلًا، من نخيل وأعناب، له فيها من كل الثمرات؛ لأن عمله ذلك الذي يعمله في الظاهر في الدنيا، له فيه من كل خير من عاجل الدنيا، يدفع به عن نفسه ودمه وماله وذريته، ويكتسب به المحمَدة وحسن الثناء عند الناس، ويأخذ به سهمه من المغنم مع أشياء كثيرة يكثر إحصاؤها، فله في ذلك من كل خير في الدنيا، كما وصف جل ثناؤه الجنة التي وصف مثلًا لعمله، بأن فيها من كل الثمرات.

(١) انظر: الكشف والبيان (٢/٢٦٢)، تفسير البغوي (١/٣٦١)، الخازن (١/٢٠٠).

ثم قال جل ثناؤه: ﴿وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾، يعني: أن صاحب الجنة أصابه الكبر، ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ﴾: صغارٌ أطفال. ﴿فَأَصَابَهَا﴾، يعني: فأصاب الجنة: ﴿إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ﴾، يعني: بذلك أنَّ جنته تلك أحرقتها الريح التي فيها النار، في حال حاجته إليها، وضرورته إلى ثمرتها بكبره، وضعفه عن عمارتها، وفي حال صغر ولده وعجزه عن إحيائها والقيام عليها. فبقي لا شيء له، أحوج ما كان إلى جنته وثمارها، بالآفة التي أصابتها من الإعصار الذي فيه النار.

يقول: فكذلك المنفق ماله رياء الناس، أطفأ الله نوره، وأذهب بهاء عمله، وأحبط أجره حتى لقيه، وعاد إليه أحوج ما كان إلى عمله، حين لا مُسْتَعْتَبَ له، ولا إقالة من ذنوبه ولا توبة، واضمحل عمله كما احترقت الجنة التي وصف جل ثناؤه صفتها عند كبر صاحبها وطفولة ذريته أحوجَ ما كان إليها فبطلت منافعها عنه"[1].

وقد قيل في المثل الذي ضربه الله عَزَّوَجَلَّ في الحسرة لسلب النعمة من المقصود به؟ ثلاثة أقاويل:

أحدها: أنه مثل للمرائي في النفقة ينقطع عنه نفعها أحوج ما يكون إليها.

والثاني: هو مثل للمفرِّط في طاعة الله عَزَّوَجَلَّ؛ لملاذ الدنيا يحصل في الآخرة على الحسرة العظمى.

والثالث: هو مثل للذي يختم عمله بفساد[2].

وقد قيل في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:١٠]: هم أهل الرياء لا يصعد عملهم. قال الحافظ ابن كثير

---

(١) تفسير الطبري (٥/٥٤٢- ٥٤٣)، وانظر: الكشف والبيان (٢/٢٦٦)، تفسير الراغب الأصفهاني (١/٥٦١).
(٢) النكت والعيون (١/ ٣٤١).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال مجاهد، وسعيد بن جبير، وشهر بن حوشب رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هم المراؤون بأعمالهم، يعني: يمكرون بالناس، يوهمون أنهم في طاعة الله، وهم بُغَضَاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ"(١).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان أقسام العمل إذا كان لغير الله جَلَّوَعَلَا:

"واعلم أن العمل لغير الله جَلَّوَعَلَا أقسام:

أ. فتارة يكون رياءً محضًا بحيث لا يراد به سوى مراءاة المخلوقين(٢)؛ لغرض دنيوي، كحال المنافقين في صلاتهم، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٤-٧]. وهذا الرياء المحض لا يكاد يصدر من مؤمن في فرض الصلاة والصيام، وقد يصدر في الصدقة الواجبة أو الحج، وغيرهما من الأعمال الظاهرة، أو التي يتعدى نفعها، فإن الإخلاص فيها عزيز، وهذا العمل لا يشك مسلم أنه حابط وأن صاحبه يستحق المقت من الله عَزَّوَجَلَّ والعقوبة.

ب. وتارة يكون العمل لله عَزَّوَجَلَّ ويشاركه الرياء فإن شاركه من أصله فالنصوص الصحيحة تدل على بطلانه أيضًا وحبوطه. وفي (صحيح مسلم): عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: يقول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ((**أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**))(٣).

---

(١) تفسير ابن كثير (٥٣٧/٦). وانظر: انظر: تفسير الطبري (٤٤٦/٢٠)، تفسير البغوي (٦٩٠/٣)، زاد المسير (٥٠٨/٣)، الدر المنثور (١٠/٧)، الكشف والبيان (١٠٢/٨)، تفسير القرطبي (٣٣٢/١٤)، فتح القدير، للشوكاني (٣٩٢/٤)، روح المعاني (٣٤٩/١١).

(٢) قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقال: (راءى) فلان الناس يرائيهم (مراءاة)". الصحاح، مادة: (رأى) (٢٣٤٩/٦).

(٣) صحيح مسلم [٢٩٨٥].

ج. وأما إن كان أصل العمل لله عَزَّوَجَلَّ ثم طرأت عليه نية الرياء فلا يضره، فإن كان خاطرًا ودفعه فلا يضره بغير خلاف، وإن استرسل معه، فهل يحبط به عمله أم لا يضره ذلك ويجازى على أصل نيته؟ في ذلك اختلاف بين العلماء من السلف قد حكاه الإمام أحمد وابن جرير الطبري رَحِمَهُمَاٱللَّهُ، ورجحا أن عمله لا يبطل بذلك، وأنه يجازى بنيته الأولى وهو مروي عن الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ وغيره.

وذكر ابن جرير رَحِمَهُٱللَّهُ أن هذا الاختلاف إنما هو في عمل يرتبط آخره بأوله، كالصلاة والصيام والحج، فأما ما لا ارتباط فيه كالقراءة والذكر وإنفاق المال ونشر العلم، فإنه ينقطع بنية الرياء الطارئة عليه، ويحتاج إلى تجديد نية"[(١)].

وقال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُٱللَّهُ: "إن كان العمل موافقًا للشريعة في الصورة الظاهرة، ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو مردود على فاعله، وهذا حال المنافقين والمرائين، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء:١٤٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۝٤ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۝٥ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۝٦ وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ۝٧﴾ [الماعون:٤-٧]، ولهذا قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠]"[(٢)].

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُٱللَّهُ: "والمرائي في صلاته قد يكون منافقًا، وقد يكون غير منافق. فالرياء أعم من جهة، والنفاق أعم من جهة أخرى، أي: قد يرائي في عمل ما، ويكون مؤمنًا بالبعث والجزاء وبكل أركان الإيمان، ولا يرائي في عمل آخر، بل يكون

(١) باختصار عن (جامع العلوم والحكم) (١/٧٩- ٨٣).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٣٨٥).

مخلصًا فيه كل الإخلاص. والمنافق دائمًا ظاهره مخالف لباطنه في كل شيء، لا في الصلاة فقط. ولكن جاء النص: بأن المراءاة في الصلاة من أعمال المنافقين"[(١)].

والشرك الخفي المحتمل قد يتسلل إلى عبادات فيفسدها. وقد رُوِيَ أنَّ من الشرك ما هو أخفى من دبيب النمل.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ولذلك عجز عن الوقوف على غوائله سماسرة العلماء فضلًا عن عامة العباد، وهو من أواخر غوائل النفس وبواطن مكايدها. وإنما يبتلى به العلماء والعباد المشمرون عن ساق الجد؛ لسلوك سبيل الآخرة، فإنهم مهما نهروا أنفسهم وجاهدوها، وفطموها عن الشهوات، وصانوها عن الشبهات، وحملوها بالقهر على أصناف العبادات عجزت نفوسهم عن الطمع في المعاصي الظاهرة الواقعة على الجوارح، فطلبت الاستراحة إلى الظاهر بالخير، وإظهار العمل والعلم فوجدت مخلصًا من مشقة المجاهدة إلى لذة القبول عند الخلق، ونظرهم إليه بعين الوقار والتعظيم، فنازعت إلى إظهار الطاعة، وتوصلت إلى إطلاع الخلق، ولم تقنع باطلاع الخالق، وفرحت بحمد الناس ولم تقنع بحمد الله، وعلمت أنهم إذا عرفوا تركه للشهوات، وتوقيه للشبهات، وتحمله مشقات العبادات، أطلقوا ألسنتهم بالمدح والثناء، وبالغوا في الإعزاز، ونظروا إليه بعين الاحترام، وتبركوا بلقائه، ورغبوا في بركته ودعائه وفاتحوه بالسلام والخدمة وقدموه في المجالس والمحافل وتصاغروا له فأصابت النفس في ذلك لذة هي من أعظم اللذات وشهوة هي أغلب الشهوات فاستحقرت فيه ترك المعاصي والهفوات واستلانت خشونة المواظبة على العبادات لإدراكها في الباطن لذة اللذات وشهوة الشهوات فهو يظن أن حياته بالله عَزَّوَجَلَّ، وبعبادته المرضية، وإنما حياته؛ لهذه الشهوة الخفية التي يعمى عن دركها إلا العقول النافذة القوية، ويرى أنه يخلص في طاعة رب العالمين، وقد أثبت اسمه في جريدة المنافقين، وهو يظن أنه

---

(١) أضواء البيان (٩/ ١١٦).

عند الله عَزَّوَجَلَّ من المقربين. وهذه مكيدة للنفس لا يسلم منها إلا الصديقون، ومهواة لا يرقى منها إلا المقربون"(١).

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والرياء ينقسم قسمين: فإن كان الرياء في عقد الإيمان فهو كفر ونفاق، وصاحبه في الدرك الأسفل من النار. وإن كان الرياء لمن سلم له عقد الإيمان من الشرك، ولحقه شيء من الرياء في بعض أعماله، فليس ذلك بمخرج من الإيمان إلا أنه مذموم فاعله؛ لأنه أشرك في بعض أعماله حَمْدَ المخلوقين مع حَمْدِ ربه، فَحُرم ثواب عمله ذلك"(٢).

والرياء (شرك خفي) و(شرك أصغر) -كما تقدم-. وإنما سُمِّيَ: شركًا خفيًّا؛ لأن صاحبه يُظهرُ عمله لله عَزَّوَجَلَّ، وقد قصدَ به غيره، أو جعل له شريكًا فيه.

والنياتُ والمقاصدُ وأعمال القلوب لا يعلمها إلا الله عَزَّوَجَلَّ. والعبدُ مطالب ببذل الجهد في التخلص من الرياء، والبعد عن أسبابه، وإخلاص القصد لله عَزَّوَجَلَّ، وقد جاء في الحديث: عن أبي سعيد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: خرج علينا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونحن نتذاكر المسيح الدجال، فقال: ((**ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟**))، قال: قلنا: بلى، فقال: ((**الشرك الخفي، أن يقوم الرجل يصلي، فَيُزَيِّنُ صَلَاتَهُ؛ لما يَرَى من نَظَرِ رَجُلٍ**))(٣). فدلَّ على أن خطر الرياء أعظم من خطر المسيح الدجال. وفي رواية: خرج النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ((**يا أيها الناس: إِيَّاكُمْ وَشِرْكَ**

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/ ٢٧٤- ٢٧٥)، فيض القدير (٤/ ١٧٣).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١١٣).

(٣) أخرجه أحمد [١١٢٥٢]، وابن ماجه [٤٢٠٤]. قال البوصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (زوائده) (٤/٢٣٧): "هذا إسناد حسن". وأخرجه أيضًا: الحاكم [٧٩٣٦]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٣].

السَّرَائِرِ))، قالوا: يا رسول الله وما شِرْكُ السَّرَائِرِ؟ قال: ((**أَنْ يقومَ أحدُكُم يُزَيِّنُ صَلَاتَهُ جَاهِدًا لِيَنْظُرَ النَّاسُ إليه، فذلك شِرْكُ السَّرَائِرِ**))[1].

فإذا كان الناس ينظرون إلى المرائي فإنه يتقن صلاته ويحسنها، وإذا كان بعيدًا عن أعين الناس فإنه يتساهل ويتعجل.

وفي الحديث: ((**إن أخوف ما أخاف عليكم: الشرك الأصغر، قالوا: وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول اللهُ** عَزَّوَجَلَّ **لهم يوم القيامة: إذا جُزِيَ النَّاسُ بأعمالهم: اذْهَبُوا إلى الذين كنتم تُرَاءُونَ في الدُّنيا فانظروا هل تجدون عندهم جزاءً؟!**))[2].

وفي رواية: عن شداد بن أوس، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: كُنَّا نَعُدُّ على عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ الرِّياء: الشرك الأصغر[3].

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملًا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه**))[4].

---

(١) الحديث مروي عن جابر وعن محمود بن لبيد. حديث جابر: أخرجه البيهقي في (السنن الكبرى) [٣٥٨٥]، وفي (شعب الإيمان) [٣١٤١]. حديث محمود بن لبيد: أخرجه ابن أبي شيبة [٨٤٠٣]، وابن خزيمة [٩٣٧]، والديلمي [٨١٦٤]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٨٧٢].

(٢) أخرجه أحمد [٢٣٦٣٠، ٢٣٦٣٦]، والطبراني في (الكبير) [٤٣٠١]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٢]، قال العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ في (المغني عن حمل الأسفار) (ص:١٢٠٣): "أخرجه أحمد والبيهقي في (الشعب) من حديث محمود بن لبيد وله رواية ورجاله ثقات، ورواه الطبراني من رواية محمود بن لبيد عن رافع بن خديج". وقال الحافظ المنذري رَحِمَهُ اللَّهُ (٣٤/١): "حديث محمود بن لبيد هذا رواه أحمد بإسناد جيد، وابن أبي الدنيا، والبيهقي في (الزهد) وغيره".

(٣) أخرجه البزار [٣٤٨١]، والطبراني في (مسند الشاميين) [٢١٤٦]، والحاكم [٧٩٣٧]، وصححه، ووافقه الذهبي، كما أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤٢٤].

(٤) صحيح مسلم [٢٩٨٥].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فمن عمل شيئًا لي ولغيري لم أقبله، بل أتركه لذلك الغير. والمراد أن عمل المرائي باطل لا ثواب فيه، ويأثم به"(١).

وعن عبد الله بن يزيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**يا نَعَايَا العرب، يا نَعَايَا العرب، إن أخوف ما أخاف عليكم: الزنا، والشهوة الخفية**))(٢). وقد قيل لأبي داود السجستاني رَحِمَهُ اللَّهُ: وما الشهوة الخفية؟ قال: حب الرئاسة(٣).

وعن سلمة، قال: سمعت جندبًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ به، ومن يُرَائِي يُرَائِي الله به**))(٤).

وعند مسلم: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى الله به**))(٥).

والمعنى: من عمل لغير الله عَزَّ وَجَلَّ يراءي به الناس جازاه الله جَلَّ وَعَلَا على ذلك بأن يفضحه ويظهر ما يبطنه ويستره(٦).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/١١٦).

(٢) قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦/٢٥٥): "رواه الطبراني بإسنادين رجال أحدهما رجال الصحيح غير عبد الله بن بديل بن ورقاء، وهو ثقة". وقال المنذري رَحِمَهُ اللَّهُ (٣/١٨٦): "رواه الطبراني بإسنادين أحدهما صحيح". قوله: ((يا نعايا العرب)): كأنه يقول: قد ذهبت العرب ينعيهم.

(٣) الطيوريات (٢/٤٠٥)، مجموع الفتاوى (١٠/٢١٥).

(٤) صحيح البخاري [٦٤٩٩، ٧١٥٢].

(٥) صحيح مسلم [٢٩٨٦].

(٦) كشف المشكل من حديث الصحيحين (٢/٤٧)، وانظر: شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٢٠٨)، فتح الباري، لابن حجر (١١/ ٣٣٦)، عمدة القاري (٢٣/٨٦).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قال العلماء معناه: من راءى بعمله وسمعه الناس؛ ليكرموه ويعظموه ويعتقدوا خيره سمع الله عَزَّوَجَلَّ به يوم القيامة الناس وفضحه.

وقيل: معناه من سمع بعيوب الناس وأذاعها أظهر الله عَزَّوَجَلَّ عيوبه.

وقيل: أسمعه المكروه.

وقيل: أراه الله عَزَّوَجَلَّ ثواب ذلك من غير أن يعطيه إياه؛ ليكون حسرة عليه.

وقيل: معناه: من أراد بعمله الناس أسمعه الله عَزَّوَجَلَّ الناس، وكان ذلك حظه منه"(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر))**(٢).

ومن الأحاديث التي تنصُّ على الوعيد الشديد في حق المرائين: ما جاء عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: **((إن أول الناس يُقْضَى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فَأُتِيَ به فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قال: فما عملت فيها؟ قال: قاتلت فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيء، فقد قيل، ثم أُمِرَ به فَسُحِبَ على وجْهِهِ حتى أُلْقِيَ في النار، ورجل تَعَلَّمَ الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وقرأ القرآن، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: تعلمت العلم، وعلمته وقرأت فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال: عالم، وقرأت القرآن ليقال: هو قارئ، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه حتى ألقي في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كله، فأتي به فعرفه نعمه فعرفها، قال: فما عملت فيها؟ قال: ما تركت من سبيل تحب أن ينفق فيها إلا**

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ١١٦).

(٢) أخرجه ابن ماجه [١٦٩٠]، قال البوصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (زوائده) (٢/ ٦٩): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [٣٢٣٦].

أنفقت فيها لك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليقال: هو جواد، فقد قيل، ثم أمر به فسحب على وجهه، ثم ألقي في النار))[1].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((من تَعَلَّمَ عِلْمًا مِمَّا يُبْتَغَى به وجهُ الله** عَزَّوَجَلَّ **لا يَتَعَلَّمُهُ إلا ليصيب به عرضًا من الدنيا، لم يجد عَرْفَ الجنة يوم القيامة))**، يعني: ريحها[2].

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((لا تَعَلَّمُوا العلمَ؛ لِتُبَاهُوا به العلماء، ولا لِتُمَارُوا به السفهاء، ولا تَخَيَّرُوا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار))**[3].

---

(١) صحيح مسلم [١٩٠٥].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٦١٢٧]، وأحمد [٨٤٥٧]، وابن ماجه [٢٥٢]، وأبو داود [٣٦٦٤]، وأبو يعلى [٦٣٧٣]، وابن حبان [٧٨]، والحاكم [٢٨٨]، وقال: "صحيح سنده ثقات رواته على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٤]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "رواه أبو داود بإسناد صحيح. والأحاديث في الباب كثيرة مشهورة" رياض الصالحين (ص:٤٥٨). وقال العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص:٧٤): "أخرجه أبو داود وابن ماجه بإسناد جيد".

(٣) أخرجه ابن ماجه [٢٥٤]، قال البوصيري رَحِمَهُ اللَّهُ في (زوائده) (٣٧/١): "هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٧٧]، والحاكم [٢٩٠]، وتمام [٨١٢]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٥]. قال العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص:٧٢): "أخرجه ابن ماجه من حديث جابر بإسناد صحيح". وقوله: ((لا تعلموا)) أي: لا تتعلموا بالتاءين فحذفت إحداهما. ((ولا تخيروا به المجالس)) أي: لا تختاروا به خيار المجالس وصدورها. قوله: ((فالنار)) أي: فله النار أو فيستحق النار، والنار مرفوع على الأول منصوب. حاشية السندي على سنن ابن ماجه (١١١/١).

وقال الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ترك العمل لأجل الناس رياء، والعمل لأجل الناس شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما(١).

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: الإخلاص: أن يخلص العبد دينه وعمله فلا يشرك به في دينه ولا يرائي بعمله(٢).

وقال بعضُ الحُكماء: "مثلُ من يعمل رياءً وسُمعة كمثَلِ من ملأ كيسَه حصًى، ثم دخل السوق؛ ليشتري به، فإذا فتحه بين يدي البائع افتضح، وضرب به وجهه، فلم يحصل له به منفعةٌ سوى قول الناس: ما أملأَ كيسه! ولا يُعطَى به شيئًا، فكذلك مَن عمِل للرياء والسُّمعة، لا منفعةَ له في عمله سوى مقالة الناس، ولا ثوابَ له في الآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣]، أي: الأعمال التي قصد بها غير الله عَزَّوَجَلَّ يبطل ثوابها صارت كالهباء المنثور، وهو الغبار الذي يرى في شعاع الشمس"(٣).

إجمال مضار الرياء:

الرياء محبط للعمل ومضيع للأجر والثواب، وسبب لمقت الله تعالى، وهو من الكبائر المهلكة.

الرياء خطره عظيم على الفرد والمجتمع، وقد تقدم أنه أخطر على المسلمين من المسيح الدجال، وجاء في حديث آخر ما يدل على أنه أشد فتكًا من الذئبِ في الغنم،

---

(١) انظر: الأذكار، للإمام النووي (ص:٧)، التبيان في آداب حملة القرآن، للإمام النووي (ص:٣٢)، المجالس الوعظية، للسفيري الشافعي (١/١٢٥)، الزواجر (ص:٦٩)، الرسالة القشيرية (١/٤١)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (١/٢٦٦).

(٢) انظر: الكشف والبيان (٢/٦)، تفسير البغوي (١/١٧٤).

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٦٩).

فعن ابن كعب بن مالك الأنصاري، عن أبيه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما ذئبان جائعان أرسلا في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والشرف لدينه**))[1]. فمقصود الحديث أن الحرص على المال والشرف، والمراد به: الجاه والمنصب أكثر إفسادًا للدين من إفساد الذئبين للغنم؛ لأن ذلك الأشر والبطر يستفز صاحبه، ويأخذ به إلى ما يضره وذلك مذموم؛ لاستدعائه العلو في الأرض والفساد المذمومين شرعًا[2]. يعني: أنه يحرص على المال وعلى الشرف فيفسد دينه بحرصه ذلك، وقصد الرياء والسمعة، وعدم إخلاصه في العمل والعبادة.

الرياء من أسباب العذاب في الآخرة كما تقدم، بل قد يكون من أسباب مضاعفة العذاب وشدته، كما تقدم في حديث: ((**أول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة**)).

والرياء من أسباب الذل والصغار والهوان؛ ذلك أن المرائي لا يسلم أن يفضح في الدنيا، فيظهر الله عَزَّوَجَلَّ للناس ما يبطنه فيسقط من أعين الناس كما تقدم في حديث: ((**من سمَّع سمَّعَ الله به، ومن يُرائي يُرائي اللهُ به**))، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ائْذَن لِّي وَلَا تَفْتِنِّي أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾ [التوبة:٤٩].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٣٧٦]، وأحمد [١٥٧٨٤]، والدارمي [٢٧٧٢]، والترمذي [٢٣٧٦]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٢٢٨]، والطبراني [١٨٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٨٣].
قوله: (بأفسد لها) أي: بأكثر فسادًا للغنم. (والشرف) أي: الجاه، معطوف على المال. واللام في قوله: (لدينه) لام البيان، كهي في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ﴾ [البقرة:٢٣٣]، كأنه قيل لمن؟ قال: لمن أراد. وكذا هنا، كأنه قيل: بأفسد لأي شيء؟ فقيل: لدينه. ولا يصح جعلها متعلقة بأفسد؛ لأنه لا يجوز تعلق حرفي جرٍّ بلفظ واحد، ومعنى واحد بعامل واحد إلا على سبل البدل". انظر: دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين، لابن علان البكري الشافعي (٤/٤١٩- ٤٢٠). وفيه مبالغة في الذم لمن جعل المال والجاه غاية.

(٢) فيض القدير (٥/ ٤٤٥)، وانظر: انظر: مجموع الفتاوى (١٠/ ٢١٥).

وقد جاء في الحديث ما يدل على أن الرياء يحرم المرائي الثواب الآخرة، وهو من أسباب الذل والصغار، وأن من يقابله من الإخلاص من أسباب النجاة والرفعة والتمكين:

فعن أُبَيِّ بن كعب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**بَشِّرْ هذه الأُمَّةَ بالسَّنَاءِ والرِّفْعَة، والدِّين، والنَّصْر، والتَّمْكِينِ في الأرض، فمن عَمِلَ منهم عَمَلَ الآخرة لِلدُّنْيَا، لم يكن له في الآخرة نَصِيبٌ**))(1).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى:٢٠].

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إنَّمَا يَنْصُرُ الله هذه الأُمَّةَ بضعيفها، بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم**))(2).

والرياء من أسباب زيادة انغماس المرائي في الضلال كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ۝ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ۝﴾ [البقرة:٩-١٠].

---

(١) أخرجه أحمد [٢١٢٢٠]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٠/٢٢٠): "رواه أحمد وابنه من طرق، ورجال أحمد رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٤٠٥]، والحاكم [٧٨٦٢]، وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٩/٤٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٦٤١٤]، والضياء [١١٥٤]. قوله: ((بالسَّناء))، أي: بارتفاع المَنْزِلة والقَدْر.

(٢) أخرجه النسائي بإسناد صحيح [٣١٧٨]، وتمام [٦٩٩]، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/٢٦)، والبيهقي [٦٣٨٩]، وهو في البخاري وغيره دون ذكر الإخلاص.

ثالثًا: الوقاية من الرياء والعلاج:

١ - الإخلاص في جميع الأعمال والأقوال والأحوال:

إن من أهم أسباب الوقاية من الرياء: إخلاص العمل والقصد والنية، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر:٣]. قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُٱللَّهُ: إن "مما يَتفرَّعُ على معنى الآية: إخلاص المؤمن الْمُوَحِّدِ في عبادة ربِّه، أي: أن يعبد الله لأجله، أي: طلبًا لرضاه، وامتثالًا لأمره، وهو آيِلٌ إلى أحوال النِّيَّةِ في العبادة المشار إليها بقول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((إنما الأعمال بالنيات، وإنما لامرئ ما نوى، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله، فهجرته إلى الله ورسوله، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها، أو امرأة ينكحها، فهجرته إلى ما هاجر إليه))**[(١)]. وعرَّف الإمام الغزالي رَحِمَهُٱللَّهُ الإخلاص بأنه: تجريد قصد التَّقَرُّبِ إلى الله عَزَّوَجَلَّ عن جميع الشَّوَائِبِ[(٢)].

والإخلاص في العبادة: أن يكون الدَّاعِي إلى الإتيان بالمأمور وإلى ترك الْمَنْهِيِّ: إرضاء الله تعالى، وهو معنى قولهم: لوجه الله عَزَّوَجَلَّ، أي: لقصد الامتثال بحيث لا يكون الحَظُّ الدُّنْيَوِيُّ هو الباعث على العبادة، مِثْلَ أن يَعْبُدَ اللهَ؛ ليمدحه الناس بحيث لو تَعَطَّلَ المدح لترك العبادة. ولذا قيل: الرِّيَاءُ الشِّرْكُ الأصغر، أي: إذا كان هو الباعث على العمل، ومثل ذلك أن يقاتل لأجل الغنيمة فلو أَيِسَ منها ترك القتال، فأما إن كان لِلنَّفْسِ حَظٌّ عاجل وكان حاصلًا تبعًا للعبادة وليس هو المقصود فهو مُغْتَفَرٌ، وخاصة إذا كان ذلك لا تخلو عنه النفوس، أو كان مما يعين على الاستزادة من العبادة"[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري [١، ٥٤، ٢٥٢٩، ٥٠٧٠، ٦٦٨٩، ٦٩٥٣]، مسلم [١٩٠٧].

(٢) إحياء علوم الدين (٤/ ٣٧٩).

(٣) التحرير والتنوير (٢٣/٣١٨).

والرياء يذهب بمقاصد العبادات وغاياتها وآثارها، ويفرغها من حقيقتها وجوهرها، فتصبح من غير إخلاص جوفاء لا تحقق آثارها في القلب، ولا تدفع إلى العمل الصالح.

وقد قال الله جَلَّوَعَلَا حكاية عن المخلصين في إطعامهم: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان:٩]، وكما قال في الأتقى الذي ينفق ماله ابتغاء وجه ربه عَزَّوَجَلَّ؛ ليتطهر بإنفاقه، لا ليرائي به ويستعلي، ولا ردًّا لجميلٍ، ولا طلبًا لشكر أحد: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى ﴿١٤﴾ لَا يَصْلَاهَا إِلَّا الْأَشْقَى ﴿١٥﴾ الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى ﴿١٦﴾ وَسَيُجَنَّبُهَا الْأَتْقَى ﴿١٧﴾ الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى ﴿١٨﴾ وَمَا لِأَحَدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى ﴿١٩﴾ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الْأَعْلَى ﴿٢٠﴾ وَلَسَوْفَ يَرْضَى ﴿٢١﴾﴾ [الليل:١٨-٢١].

وقال ابن جزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥]: "الإخلاص هنا يراد به: التوحيد وترك الشرك أو ترك الرياء، وذلك أن الإخلاص مطلوب في التوحيد وفي الأعمال، وهذا الإخلاص في التوحيد من الشرك الجلي، وهذا الإخلاص في الأعمال من الشرك الخفي. واعلم أن الأعمال ثلاثة أنواع: مأمورات ومنهيات ومباحات، فأما المأمورات فالإخلاص فيها عبارة عن خلوص النية لوجه الله تعالى، بحيث لا يشوبها بنية أخرى، فإن كانت كذلك فالعمل خالص مقبول، وإن كانت النية لغير وجه الله عَزَّوَجَلَّ، من طلب منفعة دنيوية، أو مدح أو غير ذلك فالعمل رياء محض مردود، وإن كانت النية مشتركة ففي ذلك تفصيل فيه نظر واحتمال.

وأما المنهيات فإن تركها دون نية خرج عن عهدتها، ولم يكن له أجر في تركها وإن تركها بنية وجه الله عَزَّوَجَلَّ حصل له الخروج عن عهدتها مع الأجر.

وأما المباحات كالأكل والنوم والجماع وشبه ذلك فإن فعلها بغير نية لم يكن فيها أجر، وإن فعلها بنية وجه الله فله فيها أجر، فإن كل مباح يمكن أن يصير قربة إذا قصد به

وجه الله مثل أن يقصد بالأكل: القوة على العبادة، ويقصد بالجماع: التعفف عن الحرام"[1].

وإذا كان الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ هو نهج الأبرار للوقاية من النَّار فإن ما يقابله من الرياء من أسباب ولوج النَّار.

قال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وعلامة المخلص: أن يكون في جلوته كخلوته.."[2]. وسئل بعض الحكماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ من المخلص؟ فقال: المخلص الذي يكتم حسناته كما يكتم سيئاته[3].

فينبغي على كل مسلم أن يصحِّحَ النيَّةَ، ويخلصَ القصدَ لله عَزَّوَجَلَّ في سائر عباداته وأعماله وأقواله وأحواله. وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ مرشدًا العباد إلى إخلاص النية والقصد لله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [الأنعام:١٦٢- ١٦٣].

٢ – عدم ترك الطَّاعات خوفًا من الرياء:

لا ينبغي ترك العمل المشروع خوف الرياء. قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اعلم أن من الناس من يترك العمل؛ خوفًا من أن يكون مرائيًا به، وذلك غلط، وموافقة للشيطان، وجر إلى البطالة وترك للخير، فما دمت تجد باعثًا دينيًا على العمل فلا تترك العمل، وجاهد خاطر الرياء، وألزم قلبك الحياء من الله عَزَّوَجَلَّ إذا دعتك نفسك إلى أن تستبدل بحمده حمد المخلوقين، وهو مطلع على قلبك، بل إن قدرت على أن تزيد في العمل حياء من ربك، وعقوبة لنفسك فافعل، فإن قال لك الشيطان: أنت مراء فاعلم كذبه وخدعه بما

---

(١) تفسير ابن جزي (٢/ ٥٠١- ٥٠٢).

(٢) صيد الخاطر (ص: ٤٣٤).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٣٧٨/٤)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (٨٣/١).

تصادف في قلبك من كراهية الرياء وإبائه وخوفك منه وحيائك من الله عَزَّوَجَلَّ، وإن لم يبق باعث ديني، بل تجرد باعث الرياء فاترك العمل عند ذلك"[١].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا ينبغي أن يترك الذكر باللسان مع القلب؛ خوفًا من أن يظن به الرياء بل يذكر بهما جميعًا، ويقصد به وجه الله عَزَّوَجَلَّ، وذكر قول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إن ترك العمل لأجل الناس رياء ، والعمل لأجل الناس شرك. قال : فلو فتح الإنسان عليه باب ملاحظة الناس والاحتراز من تطرق ظنونهم الباطلة لانسد عليه أكثر أبواب الخير"[٢].

وقال الإمام عز الدين بن عبد السلام رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ليس ترك العمل خوف الرياء إخلاص، وإنما الإخلاص: إيقاع الطاعة خالصة لله عَزَّوَجَلَّ دون الناس.

وقد تترك العمل؛ مخافة الرياء، فيوهمك الشيطان أنك مراء بترك العمل؛ لينغص عليك العيش فيما تعمله، وفيما تتركه.

مثال ذلك: أن يكون في قراءة أو تعليم أو ذكر أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر، فيوهمك أنك مراء بذلك فتتركه، فيوهمك أنك مراء بالصمت، وأن يقال: إنما صمت خيفة من الرياء، فتغيب عن الناس خوفا من الرياء فيوهمك أنك مراء بالهروب منهم والاعتزال عنهم، وأنهم يقولون: إنما فرَّ بدينه؛ خوفًا من الرياء، فتستحلي النفس أن تقول الناس: إنما فرَّ بدينه؛ خوف الرياء، ولا خلاص لك من مثل ذلك إلا بالكراهة والإباء.

فإن أشكل عليك أمرك فإن وجدت نفسك مائلة إليه من غير كراهة ولا إباء فقد صدقك الشيطان فيما أخبرك به من أنك مراء، فإن لم تنفك عن خطرة الرياء ولم يجد من نفسك الكراهة والإباء، فإن كان ذلك العمل نفلًا فدعه، وإن كان فرضًا لزمك أن تجاهد نفسك على حسب إمكانك في استحضار نفسك الكراهة والإباء.

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٢٢)، موعظة المؤمنين (١/٢٤١).

(٢) الأذكار، للإمام النووي (ص:٩).

وإن دخلت في الفرض على الإخلاص فأوهمك أنك مراء فلا تصغ إليه ولا تلتفت عليه؛ لأنك تحققت الإخلاص، وشككت في الرياء، واليقين لا يزال بالشك"(١).

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأما ترك الطاعات؛ خوفًا من الرياء، فإن كان الباعث له على الطاعة غير الدين، فهذا ينبغي أن يترك؛ لأنه معصية لا طاعة فيه.

وإن كان الباعث على ذلك الدين، وكان ذلك لأجل الله تعالى خالصاً، فلا ينبغي أن يترك العمل، لأن الباعث الدين.

وكذلك إذا ترك العمل؛ خوفًا من أن يقال: إنه مراءٍ، فلا ينبغي ذلك؛ لأنه من مكائد الشيطان. قال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا أتاك الشيطان وأنت في الصلاة فقال: إنك مراءٍ، فزدها طولًا. وأما ما روي عن بعض السلف أنه ترك العبادة؛ خوفًا من الرياء، كما روي عن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن إنسانًا دخل عليه وهو يقرأ في المصحف، فأطبق المصحف وترك القراءة، وقال: لا يراني هذا أني أقرأ كل ساعة، فيحمل هذا علي أنهم أحسوا من نفوسهم بنوع تزين فقطعوا"(٢). قال ابن مفلح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهو كما قال، ومن هذا قول الأعمش رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنت عند إبراهيم النخعي، وهو يقرأ في المصحف فاستأذن رجل فغطى المصحف، وقال: لا يظن أني أقرأ فيه كل ساعة، وإذا كان لا يترك العبادة خوف وقوعها على وجه الرياء فأولى أن لا يترك خوف عجب يطرأ بعدها"(٣).

٣ - استحضار مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ للعبد في كل ما يقول ويعمل، في السر والعلانية، في الجلاء والخفاء، كأنه بين يديه جَلَّوَعَلَا، ومن استشعر عظمة الله عَزَّوَجَلَّ ومراقبته للعبد هان في نظره كل أحد.

---

(١) مقاصد الرعاية لحقوق الله تعالى (ص: ٧٤).

(٢) مختصر منهاج القاصدين (ص:٢٢٥).

(٣) الآداب الشرعية، لابن مفلح (ص: ٢٦٦- ٢٦٧).

٤ – المحافظة على عبادة الخفاء:

إن من أسباب الوقاية من آفات الرياء: عبادة الخفاء، وهي من علامات محبة الله عَزَّوَجَلَّ للعبد، كما جاء في الحديث: ((**إن الله يُحِبُّ العبدَ التَّقِيَّ، الْغَنِيَّ، الْخَفِيَّ**))(١)، والمراد بالغنى إما غنى النفس، وهو الغنى المحبوب، أو غنى المال. والمال غير محذور لعينه، بل لكونه يَعُوق ويَشْغَلُ العبد عن الله عَزَّوَجَلَّ، فكم من غنيٍّ لم يشغلْه غناهُ عن الله؟ وكم من فقير شَغَلَه فقره عن الله جَلَّوَعَلَا؟ فالتحقيق أنه لا يطلق القول بتفضيل الغني على الفقير وعكسه.

و(الخفي) -بخاء معجمة- أي: الخامل الذكر المعتزل عن الناس الذي يخفي عليهم مكانه؛ ليتفرغ للتعبد(٢). ففي الحديث إشارة إلى أن أحب العمل: ما كان خالصًا لله عَزَّوَجَلَّ، وبعيدًا عن الرياء، وأن عبادة الخفاء فيها طهارة للقلب من النفاق، حيث يغيب الخلق، ولا يشهد على عمله إلا الخالق سُبْحَانَهُوَتَعَالَى.

والشارع يُرغِّب في عبادة الخفاء كصلاة المرء النافلة في بيته بالإضافة إلى العبادات الظاهرة، كصلاة الجماعة؛ ليكون العبد مخلصًا في سائر عباداته وأحواله.

ومن الترغيب في (عبادة الخفاء): ما جاء في (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**سبعة يظلهم الله في ظله، يوم لا ظل إلا ظله**))، وذكر منهم: ((**ورجل تصدق، أخفى حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه**))(٣).

(١) أخرجه مسلم في (صحيحه) [٢٩٦٥].

(٢) انظر: فيض القدير (٢/٢٨٨)، فتح الباري، لابن حجر (١١/٢٧٦).

(٣) صحيح البخاري [٦٦٠، ١٤٢٣]، مسلم [١٠٣١].

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِنْ تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنْكُمْ مِنْ سَيِّئَاتِكُمْ﴾ [البقرة:٢٧١].

كما حثَّ الشارع على صلاة النافلة في البيت، كما جاء في الحديث: ((**صلوا أيها الناس في بيوتكم، فإن أفضل الصلاة صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة**))(١).

وقد نُقل عن الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: خيرُ العمل أخْفاه، أمْنَعُه من الشيطان، وأبعدُه من الرِّياء(٢).

٥ - مجاهدة النفس وتزكيتها وتفقد أحوالها ونفاذ البصيرة والخوف والحذر:

تقدم أن الرياء هو الشرك الخفي الذي يتسلل إلى بعض العبادات والأعمال فيفسدها، وهو أخفى من دبيب النمل.

فينبغي لطالب العلم والهداية أن يكون على حذر وبينة. قال الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فما خفِي لم يُعرف إلا بشدَّة التفقُّد، ونفاذ البصيرة بمعرفته له حين يعرِض، وإلا لم ينفع التفقُّد لما لا يُعرف، فبالخوف والحذر يَتفقَّد العبد الرِّياء، وبمعرفته يبصره حين يعرِض فلا غنى بك عن معرِفة الرياء"(٣).

وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لا يزال الرجل بخير ما علم بالذي يفسد عليه عمله(٤).

ومن أراد أن يسلك طريق السعادة فعليه أن يخالف النفس والهوى والشيطان، وأن يتبع منهج الله عَزَّوَجَلَّ القويم، وشِرعته المباركة، التي أنزلها ليُخرج الناس من الظلمات إلى النور، ومن الضلالة إلى الهدى، فذلك السبيل الذي ينجو به الناس من الغواية، وسلطان الهوى، فلا سبيل إلا بالاتباع، ولا نجاة إلَّا بالانقياد. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "سمعت

---

(١) صحيح البخاري [٧٣١، ٦١١٣، ٧٢٩٠]، مسلم [٧٨١].

(٢) انظر: تاريخ دمشق (٤٨/ ٤٠٤)، سير السلف الصالحين، لإسماعيل الأصبهاني (ص:١٠٣٦).

(٣) الرعاية لحقوق الله، للحارث المحاسبي (ص:١٦٠).

(٤) الزهد والرقائق، لابن المبارك [١٥٠٠]، الزهد، لأحمد بن حنبل [١٥٩٠]، مصنف ابن أبي شيبة [٣٥١٨٩].

شيخنا -يعني: ابن تيمية- يقول: جهاد النفس والهوى أصل جهاد الكفار والمنافقين؛ فإنه لا يقدر على جهادهم حتى يجاهد نفسه وهواه أولًا حتى يخرج إليهم"(١). "فمن قهر هواه عز وساد، ومن قهره هواه ذل وهان وهلك وباد"(٢).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

ومجاهدة النفس والهوى تقرّب العبدَ إلى الله عَزَّوَجَلَّ، فيكون في حفظ الله جَلَّوَعَلَا ورعايته. قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "مخالفة الهوى تقيم العبد في مقام من لو أقسم على الله عَزَّوَجَلَّ لأبره، فيقضي له من الحوائج أضعاف أضعاف ما فاته من هواه". وقال: "إذا تأملت السبعة الذين يظلهم الله عَزَّوَجَلَّ في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله وجدتهم إنما نالوا ذلك الظل بمخالفة الهوى"(٣).

فلا ينبغي للمسلم أن يسترسل في اتباع رغبات النفس؛ فإن الاسترسال في متابعة النفس والهوى له مضار ظاهرة وباطنة وحسية ومعنوية وفردية واجتماعية.

وتزكية النفس تكون بتهذيبها وتأديبها ومخالفتها ومحاسبتها واتهامها، وتدريبها على الأخلاق الفاضلة، وأن يقود المكلف نفسه لا أن تقوده، فمن لم يتنصر على نفسه وشهواتها كيف سينتصر على عدوه؟ وكيف سيصل إلى هدف هو أسمى من مُتَعٍ ولذَّاتٍ آنيَّةٍ فانية؟!

وقد قيل: مخالفة النفس رأس العبادة، ومن نظر إليها باستحسان شيء منها فقد أهلكها بمهلكاتها، كالكبر والعجب والحسد وطول الأمل. وكيف يصح لعاقل الرضا عن النفس والله عَزَّوَجَلَّ يقول: ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي﴾ [يوسف:٥٣]؟!(٤).

---

(١) روضة المحبين (ص:٤٧٨).

(٢) غذاء الألباب، للسفاريني الحنبلي (٢/ ٤٥٨).

(٣) روضة المحبين (١/٤٨٤-٤٨٥).

(٤) انظر: المنفرجتان (ص:٧٥-٧٦)، الرسالة القشيرية (١/٢٨٣)، بريقة محمودية، للخادمي (٢/٧٢).

وقد بين الحارث المحاسبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المحاسبة تكون لمستقبَل الأعمال ولمستدبرها. فقال: المحاسبة في مستقبل الأعمال: "النظر بالتثبت قبل الزلل؛ ليبصر ما يضره مما ينفعه، فيترك ما يضره على علم، ويعمل بما ينفعه على علم. والمحاسبة الثانية في مستدبر الأعمال، وقد نطق بها الكتاب والسنة، وقالت بها علماء الأمة"[(١)].

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لا يقدر أحد أن قمع الرِّياء إلا بمجاهدة شديدة ومكابدة لقوَّة الشِّهوات، ويكون ذلك بأمرين:

أحدهما: قلع عروقه وأصوله التي منها انشعابه.

والثاني: دفع ما يخطر منه في الحال:

المقام الأول في قلع عروقه وأصوله:

وأصله: حب المنزلة والجاه، وإذا فصل رجع إلى ثلاثة أصول وهي: حب لذة المحمدة، والفرار من ألم الذم، والطمع فيما في أيدي الناس، فهذه الثلاثة هي التي تحرك المرائي إلى الرياء. وعلاجه: أن يعلم مضرة الرياء وما يفوته من صلاح قلبه، وما يحرم عنه في الحال من التوفيق وفي الآخرة من المنزلة عند الله تعالى، وما يتعرض له من العقاب والمقت الشديد والخزي الظاهر. فمهما تفكر العبد في هذا الخزي، وقابل ما يحصل له من العباد والتزين لهم في الدنيا بما يفوته في الآخرة، وبما يحبط عليه من ثواب الأعمال فإنه يسهل عليه قطع الرغبة عنه، كمن يعلم أن العسل لذيذ ولكن إذا بان له أن فيه سما أعرض عنه. ثم أي غرض له في مدحهم وإيثار ذم الله لأجل حمدهم، ولا يزيده حمدهم رزقًا، ولا أجلًا، ولا ينفعه يوم فقره وفاقته، وهو يوم القيامة.

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (الرعاية لحقوق الله) (ص:٤٨-٥٥).

وأما الطمع فيما في أيديهم فبأن يعلم أن الله جَلَّ وَعَلَا هو المسخر للقلوب بالمنع والإعطاء، وأن الخلق مضطرون فيه، ولا رازق إلا الله، ومن طمع في الخلق لم يخل من الذل والخيبة، وإن وصل إلى المراد لم يخل عن المنة والمهانة، فكيف يترك ما عند الله برجاء كاذب ووهم فاسد؟! وقد يصيب وقد يخطئ، وإذا أصاب فلا تفي لذته بألم منته ومذلته.

وأما ذمهم فلم يحذر منه، ولا يزيده ذمهم شيئًا ما لم يكتب الله عليه، ولا يعجل أجله، ولا يؤخر رزقه، ولا يجعله من أهل النار إن كان من أهل الجنة، ولا يبغضه إلى الله إن كان محمودًا عند الله عَزَّوَجَلَّ، فالعباد كلهم عجزة لا يملكون لأنفسهم ضرا، ولا نفعا، فإذا قرر في قلبه آفة هذه الأسباب وضررها فترت رغبته، وأقبل على الله قلبه، والعاقل لا يرغب فيما يكثر ضرره ويقل نفعه، فهذا من الأدوية العلمية القالعة مغارس الرياء.

وأما الدواء العملي فهو أن يعود نفسه إخفاء العبادات، وإغلاق الأبواب دونها كما تغلق الأبواب دون الفواحش فلا تنازعه نفسه إلى طلب علم غير الله به.

المقام الثاني في دفع العارض منه أثناء العبادة:

وذلك لا بد أيضًا من تعلمه، فإن من جاهد نفسه بقلع مغارس الرياء، وقطع الطمع، واستحقار مدح المخلوقين وذمهم، فقد لا يتركه الشيطان في أثناء العبادة، بل يعارضه بخطرات الرياء، فإذا خطر له معرفة اطلاع الخلق دفع ذلك بأن قال: ما لك وللخلق علموا أو لم يعلموا والله عَزَّوَجَلَّ عالم بحالك؟ فأي فائدة في علم غيره؟ فإن هاجت الرغبة إلى لذة الحمد ذكر ما رسخ في قلبه من قبل من آفة الرياء وتعرضه للمقت الإلهي، وخسرانه الأخروي"[١].

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣١٠)، موعظة المؤمنين (ص:٢٣٩).

٦ – معالجة دواعي الرياء وكسر أسبابه:

إن من أهم أسباب الوقاية من آفات الرياء: معالجة أسبابه وكسر أسبابه، ومما يعين على ذلك:

أ. تذكير النفس بما يحرم المرائي من التوفيق وصلاح القلب بسبب الرياء.

ب. الخوف من مقت الله عَزَّوَجَلَّ إذا اطلع على قلب العبد وهو معتقد الرياء.

ج. تذكير النفس بما يفوت أو ينقص من ثواب الإخلاص في العباداتِ والأعمال بسبب الرياء، فإن المرائي يبذل الجهد والمال في العباداتِ والأعمال فيذهب ذلك سدى، ويضيع عليه الثواب كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان:٢٣].

د. تذكير النفس بعقاب الله عَزَّوَجَلَّ وسخطه وعذابه الأليم في الآخرة بسبب الرياء.

هـ. تذكير النفس بأن المرائي لا يأمن أن يعجل الله عَزَّوَجَلَّ له بعض العقوبات، ولا يمهله فيفضحه في الدنيا، وينكشف حاله، فيمقته من كان يتودد إليه بريائه.

و. تذكير النفس بقبيح ما يحبب إلى العباد، وهو مما يوجب بغض الله جَلَّوَعَلَا وسخطه.

ز. تذكير النفس بأن رضا الناس غاية لا تدرك، ومطلوب لا يملك، فقد يرضي بعضهم ما يسخط الآخرين[1]. فمن تعلَّق بالمخلوقين ورجاهم وطمع فيهم أن يجلبوا له منفعة أو يدفعوا عنه ضرًّا، فإنه قد يخذل من جهتهم، ولا يتحقق مقصوده، أما إذا توجه إلى الله عَزَّوَجَلَّ بصدق الافتقار إليه فإنَّ الله عَزَّوَجَلَّ يكون معه.

ح. البعد عما يورث الرياء من الأخلاق المذمومة.

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (الرعاية لحقوق الله)، للحارث المحاسبي (ص:١٧٣– ١٧٨)، مقاصد الرعاية لحقوق الله (ص:٦١).

٧ – النظر في عواقب الرياء ونتائجه، وفي فوائد الإخلاص وعوائده.

٨ – اللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ وإخلاص الدعاء، والاستعاذة به جَلَّوَعَلَا من مرض الرياء:

وقد جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنهَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ كان يقول في دعائه: ((**اللهم إني أعوذ بك من شرِّ ما عَمِلْتُ، وشر ما لم أَعْمَلْ**))(١).

٩ – تعلق العبد بالله عَزَّوَجَلَّ، وثقته به، ويقينه بأن النفع والضر بيده وحده:

فلا أحد يملك النفع والضرر إلا الله وحده لا شريك له، حتى النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال الله عَزَّوَجَلَّ له: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [الأعراف:١٨٨]، ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا ﴿٢٠﴾ قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ﴿٢١﴾ قُلْ إِنِّي لَنْ يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾ [الجن:٢٠-٢٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الرعد:١٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾ [الفتح:١١].

---

(١) صحيح مسلم [٢٧١٦]. وقد روي عن أبي موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ فقال: خطبنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ذات يوم، فقال: ((أيها الناس اتقوا هذا الشرك فإنه أخفى من دبيب النمل))، فقال له من شاء أن يقول: وكيف نتقيه وهو أخفى من دبيب النمل يا رسول الله؟، قال: ((قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه، ونستغفرك لما لا نعلم)). أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٥٤٧]، وأحمد [١٩٦٠٦]، والطبراني في (الأوسط) [٣٤٧٩]. قال البوصيري رَحِمَهُٱللَّهُ: "رواه أحمد بن حنبل والطبراني. ورواته إلى أبي علي محتج بهم في الصحيح، وأبو علي وثقه ابن حبان ولم أر أحدًا ضعفه. ورواه أبو يعلى بنحوه من حديث حذيفة إلا أنه قال فيه: ((يقول كل يوم ثلاث مرات)). إتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة (٥٠٨/٦).

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا قال: كنت خلف رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ يومًا، فقال: ((**يا غلام إني أعلمك كلمات، احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تُجَاهَكَ، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**))(١).

وفي القرآن الكريم لما ذكر الله عَزَّوَجَلَّ السحرة قال: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢].

فمن أسباب العافية والهداية والوقاية من آفات الرياء: رسوخ الإيمان بقضاء الله وقدره، وأنه سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ هو الضار النافع، وأنه جَلَّوَعَلَا هو الغني والناس كلهم مفتقِرون إليه كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر:١٥].

ومن أسباب العافية والهداية والوقاية من آفات الرياء: ذكرُ الله عَزَّوَجَلَّ على الدَّوام، والاستعانةُ به، واللجوءُ إليه في كشف الضُّر والسوء كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِ رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف:٢٣-٢٤].

١٠ – حسن الظنِّ بالله جَلَّوَعَلَا، والثقة بما أعده لعباده الصالحين المتقين.

١١ – أن يحذر السالك خطوات الشيطان، وتزينه للمعاصي والشهوات.

١٢ – التفقه في الدين، وملازمة العلماء والصالحين.

---

(١) أخرجه أحمد [٢٦٦٩]، والترمذي [٢٥١٦]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٢٥٥٦]، والحاكم [٦٣٠٣]، وقال: "هذا حديث كبير عال من حديث عبد الملك بن عمير، عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا". وأخرجه أيضًا: الضياء [١٣].

١٣ – تذكر الموت والآخرة:

فينبغي للعاقل أن يتذكر الموت والحساب في الآخرة كلما رأى من نفسه طموحًا إلى الدنيا، وانشغالًا بها، واغترارًا بها، وأن ما يؤمله فيها قد يحصل وقد لا يحصل، وإن حصل فإن مآله إلى زوال، وأن الآخرة خير وأبقى. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَنْ نُرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُ جَهَنَّمَ يَصْلَاهَا مَذْمُومًا مَدْحُورًا ﴿١٨﴾ وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَسَعَى لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا ﴿١٩﴾﴾ [الإسراء:١٨-١٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّا بَلْ تُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ ﴿٢٠﴾ وَتَذَرُونَ الْآخِرَةَ ﴿٢١﴾﴾ [القيامة:٢٠-٢١]، وقال: ﴿إِنَّ هَؤُلَاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْمًا ثَقِيلًا﴾ [الإنسان:٢٧].

المبحث الثامن عشر
ترك العمل بالعلم

أولًا: أهمية العمل بالعلم وخطورة ترك العمل:

إن الانتفاع بالعلم لا يكون إلا بالعمل به؛ لأنَّ السلاح لا ينفع الإنسان إن ملكه ولم يستخدمه، فإذا دهمه خطر، فإن كان جاهلًا ضرَّه جهله، وإن كان عالما لم ينفعه علمه؛ لأنه لم يعمل به، فلا خير في قول لا يصدقه العمل.

والعمل بالعلم هو أبلغُ وسائل الدعوة والتأثير، فهو أدعى لقبول الناس؛ لأن لسان العمل أنطق وأبلغ من لسان القول، والأعمال أعلى صوتًا من الأقوال؛ لأن القول يحسنه كثيرون، وإنما يتفاضل الناس بالأعمال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات:١٣].

والعامل بعلمه يملك مجامع القلوب، ويكتب له القبول.

وقد امتدح اللهُ عَزَّوَجَلَّ مَنْ يُصَدِّقُ عَمَلُهُ قَوْلَه فقال: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣]. وذمَّ مَنْ لا يُصَدِّقُ عملَهُ قَوْلَه فقال: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤].

قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَتَأْمُرُونَ﴾: الهمزة للتقرير مع التوبيخ والتعجيب من حالهم(١). والبرُّ: سعة الخير والمعروف. ومنه البَّر؛ لسعته، ويتناول كل خير. ومنه قولهم: صدقت وبررت. وكان الأحبار يأمرون من نصحوه في السر من أقاربهم وغيرهم باتباع محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ولا يتبعونه.

وقيل: كانوا يأمرون بالصدقة ولا يتصدَّقون، وإذا أتوا بصدقات ليفرِّقوها خانوا فيها.

﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾: وتتركونها من البر كالمنسيات.

﴿وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾: تبكيت مثل قوله: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، يعني: تتلون التوراة وفيها نعت محمد صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، أو فيها الوعيد على الخيانة، وترك البر، ومخالفة القول العمل.

﴿أَفَلا تَعْقِلُونَ﴾: توبيخ عظيم، بمعنى: أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه، وكأنكم في ذلك مسلوبو العقول؛ لأن العقول تأباه وتدفعه"(٢).

وأخرج ابن مردويه والبيهقي في (شعب الإيمان) وابن عساكر: عن ابن عباس رَضِيَاللَّهُعَنْهُمَا أنه جاءه رجل فقال: يا ابن عباس إني أريد أن آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر، قال: أو بلغت ذلك؟ قال: أرجو، قال: فإن لم تخش أن تفتضح بثلاثة أحرف في كتاب الله فافعل. قال: وما هن قال: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤]، أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فالحرف الثاني، قال قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٢-٣]،

---

(١) قال ابن عرفة رَحِمَهُاللَّهُ: "فرق بعضهم بينهما بأن التقرير لمن أنعمت عليه ولم يحسن إليك. والتوبيخ لمن أحسنت إليه وأساء إليك. وجمع (الأنفس) جمع قلة؛ تحقيرًا لها؛ لأن الآية خرجت مخرج الذم". تفسير الإمام ابن عرفة (١/٢٧٠).

(٢) الكشاف (١/١٣٣).

أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فالحرف الثالث، قال: قول العبد الصالح شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ﴾ [هود:٨٨]، أحكمت هذه الآية؟ قال: لا، قال: فابدأ بنفسك(١).

وعن إبراهيم النخعي رَحِمَهُ اللَّهُ قال: إني لأكره الْقَصَصَ لثلاث آيات: قوله تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة:٤٤]، وقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٢ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝٣﴾ [الصف:٢-٣]، وقوله إخبارًا عن شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨](٢).

وعن بعض السلف أنه قيل له: حدثنا، فسكت، ثم قيل له: حدثنا، فقال: تأمروني أن أقول ما لا أفعل فأستعجل مَقْتَ الله جَلَّ وَعَلَا(٣).

ولكن هل يعني هذا أن مُرْتَكِبَ المعاصي والمبتَلَى بها لا يَنْهَى غيرَهُ عنها، ولا يَعِظه ولا يُذَكِّره؟

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع، ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم، حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه، وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له، بل على تركهم له؛ فإن الأمر بالمعروف معروف، وهو واجب على العالم، ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع أمرهم به، ولا يتخلف عنهم، كما قال شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ

---

(١) شعب الإيمان [٧١٦٢]، الدر المنثور (١٥٨/١)، تفسير ابن كثير (٢٤٩/١)، فتح القدير، للشوكاني (٩٥/١)، تفسير الراغب (١٧٦/١).

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٠)، تفسير القرطبي (٣٦٧/١).

(٣) انظر: الكشاف (٥٢٣/٤)، تفسير القرطبي (٨٠/١٨)، روح المعاني (٢٧٨/١٤).

﴿إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود:٨٨]. فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب، لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف. وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لا ينهى غيره عنها، وهذا ضعيف، وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية؛ فإنه لا حجة لهم فيها. والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف، وإن لم يفعله، وينهى عن المنكر وإن ارتكبه.

قال مالك عن ربيعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ يقول له: لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر. وقال مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء؟

قلت: ولكنه -والحالة هذه- مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية؛ لعلمه بها، ومخالفته على بصيرة، فإنه ليس من يعلم كمن لا يعلم؛ ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك"(١).

وعن السلف: مروا بالخير وإن لم تفعلوا. وعن الحسن أنه سمع مطرف بن عبد الله يقول: لا أقول ما لا أفعل، فقال: وأينا يفعل ما يقول؟ ودّ الشيطان لو ظفر بهذه منكم فلا يأمر أحد بمعروف ولا ينهى عن منكر(٢).

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "واعلم أن التحقيق أن هذا الوعيد الشديد ليس على الأمر بالمعروف، وإنما هو على ارتكابه المنكر عالما بذلك، ينصح الناس عنه، فالحق أن الأمر بالمعروف غير ساقط عن صالح ولا طالح، والوعيد على المعصية لا على الأمر بالمعروف؛ لأنه في حد ذاته ليس فيه إلا الخير.

---

(١) تفسير ابن كثير (١/٢٤٨).

(٢) الكشاف (١/٣٩٨)، مفاتيح الغيب (٨/٣١٥)، تفسير القرطبي (١/٣٦٧)، الجواهر الحسان (٥/٤٢٥).

ولقد أجاد من قال:

لا تنه عن خلق وتأتي مثله　　　عار عليك إذا فعلت عظيم(١)

وقال الآخر:

وغير تقي يأمر الناس بالتقى　　　طبيب يداوي الناس وهو مريض(٢)

ومن الوعيد الشديد في علماء السوء الذين يخادعون الناس: ما جاء عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((مررت ليلة أسرى بي على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار، قلت لجبريل: من هؤلاء؟ قال: خطباء من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب، أفلا يعقلون))**(٣).

وقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ:**

---

(١) وهذا البيت من (الطويل) يروى لأبي الأسود الدؤلي، ويروى للمتوكل الليثي، وقيل: للأخطل، وقيل للطرماح، وقيل: لسابق البربري، وقيل: لغيرهم. وهو من شواهد سيبويه (٣/٤٢)، وفي (ديوان أبي الأسود (ص:٢٣٣). شركة النشر والطباعة العراقية المحدودة، بغداد [١٣٧٣هـ].

(٢) أضواء البيان (١/٤٦٣). وفي بعض المصادر: (وهو عليل). وفي (شعب الإيمان) [١٧٨١، ٦٩٢١]: أخبرنا أبو حازم الحافظ، أخبرنا أبو عمرو بن مطر قال: حضرت مجلس أبي عثمان الحيري الزاهد، فسكت حتى طال سكوته، ثم أنشأ يقول: [من الطويل] (وغير تقي يأمر الناس بالتقى***طبيب يداوي والطبيب مريض). قال: فارتفعت الأصوات بالبكاء والضجيج. وانظر: تفسير ابن كثير (١/٢٥٠)، وانظر: تفسير القرطبي (١/٣٦٧).

(٣) أخرجه الطيالسي [٢٠٦٠]، وابن أبي شيبة [٣٦٥٧٦]، وأحمد [١٢٢١١]، وعبد بن حميد [١٢٢٢]، والبزار [٧٢٣١]، وأبو يعلى [٣٩٩٢]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٧/٢٧٦): "أحد أسانيد أبي يعلى رجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٥٣]، والطبراني في (الأوسط) [٨٢٢٣]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢/٣٨٦)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٧]، والضياء [٢٦٤٦] وقال: "إسناده صحيح".

أَيْ فُلانُ مَا شَأْنُكَ؟! أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ))(١).

والعبد يسأل عن علمه فيم فعل فيه، كما جاء في الحديث: عن أبي برزة الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن عمره فيم أفناه، وعن علمه فيم فعل فيه، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه، وعن جسمه فيم أبلاه))**(٢).

وكان أبو الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول: **((إنما أخشى من ربي يوم القيامة أن يدعوني على رؤوس الخلائق، فيقول لي: يا عويمر، فأقول: لبيك ربي، فيقول لي: ما عملت فيما علمت؟))**(٣).

وعنه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: **((لا تكون عالمًا حتى تكون مُتَعَلِّمًا، ولا تكون بالعلم عالمًا حتى تكون به عاملًا))**(٤).

وقد كان رسولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذُ بالله عَزَّ وَجَلَّ من علمٍ لا ينفع، فكان يقولُ في دعائِه معلِّمًا أمتَه هذا الدُّعاء: **((اللهم إني أعوذ بك من العجز، والكسل، والجبن، والبخل، والهرم، وعذاب، القبر اللهم آت نفسي تقواها، وزكها أنت خير من زكاها،**

(١) صحيح الإمام البخاري [٣٠٩٤، ٦٦٨٥]، مسلم [٧٦٧٤]. و(الأقتاب): الأمعاء. و(الاندلاق): خروج الشيء من مكانه بسرعة.

(٢) أخرجه الترمذي [٢٤١٧]، وقال: "حسن صحيح". كما أخرجه أبو يعلى [٧٤٣٤]، وأبو نعيم في (الحلية (٢٣٢/١٠).

(٣) شعب الإيمان [١٧١١]، تعظيم قدر الصلاة، للمروزي [٨٤٩]، جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر [١٢٠٤]، وسنده قوي.

(٤) سنن الدارمي [٣٠١]، جامع بيان العلم وفضله [١٢٣٩]، وأخرجه أيضًا: ابن عساكر (١٤٧/٤٧).

أنت وليها ومولاها، اللهم إني أعوذ بك من علم لا ينفع، ومن قلب لا يخشع، ومن نفس لا تشبع، ومن دعوة لا يستجاب لها))[1].

وفيه: الحرصُ من كلِّ مسلمٍ على عِلْمٍ ينفعُه في دنياه وآخرتِه، ويصلحُ حالَه، والاحترازُ عن علمٍ لا ينفعُه، بل يضرُّه ويُضِلُّه.

والعلمُ النَّافع لا بدَّ فيه من الإخلاص كما جاء في الحديث: عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء، ولا لتماروا به السفهاء، ولا تخيروا به المجالس، فمن فعل ذلك فالنار النار))**[2].

وعن جندب بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**مثل العالم الذي يعلم الناس الخير وينسى نفسه كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه))**[3].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ ذامًّا اليهود الذين علموا ولم يعملوا: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة:٥]، أي: مثل الذين حملوا التوراة، علموها وكلفوا العمل بها. ثم لم يعملوا بها أو لم ينتفعوا بما فيها. كمثل الحمار يحمل أسفارًا، أي: كتبًا من العلم يتعب في حملها ولا ينتفع بها. وكذلك هؤلاء -اليهود- في حملهم الكتاب الذي أوتوه، ولم يعملوا بمقتضاه، بل أوّلوه وحرّفوه وبدّلوه، فهم أسوأُ حالًا من الحمير؛ لأن الحمار لا فهم له، وهؤلاء لهم فهوم؛ ولهذا قال في الآية الأخرى: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [الأعراف:١٧٩].

---

(١) صحيح مسلم [٢٧٢٢].

(٢) أخرجه ابن ماجه [٢٥٤]، قال البوصيري رَحِمَهُٱللَّهُ في (زوائده) (٣٧/١): "هذا إسناد رجاله ثقات على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٧٧]، والحاكم [٢٩٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٥].

(٣) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٦٨١]. قال الهيثمي رَحِمَهُٱللَّهُ (١٨٥/١): "رجاله موثقون". وأخرجه أيضًا: الديلمي [٦٤١٩].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فهذا المثل وإن كان قد ضرب لليهود فهو متناول من حيث المعنى لمن حمل القرآن فترك العمل به، ولم يؤد حقه، ولم يرعه حق رعايته"(١).

وقد شبَّه الله عَزَّوَجَلَّ عالمَ السوء الذي لم ينتفع بعلمه بالكلب فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾﴾ [الأعراف:١٧٥-١٧٦].

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمراد بهذا المثل: أن من لم يزجره علمه عن القبيح، صار القبيحُ عادة له ولم يؤثر فيه علمُه شيئًا، فيصير حالَه كحال الكلب اللاهث؛ فإنه إن طُرد لهث، وإن تُرك لهث، فالحالتان عنده سواء. وهذا أخسُّ أحوال الكلب وأبشعها، فكذلك من يرتكب القبائح مع جهله ومع علمه، فلا يؤثر علمُه شيئًا، وكذلك مثل من لا يرتدع عن القبيح بوعظ ولا زجر ولا غيره، فإن فعل القبيح يصير عادة، ولا ينزجر عنه بوعظ ولا تأديب ولا تعليم، بل هو متبع للهوى على كل حال، فهذا كل من اتبع هواه، ولم ينزجر عنه بوعظ ولا غيره"(٢).

قال الشيخ الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما الآية الدَّالَّةُ على أن الْمُعْرِضَ عن التَّذْكِيرِ كالحمار أيضًا، فهي قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكِرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿٤٩﴾ كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٥٠﴾ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٥١﴾﴾ [المدثر:٤٩-٥١]، والعبرة بعموم الألفاظ لا بخصوص الأسباب، فيجب على الْمُذَكِّرِ -بالكسر-، والْمُذَكَّرِ -بالفتح- أن يعملا بمقتضى التذكرة، وأن يَتَحَفَّظَا من عدم المبالاة بها؛ لئلا يكونا حِمَارَيْنِ من حُمُرِ جهنم"(٣).

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين (١/ ١٢٧).

(٢) مجموع رسائل الحافظ ابن رجب (١/٢٠٤).

(٣) أضواء البيان (١/٤٦٣).

وقد كان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يحرصون على العلم والحفظ والفهم، ولكن اهتمامهم بالعمل أبلغ.

ويدل على ذلك: ما جاء في (صحيح مسلم) عن عمرو بن أَوْسٍ، قال: حدثني عَنْبَسَةُ بن أبي سفيان، في مرضه الذي مات فيه بِحَدِيثٍ يَتَسَارُّ إليه، قال: سمعت أُمَّ حَبِيبَةَ، تقول: سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: ((**مَنْ صَلَّى اثْنَتَيْ عَشْرَةَ رَكْعَةً فِي يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، بُنِيَ لَهُ بِهِنَّ بَيْتٌ فِي الْجَنَّةِ**)). وفي رواية: ((**تطَوُّعًا**))[1]. قالت أُمُّ حبيبة: ((**فما تَرَكْتُهُنَّ منذ سَمِعْتُهُنَّ من رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ)). وقال عَنْبَسَة: "فما تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ من أُمِّ حَبِيبَةَ". وقال عمرو بن أَوْسٍ: "ما تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ من عَنْبَسَةَ"، وقال النُّعْمَانُ بنُ سالِمٍ: "ما تَرَكْتُهُنَّ مُنْذُ سَمِعْتُهُنَّ من عَمْرِو بْنِ أَوْس"[2].

ويدل على ذلك أيضًا: ما جاء عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن -كعثمان بن عفان وابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا- أنهم كانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل، قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعا[3].

وذكر الإمام مالك رَحِمَهُٱللَّهُ في (الموطأ): أن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا مَكَثَ على سورة البقرة، ثَمَانِيَ سِنِينَ يَتَعَلَّمُهَا[4].

---

(١) التطوع يخرج الفرض؛ يعني: من صلى ثنتي عشرة ركعة في يوم وليلة تطوعًا بعد أدائه الفريضة حصل له هذا الوعد.

(٢) صحيح مسلم [٧٢٨].

(٣) انظر: تفسير الطبري (١/٨٠)، تفسير ابن كثير (١/٨)، المحرر الوجيز (١/٩)، الإكليل في المتشابه والتأويل (ص:٤٧)، مقدمة في أصول التفسير، لابن تيمية (ص:٩).

(٤) موطأ الإمام مالك [٦٩٥].

فينبغي لطالب العلم والهداية والنجاة أن لا يترك العمل؛ لأن العبرة بالعمل، والعلمُ بلا عمَلٍ حجةٌ على صاحبِه، فكم من أناس يَعْلَمُون ولا يَعْمَلون، وقد غرَّهم ما عندهم من بعض العلوم والمعارف؟! فكان ذلك الغرور والعُجب سببًا لضلالهم؛ لأن العُجْب قد يحمل صاحبه على تعظيم نفسه حتى تستولي عليه الغفلة، ويفرح بما هو عليه، ويستغني بما عنده، وربما يصل إلى (غرور العلم) الصَّارف عن الآيات والحجج، والصادِّ عن الهداية، وهو سببٌ في خلق نزعة الإلحاد والجحود، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣]، كما بينت ذلك في كتاب: (العقبات).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلَّت على أنهم أشد الخلق عذابًا يوم القيامة"[1]. وذلك بسبب متابعتهم للضلال، وتزينه، ونفاقهم ومداهنتهم، وإضلالهم للناس. وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء، فالله جَلَّ وَعَلَا المستعان، وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور"[2].

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "فأما أهل العلم، فالمغترون منهم فرق: منهم فرق أحكموا العلوم الشرعية والعقلية، وأهملوا تفقد الجوارح وحفظها عن المعاصي، وإلزامها الطاعات، واغتروا بعلمهم، وظنوا أنهم عند الله بمكان، لعلموا أن العلم إنما يراد لمعرفة الحلال والحرام، ومعرفة أخلاق النفس المذمومة والمحمودة وكيفية علاجها والفرار منها، فهي علوم لا تراد إلا للعمل، وكل علم يراد للعمل فلا قيمة له دون العمل. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس:٩]، ولم يقل: قد أفلح من تعلَّم كيف يزكيها، فإن تلا عليه الشيطان فضائل أهل العلم، فليذكر ما ورد في العالم الفاجر، كقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٥٩).

(٢) المصدر السابق (١/ ٢١).

الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ﴾ [الأعراف:١٧٦]، وقوله: ﴿كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة:٥].

وفرقة أخرى أحكموا العلم والعمل، فواظبوا على الطاعات الظاهرة، وتركوا المعاصي، إلا أنهم لم يتفقدوا قلوبهم؛ ليمحوا عنها الصفات الذميمة، من الكبر، والحسد، والرياء، وطلب العلا، وإرادة السوء للأقران والنظراء، وطلب الشهرة في البلاد والعباد، فهؤلاء زينوا ظواهرهم وأهملوا، ونسوا قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم))**(١).

وفرقة أخرى: علموا أن هذه الأخلاق الباطنة مذمومة من جهة الشرع إلا أنهم لعجبهم بأنفسهم يظنون أنهم منفكون عنها، وأنهم أرفع عند الله من أن يبتليهم"(٢).

وقال في (بداية الهداية): "واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال: رجل طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد، ولم يقصد به إلا وجه الله عَزَّوَجَلَّ والدار الآخرة؛ فهذا من الفائزين.

ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة، وينال به العز والجاه والمال، وهو عالم بذلك، مستشعر في قلب ركاكة حاله وخسة مقصده، فهذا من المخاطرين. فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة، وبقي أمره في خطر المشيئة؛ وإن وفق للتوبة قبل حلول الأجل، وأضاف إلى العلم العمل، وتدارك ما فرط به من الخلل التحق بالفائزين؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان؛ فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال، والتفاخر بالجاه، والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضى من الدنيا وطره، وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكانة؛ لاتسامه بسمة العلماء، وترسمه برسومهم

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٦٤].

(٢) إحياء علوم الدين (٣/٣٨٨)، بتصرف، موعظة المؤمنين (ص:٢٦٠)، مختصر منهاج القاصدين (ص:٢٣٩).

في الزي والمنطق، مع تكالبه على الدنيا ظاهرًا وباطنًا، فهذا من الهالكين، ومن الحمقى المغرورين؛ إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين"(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا هو ذلك الزمان الذي قد استولى فيه الباطل على الحق، وتغلب فيه العبيد على الأحرار من الخلق، فباعوا الأحكام، ورضي بذلك منهم الحكام، فصار الحكم مكسًا، والحق عكسًا لا يوصل إليه ولا يقدر عليه. بدلوا دين الله، وغيروا حكم الله، سمَّاعون للكذب أكالون للسحت"(٢).

ومن تأمل حال كثير من المسلمين في هذا العصر وجد أنهم قد ركنوا إلى الظلمة المستكبرين، ووثقوا بهم أكثر من ثقتهم بربهم عَزَّوَجَلَّ، ومالوا إليهم كل الميل، وتسابقوا على إرضائهم -ولو بسحق إخوانهم-، وهذا من أعظم أسباب الذل والخذلان، وتخلف نصر الله عَزَّوَجَلَّ عن المسلمين، وتسلط أعدائهم عليهم؛ فإن من عادة الظلمة المستكبرين أن يزدادوا علوًّا وجورًا كلما زين لهم علماء السوء قبيح أفعالهم.

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد كان عبد الله بن علي ملكًا جبارًا، سفاكًا للدماء، صعب المراس، ومع هذا فالإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصدعه بمر الحق، لا كَخَلْق من علماء السوء الذين يُحَسِّنُون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعَسْف، ويقلبون لهم الباطل حقًّا -قاتلهم الله- أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق"(٣).

فينبغي التمييز بين العلماء الربانيين العاملين، ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]، فلا يداهنون ولا ينافقون، ويصلحون ولا يفسدون، ويجمعون ولا يفرقون، وبين من سواهم؛ فإن الأمة تحتاج في الفتن عندما يلتبس

(١) بداية الهداية، لأبي حامد الغزالي (ص:٢٦- ٢٧).
(٢) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة (ص:١٢٢٨).
(٣) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٢٥).

الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخين، وتحذر من خطيب مصقع(١)، وواعظ جاهل يشوِّه الحقائق، ويغطي العقل بلهب العواطف. روي عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: "الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل"(٢). و"كان الحسن يبصر من الفتنة إذا أقبلت كما نبصر نحن منها إذا أدبرت"(٣).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون؛ فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم، فإذا كان العلماء فجرة، والعباد جهلة عمت المصيبة بهما، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة"(٤).

والسكوت عن بيان الحق وإظهاره قد يكون سببًا في امتناع وصوله إلى كثيرين. كما تقدم بيان ذلك فيما تُوعد عليه من الكتمان.

فمن شأن دعاة الباطل: التلبيس على الناس، وإظهار الباطل في صورة الحقِّ، ومَزْجُ الحقِّ بالباطل بالكتمان والتعمية، لكن منهج أهل الحقِّ: العمل على بيانه وتمييزه عن الباطل، هذا هو منهجهم في تشخيص المرض، ثم المعالجة بالدواء الشافي؛ حيث يردون المخالف إلى أدلة واضحة، وحجج قاطعة، ومقدمات مسلمة. وأساس ذلك رسوخ العقيدة التي تحمل الباحث على الصدق والموضوعية والإنصاف، وعلى عموم الأخلاق الفاضلة، وعلى الالتزام بآداب الخطاب والمناظرة. وتحارب الغش والخداع والتزوير والتغرير والمكر والتلبيس والخيانة، وهذه الأوصاف القبيحة لا تكون خُلُقًا للمسلم بحالٍ؛ لأنَّ طهارة نفسِه المكتسبة من الإيمان والعمل الصالح تأبى أن تتجانسَ مع هذه الأخلاق الذَّميمة.

---

(١) يقال: خطيب مِصْقَع -بكسر الميم-، أي: بليغ ماهر بالخطبة. و(مسقع) -بالسين- مثل مصقع.

(٢) أخرجه ابن سعد في (الطبقات) (١٦٥/٧)، والبخاري في (التاريخ الكبير) (٣٢١/٤)، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٤/٩).

(٣) المجالسة (٨٦/٦).

(٤) مفتاح دار السعادة (١٦٠/١).

والفتنة والابتلاء تجعل الكثيرين على المحك، فتسقط الأقنعة، وتبرز ما كان خفيًّا..فكم أسقطت المحن أقوامًا، ورفعت آخرين؟! كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:٤٩].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إني رأيت كثيرًا ممن شغلتهم نوافل الصلاة والصوم عن نوافل العلم عاد ذلك عليهم بالقدح في الأصول.

ولما رأيت رأي نفسي في العلم حسنًا، فهي تقدمه على كل شيء، إلا أني رأيت نفسي واقفة مع صورة التشاغل بالعلم، فصحت بها: فما الذي أفادك العلم؟! أين الخوف؟! أين القلق؟! أين الحذر؟! أو ما سمعت بأخبار أخيار الأحبار في تعبدهم واجتهادهم؟!

أما كان الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سيد الكل، ثم إنه قام حتى ورمت قدماه؟![1]

أما كان أبو بكر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ شجي النشيج[2]، كثير البكاء؟!

أما كان في خد عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ خطان من آثار الدموع؟!

أما كان عثمان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يختم القرآن في ركعة؟!

أما كان علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ يبكي بالليل في محرابه حتى تخضل لحيته بالدموع، ويقول: يا دنيا غري غيري؟![3].

---

(١) جاء في الحديث: عن المغيرة بن شعبة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى حتى انتفخت قدماه، فقيل له: أَتَكَلَّفُ هذا؟ وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: ((أفلا أكون عبدا شكورًا)) صحيح البخاري [١١٣٠، ٤٨٣٦، ٦٤٧١]، مسلم [٢٨١٩]. وفي رواية: عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا صلى قام حتى تفطر رجلاه، قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: يا رسول الله أتصنع هذا، وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر، فقال: ((يا عائشة أفلا أكون عبدا شكورًا)). صحيح البخاري [٤٨٣٧]، صحيح مسلم [٢٨٢٠].

(٢) النشيج: صوت معه توجع وبكاء، كما يردد الصبي بكاءه في صدره. وقد نشج ينشج.

(٣) صيد الخاطر (ص:٨٥).

وقال سفيان بن عيينة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العلمُ إن لم يَنْفَعْكَ يَضُرُّك"(١).

وقال: "ليس العالم الذي يعرف الخير والشر، إنما العالم الذي يعرف الخير فيتبعه، ويعرف الشر فيجتنبه"(٢).

وقال وكيع رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به، وكنا نستعين على طلبه بالصوم(٣). وعنه أيضًا أنه قال: استعينوا على الحفظ بترك المعصية(٤).

وعن الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به(٥).

وعن إبراهيم بن إسماعيل بن مُجمِّع رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: كنا نستعين على حفظ الحديث بالعمل به(٦).

وعن أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: ما كتبت حديثًا إلا وقد عملت به حتى مَرَّ بي في الحديث أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ احتجم وأعطى أبا طيبةَ دينارًا، فاحتجمتُ وأعطيتُ الحجَّامَ دينارًا(٧).

---

(١) الزهد، لأحمد بن حنبل [٦١١]، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١١/١٩٢)، الطبقات الكبرى (١/٤٨).

(٢) حلية الأولياء (٧/ ٢٧٤)، تهذيب الكمال في أسماء الرجال (١١/١٩١- ١٩٢).

(٣) جامع بيان العلم وفضله (١/٧٠٨)، (٢/١٠٣١)، المخلصيات (٢/٣١٠)، (٤/١٤٩)، فتح المغيث (٣/٢٨٢).

(٤) روضة العقلاء ونزهة الفضلاء (ص:٣٩).

(٥) جامع بيان العلم وفضله (١/٧٠٨)، فتح المغيث (٣/ ٢٨٢).

(٦) شعب الإيمان [١٦٥٩، ١٧٤١]، اقتضاء العلم العمل، للخطيب (ص:٩٠)، الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (٢/٢٥٨)، الشذا الفياح (١/٤٠٦)، شرح التبصرة والتذكرة (٢/٤٣)، فتح المغيث (٢/٥٨٨).
وزاد البيهقي والخطيب عن الحسن بن صالح أنه قال: كنا نستعين على طلبه بالصوم.

(٧) الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع (١/١٤٤)، سير أعلام النبلاء (١١/٢١٣)، (١١/٢٩٦)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٥/١٠٢٣)، الشذا الفياح (١/٤٠٦)، شرح التبصرة والتذكرة (٢/٤٣)، فتح المغيث (٣/٢٨٣)، تدريب الراوي (٢/٥٨٨).

وقال بعض الحكماء: العلم خادم العمل، والعمل غاية العلم، فلولا العمل لم يطلب علم ولولا العلم لم يطلب عمل، ولأن أدع الحق جهلًا به أحب إلي من أن أدعه زهدًا فيه(١).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: العلم يهتف بالعمل فإن أجابه حل وإلا ارتحل(٢).

وقال إبراهيم النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كانوا إذا أتوا الرَّجل ليأخذوا عنه نظروا إلى صلاته، وإلى سَمْتِه، وإلى هيئته، ثم يأخذون عنه(٣).

قال ابن السَّمَّاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كم من شيء إذا لم ينفع لم يضر، لكن العلم إذا لم ينفع ضر(٤).

وقال أبو عبد الله الروذباري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من خرج إلى العلم يريد العلم لم ينفعه العلم، ومن خرج إلى العلم يريد العمل بالعلم نفعه قليل العلم(٥).

وقال بعض العلماء: خير العلم ما نفع، وخير القول ما ردع. وقال بعض الأدباء: ثمرة العلوم العمل بالعلوم(٦).

---

(١) اقتضاء العلم العمل (ص: ١٥).

(٢) جامع بيان العلم وفضله (١/٧٠٦)، فتح المغيث (٣/٢٨٢). وفي (اقتضاء العلم العمل) (ص:٣٦)، وتاريخ دمشق (٥٦/٦٦) نحوه عن ابن المنكدر.

(٣) انظر: الجرح والتعديل، لابن أبي حاتم (٢/١٦)، صفة الصفوة (٢/٥٠)، التعديل والتجريح ، لمن خرج له البخاري في الجامع الصحيح، للباجي (١/٢٩١)، الآداب الشرعية، لابن مفلح (٢/١٤٩).

(٤) انظر: تاريخ بغداد (٧/٣٣٠)، سير أعلام النبلاء (٨/٣٢٩)، تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام (٤/٩٥٩).

(٥) انظر: تاريخ بغداد (٥/٥٥٢)، تاريخ دمشق (٥/١٨).

(٦) أدب الدنيا والدين (ص:٧٦).

وقال الإمام الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والناس في العلم طبقات، موقعُهم من العلم بقدْر درجاتهم في العلم به. فحقَّ على طلبة العلم بلوغُ غاية جهدِهم في الاستكثار من علمه، والصبرُ على كل عارض دون طَلَبِه، وإخلاص النية لله عَزَّوَجَلَّ في استدراك علمه نصًّا واستنباطًا، والرغبة إلى الله في العون عليه؛ فإنه لا يُدرَك خيرٌ إلا بعونه. فإن من أدرك علم أحكام الله في كتابه نصًّا واستدلالًا، ووفقه الله عَزَّوَجَلَّ للقول والعمل بما علِم منه: فاز بالفضيلة في دينه ودنياه، وانتفت عنه الرِّيَب، ونَوَّرت في قلبه الحكمة، واستوجب في الدين موضع الإمامة.

فنسأل اللهَ المبتدئَ لنا بنعمه قبل استحقاقها، المديمَها علينا مع تقصيرنا في الإتيان إلى ما أوجب به من شكره بها، الجاعِلَنا في خير أمة أخرجت للناس: أن يرزقنا فهمًا في كتابه، ثم سنة نبيه، وقولًا وعملًا يؤدي به عنا حقه، ويوجب لنا نافلة مزيدة"[1].

وأخرج ابن أبي حاتم من طريق سفيان عن أبي حيان التيمي عن رجل قال: كان يقال العلماء ثلاثة: عالم بالله وعالم بأمر الله، وعالم بالله ليس بعالم بأمر الله، وعالم بأمر الله ليس بعالم بالله، فالعالم بالله وبأمر الله: الذي يخشى الله جَلَّوَعَلَا ويعلم الحدود والفرائض. والعالم بالله ليس بعالم بأمر الله: الذي يخشى الله ولا يعلم الحدود ولا الفرائض. والعالم بأمر الله ليس بعالم بالله: الذي يعلم الحدود والفرائض ولا يخشى الله جَلَّوَعَلَا[2].

وقد قيل: صنفان من الناس إذا صلحا صلح الناس، وإذا فسدا فسد الناس: العلماء والأمراء.

---

(١) الرسالة (ص:١٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٣١٨٠/١٠)، وانظر: تفسير ابن كثير (٥٤٥/٦)، الدر المنثور (٢٠/٧)، تاريخ ابن معين (رواية الدوري) (٥٣٧/٣)، مجموع الفتاوى (٧ /٥٣٩) .

وقال عبد الله بن المبارك:

وهل أفسد الدين إلا الملوك ... وأحبار سوء ورهبانها؟[1]

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العلماء ثلاثة: عالم استنار بنوره واستنار به الناس، فهذا من خلفاء الرسل وورثة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وعالم استنار بنوره، ولم يستنر به غيره، فهذا إن لم يفرط كان نفعه قاصرًا على نفسه، فبينه وبين الأول ما بينهما، وعالم لم يستنر بنوره ولا استنار به غيره، فهذا علمه وبال عليه، وبسطته للناس فتنة لهم، وبسطة الأول رحمة لهم"[2].

والحاصل أن العمل بالعلم من أعظم أسباب زيادة العلم وحفظه وثباته، وهو من التقوى، وهو أبلغُ وسائل الدعوة والتأثير في المدعوين. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾ [الأنفال:٢٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِنْ رَحْمَتِهِ وَيَجْعَلْ لَكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ﴾ [الحديد:٢٨][3].

والعمل بالعلم من أسباب النجاة، وزيادة الحسنات، ورفعة الدرجات، ويقي الإنسان من سوء الخاتمة، ومن الخزي في الدنيا والآخرة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر:١-٣]. وقد قرنَ اللهُ عَزَّوَجَلَّ بين الإيمانِ والعملِ في نصوص كثيرة. كما أن ترك العمل بالعلم إضاعه له، فما استدر العلم ولا استجلب بمثل العمل، فترك العمل من أسباب الضلال والإضلال، والعذاب في الآخرة.

(١) ديوان عبد الله بن المبارك (ص:٦٧).

(٢) مدارج السالكين (٣/٢٨٢).

(٣) مفتاح دار السعادة (١/ ١٧٢).

ثانيًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج:

١ - الإخلاص في طلب العلم، والعمل به:

إنَّ الإخلاص في طلب العلم، والعمل به هو سبيل النَّجاة من الوعيد الشَّديد في حقِّ من خالفت أفعالُه أقوالَه.

٢ - لا بدَّ لطالب العلم أن يكون على حذر من مسالك النفاق والرياء.

٣ - ينبغي على طالب العلم والهداية أن يبدأ بإصلاح نفسه، ومجاهدتها على الاستقامة على أمْرِ الله عَزَّوَجَلَّ، وذلك بامتثال ما أَمَرَ الشَّارعُ به، واجتناب ما نهى عنه.

ولا ريب أن التقوى ومجاهدة النفس والشيطان والهوى، والبعد عن المعاصي سبيل إلى الانتفاع بالعلم، والتأثير في المدعوين، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ﴾ [الأنفال:٢٩].

٤ - التفقه في الدين والحرصُ على طلبِ العلم النَّافع، وتعلم الأحكام:

إن العلم النافع هو الذي يورث الخشية، والتذكر، وقوة الإيمان: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [الرعد:١٩].

ولقد بيَّن الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّ أهل العلم ينتفعون بالآيات، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩]. ولا يكون الانتفاع إلا بالتَّدبر الباعث على العمل.

وقد بيَّن الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ في آية أخرى أنَّ العلم سبب في الهداية إلى الحقِّ، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦]. فينبغي أن ينتفعَ طالبُ العلم بما علم، قال الشاطبي رَحِمَهُٱللَّهُ:

"العلم المعتبر شرعًا -أعني: الذي مدح الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أهله على الإطلاق- هو العلم الباعث على العمل"(١).

٥ - ملازمة العلماء الربانيين، والأخذ عنهم، وعدم الاكتفاء بمطالعة الكتب:

والرَّبانيون المعرفون بالعلم والتَّقوى هم عماد النَّاس في الفقه والعلم وأمور الدِّين والدُّنيا؛ ولذلك قال مجاهد: وهم فوق الأحبار؛ لأنَّ الأحبارَ هم العلماء. و(الرَّبانيُّ): الجامعُ إلى العلم والفقه: البصرَ بالسياسة والتدبير، والقيام بأمور الرعية، وما يصلحهم في دُنياهم ودينهم(٢).

وقيل: سموا بذلك؛ لعلمهم بالربِّ سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ(٣).

وقال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا في تفسير قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران:٧٩]: حلماء فقهاء، ويقال: الرَّبانيُّ الذي يُرَبِّي النَّاس بِصِغَار العلم قبل كِبَاره(٤). أي: بالتدريج، وقيل غير ذلك.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُٱللَّهُ: "والمراد بصغار العلم: ما وضح من مسائله، وبكباره ما دقَّ منها. وقيل: يعلمهم جزئياته قبل كلياته، أو فروعه قبل أصوله، أو مقدماته قبل مقاصده. وقال ابن الأعرابي رَحِمَهُٱللَّهُ: لا يقال للعالم رباني حتى يكون عالما معلمًا عاملًا"(٥).

(١) الموافقات، للشاطبي (٨٩/١).
(٢) انظر: تفسير الطبري (٥٤٤/٦).
(٣) فتح الباري، لابن حجر (١٢١/١).
(٤) انظر: صحيح البخاري (٢٤/١)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٥١/١).
(٥) فتح الباري، لابن حجر (١٦٢/١).

فالعالم الرَّباني قائم على أمور الناس، مصلح لأحوالهم، ومرشد لهم إلى ما فيه صلاحهم.

وفي الحديث: ((**إنما العلم بالتعلم**))(١).

قوله: ((إنما العلم)) أي: تحصيله، (بالتعلم) -بضم اللام- على الصواب.

وفي بعض النسخ: (بالتعليم). والمعنى: ليس العلم المعتبر إلا المأخوذ من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ وورثتهم على سبيل التعلم(٢).

وقال الشيخ محمد الشنواني رَحِمَهُ اللَّهُ في (حاشيته على مختصر ابن أبي جمرة): "((**إنما العلم بالتعلم**))، "أي: بكون الإنسان يتعلم العلم من غيره من العارفين، وليس العلم بالمطالعة في الكتب"(٣).

والحاصل أن الأخذ عن العلماء الربانيين يورث استقامة في الفكر والسلوك. وقد روي أن لقمان الحكيم عَلَيْهِ السَّلَامُ أوصى ابنه، فقال: يا بني جالس العلماء، وزاحمهم بركبتيك؛ فإن الله يحيي القلوب بنور الحكمة كما يحيي الأرض الميتة بوابل السماء(٤).

٦ - يجب على كل مسلم أن يقوم بواجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ، حتى وإن لم يكن عاملًا بكل يأمر به أو ينهى عنه؛ لأن الإنسان معرض للخطأ وللزلل.

٣ - التفكر والنظر في ملكوت السَّموات والأرض وما خلق الله من شيء.

---

(١) رواه البخاري في (الصحيح) معلقًا (٢٤/١). قال ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: إسناده حسن؛ لاعتضاده بالمجيء من وجه آخر. انظر: فيض القدير (٥٦٩/٢)، (٢٤٢/٦)، تغليق التعليق على صحيح البخاري (٧٨/٢).

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (١٦١/١)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤٢/٢)، فيض القدير (٥٦٩/٢).

(٣) حاشية الشيخ محمد الشنواني على مختصر ابن أبي جمرة (ص:٤٢).

(٤) موطأ الإمام مالك [٣٦٧٠]، الزهد، لابن المبارك [١٣٨٧]. الزهد، لأحمد [٥٥٢].

٤- الصبر على طلب العلم، وتحمل المشقة في مراحل التعلم والطلب:

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (باب ما ذكر في ذهاب موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في البحر إلى الخضر عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ): "هذا الباب معقود للترغيب في احتمال المشقة في طلب العلم؛ لأن ما يغتبط به تحتمل المشقة فيه، ولأن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ لم يمنعه بلوغه من السيادة المحل الأعلى من طلب العلم وركوب البر والبحر لأجله"(١).

٥ - الحذرُ من الحسد، والغرور والرياءِ، والإعجابِ، واحتقار الناس.

٦ - دوامُ مراقبة طالب العلم والهداية لله عَزَّوَجَلَّ في السر والعلانية، ومحافظته على قراءةِ القرآن، ونوافلِ الصلواتِ، والصومِ، وغيرِهما، معوِّلًا على الله تعالى في كلِّ أمره، معتمدًا عليه، مفوضًا في كل الأحوال أمره إليه.

١٦ — اللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والاستعانة به، والاستعاذة به سُبۡحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ من الجهل، وسؤاله العلم النافع.

١٧- أن يحترز طالب العلم عن المعاصي، وأن يكون على بصيرة من خطر المعاصي وآثارها:

إن للمعاصي من الآثار القبيحة المذمومة المضرة بالقلب والبدن في الدنيا والآخرة ما لا يعلمه إلَّا الله عَزَّوَجَلَّ، فمنها: (حرمان العلم، وظلمة القلب، ونقصان العقل، وتزيين الباطل)، وقد فصلتُ ذلك في كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، عقبة: (الذنوب والمعاصي).

(١) فتح الباري (١/١٦٨)، وانظر: عمدة القاري (٢/٥٨).

المبحث التاسع عشر
كتمان الحق

أولًا: كتمان الحق من الذنوب المتوعد عليها بالنار:

الكِتْمان: الإخفاء والستر، خلاف الإعلان. يقال: كتمت زيدًا الحديث: أي: أخفيته عنه(١).

وهو في الاصطلاح: السكوت عن البيان. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩].

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكتمان: ستر الحديث"(٢).

وقال بعض المحققين: الكتمان: ترك إظهار الشيء مع الحاجة إليه، وحصول الداعي إلى إظهاره؛ لأنه متى لم يكن كذلك لا يعدُّ كتمانًا، فلما كان ما أنزله الله من البينات والهدى من أشد ما يحتاج إليه في الدين، وصف من عَلِمَه ولم يُظْهِرْهُ بالكتمان(٣)؛ لأنه إنما أنزل لهداية الناس وصلاحهم، ولن يهتدوا إذا كتم عنهم ما أنزل، فهم في حاجة إلى

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (كتم) (٥/٢٠١٨)، لسان العرب، (١٢/٥٠٦)، المصباح المنير (٢/٥٢٥).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (كتم) (ص:٧٠٢).

(٣) انظر: تفسير الرازي (٤/١٤٠)، تفسير ابن عادل (٣/ ١٠٤)، تفسير النيسابوري (١/٤٤٧).

إظهاره وبيانه؛ ولذلك شدَّد الله عَزَّوَجَلَّ النكير على الكاتمين؛ لما ينشأ عن هذا الكتمان من الضرر الجسيم.

وقال أبو السعود رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والكتم والكتمان: ترك إظهار الشيء قصدًا مع مساس الحاجة إليه، وتحقق الدَّاعي إلى إظهاره، وذلك قد يكون بمجرد سَترِهِ وإخفائِه، وقد يكون بإزالته ووضْعِ شيءٍ آخرَ في موضعه"(١). وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الكتم: ترك إظهار الشيء الْمُحْتَاج إلى إظهاره"(٢).

وقد جاءت النصوص محذِّرة من أنواعٍ من الكتمان المذموم؛ لما فيه من الغش والخداع، وإخفاء الحق، وإضلال الناس –ولا سيما مع الحاجة إلى البيان–، فمن الكتمان المحرم: كتمان الحق:

والباعث على كتمان الحق: اتباع الهوى، والرغبة في تحصيل المصالح والمنافع الدنيوية، أو الخوف على المكانة أو القيادة أو المصالح الاقتصادية أو الشَّخصية.

وكتمان الحق أعم أنواع الكتمان وأخطرها، فهو يشمل كتمان الشهادة، وكتمان العيب في البيع والشراء، وكتمان العلم، وكتمان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وبيان ذلك على النحو التالي:

أما كتمان الشهادة فقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ﴾ [البقرة:٢٨٣]. فالنهي عن كتمان الشهادة بالحق؛ لما فيه من التعمية والتلبيس وإخفاء الحق في وقت الحاجة إلى البيان، وكذلك فإن الكتمان –والحالة هذه– يتضمن: إعلاء الباطل ونصرته، وقد يؤول إلى الإضرار بالمحكوم، وإضلال القاضي بالحكم.

(١) تفسير أبي السعود (١/١٨٢)، روح المعاني (١/٤٢٥).

(٢) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/١٥٢).

وأما الكتمان في البيع والشراء فقد جاء في الحديث: ((**البَيِّعَان بالخيار ما لم يَتَفَرَّقَا، -أو قال: حتى يَتَفَرَّقَا- فإن صدقا وَبَيَّنَا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما**))(١). والمعنى: إن كتما شيئًا مما يجب الإخبار به شرعًا كان ذلك من الغش والخداع، وإخفاء الحقيقة. والقاعدة: أن الصدق أساس في التعامل، فلا ينبغي أن يتصف المؤمن بما يقابل الصدق من الكذب والغش والخداع -ولا سيما مع الحاجة إلى البيان-.

وأما (كتمان العلم) فقد جاءت النصوص محذِّرة من التقاعس أو السكوت عن البيان -مع القدرة على ذلك، وعند حاجة الناس-؛ فإن كتمان العلم من المضلَّات عن الحقِّ، ومن العقبات في طريق الهداية؛ لما فيه من إخفاء الحق، والصدِّ عن الهداية، والسكوت عن الباطل والمنكر والظلم مع القدرة على البيان، وحاجة الناس إليه. وقد يؤول إلى الإضرار بالعامة، وتمادي الباطل، وتشويه الحقائق والمفاهيم والقيم، وزيادة الظلم.

فإذا تخلَّى العالم عن الأمانة، وساءَ منه القصد والدِّيانة، وكان جامعًا للعلم بلا عمل، مفارقًا للقيم الإنسانية، يكتم الحق، ويغش الخلق، فمثل هذا قد توعَّده الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ [البقرة:١٥٩]. وحذَّر منه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: ((**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين**))(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٢٠٧٩، ٢٠٨٢، ٢١١٠]، مسلم [١٥٣٢].

(٢) أخرجه أحمد [٢٢٣٩٣]، والدارمي [٢١٥]، وأبو داود [٤٢٥٢]، والترمذي [٢٢٢٩]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم [٤٥٦]، والروياني [٦٢٩]، وابن حبان [٦٧١٤]، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٨٩/٢)، والشهاب [١١٦٦].

ومن هنا حرص أسلافنا أن لا يأخذوا العلم إلا عن الثقات الأمناء. قال ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن هذا العلم دين، فانظروا عمَّن تأخذون دينكم"(١).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [البقرة:١٧٤]، أي: إن الذين يُخفون ما أنزل الله عَزَّوَجَلَّ في كتبه من صفة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وغير ذلك من الحق، ويحرصون على أخذ عوض قليل من عرض الحياة الدنيا مقابل هذا الإخفاء، هؤلاء ما يأكلون في مقابلة كتمان الحق إلَّا نار جهنم تتأجج في بطونهم، ولا يكلمهم الله عَزَّوَجَلَّ يوم القيامة؛ لغضبه وسخطه عليهم، ولا يطهرهم من دنس ذنوبهم وكفرهم، ولهم عذاب موجع. وقد عاب الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ على الذين يكتمون ما بينه للناس من البينات والهدى فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٤٠]، ويقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ [آل عمران:١٨٧].

والحاصل أن كتمان العلم الذي يبين الحق محظور إذا أمكن إظهاره، قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **((من سئل عن علم فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار))**(٢).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في بيان حال أهل الكتاب من كتمان ما في كتابهم: "وهذه حال أهل الكتاب في كتمان ما في كتابهم من الألفاظ يتأولها بعضهم، ويجعلها بعضهم متشابها، وهي دلائل على نبوة محمد صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وغير ذلك. فإن ألفاظ التوراة والإنجيل

---

(١) مقدمة صحيح مسلم (١/١٤).

(٢) الحديث أخرجه غير واحد، فقد أخرجه الطيالسي [٢٦٥٧]، وابن أبي شيبة [٢٦٤٥٣]، وأحمد [٧٥٧١] في غير موضع، وله طرق حسنة وصحيحة، وابن ماجه [٢٦١]، وأبو داود [٣٦٥٨]، والترمذي [٢٦٤٩]، وقال: "حسن". كما أخرجه البزار [٩٢٩٧]، وأبو يعلى [٦٣٨٣]، وابن الأعرابي [٧٣]، وابن حبان [٩٥]، والطبراني في غير موضع، والحاكم [٣٤٤] وصححه، ووافقه الذهبي.

وسائر كتب الأنبياء، وهي بضع وعشرون كتابًا عند أهل الكتاب لا يمكنهم جحد ألفاظها، لكن يحرفونها بالتأويل الباطل، ويكتمون معانيها الصحيحة عن عامتهم"(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٤٦﴾ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٤٧﴾﴾ [البقرة:١٤٦- ١٤٧].

روي عن عبد الله بن سلام -وكان من علماء اليهود وأحبارهم- أنه قال: أنا أعلم به مني بابني، فقال له عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: لم؟ قال: لأنِّي لستُ أشُكُّ في محمدٍ أنه نبيُّ الله. وأما ولدي فلعلَّ والدته قد خانت(٢). فقد اعترف من هداه الله من أحبارهم كهذا العالم الجليل، وتميم الداري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ من علماء النصارى أنهم عرفوه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ معرفة لا يتطرق إليها الشك. ﴿وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ أنه الحق الذي لا مرية فيه.

وكذلك فإن السكوت عن بيان الحق وإظهاره قد يكون سببًا في امتناع وصوله إلى كثيرين، أو يصل لا على حقيقته.

قال ابن الوزير رَحِمَهُٱللَّهُ: "ولو أنَّ العلماء رَحِمَهُمُٱللَّهُ تركوا الذبَّ عن الحق؛ خوفًا من كلام الخلق، لكانوا قد أضاعوا كثيرًا، وخافوا حقيرًا"(٣).

وقال الشوكاني رَحِمَهُٱللَّهُ: "ومنهم من يترك التكلم بالحق والإرشاد إليه مخافة الضرر من تلك الدولة وأهلها، بل وعامتها؛ فإنه لو تكلم بشيء خلاف ما قد علموا عليه ونشروه في

(١) مجموع الفتاوى (١٦/٤١٥).

(٢) انظر: تفسير أبي السعود (١/١٧٦)، روح المعاني (٢/١٣)، الكشاف (١/٢٣٠)، تفسير البيضاوي (١/٤٢٤)، تفسير النسفي (١/٩٤)، الرازي (٤/١١٠)، غرائب القرآن (١/٤٣٣)، البحر المديد (١/١٥١)، ابن عادل (٣/٥١)، تفسير المنار (٢/١٧).

(٣) العواصم والقواصم في الذب عن سنة أبي القاسم (١/٢٤) (١/ ٢٢٣).

الناس لخشى على نفسه وأهله وماله وعرضه، ومنهم من يترك التكلم بالحق محافظة على حظ قد ظفر به من تلك الدولة من مال وجاه"(١).

وقال الشاطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ سبب رواج البدع: "أن يعمل بها العوام وتشيع فيهم وتظهر، فلا ينكرها الخواص، ولا يرفعون لها رؤوسهم، وهم قادرون على الإنكار فلم يفعلوا، فالعامي من شأنه إذا رأى أمرًا يجهل حكمه يعمل العامل به فلا ينكر عليه أحد، اعتقد أنه جائز وأنه حسن، أو أنه مشروع بخلاف ما إذا أنكر عليه فإنه يعتقد أنه عيب، أو أنه غير مشروع، أو أنه ليس من فعل المسلمين. هذا أمر يلزم من ليس بعالم بالشريعة؛ لأن مستنده الخواصّ والعلماء في الجائز أو غير الجائز. فإذا عَدِمَ الإنكار ممن شأنه الإنكار، مع ظهور العمل وانتشاره وعدم خوف المنكر ووجود القدرة عليه، فلم يفعل، دل عند العوام على أنه فعل جائز لا حرج فيه"(٢).

والمداهنة أثرها عظيم في التلبيس على كثير من العامة، وفيها ما فيها من الغش والنفاق. والمداهنة هي أن ترى منكرًا وتقدر على دفعه ولم تدفعه؛ حفظًا لجانب مرتكبه، أو جانب غيره، أو لقلة مبالاة الدين(٣).

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فقد –والله– عم الفساد، وظهرت البدع، وخفيت السنن، وقل القوال بالحق، بل لو نطق العالم بصدق وإخلاص لعارضه عدة من علماء الوقت، ولمقتوه وجهلوه –فلا حول ولا قوة إلا بالله–"(٤).

---

(١) أدب الطلب ومنتهى الأرب (ص:٦٢).

(٢) الاعتصام (٥٩٧/٢)، وانظر: الصوارف عن الحق، د. حمد العثمان (ص:١٤٠-١٤١).

(٣) انظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٦٤٥)، دستور العلماء (١٦٤/٣)، قواعد الفقه (ص:٤٧٤).

(٤) سير أعلام النبلاء (١٠٢/١١).

وقال عبد الله بن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من بخل بالعلم، ابتلي بثلاث: إما موت يذهب علمه، وإما ينسى، وإما يلزم السلطان، فيذهب علمه[١].

وقد ثبت أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**مثل المداهن في حدود الله والقائم عليها كمثل قوم استهموا في سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وأصاب بعضهم أسفلها، فأراد الذين في أسفلها أن يستقوا الماء على الذين في أعلاها فمنعوهم، فأرادوا أن يستقوا الماء في أسفل السفينة، فإن منعوهم نجوا، وإن تركوهم هلكوا جميعًا**))"[٢].

قال القاضي أبو بكر بن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (أحكام القرآن): "وحقيقة الإدهان: إظهار المقاربة مع الاعتقاد للعداوة؛ فإن كانت المقاربة باللين فهي مداهنة، وإن كانت مع سلامة الدين فهي مداراة، أي: مدافعة. وقد ثبت في (الصحيح): عن عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أنه استأذن على النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجل فقال: ((**ائذنوا له، بئس أخو العشيرة هو، أو ابن العشيرة**)) فلما دخل ألان له الكلام، فقلت له: يا رسول الله؛ قلت ما قلت، ثم ألنت له في القول؟ فقال لي: ((**يا عائشة إن شر الناس منزلة: من تركه أو وَدَعَهُ الناس اتقاء فحشه**))[٣].

وما التبس الحقُّ على كثيرين إلا بسبب ركون بعض من المنتسبين لطلب العلم إلى الظالمين ومداهنتهم، وتأثر العامّة بهم؛ فلذلك حذّر الحقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من ذلك فقال

---

(١) انظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم (١٦٥/٨)، سير أعلام النبلاء (٣٩٨/٨)، تهذيب الكمال (٢٢/١٦)، تاريخ دمشق (٤٤٢/٣٢)، تاريخ الإسلام (٨٨٢/٤)، المعجم، لابن المقرئ (ص:١٨٥).

(٢) أحكام القرآن (٣٠٥/٤). والحديث في (صحيح البخاري) [٢٦٨٦] بلفظ: ((مثل المدْهِنِ في حدود الله..)) الحديث. وبلفظ: ((مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة)) الحديث. (صحيح البخاري) [٢٣٦١]. والحديث أخرجه أيضًا: ابن حبان [٣٠١]، والطبراني في (الصغير) [٨٤٩].

(٣) صحيح البخاري [٥٦٨٥، ٥٧٠٧، ٥٧٨٠].

عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

فهذه الآية الكريمة أصل عظيم في النَّهي عن الوقوف مع الظالم وتأييده، وقد ذهب أكثر المفسِّرين في تفسيرها إلى أنَّ الله جَلَّوَعَلَا ينهى المؤمنين عن مجرَّد الميل إلى الظالمين، وهو معنى قلبي خفي، له مظاهره وآثاره، ومعلوم أنَّ ذلك يقتضي من باب أولى النهي عمَّا فوق ذلك من الموالاة للظالم وتأييده في أعماله، ونصرته وإعانته.

قال الإمام ابن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذه الآية أصل في سد ذرائع الفساد المحققة أو المظنونة"(١).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الركون حقيقته: الاستناد والاعتماد والسكون إلى الشيء والرضا به. قال قتادة: معناه: لا تودوهم ولا تطيعوهم. ابن جريج: لا تميلوا إليهم. أبو العالية: لا ترضوا أعمالهم؛ وكله متقارب. وقال ابن زيد: الركون هنا: الإدهان، وذلك ألا ينكر عليهم كفرهم"(٢).

والركون هو الميل، وهو أيضًا: المجاملة، وإعانة هذا الظالم على ظلمه، وأن تزيِّن للناس ما فعله هذا الظالم. وآفة الدنيا هي الركون للظالمين؛ لأنَّ الركون إليهم إنما يشجعهم على التمادي في الظلم، والاستشراء فيه. وأدنى مراتب الركون إلى الظالم ألَّا تمنعه من ظلم غيره، وأعلى مراتب الركون إلى الظالم أن تزيِّن له هذا الظلم، وأن تزيِّن للناس هذا الظلم. وأنت إذا استقرأت وضع الظلم في العالم كله تجد أن آفات المجتمعات الإنسانيَّة إنما تنشأ من الركون إلى الظالم، لكنك حين تبتعد عن الظالم، وتقاطعه أنت ومن معك، فلسوف يظنُّ أنَّك لم تُعرِض عنه إلَّا لأنَّك واثق بركن شديد آخر، فيتزلزل في نفسه؛ حاسبًا

(١) التحرير والتنوير (١٢/١٧٨).

(٢) تفسير القرطبي (٩/١٠٨)، وانظر: فتح القدير، للشوكاني (٢/٧٦٥)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٥/٣٤٧٩)، فتح البيان في مقاصد القرآن (٦/٢٦٣).

حساب القوّة التي تركن إليها، وفي هذا إضعاف لنفوذه، وفي هذا عزلة له وردع لعله يرتدع عن ظلمه(١).

ولما خالط الزهريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ السلطان -وهو من هو- كتب أخ له في الدين إليه: "عافانا الله وإياك أبا بكر من الفتن، فقد أصبحت بحال ينبغي لمن عرفك أن يدعو لك الله ويرحمك، أصبحت شيخًا كبيرًا، وقد أثقلتك نعم الله عَزَّوَجَلَّ بما فهمك الله من كتابه وعلمك من سنة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وليس كذلك أخذ الله عَزَّوَجَلَّ الميثاق على العلماء، قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكۡتُمُونَهُۥ﴾ [آل عمران:١٨٧]. واعلم أنَّ أيسر ما ارتكبتَ وأخفَّ ما احتملت: أنك آنست وحشة الظالم، وسهلت سبيل الغي بدنوِّك ممن لم يؤدّ حقًّا ولم يترك باطلًا، حين أدناك اتخذوك قطبًا تدور عليك رحى باطلهم، وجسرًا يعبرون عليك إلى بلائهم، وسلمًا يصعدون فيك إلى ضلالهم، يُدخلون الشكَّ بك على العلماء، ويقتادون بك قلوب الجهلاء، فما أيسر ما عمَّروا لك في جنب ما خرَّبوا عليك، وما أكثر ما أخذوا منك في جنب ما أفسدوا عليك من دينك، فما يؤمنك أن تكون ممن قال الله عَزَّوَجَلَّ فيهم: ﴿فَخَلَفَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡ خَلۡفٌ أَضَاعُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّبَعُواْ ٱلشَّهَوَٰتِۖ فَسَوۡفَ يَلۡقَوۡنَ غَيًّا﴾ [مريم:٥٩]؟ فإنك تعامل من لا يجهل، ويحفظ عليك من لا يغفل، فداو دينك فقد دخله سقم، وهيىء زادك فقد حضر السفر البعيد، ﴿وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ [إبراهيم:٣٨]"(٢).

---

(١) انظر: تفسير الشيخ الشعراوي (١/ ٤٣١٥).

(٢) انظر: الكشاف (٢/٤٠٩)، روح المعاني (١٢/١٥٤)، السراج المنير (٢/٩١)، صفة الصفوة (٢/١٦٠)، تاريخ دمشق (٢٢/٤١)، إحياء علوم الدين (٢/١٤٣)، حلية الأولياء (٣/٢٤٦).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء، فالله تعالى المستعان، وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور"(١).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والناس في القرآن أقسام: قوم شغلوا بالتردد على الظلمة وأعوانهم عن تدبره، وقوم شغلوا بما حبب إليهم من دنياهم، وقوم منعهم من فهمه سابق معرفة آراء عقلية انتحلوها، ومذاهب حكمية تمذهبوا بها، فإذا سمعوه تأولوه بما عندهم، فيحاولون أن يتبعهم القرآن لا أن يتبعونه، وإنما يفهمه من تفرغ من كل ما سواه؛ فإن للقرآن علوًّا من الخطاب يعلو على قوانين علوَّ كلام الله عَزَّوَجَلَّ على كلام خلقه"(٢).

ومن تأمل حال كثير من المسلمين في هذا العصر وجد أنهم قد ركنوا إلى الظلمة المستكبرين، ووثقوا بهم أكثر من ثقتهم بربهم عَزَّوَجَلَّ، ومالوا إليهم كل الميل، وتسابقوا على إرضائهم -ولو بسحق إخوانهم-، وهذا من أعظم أسباب الذل والخذلان، وتخلف نصر الله عَزَّوَجَلَّ عن المسلمين، وتسلط أعدائهم عليهم؛ فإن من عادة الظلمة المستكبرين أن يزدادوا علوًّا وجورًا كلما زين لهم علماء السوء قبيح أفعالهم.

قال ابن النحاس الدمشقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإذا نظرنا إلى فساد الرعية وجدنا سببه: فساد الملوك، وإذا نظرنا إلى فساد الملوك وجدنا سببه: فساد العلماء والصالحين، وإذا نظرنا إلى فساد العلماء والصالحين وجدنا سببه: ما استولى عليهم من حب المال والجاه"(٣). وفي (تفسير المنار): "وأما أعمال النفاق الدنيوية في أيام الملوك والأمراء الظالمين الفاسقين، فإنها تكون أكثر رواجًا ونتاجًا من أعمال الصادقين المخلصين. ولا دليل على فساد الملوك

---

(١) إحياء علوم الدين (١/ ٢١).

(٢) فيض القدير (٦/٢٤٠).

(٣) تنبيه الغافلين عن أعمال الجاهلين وتحذير السالكين من أفعال الجاهلين (ص:٦٨).

والأمراء والرؤساء أدل من تقريبهم للمنافقين المتملقين منهم، وإبعادهم للناصحين الصادقين عنهم"(١).

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد كان عبد الله بن علي ملكًا جبارًا، سفاكًا للدماء، صعب المراس، ومع هذا فالإمام الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يصدعه بمر الحق، لا كَخَلْق من علماء السوء الذين يُحَسِّنُون للأمراء ما يقتحمون به من الظلم والعَسْف، ويقلبون لهم الباطل حقًّا -قاتلهم الله- أو يسكتون مع القدرة على بيان الحق"(٢).

لقد أراد كفار (مكة) أن يصرفوا النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن بعض الأوامر والنواهي القرآنية، فحذَّر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الافتتان بهم، والتنازل عن شيء من الدين إرضاء لهم؛ لأن ذلك من الركون إليهم، وتوعده بتخلف النصر مع عذاب الدنيا والآخرة، والنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ معصوم من الوقوع في ذلك، ولكن خطاب الله عَزَّوَجَلَّ له بذلك هو خطاب لأمته؛ لئلا يتركوا شيئًا من دينهم؛ إرضاء لأحد، فيكون ذلك ركونًا إلى غير الله تعالى يتخلف به نصره عَزَّوَجَلَّ، ويقع الخذلان عليهم بسببه: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لَاتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَا أَنْ ثَبَّتْنَاكَ لَقَدْ كِدْتَ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْئًا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَأَذَقْنَاكَ ضِعْفَ الْحَيَاةِ وَضِعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الإسراء: ٧٣-٧٥].

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخطر إغفال هذا الواجب: "أما بعد: فإنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله عَزَّوَجَلَّ له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل

(١) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) (١٠/٤٦٤).

(٢) سير أعلام النبلاء (٧/ ١٢٥).

علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد"[1].

ثانيًا: الوقاية من آفة الكتمان والعلاج:

١ – أن يحذر كل داعية من مسبباتِ كتمان الحقِّ، كاتباع الهوى، والنفاق، والمداهنة، والغش، والخداع، والكذب، والخيانة.

٢ – أن يكونَ العالمُ صادقًا، أمينًا، يُبَلِّغُ رسالةَ ربِّه، ولا يخافُ في الله لومةَ لائم، فلا يداهنُ ولا ينافق، ولا يبيعُ دينَه بعرضٍ من الدنيا، ولا يتخلَّى عن مبادئه، ولا يتبدَّل قولُه لتحصيلِ منفعةٍ دنيويةٍ أو مكانةٍ أو منزلةٍ.

٣ – أن يتصدَّى العلماءُ الصَّادقونَ للتحذير من أئمَّة الضَّلال، وعلماءِ السوء.

٤ – أن يصدعَ العالمُ بالحقِّ، ولا سيما عند حاجة النَّاس إلى البيان.

٥ – أن لا يركنَ العالمُ إلى الظالمين، وأن يحفظ للعلم مكانته.

٦ – مراقبةُ الله عَزَّوَجَلَّ في جميع الأحوال، والخوف منه.

٧ – التفكر في آثار كتمان الحق، وما يترتب عليه من العقاب في الآخرة.

٨ – التمييز بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة:

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد ورد في العلماء السوء تشديدات عظيمة دلَّت على أنهم أشد الخلق عذابًا يوم القيامة، فمن المهمات العظيمة معرفة العلامات الفارقة بين علماء الدنيا وعلماء الآخرة"[2].

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي (٢/٣٠٦).

(٢) إحياء علوم الدين (١/ ٥٩).

المبحث العشرون
الغرور

أولًا: الغرور من الذنوب المتوعد عليها بالنار:

الغَرور بالفتح تطلق على الأشياء التي تمارس الخداع لغيرها كالشيطان، وما يمكن أن ينخدع به الإنسان فيغتر به، أو فيه، كالدنيا وما فيها من حبِّ المال أو الجاه أو السلطة أو المال أو سائر الشهوات، أو الشيطان، أو كل زخرف باطل خادع.

أما الغُرور –بالضم– فيقصد به أن ينخدع الإنسان بالدنيا وشهواتها، أو بحيل الشيطان وتلبُّسه أو بمكر البشر.

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "و(الغَرُور) –بالفتح–: الشَّيطان، ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣]. والْغَرُور أيضًا: ما يُتَغَرْغَر به من الأدوية.

و(الْغُرُور) –بالضَّمِّ–: ما اغْتُرَّ به من متاع الدنيا"(١).

فالغَرور بالفتح من يمارس الخداع، من يخدع غيره، أو ينخدع به غيره، وأما الغُرور بالضم فيطلق على عملية الخداع نفسها، كالوُضوء –بالضم– فهو أن تأتي بأفعال الوضوء كما أمر الله جَلَّوَعَلَا.

أما الوَضوء بالفتح فيطلق على الماء نفسه الذى نتطهر به، وكالسَّحور –بفتح السين–: وهو ما يتسحر به، وبضمها الفعل.

---

(١) انظر: الصحاح، للجوهري، مادة: (غرر) (٢/٧٦٨).

والغرور تزيين الخطأ بِمَا يُوهِمُ الصَّوَابَ، فيظن المغرور به أنه صواب. يقال: غرَّ فلان فلانًا إذا أَصَابَ غُرَّتَهُ، أي: غفلته، ونال منه ما يريد، والمراد به الخداع.

وقال الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "كل من غر شيئًا فهو غرور بالفتح، والغُرور بالضم الباطل"(١).

والانخداع بالباطل يعمُّ ما كانَ خداعًا للنَّفس، أو للغير، أو للنفس والغير.

وقد وردت الغُرور –بالضم– في القرآن الكريم في تسعة مواضع.

أما الغَرور –بالفتح– فقد وردت فى القرآن كله في ثلاثة مواضع.

ويتبين مما تقدَّم أن الغُرور في معناه اللغوي له صلة وثيقة بمعناه في الاصطلاح، وقد قيل في تعريفه: إنه "سكون النفس إلى ما يوافق الهوى، ويميل إليه الطبع"(٢). "وعبر عنه بعضهم بأنه كل ما يغر الإنسان من مال وجاه وشيطان، وفسر بالدنيا؛ لأنها تغر وتمر وتضر"(٣).

وقال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلًا، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدًا والشيطان دليلًا"(٤).

وقد جاءت الآيات في القرآن محذِّرة من الغرور، ومبينة لأسبابه وعاقبته؛ ليكون كل مكلف على بصيرة وبينة.

---

(١) الكليات (ص: ٦٦٣).

(٢) التعريفات، للجرجاني (ص:١٦١).

(٣) التوقيف على مهمات التعاريف، للمناوي (ص:٢٥١).

(٤) إحياء علوم الدين (٣/ ٣٧٨- ٣٧٩). وينظر المعنى مفصلًا في كتاب: (عقبات في طريق الهداية) د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان.

فمن ذلك قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِنَ الْكِتَابِ يُدْعَوْنَ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَنْ تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [آل عمران:٢٣-٢٤]. دلت الآيات على أن الغرور كان سببًا للتولي والإعراض عن الحق، والإصرار على الباطل، وسوء العاقبة في الآخرة.

ومن أعظم العوائق الشاغلة عن التفكر في الآخرة، وعن الاستعداد لها: الدنيا، والشيطان الموسوس الْمُسَوِّل، فنهى تعالى عباده، أن تغرهم الدنيا، أو يغرهم بالله الغرور، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [آل عمران:١٨٥]. شَبَّه الدُّنيا بالمتاع الذي يُدَلَّسُ به على الْمُسْتَامِ(١)، ويُغَرُّ حتى يشتريه، ثم يَتَبَيَّن له فسادُهُ ورداءتُهُ. والشيطان هو المدلس الغرور. وعن سعيد بن جبير رَحِمَهُ اللَّهُ: إنما هذا لمن آثرها على الآخرة، فأما من طلب الآخرة بها فإنها متاع بلاغ(٢).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢٠﴾ أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا مَحِيصًا ﴿١٢١﴾﴾ [النساء:١٢٠-١٢١].

ومن أنفع ما قيل في تفسير الآية أن الغرور هو أن يظن الإنسان بالشيء أنه نافع ولذيذ، ثم يتبين اشتماله على أعظم الآلام والمضار، وجميع أحوال الدنيا كذلك، والعاقل يجب عليه أن لا يلتفت إلى شيء منها، ومثال هذا أن الشيطان يلقي في قلب الإنسان أنه سيطول عمره وينال من الدنيا أمله ومقصوده، ويستولي على أعدائه، ويقع في قلبه أن

(١) (السوم): عرض السلعة على البيع. يقال: اسْتامَ مني بسلعتي اسْتِيامًا إذا كان هو العارض عليك الثمن. وسامني الرجل بسلعته سومًا، وذلك حين يذكر لك هو ثمنها، والاسم من جميع ذلك: السُّومَة والسِّيمَة. لسان العرب، مادة: (سوم) (١٢/٣١٠).

(٢) انظر: الكشاف (١/٤٤٩)، مفاتيح الغيب (٩/٤٥٣)، البحر المحيط في التفسير (٣/٤٦١)، غرائب القرآن (٢/٣٢٣).

الدنيا دول، فربما تيسرت له كما تيسرت لغيره، إلا أن كل ذلك غرور، فإنه لا بد وأن يكون عند الموت في أعظم أنواع الغم والحسرة، فإن المطلوب كلما كان ألذ وأشهى وكان الإلف معه أدوم وأبقى كانت مفارقته أشد إيلامًا وأعظم تأثيرًا في حصول الغمِّ والحسرة، فظهر أن هذه الآية منبهة على ما هو العمدة والقاعدة في هذا الباب. وفي الآية وجه آخر: وهو أن الشيطان يعدهم بأنه لا قيامة ولا جزاء فاجتهدوا في استيفاء اللذات الدنيوية.

ثم قال جَلَّوَعَلَا: ﴿أُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ﴾ [النساء:١٢١]. واعلم أنا ذكرنا أن الغرور عبارة عن الحالة التي تحصل للإنسان عند وجدان ما يستحسن ظاهره إلا أنه يعظم تأذيه عند انكشاف الحال فيه، والاستغراق في طيبات الدنيا والانهماك في معاصي الله عَزَّوَجَلَّ وإن كان في الحال لذيذًا إلا أن عاقبته عذاب جهنم، وسخط الله جَلَّوَعَلَا، والبعد عن رحمته، فكان هذا المعنى مما يقوي ما تقدم ذكره من أنه ليس إلا الغرور(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ [الأنعام:١٣٠]. قال الحافظ ابن كثير عَزَّوَجَلَّ: "أي: وقد فرطوا في حياتهم الدنيا، وهلكوا بتكذيبهم الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، ومخالفتهم للمعجزات، لما اغتروا به من زخرف الحياة الدنيا وزينتها وشهواتها"(٢).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْوًا وَلَعِبًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هَذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [الأعراف:٥١]، أي: اغتروا بطول

(١) مفاتيح الغيب (١١/ ٢٢٤).

(٢) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤١).

البقاء، "وصف الله عَزَّوَجَلَّ الكافرين بما كانوا يعتمدونه في الدنيا من اتخاذهم الدين لهوًا ولعبًا، واغترارهم بالدنيا وزينتها وزخرفها عما أمروا به من العمل للدار الآخرة"(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِمْ بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [الإسراء:٦٤]، أي: وما يعد الشيطان أولياءه الذين اتخذوه وليًّا من دون الله إلا غرورًا، يعني: إلا باطلًا(٢).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣]. وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر:٥].

قال الطبري رَحِمَهُ اللَّهُ: "يقول: ولا يخدعنّكم بالله خادع. والغَرور بفتح الغين: هو ما غرَّ الإنسان من شيء كائنًا ما كان، شيطانًا كان أو إنسانًا، أو دنيًا، وأما الغُرور بضم الغين: فهو مصدر من قول القائل: غررته غرورا"(٣).

وقال الإمام الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "اعلم أن قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ الآية [الحديد:١٤] كاف في ذم الغرور"(٤).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ ﴿١٣﴾ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ

---

(١) المصدر السابق (٣/ ٤٢٤).

(٢) تفسير الطبري (٩/ ٢٢٤).

(٣) تفسير الطبري (٢٠/ ١٥٨).

(٤) إحياء علوم الدين (٣/٣٧٩).

﴿١٤﴾ [الحديد:١٣- ١٤]. قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾، أي: طول الآمال والطمع في امتداد الأعمار، ﴿حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ﴾، أي: الموت، ﴿وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾، أي: وغركم الشيطان بأن الله عفو كريم لا يعذبكم، أو بأنه لا بعث ولا حساب.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا أشد ما يكون من الحسرة والبلاءِ أن يفتح للعبد طريق النَّجاة والفلاح، حتى إذا ظن أنه ناج ورأى منازلَ السعداءِ اقتطع عنهم، وضربت عليه الشقوة، ونعوذ بالله جَلَّوَعَلَا من غضبه وعقابه.

وإنما كانت هذه الطبقة في الدرك الأسفل؛ لغلظ كفرهم، فإنهم خالطوا المسلمين وعاشروهم، وباشروا من أعلام الرسالة وشواهد الإيمان ما لم يباشره البعداءُ، ووصل إليهم من معرفته وصحته ما لم يصل إلى المنابذين بالعداوة، فإذا كفروا مع هذه المعرفة والعلم كانوا أغلظ كفرًا وأخبث قلوبًا، وأشدَّ عداوة لله عَزَّوَجَلَّ ولرسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وللمؤمنين من البعداءِ عنهم، وإن كان البعداء متصدِّين لحرب المسلمين"(١).

ويتبين مما تقدَّم أن الغرور آفة قد تصيب بعض السالكين، فتصدَّهم عن الحق، بل قد تكون هذه الآفة من المهلكات.

قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما الغرور فإنه ما غرَّ الإنسان فخدعه فصدَّه عن الصَّواب إلى الخطأ، وعن الحقِّ إلى الباطل"(٢).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالمغرور هو الذي لم تنفتح بصيرته ليكون بهداية نفسه كفيلًا، وبقي في العمى فاتخذ الهوى قائدًا، والشيطان دليلًا. ﴿وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الإسراء:٧٢]. وذكر أنَّ الغرور هو أم الشَّقاوات، ومنبع المهلكات، ثم بين مداخله ومجاريه، وأصناف المغترين(٣).

---

(١) طريق الهجرتين وباب السعادتين (ص: ٤٠٣).

(٢) تفسير الطبري (١٢/ ٥٦).

(٣) انظر: إحياء علوم الدين (٣/ ٣٧٩)، وانظر: أصناف المغرورين (ص: ٢٥).

وأوضحَ أنَّ هذا الدَّاء يسري حتى يصيبَ كثيرين من العلماء والعُبَّاد والزُّهاد والقضاة وأرباب الأموال، وأنَّ أظهر أنواع الغرور وأشدَّها: غرور الكفَّار وغرور العصاة والمفسدين.

وأعظم الخلق غرورًا من اغترَّ بالدنيا وعاجلها، فآثرها على الآخرة، ورضي بها من الآخرة،

فمنهم من قال: الدُّنيا نقد، والآخرة نسيئة، والنَّقد أحسن من النسيئة. وهذا محل التلبيس؛ فإنَّ النقد لا يكون خيرًا من النسيئة إلا إذا كان مثل النسيئة، فكيف والدنيا كلها من أولها إلى آخرها كنفس واحد من أنفاس الآخرة؟ كما في الحديث: ((**ما الدنيا في الآخرة إلا مِثْلُ ما يجعل أحدكم إصبعه هذه في الْيَمِّ، فلينظر بم تَرْجِع؟**))[1].

فإيثار هذا النقد على هذه النسيئة، من أعظم الغبن وأقبح الجهل، وإذا كان هذا نسبة الدنيا بمجموعها إلى الآخرة، فما مقدار عمر الإنسان بالنسبة إلى الآخرة، فأيهما أولى بالعاقل؟ إيثار العاجل في هذه المدة اليسيرة، وحرمان الخير الدائم في الآخرة، أم ترك شيء حقير صغير منقطع عن قرب، ليأخذ ما لا قيمة له ولا خطر له، ولا نهاية لعدده، ولا غاية لأمده؟

ويقول بعضهم: ذرة منقودة، ولا درة موعودة. ويقول آخر منهم: لذات الدنيا متيقنة، ولذات الآخرة مشكوك فيها، ولا أدع اليقين بالشك.

وأما قول الآخر: لا أترك متيقنًا لمشكوك فيه، فيقال له: إما أن تكون على شك من وعد الله عَزَّوَجَلَّ ووعيده وصدق رسله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، أو تكون على يقين من ذلك، فإن كنت على اليقين فما تركت إلا ذرة عاجلة منقطعة فانية عن قرب؛ لأنه متيقن لا شك فيه ولا انقطاع له.

---

(١) صحيح مسلم [٢٨٥٨]. "ومعنى الحديث: ما الدنيا بالنسبة إلى الآخرة في قصر مدتها، وفناء لذاتها، ودوام الآخرة، ودوام لذاتها ونعيمها إلا كنسبة الماء الذي يعلق بالأصبع إلى باقي البحر". شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٧/١٩٢- ١٩٣).

فأما ملابسوا المعاصي مع سلامة عقائدهم، فإنهم قد شاركوا الكفار في هذا الغرور؛ لأنهم آثروا الدنيا على الآخرة، إلا أن أمرهم أسهل من أمر الكفار، من جهة أن أصل الإيمان يمنعهم من عقاب الأبد.

ومن العصاة من يغتر، فيقول: إن الله كريم، وإنما نتكل على عفوه، وربما اغتروا بصلاح آبائهم.

وقد قال العلماء رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: من رجا شيئًا طلبه، ومن خاف شيئًا هرب منه، ومن رجا الغفران مع الاصرار، فهو مغرور.

وليعلم أن الله عَزَّوَجَلَّ مع سعة رحمته شديد العقاب، وقد قضى بتخليد الكفار في النار، مع أنه لا يضره كفرهم، وقد سلَّط الأمراض والمحن على خلق من عباده في الدنيا، وهو جَلَّوَعَلَا قادر على إزالتها، ثم خوفنا من عقابه، فكيف لا نخاف؟!

فالخوف والرجاء سائقان يبعثان على العمل، وما لا يبعث على العمل فهو غرور. يوضح هذا أن رجاء أكثر الخلق يحملهم على البطالة، وإيثار المعاصي.

والعجب أن القرن الأول عملوا وخافوا، ثم أهل هذا الزمان أمنوا مع التقصير واطمأنوا، أتراهم عرفوا من كرم الله تعالى ما لم يعرف الأنبياء والصالحون؟!

ولو كان هذا الأمر يدرك بالمنى، فلم تعب أولئك وكثر بكاؤهم؟! وهل ذم أهل الكتاب بقوله: ﴿يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا﴾ [الأعراف:١٦٩]، إلا لمثل هذا الحال؟!"[١].

(١) انظر: مختصر منهاج القاصدين (ص:٢٣٧)، وانظر ذلك مفصلًا في (إحياء علوم الدين)، كتاب ذم الغرور (٣/٣٧٨) فما بعد، أصناف المغرورين، لأبي حامد الغزالي (ص:٢١) فما بعد، الجواب الكافي (ص:٣٦-٣٧).

وقال شيخنا إسماعيل المجذوب حفظه الله: "في ظروفنا الحاضرة يكثر تعاطي مهلكات قد تكون من نوع: ((**إن العبد لَيَتَكَلَّمُ بالكلمة، ما يَتَبَيَّنُ ما فيها، يهوي بها في النار، أبعد ما بين المشرق والمغرب**))(١).

ومن هذا الباب: كلام في الدين بغير علم. وكلام في أمور الأمة يلبس ثوب العصبيات مع قصر النظر وضيق الأفق. وكلام فيه اتهام الناس وسوء الظن بهم. وكلام فيه إرجاف وتخويف يؤدي إلى اليأس والقنوط. وأغلب ما تكون هذه المهلكات في مناخ من الغرور بالنفس، أو الغرور بجماعة مخصوصة، أو الغرور بمنهج مخصوص"اهـ.

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد اندرس علم الدين بتلبيس العلماء السوء، فالله تعالى المستعان، وإليه الملاذ في أن يعيذنا من هذا الغرور"(٢).

وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (بداية الهداية): "واعلم أن الناس في طلب العلم على ثلاثة أحوال: رجل طلب العلم ليتخذه زاده إلى المعاد، ولم يقصد به إلا وجه الله والدار الآخرة؛ فهذا من الفائزين.

ورجل طلبه ليستعين به على حياته العاجلة، وينال به العز والجاه والمال، وهو عالم بذلك، مستشعر في قلب ركاكة حاله وخسة مقصده، فهذا من المخاطرين. فإن عاجله أجله قبل التوبة خيف عليه من سوء الخاتمة، وبقي أمره في خطر المشيئة؛ وإن وفق للتوبة قبل حلول الأجل، وأضاف إلى العلم العمل، وتدارك ما فرط به من الخلل التحق بالفائزين؛ فإن التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

ورجل ثالث استحوذ عليه الشيطان؛ فاتخذ علمه ذريعة إلى التكاثر بالمال، والتفاخر بالجاه، والتعزز بكثرة الأتباع، يدخل بعلمه كل مدخل رجاء أن يقضى من الدنيا وطره، وهو مع ذلك يضمر في نفسه أنه عند الله بمكانة؛ لاتسامه بسمة العلماء، وترسمه برسومهم

(١) أخرجه البخاري [٦٤٧٧]، ومسلم [٢٩٨٨].

(٢) إحياء علوم الدين (١/٢١).

في الزي والمنطق، مع تكالبه على الدنيا ظاهرًا وباطنًا، فهذا من الهالكين، ومن الحمقى المغرورين؛ إذ الرجاء منقطع عن توبته لظنه أنه من المحسنين"(١).

والعُجْبُ قد يحمل صاحبه على تعظيم نفسه حتى تستولي عليه الغفلة، ويفرح بما هو عليه، ويستغني بما عنده، وربما يصل إلى (غرور العلم) الصَّارف عن الآيات والحجج، والصادِّ عن الهداية، و(غرور العلم) سببٌ في خلق نزعة الإلحاد والجحود، وهو ما أشار إليه القرآن الكريم بقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [غافر:٨٣].

وهذا النوع من الغرور هو خداع للنفس، وركون إلى ما يوافق الهوى. وإطلاق العلم على اعتقادهم تهكم وجري على حسب معتقدهم، وإلا فهو جهل، وإن كان قد أصاب علمًا من طرف فهو جاهل بجوانب أخرى، ولو أنه بحث أو ردَّ ما أشكل عليه إلى أولي العلم لذهب عنه ما يجد في نفسه من الشبه، ورجع عن الانحراف، واستقام على الهداية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ [النساء:٨٣]، لكن الغرور منعه من الاستفادة من علم غيره، فبقي في ظلمة الجهل.

يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ألا ترى أنَّ الذي يعظم نفسه بالباطل يريد أن ينصر كل ما قاله -ولو كان خطأ-"(٢).

والحاصل أنَّ الغرورَ له خطرُه على العقيدة والهداية والعبادة وممارسة الحياة، وله عواقب وآثار على السَّالِكِ وعلى المدعوين، فمن آثاره على السالك: ضلالُه عن الحقِّ، واتِّباعُه للهوى وما يزينه الشيطان له من سوء عمله، وانتصارُه للنفس، والمراء، والجدال بالباطل، والعجب، والتكبر، والاستبداد بالرأي، وازدراء الآخرين واحتقارهم، حتى يضلَّ عن الحقِّ، ويهلك مع من هلك.

(١) بداية الهداية، لأبي حامد الغزالي (ص:٢٦- ٢٧).

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٢٩٢).

ومن آثاره على المدعوين: التنفيرُ والصُّد عن الهداية، فهو يعكس بسوء خلقه وقصده، وانحراف فكره صورة قبيحة ومشوهة عما يدعو إليه.

ثانيًا: الوقاية من آفات الغرور والعلاج:

١ - التيقظ والفطنة:

قال الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمفتاح السعادة: التيقظ والفطنة، ومنبع الشقاوة: الغرور والغفلة، فلا نعمة لله على عباده أعظم من الإيمان والمعرفة، ولا وسيلة إليه سوى انشراح الصدر بنور البصيرة، ولا نقمة أعظم من الكفر والمعصية، ولا داعي إليهما سوى عمى القلب بظلمة الجهالة.

فالأكياس وأرباب البصائر قلوبهم: ﴿كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور:٣٥]. والمغترون قلوبهم: ﴿كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ [النور:٤٠]. فالأكياس هم الذين أراد الله أن يهديهم فشرح صدورهم للإسلام والهدى، والمغترون هم الذين أراد الله أن يضلهم، فجعل صدرهم كالتي وصفها الله عَزَّوَجَلَّ بقوله: ﴿ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام:١٢٥]"[١]. فلا يليق بذي همَّة علية: اتباع الدنيء والرضا بالدون الزائل عن العالي الدائم، وإيثار شهوة عاجلة على سعادة دائمة، وإيثار الجهل على العلم، والعمى على النور.

---

(١) إحياء علوم الدين (٣/٣٧٨).

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالموفق من العباد من عرف مداخل الآفات والفساد، فأخذ منها حذره، وبنى على الحزم والبصيرة أمره"(١).

٢ - الاختبار العكسي:

إن وسائل الوقاية من آفات الغرور: إعادة البحث والنظر وإصلاح الفكر، ونقد ما بني على أسس متهافتة، أو على عاطفة مجردة، وهو ما يسمى بالاختبار العكسي، وقد يكون سببًا في كشف زيف المعتقد، وتقويم الفكر، وتصحيح الموقف، والرجوع عن الغرور، واتباع الحق الذي لا شك فيه.

٣ - أن يفقه الباحثُ مولِّداتِ الغرور وآفاته، وأن يطَّلعَ على ما سطَّره العلماءُ والباحثون في الأخلاقِ والتربية.

٤ - محاسبة النفس والتنقيب عن عيوبها ونقائصها؛ فإن محاسبة النفس هو طريق استقامتها وكمالها وفلاحها وسعادتها، ومعرفة الداء تبصِّرُ السالك بسبل الوقاية والعلاج، فقد يبتلى بعض السالكين بآفة الغرور؛ لإهماله متابعة النفس ومحاسبتها، حيث يتمكن الداء منه.

٥ - الدعوة إلى دين الله عَزَّوَجَلَّ بالوسطية والاعتدال، والاحتراز عن الغلوِّ والتَّشدد:

"وقد يكون السبب في الغرور إنما هو الغلوُّ أو التشدد في الدِّين، ذلك أنَّ بعضَ العاملين قد يُقْبِلُ على منهجِ الله جَلَّوَعَلَا في غلوٍّ وتشدُّدٍ، وبعد فترة من الزَّمان ينظرُ حوله فيرى غيره من العاملين يسلكون المنهج الوسط، فيظنُّ لغفلته أو عدم إدراكه طبيعة هذا الدِّين أنَّ ذلك منهم تفريط أو تضيع، ويتمادى به هذا الظَّن إلى حد الاحتقار والاستصغار لكلِّ ما يصدرُ عنهم بالإضافة إلى ما يقع منه وذلك هو الغرور. ولعل ذلك

(١) المصدر السابق (٣/٣٧٩).

هو بعض السر في دعوة الإسلام إلى الوسطية، بل وتحذيره من الغلو أو التشدد في الدين"[١].

والحاصل أن الغلوّ والتّشدد قد يكون منفرًا للنّاس عن الاتباع، وقد يكون من أسباب الانتكاس بعد الهداية؛ فلذلك ينبغي الاعتدال والوسطية في الفهم، والحكمة في الدعوة، وهذا هو المنهج السليم الذي علّمه النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه رضوان الله عليهم[٢].

٦ - الاعتبار بعاقبة المغرورين، كصاحب الجنتين، وفرعون وقارون، ومن اغتر بقوته أو ماله أو بهما، أو من اغتر بجماله أو جاهه ومكانته إلى غير ذلك.

٧ - تبصير النّاس بآفات الغرور، فهو يقي كثيرينَ من الإصابة بهذا الداء، وهو من النُّصح والدِّلالة إلى الخير، ومن التعاون على البر والتقوى.

٨ - التربية السليمة على التواضع والأخلاق الفاضلة.

٩ - مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ وإخلاص العمل له.

١٠ - تدبر آيات القرآن والانتفاع بمواعظه، والتمسك بهدي النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وسنته؛ "فإن دوام النظر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسنة نبيه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يطلعنا على سير وأخبار الأنبياء والصالحين، وكيف كانوا يخافون من الهفوات أن تقع منهم مع أن رصيدهم من الطاعات كبير"[٣].

١١ - الوقوف على سير وأخبار السَّلف والصَّالحين والأعلام من هذه الأمة الذين جمعوا بين العلم والعمل، والخوف والرجاء، وكان لسان الصِّدق والإخلاص في العمل

(١) آفات على الطريق، الدكتور السيد محمد نوح (ص:٩٢-٩٣).

(٢) انظر: عقبات في طريق الهداية، عقبة المفهوم الخاطئ للاستقامة، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان.

(٣) انظر: آفات على الطريق (ص:١٠٣).

عندهم أبلغ من لسان القول؛ فلذلك لامست مواعظهم النفوس، ودخلت شغاف القلوب، وأثَّرت في المدعوين.

١٢ - الاشتغال بالعبادات الظاهرة والباطنة، والإكثار من النوافل، والذكر والاستغفار والدعاء، واللجوء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والاستعانة به، وحضور مجالس العلماء؛ فإن ذلك مما يقي السالك آفات الشرود، وينمي فيه شعور المراقبة.

١٣ - مصاحبة الصالحين وأرباب العزائم والهمم ومنافستهم في الأعمال الصالحة:

إن صحبة أرباب العزائم والهمم، ومشاركة المجدين تبعث في النفس الهمة، وتولد الحرارة والشوق؛ لتقليدهم والتشبه بهم في أخلاقهم وسلوكهم، وهي من أسباب النجاة والرفعة، كما أن صحبة أهل الباطل تؤثِّر في الصَّدِّ عن الحقِّ، وتورد صاحبها المهالك.

١٤ – إيثار الآخرة على الدنيا.

١٥ - الحرص على هداية الناس، ومحبة الخير لهم، ونصحهم وإرشادهم، وذلك الحرص الذي يعكس سلامة الصدر، وصفاء النفس، وطهارة القلب، ومتانة المنهج؛ فإن المحبة أساس الدعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ ومنطلقها، فالدين محبة ورحمة ومعاملة.

١٦ - يقال كذلك في وسائل الوقاية والعلاج ما تقدم مما قيل في الوقاية من آفات التكبر والعجب من نحو معرفة الإنسان أصل خلقته، وضعفه، ومصيره الذي سيؤول إليه.

١٧ - ترك الالتفات إلى الأعمال والركون إليها، والتعويل على كرم الله تعالى ورحمته سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وقد جاء في الحديث: **((إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة))**(١).

---

(١) صحيح البخاري [٢٨٩٨، ٤٢٠٢، ٤٢٠٧]، مسلم [١١٢].

وفي (صحيح مسلم): ((**إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة**))(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ففيه التحذير من الاغترار بالأعمال، وأنه ينبغي للعبد أن لا يتكل عليها، ولا يركن إليها؛ مخافة من انقلاب الحال"(٢).

وفي الحديث: ((**لن يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجنَّةَ**)) قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((**لا، ولا أنا، إلا أن يَتَغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ ورحمة**))(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿ٱدْخُلُوا ٱلْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٣٢]، ﴿وَتِلْكَ ٱلْجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف:٧٢]، ونحوهما من الآيات الدالة على أن الأعمال يدخل بها الجنة، فلا يعارض هذه الأحاديث، بل معنى الآيات: أن دخول الجنة بسبب الأعمال، ثم التوفيق للأعمال، والهداية للإخلاص فيها، وقبولها برحمة الله جَلَّ وَعَلَا وفضله، فيصح أنه لم يدخل بمجرد العمل، وهو مراد الأحاديث"(٤).

وذكر الرَّاغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنَّ جماع ما يأمنُ به السَّالكُ من الغرور ما يلي:

"أ. معرفة المقصود المشار إليه بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَفِرُّوٓا إِلَى ٱللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الذاريات:٥٠].

ب. معرفة الطريق إليه المشار إليه بقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓا إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ﴾ [يوسف:١٠٨].

---

(١) صحيح مسلم [٢٦٥١].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٢٦).

(٣) صحيح البخاري [٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٦٤٦٧]، مسلم [٢٨١٦].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٧/١٦٠- ١٦١)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (٢٩٧/١١).

ج. تحصيل الزَّاد المتبلغ به المشار إليه بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة:١٩٧].

د. المجاهدة في الوصول إليه كما قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ [الحج:٧٨]. فبهذه الأشياء يأمن الغرور الذي خوفه الله عَزَّوَجَلَّ منه في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ [لقمان:٣٣]"(١).

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص: ٢٧٠-٢٧١).

المبحث الحادي والعشرون
الظلم

أولًا: التَّحذير من الظُّلم وبيان كونه من الذُّنوب المتوعَّدِ عليها بالنَّار:

١ - تعريف الظلم:

أ. تعريفه لغة:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظُلْمًا ومَظْلِمَة. وأصله: وضع الشيء في غير موضعه"(١).

وقال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الظاء واللام والميم أصلان صحيحان، أحدهما: خلاف الضياء والنور، والآخر: وضع الشيء غير موضعه تَعَدِّيًا. فالأول: الظلمة، والجمع ظلمات. والظَّلَامُ: اسم الظلمة، وقد أظلم المكان إظلامًا.

والأصل الآخر: ظَلَمَهُ يَظْلِمُهُ ظُلْمًا. والأصل: وضع الشيء في غير موضعه"(٢).

"والظلم: الميل عن القصد، والعرب تقول: الزم هذا الصوب ولا تَظْلِمْ عنه، أي: لا تَجُرْ عنه. وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، يعني: أن الله جَلَّوَعَلَا هو المحيي المميت الرزاق المنعم وحده لا شريك له، فإذا أشرك به غيره فذلك أَعْظَمُ الظُّلْم، لأنه جعل النعمة لغير ربها. يقال: ظَلَمَه يَظْلِمُهُ ظَلْمًا وظُلْمًا ومَظْلِمة"(٣).

---

(١) الصحاح، مادة: (ظلم) (١٩٧٧/٥).

(٢) انظر: مقاييس اللغة، مادة: (ظلم) (٤٦٩/٣)، وانظر: مادة: (ظلم) في (المفردات)، للراغب (ص:٥٣٧).

(٣) لسان العرب، مادة: (ظلم) (٣٧٣/١٢)، وانظر: المحكم والمحيط الأعظم (٢٣/١٠-٢٤).

ومن الألفاظ ذات الصلة: الجور[1]، والعتو[2]، والزيغ[3]، والبغي[4]. ومنها: الغلو، والشطط، والعدوان، والطغيان، والفجور، والإجحاف، والاستبداد، والتسلط، والقهر، والتجبر، والتَّحكم، والهيمنة، والاعتداء، والإفساد، والافتراء، والتحامل، والتعسف، والهضم، والإجرام، والضيم. إلى غير ذلك.

ب. تعريفه في الاصطلاح:

عرفه الجرجاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه: التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور. وقيل: هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد[5].

وقال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والظلم عند أهل اللغة وكثير من العلماء: وضع الشيء في غير موضعه المختص به، إما بنقصان[6] أو بزيادة، وإما بعدول عن وقته أو مكانه، ويقال في مجاوزة الحق الذي يجري مجرى نقطة الدائرة، ويقال فيما يكثر وفيما يقل من التجاوز؛

---

(١) سيأتي بيانه.

(٢) وهو في اللغة: مجاوزة القَدْرِ في الظُّلم. انظر: معاني القرآن وإعرابه، للزجاج (٤/٦٣)، زاد المسير (٣/٣١٦).

(٣) يقال: زاغ عن الطريق يزوغ ويزيغ، والياء أفصح انظر: مشارق الأنوار، للقاضي عياض، مادة: (فجر) (٢/١٤٧)، جمهرة اللغة (٢/٨٢٠).

(٤) وهو في اللغة: الظلم، وأصله: الفساد، وتجاوز الحد، وكل مجاوزة وإفراط على المقدار الذي هو حد الشيء فهو بغي. انظر: تفسير الرازي (٥/١٩٣)، غرائب القرآن (١/٤٧١)، البحر المحيط في التفسير (١/٤٧٨).

(٥) التعريفات، للجرجاني (ص:١٤٤)، وانظر: الحدود الأنيقة والتعريفات الدقيقة (ص:٧٣).

(٦) "وقد جاء في القرآن إطلاق الظلم على النقص في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾ [الكهف:٣٣]". أضواء البيان (٣/٢٦٧). قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومدار الظلم على النقص كما قال الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا﴾. ويدور على أمرين: إما منع واجب للغير، وإما تحميله ما لا يجب عليه. مثال الأول: أن تمنع شخصًا من دين عليك فلا توفّيه، أو تماطل به؛ لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((مطل الغني ظلم)). صحيح البخاري [٢٢٨٧، ٢٢٨٨، ٢٤٠٠] مسلم [١٥٦٤]. ومثال الثاني: كأن تدعي عليه دينًا وتأتي بشهادة زور فيحكم لك به". شرح الأربعين النووية، محمد بن صالح العثيمين (ص:٢٤٥).

ولهذا يستعمل في الذنب الكبير، وفي الذنب الصغير، ولذلك قيل لآدم في تعديه: ظالم، وفي إبليس: ظالم، وإن كان بين الظلمين بون بعيد"(١).

وقال الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الظلم هو التصرف في ملك الغير، وذلك في حق الله تعالى محال؛ لأنه المالك المطلق"(٢).

وعرفه الكفوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ بأنه وضع الشيء في غير موضعه، والتصرف في حق الغير، ومجاوزة حد الشارع(٣).

وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الظلم المطلق: أخذ ما ليس له أخذه ولا شيء منه من مال أو دم أو عرض"(٤).

وقد تطابقت الشرائع على قبحه، واتفقت جميع الملل على رعاية حفظ الأنفس، فالأنساب، فالأعراض، فالعقول، فالأموال. والظلم يقع في هذه أو في بعضها. وأعلاه: الشرك، ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]، وهو المراد بالظلم في أكثر الآيات: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤](٥). ويدخل فيه: ظلم الإنسان لنفسه بارتكاب المعاصي؛ إذ العصاة ظُلَّام أنفسهم، وأقبح أنواعه: ظلم من ليس له ناصر إلا الله جَلَّ وَعَلَا(٦). ومنه أخذت المظلمة، وهي كما قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اسم لما أخذ بغير حق. والظلم وضع الشيء في غير موضعه الشرعي(٧).

(١) المفردات، مادة: (ظلم) (ص:٥٣٧)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٣١).

(٢) التفسير الكبير (١٤٩/٢٢).

(٣) الكليات (ص:٥٩٤).

(٤) شرح حديث لبيك اللهم لبيك (ص:١٠٣).

(٥) ولذا كثر في القرآن العظيم إطلاق الظلم بمعنى الشرك. انظر: أضواء البيان (٢٠٠/٧).

(٦) فيض القدير (١/ ١٣٤).

(٧) فتح الباري (٩٥/٥).

وفي (منار القاري): "أما المظلمة شرعًا فإنها التعدي على حقوق الآخرين، سواء كان ذلك بأخذ أموالهم بالباطل، أو بانتهاك أعراضهم، ويدخل في المظالم كل الاعتداءات المالية والجسمية والأخلاقية وغيرها، وكل الجنايات وجميع المخالفات الشرعية والذنوب، وإن لم تتعد إلى الغير؛ لأن فاعلها يظلم نفسه، ويتعدى عليها بتعريضها للعقوبة الإلهية"(١).

إنَّ التمادي في الظلم من أسباب الضلال، فقد يحرم الظالم الهداية، ويزداد إيغالًا في الظلم والضلال، وانهماكًا في المعاصي، ولا يهتدي إلى سبيل الرشاد؛ لأنَّ الظلم قد أعمى بصيرته، فظلم نفسه، وظلم غيره.

ولا ريب أن الظالمين يعملون في دأب على قهر الناس وإضلالهم، فمن الناس من يُفْتَن ويَضِل عن الحق؛ طمعًا في مكانة أو منصب أو جاه أو مال أو عمل، أو خوفًا على النفس أو المال أو الأهل أو المكانة أو العمل. ومنهم من يثبت على الحق ولا يزيغ، ويصبر على ما أصابه من البلاء.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم:٢٧].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾ "الذين لم يتمسكوا بحجة في دينهم، وإنما اقتصروا على تقليد كبارهم وشيوخهم، كما قلد المشركون آباءهم فقالوا: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ [الزخرف:٢٢]. وإضلالهم في الدنيا أنهم لا يثبتون في مواقف الفتن، وتزل أقدامهم أول شيء، وهم في الآخرة أضل وأذل"(٢).

---

(١) منار القاري شرح مختصر صحيح البخاري (٣/٣٦١).

(٢) الكشاف (٢/٥٥٤).

وقال الإمام الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ﴾، أي: يضلهم عن حجتهم التي هي القول الثابت، فلا يقدرون على التكلم بها في قبورهم، ولا عند الحساب، كما أضلهم عن اتباع الحق في الدنيا"(١).

والظالم يحمل أوزارًا مضاعفة، فهو يحمل إثم الظلم، وإثم الضلال، وإثم الإضلال.

ولا شك أن معاناة الكثيرين من الظلم والقهر والاستبداد، هو من ابتلاء الله عَزَّوَجَلَّ للعباد؛ ليميز الخبيث من الطيب، والظلم إنما يحمل ضعاف النفوس على الانقياد للباطل؛ طلبًا للسلامة، وإذعانًا لسلطان القوة، أو طمعًا في مكانة أو جاه أو مال -كما تقدم-، فيسقطون في أوحال الضلال، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا﴾ [التوبة:٤٩].

وقد صرف الخوف الكثيرين عن اتباع موسى عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ﴾ [يونس:٨٣].

فمن الناس من أذعن لفرعون؛ خوفًا من ظلمه، ومنهم من كتم إيمانه كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ [غافر:٢٨].

قال الله عَزَّوَجَلَّ في بيان أن الظلم من أسباب الضلال عن الحق والخذلان: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَظَلَمُوا لَمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ طَرِيقًا ۝١٦٨ إِلَّا طَرِيقَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ۝١٦٩﴾ [النساء:١٦٨-١٦٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا ضَلَالًا﴾ [نوح:٢٤].

"وإنما تعذرت المغفرة لهم والهداية؛ لأنهم استمروا في طغيانهم، وازدادوا في كفرانهم، فطبع على قلوبهم، وانسدت عليهم طرق الهداية بما كسبوا"(٢). وهذه الطريق هي التي قد اختاروها لأنفسهم، وأوغلوا السير فيها.

---

(١) فتح القدير (١٢٨/٣).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:٢١٥).

قال العلامة محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومعنى نفي أن يهديهم طريقًا: إن كان طريقا يوم القيامة فهو واضح: أي: لا يهديهم طريقًا يوصلهم إلى مكان إلا طريقًا يوصل إلى جهنم. ويجوز أن يراد من الطريق: الآيات في الدنيا، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة:٦]. فنفي هديهم إليه إنذار بأن الكفر والظلم من شأنهما أن يخيما على القلب بغشاوة تمنعه من وصول الهدى إليه؛ ليحذر المتلبس بالكفر والظلم من التوغل فيهما، فلعله أن يصبح ولا مخلص له منهما. ونفي هدى الله إياهم على هذا الوجه مجاز عقلي في نفي تيسير أسباب الهدى بحسب قانون حصول الأسباب وحصول آثارها بعدها. وعلى أي الاحتمالين فتوبة الكافر الظالم بالإيمان مقبولة، وكثيرًا ما آمن الكافرون الظالمون وحسن إيمانهم"(١).

و"جريمة الظلم أم الرذائل كلها؛ لأنها تشمل ظلم المرء لنفسه بدنًا وعقلًا ودينًا ودنيا، وظلمه للناس أفرادًا وجماعة وأمة، فكل ما سبق من الرذائل فهو داخل في معناها؛ ولذلك جعل إهلاك أولئك القرون عقابًا على الظلم"(٢).

إنه ليس شيءٌ أسرع في خراب الأرض، ولا أفسد لضمائر الخلق من الظلم والعدوان، فلا يكون الرقي والعمران حيث يسود الظلم والاستبداد، وتهيمن ثقافة الاستبداد على وسائل التعليم.

ومن يتأمَّلُ واقعَ المسلمين وما أصاب الأمة من الفقر والتخلف، يعلم أن سطوة الظالم ويده وصولجانه من وراء ذلك.

إن الخضوع المطلق لسلطان الاستبداد، وجعل السلطة -والحالة هذه- المرجع الأخير في العلم والفكر بحيث لا يرى إلا بمنظارها يؤول إلى تخلف المجتمع، وانغماس كثيرين في أوحال الضلال.

---

(١) التحرير والتنوير (٦/ ٤٧- ٤٨).

(٢) تفسير المنار (١٢/١٨٨- ١٨٩).

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن المتبعين لفرعون وهم على غير بصيرة: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ۝٥٤ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٥٥ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ۝٥٦﴾ [الزخرف: ٥٤-٥٦].

والمجتمعات التي يحكمها الجهل والاستبداد إنما تحمل ضعاف النفوس على متابعة الضَّلال، والانغماس في أوحاله.

والواقع يشهد لذلك الانحدار الفكري بسبب ذلك؛ فإن العصور الوسطى -مثلًا- والتي كانت السلطة هي المرجع الأخير في شؤون العلم كانت عصورًا متخلفة خلت من كل إبداع.

والظلم يجلب السخائم والإِحَن[١]، ويسبب المحن، والجَور يسلب النعم، ويوقع البلايا والنِّقم، وقد قيل: (الأمن أهنأ عيش، والعدل أقوى جيش). وقد كتب بعض عُمَّال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إليه: أما بعد، فإن مدينتنا قد خرِبَت، فإن رأى أمير المؤمنين أن يقطع لها مالًا يَرُمُّهَا به فعل، فكتب إليه عمر: أما بعد، قد فهمت كتابك، وما ذكرت أن مدينتكم قد خربت، فإذا قرأت كتابي هذا فَحَصِّنْهَا بالعدل، ونَقِّ طرقها من الظلم، فإنه مَرَمَّتُهَا، والسلام[٢].

وقد حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ الظلم على نفسه، وجعله محرمًا، وأخبر أنه لا يحب الظالمين، وحذَّر من الظُّلم في كتابه الكريم، وعلى لسان نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وتوعَّد الظلمة بالخزي في الدنيا، وبالعذاب في الآخرة.

---

(١) السخيمة: الحقد والضغينة والموجدة في النفس. و(الإحنة): الحقد والضغن، جمع، إحن يقال: إن الإحن تجر المحن.

(٢) أخرجه الدينوري في (المجالسة) [٢٢٨٧]، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/ ٣٠٥).

ومن تأمل الآيات القرآنية، والأحاديث النبوية التي وردت في هذا المعنى وجدها تحمل النهي المغلظ، والوعيد الشديد، وسوء العاقبة في الدنيا المؤذن بنهاية دولة الظلم، ثم سوء المآل في الآخرة.

فأين الذين التحفوا بالأمن والدَّعَة، واستمتعوا بالثروةِ والسَّعةِ، من الأمم الظالمة الغابرة، لقد نزلت بهم الفواجع، وحلَّتْ بهم الصواعق والقوارع، فهل تعِي لهم حِسًّا، أو تسمع لهم ركزًا؟!

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ [البقرة:١٦٥].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:٥٧].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ مَنْ تُدْخِلِ النَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [آل عمران:١٩٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ على لسان هابيل: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٢٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام:٤٥].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٤٧].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُم بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:١٦٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ﴾ [الأعراف:١٦٥].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف:١٧٧].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ﴾ [يونس:١٣].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ﴾ [يونس:٣٩].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ النَّاسَ شَيْئًا وَلَٰكِنَّ النَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [يونس:٤٤].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِي الْأَرْضِ لَافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [يونس:٥٤].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾ [هود:٣٧].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٦٧].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِّنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود:٩٤].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود:١١٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ ﴿٤٣﴾ وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ ﴿٤٤﴾ وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ ﴿٤٥﴾ وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم:٤٢-٤٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّكَ كَذَلِكَ فَعَلَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللَّهُ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٣٣﴾ فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [النحل:٣٣-٣٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ﴾ [النحل:٨٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [مريم:٣٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [الروم:٥٧].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [لقمان:١١].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا﴾ [الكهف:٢٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ [الكهف:٥٩].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ [الأنبياء:١١-١٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ﴾ [الحج:٤٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج:٤٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا﴾ [الفرقان:٢٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفرقان:٣٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [النمل:٥٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ﴾ [النمل:٨٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٠].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ ﴿٢٢﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿٢٣﴾ وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [الصافات:٢٢-٢٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَقِيلَ لِلظَّالِمِينَ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ﴾ [الزمر:٢٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَأَصَابَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَالَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ هَؤُلَاءِ سَيُصِيبُهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ﴾ [الزمر:٥١].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْآزِفَةِ إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [غافر:٥٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾ تَرَى الظَّالِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا كَسَبُوا وَهُوَ وَاقِعٌ بِهِمْ﴾ [الشورى:٢١-٢٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ﴾ [الشورى:٤٤].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿كَمَثَلِ الشَّيْطَانِ إِذْ قَالَ لِلْإِنْسَانِ اكْفُرْ فَلَمَّا كَفَرَ قَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾ فَكَانَ عَاقِبَتَهُمَا أَنَّهُمَا فِي النَّارِ خَالِدَيْنِ فِيهَا وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الحشر:١٦-١٧].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان:٣١]. والآيات في التحذير من الظلم، وبيان عاقبته، وأنواعه كثيرة[1].

(١) انظر: المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم (الظلم وأنواعه) (٧٥٧/٢-٧٦٥).

وجاء في (الصحيح): عن أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ فيما روى عن الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ أنه قال: ((**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرمًا، فلا تظالموا**))(١)، يعني: أنه تعالى حرم الظلم على عباده، ونهاهم أن يتظالموا فيما بينهم، فحرام على كل عبد أن يظلم غيره(٢).

وعن عبد الله بن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال: ((**الظلم ظلمات يوم القيامة**))(٣).

وفي رواية: عن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنهُمَا أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال: ((**اتقوا الظلم، فإن الظلم ظلمات يوم القيامة، واتقوا الشح، فإن الشح أهلك من كان قبلكم، حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم**))(٤).

وعن أبي موسى رَضِيَٱللَّهُعَنهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ: ((**إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِتْه**))، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخۡذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلۡقُرَىٰ وَهِيَ ظَٰلِمَةٌۚ إِنَّ أَخۡذَهُۥٓ أَلِيمٞ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢](٥).

وعن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيهِوَسَلَّمَ قال: ((**من كانت عنده مَظْلِمَة لأخيه فَلْيَتَحَلَّله منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يُؤْخَذَ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أُخِذَ من سيئات أخيه فطرحت عليه**))(٦).

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٧٧].

(٢) جامع العلوم والحكم (٣٦/٢).

(٣) صحيح البخاري [٢٤٤٧]، مسلم [٢٥٧٩].

(٤) صحيح مسلم [٢٥٧٨].

(٥) صحيح البخاري [٤٦٨٦]، مسلم [٢٥٨٣].

(٦) صحيح البخاري [٦٥٣٤].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**أتدرون ما المفلس؟**))، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: ((**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فَيُعْطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار**))(١).

ولما كثرت المظالم، وامتلأت بالقضايا المحاكم، وانتشرت الرشوة، وشاع شراء الذمم، وفسد القضاء، وأهدرت الحقوق، وبغى الناس بعضهم على بعض، أصاب الأمة ما أصابها من البلاء والفقر والتخلف. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس:٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح:١٠].

وفي الحديث: ((**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**))(٢).

وفي رواية: ((**إذا رأوا المنكر**))(٣).

وفي رواية: ((**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب**))(٤).

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٨١].

(٢) أخرجه أحمد [٢٩]، وابن حميد [١]، وأبو داود [٤٣٣٨]، والترمذي [٢١٦٨]، والبزار [٦٥]، وابن حبان [٣٠٤]، والبيهقي [٢٠١٨٩]، والحميدي [٣]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إسناده صحيح". رياض الصالحين (ص:٩٧)، الأذكار (ص:٣٣١).

(٣) أخرجه أحمد [١، ١٦، ٥٣]، وابن ماجه [٤٠٠٥]، والنسائي في (الكبرى) [١١٠٩٢]، وأبو يعلى [١٢٨]، وابن حبان [٣٠٥]، والضياء [٥٨].

(٤) أخرجه أبو داود [٤٣٣٨]، والبيهقي [٢٠١٩١].

وعن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها فزعًا يقول: ((**لا إله إلا الله، ويل للعرب من شر قد اقترب، فتح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثل هذه**))، وحلق بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: ((**نعم إذا كثر الخبث**))(١).

٢ - أسباب الظلم:

ومن أسباب الظلم: الكبر، والبطر، والفخر، والغرور، والبخل، والحرص، والجشع، والطمع، والكنود، والبغي، والغفلة، والادعاء الكاذب، واتباع الهوى.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلِ اتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَهْوَاءَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ فَمَنْ يَهْدِي مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ [الروم:٢٩].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾ وَنُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ﴿٥﴾ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُمْ مَا كَانُوا يَحْذَرُونَ ﴿٦﴾﴾ [القصص:٤-٦].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ [القصص:٧٦].

ومن أسباب الظلم: الجهل والجحود: وقد بيَّن الله عَزَّوَجَلَّ أنَّ أهل العلم ينتفعون بالآيات، أما الجهل فهو سببُ الكفر والجحود والظلم. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٩]. وبيَّن

(١) صحيح البخاري [٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥]، مسلم [٢٨٨٠].

الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ أنَّ العلم سبب في الهداية إلى الحقِّ، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِى أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِى إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ [سبأ:٦].

قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: "فأصل كل خير: هو العلم والعدل، وأصل كل شر: هو الجهل والظلم"[(١)].

ومن أسباب الظلم: الغضب في غير الحقِّ؛ فهو مفتاحُ كلِّ شرٍّ، فهو مفتاح للقتل، والنزاع والشقاق، والطلاق، والظلم بجميع أنواعه.

ومن أسباب الظلم: الكذب وقول الزور -كما تقدم-.

٣ - أنواع الظلم:

أما أنواع الظلم فقد قال الراغب رَحِمَهُٱللَّهُ: قال بعض الحكماء الظلم ثلاثة.

أحدها: بين الإنسان وبين الله، وأعظمه: الكفر والشرك والنفاق.

والثاني: ظلم بينه وبين الناس.

والثالث: ظلم بينه وبين نفسه. وهذه الثلاثة في الحقيقة للنفس[(٢)].

وقال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: "هو نوعان: أحدهما: ظلم النفس، وأعظمه: الشرك، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣]؛ فإن المشرك جعل المخلوق في منزلة الخالق، فعبده وتألهه، فهو وضع الأشياء في غير موضعها، وأكثر ما ذكر في القرآن من وعيد الظالمين إنما أريد به المشركون، كما قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، ثم يليه: المعاصي على اختلاف أجناسها من كبائر وصغائر. والثاني: ظلم العبد لغيره، وهو المذكور في هذا الحديث، وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في خطبته في حجة

---

(١) إغاثة اللهفان (٢/ ١٣٧).

(٢) انظر ذلك مفصلًا في (المفردات)، مادة: (ظلم) (ص:٥٣٧- ٥٣٨)، بصائر ذوي التمييز (٣/٥٤٠-٥٤٤).

الوداع: ((**فإن دماءكم وأموالكم وأعراضكم، عليكم حرام، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، في بلدكم هذا**))"(١).

قال سلمان الفارسي لجرير بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: يا جرير! أتدري ما ظلمة النَّار؟ قال: قلت: لا. قال: فإنه ظلم الناس بعضُهم بعضًا في الأرض(٢).

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يَخْلُصُ المؤمنون من النار، فَيُحْبَسُونَ على قنطرة بين الجنة والنار، فَيُقَصُّ لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هُذِّبُوا وَنُقُّوا أُذِنَ لهم في دخول الجنة، فو الذي نفس محمد بيده، لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا**))(٣).

وقد رُوِيَ عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الظلم ثلاثة: فظلم لا يتركه الله، وظلم يغفر، وظلم لا يغفر، فأما الظلم الذي لا يغفر فالشرك لا يغفره الله، وأما الظلم الذي يغفر فظلم العبد فيما بينه وبين ربه، وأما الظلم الذي لا يترك فظلم العباد فيقتص الله بعضهم من بعض**))(٤). قال العلامة المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: "الظلم ثلاثة من الأنواع والأقسام؛ فظلم لا يغفره الله عَزَّ وَجَلَّ، وظلم يغفره، وظلم لا يتركه.

---

(١) جامع العلوم والحكم (٢/٣٦). والحديث في (صحيح البخاري) [١٠٥، ٤٤٠٦، ٥٥٥٠، ٧٠٧٨، ٧٤٤٧]، و(مسلم) [١٦٧٩].

(٢) انظر: سير أعلام النبلاء (٣/٣٣٥-٣٣٦)، تاريخ دمشق (٢١/٤٣٨)، تاريخ الإسلام (٢/٢٨٦)، المجالسة وجواهر العلم (٣/٢٠٥)، إحياء علوم الدين (٣/٣٤١).

(٣) صحيح البخاري [٢٤٤٠، ٦٥٣٥].

(٤) أخرجه الطيالسي [٢٢٢٣]، والبزار [٦٤٩٣]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٠/٣٤٨): "رواه البزار عن شيخه أحمد بن مالك القشيري ولم أعرفه، وبقية رجاله قد وثقوا على ضعفهم". وأخرجه أيضًا: أبو نعيم في (الحلية) (٦/٣٠٩).

فأما الأول: وهو الظلم الذي لا يغفره الله جَلَّ وَعَلَا فالشرك، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان:١٣].

وأما الثاني: وهو الظلم الذي يغفره الله فظلم العباد أنفسهم فيما بينهم وبين ربهم. ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران:١٣٥]، قالوا: نكرة في سياق الشرط فعم كل ما فيه ظلم النفس. وقال: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ﴾، فهذا لا يدخل فيه الشرك الأكبر: قال ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لما نزلت: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام:٨٢] شق ذلك على الصحب، وقالوا: يا رسول الله أينا لم يظلم نفسه؟! قال: إنما هو الشرك، ألم تسمعوا قول العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾"(١).

وأما الثالث: وهو الظلم الذي لا يتركه الله فظلم العباد بعضهم بعضًا حتى يدير لبعضهم من بعض علم من هذا ما نقله الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ عن بعض المفسرين أن الظلم المطلق هو الكفر المطلق. ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]، فلا شفيع لهم غدًا. ﴿مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾ [غافر:١٨]. والظلم المقيد قد يختص بظلم العبد نفسه، وظلم بعضهم بعضًا، فالأول من الثاني مغفور إن شاء الله. والثاني(٢) تنصب له موازين العدل، فمن سلم من أصناف الظلم فله الأمن التام ومن لم يسلم من ظلمه لنفسه فله الأمن ولا بد أن يدخل الجنة"(٣).

ومن الناس من يظلم نفسه بالجهل والمعاصي، وتعدي حدود الله جَلَّ وَعَلَا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٢٩].

---

(١) الحديث في الصحيحين، صحيح البخاري [٣٢، ٣٣٦٠، ٣٤٢٨، ٣٤٢٩، ٤٧٧٦، ٦٩١٨، ٦٩٣٧]، مسلم [١٢٤].

(٢) والثاني الذي هو ظلم العبد لغيره من التصنيف الثالث الذي ذكره أولًا.

(٣) فيض القدير (٤/٢٩٥).

ومن الظلم: صحبة أهل الشرِّ والفساد، وموافقة حال أهل الباطل الذين يخوضون في آيات الله تعالى، والتردد على أماكن الشبهات والمجالس التي يخوض الناس فيها بالباطل، ولا يأمن فيها على نفسه، ومجالسة من كان مبتدعًا، داعيًا إلى بدعته، مظهرًا لها، فلا يجالس وقت بدعته ودعوته، ولا يسمع منه إلا إذا كان في حال الذِّكرى والمناقشة والمناورة والبحث عن الحقِّ؛ لأن مجالسته -والحالة هذه- بمثابة التشريع له كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٤٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام:٦٨].

فقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿بَعْدَ الذِّكْرَى﴾، أي: بعد أن تذكر النهي. "فتعم الآية كل ظالم، فلا تجوز لأحد مجالستهم مع ترك النكير عليهم، ولا يكفي أن ينكر ويجلس؛ لأنه يكون ببقائه معهم قد أظهر ما يدل على الرضا بفعلهم، ونقض بالفعل إنكاره عليهم بالقول"(١).

ومن الناس من يظلم أولاده وأهله فلا يأمرهم بمعروف، ولا ينهاهم عن منكر، ولا يحملهم على ما فيه صلاح حالهم من العلم والعمل والعون والإرشاد.

ومنهم من يظلم زوجته بضربها بغير حق، أو التقصير في حقها، من صداقها ونفقتها وكسوتها(٢)، أو تظلمه هي بتقصيرها في حقه، أو تظلم أولادها بتقصيرها في حقهم.

فمن الظلم: ظلم الزوجة للزوج، والزوج للزوجة، أو ظلم إحدى الزوجات أو الأولاد بالتميز بينهم في العطايا والمنح، أمَّا محبة إحدى الزوجات، أو أحد الأولاد أكثر من غيره، فقد ذهب الفقهاء إلى أنَّ الإنسان لا يؤاخذ إذا مال قلبُه إلى إحدى زوجاته، وأحبها أكثر

---

(١) تفسير ابن باديس (ص:٢٣١).

(٢) وهو داخل في قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((لَيُّ الوَاجِد يُحِلُّ عقوبته وعرضه)) -وسيأتي-.

من غيرها، وكذا إذا أحبَّ أحد أولاده أكثر من الآخرين؛ لأنَّ المحبة من الأمور القلبيَّة التي ليس للإنسان فيها خيار، ولا قدرة له على التحكم فيها؛ لحديث عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: كان رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقسم لنسائه فيعدل ويقول: ((**اللهم هذه قسمتي فيما أملك، فلا تلمني فيما تملك ولا أملك**))(1). قال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ -في تفسير قوله: ((**فيما تملك ولا أملك**))- يعني به: الحب والمودة.

قال الصنعاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "والحديث يدل على أن المحبة وميل القلب أمر غير مقدور للعبد، بل هو من الله جَلَّ وَعَلَا لا يملكه العبد"(2).

وإنما يحرم عليه أن يفضل المحبوب على غيره بالعطايا، أو بغيرها من الأمور التي يملكها الإنسان بغير مسوغ؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ﴾ [النساء:١٢٩]، ولقول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من كان له امرأتان يميل لإحداهما جاء يوم القيامة أحد شقيه مائل**))(3).

---

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه [١٣٧٠]، وأحمد [٢٥١١١]، والترمذي [١١٤٠]، وقال: حديث: عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا هكذا رواه غير واحد، عن حماد بن سلمة، عن أيوب، عن أبي قلابة، عن عبد الله بن يزيد، عن عائشة أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقسم، ورواه حماد بن زيد، وغير واحد، عن أيوب، عن أبي قلابة مرسلا، أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يقسم، وهذا أصح من حديث: حماد بن سلمة.

(٢) سبل السلام، محمد بن إسماعيل الصنعاني (٢/٢٣٨).

(٣) أخرجه الطيالسي [٢٥٧٦]، وإسحاق بن راهويه [١٠٠]، وأحمد [٧٩٣٦]، والدارمي [٢٢٥٢]، وابن ماجه [١٩٦٩]، وأبو داود [٢١٣٣]، والبزار [٩٥٥١]، والنسائي [٣٩٤٢]، وابن حبان [٤٢٠٧]، والحاكم [٢٧٥٩]، وقال: "حديث صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (شعب الإيمان) [٨٣٤٠]. قال العراقي رَحِمَهُ اللَّهُ (ص:٤٨٧): "أخرجه أصحاب السنن وابن حبان من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قال أبو داود وابن حبان رَحِمَهُمَا اللَّهُ: (فمال مع إحداهما)، وقال الترمذي رَحِمَهُ اللَّهُ: (فلم يعدل بينهما)".

قال العلماء: المراد الميل في القسم والإنفاق لا في المحبة؛ لما عرفت من أنها مما لا يملكه العبد. ولقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في التسوية بين الأولاد بالعطايا ونحوها لبشير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ[(١)]: ((**أكل ولدك نحلت مثله**))، قال: لا، قال: ((**فارجعه**))"[(٢)].

وفي رواية قال: ((**فاردده**))[(٣)].

وفي رواية فقال له رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أفعلت هذا بولدك كلهم؟**)) قال: لا، قال: ((**اتقوا الله واعدلوا في أولادكم**))، قال: فرجع أبي فرد تلك الصدقة[(٤)].

وفي رواية: قال: ((**فلا تشهدني إذًا، فإني لا أشهد على جور**))[(٥)].

وفي رواية: ((**لا تشهدني على جور**))[(٦)].

وفي رواية قال: ((**فأشهد على هذا غيري**))[(٧)].

وفي رواية قال: ((**فإني لا أشهد**))[(٨)].

---

(١) صحيح البخاري [٢٥٨٦]، مسلم [١٦٢٣]. قال العلامة السندي رَحِمَهُ اللَّهُ: "النُّحل: -بضم فسكون-: مصدر نحلته، أي: أعطيته. ويطلق على المُعْطِي أيضًا. والنحلة -بكسر فسكون- وجوز الضم بمعنى: العطية. قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "النُّحْل: العطية والهبة ابتداء من غير عوض ولا استحقاق. يقال: نَحَلَه يَنْحَلُه نُحْلًا -بالضم-. والنِّحْلَة -بالكسر-: العطية". حاشية السندي على سنن النسائي (٦/٢٥٨)، النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (نَحَلَ) (٥/٢٩). وقوله: ((فارجعه)) يدل على جواز الرجوع في الهبة للولد. ولعل من لا يقول به يحمل على أنه رجع قبل أن يتم الأمر بالقبض من جهته، ونحو ذلك.

(٢) الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٦/ ١٨٩).

(٣) صحيح مسلم (١٠) [١٦٢٣].

(٤) صحيح مسلم (١٣) [١٦٢٣].

(٥) صحيح مسلم (١٤) [١٦٢٣].

(٦) صحيح البخاري [٢٦٥٠] مسلم (١٦) [١٦٢٣].

(٧) صحيح مسلم (١٧) [١٦٢٣].

(٨) صحيح مسلم (١٨) [١٦٢٣].

وفي رواية قال: ((**فليس يصلح هذا، وإني لا أشهد إلا على حق**))(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أما قوله: ((**نحلت**)) فمعناه: وهبت. وفي هذا الحديث أنه ينبغي أن يسوي بين أولاده في الهبة، ويهب لكل واحد منهم مثل الآخر، ولا يفضل، ويسوي بين الذكر والأنثى. وقال بعض أصحابنا: يكون للذكر مثل حظ الأنثيين، والصحيح المشهور أنه يسوي بينهما؛ لظاهر الحديث، فلو فضل بعضهم، أو وهب لبعضهم دون بعض، فمذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ أنه مكروه، وليس بحرام، والهبة صحيحة. وقال طاووس وعروة ومجاهد والثوري وأحمد وإسحاق وداود رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ: هو حرام، واحتجوا برواية: ((**لا أشهد على جور**)) وبغيرها من ألفاظ الحديث"(٢).

وفي رواية: ((**اعدلوا بين أولادكم في النَّحْل كما تحبون أن يعدلوا بينكم في الْبِرِّ والعطف**))(٣).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فإن انتظام المعاش والمعاد إنما يدور مع العدل، والتفاضل بينهم يجرُّ إلى الشحناء والتباغض، ومحبة بعضهم له وبغض بعضهم إياه، وينشأ عن ذلك العقوق ومنع الحقوق"(٤).

ومن الناس من يظلم أقاربه بقطع الصلة، أو الإساءة إليهم بقول أو فعل.

---

(١) صحيح مسلم (١٩) [١٦٢٣]، شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٦٥/١١).

(٢) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٦٥/١١- ٦٧)، وانظر: المعتصر من المختصر من مشكل الآثار (٦٤/٢)، البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة (٣٧٠/١٣)، الشرح الممتع على زاد المستقنع (٤٨/١١).

(٣) أخرجه ابن حبان [٥١٠٤]، كما أخرجه الطبراني في (الكبير) [٧٠]، وتمام [٢٧٣]، والبيهقي في (الكبرى) [١٢٠٠٣]. قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (فيض القدير) (٥٥٧/١): "إسناده حسن".

(٤) فيض القدير (١/ ٥٥٧).

لا تكون الصلة على وجه المكافأة، وإنما ابتغاء وجه الله عَزَّوَجَلَّ، ولا يقتصر في صلته على من يبادلونه الصلة، فقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**ليس الواصل بالمكافئ، ولكن الواصل الذي إذا قطعت رحمه وصلها**))(١). أي: إن الذي يصل غيره مكافأةً له على ما قدم من صلة، ومقابلةً له بمثل ما فعل ليس بواصل حقيقة؛ لأن صلته نوع معاوضة ومبادلة.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ: "لا يلزم من نفي الوصل ثبوت القطع فهم ثلاث درجات؛ (مواصل ومكافئ وقاطع)؛ فالواصل: من يتفضل ولا يتفضل عليه، والمكافئ: الذي لا يزيد في الإعطاء على ما يأخذ، والقاطع: الذي يتفضل عليه ولا يتفضل. وكما تقع المكافأة بالصلة من الجانبين كذلك تقع بالمقاطعة من الجانبين، فمن بدأ حينئذ فهو الواصل، فإن جوزي سمي من جازاه: مكافئًا -والله أعلم-"(٢).

وعن أبي هريرة رَضِيَ‌ٱللَّهُ‌عَنْهُ أن رجلًا قال: يا رسول الله إن لي قرابة أصلهم ويقطعوني، وأحسن إليهم ويسيئون إلي، وأحلم عنهم ويجهلون علي، فقال: ((**لئن كنت كما قلت، فكأنما تُسِفُّهُمُ الْمَلَّ، ولا يزال معك من الله ظهير عليهم ما دمت على ذلك**))(٣). ففي الحديث: الحث على صلة ذي الرحم الذي هذه صفته، ومقابلة الإساءة بالإحسان، فعسى أن ينقلب حاله. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤].

---

(١) صحيح البخاري [٥٩٩١].

(٢) فتح الباري (١٠/٤٢٤).

(٣) صحيح مسلم [٢٥٥٨]. و((تسفهم)): -بضم التاء وكسر السين المهملة وتشديد الفاء-. و((الملّ)): -بفتح الميم وتشديد اللام- هو الرماد الحار، أي: كأنما تطعمهم الرماد الحار، وهو تشبيه لما يلحقهم من الإثم بما يلحق آكل الرماد الحار من الألم، ولا شيء على هذا المحسن إليهم، بل ينال أجر الصلة والتحمل للأذى، وبالمقابل ينالهم إثم عظيم بتقصيرهم في حقه، وإدخالهم الأذى عليه.

ومن أخلاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه: ((**لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح**))(١)، فهو ((**يعفو**))، أي: في الباطن، ((**ويصفح**))، أي: في الظاهر عن صاحب السيئة(٢).

ومن الناس من يظلم إخوانه بترك نصرتهم نصرتهم، وعدم نصحهم أو أمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر.

ومن العلماء من يظلم الناس بكتمانه مع حاجتهم إلى البيان، أو بمداهنته وتلبيسه، فمن أعظم الظلم وأشنعه: ظلم العلماء للأمة الذين ينافقون ويداهنون، ويكتمون من أجل عرض من الدنيا.

وما التبس الحقُّ على كثيرين إلا بسبب ركون بعض من المنتسبين لطلب العلم إلى الظالمين ومداهنتهم، وتأثر العامَّة بهم؛ فلذلك حذَّر الحقُّ جَلَّ وَعَلَا من ذلك أيما تحذير فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

فهذه الآية الكريمة أصل عظيم في النَّهي عن الوقوف مع الظالم وتأييده، وقد ذهب أكثر المفسِّرين في تفسيرها إلى أنَّ الله جَلَّ وَعَلَا ينهى المؤمنين عن مجرَّد الميل إلى الظالمين، وهو معنى قلبي خفي، له مظاهره وآثاره، ومعلوم أنَّ ذلك يقتضي من باب أولى النهي عمَّا فوق ذلك من الموالاة للظالم وتأييده في أعماله، ونصرته وإعانته.

وقد جاء عن سعيد بن المسيب رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال: لا تملؤوا أعينكم من أعوان الظلمة إلا بإنكار من قلوبكم، لكيلا تحبط أعمالكم(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٤٨٣٨].

(٢) انظر: المحبة صورها وأحكامها، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٢٢١-٢٢٦).

(٣) سير أعلام النبلاء (٢٣٢/٤)، صفة الصفوة (٣٤٦/١)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢٠٢/٢)، وفيات الأعيان (٣٧٨/٢).

وجاء رجل خياط إلى سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ فقال: إني رجل أخيط ثياب السلطان هل أنا من أعوان الظلمة؟ فقال سفيان: بل أنت من الظلمة أنفسهم، ولكن أعوان الظلمة من يبيع منك الإبرة والخيوط(١).

وقال أبو بكر الْمَرْوَذِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: لما حبسوا أحمد بن حنبل في السجن جاءه السجان، فقال: يا أبا عبد الله الحديث الذي روي في الظلمة وأعوانهم صحيح؟ قال: نعم، قال السجان: فأنا من أعوان الظلمة؟ قال له: أعوان الظلمة من يأخذ شعرك، ويغسل ثوبك، ويصلح طعامك، ويبيع ويشتري منك، فأما أنت فمن الظلمة أنفسهم(٢).

ومن الظلم: الحكم بغير ما أنزل الله جَلَّ وَعَلَا، والجور في الحكم، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].

والجَوْر هو الظلم والميل، وهو نقيض العدل. يقال: جار عليه يجور جورًا في الحكم: أي: ظَلَمَ ومال عن الحق. وجارَ المسافر عن الطريق: مال عنها وانحرف.

فالجور ضد القصد، أو الميل عنه، أو تركه في السير، وكل ما مال فقد جار. قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجور: الميل عن القصد. يقال: جارَ عن الطريق، وجارَ عليه في الحكم"(٣). نعوذ بالله من الجور، ومن الحور بعد الكور(٤).

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٢٠٢).

(٢) انظر: سير السلف، لإسماعيل بن محمد الأصبهاني (ص: ١٠٥٩)، صيد الخاطر (ص:٤٣٥).

(٣) الصحاح، مادة: (جور) (٢/ ٦١٧).

(٤) أي: من النقصان بعد الزيادة. وفي الدعاء: ((نعوذ بالله من الحور بعد الكور)) [وسيأتي] إذ ينبغي للسالك، والمريد أن يكون طالبًا للمزيد، ولذا قيل: من لم يكن في زيادة فهو في نقصان، ومن استوى يوماه فهو مغبون، والمراد زيادة العلم والعمل لا المال والجاه والأهل، كما قال، ونعم من قال: (زيادة المرء في دنياه نقصان***وربحه غير محض الخير خسران). مرقاة المفاتيح (٣/٩٣٠).

ولا شك أن الجور سبب في شيوع الفساد، ومتابعة الضلال بالنسبة لكثيرين من ضعاف النفوس؛ ولذلك فإن الجائر في الحكم إنما يحمل أوزارًا مضاعفة، فهو يحمل إثم الجور، وإثم الضلال، وإثم الإضلال.

وقد أرسل الله عَزَّوَجَلَّ رسله عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ إلى العالمين؛ لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ، وليخرجوا النَّاس من ظلمات الجهل والجور والنزاع والخلاف إلى نور الهداية والعدل، فأنزل الكتب هدى ورحمة ونورًا وشفاء وعدلًا؛ ليقوم الناس بالقسط، فيسيروا على صراط الله المستقيم، وشرعه القويم. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد:٢٥]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ﴾ [الأعراف:٢٩].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فأخبر أنه جل ذكره أرسل الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ وأنزل الكتاب والميزان؛ لأجل قيام الناس بالقسط. وذكر أنه أنزل الحديد الذي به ينصر هذا الحق، فالكتاب يهدي، والسيف ينصر، وكفى بربك هاديًا ونصيرًا؛ ولهذا كان قوام الناس بأهل الكتاب وأهل الحديد كما قال من قال من السلف: صنفان إذا صلحوا صلح الناس: الأمراء والعلماء. وقالوا في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ [النساء:٥٩] أقوالًا تجمع العلماء والأمراء؛ ولهذا نصَّ الإمام أحمد وغيره على دخول الصنفين في هذه الآية؛ إذ كل منهما تجب طاعته فيما يقوم به من طاعة الله عَزَّوَجَلَّ. وكان نواب رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حياته كعلي ومعاذ وأبي موسى وعتاب بن أسيد وعثمان بن أبي العاص وأمثالهم يجمعون الصنفين، وكذلك خلفاؤه من بعده كأبي بكر وعمر وعثمان وعلي ونوابهم"(١).

(١) مجموع الفتاوى (١٨/ ١٥٧- ١٥٨).

ووردت نصوص قرآنية وأحاديث نبوية كثيرة تأمر بالعدل وترغب فيه، وتمدح من يقوم به. والعدل يشمل العدل في الحكم والقضاء، فقد فرض على الحكام والقضاة العدل في الحكم، وعدم الجور والظلم فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء:٥٨].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥]، ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨]، ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢]، ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾ [النحل:٩٠].

وقد نهى عن الظلم، وحذَّر من عاقبته ومآله، وتوعد في آيات كثيرة الظالمين بالعذاب الشديد في الآخرة، والظلم يشمل الجور في الحكم.

وجاء في الحديث: الوعيد بالعذاب الشديد في نار جهنم للذين لا يحكمون بالحق والعدل، كما صح: عن ابن بريدة، عن أبيه، عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**القضاة ثلاثة: واحد في الجنة، واثنان في النار، فأما الذي في الجنة فرجل عرف الحق فقضى به، ورجل عرف الحق فجار في الحكم، فهو في النار، ورجل قضى للناس على جهل فهو في النار**))(١).

---

(١) أخرجه ابن ماجه [٢٣١٥]، وأبو داود [٣٥٧٣]، والترمذي [١٣٢٢]، والنسائي في (الكبرى) [٥٨٩١]، والروياني [٦٦]، والطبراني في (الكبير) [١١٥٤]، والأوسط [٣٦١٦]، والحاكم [٧٠١٢] وقال: "صحيح الإسناد". وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن الكبرى) [٢٠٣٥٤]. قال العراقي رَحِمَهُٱللَّهُ (ص:٧٨): "أخرجه أصحاب السنن من حديث بريدة وهو صحيح"، وقال الهيثمي رَحِمَهُٱللَّهُ (١٩٥/٤): "رواه الطبراني في الأوسط، ورجاله رجال الصحيح".

وفي رواية: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**القضاة ثلاثة: قاضيان في النار، وقاض في الجنة؛ قاض قضى بالهوى فهو في النار، وقاضي قضى بغير علم فهو في النار، وقاضي قضى بالحق فهو في الجنة**))(١).

وفي جاء الوعيد الشديد لمن تولى أمارة أو ائتمن على أمر من سائر أمور المسلمين ولم يكن أهلًا لذلك، فعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((**ويلٌ للأُمَرَاء، ويلٌ للعُرَفَاء، ويلٌ للأُمَنَاء، لَيَتَمَنَّيَنَّ أَقْوَامٌ يوم القيامة أنَّ ذَوَائِبَهُمْ كانت مُعَلَّقَةً بالثُّرَيَّا، يَتَذَبْذَبُونَ بين السَّمَاء والأرض، ولم يكونوا عملوا على شيء**))(٢).

وعن سعيد المَقْبُرِيِّ عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إنَّكم ستحرصون على الإمارة، وستكون ندامَةً يوم القيامة، فنعمَ المُرْضِعَة، وبئست الفَاطِمَة**))(٣).

وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**مَا مِنْ عَبْدٍ اسْتَرْعَاهُ اللَّهُ رَعِيَّةً، فَلَمْ يَحُطْهَا بِنَصِيحَةٍ، إِلَّا لَمْ يَجِدْ رَائِحَةَ الجَنَّةِ**))(٤).

وفي لفظ: ((**مَا مِنْ وَالٍ يَلِي رَعِيَّةً مِنَ المُسْلِمِينَ، فَيَمُوتُ وَهُوَ غَاشٌّ لَهُمْ، إِلَّا حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الجَنَّةَ**))(٥).

---

(١) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١٣٨٠١]، والقضاعي [٣١٧]، والديلمي [٤٦٩٥]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/١٩٣): "رواه الطبراني في (الأوسط) و(الكبير)، ورجال الكبير ثقات. ورواه أبو يعلى بنحوه".

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٦٤٦]، وأحمد [٨٦٢٧]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٥/٢٠٠): "رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [٦٢١٧]، وابن حبان [٤٤٨٣]، والحاكم [٧٠١٦] وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. كما أخرجه البيهقي [٢٠٢٢٤].

(٣) صحيح البخاري [٧١٤٨].

(٤) صحيح البخاري [٧١٥٠]، مسلم [١٤٢].

(٥) صحيح البخاري [٧١٥١]، مسلم [١٤٢].

والغش -بالكسر- ضد النصح، ويتحقق غشه بظلمه لهم، بأخذ أموالهم، وسفك دمائهم، وانتهاك أعراضهم، واحتجابه عن خلتهم وحاجتهم، وحبسه عنهم ما جعله الله عَزَّوَجَلَّ لهم من مال الله جَلَّوَعَلَا المعين للمصارف، وترك تعريفهم بما يجب عليهم من أمر دينهم ودنياهم، وإهمال الحدود وردع أهل الفساد وإضاعة الجهاد، وغير ذلك مما فيه مصالح العباد. ومن ذلك توليته لمن لا يحوطهم ولا يراقب أمر الله فيهم وتوليته من غيره أرضى لله عنه مع وجوده(١).

والنصيحة فرض على الوالي لرعيته، وقد قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**الأمير الذي على الناس راع ومسؤول عن رعيته**))(٢).

وقد جاء في الحديث: عن أبي الْمَلِيح أن عبيد الله بن زياد عاد معقل بن يسار في مرضه، فقال له معقل: إني مُحَدِّثُكَ بحديث لولا أني في الموت لم أُحَدِّثْكَ به، سمعت رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يقول: ((**ما من أمير يَلِي أمر المسلمين، ثم لا يَجْهَدُ لهم، وَيَنْصَحُ، إلا لم يدخل معهم الجنة**))(٣).

قال القاضي عياض رَحِمَهُٱللَّهُ: "ومعناه بَيِّن في التحذير من غش المسلمين لمن قلَّده الله شيئًا من أمرهم، واسترعاه عليهم، ونصبه خليفة لمصلحتهم، وجعله واسطة بينه وبينهم في تدبير أمورهم في دينهم ودنياهم. فإذا خان فيما اؤتمن عليه، ولم ينصح فيما قُلِّده واستخلف عليه، إما بتضييع لتعريفهم ما يلزمهم من دينهم وأخذهم به، والقيام بما يتعين عليه من حفظ شرائعهم، والذب عنها لكل مُتَصَدٍّ لإدخال داخِلَةٍ فيها، أو تحريف لمعانيها، أو إهمال حدودهم، أو تضييع حقوقهم، أو ترك حماية حوذتهم ومجاهدة عدوهم،

---

(١) سبل السلام (٢/٦٦٦).

(٢) صحيح البخاري [٨٩٣، ٢٤٠٩، ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١، ٥٢٠٠، ٧١٣٨]، مسلم [١٨٢٩].

(٣) صحيح مسلم [١٤٢].

أو ترك سيرة العدل فيهم فقد غشهم. وقد نبه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن ذلك من كبائر الذنوب الموبقة المباعدة عن الجنة"[(١)].

وعن أبي سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لكل غادر لواء يوم القيامة، يرفع له بقدر غدره، ألا ولا غادر أعظم غدرًا من أمير عامة**))[(٢)]، أي: من غدر صاحب الولاية العامة؛ لأن غدره يتعدى ضرره إلى خلق كثير.

وقال عمرو بن مُرَّةَ لمعاوية: إني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**ما من إمام يُغْلِقُ بابه دون ذوي الحاجة، وَالخَلَّة، والمسكنة إلا أغلق الله أبواب السماء دون خَلَّته، وحاجته، وَمَسْكَنَتِه**))، فجعل معاوية رجلًا على حوائج الناس[(٣)].

وفي رواية: عن أبي مريم الأزدي قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**من وَلَّاهُ الله عز وجل شيئًا من أمر المسلمين فاحتجب دون حاجتهم، وَخَلَّتِهِمْ وفقرهم، احتجب الله عنه دون حاجته وَخَلَّتِهِ، وفقره**))[(٤)].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**ما من أمير عَشَرَةٍ إلا يؤتى به يوم القيامة مغلولا، لا يَفُكُّهُ إلا العدل أو يُوبِقُهُ الْجَوْر**))[(٥)].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض (١/ ٢٩٥).

(٢) صحيح مسلم [١٧٣٨].

(٣) أخرجه أحمد [١٨٠٣٣]، والترمذي [١٣٣٢]، واللفظ له. وقال: "غريب، وقد روي هذا الحديث من غير هذا الوجه، وعمرو بن مرة الجهني يكنى أبا مريم". وأخرجه أيضًا: أبو يعلى [١٥٦٦]، وعند أحمد بلفظ: ((ما من إمام أو وال)). وعند أبي يعلى بلفظ: ((ما من أمير ولا وال)).

(٤) أخرجه أبو داود [٢٩٤٨]، والحارث [٦٠٩]، والطبراني [٨٣٢]، والحاكم [٧٠٢٧]، وقال: صحيح الإسناد، ووافقه الذهبي.

(٥) قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٤/١٩٢- ١٩٣): "رواه أحمد [٩٥٧٣]، ورجاله رجال الصحيح، ورواه أبو يعلى [٦٦١٤]، إلا أنه قال: ((حتى يفك عنه العدل أو يوبقه الجور)). وقوله: ((ما من أمير عشرة)) أي: فما فوقها".

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن ضيع من استرعاه الله أمرهم أو خانهم أو ظلمهم؛ فقد توجه إليه الطلب بمظالم العباد يوم القيامة فكيف يقدر على التحلل من ظلم أمة عظيمة؟ وهذا الحديث بيان وعيد شديد على أئمة الجور"(١).

وعن هشام بن عروة، عن أبيه، قال: مر هشام بن حكيم بن حزام على أناس من الأنباط بالشام، قد أقيموا في الشمس، فقال: ما شأنهم؟ قالوا: حبسوا في الجزية، فقال هشام: أشهد لسمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: **((إن الله يُعَذِّبُ الذين يُعَذِّبُونَ الناس في الدنيا))**(٢).

قال بعض الأدباء: ليس لِلْجَائِرِ جَار، ولا تَعْمُرُ له دَار. وقال بعض البلغاء: أقرب الأشياء: صَرْعَةُ الظَّلُومِ، وأَنْفَذُ السِّهَام: دعوةُ الْمَظْلُوم(٣).

وقال نبي الرحمة صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((اللهم، من وَلِيَ من أمر أمتي شيئًا فَشَقَّ عليهم، فَاشْقُقْ عليه، ومن وَلِيَ من أمر أمتي شيئًا فَرَفَقَ بهم، فَارْفُقْ به))**(٤).

وقال عمر بن الخطَّاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ويلٌ لِدَيَّانِ مَنْ في الأرض مِنْ دَيَّانِ مَنْ في السَّماء، يوْمَ يلقونه، إلَّا مَنْ أمَرَ بالعدل، وقَضَى بالحقِّ، ولم يقضِ على هوًى، ولا على قَرَابَة، ولا على رَغَبٍ ولا رَهَبٍ، وجعلَ كِتَابَ اللهِ مِرْآةً بين عَيْنَيْه(٥).

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٢١٩/٨).

(٢) صحيح مسلم [٢٦١٣]. و(الأنباط) هم فلاحو العجم.

(٣) انظر: أدب الدنيا والدين (ص:١٤٠).

(٤) صحيح مسلم [١٨٢٨].

(٥) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٢٩٦٢]، وأحمد في (الزهد) [٦٦٣]، والبيهقي [٢٠٣٥٩]، وابن عساكر (١٣١/٥٦).

ومن الظلم: المماطلة بحق الغير مع القدرة على الوفاء، وفي الحديث: ((**مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ**))(١).

ومن الظلم: أكل أموال الناس بالباطل، والتطاول على أموال اليتامى والضعفاء والبسطاء والعامة الذين لا يستطيعون حيلة لاسترداد حقوقهم، وقتل النفس المحرم قتلها ظلمًا بغير حق. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ [النساء:٢٩-٣٠].

أي: ولا يأكل بعضكم مال بعض بالباطل بالوجه الذي لم يبحه الله عَزَّوَجَلَّ ولم يشرعه. من نحو: السرقة، والخيانة، والغصب، والقمار، وعقود الربا(٢).

ومن الظلم: (المكس) -بفتح الميم وسكون الكاف بعدها مهملة-، وهو من يتولى الضرائب التي تؤخذ من الناس بغير حق. قال في (القاموس): مكس في البيع يمكس إذا جبى مالًا. والمكس: النقص والظلم، ودراهم كانت تؤخذ من بائعي السلع في الأسواق في الجاهلية، أو درهم كان يأخذه المصَدِّقُ(٣) بعد فراغه من الصدقة. انتهى(٤).

قال الخليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "المكْسُ: انتقاص الثمن في البياعة، ومنه اشتقاق المكَّاس؛ لأنه يستنقصه(٥).

---

(١) صحيح البخاري [٢٢٨٧، ٢٢٨٨، ٢٤٠٠]، مسلم [١٥٦٤].

(٢) انظر: الكشاف (٢٣٣/١)، (٥٠٢/١)، الطبري (٨/ ٢١٦).

(٣) أي: الجابي.

(٤) نيل الأوطار (١٣٢/٧)، القاموس المحيط، مادة: (مكس) (ص:٥٧٥).

(٥) العين، مادة: (مكس) (٥/ ٣١٧).

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المكس: الضريبة التي يأخذها الماكس، وهو العَشَّار[١].

والْمُمَاكَسَة مفاعلة من المكس من حَدِّ ضَرَبَ[٢]، وهو اسْتِنْقَاصُ الثَّمَن[٣].

وفي (شرح السنة): "صاحب المكس هو الذي يأخذ من التجار إذا مروا مكسًا باسم العشر، فأما الساعي الذي يأخذ الصدقة، ومن يأخذ من أهل الذمة العشر الذي صولحوا عليه فهو محتسب ما لم يتعد فيأثم بالتعدي والظلم.. انتهى"[٤].

ويطلق على الضَّريبة والجباية والرُّسوم والعشور والخراج والمغارم ونحو ذلك، وقد غلب استعمال الْمَكْس فيما يأخذه أعوان السلطان ظلمًا عند البيع والشراء[٥].

وقد قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ في المرأة الغامدية التي زنت فرجمت: ((**لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لغفر له**))[٦].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فيه أن المكس من أقبح المعاصي والذنوب الموبقات، وذلك لكثرة مطالبات الناس له، وظلاماتهم عنده، وَتَكَرُّرِ ذلك منه، وَانْتِهَاكِهِ للناس، وأخذ أموالهم بغير حقها، وصرفها في غير وجهها"[٧].

وعده الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ من الكبائر حيث قال: "والمكاس فيه شبه من قاطع الطريق، وهو شرٌّ من اللص؛ فإن من عسف الناس، وجدد عليهم ضرائب، فهو أظلم وأغشم ممن

---

(١) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (مكس) (٣٤٩/٤).

(٢) يقال: (مَكَسَ) في البيع من باب ضَرَب. ومَاكَسَ مماكَسَة ومِكَاسًا.

(٣) طلبة الطلبة (ص:١٤٥).

(٤) شرح السنة، البغوي (٦٠/١٠-٦١)، ونحوه في (معالم السنن) (٥/٣)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٢٤١٢/٦).

(٥) المصباح المنير، مادة: (مكس) (٥٧٧/٢).

(٦) صحيح مسلم [١٦٩٥].

(٧) شرح النووي على صحيح مسلم (١١/ ٢٠٣).

أنصف في مكسه، ورفق برعيته، وجابي المكس، وكاتبه، وآخذه من جندي وشيخ وصاحب زاويةٍ شركاء في الوزر، أكلون للسحت"(١).

وقال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "جباية المكوس، والدخول في شيء من توابعها كالكتابة عليها لا بقصد حفظ حقوق الناس إلى أن ترد إليهم إن تيسر، وهو داخل في قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الشورى:٤٢]. و(المكاس) بسائر أنواعه: من جابي المكس وكاتبه وشاهده ووازنه وكائله وغيرهم من أكبر أعوان الظلمة، بل هم من الظلمة بأنفسهم، فإنهم يأخذون ما لا يستحقونه، ويدفعونه لمن لا يستحقه؛ ولهذا لا يدخل صاحب مكس الجنة؛ لأن لحمه ينبت من حرام كما يأتي(٢). وأيضًا فلأنهم تقلدوا بمظالم العباد، ومن أين للمكاس يوم القيامة أن يؤدي الناس ما أخذ منهم؟ إنما يأخذون من حسناته إن كان له حسنات، وهو داخل في قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث الصحيح: ((**أتدرون ما المفلس؟**))، قالوا: المفلس فينا من لا درهم له ولا متاع، فقال: ((**إن المفلس من أمتي يأتي يوم القيامة**

---

(١) الكبائر، للذهبي (ص:٢٧٥)، بتحقيق: مشهور بن حسن.

(٢) رُوِي عن ابن إسحاق، عن يزيد بن أبي حبيب، عن عبد الرحمن بن شماسة التجيبي، عن عقبة بن عامر، قال: سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((لا يدخل الجنة صاحب مكس)) وإسناده فيه ضعف؛ لضعف محمد بن إسحاق، وهو مدلس، وقد رواه بالعنعنة. والحديث أخرجه أحمد [١٧٢٩٤]، والدارمي [١٧٠٨]، وأبو داود [٢٩٣٧]، وأبو يعلى [١٧٥٦]، وابن الجارود [٣٣٩]، وابن خزيمة [٢٣٣٣]، والطحاوي في (شرح معاني الآثار) [٣٠٦٢]، والطبراني [٨٧٨]، والحاكم [١٤٦٩] وقال: "صحيح على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٣١٧٥]. قال في (المقاصد) (ص: ٧٢٩) ونحوه في (الكشف) (٤٥٨/٢) رواه أبو داود وأحمد وغيرهما عن عقبة بن عامر مرفوعًا، وصححه ابن خزيمة والحاكم. وروي كذلك بإسناد فيه ضعف عن أبي الخير قال: عرض مسلمة بن مخلد -وكان أميرا على مصر- على رويفع بن ثابت أن يوليه العشور، فقال: إني سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((إن صاحب المكس في النار)). أخرجه أحمد [١٧٠٠١]، والطبراني [٤٤٩٣]. قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٨٨/٣): "رواه أحمد، والطبراني في الكبير بنحوه، إلا أنه قال: ((صاحب المكس في النار)) - يعني: العاشر. وفيه ابن لهيعة، وفيه كلام".

بصلاة، وصيام، وزكاة، ويأتي قد شتم هذا، وقذف هذا، وأكل مال هذا، وسفك دم هذا، وضرب هذا، فَيُعْطَى هذا من حسناته، وهذا من حسناته، فإن فنيت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أُخِذَ من خطاياهم فَطُرِحَتْ عليه، ثم طُرِحَ في النار))(١).

"وقد ذكر الفقهاء وأهل اللّغة صورًا كثيرة للمكس:

منها: ما كان يفعله أهل الجاهليَّة، وهي دراهم كانت تؤخذ من البائع في الأسواق.

ومنها: دراهم كان يأخذها عامل الزَّكاة لنفسه، بعد أن يأخذ الزَّكاة.

ومن ذلك: دراهم كانت تُؤخذ من التُّجَّار إذا مرُّوا، وكانوا يقدِّرونها على الأحمال أو الرُّؤوس أو نحو ذلك.

ومن ذلك: ما يأخذه الولاة باسم العشر، ويتأوَّلون فيه معنى الزَّكاة والصَّدقات.

ومنها: الضَّرائب الَّتي تؤخذ من التُّجَّار أو من عامَّة النَّاس بغير حقٍّ.

ومنها: الرّشوة الَّتي تُؤخذ في الحكم والشَّهادات والشَّفاعات وغيرها باسم الهديَّة.

وهذه الصُّور كلُّها تدخل في المكس المحرَّم؛ لما في ذلك من أكل أموال النَّاس بالباطل"(٢).

والحاصل: أن المكس من كبائر الذنوب، والماكس هو الذي يأخذ أموال الناس ظلمًا، وهو من التسيب، وسوء استخدام للمال العام.

وقد كتب عمر بن عبد العزيز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى عبد الله بن عون القاري أن اركب إلى البيت الذي يقال له: (بيت المكس) فاهدمه، ثم احمله إلى البحر فانسفه فيه نسفًا. قال أبو عبيد: وقد رأيته بين مصر والرملة(٣).

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/٢٩٨- ٢٩٩)، والحديث في (صحيح مسلم) [٢٥٨١] -وقد تقدم-.

(٢) رفع اللبس عن حكم المكس، مقالة للأستاذ الدكتور عبد المجيد جمعة.

(٣) انظر: كتاب الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص:٦٣٢)، المعرفة والتاريخ (١/٦٠٧)، أحكام أهل الذمة، لابن قيم الجوزية (١/٣٣١-٣٣٢)، مطالب أولي النهى (٢/٦١٩).

وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلى عدي بن أرطاة أن ضع عن الناس الفدية، وضع عن الناس المائدة، وضع عن الناس المكس، وليس بالمكس، ولكنه البخس الذي قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود:٨٥]، فمن جاءك بصدقة فاقبلها منه، ومن لم يأتك بها فالله حسيبه(١).

ومن الظلم: أن يستأجر أجيرًا في عمل ولا يعطيه أجرته؛ لما جاء في الصحيح عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**قال الله تعالى: ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة، رجل أعطى بي ثم غدر، ورجل باع حرا فأكل ثمنه، ورجل استأجر أجيرًا فاستوفى منه ولم يعطه أجره**))(٢).

فمن أعظم الظلم: ظلم الأجراء والمستخدمين ببخسهم حقوقهم، أو تأخير أجرهم، أو إهانتهم بقول أو فعل.

وفي الحديث: ((**لَيُّ الوَاجِدِ يُحِلُّ عُقُوبَتَهُ وعِرْضَه**)) قال سفيان رَحِمَهُ ٱللَّهُ: عرضه يقول: مطلتني وعقوبته الحبس(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(اللَّيُّ): بفتح اللام وتشديد الياء وهو المطل. و(الواجد) بالجيم: الْمُوسِر. قال العلماء: يُحِلُّ عِرْضَهُ بأن يقول ظلمني ومطلني، وعقوبته: الحبس والتعزير"(٤).

(١) كتاب الأموال، لأبي عبيد القاسم بن سلام (ص:٦٣٢)، أحكام أهل الذمة، لابن قيم الجوزية (٣٣١/١).

(٢) صحيح البخاري [٢٢٢٧، ٢٢٧٠].

(٣) أخرجه ابن أبي شيبة [٩١٢]، وأحمد [١٧٩٤٦]، والبخاري مُعلقًا (١١٨/٣)، وابن ماجه [٢٤٢٧]، وأبو داود [٣٦٢٨]، والنسائي [٤٦٨٩]، وابن حبان [٥٠٨٩]، والطبراني [٧٢٤٩]، والحاكم [٧٠٦٥] وقال: صحيح الإسناد. ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١١٢٧٩].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٢٢٧/١٠).

ومن الظلم: ظلم المعاهَد أو انتقاصه، أو تكليفه فوق طاقته كما جاء في الحديث: ((**ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفس، فأنا حجيجه يوم القيامة**))(١).

ومن أعظم الظلم كذلك ما جاء مبينًا في الآيات، فمن ذلك: الصد عن بيوت الله عَزَّوَجَلَّ، وكتمان الشهادة عند طلبها والحاجة إليها، وقول الزور، وافتراء الكذب على الله عَزَّوَجَلَّ، والإعراض عن آياته:

إن من أعظم الظالمين جرمًا: من يصدُّ عن بيوت الله عَزَّوَجَلَّ، ويمنع ذكر الله جَلَّوَعَلَا، ودروس العلم النافع، وإقامة الصلوات، وغيرها من الطاعات. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [البقرة:١١٤]، أي: لا أحد أظلم وأشد جرمًا ممن منع مساجد الله جَلَّوَعَلَا عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ فيها، وإقامة الصلاة وغيرها من الطاعات.

﴿وَسَعَى﴾ أي: اجتهد وبذل وسعه. ﴿فِي خَرَابِهَا﴾ الحسي والمعنوي، فالخراب الحسي: هدمها وتخريبها، وتقذيرها، والخراب المعنوي: منع الذاكرين لاسم الله فيها، وهذا عام، لكل من اتصف بهذه الصفة(٢).

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة:١٤٠].

---

(١) أخرجه أبو داود [٣٠٥٢] وإسناده لا بأس به. انظر: اللآلئ المنثورة في الأحاديث المشهورة، للزركشي (ص:٣٣)، المقاصد الحسنة، للسخاوي (ص:٦١٦). وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٨٧٣١]. وزاد: ((ألا ومن قتل معاهدًا له ذمة الله وذمة رسوله حرم الله عليه ريح الجنة، وإن ريحها لتوجد من مسيرة سبعين خريفا)).

(٢) تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:٦٣).

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ [الأنعام:٢١].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ وَمَنْ قَالَ سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمُ الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنْتُمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ وَكُنْتُمْ عَنْ آيَاتِهِ تَسْتَكْبِرُونَ﴾ [الأنعام:٩٣].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أُولَئِكَ يُعْرَضُونَ عَلَى رَبِّهِمْ وَيَقُولُ الْأَشْهَادُ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى رَبِّهِمْ أَلَا لَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [هود:١٨].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [الكهف:٥٧].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ [العنكبوت:٦٨].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ [السجدة:٢٢].

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الصف:٧].

ومن الظلم: موالاة من استحب الكفر على الإيمان. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة:٢٣].

ومن الظلم: الإصرار على المعاصي. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الحجرات:١١].

ومن أعظم الظلم: مؤاخذة غير الجاني، والاقتصاصِ من غير الباغي، يقول الله عَزَّوَجَلَّ في قصة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ أَنْ نَأْخُذَ إِلَّا مَنْ وَجَدْنَا مَتَاعَنَا عِنْدَهُ إِنَّا إِذًا لَظَالِمُونَ﴾ [يوسف:٧٩]، أي: هذا ظلم منا، لو أخذنا البريء بذنب المسيء.

ودرجات الظلم متفاوتة، والجزاء من جنس العمل، ومن ظلم ظُلم، ومن أساء ندم.

والظلم محرَّمٌ -ولو كان شيئًا يسيرًا- كما جاء في الحديث: عن أبي أمامة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من اقتطع حق امرئ مسلم بيمينه، فقد أوجب الله له النار، وحرم عليه الجنة**)) فقال له رجل: وإن كان شيئًا يسيرًا يا رسول الله؟ قال: ((**وإن قضيبا من أراك**))[١]. وفي رواية: قالها ثلاث مرات[٢]. قال الشيخ الزرقاني رَحِمَهُ اللَّهُ: "قالها ثلاث مرات: زيادة في التنفير؛ لئلا يتهاون بالشيء اليسير، ولا فرق بين قليل الحق وكثيره في التحريم، أما في الإثم فالظاهر أنه ليس من اقتطع القناطير المقنطرة من الذهب والفضة كمن اقتطع الدرهم والدرهمين، وهذا خرج مخرج المبالغة في المنع وتعظيم الأمر وتهويله، بدليل تأكيد تحريم الجنة وإيجاب النار، وأحدهما يستلزم الآخر، والحال يقتضي هذا التأكيد؛ لأن فاعل ذلك أبلغ في الاعتداء الغاية حيث اقتطع حق امرئ لم يكن له فيه سبيل، واستخف بحرمة واجبة الرعاية وهي حرمة الإسلام، وأقدم على اليمين الفاجرة"[٣].

وفي الحديث: ((**من حلف على يمين يقتطع بها مال امرئ مسلم، هو عليها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان**))، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران:٧٧]. قال: فدخل الأشعث بن قيس، وقال: ما يحدثكم أبو عبد الرحمن؟ قلنا: كذا وكذا، قال: فِيَّ أنزلت كانت لي بئر في أرض

---

(١) صحيح مسلم [١٣٧].

(٢) انظر: السنن المأثورة للشافعي، للمزني [٥٤٥]، مسند الإمام أحمد [٥٧]، شرح مشكل الآثار [٤٤٨].

(٣) شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٢٥/٤).

ابن عم لي، قال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**بينتك أو يمينه**)) فقلت: إذًا يحلف يا رسول الله، فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**من حلف على يمين صَبْرٍ، يقتطع بها مال امرئ مسلم، وهو فيها فاجر، لقي الله وهو عليه غضبان**))(1). وقد تقدم بيانه.

وفي الرواية الأخرى: جاء رجل من حضرموت ورجل من كندة إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال الحضرمي: يا رسول الله، إن هذا قد غلبني على أرض لي كانت لأبي، فقال الْكِنْدِيُّ: هي أرضي في يدي أزرعها ليس له فيها حق، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للحضرمي: ((**ألك بينة؟**)) قال: لا، قال: ((**فلك يمينه**))، قال: يا رسول الله، إن الرجل فاجر لا يبالي على ما حلف عليه، وليس يتورع من شيء، فقال: ((**ليس لك منه إلا ذلك**))، فانطلق ليحلف، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لما أدبر: ((**أما لئن حلف على ماله لِيَأْكُلَهُ ظلمًا، لَيَلْقَيَنَّ الله وهو عنه مُعْرِض**))(2).

ومن أعظم الظلم: أخذ شيء من الأرض بغير حق كما جاء في الحديث: عن سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**من ظلم من الأرض شيئًا طُوِّقَهُ من سبع أرضين**))(3).

وفي رواية: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا يأخذ أحد شبرًا من الأرض بغير حقه، إلا طوقه الله إلى سبع أرضين يوم القيامة**))(4).

---

(1) صحيح البخاري [٢٣٥٦، ٤٥٤٩، ٦٦٥٩، ٦٦٧٦]، مسلم [١٣٨].

(2) صحيح مسلم [١٣٩].

(3) صحيح البخاري [٢٤٥٢]، مسلم [١٦١٠].

(4) صحيح مسلم [١٦١١].

وعن محمد بن إبراهيم، أن أبا سلمة، حدثه، وكان بينه وبين قومه خصومة في أرض، وأنه دخل على عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا فذكر ذلك لها، فقالت: يا أبا سلمة: اجتنب الأرض؛ فإن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((من ظلم قيد شبر من الأرض، طوقه من سبع أرضين))**(١).

ولا يقف الظلم في الإسلام على ظلم المرء لنفسه وإخوانه من أبناء جنسه، ولكنه يشمل المخلوقات الأخرى.

فكما يحرم على كل مكلف أن يظلم غيره من أبناء جنسه، فكذلك يحرم عليه إيذاء الحيوان وتعذيبه والقسوة عليه، وهو من أسباب ولوج النار في الآخرة كما جاء في الحديث عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض))**(٢).

ومن أعظم الظلم المتوعد عليه بالعذاب في الآخرة: المصور المضاهي بتصويره ما صوره ربه عَزَّ وَجَلَّ في خلقه كما جاء في الحديث: عن أبي زرعة، قال: دخلت مع أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في دار مروان فرأى فيها تصاوير، فقال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: قال الله عَزَّ وَجَلَّ: **((ومن أظلم ممن ذهب يخلق خلقًا كخلقي؟ فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة أو ليخلقوا شعيرة))**(٣). قال الذهبي رَحِمَهُ اللَّهُ: "والظلم على ثلاثة أقسام: **أحدها**: أكل المال بالباطل. **وثانيها**: ظلم العباد بالقتل، والضرب، والكسر، والجراح. **وثالثها**: ظلم العباد بالشتم واللعن والسب والقذف"(٤). وسيأتي تفصيل لكثير من صور الظلم المتوعد عليها بالنار.

---

(١) صحيح البخاري [٢٤٥٣، ٣١٩٥]، مسلم [١٦١٢].

(٢) صحيح البخاري [٢٣٦٥، ٣٣١٨، ٣٤٨٢]، مسلم [٢٢٤٢].

(٣) صحيح البخاري [٥٩٥٣، ٧٥٥٩]، مسلم [٢١١١].

(٤) الكبائر، للذهبي، بتحقيق: مشهور بن حسن (ص:٢١١).

ثانيًا: الوقاية من آفات الظلم والعلاج:

والعلم بأسباب الوقاية قد يردع الظالم عن التمادي في ظلمه، ويصبر المظلوم ويواسيه، فمن أسباب الوقاية:

١ - رسوخ العقيدة والإيمان بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره في نفس المظلوم:

إن المؤمن مهما تفاقم الشر، وتعاظم الضرر فإنه يعلم أن ما قضى الله كائن، وما لم يشأ لم يكن، ولا يحكم به يحِق، لا رافع لما وضع، ولا واضع لما رفع، ولا معطي لما منع، ولا مضل لمن هدى، فلا جزع ولا هلع، وإنما صبر وشكر، وما عند الله تعالى خير وأبقى.

ورُبَّ محْنَةٍ أورثت مِنْحَةً، وربَّ نورٍ يَشِعُّ من كَبِد الظَّلام؛ فإنَّ النصر مع الصبرِ، وإنَّ الفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسرًا، فما بعد دياجير الظلام إلَّا فلقُ الصبح المشرق.

وصيانة الإيمان تسهم في استئصال آفات اليأس والقنوط التي قد تصيب المظلوم بسبب ما يقع عليه من الظلم، ونورَ الإيمان يدفعُ عن المسلمِ ما ينتابُه من صنوفِ الوحشة، وما ينالُه من النوازل. وهو قائمٌ على ركائزَ من الثقةِ بالله عَزَّوَجَلَّ، والتوكلِ عليه. ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ﴾ [الطلاق:٢-٣].

والظلم لا يدوم ولا يطول، بل سيضمحل ويزول، ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَىَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ﴾ [الشعراء:٢٢٧]. و((**إن الله لَيُمْلِي للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته**))[١].

قال أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الذنوب منها ما يعجل الله تعالى عقوبته، ومنها ما يمهل بها إلى الآخرة، والسكوت على المنكر تتعجل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات وركوب الذل من الظلمة للخلق"[٢].

---

(١) تقدم.

(٢) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (١٥/٩).

٢ - العلم بحقيقة الدنيا.

٣ - الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ، والصبر على ما يصب المظلوم من الشدة والبلاء:

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ نبيه الأكرم صَلَّىٰللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بالصبر واحتمال الأذى؛ حتى ينصر الله عَزَّوَجَلَّ عباده المؤمنين كما وعدهم، ويهلك الطغاة والظالمين.

وفي ذلك تعليم للعباد على الصبر واحتمال الإيذاء؛ فإن من سنن الله عَزَّوَجَلَّ في عباده الابتلاء؛ ليتحقق في المسلم معنى التكليف المتفرع عن عبوديته لله عَزَّوَجَلَّ. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَى إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾ [يونس:١٠٩].

قال الزمخشري رَحِمَهُٱللَّهُ: "واصْبِرْ على دعوتهم واحتمال أذاهم وإعراضهم حَتَّى يَحْكُمَ اللَّهُ لك بالنصرة عليهم والغلبة. وسيأتي حديث: ((**إنكم ستجدون بعدي أثرة، فاصبروا حتى تلقوني**))، يعني: أني أُمرت في هذه الآية بالصبر على ما سامتني الكفرة فصبرت فاصبروا أنتم على ما يسومكم الأمراء الجورة"(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الروم:٤٧].

وقد جاء في الحديث: عن أنس بن مالك، عن أسيد بن حضير أن رجلًا من الأنصار قال: يا رسول الله، ألا تستعملني كما استعملت فلانًا؟ قال: ((**ستلقون بعدي أثرة**(٢)**، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض**))(٣).

---

(١) الكشاف (٢/ ٣٧٥)، بتصرف يسير، وانظر: البحر المحيط في التفسير (٦/١١٤).

(٢) قال العلامة القاري رَحِمَهُٱللَّهُ في (المرقاة): ((أثرة)) بفتح الهمزة والمثلثة في جميع النسخ الموجودة. وفي (القاموس): ((أثرة)) بضم الهمزة وسكون الثاء وبفتحهما أيضًا. وفي (شرح مسلم للنووي): (الأثرة): بفتح الهمزة والثاء، ويقال: بضم الهمزة وإسكان الثاء، وبكسر الهمزة وإسكان الثاء، ثلاث لغات. مرقاة المفاتيح (٦/٢٣٩٧).

(٣) صحيح البخاري [٣٧٩٢]، مسلم [١٨٤٥].

وفي رواية: عن عبد الله رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، قال: قال لنا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إنكم سترون بعدي أثرة وأمورًا تنكرونها**))، قالوا: فما تأمرنا يا رسول الله؟ قال: ((**أدوا إليهم حقهم، وسلوا الله حقكم**))[١].

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من رأى من أميره شيئًا يكرهه فليصبر عليه فإنه من فارق الجماعة شبرًا فمات، إلا مات ميتة جاهلية**))[٢].

وعن جنادة بن أبي أمية، قال: دخلنا على عبادة بن الصامت رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ وهو مريض، فقلنا: حدثنا أصلحك الله، بحديث ينفع الله به سمعته من رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقال: دعانا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فبايعناه، فكان فيما أَخَذَ علينا: ((**أن بَايَعَنَا على السمع والطاعة في مَنْشَطِنَا ومَكْرَهِنَا، وعُسْرِنَا وَيُسْرِنَا، وأَثَرَةٍ علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله**))، قال: ((**إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان**))[٣].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "في هذه الأحاديث حجة في ترك الخروج على أئمة الجور، ولزوم السمع والطاعة لهم. والفقهاء مجمعون على أن الإمام المتغلِّب طاعته لازمة، ما أقام الجمعات والجهاد، وأن طاعته خير من الخروج عليه؛ لما في ذلك من حقن الدماء وتسكين الدهماء، ألا ترى قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لأصحابه: ((**سترون بعدى أثرةً وأمورًا تنكروها**)) فوصف أنهم سيكون عليهم أمراء يأخذون منهم الحقوق، ويستأثرون بها، ويؤثرون بها من لا تجب له الأثرة، ولا يعدلون فيها، وأمرهم بالصبر عليهم، والتزام طاعتهم على ما فيهم من الجور"[٤].

(١) صحيح البخاري [٧٠٥٢].

(٢) صحيح البخاري [٧٠٥٣، ٧٠٥٤، ٧١٤٣]، مسلم [١٨٤٩].

(٣) صحيح البخاري [٧٠٥٥، ٧٠٥٦]، مسلم [١٧٠٩].

(٤) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١٠/٧-٨).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفيه: الحث على السمع والطاعة، وإن كان المتولي ظالما عسوفًا فيعطى حقه من الطاعة، ولا يخرج عليه، ولا يخلع، بل يتضرع إلى الله تعالى في كشف أذاه، ودفع شره وإصلاحه. والمراد بالأثرة: استئثار الأمراء بأموال بيت المال"(١).

وقال العلامة السندي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني أن الأمراء يفضلون عليكم غيركم في العطايا والولايات والحقوق"(٢).

وقد أوصى الرسل عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أقوامهم بالصبر على أئمة الجور كما أخبر الحق سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن موسى عَلَيۡهِ ٱلسَّلَامُ في قوله: ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ ﴿١٢٧﴾ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾ [الأعراف:١٢٧-١٢٨]، يعني: أن النصر والظفر للمتقين على عدوهم بالصبر، والاستعانة بالله عَزَّ وَجَلَّ.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَمَا كَانُوا يَعْرِشُونَ﴾ [الأعراف:١٣٧].

وبين الله عَزَّ وَجَلَّ في كتابه الكريم في آيات كثيرة أنه أوحى إلى رسله عَلَيۡهِمُ ٱلسَّلَامُ أن العاقبة والنصر لهم على أعدائهم، وأنه يسكنهم الأرض بعد إهلاك أعدائهم.

قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ [إبراهيم:١٣-١٤].

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢/ ٢٣٢).

(٢) حاشية السندي على سنن ابن ماجه (٢/٢٠٣).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾[الصافات:١٧١-١٧٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة:٢١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾ [غافر:٥١].. إلى غير ذلك من الآيات.

٤ – حسن ظنِّ المظلوم بالله عَزَّوَجَلَّ.

٥ – أن ينظر المظلوم إلى ما أعده الله جَلَّوَعَلَا لعباده الصابرين من الأجر الجزيل، والثواب العظيم في الآخرة.

٦ – أن يدرك المظلوم أن الجزع لا يرفع البلاء.

٧ – أن تكون العلاقات بين البشر مؤسسة على المحبة والمودة والأخوة، وتسود فيها معاني الفضيلة والرحمة، وذلك لا يكون إلا بالعقيدة السليمة، والتربية الصحيحة، والتشريعات القويمة.

٨ – التحرر من الصفات المذمومة كالطمع، والجشع، وحظوظ النفس، والتنافس على حطام الدنيا.

٩ – مكافحة الجريمة من خلال التبصير والتنوير، وتطبيق الحدود الرادعة، وتحقيق العدالة الاجتماعية بين الرعية، ومكافحة العنصرية والطائفية:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾ وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [البقرة: ١٧٨-١٧٩].

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلَا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:١٩٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة:٣٣-٣٤].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالًا مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [المائدة:٣٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].. إلى غير ذلك من الآيات.

وفي الحديث: ((**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**))[١].

والظلم لا يدفع بالظلم، وإنما بتحقيق العدل، وأخذ الظالم بظلمه.

وقد أرسل الله عَزَّوَجَلَّ الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ للناس؛ ليرفعوا عن الناس الظلم[٢]، وليخرجوا الناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ظلمات الجهل والضلال إلى نور العلم والهداية، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام.

فلا بد أن يكون الناس سواسية في الخضوع لسلطة القانون من غير تمييز، كما جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن قريشًا أهمهم شأن المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: ومن يكلم فيها رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حِبُّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فكلمه أسامة، فقال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أتشفع في حد**

---

(١) تقدم.

(٢) قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى أَنِ ائْتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠﴾ قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ﴿١١﴾﴾ [الشعراء:١٠-١١].

من حدود الله؟ ثم قام فاختطب، ثم قال: إنما أهلك الذين قبلكم، أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها))(1).

فلا بدَّ من العدل والصدق في سائر الحدود والأحكام والمعاملات من غير تمييز، ولا محاباة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢].

العدل: وضع الأمور في مواضعها، وإعطاء كل ذي حق حقه، والقسط: العدل، وبه قوام الدنيا والدين، وسبب صلاح العباد والبلاد.

١٠ - أن يستشعر الراعي المسؤولية المنوطة به. جاء في الحديث: ((**كلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته، فالأمير الذي على الناس راع، وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته، وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وولده، وهي مسئولة عنهم، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه، ألا فكلكم راع، وكلكم مسئول عن رعيته))**(2).

---

(١) صحيح البخاري [٣٤٧٥، ٦٧٨٧، ٦٧٨٨]، مسلم [١٦٨٨].

(٢) صحيح البخاري [٨٩٣، ٢٤٠٩، ٢٥٥٤، ٢٥٥٨، ٢٧٥١، ٥١٨٨، ٥٢٠٠، ٧١٣٨]، صحيح مسلم [١٨٢٩].

١١ - الإنكار على الظالم:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً﴾ [الأنفال:٢٥].

((**من رأى منكم منكرا فَلْيُغَيِّرْه بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان**))(١). وقد تقدم حديث: ((**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**)).

١٢ - المطالعة الدَّائمة لسيرة النَّبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيرة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، والسَّلف الصَّالح، وما كانوا عليه من الزُّهد والورع والتَّقوى والعدل بين الرعية في القضاء والحكم.

١٣ - القضاء المناهج الإلحادية، والإمدادات السرطانية للمذاهب المضلة التي تعمل على التشكيك في الأصول والثوابت.

١٤ - أن تكون التشريعات قائمة على حفظ كرامة الإنسان وحقوقه ومكتسباته.

١٥ - الدعاء على الظالم:

إن الدعاء أعظم وأمضى سلاح يملكه المظلوم، ولو يعلم الظالم قوة وأثر هذا السلاح ما تجرأ على الظلم، وقد جاء في الحديث: عن معاذ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: بعثني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قال: ((**إنك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة، فإن هم أطاعوا لذلك، فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد في فقرائهم، فإن هم أطاعوا لذلك فإياك وكرائم أموالهم، واتق دعوة المظلوم، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**))(٢).

---

(١) صحيح مسلم [٤٩].

(٢) صحيح البخاري [١٤٩٦، ٢٤٤٨، ٤٣٤٧]، صحيح مسلم [١٩].

وعن زيد بن أسلم، عن أبيه، أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ استعمل مولى له يدعى هُنَيًّا على الحِمَى، فقال: ((**يا هُنَيُّ اضْمُمْ جناحك عن المسلمين، واتق دعوة المظلوم، فإن دعوة المظلوم مستجابة..**)) الحديث(١).

وفي رواية: ((**اتقوا دعوة المظلوم؛ فإنها تحمل على الغمام، يقول الله جل جلاله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**))(٢).

ودل الحديث على أن الله جَلَّ وَعَلَا يمهل الظالم ولا يهمله. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف:٥٨]. ووقوع العفو عن بعض أفراد الظلمة يكون مع تعويض المظلوم فهو نصر أيضًا: وفيه تحذير شديد من الظلم، وأن مراتعه وخيمة، ومصائبه عظيمة(٣).

وفي رواية: ((**اتقوا دعوة المظلوم؛ فإنها تصعد إلى السماء كأنها شرَار**))(٤).

وقوله: ((**كأنها شرار**)): كناية عن سرعة الوصول؛ لأنه مضطر في دعائه، وقد قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل:٦٢]. وكلما قوي الظلم قوي تأثيره في النفس،

---

(١) صحيح البخاري [٣٠٥٩]. و(الحِمَى): موضع يعينه الحاكم ويخصصه لرعي مواشي الزكاة وغيرها مما يرجع ملكه إلى بيت مال المسلمين، ويمنع عامة الناس من الرعي فيه.

(٢) أخرجه الدولابي في (الكنى والأسماء) [١٨٢٩]، والخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٥٩٨]، والدينوري في (المجالسة) [٣١٧٣]، والطبراني [٣٧١٨]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٥٢/١٠): "فيه من لم أعرفه". لكن قال المنذري رَحِمَهُ اللَّهُ (١٣٠/٣): "لا بأس بإسناده في المتابعات". وأخرجه أيضًا: القضاعي [٧٣٣]. وللحديث أطراف أخرى.

(٣) فيض القدير (١٤١/١).

(٤) أخرجه الحاكم [٨١]، وقال: "رواة هذا الحديث متفق على الاحتجاج بهم". ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: الديلمي [٣٠٧].

فاشتدت ضراعة المظلوم، فقويت استجابته. والشرر: ما تطاير من النار في الهواء. شبه سرعة صعودها بسرعة طيران الشرر من النار(١).

وفي رواية: ((**دعوة المظلوم مستجابة، وإن كانت من فاجر ففجوره على نفسه**))(٢).

١٦ - الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من الظلم:

كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من الظلم كما جاء في أكثر من حديث، منها قوله عَزَّوَجَلَّ: ((**اللهم إني أعوذ بك من الفقر، والقلة، والذلة، وأعوذ بك من أن أظلم، أو أظلم**))(٣).

قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن سلم من ظلم غيره وسلم الناس من ظلمه فقد عوفي، وعوفي الناس منه. وكان بعض السلف يدعو: اللهم سلمني وسلم مني"(٤).

وعن أم سلمة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان إذا خرج من بيته قال: ((**بسم الله تَوَكَّلْتُ على الله، اللهم إنِّي أعوذ بك أن أَضِلَّ أو أُضَلَّ، أو أزِلَّ، أو أُزَلَّ، أو أظْلِمَ أو أُظْلَمَ، أو أجْهَلَ أو يُجْهَلَ عليَّ**))(٥).

---

(١) فيض القدير (١/١٤٢).

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٤٥٠]، وابن أبي شيبة [٢٩٣٧٤]، وأحمد [٨٧٩٥]، قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠/١٥١): "إسناده حسن". وأخرجه أيضًا: الخرائطي في (مساوئ الأخلاق) [٥٨٨]، والطبراني في (الدعاء) [١٣١٨]، والشهاب القضاعي [٣١٥]. والحديث في سنده: أبو معشر، وهو ضعيف؛ لسوء حفظه، لكن حديثه يصلح للمتابعة، وهذا منه؛ ولذا حسنه الهيثمي، وابن حجر في (الفتح) (٣/٣٦٠).

(٣) أخرجه أحمد [٨٠٥٣]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٧٨]، وابن ماجه [٣٨٤٢]، وأبو داود [١٥٤٤]، والبزار [٨٢١٦]، والنسائي [٥٤٦٠]، وابن حبان [١٠٣٠]، والحاكم [١٩٨٣]، وقال: "صحيح الإسناد على شرط مسلم". وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٣١٥٠].

(٤) شرح حديث لبيك اللهم لبيك (ص:١٠٢).

(٥) أخرجه الطيالسي [١٧١٢]، وأحمد [٢٦٦١٦]، وابن ماجه [٣٨٨٤]، والترمذي [٣٤٢٧]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: النسائي [٥٤٨٦]، والحاكم [١٩٠٧]، والبيهقي [١٠٣٠٩] وأخرجه غير=

والخروج من البيت مظنة الظلم بسبب الاختلاط بالناس على اختلاف مشاربهم، وتعدد أهوائهم؛ فلذلك استحب للمسلم أن يستعيذ بالله عَزَّوَجَلَّ من أن يظلم أو يقع عليه ظلم. قال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إن الإنسان إذا خرج من منزله لا بد أن يعاشر الناس، ويزاول الأمور، فيخاف أن يعدل عن الصراط المستقيم، فإما أن يكون في أمر الدين، فلا يخلو من يَضل أو يُضل، وإما يكون في أمر الدنيا، فإما بسبب جريان المعاملة معهم بأن يظلم أو يُظلم، وإما بسبب الاختلاط والمصاحبة، فإما أن يجهل أو يُجهل عليه، فاستعيذ من هذه الأحول كلها بلفظ سلس موجز، وروعي المطابقة المعنوية، والمشاكلة اللفظية"(١). وعن عبد الله بن سَرْجِسَ، قال: ((**كان رسول الله** صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **إذا سافر يَتَعَوَّذُ من وعثاء السفر، وكآبة المنقلب، والحور بعد الكور**(٢)**، ودعوة المظلوم، وسوء المنظر في الأهل والمال**))(٣). والأحاديث في الاستعاذة بالله عَزَّوَجَلَّ من الظلم كثيرة.

ومن خير الدعاء: أن يسأل العبدُ ربَّه عَزَّوَجَلَّ أن يجنبه الظلمَ وأسبابه، وأن يكونَ في عداد الظالمين. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٨٥﴾ وَنَجِّنَا بِرَحْمَتِكَ مِنَ الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [يونس:٨٥-٨٦]. ﴿رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [المؤمنون:٩٤].

١٧ - تحقيق الأمان في المجتمع بين الرعية بحيث يأمن الإنسان على نفسه وماله وعرضه.

=واحد. قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حديث صحيح، رواه أبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه. قال الترمذي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حديث صحيح". وفي رواية الترمذي: ((إنا نعوذ بك من أن نزل، أو نضل، أو نظلم، أو نظلم، أو نجهل، أو يجهل علينا)) بلفظ الجمع". الأذكار (ص:٢٢-٢٣).

(١) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) (١٩٠٤/٦)، وانظر: مرقاة المفاتيح (١٦٩٤/٤)، فيض القدير (٥/ ١٢٣).

(٢) تقدم بيانه.

(٣) صحيح مسلم [١٣٤٣].

١٨ - تحقيق التَّكافل بين النَّاس، فيأخذ غنيهم بيد فقيرهم، وقويهم بيد ضعيفهم، ويصبح الجميع إخوة متحابين.

١٩ - مكافحة البطالة؛ لأن العمل يشغل الإنسان، ويسد حاجته، ويعالج أمراضًا يسببها الفراغ، منها التطلع إلى ما عند الآخرين، وربما يؤول ذلك إلى الحسد، والسعي إلى إزالة النعمة عن البعض.

٢٠ - المسارعة الى الأعمال الصالحة، ولا سيما في زمان انتشار الظلم والفساد، وغلبة الهوى على النفوس والطباع؛ فإن الثبات على الحق في مثل ذلك الوقت أفضل وأعظم.

٢١ — الحلم، والصبر، وكظم الغيظ، واستحضار ما جاء في ذلك من الفضل.

٢٢ - أن يحذر المكلف أسباب الظلم.

٢٣ — أن يملك الإنسان نفسه عند الغضب، ويجتنب أسباب الغضب.

٢٤ - التبصير بآثار الظلم، وعواقبه المهلكة.

٢٥ - نصرة المظلوم:

ونصرة المسلم أمر مطلوب، وهو من الإيمان؛ لأن الأخوة في الله عَزَّوَجَلَّ ركيزة من ركائز هذا الدين، ورابطة وثيقة تسمو على سائر العلاقات التي تربط بين الناس؛ لأنها مبنية على العقيدة، وهي أوثق الروابط وأقواها. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إنما الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات:١٠].

والإخوة في الدين رابطة متينة توجب على المرء السعي في خير أخيه من خلال النصح والإرشاد والتعاون على البر والتقوى والعمل الصالح، وتحذيره من الظلم والبغي والشر، ومنعه من ذلك إن سلك طريقه، أو سعى إليه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾ [الحجرات:٩-١٠].

وفي الحديث: ((**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرج عن مسلم كربة، فرج الله عنه كربة من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلما ستره الله يوم القيامة**))(١).

فقوله: ((**ولا يسلمه**)) أي: لا يتركه مع من يؤذيه، ولا فيما يؤذيه، بل ينصره ويدفع عنه(٢).

وفي رواية: ((**لا تحاسدوا، ولا تناجشوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، ولا يبع بعضكم على بيع بعض، وكونوا عباد الله إخوانًا**(٣)**، المسلم أخو المسلم، لا يظلمه ولا يخذله، ولا يحقره التقوى هاهنا**))، ويشير إلى صدره ثلاث مرات، ((**بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام، دمه، وماله، وعرضه**))(٤).

وفي رواية: ((**المسلم أخو المسلم، لا يخونه ولا يكذبه ولا يخذله، كل المسلم على المسلم حرام، عرضه وماله ودمه**))(٥).

---

(١) صحيح البخاري [٢٤٤٢]، ومسلم [٥٨].

(٢) انظر: فتح الباري، لابن حجر (٥/ ٩٧).

(٣) قال أبو العباس القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ في (شرحه لصحيح مسلم): "أي: كونوا كإخوان النسب في الشفقة والمحبة والرحمة والمواساة والمعاونة والنصيحة" المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٥٣٢/٦)، وانظر: طرح التثريب، للعراقي (٩٧/٨)، فتح الباري، لابن حجر (٤٨٣/١٠).

(٤) صحيح مسلم [٢٥٦٤].

(٥) أخرجه الترمذي [١٩٢٧]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: البزار [٨٨٩١].

وقد جاء في غير موضع الأمر بنصرة المظلوم، كما في حديث: البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: أمرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بسبع، ونهانا عن سبع: أمرنا باتباع الجنائز، وعيادة المريض، وإجابة الداعي، ونصر المظلوم، وإبرار القَسَم، ورَدِّ السلام، وتشميت العاطس، ونهانا عن: آنية الفضة، وخاتم الذهب، والحرير، والديباج، وَالقَسِّيِّ، والإستبرق[(١)].

وعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا**)) قالوا: يا رسول الله، هذا ننصره مظلومًا، فكيف ننصره ظالما؟ قال: ((**تأخذ فوق يديه**))[(٢)].

وفي رواية: (تحجزه عن الظلم)، أي: تمنعه منه وتحول بينه وبينه؛ فإن منعك إياه من الظلم نصر له على شيطانه الذي يغويه، وعلى نفسه الأمارة بالسوء.

قال ابن بطال رَحِمَهُ اللَّهُ: "والنصرة عند العرب: الإعانة والتأييد، وقد فسره رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن نصر الظالم منعه من الظلم؛ لأنه إذا تركته على ظلمه ولم تكفه عنه أداه ذلك إلى أن يقتص منه؛ فمنعك له مما يوجب عليه القصاص نصره، وهذا يدل من باب الحكم للشيء وتسميته بما يؤول إليه، وهو من عجيب الفصاحة، ووجيز البلاغة"[(٣)].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "قال العلماء: الخذل: ترك الإعانة والنصر، ومعناه: إذا استعان به في دفع ظالم ونحوه لزمه إعانته إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي"[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري [١٢٣٩، ٢٤٤٥، ٥١٧٥، ٥٦٣٥، ٥٨٦٣، ٦٢٢٢]، مسلم [٢٠٦٦].

(٢) صحيح البخاري [٢٤٤٣، ٢٤٤٤، ٦٩٥٢].

(٣) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٥٧٢/٦).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٢٠/١٦).

وعن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: اقتتل غلامان غلام من المهاجرين، وغلام من الأنصار، فنادى المهاجر أو المهاجرون: يا للمهاجرين، ونادى الأنصاري: يا للأنصار، فخرج رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فقال: ((**ما هذا؟ دعوى أهل الجاهلية!**))، قالوا: لا يا رسول الله إلا أن غلامين اقتتلا فكسع أحدهما الآخر، قال: ((**فلا بأس، ولينصر الرجل أخاه ظالمًا أو مظلومًا، إن كان ظالمًا فلينهه، فإنه له نصر، وإن كان مظلومًا فلينصره**))[1].

وتكون النصرة بالنفس والمال والدعاء والجاه.

٢٦ - العفو والتسامح:

إن من الأخلاق التي تورث المحبة: العفو، والتسامح.

ومن العفو ما يكون له أثر على المعتدِي قد يحمله على التوبة والإنابة وترك الاعتداء.

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ مقابلةَ الإساءة بالإحسان، وحُسْنَ الخُلق سببًا يكون به العدوُّ صديقًا، وتتمكَّنُ فيه صداقةُ الصديق، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِىٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت:٣٤]. إن كل إساءة تقابل بالإحسان سوف يكون له من الأثر الطيب ما يمحو أثرها، ويعالج ما أحدثته من صدع وجفاء. يعني: أنك إذا أحسنت إلى من أساء إليك قادته تلك الحسنة إلى مصافاتك ومحبتك. ومقابلة السيئة بالحسنة مرتبة عظيمة لا يرتقي إليها من عباد الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا من امتلك زمام نفسه. والدفع بالتي هي أحسن قد يكون بالقول كما يكون بالفعل.

ومن أخلاق النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه: ((**لا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح**))[2] فهو (يعفو)، أي: في الباطن (ويصفح)، أي: في الظاهر عن صاحب السيئة.

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٨٤].

(٢) صحيح البخاري [٤٨٣٨].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَلَمَنِ انْتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾﴾ [الشورى:٤٠-٤٣]:

"قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا﴾، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ﴾ [البقرة:١٩٤]، وكقوله: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ﴾ [النحل:١٢٩]، فشرع العدل وهو القصاص، وندب إلى الفضل وهو العفو، كقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ﴾ [المائدة:٤٥]؛ ولهذا قال هاهنا: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ﴾، أي: لا يضيع ذلك عند الله عَزَّوَجَلَّ، كما صح في الحديث: ((**وما زاد الله عبدًا بعفو إلا عزًّا**))[(١)]، وقوله: ﴿إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾، أي: المعتدين، وهو المبتدئ بالسيئة"[(٢)].

٢٧ — التوبة والاستغفار:

ذكر أكثر الفقهاء والمفسرين أن للتوبة أربعة شروط: الإقلاع عن المعصية حالًا، والندم على فعلها في الماضي، والعزم عزمًا جازمًا أن لا يعود إلى مثلها أبدًا. والإقلاع عن الذنب لا يتم إلا برد الحقوق إلى أهلها، أو باستحلالهم منها في حالة القدرة، وهذا كما يلزم في حقوق العباد يلزم كذلك في حقوق الله تعالى، كدفع الزكوات، والكفارات إلى مستحقيها.

---

(١) صحيح مسلم [٢٥٨٨].

(٢) تفسير ابن كثير (٧/ ٢١١- ٢١٢).

وقد تقدم حديث: ((**من كانت عنده مَظْلِمَة لأخيه فَلْيَتَحَلَّلْه منها، فإنه ليس ثم دينار ولا درهم، من قبل أن يُؤْخَذَ لأخيه من حسناته، فإن لم يكن له حسنات أُخِذَ من سيئات أخيه فطرحت عليه**))(١).

٢٨ – أن تتوفر في القاضي الشروط التي ذكرها أهل العلم حتى يكون أهلًا للقضاء من نحو: العدالة والعلم، والفطنة، والأهلية لاستنباط الأحكام من مصادر التشريع، والأمانة، والصدق، والتقوى، والإخلاص، والقوة، والعفة، والحلم ويتجنب الغضب، والرحمة .. إلى غير ذلك.

٢٩ – سلامة القاضي من الآفات الجسدية التي تؤثر على الحكم، وأن يسلم من اتباع الهوى، أو الميل لعصبية، أو لمحبة، أو لانتقام، أو لطمع، ونحو ذلك.

٣٠ – القضاء بين العباد بالحق والعدل.

٣١ – أن يبذل القاضي الجهد، ويستفرغ الوسع في معرفة الحكم الشرعي، وأن يبحث في الأدلة، ويطلع على القضايا قبل الفصل في الحكم اطلاعًا وافيًا لا تردد فيه ولا ريب.

٣٢ – أن يستشعر القاضي مكانة القضاء، وأثر الحكم.

٣٣ – أن يتجنَّب القاضي أن يعنف أحد الخصمين دون الآخر.

٣٤ – أن يحرص على حفظ الحقوق، وإقامة العدل، والإصلاح بين المتخاصمين، وصيانة الأنفس والأعراض والأموال.

٣٥ – أن لا يميل القاضي ولو بأدنى ميل إلى أحد الخصمين؛ لكونه مثلًا قريبًا له، أو صديقًا، أو صاحب جاه تُرجى منفعته، أو رئاسة تُخاف سلطته.

٣٦ – أن يكون القاضي ذا حصانة، ويتمتع بالاستقلال، ولا يتأثر بالسياسة.

(١) صحيح البخاري [٦٥٣٤].

٣٧ – أن يدرأ القاضي الحدودَ بالشبهات.

٣٨ – أن لا يقبل القاضي شفاعة في حدٍّ من حدود الله تعالى.

٣٩ – أن لا يقبل القاضي رشوة.

٤٠ – أن يطالع سيرة السلف ومن تبعهم بإحسان ومدى تورعهم في القضاء، وخوفهم الله عَزَّوَجَلَّ.

٤١ – أن يكون العلماء عونًا للقاضي أو الحاكم ينصحون، ويرشدون، ويُقَوِّمُون، ولا يسكتون عن إظهار الحق، ودحض الباطل، ولا ينافقون أو يداهنون لأجل عرض زائل، أو حظٍّ من حظوظ الدنيا.

وقد جاء في الحديث: عن تميم الداري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**الدين النصيحة**)) قلنا: لمن؟ قال: ((**لله، ولكتابه، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم**))(١).

وعن كعب بن عُجْرَة قال: قال لي رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**أُعِيذُكَ بالله يا كعب بن عُجْرَةَ من أمراء يكونون من بعدي، فمن غَشِيَ أبوابهم فَصَدَّقَهُمْ في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يرد علي الحوض، ومن غَشِيَ أبوابَهم أو لم يَغْشَ ولم يُصَدِّقْهُمْ في كذبهم، ولم يُعِنْهُمْ على ظلمهم، فهو مِنِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ، يا كعب بن عجرة الصلاة برهان، والصوم جُنَّةٌ حَصِينَة، والصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماءُ النار، يا كعب بن عجرة، إنه لا يَرْبُو لحم نبت من سُحْتٍ إلا كانت النار أولى به**))(٢).

---

(١) صحيح مسلم [٥٥].

(٢) أخرجه الترمذي [٦١٤]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٢١٢]. قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠/٢٣٠): "رواه الترمذي باختصار. رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات".

قوله: ((**فمن دخل عليهم**))، "أي: من العلماء وغيرهم، ((**وأعانهم على ظلمهم**))، أي: بالإفتاء ونحوه ((**فليس مني ولست منه**))، أي: بيني وبينهم براءة ونقض ذمة"(١).

وعن طارق بن شهاب أن رجلًا سأل رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقد وضع رِجْلَهُ في الْغَرْزِ(٢)، أَيُّ: الجهاد أفضل قال: ((**كلمة حق عند سلطان جائر**))(٣).

٤٢ - أن يعتزل القاضي الأمر إذا وجد أنه غير قادر على إقامة العدل، وكان عاجزًا عن الإنصاف في الحكم، أو لا يتمتع بالاستقلال بالحكم.

(١) انظر: تحفة الأحوذي (٦/٤٤٣- ٤٤٤)، مرقاة المفاتيح (٦/٢٤١٠).

(٢) (الغرز) هو بفتح الغين المعجمة ثم راء ساكنة ثم زاي، وهو ركاب كور البعير إذا كان من جلد أو خشب. وقيل: هو الكور مطلقًا، كالركاب للسرج. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٨/٩٧). قال ابن عبد البر رَحِمَهُ اللَّهُ: الغرز لا يكون إلا في الرحال على الجمال، وهو بمنزلة الركاب من السروج من جمل وغيره. الاستذكار (٨/٥٢٧).

(٣) أخرجه أحمد [١٨٨٢٨]، والنسائي [٤٢٠٩]، والدولابي في (الكنى والأسماء) [٤٢٧]، والضياء في (المختارة) [١٢٢]. قال المنذري (٣/١٥٨) بعد عزوه للنسائي: "إسناده صحيح".

المبحث الثاني والعشرون
أكل مال اليتيم

أولًا: تعريف اليتيم والتحذير من أكل مال اليتيم:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اليتيم جمعه: أَيْتامٌ ويتامى. وقد يَتِمَ الصبيُّ –بالكسر– يَيْتَمُ يُتْمًا ويَتْمًا –بالتسكين فيهما–. واليُتْمُ في الناس من قبل الأب، وفي البهائم من قبل الأم. يقال: أَيْتَمَتِ المرأةُ فهي موتِمٌ، أي: صار أولادها أيْتامًا. وكلُّ شيء مفرد يعز نظيره فهو يَتيمٌ، يقال: دُرَّةٌ يَتيمة"[(١)].

وقال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد تَكَرَّرَ في الحديث ذكر: (الْيُتْم، والْيَتِيم، والْيَتِيمَة، والْأَيْتَام، والْيَتَامَى) وما تَصَرَّف منه. الْيُتْمُ في النَّاس: فَقْدُ الصَّبيِّ أباهُ قبل البلوغ، وفي الدَّوابِّ: فَقْدُ الأُمِّ. وأصل الْيُتْمِ –بالضم والفتح: الانفراد.

وقيل: الغفلة. وقد يَتِمَ الصبي –بالكسر– يَيْتَمُ فهو يتيم، والأنثى يتيمة، وجمعها: أيتام، ويتامى. وقد يجمع اليتيم على يتامى، كأسير وأسارى. وإذا بلغا زال عنهما اسم اليتم حقيقة. وقد يطلق عليهما مجازًا بعد البلوغ، كما كانوا يسمون النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وهو كبير: يتيم أبي طالب؛ لأنه رباه بعد موت أبيه.

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (يتم) (٢٠٦٤/٥).

ومنه الحديث: ((**تُسْتَأْمَرُ الْيَتِيمَةُ في نَفْسِهَا، فإن سكتت فهو إِذْنُهَا**))[(١)]، أراد باليتيمة: البكر البالغة التي مات أبوها قبل بلوغها، فلزمها اسم اليتم فدعيت به وهي بالغة مجازًا.

وقيل: المرأة لا يزول عنها اسم اليتم ما لم تتزوج، فإذا تزوجت ذهب عنها.

ومنه حديث الشعبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن امرأة جاءت إليه فقالت: إني امرأة يتيمة فضحك أصحابه، فقال: النساء كلهن يتامى. أي: ضعائف.

وفي حديث عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: قالت له بنت خفاف الغفاري: إني امرأة موتمة[(٢)] توفي زوجي وتركهم. يقال: أيتمت المرأة فهي موتم وموتمة، إذا كان أولادها أيتامًا"[(٣)].

ويتبين مما تقدم أن اليتيم في الاصطلاح: من مات أبوه وهو دون البلوغ[(٤)]؛ لحديث: ((**لا يُتْمَ بعد احتلام**))[(٥)]. والمراد من الاحتلام: البلوغ.

وقد أمر الشَّارع برعاية أموالِ اليتامى والمحافظة عليها، والآيات التي تنصُّ على العناية والاهتمام باليتامى كثيرة: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَاءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ..﴾ الآية [البقرة:٨٣].

---

(١) قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤/٢٨٠): "رواه أحمد، وأبو يعلى، والبزار، والطبراني، ورجال أحمد رجال الصحيح". عن أبي موسى. وللحديث روايات أخرى.

(٢) أي: ذات أيتام.

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (يَتِم) (٥/٢٩١- ٢٩٢).

(٤) انظر: المجموع شرح المهذب (١٣/٣٤٤)، مغني المحتاج (٤/٩٨)، البيان في مذهب الإمام الشافعي (٦/٢٠٧)، رد المحتار على الدر المختار (٦/٦٨٨).

(٥) الحديث مروي عن علي، وعن حنظلة بن حذيم. حديث علي: أخرجه أبو داود [٢٨٧٣]، والبيهقي [١١٣٠٩]. حديث حنظلة بن حذيم: أخرجه ابن قانع (١/٢٠٤)، والطبراني [٣٥٠٢]، قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤/٢٢٦): "رجاله ثقات".

ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٧٧].

ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [البقرة:٢١٥].

ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَى قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [البقرة:٢٢٠].

قال المفسرون: لما نزل قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [الأنعام:١٥٢]، [الإسراء:٣٤]، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠] تحرَّجَ المسلمون أن يخلطوا طعامهم بطعام من يكون عندهم من الأيتام ، وكانوا يعزلون طعامهم هم طعامهم، وشرابهم عن شرابهم، حتى ربما فسد طعامهم، فشق ذلك عليهم، فشكوا ذلك إلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ﴾، يعني: في الطعام، والشراب، والمساكنة، وركوب الدابة، ونحو ذلك.

﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾، أي: والله يعلم حين تخلط مالك بماله، أتريد أن تصلح ماله أو تفسد ماله بغير حق.

﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ﴾ فيه تأويلان: أحدهما: لَشدَّدَ عليكم. والثاني: لجعل ما أصبتم من أموال اليتامى موبقًا.

﴿إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾، يعني: ﴿عَزِيزٌ﴾ في سلطانه وقدرته على الإعنات. ﴿حَكِيمٌ﴾ فيما صنع من تدبيره وتركه الإعنات(١).

وفي (صحيح الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "عن نافع، قال: ما رد ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا على أحد وصية(٢).

وكان ابن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أحب الأشياء إليه في مال اليتيم أن يجتمع إليه نصحاؤه وأولياؤه، فينظروا الذي هو خير له.

وكان طاووس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إذا سئل عن شيء من أمر اليتامى قرأ: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠]. وقال عطاء رَحِمَهُ ٱللَّهُ في يتامى الصغير والكبير: ينفق الولي على كل إنسان بقدره من حصته"(٣).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام:١٥٢].

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾: ولا تقربوا ماله إلا بما فيه صلاحه وتثميره"(٤).

وقال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾، أي: لا تتعرضوا له بوجه من الوجوه إلا الخصلة بالتي هي أحسن من غيرها، وهي ما فيه صلاحه وحفظه وتنميته، فيشمل كل وجه من الوجوه التي فيها نفع لليتيم وزيادة في ماله.

---

(١) انظر: تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٢٨٠/١).

(٢) يعني: أنه كان يقبل وصية من يوصي إليه، وقال ابن التين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كأنه كان يبتغي الأجر بذلك، لحديث: ((أنا وكافل اليتيم كهاتين)) الحديث [وسيأتي]. عمدة القاري (٦٥/١٤).

(٣) صحيح البخاري (١٠/٤).

(٤) تفسير الطبري (٢٢١/١٢).

وقيل: المراد بالتي هي أحسن: التجارة [فيه]. ﴿حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، أي: إلى غاية هي أن يبلغ اليتيم أشده، فإن بلغ ذلك فادفعوا إليه ماله، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء:٦]"(١).

وإنما خص مال اليتيم بالذكر -وإن كان مال غيره في التحريم بمثابته-؛ لأن الطمع فيه؛ لقلة مراعيه(٢)، وضعف مالكه أقوى، فكان بالذكر أولى(٣).

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾ [النساء:٢].

خطاب للأوصياء. وقيل: للعرب الذين لا يورثون الصغير مع الكبير، أمروا أن يورثوهم، وعلى القول بأنَّ الخطاب للأوصياء، فالمراد أن يؤتوا اليتامى من أموالهم ما يأكلون ويلبسون في حال صغرهم، فيكون اليتيم على هذا حقيقة. وقيل: المراد دفع أموالهم إليهم إذا بلغوا، فيكون اليتيم على هذا مجاز؛ لأن اليتيم قد كبر(٤).

﴿وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ﴾. قيل: معناه: الحرام بالحلال. وهو قول مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ. والمعنى: لا تأكلوا أموالهم وهو الخبيث، وتدعوا مالكم وهو الطيب

وقيل: هو أن يجعل الزائف بدل الجيد، والمهزول بدل السمين، ويقول: درهم بدرهم، وشاة بشاة.

---

(١) فتح القدير (٢/٢٠٢).

(٢) يقال: راعى الأمر: نظر الأمر إلى أين يصير، وراعاه: لاحظه، وراعاه: من مراعاة الحقوق، واسترعاه الشيء فرعاه.

(٣) انظر: تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٢/١٨٧)، وانظر: زاد المسير (٢/٩٢). وقال الزركشي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنما خصه بالذكر؛ لأن الطمع فيه أكثر؛ لعجزه وقلة الناصر له، بخلاف مال البالغ، أو لأن التخصيص بمجموع الحكمين وهما النهي عن قربانه بغير الأحسن" البرهان في علوم القرآن (٢/٤٣٣).

(٤) تفسير ابن جزي (١/١٧٧).

وقيل: هو استعجال أكل الحرام قبل إتيان الحلال. وهو معنى قول مجاهد.

وقيل: إن أهل الجاهلية كانوا لا يورثون الصغار والنساء ويأخذه الرجل الأكبر، فكان يستبدل الخبيث بالطيب؛ لأن نصيبه من الميراث طيب، وأخذه الكل خبيث[1].

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ﴾، أي: مع أموالكم، وهو أن يخلطوها بأموالهم؛ لتصير في ذمتهم فيأكلوا ربحها.

وقيل: نهي عن خلط أموالهم بأموال اليتامى، ثم أباح ذلك بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠].

﴿إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا﴾، والحُوب: الإثم[2].

وقال القشيري رَحِمَهُ اللَّهُ: "من أقيم بمحلِّ الرعاية فجار على رعيَّته فخصمه ربُّه؛ فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ينتقم لعباده ما لا ينتقم لنفسه.

فوليُّ اليتيم إن أنصف وأحسن فحقُّه على الله تعالى، وإن أساء وتعدَّى فخصمه الله عَزَّوَجَلَّ"[3].

وقد حذرنا الله عَزَّوَجَلَّ من استغلال ضعف اليتيمات، والطمع فيهن أو في مالهن فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا﴾ [النساء:٣]، أي: إذا كان تحت حجر أحدكم يتيمة وخاف ألا يعطيها مهر مثلها، فليعدل إلى ما سواها من النساء، فإنهن كثير، ولم يضيق الله عَزَّوَجَلَّ عليه.

---

(١) تقدم أن الخطاب في الآية السابقة إما للأوصياء، أو للعرب الذين لا يورثون الصغير مع الكبير، وهو هنا للعرب كما هو بين.

(٢) انظر: تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/٤٤٧- ٤٤٨)، تفسير الراغب (٣/١٠٨٣)، تفسير ابن جزي (١/١٧٧)، تفسير ابن كثير (٢/٢٠٧).

(٣) لطائف الإشارات (١/٣١٣).

وفي (الصحيح): عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن رجلًا كانت له يتيمة فنكحها، وكان لها عَذْقٌ[1]، وكان يمسكها عليه، ولم يكن لها من نفسه شيء فنزلت فيه: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾، أَحْسِبُهُ قال: كانت شَرِيكَتَهُ في ذلك العَذْقِ وفي ماله[2].

وعن عروة بن الزبير، أنه سأل عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عن قول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى﴾، فقالت: يا ابن أختي، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها، تشركه في ماله، ويعجبه مالها وجمالها، فيريد وليها أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها، فيعطيها مثل ما يعطيها غيره، فنهوا عن أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن، ويبلغوا لهن أعلى سنتهن في الصداق، فأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن، قال عروة: قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وإن الناس استفتوا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بعد هذه الآية، فأنزل الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ﴾ [النساء:١٢٧]، قالت عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: وقول الله عَزَّ وَجَلَّ في آية أخرى: ﴿وَتَرْغَبُونَ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ﴾ [النساء:١٢٧]: رغبة أحدكم عن يتيمته، حين تكون قليلة المال والجمال، قالت: فنهوا أن ينكحوا عن من رغبوا في ماله وجماله في يتامى النساء إلا بالقسط، من أجل رغبتهم عنهن إذا كن قليلات المال والجمال[3].

ومن الآيات التي تنص كذلك على العناية باليتامى قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينُ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا﴾ [النساء:٨].

وقوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ﴾ [النساء:٣٦].

---

(١) (العذق) -بفتح فسكون-: النخلة بحَمْلِها.

(٢) صحيح البخاري [٤٥٧٣].

(٣) صحيح البخاري [٤٥٧٤]، مسلم [٣٠١٨].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الأنفال:٤١].

وقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [الحشر:٧].

ومن الآيات التي تدل على العناية باليتيم، والإحسان إليه قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوْ إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ ﴿١٤﴾ يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ ﴿١٦﴾﴾ [البلد:١١-١٦].

قال ابن زيد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وقرأ قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ﴾، قال: أفلا سلك الطريق التي منها النجاة والخير(١).

ثم بين جلَّ ثناؤه له، ما العقبة، وما النجاة منها، وما وجه اقتحامها؟ فقال: اقتحامها وقطعها: فكُّ رقبة من الرقِّ وأسر العبودة، أو ﴿إِطْعَامٌ فِي يَوْمٍ ذِي مَسْغَبَةٍ﴾، أي: ذي مجاعة. والسغب: هو الجوع. وقال النخعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في يوم الطعام فيه عزيز. وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: في يوم مشتهى فيه الطعام.

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿يَتِيمًا﴾، أي: أطعم في مثل هذا اليوم: يتيمًا. ﴿ذَا مَقْرَبَةٍ﴾، أي: ذا قرابة منه، كما جاء في الحديث الصحيح: ((**الصدقة على المسكين صدقة، وعلى ذي الرحم اثنتان، صدقة وصلة**))(٢).

وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوْ مِسْكِينًا ذَا مَتْرَبَةٍ﴾، أي: فقيرًا مدقعًا لاصقًا بالتراب.

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٤/٤٤٠)، تفسير ابن كثير (٨/٤٠٦).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [١٠٥٤١]، وأحمد [١٦٢٢٦]، والدارمي [١٦٨١]، وابن ماجه [١٨٤٤]، والترمذي [٦٥٨]، وقال: "حسن". وأخرجه أيضًا: النسائي [٢٥٨٢]، وابن خزيمة [٢٠٦٧]، وابن حبان [٣٣٤٤] من حديث: سلمان بن عامر الضبي.

قال ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: ﴿ذَا مَتْرَبَةٍ﴾ هو المطروح في الطريق، الذي لا بيت له ولا شيء يقيه من التراب. وفي رواية: هو الذي لصق بالدقعاء(١) من الفقر والحاجة ليس له شيء.

وقال عكرمة رَحِمَهُٱللَّهُ: هو الفقير المدين المحتاج.

وقال سعيد بن جبير رَحِمَهُٱللَّهُ: هو الذي لا أحد له.

وقال قتادة رَحِمَهُٱللَّهُ: هو ذو العيال، وكل هذه قريبة المعنى(٢).

وقد جاءت آيات كريمة تنصُّ على الوعيدِ الشَّديد في حقِّ من أَكَلَ مال اليتيم بغير حقٍّ:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَالَ الْيَتَامَى ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾ [النساء:١٠]، أي: ما يجرُّ إلى النار ويؤدّي إليها، تعبيرًا بالمسبب عن السبب. وقد يوصف الشيء بما يؤول إليه ويكون سببًا له. وقيل: إنهم سيأكلون يوم القيامة نارًا، فسمي الأكل بما يؤول إليه أمرهم.

﴿وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا﴾، الصلاء: لزوم النار. و(السعير): النار المستعرة، و(استِعار النار): توقُّدها. ومنه قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ [التكوير:١٢].

فتبينَ أنَّ من الذُّنوب العظيمة المتوعَّد عليها بالنَّار: التفريط في أموال اليتامى، وأكلها أو أكلُ شيءٍ منها بغير حقٍّ، أو التَّسبب في ضياعها أو ضياع شيءٍ منها، أو بالسكوت مع المطالبة بها.

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿كَلَّا بَلْ لَا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلًا لَمًّا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا ﴿٢٠﴾ كَلَّا إِذَا دُكَّتِ الْأَرْضُ دَكًّا دَكًّا ﴿٢١﴾ وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا ﴿٢٢﴾ وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى

---

(١) الدقعاء: الأرض لا نبات بها. والدقعاء: التراب عامة.

(٢) انظر: تفسير ابن كثير (٨/ ٤٠٨)، تفسير الطبري (٢٤/ ٤٤٢- ٤٤٦).

﴿٢٣﴾ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي ﴿٢٤﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ ﴿٢٥﴾ وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ ﴿٢٦﴾﴾ [الفجر:١٧-٢٦].

وهذه الآيات ردع عن حبِّ المال وأكلِه بالباطل، فماذا يفيد أكل حقوق الغير عند دخول القبر؟ وماذا يجدي حب المال عند المآل؟ وماذا يفيد النعيم الزائل عند العذاب الدائم؟

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ في النهي عن قهر اليتيم وإذلاله: ﴿فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ﴾ [الضحى:٩]، أي: فلا تظلمه، فتذهب بحقه، استضعافًا منك له(١).

وذكر الإمام الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ خمسة أقوال في تفسير الآية، أحدها: فلا تحقر. الثاني: فلا تظلم. الثالث: فلا تستذل. الرابع: فلا تمنعه حقه الذي في يدك. الخامس: ما قاله قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كن لليتيم كالأب الرحيم(٢).

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ في التحذير من ظلم اليتيم، والتقصير في حقه، وقهره وزجره: ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالدِّينِ ﴿١﴾ فَذَلِكَ الَّذِي يَدُعُّ الْيَتِيمَ ﴿٢﴾﴾ [الماعون:١ -٢].

قوله: ﴿يَدُعُّ الْيَتِيمَ﴾، أي: يحقره أو يظلمه أو يدفعه دفعًا شديدًا عن حقِّه وماله ظلمًا وطعمًا فيه، أو إبعادًا له وزجرًا وقهرًا(٣).

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**اجتنبوا السبع الموبقات**))، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: ((**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**))(٤).

---

(١) تفسير الطبري (٢٤/٤٨٨).

(٢) تفسير الماوردي (النكت والعيون) (٦/٢٩٥).

(٣) ومنه قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾ [الطور:١٣]، أي: يُدفعون إليها دفعًا.

(٤) صحيح البخاري [٢٧٦٦، ٦٨٥٧]، مسلم [٨٩].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وقد نصَّ الشرعُ على أن شهادةَ الزور، وأكل مال اليتيم من الكبائر، فإن وقعا في مالٍ خطير فهذا ظاهر، وإن وقعا في مالٍ حقير فيجوز أن يُجعلا من الكبائر؛ فِطَامًا عن هذه المفاسد، كما جعل شرب قطرة من خمر من الكبائر -وإن لم تتحقق المفسدة-. ويجوز أن يضبط ذلك بنصاب السرقة"(١).

وأخرج البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الأدب المفرد) من طريق مسدد قال: حدثنا إسماعيل بن إبراهيم قال: حدثنا زياد بن مِخْرَاقٍ قال: حدثني طَيْسَلَةُ بنُ مَيَّاس قال: كنتُ مع النَّجَدَات(٢)، فأصبت ذنوبًا لا أراها إلا من الكبائر، فذكرت ذلك لابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: ما هي؟ قلت: كذا وكذا، قال: ليست هذه من الكبائر، هن تسع: ((**الإشراك بالله، وقتلُ نَسَمَةٍ، والفرار من الزحف، وقذف المحصنة، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم، وإلحاد في المسجد، والذي يستسخر، وبكاء الوالدين من العقوق**)). قال لي ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: أَتَفْرَقُ النَّارَ، وتُحِبُّ أن تَدْخُلَ الجَنَّة؟ قلتُ: إي والله، قال: أَحَيٌّ وَالِدُكَ؟ قلتُ: عندي أُمِّي، قال: ((**فو الله لو ألنت لها الكلام، وأطعمتها الطعام، لتدخلن الجنة ما اجتنبت الكبائر**))(٣).

وجاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**اللهُمَّ إنِّي أُحَرِّجُ حَقَّ الضَّعِيفَيْنِ: الْيَتِيمِ والْمَرْأَة**))(٤).

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ٨٦).

(٢) هم أصحاب نجدة بن عامر الخارجي.

(٣) أخرجه البخاري في (الأدب المفرد) [٨]. قال البوصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (زوائد المسانيد) (١٩٣/٦): "رواته ثقات".

(٤) أخرجه أحمد [٩٦٦٦]، وابن ماجه [٣٦٧٨]. قال البوصيري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠٣/٤): "هذا إسناد صحيح رجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: والبزار [٨٤٨٣]. والنسائي في (الكبرى) [٩١٠٤]، والحاكم [٢١١]، وقال: "صحيح على شرط مسلم"، ووافقه الذهبي. كما أخرجه: تمام [٧٥٢]، والبيهقي [٢٠٤٥٢]. وفي رواية عند البيهقي: ((أحرم عليكم مال الضعيفين: اليتيم والمرأة)) شعب الإيمان [٧٠٥٨].

ومعنى: (أُحَرِّجُ): ألحق الحرج، وهو الإثم بمن ضيع حقهما، وأحذر من ذلك تحذيرًا بليغًا، وأزجر عنه زجرًا أكيدًا(١).

وقال غيره: أضيقه وأحرمه على من ظلمهما. قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن المجاز: وقع في الحرج وهو ضيق المأثم. وحدث عن بني إسرائيل ولا حرج. وأحرجني فلان: أوقعني في الحرج. وحرجت الصلاة على الحائض، والسحور على الصائم لما أصبح، أي: حرما وضاق أمرهما. وظلمك عليَّ حرج، أي: حرام مضيق، وتحرج من كذا: تأثم. وحلف فلان بالمحرجات، أي: بالطلقات الثلاث، وحرجت العين: غارت فضاقت عليها منافذ البصر"(٢).

والحديث يدل على تعظيم حقِّ هذين الضعيفين: المرأة واليتيم؛ فإن ضعفهما قد يكون سببًا للاعتداء عليهما، وهضم حقوقهما.

ثانيًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج:

١ - أن يعلمَ الوَصِيُّ فَضلَ كفالة اليتيم، فيسارع إلى الخير، من حفظِ مالِ اليتيم، وإكرامِه، والقيامِ على مصالحة:

إنَّ كافل اليتيم، والقائم بأمره ومصالحه، والحافظ لأمواله مع النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الجنة، كما جاء في الحديث: عن سهل بن سعد رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**وأنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا**))، وأشار بالسبابة والوسطى، وفرج بينهما شيئًا(٣).

(١) رياض الصالحين، للإمام النووي (ص: ١١٨).

(٢) أساس البلاغة، مادة: (حرج) (١/١٧٨-١٧٩)، وانظر: فيض القدير (٣/٢٠).

(٣) صحيح البخاري [٥٣٠٤، ٦٠٠٥].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "حق على كل مؤمن يسمع هذا الحديث أن يرغب في العمل به؛ ليكون في الجنة رفيقًا للنبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ولجماعة النبيين والمرسلين -صلوات الله عليهم أجمعين- ولا منزلة عند الله عَزَّ وَجَلَّ في الآخرة أفضل من مرافقة الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ"(١).

وعند (مسلم): عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كافل اليتيم له أو لغيره أنا وهو كهاتين في الجنة**))، وأشار مالك بالسبابة والوسطى(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "((**كافل اليتيم**)): القائم بأموره من نفقة وكسوة وتأديب وتربية وغير ذلك. وهذه الفضيلة تحصل لمن كفله من مال نفسه، أو من مال اليتيم بولاية شرعية. وأما قوله: ((**له أو لغيره**)) فالذي له أن يكون قريبًا له كجده وأمه وجدته وأخيه وأخته وعمه وخاله وعمته وخالته وغيرهم من أقاربه، والذي لغيره أن يكون أجنبيًّا"(٣).

ويستحب مسح رأس اليتيم وإكرامه، لحديث: عبد الله بن جعفر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا قال: لو رَأَيْتَنِي وقُثَمَ وعُبَيْدَ الله ابني عباس، ونحن صبيان نلعب، إذ مَرَّ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على دابة، فقال: ((**ارفعوا هذا إِلَيَّ**)) قال: فحملني أمامه، وقال لِقُثَمَ: ارفعوا هذا إِلَيَّ فجعله وراءه، وكان عبيد الله أَحَبَّ إلى عباس من قُثَمَ، فما اسْتَحَى من عَمِّه أن حَمَلَ قُثَمَ وتركه، قال: ثم مسح على رأسي ثلاثًا، وقال كلما مسح: ((**اللهُمَّ اخْلُفْ جَعْفَرًا في وَلَدِه**)).

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/ ٢١٧).
(٢) صحيح مسلم [٢٩٨٣].
(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٨/ ١١٣).

قال: قلت لعبد الله: ما فعل قُثَمُ؟ قال: استشهد، قال: قلت: الله أعلم بالخير ورسوله بالخير، قال: أجل(١).

وقد وصفَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المنفقينَ على الأرامل وأيتامهن وعلى المساكين بأنَّ لهم أجورَ المجاهدين والقائمين والصَّائمين؛ وذلك من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**الساعي على الأرملة والمسكين، كالمجاهد في سبيل الله، أو القائم الليل، الصائم النهار**)). وأحْسِبُهُ قال: ((**وكالقائم لا يَفْتُر، وكالصَّائم لا يُفْطِر**))(٢).

و"المراد بالساعي: الكاسب لهما العامل لمؤنتهما. والأرملة: من لا زوج لها، سواء كانت تزوجت أم لا. وقيل: هي التى فارقت زوجها. قال ابن قتيبة رَحِمَهُ اللَّهُ: سميت أرملة؛ لما يحصل لها من الْإِرْمَال، وهو الفقر وذهاب الزاد بفقد الزوج. يقال: أَرْمَلَ الرَّجُلُ إِذا فَنِيَ زَادُه"(٣).

٢ - الحرص على سلامة أموال اليتامى:

يلزم حفظ مال اليتيم إلى أن يبلغ، ويصبح راشدًا؛ لقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [النساء:٦]. فأمر أولياء اليتامى

---

(١) أخرجه أحمد [١٧٦٠]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٨٦/٩): "رواه أحمد، ورجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: أبو محمد الحارث [١٠٠٧]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٨٣٨]، وفي (عمل اليوم والليلة) [١٠٦٦]، والحاكم [١٣٧٨]، والبيهقي [٧٠٩٣]، والضياء [١٤٦].

(٢) صحيح البخاري [٥٣٥٣، ٦٠٠٧]، مسلم [٢٩٨٢].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١١٢/١٨- ١١٣).

بدفع أموالهم إليهم إذا بلغوا النكاح وأونس منهم الرشد، ويدخل في (اليتامى) الذكور والإناث.

والابتلاء: هو الاختبار والامتحان، أي: اختبروهم في عقولهم وتمييزهم وصلاحهم. فمن ذلك: أن يدفع لليتيم المقارب للرشد، الممكن رشده شيئًا من المال؛ ليُعلم حاله، ويتبين رشده من سفهه. فإن لم يحسن التصرف لم يدفع إليه ماله، بل هو باق على سفهه، ولو بلغ عمرًا كثيرًا. فإن تبين رشده وصلاحه في ماله وبلغ النكاح يدفع إليه ماله كاملًا.

﴿حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا﴾. الرشد قيل هو العقل.

وقيل: العقل والصلاح في الدين.

وقيل: صلاح في الدين وإصلاح في المال.

وقيل: إنه الصلاح والعلم بما يصلحه.

﴿فَادْفَعُواْ إِلَيْهِم أَمْوَالَهُمْ﴾، يعني: التي تحت أيديكم أيها الأولياء عليهم.

﴿وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا﴾، يعني: لا تأخذوها إسرافًا على غير ما أباح الله عَزَّوَجَلَّ لكم. وأصل الإسراف: تجاوز الحد المباح إلى ما ليس بمباح، فربما كان في الإفراط، وربما كان في التقصير، غير أنه إذا كان في الإفراط فاللغة المستعملة فيه أن يقال: أسرف إسرافًا، وإذا كان في التقصير قيل: سرف يسرف.

﴿وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾، أي: ولا تأكلوها في حال صغرهم التي لا يمكنهم فيها أخذها منكم، ولا منعكم من أكلها، تبادرون بذلك أن يكبروا، فيأخذوها منكم ويمنعوكم منها.

وهذا من الأمور الواقعة من كثير من الأولياء، الذين ليس عندهم خوف من الله عَزَّوَجَلَّ، ولا رحمة ومحبة للمولى عليهم، يرون هذه الحال حال فرصة فيغتنمونها ويتعجلون ما حرم الله عليهم، فنهى الله عَزَّوَجَلَّ عن هذه الحالة بخصوصها(1).

قال العلماء: فكل ولي ليتيم إذا كان فقيرًا فأكل من ماله بالمعروف بقدر قيامه عليه في مصالحه وتنمية ماله فلا بأس عليه، وما زاد على المعروف فسحت حرام؛ لقول الله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:٦].

وفي الأكل بالمعروف أقوال، أحدها: أنه القرض يستقرض إذا احتاج ثم يرده إذا وجد. والثاني: أنه يأكل ما يسد الجوعة، ويلبس ما يواري العورة، ولا قضاء. والثالث: أن يأكل من ثمره، ويشرب من رِسْلِ ماشيته(2) من غير تعرض لِمَا سوى ذلك من فضة أو ذهب. والرابع: أن يأخذ إذا كان محتاجًا أجرةً معلومة على قدر خدمته(3).

وفي (الصحيح): عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا، في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [النساء:٦] أنها نزلت في والي اليتيم إذا كان فقيرًا، أنه يأكل منه مكان قيامه عليه بمعروف(4).

وقالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: يأكل الوصي بقدر عمالته. وأكل أبو بكر، وعمر(5).

٣ - أن يتقي السالكُ سخطَ الله عَزَّوَجَلَّ بالمواظبة على إيفاء حقِّ الضعيفين:

وقد تقدم أن من الظلم: أكل أموال الناس بالباطل، والتطاول على أموال اليتامى والضعفاء والبسطاء والعامة الذين لا يستطيعون حيلة لاسترداد حقوقهم.

---

(١) انظر: تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/٤٥٣- ٤٥٤)، زاد المسير في علم التفسير (١/٣٧١- ٣٧٢)، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (ص:١٦٥).

(٢) (الرِّسْلُ): اللَّبَن.

(٣) انظر: تفسير الماوردي (النكت والعيون) (١/٤٥٣- ٤٥٤)، زاد المسير في علم التفسير (١/٣٧١- ٣٧٢).

(٤) صحيح البخاري [٢٢١٢، ٢٧٦٥، ٤٥٧٥]، مسلم [٣٠١٩].

(٥) صحيح البخاري (٩/ ٦٧).

٤ – أن يكون السالكُ محبًّا للخير، ومعينًا للضعفاء.

٥ – التحرر من الصفات المذمومة كالطمع، والجشع، وحظوظ النفس، والتنافس على حطام الدنيا.

٦ — مكافحة سائر ألوان الاعتداء على أموال الناس، ولا سيما على الضعفاء منهم كاليتيم من خلال رقابة القانون، وتطبيق الحدود الرادعة.

٧ — أن يكون اليتيم راضيًا بقضاء الله تعالى وقدره، وأن يثق بالله عَزَّوَجَلَّ، وأنه جَلَّوَعَلَا يريدُ له الخير، وأن ما هو مدَّخرٌ له من الأجرِ ورِفعَةِ الدَّرجات هو أنفع له وأبقى.

وأن يتذكَّرَ أن أنَّ نبيَّنا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أراد الله عَزَّوَجَلَّ له أن ينشأ يتيمًا، غير أنه قد بلغ الكمال، وحاز تمام الرعاية من الله عَزَّوَجَلَّ. قال الله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَأَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ۝٦ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ۝٧ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ۝٨﴾ [الضحى:٦-٨].

وكثيرٌ من الصحابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ والتابعين والعلماء رَحِمَهُمُ اللَّهُ قد قُدِّرَ له أن يكون يتيمًا، ومع ذلك كان من القادة والأئمة والعظماء، الذين تركوا أثرًا خالدًا، وذِكرًا محمودًا، وخيرًا ممدودًا.

٨ — أن يترقَّبَ كلُّ سالكٍ الموتَ في كلِّ لحظةٍ من حياته، فيحرص على أن يترك لورثته ما يعينهم على أمر دينهم ودنياهم:

فمما يعينهم على أمر دينهم: أن يُعلِّمهم أحكامَ دينهم، ويغرسَ فيهم بذورَ التقوى.

ولا ريب أن صلاح الآباء ينفع الأولاد بعد موت الوالدين، ويكون له أثر لا يخفى في استقامة الأولاد وصلاحهم. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ [الكهف:٨٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أُخْتَ هَارُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ امْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾ [مريم:٢٨]، فتجد المنكرين عليها فيما اتهموها به، أرادوا بنفي

السوء والبغاء عن أبويها المبالغة في توبيخها؛ تنبيهًا على أن من كان أبواه صالحين ليس من شأنه: التجرد عن طورهما، والتردي بغير ردائهما، وما كان ينبغي له إلَّا أن يسلك سنن أعمالهما الصالحة.

ومما يعينهم على أمر دنياهم ودينهم أن لا يتركهم عالة يتكففون النَّاس بما استطاع إلى ذلك سبيلًا من الكدح والسَّعي، وبذل الأسباب، من غير إفراط ولا تفريط في أمور دينه ودنياه.

وقد جاء في الحديث: ((**إنك أن تذر ورثتك أغنياء، خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس**))[1].

والمعنى: تركك إياهم مستغنين عن الناس، خير من أن تذرهم (عالة)، أي: فقراء، (يتكففون الناس) أي: يسألونهم بالأكف ومدها إليهم.

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي الحديث من الفقه أن الاختيار للمرء أن يستبقي لنفسه قوتًا، وأن لا يَنْخَلِعَ من مِلْكِهِ أَجْمَعَ مَرَّةً واحدة؛ لما يخاف عليه من فتنة الفقر، وشِدَّة نِزَاع النفس إلى ما خرج من يده، فَيَنْدَمَ فَيَذْهَبُ ماله، ويبطل أجره ويصير كلًّا على الناس.

قلت: ولم يُنْكِرْ على أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ خروجه من ماله أَجْمَعَ؛ لما عَلِمَهُ من صحَّة نيَّته وقُوَّةِ يقينه، ولم يخف عليه الفتنة"[2].

قال ابن عابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن أراد التصدق بماله كله، وهو يعلم من نفسه حسن التوكل، والصبر عن المسألة فله ذلك، وإلا فلا يجوز، ويكره لمن لا صبر له على الضيق أن ينقص نفقة نفسه عن الكفاية التامة"[3].

---

(١) صحيح البخاري [١٢٩٥، ٢٧٤٢، ٤٤٠٩، ٥٣٥٤، ٥٦٦٨، ٦٣٧٣]، مسلم [١٦٢٨].

(٢) معالم السنن (٢/٧٧-٧٨).

(٣) رد المحتار على الدر المختار (٢/٣٥٧).

والمسلم مسؤول عن نفسه وعمن يعول، فينبغي أن ينظرَ إلى حالِه وحالهم، فإذا علم من حاله وحالهم الصبر وقوة اليقين –كما كانت حال أبي بكر الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عندما تصدَّق بماله كله– كان ذلك مسوغًا له على التَّصدق، وإن لم يأمن على نفسه أو على من يعول من الضياع وذلِّ السؤال فينبغي أن يمسك بعض ماله –كما تقدم–، وكما جاء في حديث كعب بن مالك رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ في قصة تخلُّفِه عن غزوة تبوك، ثم نزول توبته من الله عَزَّوَجَلَّ، حينها أرادَ كعب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن يُنفق كلَّ ماله في سبيل الله عَزَّوَجَلَّ؛ شكرًا لله جَلَّوَعَلَا، وتصديقًا لتوبته. قال: قلتُ: يا رسول الله إن من توبتي أن أَنْخَلِعَ من مالي صَدَقَةً إلى الله وإلى رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقال رسول الله عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ: ((**أَمْسِكْ بعضَ مالِكَ، فهو خَيْرٌ لك**))(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: "وانما أمره صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالاقتصار على الصدقة ببعضه؛ خوفًا من تضرره بالفقر، وخوفًا أن لا يصبر على الإضاقة. ولا يخالف هذا صدقة أبي بكر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بجميع ماله؛ فإنه كان صابرًا راضيًا"(٢).

(١) صحيح البخاري [٢٧٥٧، ٤٤١٨، ٤٦٧٦، ٦٦٩٠]، مسلم [٢٧٦٩].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٩٧/١٧).

المبحث الثالث والعشرون
الذي يقطع السِّدرَ الذي يُظِلُّ النَّاس

أولًا: ما جاء في التحذير من قطع السِّدرَ الذي يُظِلُّ النَّاس:

السدر هو الشجر الذي ينبت في الفلاة، ويستظل به الناس، فيتقون به حرَّ الشمس، ويقيلون تحته في أثناء الطريق، وقد كان الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم يستظلون بالشجر.

وقد حذَّرنا الشارع من قطع السدر أو إتلافه؛ لما في ذلك من الإضرار بالناس والبهائم، ولأنه من العبث والظلم، ولا يخفى ما للزرع والأشجار من فائدة تدوم ما بقيت حية.

جاء في الحديث: عن عبد الله بن حبشي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((من قطع سِدْرَةً صَوَّبَ الله رأسه في النار))**(١).

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((إن الذين يَقْطَعُونَ السِّدْرَ يُصَبُّونَ في النار على وجوههم صَبًّا))**(٢).

---

(١) أخرجه أبو داود [٥٢٣٩]، والطبراني في (الأوسط) [٢٤٤١]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٨٤/٣): "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله ثقات". وأخرجه أيضًا: البيهقي [١١٧٥٨]، والضياء [٢١٥].

(٢) أخرجه الطبراني في (الأوسط) [٥٦١٥]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١١٥/٨): "رواه الطبراني في (الأوسط)، ورجاله كلهم ثقات". وأخرجه أيضًا: البيهقي [١١٥٤٣].

وسئل أبو داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن معنى هذا الحديث فقال: "هذا الحديث مختصر، يعني: من قطع سدرة في فلاة يستظل بها ابن السبيل، والبهائم، عبثًا، وظلمًا بغير حق يكون له فيها، صوب الله رأسه في النار"اهـ.

ثانيًا: الوقاية من هذا الفعل والعلاج:

والوقاية من هذا الفعل إنما تكون بعمارة الكون بالمحبة والإصلاح، والبعد عن العبث والإفساد، وقد شاءت إرادة الله عَزَّوَجَلَّ أن يجعل الإنسان خليفة في الأرض؛ ليقوم بعمارتها، وأعطاه من النِّعم ما يعينه على القيام بهذه المهمة، والتشريعات في الأديان السماوية إنما جاءت بما فيه صلاح الناس في حياتهم وآخرتهم، فدعت إلى عمارة الكون بالمحبة والرحمة والإصلاح والتعاون، ومن نعم الله عَزَّوَجَلَّ العظيمة أنه سخر للإنسان ما في الكون، وجعل ما فيه من المخلوقات مذللة له.

والمؤمن ينتفع مما سخر الله عَزَّوَجَلَّ له من غير اعتداء أو إفساد أو ظلم، وينفع الآخرين، ويتعاون معهم، ويشكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه الوافرة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَّكُم مِّنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنبِتُ لَكُم بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِى ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل:١٠-١١].

ومن شأن المؤمن أن يكون رحيمًا ومحسنًا، ولا يقف مفهوم الإحسان في الإسلام عند إحسان المرء لنفسه ولغيره من أبناء جنسه، ولكنه يشمل عموم المخلوقات بما في ذلك الحيوان والنبات.

وقد جاء وصية الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أوصيكم بتقوى الله، لا تعصوا، ولا تغلوا، ولا تجبنوا، ولا تغرقوا نخلًا، ولا تحرقوا زرعًا، ولا تحبسوا بهيمة، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا شيخًا كبيرًا، ولا صبيًّا صغيرًا، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم للذي حبسوها فذروهم وما حبسوا أنفسهم له.."(1).

ومن الأحاديث التي فيها: الحثُّ على عمارة الأرض وتنميتها -حتى ولو كانت في آخر أيامها- قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة**(2) **فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**))(3).

وهو مبالغة في الحثِّ على غرس الأشجار، وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها عَزَّ وَجَلَّ، فكما غرس لك غيرُك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدَك؛ لينتفعَ -وإن لم يبق من الدنيا صُبَابَة-(4).

---

(١) مسند أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأبي بكر أحمد بن علي المروزي، بتحقيق: شعيب الأرناؤوط (ص:٧١-٧٢)، و(ابن زنجويه) كما في (كنز العمال) [١٤١١]، وأخرجه ابن عساكر (٢/٥٠)، فوائد ابن أخي ميمي الدقاق [٥٤٩]، الكامل في التاريخ (٢/١٩٦).

(٢) "الفَسِيلُ: صغار النخل، وهي: الوَدِيُّ، والجمع: فُسْلَان، مثل: رغيف ورغفان، الواحدة: فَسِيلَة، وهي التي تقطع من الأُمِّ، أو تقلع من الأرض فتغرس. و(رجل فَسْل): رديء. المصباح المنير، مادة: (فسل) (٢/٤٧٣)، وانظر: لسان العرب (١١/٥١٩).

(٣) أخرجه أحمد [١٢٩٨١]، وعبد بن حميد [١٢١٦]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٤٧٩]، والبزار [٧٤٠٨]. قال الهيثمي (٤/٦٣): " رواه البزار، ورجاله أثبات ثقات، لعله أراد بقيام الساعة: أمارتها ". وأخرجه أيضًا: ابن الأعرابي في (معجمه) [١٧٩]، والضياء [٢٧١٤]، وقال: "إسناده صحيح".

(٤) فيض القدير (٣/٣٠). و(الصَّبَابة) -بالفتح-: رقة الشوق وحرارته. و(الصُّبَابة) -بالضم-: بقية الماء واللبن وغيرهما تبقى في الإناء والسقاء. والمعنى: وإن لم يبق من الدنيا إلا الوقت اليسير.

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة))**(١).

وفي رواية: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **((ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السَّبُعُ منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزَؤُهُ أحد إلا كان له صدقة))**(٢). ففيه: حثٌّ على عمارة الأرض، ولو كان المنتفع من الزرع البهائم لنال الزارعَ الأجرُ.

ولكن عمارة الأرض لا تعني: الركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، ولكن المسلم يقف موقف الموازنة بين المتطلبات الدنيوية -وما تقتضيه من الوفاء بالحقوق تجاه الآخرين- وبين العمل للآخرة، كما قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧]. وقد فصلت القول في ذلك في كتاب: (المحبة صورها وأحكامها).

---

(١) صحيح البخاري [٢٣٢٠]، مسلم [١٥٥٣].

(٢) صحيح مسلم [١٥٥٢]. قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((ولا يرزؤه)) أي: لا ينقصه ويأخذ منه.

المبحث الرابع والعشرون
تعذيب الحيوان

أولًا: خطورة تعذيب الحيوان والقسوة عليه:

لا يقف الإحسان في الإسلام على إحسان المرء لنفسه وإخوانه من أبناء جنسه، ولكنه يشمل المخلوقات الأخرى.

وقد كانت مجتمعات كثيرة في الماضي لا ترى نصيبًا للحيوان من الرفق أو الرحمة. ولا تزال بعض المجتمعات المعاصرة تلهو بقتل الحيوان أو تعذيبه في أعيادها، وفي أفراحها، وفي رياضاتها.

أما التشريعات الإسلامية فتبين أن عالم الحيوان له خصائصه وطبائعه وشعوره، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ﴾ [الأنعام:٣٨]، أي: في الخلق والموت والبعث والاحتياج إلى مدبر يدبر أمرها، وفي كونها دالة على الصانع ومسبحة له كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء:٤٤]، أي: يسبح بلسان القال أو الحال، حيث يدل على الصانع وعلى قدرته وحكمته وتنزيهه عمَّا لا يجوز عليه، فبالنظر إلى هذا المعنى، لا يجوز التعرض لها بالقتل والإفناء، إلا إذا كان لدفع مضرة، كقتل الفواسق الخمس، أو جلب منفعة، كذبح الحيوانات المأكولة كما جاء ذلك مبينًا في النصوص.

وقد جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أن نملة قرصت نبيًا من الأنبياء، فأمر بقرية النمل فأحرقت، فأوحى الله إليه: أفي أن قرصتك نملة أهلكت أمة من الأمم تسبح؟**))(١).

ومن الأحاديث الدالة على أن عالم الحيوان له خصائصه وشعوره: ما جاء عن عبد الله بن جعفر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: أردفني رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم خلفه، فَأَسَرَّ إِلَيَّ حديثًا لا أُحَدِّثُ به أحدًا من الناس، قال: وكان أَحَبَّ ما استتر به رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحاجته هَدَفًا أو حَائِشَ نَخْلٍ، فدخل حائطًا لرجل من الأنصار، فإذا جمل، فلما رأى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَنَّ إليه، وَذَرَفَتْ عيناه، فأتاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فمسح ذِفْرَاهُ فسكن، فقال: ((**من رَبُّ هذا الجمل، لمن هذا الجمل؟**)) قال: فجاء فتىً من الأنصار فقال: هو لي يا رسول الله فقال: ((**ألا تَتَّقِي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها، فإنه شكا لي أنك تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُه**))(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٣٠١٩]، مسلم، واللفظ له [٢٢٤١].

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣١٧٥٦]، وأحمد [١٧٤٥]، وأبو داود [٢٥٤٩]، وأبو يعلى [٦٧٨٧]، والطبراني في (الكبير) [١٩٣]، وأبو عوانة [٤٩٧]، والحاكم [٢٤٨٥] وصححه، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٥٨١٤]، والضياء [١٣٥]. قوله: ((هدفا)) كل ما كان له شخص مرتفع من بناء وغيره. ((أو حائش نخل)) هو النخل الملتف المجتمع كأنه لالتفافه يحوش بعضه بعضًا. وقال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: الحائش جماعة النخل الصغار. ((حائطا)) أي: بستانًا. ((وذرفت)) أي: جرت. و((ذفراه)) قال الخطابي رَحِمَهُ اللَّهُ: (الذفرى من البعير) مؤخر رأسه، وهو الموضع الذي يعرف من قفاه. وقال في (النهاية) ذفرى البعير: أصل أذنه، وهي مؤنثة، وهما ذفريان، وألفها للتأنيث. و((تدئبه)) أي: تكده وتتعبه في العمل. انظر: معالم السنن (٢٤٨/٢)، كشف المشكل (١٢/٤)، عون المعبود (١٥٨/٧)، النهاية في غريب الحديث والأثر (١٦١/٢).

وإن تعذيب الحيوان والقسوة عليه من أسباب ولوج النار، كما جاء في الحديث: عن عبد الله بن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**دخلت امرأة النار في هرة ربطتها، فلم تطعمها، ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض**))(١).

وفي رواية: عن أسماء بنت أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلى صلاة الكسوف، فقام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم قام فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع، ثم سجد، فأطال السجود، ثم رفع، ثم سجد، فأطال السجود، ثم قام، فأطال القيام، ثم ركع فأطال الركوع، ثم رفع فأطال القيام ثم ركع، فأطال الركوع، ثم رفع، فسجد، فأطال السجود، ثم رفع، ثم سجد، فأطال السجود، ثم انصرف، فقال: ((**قد دنت مِنِّي الجنة، حتى لو اجْتَرَأْتُ عليها، لجئتكم بِقِطَافٍ من قطافها، ودنت مِنِّي النار حتى قلتُ: أَيْ رَبِّ، وأنا معهم؟ فإذا امرأة - حَسِبْتُ أنه قال:- تَخْدِشُهَا هِرَّة، قلت: ما شأن هذه؟ قالوا: حَبَسَتْهَا حتى ماتت جوعًا، لا أطعمتها، ولا أرسلتها تأكل -قال نافع: حسبت أنه قال: من خَشِيش أو خَشَاش الأرض**))(٢).

ومن أنواع التعذيب المنهي عنها: صبر البهائم كما صحَّ عن هشام بن زيد، قال: دخلت مع أنس، على الحكم بن أيوب، فرأى غلمانًا، أو فتيانًا، نصبوا دجاجة يرمونها، فقال أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نهى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن تُصْبَرَ البهائم(٣) -بضم أوله-: أي تحبس لترمى حتى تموت، وأصل الصبر: الحبس.

---

(١) صحيح البخاري [٢٣٦٥، ٣٣١٨، ٣٤٨٢]، مسلم [٢٢٤٢].

(٢) صحيح البخاري [٧٤٥]. و((تخدشها)): تقشر جلدها. و((خشاش)) -بفتح الخاء المعجمة-: حشرات وهوام الأرض. وقيل: صغار الطير. وحكى القاضي رَحِمَهُ اللَّهُ: فتح الخاء وكسرها وضمها والفتح هو المشهور. وقال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: هو الحية ونحوها مما في الأرض. انظر: شرح النووي على صحيح مسلم (٢٠٧/٦)، إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم (٤٧/٨)، الصحاح، مادة: (خشش) (١٠٠٤/٣).

(٣) صحيح البخاري [٥٥١٣]، مسلم [١٩٥٦].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قال العلماء: صبر البهائم أن تحبس وهي حية؛ لتقتل بالرمي ونحوه، وهو معنى: ((**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**))(١)، أي: لا تتخذوا الحيوان الحي غرضًا ترمون إليه كالغرض من الجلود وغيرها. وهذا النهي للتحريم، ويدل على ذلك ما ورد من لعن من فعل ذلك كما في حديث ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا(٢)، ولأن الأصل في تعذيب الحيوان وإتلاف نفسه وإضاعة المال التحريم(٣).

وتصير ميتة لا يحل أكلها ويخرج جلدها عن الانتفاع به.

وعن أبي صالح الحنفي عن رجل من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -أُرَاهُ ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا-، قال سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**من مَثَّلَ بذي روح، ثم لم يتب مَثَّلَ الله به يوم القيامة**))(٤).

وعن جابر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مرَّ عليه حمار قد وُسِمَ في وجهه فقال: ((**لعن الله الذي وَسَمَه**))(٥).

---

(١) صحيح مسلم [٥٨] عن ابن عباس.

(٢) والحديث في (الصحيحين): عن سعيد بن جبير، قال: كنت عند ابن عمر، فمروا بفتية، أو بنفر، نصبوا دجاجة يرمونها، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا عنها، فقال ابن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: من فعل هذا؟ إن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لعن من فعل هذا. صحيح البخاري [٥٥١٥]، مسلم [١٩٥٨]. ونحوه عن المغيرة بن شعبة أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مر على نفر من الأنصار يرمون حمامة فقال: ((لا تتخذوا الروح غرضًا)). أخرجه الطبراني في (الكبير) [٩٠٥]، و(الأوسط) [٢٠٨٢]. قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣١/٤): "رواه الطبراني في (الأوسط)، و(الكبير)، وإسناده حسن".

(٣) نيل الأوطار (٩٩/٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٧/١٣-١٠٨)،

(٤) أخرجه أحمد [٥٦٦١]، وابن الجعد [٢٢٦٤]. قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٣٢/٤): "رواه أحمد، ورجاله ثقات".

(٥) صحيح مسلم [٢١١٧].

وفي رواية: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُرَّ عليه بحمار قد وُسِمَ في وجهه، فقال: ((**أما بَلَغَكُمْ أني قد لعنت من وَسَمَ البهيمة في وجهها أو ضربها في وجهها؟**)) فنهى عن ذلك[(1)].

وعند الطبراني في (الكبير): عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لعن من يسم في الوجه[(2)].

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وأما الضرب في الوجه فمنهي عنه في كل الحيوان المحترم من الآدمي والحمير والخيل والإبل والبغال والغنم وغيرها، لكنه في الآدمي أشد؛ لأنه مجمع المحاسن مع أنه لطيف؛ لأنه يظهر فيه أثر الضرب، وربما شانه[(3)]، وربما آذى بعض الحواس. وأما الوسم في الوجه فمنهي عنه بالإجماع"[(4)].

وقال في (المجموع): "الوسم على الوجه منهي عنه بالاتفاق، وهو من أفعال الجاهلية"[(5)].

ويدخل في هذا الباب: التحريش بين الحيوانات. والتحريش: الإغراء بين القوم، أو البهائم، كالكلاب والثيران والجمال والكباش والديوك وغيرها بتهييج بعضها على بعض. ووجه النهي أنه إيلام للحيوانات، وإتعاب لها بدون فائدة، بل مجرد عبث[(6)].

---

(١) أخرجه أبو داود بسند صحيح [٢٥٦٤].

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١١٩٢٦]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٨/١١٠): "رواه الطبراني، ورجاله ثقات".

(٣) قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: "الشين: خلاف الزين. يقال: شانه يشينه. والمشاين: المعايب والمقابح" الصحاح، مادة: (شين) (٥/٢١٤٧).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٤/٩٧).

(٥) المجموع شرح المهذب (٦/١٧٧).

(٦) انظر: الصحاح، مادة: (حرش) (٣/١٠٠٠)، نيل الأوطار (٨/٩٩)، عون المعبود (٧/١٦٥)، تحفة الأحوذي (٥/٢٩٩).

ومن أقبح أنواع التعذيب: التحريق بالنار. وهو غير جائز في شريعتنا، وقد علل الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن هذا بأنه لا يُعَذِّبُ بالنَّار إلا ربُّ النَّار[1].

"وتمضي الشريعة في تشريع الرحمة بالحيوان: فتُحَرِّم المكْث طويلاً على ظهره وهو واقف؛ فقد قال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**اركبوها سالمة، ودعوها سالمة، ولا تتخذوها كراسي**))[2].

وتحرم إجاعته وتعريضه للضَّعف والهُزال؛ فقد مرَّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِبَعِيرٍ قد لصق ظهره ببطنه، فقال: ((**اتقوا الله في هذه البهائم المعجمة، فاركبوها صالحة، وكلوها صالحة**))[3]. وفي لفظ: ((**اتقوا الله في هذه البهائم، ثم اركبوها صحاحًا، وكلوها**[4] **سمانًا**))[5].

---

(١) الحديث مروي عن حمزة بن عمرو الأسلمي، وعن أبي هريرة. حديث: حمزة بن عمرو الأسلمي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه عبد الرزاق [٩٤١٨]، وسعيد بن منصور [٢٦٤٣]، وأحمد [١٦٠٣٤]، وأبو داود [٢٦٧٣]، وأبو يعلى [١٥٣٦]، والطبراني [٢٩٩٦]. حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أخرجه أبو داود [٢٦٧٤]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٥١/٦): "رواه الطبراني والبزار وفيه سعيد البراد ولم أعرفه، وبقية رجاله ثقات". قال البزار رَحِمَهُ اللَّهُ: "قد روي من وجوه، وسعيد البراد بصري، روى عنه حماد بن زيد وسعيد". كشف الأستار (٢١١/٢).

(٢) أخرجه أحمد [١٥٦٢٩]، والدارمي [٢٧١٠]، والحارث [٨٨٦]، وابن خزيمة [٢٥٤٤]، وابن حبان [٥٦١٩]، والطبراني [٤٣٢]، والحاكم [٢٤٨٦] وقال: "صحيح الإسناد"، ووافقه الذهبي، وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٠٣٣٦]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٤٠/١٠): "رواه أحمد، وإسناده حسن".

(٣) أخرجه أبو داود بإسناد صحيح [٢٥٤٨]، وابن خزيمة [٢٥٤٥].

(٤) في بعض النسخ: "واركبوها".

(٥) أخرجه أحمد [١٧٦٢٥]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٩٦/٣): "رواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح". وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم في (الآحاد والمثاني) [٢٠٧٤]، وابن حبان [٥٤٥]، والطبراني في (الكبير) [٥٦٢٠]، وفي (الشاميين) [٥٨٤].

كما يحرم إرهاقه بالعمل فوق ما يَتَحمَّل. وقد جاء في الحديث -كما تقدم- أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال لصاحب الجمل: ((**ألا تَتَّقِي الله في هذه البهيمة التي مَلَّكَكَ الله إياها، فإنه شكا لي أنك تُجِيعُهُ وَتُدْئِبُه**))[1].

كما يحرم التَّلَهِّي به في الصيد، واتخاذه هدفًا لتعليم الإصابة، كما جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا، أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ قال: ((**لا تتخذوا شيئًا فيه الروح غرضًا**))[2].

وفي رواية: عن سعيد بن جبير رَحِمَهُٱللَّهُ، قال: مر ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا بفتيان من قريش قد نصبوا طيرًا، وهم يرمونه، وقد جعلوا لصاحب الطير كل خاطئة من نبلهم، فلما رأوا ابن عمر تفرقوا، فقال ابن عمر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُمَا: ((**من فعل هذا لعن الله، من فعل هذا؟ إن رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ **لعن من اتخذ شيئًا فيه الروح غرضًا**))"[3].

قال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: "هذا النهي للتحريم؛ لقوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**لعن الله من فعل هذا**))؛ ولأنه تعذيب للحيوان، وإتلاف لنفسه، وتضييع لِمَالِيَّتِه، وتفويت لذكاته إن كان مُذَكًّى، ولمنفعته إن لم يكن مُذَكًّى"[4].

---

(١) تقدم.

(٢) صحيح مسلم [٥٨].

(٣) صحيح مسلم [١٩٥٨]. بتصرف عن كتاب: (من روائع حضارتنا) د. مصطفى السباعي (ص:١٧٩).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٨/١٣)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٢٦٥٠/٦).

ثانيًا: الوقاية من مخاطر تعذيب الحيوان والعلاج:

١ – الرحمة والرفق والإحسان:

إنَّ الرفق بالحيوان وعدم ظلمه، أو تعذيبه، أو تحميله فوق طاقته، أو تجويعه، أو ضربه إلى غير ذلك هو عين الإحسان الذي أوجبه الخالق عَزَّوَجَلَّ.

وكما أن تعذيب الحيوان والقسوة عليه من أسباب العذاب في الآخرة فإن الرحمة والرفق بالحيوان من أسباب دخول الجنة، كما في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها، فشرب ثم خرج، فإذا كلب يلهث، يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل: لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خُفَّه، ثم أمسكه بِفِيه، فسقى الكَلْبَ فَشَكَرَ اللهُ له**[1] **فغفر له**))، قالوا: يا رسول الله وإن لنا في البهائم أجرًا؟ فقال: ((**نعم، في كل ذات كبد رطبة أجر**))[2].

وقد أمر النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بإحسان هيئة الذبح وهيئة القتل كما جاء في الحديث عن شَدَّاد بن أوس، قال: ثِنْتَان حَفِظْتُهُمَا عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إن الله كتب الإحسان على كل شيء، فإذا قتلتم فأحسنوا الْقِتْلَة، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذَّبْحَ، ولْيُحِدَّ أحدُكُمْ شفْرَتَه، فَلْيُرِحْ ذَبِيحَتَه**))[3].

وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه. قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والإحسان في قتل ما يجوز قتله من الناس والدواب:

---

(١) أي: أثنى عليه فجزاه على ذلك بأن قبل عمله وأدخله الجنة.

(٢) صحيح البخاري [١٧٣، ٢٣٦٣، ٢٤٦٦، ٦٠٠٩]، مسلم [٢٢٤٤].

(٣) صحيح مسلم [١٩٥٥].

إزهاق نفسه على أسرع الوجوه وأسهلها وأوحاها[١] من غير زيادة في التعذيب، فإنه إيلام لا حاجة إليه.

و(القتلة) و(الذبحة) بالكسر[٢]، أي: الهيئة. والمعنى: أحسنوا هيئة الذبح، وهيئة القتل. وهذا يدل على وجوب الإسراع في إزهاق النفوس التي يباح إزهاقها على أسهل الوجوه. وقد حكى ابن حزم الإجماع على وجوب الإحسان في الذبيحة"[٣].

٢ – أن لا تستعمل الدَّوَاب إلا فيما جرت العادة باستعمالها فيه:

جاء في (الصحيح): عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: صلى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صلاة الصبح، ثم أقبل على الناس، فقال: ((**بينا رجل يسوق بقرة إذ ركبها فضربها، فقالت: إنا لم نخلق لهذا، إنما خلقنا للحرث**)) فقال الناس: سبحان الله بقرة تَكَلَّم، فقال: ((**فإني أومن بهذا، أنا وأبو بكر، وعمر**)) -وما هما ثَمَّ-[٤]. الحديث[٥].

٣ – الاحتراز عن قتل الحيوانات إلا الصائل منها والمؤذي:

وقد جاء في الحديث: النهي عن قَتْل أربعٍ من الدَّوابِّ: النَّمْلَة، والنَّحْلَة، والْهُدْهُد، والصُّرَد[٦].

---

(١) الوحا: السرعة والعجلة، يمد ويقصر. يقال: (الوحا الوحا) أي: السرعة السرعة، أو البدار البدار. انظر: المحكم والمحيط الأعظم (٣٨/٤)، النهاية في غريب الحديث والأثر (١٦٣/٥)، مختار الصحاح (ص: ٣٣٤)، لسان العرب (٣٨٢/١٥)، مادة: (وحي).

(٢) ((فأحسنوا الذِّبْحَة)) بوزن: فعلة، رواية عند: أحمد والترمذي والنسائي والبيهقي وغيرهم.

(٣) جامع العلوم والحكم (٣٨٢/١).

(٤) (وما هما ثم) –بفتح المثلثة– أي: ليسا حاضرين. قال العلماء: إنما قال ذلك ثقة بهما؛ لعلمه بصدق إيمانهما، وقوة يقينهما، وكمال معرفتهما؛ لعظيم سلطان الله عَزَّوَجَلَّ، وكمال قدرته. ففيه فضيلة ظاهرة لأبي بكر وعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. شرح النووي على صحيح مسلم (١٥٦/١٥)، وانظر: فتح الباري (٥١٨/٦).

(٥) صحيح البخاري [٣٤٧١، ٣٦٦٣]، مسلم [٢٣٨٨].

(٦) ونص الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: نهى رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل أربع من الدواب: النملة، والنحلة، والهدهد، والصرد. أخرجه عبد الرزاق [٨٤١٥]، وأحمد [٣٠٦٦]، وابن حميد [٦٥٠]، وابن=

ويستثنى من الحيوانات التي لا يجوز قتلها: الفواسق الخمس فإنهن يقتلن في الحل والحرم. والفواسق الخمس -كما ورد في (الصحيح)-: الفأرة، والعقرب، والحُدَيَّا، والغراب، والكلب العقور(١).

وعند مسلم: الحيَّة، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحُدَيَّا(٢).

قال الإمام أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العارضة): "أمر بالقتل، وعلل بالفسق، فيتعدى الحكم إلى كل ما وجدت فيه العلة، ونبه بالخمسة على خمسة أنواع من الفسق. فنبه بالغراب على ما يجانسه من سباع الطير، وكذا بالحدأة، ويزيد الغراب بحل سفرة المسافر، ونقب جرابه، وبالحية على كل ما يلسع، والعقرب كذلك - والحية تلسع وتفترس، والعقرب تلدغ، ولا تفترس - وبالفأرة على ما يجانسها من هوام المنزل المؤذية، وبالكلب العقور على كل مفترس، قال: ومعنى فسقهن: خروجهن عن حد الكف إلى الأذية"(٣).

وأمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علاوة على الفواسق الخمس بقتل الْوَزَغ، وسماه: فويسقًا(٤).

=ماجه [٣٢٢٤]، وأبو داود [٥٢٦٧]، والبزار [٥٢٨٩]، وابن حبان [٥٦٤٦]، والطبراني [٥٧٢٨]، والبيهقي [١٠٠٧٠]، والضياء [١٣٢]. قال الحافظ وصاحب (الإلمام): "رجاله رجال الصحيح". وقال البيهقي: "هو أقوى ما ورد في هذا الباب." وقال في (بلوغ المرام): "صححه ابن حبان". التلخيص الحبير (٥٨٤/٢)، الإلمام بأحاديث الأحكام، لابن دقيق العيد (٤٤٤/٢)، فتح الغفار الجامع لأحكام سنة نبينا المختار (١٩١٥/٤). و((الصرد)) -بضم ففتح-: طائر فوق العصفور؛ لأنه يحرم أكله، ولا منفعة في قتله.

(١) صحيح البخاري [٣٣١٤]، مسلم (٦٨- ٦٩) [١١٩٨].

(٢) صحيح مسلم (٦٧) [١١٩٨].

(٣) عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٦٣/٤-٦٤)، وانظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٤٣١/٢).

(٤) صحيح البخاري [١٨٣١، ٣٣٠٧، ٣٣٥٩]، مسلم [٢٢٣٧، ٢٢٣٨].

وكذلك قتل الحيات، ومنها: الأبتر وذو الطُّفْيَتَيْن؛ فإنهما يلتمسان البصر، ويستسقطان الحَبَلَ[(١)].

قال الزُّهْريُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ونُرَى ذلك من سُمَّيْهِمَا -والله أعلم-[(٢)].

ويستحب كذلك قتل كل ما فيه أذى من الحشرات كالبرغوث، والبق.. إلى غير ذلك.

٤ - سن قوانين رادعة تلزم مالك الحيوان بالنفقة عليه ورعايته، وتعاقب من يعذِّب الحيوان، ويسيء ويعتدي:

"يقرر الفقهاء المسلمون من أحكام الرحمة بالحيوان ما لا يخطر بالبال. فهم يقررون أن النفقة على الحيوان واجبة على مالكه، فإن امتنع أجبر على بيعه أو الإنفاق عليه، أو تسييبه إلى مكان يجد فيه رزقه ومأمنه، أو ذبحه إذا كان مما يؤكل.

وهكذا كان طابَع حَضَارتنا: رفقًا بالحيوان، وعناية به من قبل الدولة والمؤسسات الاجتماعية.

أما عناية الدولة، فليس أدلُّ على ذلك من أن خلفاءها كانوا يُذيعون البلاغات العامة على الشَّعب يُوصونهم فيها بالرِّفق بالحيوان، ومنع الأذى عنه، والإضرار به؛ فقد أذاع عمَر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ في إحدى رسائله إلى الولاة أن ينهوا الناس عن ركض الفرس في غير حقٍّ[(٣)].

---

(١) صحيح البخاري [٣٢٩٧، ٣٣٠٨]، مسلم [٢٢٣٢، ٢٢٣٣].

(٢) صحيح مسلم [٢٢٣٣].

(٣) انظر: سيرة عمر بن عبد العزيز على ما رواه الإمام مالك بن أنس وأصحابه، لعبد الله بن عبد الحكم (ص:٥٤).

وكتب إلى صاحب السكك -وهي وظيفة تشبه مصلحة السير- ألاَّ يسمحوا لأحدٍ بإلجام دابَّته بلجام ثقيل، أو أن ينخسَها بمقرعة[1] في أسفلها حديدة[2].

وكان مِن وظيفة المحتسِب -وهي وظيفة تشبه في بعض صلاحياتها وظيفةَ الشرطي في عصرنا الحاضر-: أن يمنعَ الناس من تحميل الدوابِّ فوق ما تطيق، أو تعذيبها وضَرْبها أثناء السَّيْر، فمَن رآه يفعل ذلك أدَّبه وعاقَبه.

وأمَّا المؤسسات الاجتماعية، فقد كان للحيوان منها نصيبٌ كبيرٌ، وحسبنا أن نجدَ في ثبت الأوقاف القديمة أوقافًا خاصَّة لتطبيب الحيوانات المريضة، وأوقافًا لرَعْي الحيوانات المسِنَّة العاجِزة.

وهذا كلُّه يدلُّكَ على رُوح الشَّعب الذي بلغ منَ الرِّفق بالحيوان إلى هذا الحدِّ، وهو ما لا تجد له مثيلاً، ولعل أصدق مثالٍ عن رُوح الشَّعب في ظل حَضَارتنا، أن ترى صحابيًّا جليلًا كأبي الدَّرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يكون له بعيرٌ، فيقول له عند الموت: يا أيها البعير، لا تخاصمني إلى ربِّك؛ فإنِّي لم أكن أحملك فوق طاقتكَ[3]، وأن صحابيًّا كعدي بن حاتم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يفتُّ الخبز للنمل، ويقول: إنهن جارات لنا، ولهنَّ علينا حقٌّ[4]، وأن إمامًا كبيرًا كأبي إسحاق الشِّيرازي رَحِمَهُ اللَّهُ كان يمشي في طريق ومعه بعض أصحابه، فعرض له

---

(١) أصل (النَّخس): الدَّفع والحَرَكة. يقال: نخس الدابة نخسا: طعن مؤخرها أو جنبها بالمنخاس؛ لتنشط. والقرع: مصدر قرعت الإنسان والدابة بالعصا أقرعه قرعا، وكل ما قرعت به فهو مقرعة.

(٢) وكتب عمر رَحِمَهُ اللَّهُ إلى حَيَّان بمصر: إنه بلغني أن بمصر إبلًا نقالات يحمل على البعير منها ألف رطل، فإذا أتاك كتابي هذا فلا أعرفن أنه يحمل على البعير أكثر من ستمائة رطل. سيرة عمر بن عبد العزيز (ص:١٤١).

(٣) انظر: قوت القلوب في معاملة المحبوب (١٩٥/٢)، إحياء علوم الدين (٢٦٤/١).

(٤) شعب الإيمان [١٠٥٦٧]، تهذيب الأسماء واللغات (٣٢٨/١)، المنتظم في تاريخ الأمم والملوك (٧٨/٦)، الجزء المتمم لطبقات ابن سعد (ص:٦٥٩)، أسد الغابة (٧/٤).

كلب فزجره صاحبه، فنهاه الشيخ، وقال له: "أما علمت أنَّ الطريق مشترك بيننا وبينه؟!"[1][2].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينبغي على المسلم "أن يرفق بالدابة إن كان راكبًا فلا يحملها ما لا تطيق، ولا يضربها في وجهها؛ فإنه منهي عنه، ولا ينام عليها؛ فإنه يثقل بالنوم وتتأذى به الدابة. كان أهل الورع لا ينامون على الدواب إلا غفوة. وقال صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا تتخذوا ظهور دوابكم كراسي**))[3].

ويستحب أن ينزل عن الدابة غدوة وعشية يروحها بذلك[4].

٥ – يتعين وجود متخصصين في الطب البيطري، ومستشفيات ووحدات تعنى بمعالجة ما يصيب الحيوان من أمراض:

وتَعيُّنُ ذلك في المجتمع الإسلامي: كفائي، وينبغي على المسؤولين: العناية بالطلبة في هذا التخصص وتشجيعهم، وتوفير احتياجاتهم، وتوفير الأجهزة الطبية الملائمة، ومواكبة المستجد من العلوم الطبية، والعلاج الطبي المناسب، والمراقبة الصحية من خلال الوحدات الطبية حتى لا يتفشى المرض، ويعظم الضرر، فإن ذلك كله من تمام الإحسان، وأسباب الرقي.

---

(١) انظر: المجموع شرح المهذب، للإمام النووي (١/١٤)، طبقات الشافعيين، لابن كثير (ص:٤٢٧)، (ص:٤٦٢).

(٢) بتصرف عن كتاب: (من روائع حضارتنا) د. مصطفى السباعي (ص:١٧٧-١٨٥).

(٣) تقدم.

(٤) إحياء علوم الدين (٢/٢٥٥).

المبحث الخامس والعشرون
المكر والخديعة

أولًا: المكر والخديعة من الذنوب المتوعد عليها بالنار:

قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(المكر): الاحتيال والخديعة، وقد مكر به فهو (ماكرٌ) و(مَكَّار)"(١).

وخَدَعَهُ يَخْدَعُهُ خِدْعًا مثلُ: سَحَرَهُ يَسْحَرُهُ سِحْرًا، أي: خَتَلَهُ وأراد به المكروه من حيث لا يعلم. والاسم: الخديعَة. والخَدْعَةُ المرةُ الواحدة. والانخِداع: الرِّضا بالخَدْع. والتَّخادُع: التَّشَبُّه بالمخدوع. والخُدْعَة: الرَّجلُ المخدوع"(٢).

والخداع يشبه الكيد إلا أن ثمة فرقًا بينهما. قال العسكري: "الفرق بين الخدع والكيد: أن الخدع هو إظهار ما يبطن خلافه، أراد اجتلاب نفع أو دفع ضر، ولا يقتضي أن يكون بعد تدبر ونظر وفكر. ألا ترى أنه يقال: خدعه في البيع: إذا غشه من جشع، وأوهمه الانصاف"(٣).

---

(١) الصحاح، للجوهري، مادة: (مكر) (٢/٨١٩)، وانظر: مقاييس اللغة، لابن فارس، مادة: (مكر) (٥/٣٤٥)، مجمل اللغة (١/٨٣٨).

(٢) الصحاح، مادة: (خدع) (٣/١٢٠١)، العين (١/١١٥).

(٣) الفروق اللغوية (ص:٢٥٨).

وقال: "المكر مثل الكيد في أنه لا يكون إلا مع تدبر وفكر إلا أن الكيد أقوى من المكر.."(١).

وقيل: المكر: إرادَة الماكر فِعْل السُّوء بالمَمْكُور به في غفلة منه عما يراد به، وعدم حذرِه من شرٍّ يأتيه من جهة الماكِر. أما الخداع فهو تدبيرُ فِعْلٍ خَفِيٍّ يقوم به المخادع؛ لإيقاعِ الضررِ والشرِّ بالمخدوع من حيث لم يحذر ويتنبه، كأن يرقب المخدوع قدوم السوء من بابٍ فيفجأه من باب آخر.

وقد جاء في الحديث: عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قال: كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يدعو يقول: ((**ربِّ أَعِنِّي ولا تُعِنْ عَلَيَّ، وانْصُرْنِي ولا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وامْكُرْ لي ولا تَمْكُرْ عَلَيَّ..**)) الحديث(٢).

قال ابن الأثير رَحِمَهُ اللَّهُ: "(مكر الله): إيقاع بلائه بأعدائه دون أوليائه.

وقيل: هو استدراج العبد بالطاعات، فيتوهم أنها مقبولة وهي مردودة. والمعنى: ألحق مكرك بأعدائي لا بي. وأصل المكر: الخداع. يقال: مكر يمكر مكرًا"(٣).

وقال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "المكر والخديعة: متقاربان، وهما اسمان لكل فعل يقصد فاعله في باطنه خلاف ما يقتضيه ظاهره، وذلك ضربان:

---

(١) انظر: المصدر السابق (ص: ٢٦٠).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٢٩٣٩٠]، وأحمد [١٩٩٧]، وعبد بن حميد [٧١٧]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٦٦٥]، وابن ماجه [٣٨٣٠]، وأبو داود [١٥١٠]، والترمذي [٣٥٥١]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: النسائي في (الكبرى) [١٠٣٦٨]، وفي (عمل اليوم والليلة) [٦٠٧]، وابن حبان [٩٤٧]، والطبراني في (الدعاء) [١٤١١]، والحاكم [١٩١٠]، وقال: "صحيح الإسناد".

(٣) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (مكر) (٤/ ٣٤٩).

أحدهما: مذموم: وهو الأشهر عند الناس والأكثر، وذلك أن يقصد فاعله إنزال مكروه بالمخدوع، وهو الذي قصده النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ بقوله: ((**المكر والخديعة في النَّار**))(١)، والمعنى: أنهما يؤديان بقاصدهما إلى النار.

والثاني: على عكس ذلك، وهو أن يقصد فاعلهما إلى استجرار المخدوع والممكور به إلى مصلحة لهما، كما يفعل بالصبي إذا امتنع من تعلم خير.

وقد قال بعض الحكماء: المكر والخديعة محتاج إليهما في هذا العالم، وذلك أن السفيه يميل إلى الباطل ولا يميل إلى الحق ولا يقبله؛ لمنافاته لطبعه، فيحتاج أن يخدع عن باطله بزخارف مموهة كما يخدع الطفل عن الثدي عند الفطام. وليس هذا حث على تعاطي الخبث، بل هو حث على جذب الناس إلى الخير بالاحتيال.

ولكون المكر والخديعة ضربين: سيئًا وحسنًا قال اللَّه عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:١٠].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ نَذِيرٌ مَا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٢-٤٣].

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ﴾ [النحل:٤٥].

فخصَّ في هذه الآيات: السيء من المكر؛ تنبيهًا على جواز المكر الحسن(٢)، فقال: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤].

(١) سيأتي تخريجه.

(٢) يجوز المكر بمن يجوز إدخال الأذى عليه، وهم الكفار والمحاربون، كما قال النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((الحرب خدعة)). جامع العلوم والحكم (٢/٢٦٥). والحديث متفق عليه.

وأما الكيد: فإرادة متضمنة لاستتار ما يراد عمن يراد به، وأكثر ما يستعمل ذلك في الشر، ومتى قصد به الشر فمذموم، ومتى قصد به خير فمحمود، وعلى الوجه المحمود.

قال عَزَّوَجَلَّ: ﴿كَذَلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [يوسف:٧٦].

وعلى ذلك الاستدراج منه أيضًا نحو قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣].."[1].

وما يعنيا هنا: المذموم من المكر، والمتوعد عليه بالعذاب في الآخرة.

ومن الآيات التي تدلُّ على ثبوت العذاب في الآخرة عقوبة للمكر والخداع والغش قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنْكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾ [النحل:٩٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدْتُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل:٩٤].

قوله: ﴿تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلًا﴾، أي: مكرًا وخديعة وغشًّا وخيانة[2].

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾، "أي: مفسدة ودغلًا"[3].

وقال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: غشًّا وخديعة[4].

وقال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أي: مكرًا وخديعة"[5].

---

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة (ص: ٢٥٤- ٢٥٥).

(٢) بصائر ذوي التمييز، بصيرة في (الدخل) (٢/٥٩٠).

(٣) الكشاف (٢/٦٣١). قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(الدَغَل) –بالتحريك-: الفَساد، مثل: (الدَخَل)" الصحاح، مادة: (دغل) (٤/١٦٩٧).

(٤) الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (ص:٦١٧)، وانظر: تفسير النيسابوري (٤/٣٠١).

(٥) الصحاح، مادة: (دخل) (٤/١٦٩٦).

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿دَخَلًا﴾: "مكرًا وخيانة"[(١)]. قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قوله: ﴿دَخَلًا﴾: مكرًا وخيانة هو من تفسير قتادة وسعيد بن جبير رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ. أخرجه عبد الرزاق: عن معمر عن قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: خيانة وغدرًا. وأخرجه بن أبي حاتم من طريق: سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ قال: يعني: مكرًا وخديعة. وقال الفراء: يعني: خيانة[(٢)].

وقال أبو عبيدة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (الدخل): كل أمر كان على فساد[(٣)]. وقال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: معنى الآية: لا تجعلوا أيمانكم التي تحلفون بها على أنكم توفون بالعهد لمن عاهدتموه دخلًا، أي: خديعة وغدرًا؛ ليطمئنوا إليكم وأنتم تضمرون لهم الغدر. انتهى"[(٤)].

والخداع من صفات المنافقين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]. قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أي: يعملون عمل المخادع بما يظهرونه ويبطنون خلافه. ﴿وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾: مجازيهم جزاءَ خداعهم، وذلك أنَّهم يُعطون نورًا كما يُعطى المؤمنون، فإذا مضوا قليلًا أطفئ نورهم وبقوا في الظُّلمة"[(٥)].

والمكر المذموم مراتب، أعلاها: ما يحمل على الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، ويكون سببًا في الضلال والإضلال، وقد دلَّت النصوص على ثبوت العذاب في الآخرة عقوبةً لهذا المكر كما في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنْفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ وَإِذَا جَاءَتْهُمْ آيَةٌ قَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ حَتَّى نُؤْتَى مِثْلَ مَا أُوتِيَ رُسُلُ اللَّهِ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ أَجْرَمُوا صَغَارٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا كَانُوا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٤﴾﴾ [الأنعام:١٢٣-١٢٤].

---

(١) صحيح البخاري (١٣٧/٨).

(٢) في (معاني القرآن)، للفراء (١١٣/٢): ﴿دَخَلًا بَيْنَكُمْ﴾: "دَغَلا وخديعة".

(٣) في (مجاز القرآن)، لأبي عبيدة (٣٦٧/١): "كل شيء وأمر لم يصح فهو دخل".

(٤) فتح الباري، لابن حجر (٥٥٦/١١)، عمدة القاري شرح صحيح البخاري (١٩٣/٢٣)، وانظر: تفسير الطبري (٢٨٦/١٧)، تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٢٣٠٠/٧)، الدر المنثور (١٦٣/٥).

(٥) الوجيز، للواحدي (ص: ٢٩٧).

قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول جل ثناؤه: وكما زينا للكافرين ما كانوا يعملون، كذلك جعلنا بكل قرية عظماءَها مجرميها، يعني: أهل الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ والمعصية له.

﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾، بغرور من القول، أو بباطل من الفعل، بدين الله عَزَّوَجَلَّ وأنبيائه عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ﴾: أي ما يحيق مكرهم ذلك إلا بأنفسهم؛ لأن الله تعالى ذكره من وراء عقوبتهم على صدِّهم عن سبيله. ﴿وَمَا يَشْعُرُونَ﴾، يقول: لا يدرون ما قد أعدَّ الله عَزَّوَجَلَّ لهم من أليم عذابه، فهم في غيِّهم وعتوِّهم على الله يتمادَوْن"[(١)].

ولو نظروا بعين البصيرة إلى سوء فعلهم وعاقبتهم لردعهم ذلك عن قبيح فعلهم، ولكنها لا تَعْمى الأبصارُ ولكنْ تعْمَى القلوبُ التي في الصُّدور.

وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وكما جعلنا في (مكة) صناديدها؛ ﴿لِيَمْكُرُوا فِيهَا﴾، كذلك ﴿جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا﴾ لذلك. ومعناه: خليناهم؛ ليمكروا، وما كففناهم عن المكر. وخص الأكابر؛ لأنهم هم الحاملون على الضلال والماكرون بالناس"[(٢)].

ومن أنواع المكر المتوعد عليها بالعذاب: مكرُ السَّيِّئات. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يخبر جَلَّوَعَلَا عن حِلْمِه وإِمْهاله وإنْظارِه العصاة الذين يعملون السيئات، ويَدْعُونَ إليها، ويمكرون بالناس في دُعائِهِم إيَّاهُم وحَمْلِهِمْ عليها، مع

(١) تفسير الطبري (١٢/٩٣).

(٢) الكشاف (٢/٦٣).

قدرته على ﴿أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾، أي: من حيث لا يعلمون مجيئه إليهم"[1].

فدلت الآيات على أن الوعيد قد ينال الذي يمكُرُونَ السَّيِّئات في الدنيا، فيعاجلهم الله عَزَّوَجَلَّ بالعقوبة، فلا يأمنون أن يأتيهم العذب في تقلبهم بالليل أو النهار، أو في سعيهم في المعايش، وأثناء أسفارهم للتجارة واشتغالهم بالبيع والشراء. ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾، أي: توقع للهلاك ومخافة له، فإنه يكون أبلغ وأشد، أو على عجل، أو يعاقبهم بالنقص من أموالهم وثمارهم.

ولهم العذاب الشديد في الآخرة كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى، حيث قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾ [فاطر:١٠]، أي: الذين يحتالون بالمكر والخديعة؛ لإطفاء نور الله عَزَّوَجَلَّ، والكيد للإسلام والمسلمين، وإفساد صلاح الأمة، وقيام عمرانها: لهم في الآخرة عذاب شديد في نار جهنم.

ولما توعدهم الله عَزَّوَجَلَّ بالعذاب الشديد على مكرهم أنبأهم أن مكرهم لا يروج ولا ينفق، وأن الله عَزَّوَجَلَّ سيبطله، فلا ينتفعون منه في الدنيا، ويضرون بسببه في الآخرة، فقال: ﴿وَمَكْرُ أُولَئِكَ هُوَ يَبُورُ﴾، أي: ومكر هؤلاء المفسدين يظهر زيفه عن قريب لأولى البصائر؛ فإنه ما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلا أبداها الله عَزَّوَجَلَّ على صفحات وجهه، وفلتات لسانه، وما أسرَّ أحدٌ سريرةً إلا كساه الله رداءها، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

وقال الله عَزَّوَجَلَّ مبينًا عِظَم خطرِ المكر: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ [إبراهيم:٤٦].

والقصد أن مكرهم لم يغن عنهم شيئًا، ولم يضروا الله عَزَّوَجَلَّ شيئًا، وإنما ضروا أنفسهم.

---

(١) تفسير ابن كثير (٥٧٥/٤).

وفي الحديث: ((**المكر والخديعة في النَّار**))(١).

قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يعني: صاحب المكر والخداع لا يكون تقيًّا ولا خائفًا لله عَزَّوَجَلَّ؛ لأنه إذا مكر غدر، وإذا غدر خدع، وذا لا يكون في تقى، وكل خلة جانبت التقى فهي في النَّار"(٢).

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ((**أهلُ النَّارِ خمسة: الضَّعِيفُ الذي لا زَبْرَ له، الّذين هم فيكم تَبَعًا لا يَبْتَغُونَ أهلًا ولا مالًا، والخائِنُ الذي لا يَخْفَى له طَمَعٌ، وإن دَقَّ إلا خَانَه، ورجلٌ لا يُصْبِحُ ولا يُمْسِي إلا وهو يُخَادِعُكَ عن أَهلك ومالِكَ**)). وذكر: ((**الْبُخْلَ أو الكَذِبَ. والشِّنْظِير: الْفَحَّاش**))(٣).

---

(١) الحديث له طرق كثيرة لا يخلو كل واحد منها من ضعف، فقد روي من حديث: قيس بن سعد، وأنس بن مالك، وأبي هريرة، وعبد الله بن مسعود، ومجاهد، والحسن. والحديث يقوى بمجموع طرقه؛ ولذلك قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الفتح) (٣٥٦/٤): "وأما حديث: ((الخديعة في النار)) فرويناه في (الكامل)، لابن عدي من حديث: قيس بن سعد بن عبادة، قال: لولا إني سمعت رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((المكر والخديعة في النار)) لكنت من أمكر الناس، وإسناده لا بأس به. وأخرجه الطبراني في (الصغير) من حديث: ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. والحاكم في (المستدرك) من حديث: أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ. وإسحاق بن راهويه في (مسنده) من حديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وفي إسناد كل منهما مقال، لكن مجموعهما يدل على أن للمتن أصلًا. وقد رواه بن المبارك في (البر والصلة) عن عوف عن الحسن، قال: بلغني أن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال فذكره". انتهى. وقال الشيخ الألباني: "فالحديث بمجموع ذلك صحيح". سلسلة الأحاديث الصحيحة [١٠٥٧]. وقد علقه البخاري في (صحيحه) بصيغة الجزم. فقال في كتاب (البيوع): باب النجش، ومن قال: (لا يجوز ذلك البيع)، وقال ابن أبي أوفى: الناجش: آكل ربا خائن، وهو خداع باطل لا يحل. قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((الخديعة في النار)) صحيح البخاري (٦٩/٣).

(٢) فيض القدير (٢٧٥/٦).

(٣) صحيح مسلم [٢٨٦٥]. ((لا زبر له)) أي: لا عقل له يزبره، ويمنعه مما لا ينبغي. أي: إنسان ضعيف، ولكنه إمعة منافق يسير وراء أصحاب الرياسة؛ ليأخذ منهم، فهو ضعيف لكن ليس عنده عقل يأمره بالصحيح، ولا يحاول أن يفكر مثل الناس، لو أساء الناس قلدهم، أو كانوا مجرمين فهو مثلهم، أو طيبين قلدهم، فهو يقلد الناس فحسب ليعطوا له حسنة، هذا الإنسان من أهل النار مع أنه ضعيف، لكنه من شر الخلق.=

وعن معاوية بن أبي سفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**ستكون أئمة من بعدى يقولون فلا يُرَدُّ عليهم قولهم، يَتَقَاحَمُونَ في النَّارِ كما تَتَقَاحَمُ الْقِرَدَة**))(١).

قوله: ((**ستكون أئمة من بعدي يقولون**))، أي: المنكر من القول، بدليل قوله: ((**فلا يرد عليهم قولهم**))؛ مهابة لهم، وخوفًا من بطشهم.

((**يَتَقَاحَمُونَ في النَّار**))، أي: يقعون فيها كما يقتحم الإنسانُ الأمرَ العظيم. و(تَقَحَّمَهُ): إذا رمى نفسَه فيه من غير رَوِيَّة وتَثَبُّت. ويحتمل أن الضمير في (يتقاحمون) للأئمة ولمن لم يرد عليهم؛ مداهنة، وتهاونًا بالدين. وهذا الوعيد الشديد بسبب ما يقع من هؤلاء من المكر والخداع والتلبيس والتضليل.

قال بعض أهل العلم: إذا اتصف القلب بالمكر والخديعة والفسق، وانصبغ بذلك صبغة تامة صار صاحبه على خلق الحيوان الموصوف بذلك من القردة والخنازير وغيرهما، ثم لا يزال يتزايد ذلك الوصف فيه حتى يبدو على صفحات وجهه بدوًّا خفيًّا، ثم يقوى ويتزايد حتى يصير ظاهرًا جليًّا، فمن له فراسة تامة يرى على صور الناس مسخًا من صور الحيوانات التي تخلقوا بأخلاقها في الباطن. فقلَّ أن ترى محتالًا مكارًا مخادعًا إلا على وجهه

=((لا يَبْتَغُونَ)) أي: يطلبون، وفي بعض النسخ: ((لا يتبعون)) -مخفف ومشدد- من الاتباع، أي: يتبعون ويتبعون. يبتغون، ((لا يبتغون أهلًا ولا مالًا)) يعني: يعيش في الدنيا لا يريد أي شيء، عاش نكرة ومات نكرة، ويوم القيامة يحشر مع هؤلاء الذي كان يتبعهم في الدنيا. ((والخائن الذي لا يخفى له طمع)) أي: لا يبالي هل يأكل من حلال أو حرام، يأخذ الشيء من حله أو من حرمته، ولا يهمه. وذكر: ((البخل أو الكذب)) هكذا هو في أكثر النسخ: ((أو الكذب))، وفي بعضها: ((والكذب))، والأول هو المشهور في نسخ بلادنا. و((الشنظير)) فسره في الحديث بأنه الفحاش، وهو السيء الخلق.

(١) أخرجه أبو يعلى [٧٣٨٢]، والطبراني في (الكبير) [٩٢٥]، و(الأوسط) [٥٣١١]، وأبو الشيخ الأصبهاني في (الأمثال) [٢٧١]، وابن عساكر (١٦٨/٥٩). قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٢٣٦/٥): "رواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط)، وأبو يعلى، ورجاله ثقات".

مسخة قردٍ، وأن ترى شرهًا نهمًا إلا على وجهه مسخة كلبٍ، فالظاهر مرتبط بالباطن أتم ارتباط[1].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ذمَّ الله عَزَّوَجَلَّ أهل الخداع والمكر، وأخبر أن المنافقين يخادعونه وهو يخادعهم. وأخبر عنهم بمخالفة ظواهرهم لبواطنهم وسرائرهم لعلانيتهم.

وثبت عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه جاءه رجل فقال: إن عَمِّي طَلَّقَ امرأته ثلاثًا أيُحِلُّهَا له رجل؟ فقال: ((**من يُخَادِعِ اللهَ يُخَادِعْه**))[2].

وصحَّ عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا وأنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنهما سئلا عن العينة[3]، فقالا: إن الله لا يخدع[4].

وقد عاقب الله عَزَّوَجَلَّ المتحيلين على المساكين وقت الجذاذ بإهلاك ثمارهم حتى أصبحت كالصريم.

وصحَّ أن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**البَيِّعَان بالخِيَار ما لم يَتفرَّقَا إلا أن تكون صفقة خيار، ولا يَحِلُّ له أن يفارق صاحبه؛ خَشْيَةَ أن يَسْتَقِيلَه**))[5].

---

(١) انظر: فيض القدير (٦/٢٧٥)، التنوير شرح الجامع الصغير، للصنعاني (٦/٣٩١)، إغاثة اللهفان، لابن القيم (١/٢٦٧).

(٢) أخرجه عبد الرزاق في (مصنفه) [١٠٧٧٩]، وابن أبي شيبة [١٧٧٨٩]، والبيهقي في (الكبرى) [١٤٩٨١].

(٣) تقدم تعريف العينة في (الربا).

(٤) انظر: إعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/١٢٨)، الموسوعة الفقهية الكويتية (١٨/٣٣٣).

(٥) أخرجه أحمد [٦٧٢١]، وأبو داود [٣٤٥٦]، والترمذي [١٢٤٧]، وقال: "حسن". كما أخرجه النسائي [٤٤٨٣].

وصح عنه صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النهي لمن عليه الزكاة أن يجمع بين متفرق، أو يفرق بين مجتمع؛ خشية الصدقة(١).

والأدلة في منع الحيل وإبطالها كثيرة جدًّا(٢). ومجرد تسميتها حيله يؤذن بدفعها وإبطالها؛ فإن التحيل عل عمومه قبيح شرعًا وعقلًا. وهذا المتحيل لإسقاط فرض من فرائض الله عَزَّوَجَلَّ، أو تحليل ما حرَّمه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ هو ناصب لنفسه في مدافعة ما شرعه الله جَلَّ وَعَلَا لعباده، مريد لأن يجعل ما حرَّمه الله عَزَّوَجَلَّ حلالًا، وما أحلَّه حرامًا. فهو من هذه الحيثية معاندٌ لله عَزَّوَجَلَّ، مخادع لعباده، مندرج تحت عموم قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:٩]، وقوله: ﴿يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ [النساء:١٤٢]، وقوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [آل عمران:٥٤]"(٣).

ولقد ذمَّ الله عَزَّوَجَلَّ اليهود على تحايلهم على الحرام فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنْكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ﴾ [البقرة:٦٥]، فلقد حرَّم على اليهود أن يعملوا في السبت شيئًا، فكان بعضهم يحفر الحفيرة، ويجعل لها نهرًا إلى البحر، فإذا كان يوم السبت فتح النهر، فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة، فإذا

---

(١) جاء في (الصحيح): عن ثمامة أن أنسًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حدَّثه: أن أبا بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتب له التي فرض رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((ولا يجمع بين متفرق، ولا يفرق بين مجتمع خشية الصدقة)) صحيح البخاري [١٤٥٠، ٦٩٥٥].

(٢) قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "إن الحيل المحرمة مخادعة لله عَزَّوَجَلَّ، ومخادعة الله حرام". انظر ذلك مفصلًا في (إعلام الموقعين) (١٢٨/٣).

(٣) ولاية الله والطريق إليها، للشوكاني (ص:٣٥٥).

كان يوم الأحد، جاءوا فأخذوا ما تجمع في الحفيرة من حيتان، وقالوا: إنما صدناه يوم الأحد، فعوقبوا بالمسخ قردة؛ لأنهم استحلوا الحرام بالحيلة[1].

وقد أخرج ابن بطة: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: **((لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل))**[2].

ومعنى أدنى الحيل، أي: أسهلها وأقربها، كما في الْمُطَلِّقِ ثلاثًا، فمن السهل عليه أن يعطي مالًا لمن ينكح مطلقته؛ ليحلها له، بخلاف الطريق الشرعي التي هي نكاح الرغبة، فإنها يصعب معها عودها إليه. وكذلك من أراد أن يقرض ألفًا بألف وخمسمائة، فمن أدنى الحيل أن يعطيه ألفا إلا درهما باسم القرض، ويبيعه خِرْقَةً تساوي درهمًا بخمسمائة درهم ودرهم، فإنها من أدنى الحيل إلى الربا وأسهلها، وكذلك حيلة اليهود بنصب الشباك يوم الجمعة وأخذ ما وقع فيها يوم السبت من أسهل الحيل. وكذلك إذابتهم الشحم وبيعه وأكل ثمنه"[3].

وقد حرم الشارع الوسائل المفضية إلى الحرام، كبيع (العِيْنة) -بكسر العين المهملة ثم ياء تحتية ساكنة ثم نون- في قول أكثر أهل العلم؛ فإنه موصل إلى الربا -كما تقدم-.

والحاصل أن المتحيل على المحرَّم واقع فيه، ولا تنفعه الحيلة، والأعمال تابعة لمقاصدها ونياتها، وأنه ليس للعبد من ظاهر قوله وعمله إلا ما نواه وأبطنه، لا ما أعلنه وأظهره، فمن نوى الربا بعقد البيع في الربويات وأدى إلى الربا كان مرابيًا، وكل عمل قصد به التوصل إلى تفويت حقٍّ كان محرَّمًا[4].

---

(١) إعلام الموقعين (١٢٩/٣)، وانظر: إغاثة اللهفان (٣٤٤/١)، تفسير الطبري (١٧١/٢)، تفسير ابن كثير (٢٩١/١).

(٢) أخرجه ابن بطة في (إبطال الحيل) (ص:٤٦). قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ (٤٩٣/٣): "إسناده جيد". وانظر: الدر المنثور (٥٩٢/٣).

(٣) إعلام الموقعين (١٣١/٣).

(٤) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (٣٣٤/١٨- ٣٣٥)، فتح الباري، لابن حجر (٣٢٨/١٢).

ومن أنواع الخداع: ما يفعله بعض التجار من الترويج لسلعته بالأيمان الكاذبة، فمن الأحاديث التي تفيدُ الوعيد الشديد في حقِّ المخادع في البيع ما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، رجل كان له فضل ماء بالطريق، فمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إمامًا لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر، فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدقه رجل**)). ثم قرأ هذه الآية: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [آل عمران:٧٧][(١)].

وسيأتي بيان ذلك في (الكذب للنفس في المعاملات ونحوها، وتأكيده بالأيمان الكاذبة).

ومن أنواع الخداع: ما تستخدمه بعض النساء من أدوات لتغيير الخلق بقصد: التدليس والمخادعة، كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لعن الله الوَاصِلَةَ والمُسْتَوْصِلَة، والوَاشِمَة والمُسْتَوْشِمَة**))[(٢)].

قوله: ((**لعن الله الواصلة**)) هي التي تصل الشعر بشعر آخر سواء اتصل بشعرها أو بشعر غيرها.

((**والمستوصلة**)) التي تأمر من يفعل بها ذلك، وكذلك: ((**الواشمة والمستوشمة**)).

و(**الوشم**): غرز الإبرة في الوجه ثم يحشى كحلًا أو غيره. واللعنة على الشيء تدل على تحريمه، وعلة التحريم ما فيه من التدليس والتلبيس بتغير خلق الله عَزَّوَجَلَّ والمخادعة.

---

(١) صحيح البخاري [٢٣٥٨، ٧٢١٢]، مسلم [١٠٨].

(٢) صحيح البخاري [٥٩٣٧، ٥٩٤٠، ٥٩٤٧]، مسلم [٢١٢٤].

قال القاضي عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما ربط خيوط الحرير الملونة ونحوها مما لا يشبه الشعر فليس بمنهي عنه؛ لأنه ليس بوصل، ولا لمعنى مقصود من الوصل، وإنما هو للتجمل والتحسين"[(١)]. ومراده من المعنى المناسب هو ما في ذلك من الخداع للزوج، فما كان لونه مغايرًا للون الشعر فلا خداع فيه[(٢)].

"وحرمة الوصل لا تتقيد بالنساء؛ لما فيه من تغيير خلق الله عَزَّوَجَلَّ، وإنما خص النساء؛ لأنهن اللاتي يغلب منهن ذلك"[(٣)].

وعن ابن مسعود رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: ((**لَعَنَ اللهُ الوَاشِمَاتِ، والمُوتَشِمَات، والمُتَنَمِّصَات، والمُتَفَلِّجَات؛ لِلْحُسْنِ المُغَيِّرَاتِ خَلْقَ الله**))[(٤)].

ورواه أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ بإسناد صحيح بلفظ: ((**نهى عن النامصة، والواشرة، والواصلة، والواشمة إلا من داء**))[(٥)].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما ((**النَّامِصَة**)) -بالصاد المهملة- فهي التي تزيل الشعر من الوجه. و((**الْمُتَنَمِّصَة**)) التي تطلب فعل ذلك بها، وهذا الفعل حرام إلا إذا نبتت للمرأة لحية أو شوارب، فلا تحرم إزالتها، بل يستحب عندنا. ثم قال: النهي إنما هو في الحواجب وما في أطراف الوجه"[(٦)].

---

(١) إكمال المعلم بفوائد صحيح مسلم، للقاضي عياض (٣٢٨/٦).

(٢) سبل السلام (٢/ ٢١٢).

(٣) الفواكه الدواني (٣١٤/٢)، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني (٤٥٨/٢- ٤٥٩).

(٤) صحيح البخاري [٤٨٨٦، ٥٩٣١، ٥٩٣٩، ٥٩٤٣، ٥٩٤٨]، مسلم [٢١٢٥].

(٥) مسند الإمام أحمد [٣٩٤٥].

(٦) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠٦/١٤).

وقال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "(النِّمَاص): إزالة شعر الوجه بالمنقاش. ويسمى الْمِنْقَاشُ: مِنْمَاصًا لذلك. ويقال: إن النِّمَاصَ يختص بإزالة شعر الحاجبين؛ لترفيعهما أو تسويتهما"[(١)].

وقال أبو داود رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (السنن): "(النَّامِصَة): التي تَنْقُشُ الْحَاجِبَ حتى تُرِقَّه"[(٢)].

وقال ابن عابدين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "النمص: نتف الشعر، ومنه: (الْمِنْمَاصُ): الْمِنْقَاشُ اهـ. ولعله محمول على ما إذا فعلته؛ لِتَتَزَيَّنَ للأجانب، وإلا فلو كان في وجهها شعر ينفر زوجها عنها بسببه، ففي تحريم إزالته بُعْدٌ؛ لأن الزينة للنساء مطلوبة؛ للتحسين، إلا أن يحمل على ما لا ضرورة إليه لما في نتفه بالمنماص من الإيذاء. وفي (تبيين المحارم): إزالة الشعر من الوجه حرام إلا إذا نبت للمرأة لحية أو شوارب فلا تحرم إزالته، بل تستحب اهـ. وفي (التتارخانية) عن (المضمرات): ولا بأس بأخذ الحاجبين وشعر وجهه ما لم يشبه المخنث اهـ. ومثله في (المجتبى)"[(٣)].

و(المتفلجات) -بالفاء والجيم- جمع متفلجة، وهي التي تبرد ما بين أسنان الثنايا والرباعيات، وهو من الفلج -بفتح الفاء واللام-: وهو الفرجة بين الثنايا والرباعيات، تفعل ذلك العجوز ومن قاربها في السن؛ إظهارًا للصغر وحسن الأسنان؛ لأن هذه الفرجة اللطيفة بين الأسنان تكون للبنات الصغيرات، فإذا عجزت المرأة كبرت سنها فتبردها بالمبرد؛ لتصير لطيفة حسنة المنظر، وتوهم كونها صغيرة[(٤)].

---

(١) فتح الباري (١٠/٣٧٧) وانظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٢٢/٦٦)، شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/١٦٧).

(٢) سنن أبي داود [٤١٧٠] (٤/٧٨).

(٣) رد المحتار على الدر المختار (٦/٣٧٣).

(٤) نيل الأوطار (٦/٢٢٨)، وانظر: فتح الباري، لابن حجر (١٠/٣٧٢).

وقال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: و"(الْوَاشِرَات) جمع: وَاشِرَة، وهي التي تَشِرُ أسنانها، أي: تصنع فيها أَشْرًا، وهي التَّحْزِيزَاتُ التي تكون في أسنان الشُّبَّانِ، تفعل ذلك المرأةُ الكبيرة تَشَبُّهًا بالشَّابَّة. وهذه الأمور كُلُّهَا قد شهدت الأحاديث بلعن فاعلها، وأنها من الكبائر. واختلف في المعنى الذي نهي لأجلها، فقيل: لأنها من باب التدليس. وقيل: من باب تغيير خلق الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال ابن مسعود رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، وهو أصح، وهو يتضمن المعنى الأول. ثم قيل: هذا المنهي عنه إنما هو فيما يكون باقيًا؛ لأنه من باب تغيير خلق الله عَزَّوَجَلَّ، فأما مالا يكون باقيا كالكحل والتزين به للنساء فقد أجاز العلماء ذلك: مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ وغيره، وكرهه مالك رَحِمَهُ ٱللَّهُ للرجال"[1].

وقال ابن رشد القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (المقدمات): قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لعن الله الواصلة والمستوصلة، والواشرة والمستوشرة، والواشمة والمستوشمة، والمتنمصات المتفلجات؛ للحسن، المغيرات خلق الله**)): المعنى في المنع من ذلك: أن فيه غرورًا وتدليسًا. فالوشم المنهي عنه هو أن المرأة كانت تغرز ظهور كفيها، أو معصمها بإبرة، أو مسلة حتى تؤثر فيه، ثم تحشوه بالكحل فتخضر بذلك.

و(الوشر) هو أن تنشر أسنانها حتى تفلجها وتحددها. ويجوز لها أن تخضب يديها ورجليها بالحناء"[2].

وقال المالكية: "لا بأس بإزالة شعر الجسد في حق الرجال فقط، وأما النساء فيجب عليهن إزالة ما في إزالته جمال لها -ولو شعر اللحية إن نبت لها لحية- وإبقاء ما في بقائه جمال، فيحرم عليها حلق شعر رأسها؛ ولذلك يتعين في حقها التقصير عند تحللها من

(١) تفسير القرطبي (٥/٣٩٣).
(٢) المقدمات الممهدات (٢/٤٥٩).

إحرامها"[١]. وللمرأة حلق الوجه وحفه نصًّا، ولها تحسين شعرها وتحميره ونحو ذلك من كل ما فيه تزيين للزوج.

قال ابن قدامة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما حَفُّ الْوَجْهِ، فقال مُهَنَّا: سألت أبا عبد الله عن الْحَفِّ؟ فقال: ليس به بأس للنساء، وأكرهه للرجال"[٢].

وأما المرأة فتنتف عانتها، بل يجب عليها ذلك عند أمر الزوج لها به في الأصح، فإن تفاحش وجب قطعًا، و(العانة): الشعر النابت حوالي ذَكَرِ الرجل وقُبُلِ المرأة، وقيل: ما حول الدبر. والأولى حلق الجميع[٣].

والحاصل أن علة التحريم فيما تقدم: التغيير الذي يتضمن التدليس والتزوير والخداع. وقد تقدم قول ابن رشد رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن المعنى في المنع من ذلك: أن فيه غرورًا وتدليسًا. وكذلك قول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تفسيره).

قال الإمام محمد الطاهر بن عاشور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما ما ورد في السنة من لعن: الْوَاصِلَات والْمُتَنَمِّصَات والْمُتَفَلِّجَات؛ لِلْحُسْن فمما أشكل تأويله. وأحسب تأويله: أن الغرض منه النهي عن سِمَاتٍ كانت تُعَدُّ من سمات العواهر في ذلك العهد، أو من سمات المشركات، وإلا فلو فرضنا هذه مَنْهِيًّا عنها لما بلغ النهي إلى حدِّ لعن فاعلات ذلك. وملاك الأمر: أن تغيير خلق الله عَزَّوَجَلَّ إنما يكون إنما إذا كان فيه حَظٌّ من طاعة الشيطان، بأن يجعل علامة لنحلة شيطانية، كما هو سياق الآية واتصال الحديث بها"[٤].

---

(١) انظر: الفواكه الدواني على رسالة ابن أبي زيد القيرواني (٢/٣٠٦)، حاشية العدوي على شرح كفاية الطالب الرباني (٢/٤٤٤).

(٢) المغني (١/ ٦٨)، الشرح الكبير على متن المقنع (١/١٠٧).

(٣) انظر: الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (١/١٨٤)، مغني المحتاج (١/٥٦٣)، تحفة المحتاج في شرح المنهاج (٢/٤٧٦)، أسنى المطالب في شرح روض الطالب (١/٥٥٠).

(٤) التحرير والتنوير (٥/٢٠٥- ٢٠٦).

ثانيًا: الوقاية من آفات المكر والخداع والعلاج:

١ - مجاهدة النفس، والتنقيب عن عيوبها النفس، وتطهيرها من الطمع، والجشع، والشح، والحرص الذي يفضي إلى الوقوع في الإثم، ومن سائر الصفات الذميمة:

قال بكر بن عبد الله المزنيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا رأيتم الرجل مولعًا بعيوب النَّاس ناسيًا لعيبه، فاعلموا أنه قد مُكِرَ به"(١).

٢ - الحذر من مسبباتِ الخداع والمكر، كالافتتانِ بالدنيا والتنافسِ على حطامها، واتباعِ الهوى، والحسدِ، والبخلِ، والشحِ، والحرصِ، والطغيانِ، وتجاوزِ الحدود، وحبِّ المال، والبطرِ، والمنعِ، والطغيانِ، وتجاوز الحدودِ إلى غير ذلك.

٣ - مخالفة الشَّيطان، والحذر من وساوسه ومداخله.

٤ - الالتجاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، ولزوم طريق الهداية، وكثرة الدعاء، وأن يسأل العبد ربه عَزَّوَجَلَّ دائمًا الاستقامة والثبات على دينه في سائر الأحوال، في حال السراء والضراء، وفي حال الشدة والرَّخاء، فيكون عابدًا شاكرًا لله عَزَّوَجَلَّ في حال السراء، وصابرًا مُحْتَسِبًا في حال الضراء. وقد كان النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يسأل ربه جَلَّ وَعَلَا الثبات، كما جاء في الحديث: عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يكثر أن يقول: ((**يا مُقَلِّبَ القلوب ثَبِّتْ قلبي على دينك**))، فقلت: يا رسول الله، آمنا بك وبما جئت به فهل تخاف علينا؟ قال: ((**نعم، إن القلوب بين أصبعين من أصابع الله يُقَلِّبُهَا كيف يشاء**))(٢).

---

(١) الصمت وآداب اللسان، لابن أبي الدنيا [١٩٩]، ذم الغيبة والنميمة، لابن أبي الدنيا [٦٢]، صفة الصفوة (١٤٧/٢).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٣٠٤٠٥]، وأحمد [١٢١٠٧]، والبخاري في (الأدب) [٦٨٣]، والترمذي [٢١٤٠]، وقال: "وفي الباب عن النواس بن سمعان، وأم سلمة، وعبد الله بن عمرو، وعائشة، وأبي ذر، وهذا حديث حسن، وهكذا روى غير واحد، عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن أنس، وروى بعضهم عن الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وحديث أبي سفيان عن أنس أصح". وأخرجه أيضًا: ابن أبي عاصم [٢٢٥]، والبزار [٧٥٠٨]، وأبو يعلى [٣٦٨٧]، والآجري في (الشريعة) [٧٣١]، والحاكم=

وقد أرشد الله عَزَّوَجَلَّ العباد إلى أن من خير الدعاء أن يقول السالك: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ [آل عمران:٨].

فمن أعظم أسباب العافية والوقاية من آفات الأمن من المكر: التقوى والاستجابة لأمر الله عَزَّوَجَلَّ وللرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ [الأنفال:٢٤].

فمن أعظم أسباب الوقاية من الآفات في هذا الباب: مراقبة الله عَزَّوَجَلَّ في السِّر والعلن، والمحافظة على قراءة القرآن، ونوافلِ الصلواتِ، والصَّومِ، وغيرِهما، والتعويل على الله جَلَّ وَعَلَا في كلِّ أمر، والتفويض إليه في كل حال. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ۝٤٤ فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا﴾ [غافر:٤٤-٤٥].

٥ - مجالسة الصالحين، وإيثارهم في المعاملات؛ فإن الرجل الصالح ناصح، ومحبٌّ للخير، ولا يمكر بصاحبه، ولا يغشه، ولا يخدعه.

٦ – ملازمة العلماء الربانيين، والتفقه في الدين؛ فإن العالم الرباني يدلُّ على الخير، ويحذِّر من الشَّرِّ، وينصحُ الأمة، ويحرصُ على هداية الناس وصلاحهم.

٧ - التحلي بمكارم الأخلاق والصفات الحميدة:

إن من صفات المؤمن الباحث عن الحق، والسالك طريق الهداية أنه يقظٌ، وحذر، ووقاف، ومتثبت لا يتعجل، يتحرَّى الحلال، ويحترز عن الحرام، والمؤمن ليس بذي مكر ولا فطنة للشر، ولا يخدَعُ الناس، بل هو صادق، ومحبٌّ للخير، لكنه قد ينخدع في أمور

=[١٩٢٧]، وأبو نعيم في (الحلية) (١٢٢/٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٤٢]، والضياء [٢٢٢٢]، وقال: "إسناده صحيح". وقال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٧٦/١٠) عن حديث جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الذي رفعه: "رواه أبو يعلى، ورجاله رجال الصحيح".

الدنيا؛ لسلامة صدره، وحسن ظنه، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**المؤمن غِرٌّ كَرِيم، والفاجرُ خِبٌّ لَئِيم**))(١).

قوله: ((**غِرٌّ كَرِيم**))، أي: ليس بذي مكر ولا فطنة للشر، فهو ينخدع؛ لسلامة صدره، وحسن ظنه، وينخدع؛ لانقياده ولينه. و(الخب) -بفتح الخاء المعجمة وتكسر- هو الخداع الساعي بين الناس بالشر والفساد. فالمؤمن غر كريم؛ لأن خلق الإيمان يعطى المعاملة بالظاهر. والمنافق خب لئيم، أي: على نفسه حيث لم يسلك بها طريق نجاتها وسعادتها(٢).

وإذا أصاب المؤمن من مكر المكارين ما أصابه فينبغي أن يحتسب الأجر عند الله عَزَّوَجَلَّ، وأن يكون على حذر من ذلك في مستقبل أيامه، فلا يأمن لفاجر خبيث قد بدا خبثه، وظهر مكره، ولا ينخدع من جهة واحدة مرتين، ولا يصدق الكاذب الذي ظهر كذبه مرة ثانية. وهذا معنى قول النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((**لا يلدغ المؤمن من جُحْرٍ واحد مرتين**))(٣).

---

(١) أخرجه أحمد [٩١١٨]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٤١٨]، وأبو داود [٤٧٩٠]، والترمذي [١٩٦٤]، وابن أبي الدنيا في (مكارم الأخلاق) [١١]، والبزار [٨٦٢١]، وأبو يعلى [٦٠٠٨]، وابن الأعرابي في (معجمه) [٦٩٦]، وأبو الشيخ في (الأمثال) [١٥٩]، والحاكم [١٢٨]، والقضاعي [١٣٣]، والبيهقي [٢٠٨٠٩]، والبغوي في (شرح السنة) [٣٥٠٦]، وابن الجوزي في (العلل المتناهية) [٩٨٤]. قال المنذري رَحِمَهُٱللَّهُ (٣/٢٥٩): "[قال الحافظ رَحِمَهُٱللَّهُ]: لم يضعفه أبو داود، ورواته ثقات، سوى بشر بن رافع، وقد وثق. وقال ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ (٢/١٠٩): فيه بشر بن رافع، قال ابن حبان: روى أشياء موضوعة كأنه المتَعَمِّدُ لها، لكن روي من طرق آخر لا بأس بها اهـ. وحكم القزويني بوضعه، ورد عليه ابن حجر، وقال: هو لا ينزل عن درجة الحسن وأطال" فيض القدير (٦/٢٥٤).

(٢) انظر: الترغيب والترهيب (٣/٢٥٩)، وانظر: معالم السنن (٤/١٠٨)، فيض القدير (٦/٢٥٤).

(٣) صحيح البخاري [٦١٣٣]، مسلم [٢٩٩٨].

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هذا يروى على وجهين من الإعراب، أحدهما: بضم الغين على مذهب الخبر، ومعناه: أن المؤمن الممدوح هو الكيس الحازم الذي لا يؤتى من ناحية الغفلة، فَيُخْدَعُ مرَّة بعد أخرى، وهو لا يفطن بذلك ولا يشعر به.

وقيل: إنه أراد به: الخداع في أمر الاخرة دون أمر الدنيا.

والوجه الآخر: أن يكون الرواية بكسر الغين على مذهب النهي. يقول: لا يُخْدَعَنَّ المؤمن، ولا يُؤْتَيَنَّ من ناحية الغفلة، فيقع في مكروه أو شر وهو لا يشعر. وليكن متيقظًا حذرًا، وهذا قد يصلح أن يكون في أمر الدنيا والآخرة معًا -والله أعلم-"[1].

٨ - أن لا يغتر السالك بما يحصلُ له من زيادة المال، وأن لا يغتر بالإمهال، بل يسارع في كل حال إلى شكر الله عَزَّوَجَلَّ، ويجتنب العجب والكبر وسائر الأخلاق السيئة، ويكون بين الخوف والرجاء، مسلمًا لأمر الله تعالى في كل حال من الشدة أو الرخاء، وتحت حكم القضاء.

والله عَزَّوَجَلَّ قد يمهل العبد، ويمكنه من أعراض الدنيا؛ ابتلاء له، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥]. وقد ذكر الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن اختيار الله عَزَّوَجَلَّ للعباد تارة بالمسار؛ ليشكروا وتارة بالمضار؛ ليصبروا، فالمنحة والمحنة جميعًا بلاء، فالمحنة مقتضية للصبر، والمنحة مقتضية للشكر، والقيام بحقوق الصبر أيسر من القيام بحقوق الشكر، فالمنحة أعظم البلاءين، وبهذا النظر قال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: بلينا بالضراء فصبرنا، وبلينا بالسراء فلم نصبر؛ ولهذا قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: من وسع عليه دنياه فلم يعلم أنه قد مكر به فهو مخدوع عن عقله"[2]، يعني: من وسع الله عَزَّوَجَلَّ عليه الدنيا وهو غير شاكر لله جَلَّوَعَلَا.

---

(١) معالم السنن (١١٩/٤).

(٢) تفسير الراغب (١٨٥/١)، المفردات (ص:١٤٦)، بصائر ذوي التمييز (٢٧٤/٢- ٢٧٥)، روح المعاني (٤٥/٩).

وقد قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من وسع الله عَزَّوَجَلَّ عليه فلم ير أنه يمكر به، فلا رأي له. ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له، فلا رأي له، ثم قرأ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤].

قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة؛ أعطوا حاجتهم ثم أخذوا[(١)].

٩ - الصبر على الابتلاء.

١٠ - شكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه، والنظر إلى كل عطاء على أنه اختبار من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال سليمان عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

١١ - النظر بعين البصيرة إلى عاقبة المكر والخداع وآثاره ومضاره:

ومن سنن الله عَزَّوَجَلَّ أن المكر السيء يحيق بأهله، وأن الجزاء من جنس العمل، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ [فاطر:٤٣]، أي: لا يحيط وبال المكر السيء إلا بمن مكره ودبره، كما قيل: من حفر حفرة لأخيه وقع فيها.

قال بعض السلف: ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المكر والبغي والنكث. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس:٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح:١٠].

(١) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (١٢٩١/٤)، تفسير ابن كثير (٢٥٦/٣)، الزواجر عن اقتراف الكبائر (١٤٥/١)، روح المعاني (١٤٤/٤).

وقال مكحول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أربع من كن فيه كن له، وثلاث من كن فيه كن عليه، فالأربع اللاتي له: فالشكر والإيمان والدعاء والاستغفار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء:١٤٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧].

وأما الثلاث اللاتي عليه: فالمكر والبغي والنكث، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح:١٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس:٢٣]"[(١)].

١٣ – أن يحذر سوء الخاتمة. قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار**))[(٢)].

نسأل الله جَلَّوَعَلَا السلامة والعافية وحسن الخاتمة.

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٤٢٦– ٤٢٧). حلية الأولياء (٥/١٨١)، تاريخ دمشق (٦٠/٢٢٥– ٢٢٦).

(٢) صحيح البخاري [٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤]، مسلم [٢٦٤٣].

المبحث السادس والعشرون
الأمن من مكر الله واليأس من رحمته

أولًا: التحذير من الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ، واليأس من رحمته:

إنَّ مِن الذنوب العظيمة، والآفات الجسيمة: الأمن مِن مكر الله، والقنوط مِن رحمته، فمن أراد التوفيق والهداية فينبغي أن لا يأمن مكرَ الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الأمن من مكر الله تعالى كبيرة من الكبائر(١)، وأن يستحضر قول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة، فيما يبدو للناس، وهو من أهل النار، وإن الرجل ليعمل عمل أهل النار، فيما يبدو للناس، وهو من أهل الجنة**))(٢).

وفي (صحيح مسلم): ((**إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة، ثم يختم له عمله بعمل أهل النار، وإن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل النار، ثم يختم له عمله بعمل أهل الجنة**))(٣).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ففيه التحذير من الاغترار بالأعمال، وأنه ينبغي للعبد أن لا يتكل عليها، ولا يركن إليها؛ مخافة من انقلاب الحال"(٤).

---

(١) انظر: روح المعاني (٧/ ٣٠٦).

(٢) صحيح البخاري [٢٨٩٨، ٤٢٠٢، ٤٢٠٧]، مسلم [١١٢].

(٣) صحيح مسلم [٢٦٥١].

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (٢/ ١٢٦).

وفي الحديث: ((**لن يُدْخِلَ أَحَدًا عَمَلُهُ الجنَّةَ**))، قالوا: ولا أنت يا رسول الله؟ قال: ((**لا، ولا أنا، إلا أن يَتغَمَّدَنِي الله بِفَضْلٍ ورحمة**))(١).

قال ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ يكون بالاسترسال في المعاصي مع الاتكال على الرحمة، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمُ الَّذِى ظَنَنْتُم بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [فصلت:٢٣]. وفي الحديث: ((**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**))، ثم تلا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤](٢)، أي: آيسون من النجاة وكل خير سديد، ولهم الحسرة والحزن والخزي؛ لاغترارهم بترادف النعمة عليهم مع مقابلتهم لها بمزيد الإعراض والإدبار"(٣).

وقد عدَّ الذهبيُّ(٤)، وابنُ حجر الهيتمي رَحِمَهُمَا ٱللَّهُ الأمنَ من مكرِ الله جَلَّ وَعَلَا من الكبائر(٥).

وفي (تبيين المحارم): "ومن الكفر: الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ، واليأس من رحمته، وهذا كفر عندنا. وعند الآخرين: أنهما من الكبائر، وليسا من الكفر، وظاهر الآيات معنا، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، وقال جَلَّ وَعَلَا:

---

(١) صحيح البخاري [٥٦٧٣، ٦٤٦٣، ٦٤٦٧]، مسلم [٢٨١٦].

(٢) أخرجه أحمد [١٧٣١١]، والطبراني في (الكبير) [٩١٣]، والبيهقي في (الشعب) [٤٢٢٠]. قال العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تخريج أحاديث الإحياء) (ص:١٤٧٧): "رواه أحمد والطبراني والبيهقي في (الشعب) بسند حسن".

(٣) الزواجر عن اقتراف الكبائر (ص:١٤٥).

(٤) انظر: الكبائر، للذهبي (ص:٤٥٠)، بتحقيق: مشهور بن حسن.

(٥) انظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (١/١٤٥).

﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]، وقال: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦].

والتأويل بأن المراد من الكافر في قوله: ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾: كفران النعمة خلاف الظاهر؛ لأن الكافر إذا أطلق يصرف ذلك إلى الكافر بالله عَزَّوَجَلَّ، ومن عرف الله لا ييأس من رحمته، ولا يأمن من مكره. والأمن واليأس من علامة الجهل بالله جَلَّوَعَلَا وصفاته، وهو من موجبات الكفر، والمسألة مبسوطة في محلها" انتهى(١).

ومعنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾ [الأعراف:٩٩]، أي: عذابه وجزاءه على مكرهم. وقيل مكره: استدراجه بالنِّعمة والصِّحَّة(٢).

قال الإمام الرازي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وسمى هذا العذاب مكرًا توسعًا؛ لأن الواحد منا إذا أراد المكر بصاحبه، فإنه يوقعه في البلاء من حيث لا يشعر به، فسمى العذاب مكرًا لنزوله بهم من حيث لا يشعرون، وبين أنه لا يأمن من نزول عذاب الله تعالى على هذا الوجه إلا القوم الخاسرون، وهم الذين لغفلتهم وجهلهم لا يعرفون ربهم، فلا يخافونه، ومن هذه سبيله، فهو أخسر الخاسرين في الدنيا والآخرة؛ لأنه أوقع نفسه في الدنيا في الضرر، وفي الآخرة في أشد العذاب"(٣).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في التحذير من الأمن من مكره: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾ أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتًا وَهُمْ نَائِمُونَ ﴿٩٧﴾ أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩٨﴾ أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ [الأعراف:٩٦-٩٩].

---

(١) من تحقيقنا لتبيين المحارم، لم يطبع.

(٢) انظر: تفسير القرطبي (٧/٢٥٤)، البحر المحيط في التفسير (٥/١٢١).

(٣) مفاتيح الغيب (١٤/٣٢٢).

وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

ومن أقوال السلف في ذمِّ الأمن من المكر: ما أخرج ابن أبي حاتم عن إسماعيل بن رافع قال: من الأمن لمكر الله عَزَّوَجَلَّ: إقامة العبد على الذنب يتمنى على الله عَزَّوَجَلَّ المغفرة.

وقد فسَّر بعضُ السلف المكر بأن الله عَزَّوَجَلَّ يستدرجهم بالنِّعم إذا عصوه؛ مِن صحَّة الأبدان، ورغد العيش، وغيرها، ويُمْلي لهم، ثم يأخذهم أخْذَ عزيز مقتدر.

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]. قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذكره: أفأمن، يا محمد هؤلاء الذين يُكذِّبون الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ويجحدون آياته، استدراجَ الله عَزَّوَجَلَّ إيَّاهم بما أنعم به عليهم في دنياهم من صحَّة الأبدان، ورخاء العيش، كما استدرج الذين قصَّ عليهم قصصهم من الأمم قبلهم؛ فإنَّ مكر الله لا يأمنه، يقول: لا يأمن ذلك أن يكون استدراجًا، مع مقامهم على كفرهم، وإصرارهم على معصيتهم. ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، وهم الهالكون"(١).

وقال بعضهم: "من مكر الله جَلَّوَعَلَا: إمهال العبد، وتمكينه من أعراض الدنيا؛ ولذلك قال علي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: من وسع عليه دنياه، ولم يعلم أنه مكر به، فهو مخدوع في عقله"(٢).

---

(١) تفسير الطبري (١٠/ ٣٣٤).

(٢) انظر: المفردات في غريب القرآن، مادة: (مكر) (ص:٧٧٢)، فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٨٥/٧)، حاشية الشهاب الخفاجي على تفسير البيضاوي (٦١/٤)، روح المعاني (١٨٦/٥)، السراج المنير، للخطيب الشربيني (٥٦٧/١).

وقال مكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ﴾، "أي: أستدراج الله عَزَّوَجَلَّ إياهم بما أنعم عليهم في دنياهم من الصحة والرخاء، فليس يأمن استدراج الله عَزَّوَجَلَّ ﴿إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾، أي: الهالكون"(١).

وقيل: المكر من الله عَزَّوَجَلَّ: استدراج العبد وأخذه بغتة من حيث لا يعلم(٢).

وقيل: هو أن يعطي الله عَزَّوَجَلَّ العبد كل ما يريده في الدنيا؛ ليزداد غيُّه وضلاله وجهله وعناده، فيزداد كل يوم بعدًا من الله جَلَّوَعَلَا(٣).

وقيل: الاستدراج هو إمهال الله عَزَّوَجَلَّ للعبد حتى يظن أنه لن يحاسب على تماديه في المعاصي.

وذكر صاحب (الفروق اللغوية) أن ثمة فرقًا بين الإملاء والاستدراج؛ فالإملاء: هو الامهال والتأخير. والاستدراج: هو أنه كلما جدد العبد خطيئة جدد الله عَزَّوَجَلَّ له نعمة، وأنساه الاستغفار إلى أن يأخذه قليلًا قليلًا ولا يباغته، فبينهما عموم وخصوص، إذ كل استدراج إملاء، وليس كل إملاء استدراجًا"(٤).

والاستدراج كما يقع للكافرين فإنه يقع لغيرهم، وهو من المزالقِ الخطيرة إلى الضَّلال وسوء العاقبة، فقد يصلُ بالبعضِ إلى الزَّيغ عن الجادَّةِ بعد لزومِ الصِّراط، وإلى النُّكوص بعد الاستقامة، وإلى التقاعسِ عن الطَّاعات، والقعود عن طلب الهداية بعدَ الهمَّةِ والنَّشاط، وقد يؤول إلى خذلانٍ بعدَ إحسانٍ، وإلى انتكاسٍ من الكرامة إلى الهوان، وإلى انقلابٍ من

---

(١) الهداية إلى بلوغ النهاية (٤/ ٢٤٧١).

(٢) انظر: تفسير البغوي (٢/٤٤)، الخازن (١/٢٥٠).

(٣) انظر: الكليات (ص:١١٣)، وانظر: ما له صلة بمعنى الاستدراج، وخطره، وسبل الوقاية منه في كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص: ٨٧٣-٨٨٣).

(٤) معجم الفروق اللغوية (ص:٧٢-٧٣)، طبعة مؤسسة النشر الإسلامي.

فيضِ النِّعَمِ إلى سَلْبِها، ومن صِحَّةٍ إلى مرض، ومن أمْنٍ إلى خوف، ومن انبساطٍ إلى ضِيق، ومن نعيمٍ إلى عذاب.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ۝١٥ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ ۝١٦ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ۝١٧﴾ [سبأ:١٥-١٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُمْ مِنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَنْ يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ [البقرة:٢١١].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فسبحان الله! كم من قلب منكوس -وصاحبه لا يشعر؟- وقلب ممسوخ، وقلب مخسوف به؟ وكم من مفتون بثناء الناس عليه؟ ومغرور بستر الله عليه؟ ومستدرج بنعم الله عليه؟ وكل هذه عقوبات وإهانات ويظن الجاهل أنها كرامة"(١).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝١٨٢ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝١٨٣﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَذَرْنِي وَمَنْ يُكَذِّبُ بِهَذَا الْحَدِيثِ سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ۝٤٤ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ۝٤٥﴾ [القلم:٤٤-٤٥].

"ومعنى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾: سنستدنيهم قليلًا قليلًا إلى ما يهلكهم، ويضاعف عقابهم من حيث لا يعلمون ما يراد بهم. وذلك أن يواتر الله عَزَّوَجَلَّ نعمه عليهم مع انهماكهم في الغيِّ، فكلما جدَّد عليهم نعمةً ازدادوا بطرًا، وجدَّدوا معصية، فيتدرَّجون في

(١) الجواب الكافي (ص:١١٩).

المعاصي بسبب ترادف النِّعم، ظانِّين أنَّ مواترة النعم أثرةٌ من الله وتقريب، وإنما هي خذلانٌ منه وتبعيد، فهو استدراجٌ الله عَزَّوَجَلَّ، نعوذ بالله منه.

واستدراج الله عَزَّوَجَلَّ العصاة: أن يرزقهم الصحة والنعمة فيجعلون رزق الله ذريعة إلى ازدياد المعاصي. ﴿مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ من الجهة التي لا يشعرون أنه استدراج. قيل: كلما جددوا معصية جددنا لهم نعمة وأنسيناهم شكرها. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ﴾ عطف على ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾، وهو داخل في حكم السين، أي: أمهلهم. ﴿إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ﴾ سماه كيدًا؛ لأنه شبيه بالكيد، من حيث إنه في الظاهر: إحسان، وفي الحقيقة: خذلان"(١).

قال الأزهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ﴾: "سنأخذهم قليلًا قليلًا من حيث لا يحتسبون، وذلك أن الله عَزَّوَجَلَّ يفتح عليهم من النعيم ما يغتبطون به ويركنون إليه، ثم يأخذهم على غرتهم أغفل ما يكونون"(٢).

وفي الحديث: عن عقبة بن عامر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج**))، ثم تلا رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ﴾ [الأنعام:٤٤](٣).

---

(١) الكشاف (١٨٢/٢)، تفسير النسفي (٦٢١/١)، (٥٢٥/٣)، البحر المحيط، لأبي حيان (٢٣٣/٥)، وانظر: بحر العلوم (٥٧١/١)، (٤٨٦/٣)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، لأبي الحسن الواحدي (٤٣١/٢-٤٣٢)، معالم التنزيل (٢٥٥/٢)، الخازن (٢٧٧/٢).

(٢) تهذيب اللغة، للأزهري (٣٣٩/١٠)، الوسيط (٤٣١/٢- ٤٣٢)، وانظر: الزاهر في غريب ألفاظ الشافعي (ص:١٩٠).

(٣) أخرجه أحمد [١٧٣١١]، والطبراني في (الكبير) [٩١٣]، والبيهقي في (الشعب) [٤٢٢٠]. قال العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (تخريج أحاديث الإحياء) (ص:١٤٧٧): "رواه أحمد والطبراني والبيهقي في (الشعب) بسند حسن".

ومن الإملاء والاستدراج: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ [التوبة:٥٥]. ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾؛ فإن ذلك استدراجٌ لهم ووبالٌ عليهم حسبما ينبئ عنه قولُه عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بما يكابدون لجمعها وحفظها من المتاعب وما يقاسون فيها من الشدائد والمصائب. ﴿وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ فيموتوا كافرين مشتغلين بالتمتع عن النظر في العاقبة، فيكون ذلك لهم نقمةً لا نعمةً[(١)].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ في آية أخرى: ﴿نُمَتِّعُهُمْ قَلِيلًا ثُمَّ نَضْطَرُّهُمْ إِلَى عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [لقمان:٢٤].

ومن الإملاء والاستدراج: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ ۝٥٥ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٥٦﴾ [المؤمنون:٥٥-٥٦].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أيظنون أن المال الذي نرزقهم إياه؛ لكرامتهم علينا؟! إن ظنوا ذلك أخطأوا، بل هو استدراج كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]"[(٢)]. "ومعناه: أن إملاءنا خير لأنفسهم إن عملوا فيه، وعرفوا إنعام اللَّه عليهم بتفسيح المدَّة، وترك المعاجلة بالعقوبة"[(٣)].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا دليل على أن مجرد طول العمر ليس خيرًا للإنسان إلا إذا أحسن عمله؛ لأنه أحيانًا يكون طول العمر شرًّا للإنسان، وضررًا عليه. فهؤلاء الكفار يملي الله عَزَّوَجَلَّ لهم، أي: يمدهم بالرزق والعافية وطول العمر والبنين والزوجات، لا لخير لهم ولكنه شر لهم -والعياذ بالله-؛ لأنهم سوف

---

(١) انظر: تفسير أبي السعود (٤/٧٤)، تفسير البيضاوي (٣/٨٥)، السراج المنير (١/٦٢١).

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١١/٢٧١).

(٣) الكشاف (١/٤٤٤- ٤٤٥).

يزدادون بذلك إثمًا. ومن ثم كره بعض العلماء أن يدعى للإنسان بطول البقاء. قال: لا تقل: أطال الله بقاءك إلا مقيدًا؛ قل: أطال الله بقاءك على طاعته؛ لأن طول البقاء قد يكون شرًّا للإنسان"(١).

ومن أنواع الإملاء والاستدراج: ما بينه النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في قوله: ((**إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته**))، قال: ثم قرأ: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود:١٠٢](٢).

قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "((**إن الله ليملي**)) أي: ليمهل، والإملاء: الإمهال والتأخير وإطالة العمر، ((**للظالم**))؛ زيادة في استدراجه؛ ليطول عمره، ويكثر ظلمه، فيزداد عقابه: ﴿إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا﴾"(٣).

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمن الاستدراج أن يملى للإنسان في ظلمه، فلا يعاقب سريعًا؛ حتى تتكدس عليه المظالم، فإذا أخذه الله عَزَّوَجَلَّ لم يفلته، أخذه أخذ عزيز مقتدر"(٤).

وقد تقدم أن من أساليب الشيطان في الإغواء والإضلال أن يزين للإنسان الباطل والحرام بصورة الحق والحلال، بل ويُهَوِّنه عليه؛ حتى يتجرأ على أعظم المحرمات من غير اكتراث ولا مبالاة، وتارة يجره إلى المعصية خطوة بعد خطوة.

والمعركة بين الشيطان والإنسان ترتكز ابتداء إلى استدراج الشيطان للإنسان بعيدًا عن منهج الله عَزَّوَجَلَّ، والتزيين له فيما عداه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ﴾ [محمد:٢٥].

---

(١) شرح رياض الصالحين (٢/١٠٧ - ١٠٨).
(٢) صحيح البخاري [٤٦٨٦]، مسلم [٢٥٨٣].
(٣) فيض القدير (٢/٢٦٤).
(٤) شرح رياض الصالحين (٢/٤٩٨).

والمعنى: الشيطان سول لهم، أي: سهل لهم الكفر والمعاصي، وزين ذلك وحسنه لهم، والله جل وعلا أملى لهم: أي: أمهلهم إمهال استدراج.

وكون التسويل من الشيطان، والإمهال من الله عَزَّوَجَلَّ، قد تشهد لهم آيات من كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، كقوله جَلَّوَعَلَا في تزيين الشيطان لهم: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ﴾ [الأنفال:٤٨]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل:٦٣]، وقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ﴾ [إبراهيم:٢٢]، إلى غير ذلك من الآيات. وكقوله جَلَّوَعَلَا في إملاء الله عَزَّوَجَلَّ لهم استدراجًا: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ [الأعراف:١٨٢-١٨٣]، وقال عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ خَيْرٌ لِأَنْفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمْلِي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [آل عمران:١٧٨]..والآيات بمثل ذلك كثيرة معلومة"[(١)].

ليسَ من منهجِ الإسلام أن لا تَترجَّى النفوسُ، وأن لا تطمع في رحمه الله جَلَّوَعَلَا، وأن لا يطرقَ الأسماعَ إلا تخويفٌ وتهديدٌ، وزجرٌ ووعيدٌ بدونِ رجاءٍ، ولا طمعٍ في عفو ربِّ الأرض والسماء.

وأخرج ابن أبي حاتم: عن هشام بن عروة قال: كتب رجل إلى صاحب له: وإذا رضيت من الله شيئًا يسرك فلا تأمن أن يكون فيه من الله مكر؛ فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون[(٢)].

وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: المؤمن يعمل بالطاعات وهو مشفق وجل خائف، والفاجر يعمل بالمعاصي وهو آمن[(٣)].

---

(١) أضواء البيان (٧/٣٨٠- ٣٨١).

(٢) تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٥/ ١٥٢٩)، الدر المنثور (٣/٥٠٧-٥٠٦).

(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٥١).

وقال الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر): قال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما عرضت قولي على عملي إلا خشيت أن أكون مكذبًا. وقال ابن أبي مليكة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل. ويذكر عن الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ما خافه إلا مؤمن ولا أمنه إلا منافق. وما يحذر من الإصرار على النفاق والعصيان من غير توبة؛ لقول الله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَى مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥][(١)].

قال ابن بطال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وإنما هذا -والله أعلم-؛ لأنهم طالت أعمارهم حتى رأوا من التغيير ما لم يعهدوه، ولم يقدروا على إنكاره، فخشوا على أنفسهم أن يكونوا في حيز من داهن ونافق"[(٢)].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله عَزَّ وَجَلَّ وعذابه لا تنحصر، وكل ذلك ثناء على الخوف؛ لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينفيه، وضد الخوف: الأمن، كما أن ضد الرجاء: اليأس. وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء، فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف المضاد له"[(٣)].

"وإنما كان خوف الأنبياء عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ مع ما فاض عليهم من النعم؛ لأنهم لم يأمنوا مكر الله جَلَّ وَعَلَا"[(٤)].

---

(١) صحيح البخاري (١/ ١٨).

(٢) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (١/١٠٩).

(٣) إحياء علوم الدين (٤/ ١٦٢).

(٤) المصدر السابق (٤/١٧٠)، وانظر: موعظة المؤمنين (ص:٢٩٢).

ويتبين مما تقدم أن من مضار الأمن من المكر: الاغترار بالأعمال، والاتكاء عليها، والاسترسال في المعاصي والتعود عليها من غير خوف من الله عَزَّوَجَلَّ، ومن غير تأنيب للنفس وتهذيب لها.

ومن مضار الأمن من المكر: مقابلة ترادف النِّعَم بالكفران، ومزيد من الإعراض.

ومن مضار الأمن من المكر: أن العبد لا يأمن سوء الخاتمة.

ومن مضار الأمن من المكر: أنه طريق إلى العذاب في نار جهنم.

"والأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ كبيرة عند الشافعية. وقال الحنفية: إنه كفر كاليأس؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

وكما أن الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ من الذنوب المتوعد عليها بالعذاب فإن اليأس والقنوط من رحمته جَلَّوَعَلَا كذلك من الضلال المبين.

قال الخادمي الحنفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (بريقة محمودية): "(واليأس من رحمة الله جَلَّوَعَلَا) كفر؛ لأنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون، (والأمن من عذابه وسخطه) أي: غضبه؛ لأنه لا يأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ إلا القوم الخاسرون"(١).

وفي (حاشية العطار رَحِمَهُ ٱللَّهُ): "استدل على أن يأس الرحمة من الكبائر بما ظاهره أنه كفر. وفي (عقائد الحنفية) أن الإياس من روح الله جَلَّوَعَلَا كفر، وأن الأمن من مكر الله تعالى كفر. فإن أرادوا الإياس لإنكار سعة الرحمة الذنوب، وبالأمن اعتقاد أن لا مكر فكل منهما كفر وفاقًا؛ لأنه ردَّ القرآن، وإن أرادوا أن من استعظم ذنوبه فاستبعد العفو عنها

(١) بريقة محمودية (١/٢٢٤).

استبعادًا يدخل في حدِّ اليأس أو غلب عليه من الرجاء ما دخل به في حدِّ الأمن فالأقرب أن كلا منهما كبيرة لا كفر"[١].

وفي (حاشية الغرر البهية): "كل من القنوط، وأمن المكر كبيرة، يجب الخروج منه.."[٢].

وقد جاء في الحديث: عن ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه قال: الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله[٣].

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ﴾ [النجم:٣٢]، قال: أكبر الكبائر: الإشراك بالله جَلَّ وَعَلَا، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ﴾ [المائدة:٧٢]، واليأس من روح الله جَلَّ وَعَلَا. قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]، والأمن من مكر الله عَزَّ وَجَلَّ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]..الحديث[٤].

قال الجوهري رَحِمَهُ اللَّهُ: اليأس: "القُنُوط وقد يَئِسَ من الشَّيء ييأس"[٥]. "وقد قَنَط يَقْنِطُ قُنُوطًا مثل: جلس يجلس جلوسًا، وكذلك قنط يَقْنُطُ مثل: قعد يقعد، فهو قانِط"[٦].

---

(١) حاشية العطار على شرح الجلال المحلي على جمع الجوامع (١٨٨/٢)، وانظر: تحفة المحتاج في شرح المنهاج، مع حاشية الإمام عبد الحميد الشرواني، وحاشية الإمام أحمد بن قاسم العبادي (٩٥/٣).

(٢) الغرر البهية في شرح البهجة الوردية (٨٠/٢).

(٣) أخرجه معمر بن راشد في (جامعه) [١٩٧٠١]، والطبراني في (الكبير) [٨٧٨٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠١٩]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٠٤/١): "وفي رواية: أكبر الكبائر، وإسناده صحيح".

(٤) أخرجه الطبراني [١٣٠٢٣]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١١٥/٧- ١١٦): "رواه الطبراني، وإسناده حسن".

(٥) الصحاح، مادة: (يئس) (٩٩٢/٣).

(٦) الصحاح، مادة: (قنط) (١١٥٥/٣)، وانظر: تحرير ألفاظ التنبيه (ص: ٩٣).

وقيل: اليأس نقيض الرَّجَاء.

وقال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: اليأس: قطع الأمل[1].

ومنهم من فرَّق بين اليأس والقنوط، فقال: القنوط أخص من مطلق اليأس، فكل قنوط يأس، وليس كل يأس قنوطًا. قال ابن الأثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القنوط هو أشد اليأس"[2]. وقال: ابن عطية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القنوط: أتم اليأس"[3].

وقال العسكري: "الفرق بين اليأس والقنوط والخيبة: أن القنوط أشد مبالغة من اليأس، وأما الخيبة فلا تكون إلا بعد الامل؛ لأنها امتناع نيل ما أمل، فأما اليأس فقد يكون قبل الأمل وقد يكون بعده، والرجاء واليأس نقيضان يتعاقبان كتعاقب الخيبة والظفر. والخائب: المنقطع عما أمل"[4]. وقد اصْطُلِحَ على أنَّ القنوطَ يأسٌ من الرحمة[5].

قال الشوكاني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القنوط: الإياس من الرحمة، كذا قال الجمهور. وقال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: القنوط: ترك فرائض الله جَلَّ وَعَلَا"[6].

وقال السمين الحلبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القُنُوط: شدَّةُ اليأس من الخير"[7].

وقال ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اليأس: القطع على أن المطلوب لا يتحصل؛ لتحقيق فواته"[8].

---

(١) مجمل اللغة، لابن فارس، مادة: (يئس) (١/٩٤١)، القاموس المحيط (ص:٥٨٢).

(٢) النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (قنط) (٤/ ١١٣).

(٣) المحرر الوجيز (٣/٣٦٦)، وانظر: البحر المحيط في التفسير (٦/٤٨١)، الجواهر الحسان (٣/٤٠٣).

(٤) الفروق اللغوية (ص: ٢٤٥).

(٥) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٧٥).

(٦) فتح القدير (٤/٢٦٠).

(٧) الدر المصون في علوم الكتاب المكنون (٧/ ١٦٧)، وانظر: تفسير ابن عادل الحنبلي (١١/٤٧١).

(٨) نزهة الأعين النواظر في علم الوجوه والنظائر (ص:٦٣٣).

واليأسَ والقنوط من أسباب الضَّلال والكفر، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧].

فلا يقنط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ إلَّا ضَّالٌ، ولا ييأسُ من رَوْحِ الله جَلَّوَعَلَا إلَّا كافرٌ، جاهلٌ بسعةِ رحمة الله تعالى، وذاهلٌ عن كمال قدرته، وغافلٌ عن واسع جوده وكرمه. أما المؤمن الذي أنعم الله عَزَّوَجَلَّ عليه بالهداية والعلم فلايزال راجيًّا لفضل الله عَزَّوَجَلَّ وإحسانه، وبرِّه وامتنانه، عالما بما لله جَلَّوَعَلَا من حكمةٍ في تقدير الأمور، وتوقيت الأحداث.

"لا يقنط من رحمة ربه إلَّا الضَّالون عن طريق الله عَزَّوَجَلَّ، الذين لا يستروحون رَوْحَه، ولا يحسون رحمته، ولا يستشعرون رأفته وبره ورعايته. فأما القلب الندي بالإيمان، المتصل بالرحمن، فلا ييأس ولا يقنط مهما أحاطت به الشدائد، ومهما ادلهمت حوله الخطوب، ومهما غام الجو وتلبد، وغاب وجه الأمل في ظلام الحاضر، وثقل هذا الواقع الظاهر؛ فإن رحمة الله عَزَّوَجَلَّ قريب من قلوب المؤمنين المهتدين، وقدرة الله جَلَّوَعَلَا تنشئ الأسباب كما تنشئ النتائج، وتغير الواقع كما تغير الموعود"(١).

ومن يتأمَّلُ واقعَ المسلمين وما أصاب الكثيرين منهم من الفقر والتخلف بسبب كثرة الصراعات والظلم والاستبداد يعلم أن مجتمعاتنا بحاجةٍ إلى العافيةِ من كثير من الأمراض التي تصرف عن الهداية، وتعيق الفكر عن سديد النظر، ومن هذه الأمراض: اليأس والقنوط والإحباط والقلق والخوف، وكلها من الأمراض التي تصيب النفس، فتجد الكثيرين ممن أصابهم اليأس والقنوط في همٍّ وغمٍّ، فلا يرتقي إلى المعالي، ولا يطلب الهداية، بل يركن إلى البطالة والكسل، ويغلق على نفسه باب التنافس في الخير.

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢١٤٨).

وإن اليأس رأس البلايا الأخلاقية، والآفات النفسية.

والمسلم لا ييأس ولا يقنط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، فهو يوقن بأن ما يقع في الأرض إنما يقع بقدرة الله عَزَّوَجَلَّ، ووفق إرادته، وهو خير في جانب من جوانبه، ولله جَلَّوَعَلَا فيه حِكَمٌ. ويعلمُ كذلك أن الفتنة والابتلاء هما الميزان الذي يميز الصادق عن الكاذب. والمؤمن مكلَّف بتحقيق شرعة الإسلام في نفسه، والنظام الإسلامي في مجتمعه على أن يتحمَّل في سبيل ذلك الكثير من الشدائد؛ حتى يتحقق فيه معنى التكليف المتفرع عن عبوديته لله جَلَّوَعَلَا. والمسلم يتفاءل بوعد الله عَزَّوَجَلَّ، ويسعى لتحقيق النصر، ودفع الظلم، وإزالة الباطل.

ومن صور اليأس المؤلمة: اليأس من تحقيق النجاح في شتى المجالات على الصعيد التعليمي، والأسري، والاجتماعي، والوظيفي، فترى من الناس من لا يُقدم على الزواج وبناء البيت المسلم؛ خوفًا من الفشل، ومن لا يكمل الدراسة؛ خوفًا من الرسوب.

ومن صور اليأس الخطيرة: اليأس من مغفرة الله ورحمته، فترى من يسرف على نفسه بالعصيان، ولا يبادر إلى التوبة والعمل الصالح، ويضيع عمره بالغفلة والإعراض والتسويف؛ لأنه يظن أنه قد فات الأوان.

أما (حكم اليأس): فقد نَقَلَ ابنُ حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ اتفاقَ العلماء على أنَّ اليأس من رحمته جَلَّوَعَلَا من الكبائر، مستدلًّا بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. وبعد أن ذكر عددًا من الأحاديث المبشِّرة بسعة رحمته عَزَّوَجَلَّ قال: عدَّ هذا كبيرة هو ما أطبقوا عليه، وهو ظاهر؛ لما فيه من الوعيد الشَّديد[(١)].

وقد دلت الآية الكريمة السابقة على أن اليأس والقنوط من رحمة الله جَلَّوَعَلَا من صفات القوم الكافرين، ولا يلزم مِن هذا أن من اتصف بصفة من صفاتهم أن يكون كافرًا مثلهم. واليأس والقنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ قد يكون كفرًا يخرج من ملَّة الإسلام، وقد

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر، لابن حجر الهيتمي (ص: ١٤٨- ١٤٩).

يكون كبيرة من الكبائر. والضابط في ذلك: أن اليأس إذا انعدم معه الرجاء في رحمة الله تعالى وفرجه وعفوه -له أو للنَّاس-، وكان إنكارًا واستبعادًا لسعة رحمته جَلَّ وَعَلَا ومغفرته وعفوه فهو كفر؛ لأنه يتضمن تكذيب القرآن والنصوص القطعية، وإساءة الظن بربه جَلَّ وَعَلَا؛ إذ يقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف:١٥٦]، وهو يقول: لا يغفر له! فقد حجَّر واسعًا. هذا إذا كان معتقدًا لذلك، أما إن كان لاستعظام الذَّنوب، واستبعاد مغفرتها والعفو عنها، أو بالنَّظر إلى قضاء الله وأموره في الكون -كاليأس في الرِّزق والولد ونحوه-، مع عدم انعدام الرجاء؛ فهذا كبيرةٌ مِن أكبر الكبائر ولا يكون كفرًا. وقد عُدَّ من الكبائر بالإجماع؛ لما ورد فيه مِن الوعيد الشديد؛ كقوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾، وقوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦][(١)].

ثانيًا: الوقاية في خطر الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ، واليأس من رحمته والعلاج:

١ - الوقاية في خطر الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ:

أ. أن يجمع السَّالك بين الخوف والرَّجاء مع اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة المحبة:

وتكون الوقاية من خطر الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ، واليأس من رحمته: بالرجاء إذا صاحبه العمل؛ فإنه يعدل ميزان الخوف، ويدفع اليأس، ويعزز في النفس الصبر والاحتساب.

إن الخوف والرجاء هما الجناحان اللذان يرتقي بهما السالك إلى سُدَّة النجاة، ولا ينفعُ واحدٌ منهما دون الآخر، بل هما صِنوان، وبمثابةِ كفتي الميزان.

---

(١) تفسير القرطبي (٥/١٦٠)، الإسلام سؤال وجواب [١٧٤٦١٩].

فمن الاغترار: التمادي في الذنوب مع رجاءِ العفو، وتوقُّع القرب من الله جَلَّ وَعَلَا بغير طاعة، وانتظارُ زرع الجنة بِبَذْر النار. يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ((**وعِزَّتي لا أجمعُ على عبدي خوفين، ولا أجمع له أمنين، إذا أَمِنَنِي في الدنيا أَخَفْتُهُ يوم القيامة، وإذا خافني في الدنيا أَمَّنْتُهُ يوم القيامة**))(1).

ولا بدَّ من تحقيق التَّكافؤ والتَّوازن بين الخوف والرَّجاء؛ حتى تستقيم حياة المؤمن في الدُّنيا، ويفوز بالنَّعيم في الآخرة.

فلا يغلِّبُ العبدُ جانبَ الرجاء؛ لئلا يفضي به ذلك إلى الأمنِ من مكرِ الله؛ فيكونَ من الذين قال الله عَزَّ وَجَلَّ فيهم: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩]. ولا يغلِّبُ جانبَ الخوف؛ لئلا يفضي به إلى اليأسِ من رحمة الله؛ فيكونَ من الذين قال الله فيهم: ﴿وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر:٥٦]. ومن الذين قال الله فيهم: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف:٨٧]. قال الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إنَّ قومًا ألهتهُم الأمانيُّ حتى خرجوا من الدنيا بغيرِ توبة، يقول أحدهم: إني لأحسنُ الظنَّ بربي، وكَذَبَ لو أحسنَ الظنَّ لأحسن العمل(2).

---

(١) الحديث مروي عن الحسن مرسلا، وعن أبي هريرة. حديث: الحسن رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٥٧]، والبزار [٨٠٢٨]، عن الحسن مرسلا. حديث: أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٥٨]، والبزار [٨٠٢٩]، وابن حبان [٦٤٠]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧٥٩]، وابن عساكر في (معجمه) [١٤٢٨]. قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٠/ ٣٠٨): "رواهما البزار، عن شيخه: محمد بن يحيى بن ميمون، ولم أعرفه، وبقية رجال المرسل رجال الصحيح، وكذلك رجال المسند غير محمد بن عمرو بن علقمة، وهو حسن الحديث". وقال العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (ص:١٥١٠): "أخرجه ابن حبان في صحيحه، والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة، ورواه ابن المبارك في (الزهد)، وابن أبي الدنيا في كتاب: (الخائفين) من رواية الحسن مرسلا".

(٢) انظر: كشف المشكل، لابن الجوزي (٣/ ٣٢٣)، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، للقرطبي (ص:١٢٨)، الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي (ص:٢٨).

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "القلب في سيره إلى الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطائر، فالمحبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه، فمتى سلم الرأس والجناحان فالطائر جيد الطيران، ومتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فقد الجناحان فهو عرضة لكل صائد وكاسر، ولكن السلف استحبوا أن يقوى في الصحة جناح الخوف على جناح الرجاء، وعند الخروج من الدنيا يقوى جناح الرجاء على جناح الخوف، هذه طريقة أبي سليمان وغيره، قال: ينبغي للقلب أن يكون الغالب عليه الخوف، فإن غلب عليه الرجاء فسد.

وقال غيره: أكمل الأحوال: اعتدال الرجاء والخوف، وغلبة الحب، فالمحبة هي المركب، والرجاء حاد، والخوف سائق، والله الموصل بمنه وكرمه"(1).

وجاء في الحديث: عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ دخل على شَابٍّ وهو في الموت، فقال: ((**كيف تَجِدُكَ؟**))، قال: والله يا رسول الله، إني أرجو الله، وإني أخاف ذنوبي، فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمَنَهُ مما يخاف**))(2).

---

(1) مدارج السالكين (١/٥١٣)، وانظر: تنوير المستبصر الفائز ببيان أحكام الجنائز، مطلب في معنى المحتضر، إبراهيم بن يوسف البولوي، تحقيق ودراسة وشرح: د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان، مصطفى محمود سليخ (ص:٣٥)، المحبة صورها وأحكامها، للدكتور عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٢٦-٢٧).

(2) الحديث مروي عن أنس وعن عبيد بن عمير مرسلا. حديث أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: أخرجه عبد بن حميد [١٣٧٠]، وابن ماجه [٤٢٦١]، والترمذي [٩٨٣]، والبزار [٦٨٧٤]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٨٣٤]، وأبو يعلى [٣٣٠٣]، وأبو نعيم في (الحلية) (٦/٢٩٢)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧٠]، والضياء [١٥٨٧]. حديث عبيد بن عمير: أخرجه البيهقي في (شعب الإيمان) [٩٧١]. قال المنذري رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٤/١٣٥): "رواه الترمذي، وقال: حديث غريب، وابن ماجه، وابن أبي الدنيا، كلهم من رواية جعفر بن سليمان الضبعي عن ثابت عن أنس. قال الحافظ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: إسناده حسن؛ فإن جعفرا صدوق صالح احتج به مسلم، ووثقه النسائي، وتكلم فيه الدارقطني وغيره". وفي (تحفة المحتاج إلى أدلة المنهاج)، لابن الملقن (١/٥٨٣): "رواه الترمذي بإسناد جيد، وقال: غريب، وأن بعضهم رواه مرسلا".

ب. المواظبة على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، وشكره على نعمه، والنَّظر والتأمل في خلق الله جَلَّوَعَلَا وآياته في الخلق، والاعتبار بحال السابقين:

إنَّ من أسباب العافية في الدنيا والآخرة: شكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه، والنظر إلى كل عطاء على أنه اختبار من الله عَزَّوَجَلَّ، كما قال سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل:٤٠].

ومن أسباب العافية في الدنيا والآخرة: أن يحذر المؤمن دوام السلامة؛ خشية الاستدراج، فيشتغل بالشُّكر، وذكر الله عَزَّوَجَلَّ وطاعته على الدَّوام. فيجازى في الآخرة بالحسنى جزاء لما عمل في أيامه الخالية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الْأَيَّامِ الْخَالِيَةِ﴾ [الحاقة:٢٤]. ويحيا في الدنيا حياة طيبة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

وقد أخبرنا الحق عَزَّوَجَلَّ عن هلاك بعض الأمم بسبب المعاصي، وكفران النعم فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦].

فقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ يعني: وحدوا الله عَزَّوَجَلَّ وأطاعوه. ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ﴾ يعني: المطر. ﴿وَالْأَرْضِ﴾ يعني: النبات، وأصل البركة: المواظبة على الشيء، والثبات عليه ، مأخوذ من بروك البعير[1]، أي: تابعنا عليهم بالمطر، وكثرة المواشي والأنعام، وزيادة الثمار والأرزاق، والأمن والسلامة، ورفعنا عنهم القحط والجدب.

---

(١) انظر: الكشف والبيان (٤/٢٦٥)، تفسير البغوي (٢/٢١٦)، الهداية إلى بلوغ النهاية (٧/٤٥٣٢)، الخازن (٢/٢٣٠-٢٣١).

وقال البيضاوي رَحِمَهُ اللَّهُ: لوسعنا عليهم الخير ويسرناه لهم من كل جانب.

وقيل: المراد: المطر والنبات[1].

﴿وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ﴾ فجعلنا لهم العقوبات. ﴿بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ من الكفر والمعصية والأعمال الخبيثة.

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

فقد يحرم المرء الرزق بالمعصية يرتكبها، أو قد يحرم البركة في الرزق فيكون لديه المال الوفير ولا يحسن الانتفاع به، فيضيع المال في غير مصلحة، ويذهب من غير فائدة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح:١٠-١٢].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الحذر الحذر من المعاصي فكم سلبت من نعم؟! وكم جلبت من نقم؟! وكم خربت من ديار؟!"[2].

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "المعاصي تُزِيلُ النِّعَم، ومن عقوباتها أنها تُزِيلُ النِّعَمَ الحاضرة، وتَقْطَعُ النِّعَمَ الواصِلَة، فَتُزِيلُ الحاصِل، وتَمْنَعُ الواصِل فَإِنَّ نِعَمَ اللهِ مَا حُفِظَ مَوْجُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ، وَلَا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بِمِثْلِ طَاعَتِهِ؛ فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وقد جَعَلَ الله عَزَّوَجَلَّ لكل شيء سببًا وآفة، سَبَبًا يَجْلِبُهُ، وَآفَةً تُبْطِلُهُ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها"[3].

---

(١) تفسير البيضاوي (٣/٢٥)، وانظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد (٢/ ٣٨٩).

(٢) لطائف المعارف (ص:١٤٦- ١٤٧).

(٣) الجواب الكافي (ص:١٠٦).

وقد أخبر الله عَزَّوَجَلَّ في كثيرٍ من الآياتِ عن حال الذين أعرضوا عن النَّظر في آيات الله عَزَّوَجَلَّ، فلم ينتفعوا، ومكروا السَّيِّئات حتى أتاهم العذاب من حيث لا يشعرون فلم يمهلوا: يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُمْ مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [النحل:٢٦].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿أَفَأَمِنَ الَّذِينَ مَكَرُوا السَّيِّئَاتِ أَنْ يَخْسِفَ اللَّهُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٤٥﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ فِي تَقَلُّبِهِمْ فَمَا هُمْ بِمُعْجِزِينَ ﴿٤٦﴾ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ فَإِنَّ رَبَّكُمْ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٤٧﴾﴾ [النحل:٤٥-٤٧].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾ وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٦﴾ أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [يوسف:١٠٥-١٠٧].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ ﴿٤٦﴾ فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ﴿٤٧﴾﴾ [إبراهيم:٤٦-٤٧].

ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ ﴿٥٤﴾ وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٥٥﴾ أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ ﴿٥٦﴾ أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٥٧﴾ أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ [الزمر:٥٤-٥٨]، والآيات في ذلك كثيرة.

ج. أن يحذر سوء الخاتمة. قال النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع، فيسبق عليه الكتاب، فيعمل بعمل أهل النار، فيدخل النار**))(١). نسأل الله جَلَّوَعَلَا السلامة والعافية وحسن الخاتمة.

(١) صحيح البخاري [٣٢٠٨، ٣٣٣٢، ٦٥٩٤، ٧٤٥٤]، مسلم [٢٦٤٣].

د. الإخلاص في القول والعمل.

هـ. الالتجاء إلى الله عَزَّوَجَلَّ، والدعاء، والاستعاذة به من خطر الاستدراج، ومن شرِّ الشيطان الرجيم الذي يوسوس في صدور الناس، ويزين لهم ما فيه هلاكهم.

و. الصبر على الابتلاء.

ز. تزكية النفس واتهامها ومحاسبتها والتنقيب عن عيوبها ونقائصها، فإن محاسبة النفس هو طريق استقامتها وكمالها وفلاحها وسعادتها.

ح. الإكثار من ذكر الله عَزَّوَجَلَّ ومن الدعاء والاستغفار:

إن كثرة ذكر الله عَزَّوَجَلَّ من أعظم أسباب الحفظ من المعصية؛ لأن الذِّكرَ يُذَكِّرُ العبدَ بالله جَلَّوَعَلَا وصفاته، وعظمته، فيكون حاضرًا مع الله تعالى، ومستحضرًا لما يعتقده عن الله، فيحجزه ذلك عن المعصية.

ط. الإكثار من ذكر الموت، وسماع المواعظ التي ترغب في الآخرة.

ي. اختيار الأخلاء والأصدقاء الصالحين الذين يذكِّرونَ الإنسانَ كلما غفَل، ويعينونه على طاعة الله عَزَّوَجَلَّ، والتفقه في دينه، وعلى تحري الحلال، واجتناب الحرام.

ك. البيئة الصالحة في البيت والحي والمدرسة والمسجد.

ل. مجاهدة النفس والهوى والشيطان.

م. أن يحذر السالك خطوات الشيطان وتزينه للمعاصي.

ن. أن يتفكر في آثار المعصية، وما يترتب عليها من العقاب في الآخرة.

س. أن يتخير العلاج المناسب لكل ما يعتلج في نفسه من محفزات الشهوة، والبواعث على المعصية.

٢ – الوقاية من خطر اليأس من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ والعلاج:

إن من أسباب من خطر اليأس من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ والعلاج مضافًا إلى ما تقدم:

أ. صيانة الإيمان:

إنَّ الوقاية من اليأس والقنوط لا تكون إلا بصيانة الإيمان الذي يسهم في استئصال اليأس؛ فإن نور الإيمان يدفع عن المسلم ما ينتابه من صنوف الوحشة، وما يناله من النوازل. وهو قائم على ركائز من الثقة بالله عَزَّوَجَلَّ، والتوكل عليه، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ إِنَّ اللَّهَ بَالِغُ أَمْرِهِ﴾ [الطلاق:٢-٣]. والحاصل أن ذلك الإيمان والاحتساب مما يورث القناعة والرضا، ويدفع اليأس والقنوط.

ب. أن يعلم أن كل شيء بقضاء الله عَزَّوَجَلَّ وقدره، وأن الدنيا بقاؤها قليل، وعزيزها ذليل، وغنيها فقير، شبابها يهرم، وحيها يموت، فالمغرور من اغتر بها، وهي دار ابتلاء واختبار، وليست دار إقامة، وأن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، وأن ما قُدِّر للإنسان لا بدَّ أن يأتيه، وأن الله جَلَّوَعَلَا يقبل التوبة عن عباده، ويغفر الذنوب، وأن مع العسر يسرًا، وأن فرج الله قريب، وأن من ألمت به نازلة فصبر وشكر الله عَزَّوَجَلَّ فإنه ينال أجرًا عظيمًا، وأن الله سيكشف عنه الضر والبلاء.

ومن أصول العقيدة: تحقيق التوحيد الخاص لله، واعتقاد أنَّ كُلَّ ما يصيب الإنسان من فتنة وبلاء إنما هو بقضاء الله تعالى وقَدَرِه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾ [التغابن:١١]. قال علقمة: عن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ﴾: ((**هو الذي إذا أصابته مصيبة رضي وعرف أنها من الله**))[1].

---

(١) صحيح البخاري (١٥٥/٦).

فينبغي التعامل مع الحوادث والنوازل من منطلق إيماني، وقد جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لا يبلغ العبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه**))(١).

وعن صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**عجبًا لأمر المؤمن، إن أمره كله خير، وليس ذاك لأحد إلا للمؤمن، إن أصابته سراء شكر، فكان خيرًا له، وإن أصابته ضراء، صبر فكان خيرًا له**))(٢).

ج. حسن الظنَّ بالخالق عَزَّ وَجَلَّ، وأن يمتلئ القلب بالفأل الصادق:

عليك أيها المسلم أن تحسنَ الظنَّ بخالقك، وأن يمتلئ قلبك بالفأل الصادق، والأمل المشرق الذي يوسِّع ما ضيَّقته الخطوب والنَّوازل، فبالأمل تذوق طعم السَّعادة، وبالتفاؤل تحسُّ ببهجة الحياة. فالتَّفاؤل سُنَّة نبويَّة، وصفة إيجابيَّة للنفس السويَّة، يترك أثره على تصرفات الإنسان ومواقفه، ويمنحه سلامةَ النفس، والهمةَ العالية، ويزرع فيه الأمل، ويحفزه على الانبعاث إلى العمل.

والتفاؤل ما هو إلَّا تعبير صادق عن الرُّؤية الطيبة والإيجابية للحياة.

---

(١) أخرجه البزار [٤١٠٧]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢١١]. قال الهيثمي (١/٥٨): "رواه البزار، وقال: إسناده حسن". وفي لفظ: ((لكل شيء حقيقة، وما بلغ عبد حقيقة الإيمان حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه)). قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٧/ ١٩٧): "رواه أحمد، والطبراني، ورجاله ثقات، ورواه الطبراني في (الأوسط)".

(٢) صحيح مسلم [٢٩٩٩].

قال الشاعر:

أعلِّل النفس بالآمال أرقبها ... ما أضيق العيش لولا فسحة الأملِ[1]

فالأمل يبعث الحياة في الناس، واليأس يقتلهم.

اليأس يوقع الناس صرعى كالأموات، ويقتل النبوغ والخصال الحميدة، ويصرف عن التأمل والتبصر في العاقبة، والأمل يعزز الثقة بالنفس، وينهض بها من بين الأموات، وهو يحتاج إلى رعاية مستمرة، وتنمية متواصلة، ومراقبة دائمة؛ حتى لا ينحرف إلى إفراط يقع بالإنسان في طول الأمل، والركون إلى الدنيا، والغفلة عن الآخرة، أو ينحرف إلى تفريط يقع بالإنسان في اليأس والقنوط من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ.

والدعاة بوصفهم الدالين على طريق الله عَزَّوَجَلَّ، الآخذين بأيدي السالكين إلى صراطه المستقيم، ولكونهم أكثر الفئات احتكاكًا مع مشاكل الناس وحاجاتهم اليومية والاجتماعية، فهم مطالبون بالوقوف على مسؤوليتهم الدعوية والدينية والاجتماعية في نشر ثقافة الأمل في عالم ساده الإحباط، وعمَّه اليأس، وغلبه القنوط، بسبب كثرة الإخفاقات والهزائم والانكسارات..

والداعية الفطن يجب أن يبثَّ رسائل الأمل في قلوب المدعوين، وأن يكون خطابه الدعوي في أوقات الأزمات، واشتداد الخطوب، وكثرة الإحباطات، قائمًا على محاربة اليأس والقنوط.

وإن التفاؤل يقوي العزائم، ويبعث على الجد، ويعين على الظفر، وينتشل السالكين من دروب الضياع، وبراثن الضلال، ويقاوم المرض، فقد ثبت طبيًّا أن الذين يعيشون تفاؤلًا هم أسرع من غيرهم على تجاوز الأمراض أو الامتثال للشفاء.

---

(١) البيت يعزى للوزير مؤيد الدين الطغرائي. انظر: معاهد التنصيص على شواهد التلخيص (١٤٢/٢)، خزانة الأدب وغاية الأرب (١٨٧/١)، الكشكول (٣٠٢/١).

والتفاؤل يدفع الإنسان لتجاوز المحن، ويحفِّزُه للعمل، ويورثه طمأنينة النفس، وراحة القلب، وهو السلوك الذي يصنع به الرجال مجدهم، ويرفعون به رؤوسهم، فهو نور وقت شدة الظلمات، ومخرج وقت اشتداد الأزمات، ومتنفس وقت ضيق الكربات، وهو منبثق من الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، والتوكل عليه، والثقة بوعده.

فمن اليقين بالله عَزَّوَجَلَّ والثقة بوعده ينبثق الفجر، وتنجلي سحب الظلام واليأس. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتَّى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة:١١٨]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ﴾ [يوسف:١١٠]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الزمر:٥٣].

والمتفائل لا يبني من المصيبة سجنًا يحبس فيه نفسه، لكنَّهُ يتطلَّعُ للفرج الذي يعقب كل ضيق، ولليسر الذي يَتْبَعُ كل عسر.

والنصوص التي تبعث الأمل في النفوس، وتحارب: الاكتئاب والانطواء على النفس؛ انتظارًا للموت، أو هربًا من الواقع كثيرة.

ولنا في سيرة رسولنا الكريم صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وصحابته البررة خير قدوة، فمن طائفة مستضعفة من قبل قومهم، إلى خلفاء وملوك وفاتحين وصلوا لكافة أصقاع الدنيا، ونشروا بمبادئهم وسيرتهم العطرة: العدل والمحبة والسلام، فدخل الناس في دين الله عَزَّوَجَلَّ أفواجًا، ولله الحمد والمنَّة.

ولقد كان نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إمامًا في التفاؤل والثقة بوعد الله جَلَّوَعَلَا، وكان يحارب اليأس والتشاؤم، ويصنع الحياة، ويزرع الأمل.

وقد علمنا النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ التفاؤل بسلوكه وقوله، ففي حادثة الهجرة -مثلًا- عندما أحدقت الأخطار بالغار، وأحاط المشركون به، وعلى الرغم من هذه الشدائد والأخطار كان النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ آمنًا مطمئنًا، متوكلًا على ربه عَزَّوَجَلَّ، واثقًا بنصره وحفظه. يقول أبو بكر رَضِيَاللَّهُعَنْهُ: كنت مع النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في الغار فرأيت آثار المشركين، قلت: يا رسول الله، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا، قال: ((**ما ظنك باثنين الله ثالثهما**))[(١)]. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة:٤٠].

وقد كان عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ يزرع الأمل والتفاؤل في نفوس أصحابه وأمته، وهو القائل صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**لا عدوى ولا طيرة، ويعجبني الفأل**[(٢)] **الصالح**[(٣)]: **الكلمة الحسنة**))[(٤)]. قال الإمام النووي رَحِمَهُاللَّهُ: "قال العلماء: وإنما أحب الفأل؛ لأن الإنسان إذا أمل فائدة الله جَلَّوَعَلَا وفضله عند سبب قوي أو ضعيف فهو على خير في الحال، وإن غلط في جهة الرجاء، فالرجاء له خير. وأما إذا قطع رجاءه وأمله من الله تعالى، فإن ذلك شر له، و(الطيرة): فيها سوء الظن، وتوقع البلاء. ومن أمثال التفاؤل: أن يكون له مريض

---

(١) صحيح البخاري [٤٦٦٣]، مسلم [٢٣٨١].

(٢) (الفأل): مهموز وقد لا يهمز، وجمعه: فؤول، كفلس وفلوس. وقد فسره النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بالكلمة الصالحة والحسنة والطيبة. قال العلماء يكون الفأل فيما يسر، وفيما يسوء والغالب في السرور. انظر: شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (٢١٩/١٤)، فتح الباري، لابن حجر (١٦٥/١). وقد جاء (الفأل) مقيدًا في بعض الروايات بكونه صالحًا، وفي أخرى بكونه حسنًا، وهي روايات صحيحة، وما أطلق جاء في مقابل التشاؤم.

(٣) لأنه حسن ظن بالله تعالى.

(٤) صحيح البخاري [٥٧٥٦، ٥٧٧٦]، مسلم [٢٢٢٤].

فيتفاءل بما يسمعه فيسمع من يقول: يا سالم، أو يكون طالب حاجة فيسمع من يقول: يا واجد، فيقع في قلبه رجاء البرء أو الوجدان -والله أعلم-"[(١)].

وعن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: ((**كان النبي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **يعجبه التيمن، في تنعله**[(٢)]**، وترجله**[(٣)]**، وطهوره**[(٤)]**، وفي شأنه كله**))[(٥)].

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ اللَّهُ: "((**كان يعجبه التيمن**)) قيل: لأنه كان يحب الفأل الحسن؛ إذ أصحاب اليمين أهل الجنة"[(٦)].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كان يعجبه إذا خرج لحاجته أن يسمع: يا راشد، يا نجيح[(٧)]؛ لأنه كان يحب الفأل الحسن فيتفاءل بذلك[(٨)]. ويقول عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ مخاطبًا أصحابه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وأمته: ((**فأبشروا وأملوا ما يسركم**))[(٩)].

والحاصل أن التفاؤل سبب في حصول الخير، وسبب للتقدم والنجاح، يدفع الإنسان لتجاوز المحن، ويورث الطمأنينة والراحة، ويبعث العبد للبذل والعطاء والعمل.

---

(١) شرح الإمام النووي على صحيح مسلم (١٤/ ٢١٨- ٢١٩).

(٢) أي: لبس نعله.

(٣) بالجيم: تمشيط شعره.

(٤) بضم الطاء، أي: تطهره.

(٥) صحيح البخاري [١٦٨، ٤٢٦، ٥٣٨٠، ٥٨٥٤، ٥٩٢٦]، مسلم [٢٦٨].

(٦) فتح الباري، لابن حجر (١/٢٦٩)، فيض القدير (٥/٢٠٧)، عون المعبود ومعه حاشية ابن القيم (١١/١٣٣).

(٧) أخرجه الترمذي [١٦١٦]، وقال: "هذا حديث حسن صحيح غريب"، وأخرجه أيضًا: الطحاوي في (شرح مشكل الآثار) [١٨٤٨]، والطبراني في (الأوسط) [٤١٨١]، والصغير [٥٤٩].

(٨) انظر: فيض القدير (٥/٢٢٩).

(٩) صحيح البخاري [٣١٥٨، ٤٠١٥، ٦٤٢٥]، مسلم [٢٩٦١].

د. الاشتغال بالعبادات الظاهرة والباطنة:

إنَّ من أنفع أسباب الوقاية من آفات اليأس والقنوط: أن يشتغلَ العبدُ بالعباداتِ الظاهرة والباطنة، ويكثرَ من النوافل، ومن الذِّكر والاستغفار والدُّعاء، وأن يلجأ إلى الله تعالى ويستعين به في صرف ذلك عنه؛ فإن ذلك يقيه من آفات الشُّرود والقنوط. يقول عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ مبينًا أن خيرَ ما يستعانُ به عند نزول الشدائد: العبادات التي تقربُ من الله عَزَّوَجَلَّ، وتريح النفس: ((**إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه، فسددوا وقاربوا، وأبشروا، واستعينوا بالغدوة والروحة وشيء من الدلجة**))(1). وهو مصداق قول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة:٤٥]؛ فإن المداومة على الطَّاعات، والإكثار من الذِّكر والنوافل مما يزيل سحب اليأس، ويبدِّد ظلام القنوط، ويقرِّب من المحبوب، فيأنس العبد به، ويشتاق إليه، كما جاء في الحديث القدسي: ((**وما تقرَّب إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضت عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه**)) الحديث(2).

وفي الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**أقرب ما يكون العبد من ربِّه، وهو ساجد، فأكثروا الدعاء**))(3).

---

(١) صحيح البخاري [٣٩]. قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((يسر)): ذو يسر. ((يشاد الدين)): يكلف نفسه من العبادة فوق طاقته والمشادة المغالبة. ((إلا غلبه)): رده إلى اليسر والاعتدال. (فسددوا): الزموا السداد، وهو التوسط في الأعمال. ((وقاربوا)): اقتربوا من فعل الأكمل إن لم تسطيعوه. ((واستعينوا بالغدوة والروحة، وشيء من الدلجة)): استعينوا على مداومة العبادة بإيقاعها في أوقات النشاط، كأول النهار، وبعد الزوال، وآخر الليل.

(٢) صحيح البخاري [٦٥٠٢].

(٣) صحيح مسلم [٤٨٢].

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر بادر إلى الصلاة(١).

وفي حديث: صهيب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فيما حكاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن نبي من الأنبياء السابقين: ((**فقام إلى الصلاة، وكانوا إذا فزعوا، فزعوا إلى الصلاة**))(٢).

"فينبغي للمسلم إذا أصابه مكروه أن يفزع إلى الله تعالى بأنواع الطاعات من صلاة وغيرها"(٣).

هـ. التمسك بالعقيدة، والتفقه في الدين:

إنَّ التمسك بالعقيدة، والرجوع إلى الثوابت، والتفقه في الدين، ينير بصيرة المؤمن، ويفتح أمامه أبواب الأمل المتجدد، ويقطع الشكوك التي تشتت فكره، فمهما تفاقم الشرُّ، وترامى الضرر فإنه يعلم أنَّ ما قضى الله عَزَّ وَجَلَّ كائن، وما سُطِّرَ منتظر، وما يحكمُ به يحِقُّ، لا رافع لما وضع، ولا واضع لما رفع، ولا مانع لما أعطى، ولا معطي لما منع، وما شاء ربنا صنع، فلا جزع ولا هلع. ورُبَّ محْنَةٍ أورثت مِنْحَة، وربَّ نورٍ يَشِعُّ من كَبِد الظَّلام؛ فإنَّ النصر مع الصبرِ، وأنَّ الفرج مع الكرب، وإنَّ مع العسر يسرًا، فأبشروا وأمِّلوا، فما بعد دياجير الظلام إلَّا فلقُ الصبح المشرق.

و. تذكر عواقب وآثار اليأس والقنوط في الدنيا والآخرة.

ز. حضور مجالس العلماء، وصحبة أهل العدل والخير.

---

(١) جاء في الحديث: عن حذيفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إذا حزبه أمر، صلَّى)) أخرجه أحمد [٢٣٢٩٩]، وأبو داود [١٣١٩]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٢٩١٢]. قال الحافظ ابن حجر في (الفتح) (١٧٢/٣): "أخرجه أبو داود بإسناد حسن".

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة [٤٨٠]، وأحمد بإسناد صحيح [١٨٩٣٧]، والبزار [٢٠٨٩]، والنسائي في (الكبرى) [١٠٣٧٥]، وابن حبان [١٩٧٥]، والضياء [٥٢]، وقال: "إسناده صحيح".

(٣) انظر: أضواء البيان (٢/ ٣٢٣).

ح. دوام النظر في كتاب الله عَزَّوَجَلَّ، وسُنَّةِ رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وسيرته العطرة، وسِيَرِ الأنبياء والعلماء والسلف الصالح.

ط. مكافحة البطالة التي تؤدي إلى الانحراف والضياع، والسعي في طلب الرزق، واغتنام الوقت في العمل الصالح.

ي. العلاج النفسي:

ويكون بمكافحة الاكتئاب ومسبباته، ومعرفة موضع الداء؛ لمعرفة ما يناسبه من العلاج.

ك. معرفة أسباب الفشل والإخفاق العامة والخاصة، وإيجاد الحلول الناجعة.

ل. التوعية بأخطار اليأس والقنوط، واتخاذ أسباب الوقاية من آفاته من البعد عن الغلو والتشدد، وضرورة الترفيه الإيجابي عن النفس.

المبحث السابع والعشرون
الإفساد في الأرض والحرابة وقطع الطريق

أولًا: التَّحذير من الإفساد في الأرض والحرابة وقطع الطريق:

١ - تعريف الفساد وبيان خطره وآثاره:

الفسادُ والإفسادُ ضدُّ الصَّلاح والإصلاح. فسد الشيء فُسُودًا من باب: قَعَدَ، فهو فاسد، والجمع: فَسْدَى، والاسم: الفساد.

يقال: (فسد الشيء يَفْسُدُ) –بالضم– (فسادًا) فهو (فاسد). و(فَسُدَ) –بالضم– أيضًا: (فسادًا) فهو (فَسِيدٌ)، و(أَفْسَدَهُ فَفَسَدَ)، ولا تقُل: انْفَسَد. و(الاسْتِفْساد): خلاف الاستصلاح، و(المفسدة) ضد المصلحة، والجمع: المفاسد[1].

قال الراغب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الفسادُ: خروج الشيء عن الاعتدال، قليلًا كان الخروج عنه أو كثيرًا، ويضاده: الصَّلاح، ويستعمل ذلك في النَّفس، والبدن، والأشياء الخارجة عن الاستقامة، يقال: فَسَدَ فَسَادًا وفُسُودًا، وأَفْسَدَهُ غيره. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١]، ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ﴾ [المؤمنون:٧١]، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء:٢٢]، ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الروم:٤١]، ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا

---

(١) انظر: مادة: (فسد) في (الصحاح)، للجوهري (٥١٩/٢)، المصباح المنير (٤٧٢/٢)، و(القاموس المحيط) (ص:٣٠٦).

تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ﴾ [البقرة:١١-١٢]، ﴿لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا﴾ [النمل:٣٤]، ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١]، ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠]"[(١)].

وقال الحَرَالِّيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفساد انتقاض صورة الشيء، والإصلاح تلافي خلل الشيء"[(٢)].

ويستعمل في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة. وقيل للحيوانات الخمس: فواسق استعارةً وامتهانًا لهن؛ لكثرة خبثهن وإيذائهن، حتى قيل: يقتلن في الحل والحرم[(٣)].

---

(١) المفردات في غريب القرآن، مادة: (فسد) (ص:٦٣٦)، بتصرف يسير.

(٢) انظر: تراث أبي الحسن الحرالي المراكشي في التفسير (ص:١٦٠)، وانظر: التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٦٠)، نظم الدرر (١/١١٠).

(٣) الفواسق الخمس -كما ورد في (الصحيح)-: ((الفأرة، والعقرب، والحُدَيَّا، والغراب، والكلب العقور)). صحيح البخاري [٣٣١٤]، مسلم (٦٨- ٦٩) [١١٩٨]. وعند مسلم: ((الحيَّة، والغراب الأبقع، والفأرة، والكلب العقور، والحُدَيَّا)). صحيح مسلم (٦٧) [١١٩٨]. قال الإمام أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (العارضة): "أمر بالقتل، وعلل بالفسق، فيتعدى الحكم إلى كل ما وجدت فيه العلة، ونبه بالخمسة على خمسة أنواع من الفسق. فنبه بالغراب على ما يجانسه من سباع الطير، وكذا بالحدأة، ويزيد الغراب بحل سفرة المسافر، ونقب جرابه، وبالحية على كل ما يلسع، والعقرب كذلك - والحية تلسع وتفترس، والعقرب تلدغ، ولا تفترس - وبالفأرة على ما يجانسها من هوام المنزل المؤذية، وبالكلب العقور على كل مفترس، قال: ومعنى فسقهن: خروجهن عن حد الكف إلى الأذية" عارضة الأحوذي بشرح صحيح الترمذي (٤/٦٣-٦٤)، وانظر: شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك (٢/٤٣١). وأمر رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ علاوة على الفواسق الخمس بقتل الْوَزَغ، وسماه: فويسقًا. صحيح البخاري [١٨٣١، ٣٣٠٧، ٣٣٥٩]، مسلم [٢٢٣٧، ٢٢٣٨].

والفساد عند الحكماء: زوال الصورة عن المادة بعد أن كانت حاصلة.

وعند الفقهاء: ما كان مشروعًا بأصله غير مشروع بوصفه، وهو مراد للبطلان عند الشافعي، وقسم ثالث مباين للصحة والبطلان عند الحنفي.

و(فساد الوضع): أن لا يكون الدليل على الهيئة الصالحة لاعتباره في ترتيب الحكم.

و(فساد الاعتبار): أن يخالف الدليل نصًّا أو إجماعًا، وهو أعمُّ من فساد الوضع(١).

و(الفساد في الأرض): تهييج الحروب، وإثارة الفتن، والإخلال بمعايش الناس. قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفساد: خروج الشيء عن حال استقامته وكونه منتفعًا به، ونقيضه: الصلاح، وهو الحصول على الحالة المستقيمة النافعة.

والفساد في الأرض: هَيْجُ الحروب والفتن؛ لأن في ذلك فساد ما في الأرض، وانتفاء الاستقامة عن أحوال الناس والزروع والمنافع الدينية والدنيوية. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:٣٠]، ومنه قيل لحرب كانت بين طيء: حرب الفساد. وكان من فسادهم في الأرض: هَيْجُ الحُروب والفتن بمخادعة المسلمين، وممالأة الكفار عليهم، بإفشاء الأسرار إليهم؛ فإن ذلك يؤدي إلى فساد ما في الأرض من الناس والدواب والحرث.

ومنه: إظهار المعاصي والإهانة بالدين؛ فإن الإخلال بالشرائع والإعراض عنها مما يوجب الهرج والمرج، ويخل بنظام العالم"(٢).

(١) التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٦٠)، التعريفات (ص:١٦٦).

(٢) الكشاف (١/٦٢- ٦٤)، بتصرف، وانظر: تفسير البيضاوي (١/٤٦)، تفسير النسفي (١/٥٠).

قال الراغب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الفساد عام في الكفر والضلال، وكل ما هو ضار، والصلاح عام في الإيمان والرشد وكل نافع، فقوله: ﴿لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة:١١] عام في كل ذلك"(١).

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وأما الفساد فهو ضد الصلاح، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١]، وقال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢]، وقال: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦]، وقال: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، وقال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، وقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:٣٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾ [المائدة:٣٣]، وقال: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

إن الفساد آفة خطيرة تصيب الأفراد والمجتمعات، وإذا تفشى داء الفساد أصاب الأمة الوهن والتخلف، وأصبحت مطمعًا لأعدائها، وغدت تابعة مُؤْتَمِرَةً خاضعةً ذليلة مُنْقَادة.

ومن أسباب تفشي الفساد: الظلم والاستبداد، والجهل، والبيئة الفاسدة، والتربية السيئة، وضعف الوازع الديني، وصحبة أهل الشر والفساد، والمسكرات(٢)، والإعلام الهابط

---

(١) تفسير الراغب الأصفهاني (١/١٠٠).

(٢) قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله عَزَّ وَجَلَّ: "﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾ [المائدة:٩١]: فنبه على علة التحريم، وهي ما في ذلك من حصول المفسدة، وزوال المصلحة الواجبة والمستحبة، فإن وقوع العداوة والبغضاء من أعظم الفساد.=

والمضلل، وكثرة المغريات والمهيجات على المعاصي، من نشر الفواحش والمنكرات والدعوة إليها، والترويج لها، والقدوة السيئة، وسوء التبليغ، والبطالة، والابتداع، وسفك الدماء بغير حق، والتعصب، والإسراف في المباحات، والمكر والخداع، والإعراض عن الهدى، والتقليد الأعمى، والتفريط في تحري الحق، والمجادلة بالباطل، والمفهوم الخاطئ للاستقامة، والافتتان بعلوم الفلسفة، وتفرق السبل، واتباع الظن المنهي عنه، والرضا عن النفس، والغفلة، واتباع الهوى، والربا[1]، وبسبب آفات النفس، وآفات اللسان، والسقوط في الفتن، وما يكون سببًا في التفرق والاختلاف، وإثارة النعرات..إلى غير ذلك من كل ما يصد عن الحق والهداية[2] فإنه قد يكون من مسببات الفساد والإفساد.

وجماع الصلاح للآدميين هو طاعة الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وهو فعل ما ينفعهم، وترك ما يضرهم، والفساد بالعكس. فصلاح الشيء هو حصول كماله الذي به تحصل سعادته. وفساده بالعكس، والخلق صلاحهم وسعادتهم في أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ هو معبودهم، الذي تنتهي إليه محبتهم وإرادتهم، ويكون ذلك غاية الغايات، ونهاية النهايات"[3].

ويتبين مما سبق أن الفساد زيغ عن الاستقامة، نشأ عن خلل في المنهج، وخروج عن الاعتدال، وانحراف عن الجادة إلى مزالق خطيرة تصيب الفرد، وتهدد أمن المجتمع؛ ولذلك جاء ذمُّه في القرآن الكريم في آياتٍ كثيرة، كما جاء ذكر نماذج من المفسدين وآثارهم وعاقبتهم؛ للاعتبار -كما سيأتي-.

=وصدود القلب عن ذكر الله عَزَّوَجَلَّ وعن الصلاة اللذين كل منهما إما واجب، وإما مستحب، من أعظم الفساد" مجموع الفتاوى (٣٢/٢٢٧).

(١) حرم الشارع الربا، وجعله من الكبائر، وتوعد آكله؛ لما فيه من أعظم الفساد والضرر.

(٢) انظر: المضلات عن الهداية وأسباب الوقاية منها في كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان.

(٣) درء تعارض العقل والنقل، لابن تيمية (٩/ ٣٧٢- ٣٧٣).

والحياة لا تخلو من الفساد والظلم، وهي في المقابل لا تخلو من المصلحين الذي يحذرون من الفساد والظلم، ويحرصون على ما فيه صلاح أنفسهم، ومجتمعهم، حيث يدعون إلى الإيمان، والرشد، والمحبة والتآلف، بحكمةٍ، واستيعابٍ لأحكام النوازل، وفقهٍ للمآلات، وتبصُّرٍ بكل خطر عاجلٍ أو آجل، وعلمٍ بآثار كل قول وفعل.

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ العبادَ بالإصلاح في الأرض فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٤٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١]. ونهى عن الفساد والإفساد في الأرض فقال تعالى: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ [الأعراف:٥٦].

وهي دعوة الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ إلى أقوامهم. فقد جاءت الرسل عَلَيْهِمُ السَّلَامُ آمرة بالإصلاح، وناهية عن الفساد والإفساد، والآيات في ذلك كثيرة، قال الله عَزَّوَجَلَّ على لسان نبيه صالح عَلَيْهِ السَّلَامُ مخاطبًا قومه: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤]، وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾﴾ [الشعراء:١٥٠-١٥٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ على لسان نبيه شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾ وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف:٨٥-٥٦]، وقال: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود:٨٥]، وقال: ﴿أَوْفُوا الْكَيْلَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُخْسِرِينَ ﴿١٨١﴾ وَزِنُوا بِالْقِسْطَاسِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١٨٢﴾ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿١٨٣﴾﴾

[الشعراء:١٨١-١٨٣]، وقال: ﴿يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَارْجُوا الْيَوْمَ الْآخِرَ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [العنكبوت:٣٦].

وقال الله جَلَّوَعَلَا على لسان موسى عَلَيْهِٱلسَّلَامُ وهو يخاطب هارون عَلَيْهِٱلسَّلَامُ: ﴿وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [الأعراف:١٤٢]. إلى غير ذلك من الآيات.

وأخبر الحق سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أنه لا يحب الفساد والمفسدين فقال: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾ [البقرة:٢٠٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤]، أي: يبغض الفساد، ولا يحب المفسدين. "بل كل ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به فهو صلاح. وقد أثنى الله عَزَّوَجَلَّ على الصلاح والمصلحين، والذين آمنوا وعملوا الصالحات، وذم المفسدين في غير موضع"(١).

وأوضح الحق سُبْحَانَهُۥوَتَعَالَىٰ أن المفسد ليس كالمصلح فقال: ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمُصْلِحِ﴾ [البقرة:٢٢٠]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ [ص:٢٧-٢٨].

وحذَّر الشارع من آثار الفساد والإفساد في الأرض، فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١]، فالفساد كثر في البر والبحر بسبب ذنوب الخلق، فعاد عليهم ذلك بفساد معايشهم ونقصها، وحلول الآفات بها، كما قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ [الشورى:٣٠].

---

(١) مجموع الفتاوى (١٢٦/٢٨)، الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابن تيمية (ص:١٠).

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إذا كثر الطَّاغُونَ أرسَلَ الله عَزَّوَجَلَّ الطَّاعُونَ ما استهانَ قوم بالدين إلا حاق بهم الهوان، ونفاهم الزمان، كما يُنفى الزِّوَان"(١).

وبين الله عَزَّوَجَلَّ أن الإفساد في الأرض من صفات المنافقين فقال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ۝٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ۝٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ۝٢٠٦﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦]. والسعي هاهنا هو: القصد. ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾، أي: لا يحب عمله، ولا يرضى به. يعني بذلك جل ثناؤه: وإذا قيل لهذا المنافق: اتق الله وخَفْهُ في إفسادك في أرض الله، وسعيكَ فيها بما حرَّم الله عليك من معاصيه، وإهلاكك حروث المسلمين ونسلهم استكبر ودخلته عِزة وحَميَّة بما حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ عليه، وتمادى في غيِّه وضلاله. قال الله جل ثناؤه: فكفاه عقوبة من غيه وضلاله، صِلِيُّ نارِ جهنم، ولبئس المهاد لِصَالِيهَا(٢).

والإفساد في الأرض بقطع الطريق، وسلب الأموال، وانتهاك الأعراض، وإتلاف النفوس محرَّم، وعقوبته منصوص عليها في القرآن الكريم، ومتوعد عليها بالعذاب في الآخرة كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ

---

(١) الكلم النوابغ (ص:٦٩)، والزاون: ويقال له: (الزؤان) وهو ينبت بين أعواد الحنطة، وغالبًا حبه كحبها إلا أنه أسود وأصفر، وهو يخالط البر فيكسبه رداءة؛ ولذلك فإنه يلقى ولا يؤكل. قال الجوهري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الزِّوَان: -بالكسر- حَبٌّ يُخالط البُرَّ. و(الزُوانُ) -بالضم- مثله، وقد يهمز". الصحاح، للجوهري، مادة: (زون) (٢١٣٢/٥). وقال الفيومي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: (زُوَانٌ): حب يخالط البر فيكسبه الرداءة. وفيه لغات: ضم الزاي مع الهمز وتركه فيكون وزان: غراب، وكسر الزاي مع الواو الواحدة: زُوَانَة، وأهل الشَّام يسمونه: الشَّيْلَم" المصباح المنير، مادة: (زون) (٢٦٠/١)، وانظر: العين (٣٨٦/٧).

(٢) انظر: تفسير الطبري (٢٤٤/٤).

فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [المائدة:٣٣- ٣٤].

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فمجرد إخافته السبيل هو مرتكبُ الكبيرة، فكيف إذا أخذ المال؟! وكيف إذا جرح أو قتل أو فعل عدة كبائر؟! مع ما غالبهم عليه من ترك الصلاة، وإنفاق ما يأخذونه في الخمر والزنا؟!"(١).

وقال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وهذا بيان من الله عز ذكره عن حكم (الفساد في الأرض)، الذي ذكره في قوله: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ﴾ [المائدة:٣٢]. أعلم عباده: ما الذي يستحق المفسدُ في الأرض من العقوبة والنكال، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: لا جزاء له في الدنيا إلا القتلُ، والصلب، وقطعُ اليد والرِّجل من خلافٍ، أو النفي من الأرضِ، خزيًا لهم. وأما في الآخرة إن لم يتبْ في الدنيا، فعذاب عظيم"(٢).

و(الحرابة): البروز لأخذ مال أو لقتل أو لإرعاب على سبيل المجاهرة(٣)، مكابرة اعتمادًا على الشوكة(٤)،....

---

(١) الكبائر، للذهبي (ص:٢٢٧)، بتحقيق: مشهور بن حسن.

(٢) تفسير الطبري (١٠/٢٤٣).

(٣) يسمى الأخذ على سبيل المجاهرة مغالبة أو نهبة، أو خلسة، أو غصبًا، أو انتهابًا واختلاسًا لا سرقة؛ لأن ركن السرقة الأخذ على سبيل الاستخفاء. انظر: بدائع الصنائع، للكاساني (٧/٦٥)، والإغارة في باب السرقة غير لائقة؛ لأن السرقة أخذ مال في خفاء وحيلة فلذلك سمى السارق به؛ لأنه يسارق عين المسروق منه، أو عين أعوانه على الحفظ، والإغارة أخذ في المجاهرة مكابرة ومغالبة. انظر: المبسوط (٩/١٣٣)، وانظر: البناية شرح الهداية (٧/٤٣)، العناية (٥/٣٨٧)، البحر الرائق شرح كنز الدقائق (٥/٥٤).

(٤) خرج بقيد: (اعتمادًا على الشوكة): ما لو كان الاعتماد على المغافلة والهرب، أو على ضعف المجني عليه، فلا يسمي ذلك في الاصطلاح الشرعي حرابة، وإنما هو من قبيل النهبة ونحوها، وله حكمه الخاص به.

...مع البعد عن الغوث[1]، من كل مكلف ملتزم للأحكام، ولو كان ذميًّا أو مرتدًا[2]. وتسمى: قطع الطريق، والسرقة الكبرى.

ويدخل في التعريف: العبد، والمرأة، والسكران المتعدي بسكره؛ لأنهم جميعًا مكلفون.

ويدخل في ذلك أيضًا: الواحد والجماعة، إذا تحققت بهم بقية الصفات. ويطلق على أرباب هذا الشأن: قطاع الطريق، وسموا بذلك؛ لأن الناس يمتنعون من سلوك الطريق التي يكون بها هؤلاء، فكأنهم قد قطعوها حقيقة[3].

ويفرق بينها وبين السرقة بأن الحرابة هي البروز لأخذ مال أو لقتل أو إرعاب مكابرة اعتمادًا على الشوكة مع البعد عن الغوث، أما السرقة فهي أخذ المال خفية. فالحرابة تكتمل بالخروج على سبيل المغالبة وإن لم يؤخذ مال، أما السرقة فلا بد فيها من أخذ المال على وجه الخفية[4].

والحرابة مأخوذة من حارب يحارب محاربة وحرابة.

---

(١) خرج بقيد: (البعد عن مسافة الغوث) وهي المسافة القريبة من المدينة أو القرية، بحيث لو استغاث الإنسان منها لبلغ صوته أهلها: ما لو كانت المسافة داخلة في حدود الغوث، فلا يسمي العدوان حينئذ حرابة.

(٢) خرج بقيد: (ملتزم للأحكام): الكافر الحربي، فهو وإن قتل وأخذ المال، لا يدخل في هذا الباب، وإنما هو كافر حربي مهدر الدم على كل حال، فإن دخل في الإسلام لم يؤاخذ بجناية جناها من قبل؛ لأن الإسلام يجب ما قبله.

(٣) انظر: الفقه المنهجي على مذهب الإمام الشافعي (٨/٨٢-٨٣).

(٤) انظر: أسنى المطالب في شرح روض الطالب (٤/١٥٤)، الغرر البهية (٥/١٠١)، فتح الوهاب بشرح منهج الطلاب (٢/١٩٩)، الإقناع في حل ألفاظ أبي شجاع (٢/٥٤١)، مغني المحتاج (٥/٤٩٨)، غاية البيان شرح زبد ابن رسلان (ص:٣٠٢)، نهاية المحتاج (٨/٣)، حاشيتا قليوبي وعميرة (٤/٢٠٠)، فتوحات الوهاب بتوضيح شرح منهج الطلاب (٥/١٥٢)، حاشية البجيرمي على الخطيب (٤/٢١١-٢١٢)، إعانة الطالبين (٤/١٨٦)، السراج الوهاج على متن المنهاج (ص: ٥٣١).

وعبر الحنفية والشافعية والحنابلة عن الحرابة: بقطع الطريق، وقالوا: إنه الخروج على المارة لأخذ المال على سبيل المغالبة، على وجه يمنع المارة من المرور، فينقطع الطريق، سواء أكان القطع من جماعة أم واحد، بعد أن يكون له قوة القطع، وسواء أكان القطع بسلاح أم بغيره من العصا والحجر ونحو ذلك. وتسمى الحرابة بالسرقة الكبرى.

أما كونها سرقة؛ فباعتبار أن قاطع الطريق يأخذ المال خفية عن عين الإمام الذي عليه حفظ الأمن. وأما كونها كبرى؛ فلأن ضرره يعم، حيث يقطع الطريق على الجماعة بزوال الأمن(١). فالسرقة التي عقوبتها الحد نوعان:

الأول: سرقة صغرى: وهي التي يجب فيها قطع اليد.

الثاني: سرقة كبرى: وهي أخذ المال على سبيل المغالبة. ويسمى: الحرابة. والفرق بين الحرابة والبغي هو أن البغي يستلزم وجود تأويل، أما الحرابة فالغرض منها: الإفساد في الأرض.

ثم قد احتج بعموم هذه الآية جمهور العلماء في ذهابهم إلى أن المحاربة في الأمصار وفي السبلان على السواء؛ لقوله: ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾. وهذا مذهب مالك، والأوزاعي، والليث بن سعد، والشافعي، أحمد بن حنبل رَحِمَهُمُ اللَّهُ، حتى قال مالك رَحِمَهُ اللَّهُ -في الذي يغتال الرجل فيخدعه حتى يدخله بيتا فيقتله، ويأخذ ما معه-: إن هذا محاربة، ودمه إلى السلطان، لا إلى ولي المقتول، ولا اعتبار بعفوه عنه في إنفاذ القتل.

وقال أبو حنيفة وأصحابه رَحِمَهُمُ اللَّهُ: لا تكون المحاربة إلا في الطرقات، فأما في الأمصار فلا؛ لأنه يلحقه الغوث إذا استغاث، بخلاف الطريق؛ لبعده ممن يغيثه ويعينه -والله أعلم-"(١).

---

(١) انظر: الموسوعة الفقهية الكويتية (١٣١/٨) بدائع الصنائع (٩٠/٧)، حاشية الشلبي على تبيين الحقائق (٢٣٥/٣)، البناية شرح الهداية (٨٠/٧). ومواهب الجليل (٩١٤/٦)، الشرح الصغير (٤٩١/٤).

قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قوله: ﴿ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا﴾، يعني: شرٌّ وعار وذلةٌ، ونكال وعقوبة في عاجل الدنيا قبل الآخرة. ﴿وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ﴾، أي: إذا لم يتوبوا من فعلهم ذلك حتى هلكوا في الآخرة، مع الخزي الذي جازيتهم به في الدنيا، والعقوبة التي عاقبتهم بها فيها. ﴿عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، يعني: عذاب جهنم(٢).

قال الواحدي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معنى يحاربون الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: يعصونهما ولا يطيعونهما. كل من عصاك فهو محارب لك. ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا﴾، أي: بالقتل والسرقة وأخذ الأموال، فكل من أخذ السلاح على المسلمين فهو محارب لله ورسوله، وإن كان في بلد كالمكابر في البلاد(٣)، وهذا قول مالك، والأوزاعي، ومذهب الشافعي رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ"(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير (٩٩/٣). قال شمس الأئمة السرخسي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "لو كابر إنسانًا ليلًا حتى سرق متاعه ليلًا فعليه القطع؛ لأن سرقته قد تمت حين كابره ليلًا؛ فإن الغوث بالليل قل ما يلحق صاحب البيت، وهو عاجز عن دفعه بنفسه، فيكون تمكنه من ذلك بالناس والسارق قد استخفى فعله من الناس بخلاف ما إذا كابره في المصر نهارًا حتى أخذ منه مالًا فإنه لا يلزمه القطع استحسانًا؛ لأن الغوث في المصر بالنهار يلحقه عادة، فالآخذ مجاهر بفعله غير مستخف له، وذلك يمكن نقصانًا في السرقة". المبسوط (١٥١/٩). فمن شروط الحرابة: المجاهرة بأن يأخذوا المال جهرًا، فإن أخذوه مختفين فهم سراق، وإن اختطفوه وهربوا، فهم منتهبون، لا قطع عليهم، وكذلك إن خرج الواحد والاثنان على آخر قافلة، فسلبوا منها شيئًا؛ لأنه لا يرجعون إلى منعة وقوة، وإن خرجوا على عدد يسير فقهروهم، فهم قطاع طريق. وهذا مذهب الحنفية والشافعية والحنابلة. وخالف في ذلك المالكية والظاهرية. قال ابن العربي المالكي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والذي نختاره أن الحرابة عامة في المصر والقفر، وإن كان بعضها أفحش من بعض، ولكن اسم الحرابة يتناولها، ومعنى الحرابة موجود فيها. انظر: المغني، لابن قدامة (١٤٥/٩)، تحفة المحتاج (٢٣٣/٩)، الشرح الكبير على متن المقنع (٣٠٤/١٠)، الإقناع في فقه الإمام أحمد بن حنبل (٢٨٧/٤)، كشاف القناع عن متن الإقناع (١٥٠/٦)، أحكام القرآن، للقاضي أبي بكر بن العربي (٩٥/٢)، فقه السنة (٤٦٨/٢- ٤٦٩).

(٢) تفسير الطبري (٢٧٦/١٠- ٢٧٧)، تفسير ابن كثير (١٠١/٣).

(٣) تأخذ المكابرة حكم الحرابة باعتبارها وصفًا من أوصاف الحرابة.

(٤) الوسيط في تفسير القرآن المجيد (١٨١/٢).

وقال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في الآية: من شهر السلاح في فئة الإسلام، وأخاف السبيل، ثم ظفر به وقدر عليه، فإمام المسلمين فيه بالخيار إن شاء قتله وإن شاء صلبه، وإن شاء قطع يده ورجله[1]، وكذا قال سعيد بن المسيب ومجاهد والضحاك رَحِمَهُمُ اللَّهُ، ومستند هذا القول أن ظاهر (أو) للتخيير كما في نظائر ذلك في القرآن، كقوله في كفارة الفدية: ﴿فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾ [البقرة:١٩٦]، وكقوله في كفارة اليمين: ﴿إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ﴾ [المائدة:٨٩]. وهذه كلها على التخيير، فكذلك فلتكن هذه الآية.

وقال الجمهور: هذه الآية منزلة على أحوال، كما قال الشافعي رَحِمَهُ اللَّهُ عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قطاع الطريق:

١ - إذا قتلوا وأخذوا المال قتلوا وصلبوا.

٢ - وإذا قتلوا ولم يأخذوا المال قتلوا ولم يصلبوا.

٣ - وإذا أخذوا المال ولم يقتلوا قطعت أيديهم وأرجلهم من خلاف.

٤ - وإذا أخافوا السبيل ولم يأخذوا المال نفوا من الأرض. وهكذا قال غير واحد من السلف والأئمة. واختلفوا، هل يصلب حيًّا ويترك حتى يموت بمنعه من الطعام والشراب، أو يقتله برمح أو نحوه، أو يقتل أوّلًا ثم يصلب، تنكيلًا وتشديدًا لغيره من المفسدين؟ في ذلك كله خلاف محرر في موضعه، وبالله عَزَّ وَجَلَّ الثقة، وعليه التكلان. وأما قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ﴾ فقد قال بعضهم: هو أن يطلب حتى يقدر عليه فيقام عليه الحد أو يهرب من دار الإسلام[2].

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٢٦٣/١٠)، تفسير ابن كثير (١٠٠/٣)، الناسخ والمنسوخ، لأبي جعفر النحاس (ص:٣٩٢). قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أخرجه: ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والنحاس في (ناسخه) عن ابن عباس" الدر المنثور (٦٨/٣).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/ ٢٦٨).

وقال آخرون: هو أن ينفى من بلده إلى بلد آخر، أو يخرجه السلطان أو نائبه من معاملته بالكلية.

وقال عطاء الخراساني رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ينفى من جند إلى جند سنين ولا يخرج من دار الإسلام، وكذا قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان: إنه ينفى ولا يخرج من أرض الإسلام. وقال آخرون: المراد بالنفي ههنا السجن، وهو قول أبي حنيفة وأصحابه رَحِمَهُمُ ٱللَّهُ، واختار ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أن المراد بالنفي ههنا: أن يخرج من بلده إلى بلد آخر فيسجن فيه[1]. وقد بسط الأحكام ذات الصلة الفقهاء في مصنفاتهم.

ويسقط حد الحرابة عن المحاربين بالتوبة قبل القدرة عليهم، وذلك في شأن ما وجب عليهم حقًّا لله عَزَّوَجَلَّ، وهو تحتم القتل، والصلب، والقطع من خلاف، والنفي، وهذا محل اتفاق بين أصحاب المذاهب الأربعة.

واستدلوا بقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾، فالله عَزَّوَجَلَّ قد أوجب عليهم الحد، ثم استثنى التائبين قبل القدرة عليهم.

أما حقوق الآدميين فلا تسقط بالتوبة. فيغرمون ما أخذوه من المال عند الجمهور. قالوا: فأما المسلم إذا حارب المسلمين أو المعاهدين، وأتى بعض ما يجب عليه العقوبة، فلن تضع توبته عنه عقوبة ذنبه، بل توبته فيما بينه وبين الله عَزَّوَجَلَّ، وعلى الإمام إقامة الحد الذي أوجبه الله عليه، وأخذه بحقوق الناس[2]. قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما القصاص وحقوق الآدميين فلا تسقط"[3].

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/١٠٠-١٠١).

(٢) انظر: تفسير الطبري (١٠/٢٧٧).

(٣) تفسير القرطبي (٦/ ١٥٨).

والفساد أنواع، وأعظمها خطرًا وأثرًا: الفساد العقدي المبني على جهل مركب. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الجهل المركب هو جهل أرباب الاعتقادات الباطلة. والجهل البسيط يطلب صاحبه العلم، أما صاحب الجهل المركب فلا يطلبه"(١). والجاهل جهلًا مركبًا يعتقد أنه مصلح وهو من أعظم الناس فسادًا وإفسادًا كما أخبر الحق سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ عن هؤلاء في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة:١١-١٢].

قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشرك به هو أعظم الفساد في الأرض، بل فساد الأرض في الحقيقة إنما هو الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، ومخالفة أمره. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم:٤١]، قال عطية(٢) في الآية: ولا تعصوا في الأرض فيمسك الله عَزَّوَجَلَّ المطر، ويهلك الحرث بمعاصيكم. وقال غير واحد من السَّلف: إذا قحط المطر فالدواب تلعن عصاة بني آدم فتقول: اللهم العنهم فبسببهم أجدبت الأرض، وقحط المطر. وبالجملة فالشرك والدعوة إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ وإقامة معبود غيره، أو مطاع متبع غير الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ هو أعظم الفساد في الأرض، ولا صلاح لها ولأهلها إلا أن يكون الله عَزَّوَجَلَّ وحده هو المعبود، والدعوة له لا لغيره، والطاعة والاتباع لرسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، وغيره إنما تجب طاعته إذا أمر بطاعة الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ، فإن أمر بمعصيته فلا سمع ولا طاعة، فإن الله عَزَّوَجَلَّ أصلح الأرض برسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ ودينه، وبالأمر بالتوحيد، ونهى عن فسادها بالشرك به، ومخالفة رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ.

---

(١) انظر: بدائع الفوائد (٢٠٩/٤).

(٢) انظر: الكشف والبيان، للثعلبي (٢٤٠/٤)، الوسيط في تفسير القرآن المجيد، للواحدي (٣٧٧/٢)، تفسير البغوي (١٩٩/٢)، الخازن (٢١١/٢).

ومن تدبَّر أحوال العالم وجد كل صلاح في الأرض فسببه: توحيد الله عَزَّوَجَلَّ، وعبادته، وطاعة رسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. وكل شرٍّ في العالم وفتنة وبلاء وقَحْط وتسليط عدو وغير ذلك؛ فسببه: مخالفة الرسول صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والدعوة إلى غير الله عَزَّوَجَلَّ. ومن تدبر هذا حق التدبر وجد هذا الأمر كذلك في خاصة نفسه وفي غيره عمومًا وخصوصًا -ولا حول ولا قوة إلا بالله-"(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ‌ٱللَّهُ في موضع آخر: "والشرك أعظم الفساد كما أن التوحيد أعظم الصلاح؛ ولهذا قال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤]، إلى أن ختم السورة بقوله: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

وقال: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الْكِتَابِ لَتُفْسِدُنَّ فِي الْأَرْضِ مَرَّتَيْنِ وَلَتَعْلُنَّ عُلُوًّا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٤]، وقال: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، وقالت الملائكة: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ [البقرة:٣٠]. فأصل الصلاح: التوحيد والإيمان، وأصل الفساد: الشرك والكفر. كما قال عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ۝١١ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ۝١٢﴾ [البقرة:١١-١٢]. وذلك أن صلاح كل شيء أن يكون بحيث يحصل له وبه المقصود الذي يراد منه؛ ولهذا يقول الفقهاء: العقد الصحيح مما ترتب عليه أثره وحصل به مقصوده. والفاسد ما لم يترتب عليه أثره ولم يحصل به مقصود. والصحيح المقابل للفاسد في اصطلاحهم هو الصالح"(٢).

---

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٤- ٢٥)، وانظر: بدائع الفوائد، لابن القيم (٣/١٤).

(٢) مجموع الفتاوى (١٨/١٦٢- ١٦٤).

فإذا كثرت المظالم، وامتلأت بالقضايا المحاكم، وانتشرت الرشوة، وشاع شراء الذمم، وفسد القضاء، وأهدرت الحقوق، وبغى الناس بعضهم على بعض، فإن الأمة يصيبها البلاء والفقر والضعف والتخلف، وتصبح مطمعًا لأعدائها، وتغدو تابعة ضعيفة مُؤتَمِرةً خاضعةً ذليلة مُنْقَادة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس:٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح:١٠].

قال بعض السلف: ثلاث من كُنَّ فيه كُنَّ عليه: المكر والبغي والنكث. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس:٢٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح:١٠].

وقال مكحول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: أربع من كن فيه كن له، وثلاث من كن فيه كن عليه، فالأربع اللاتي له: فالشكر والإيمان والدعاء والاستغفار، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء:١٤٧]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال:٣٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ﴾ [الفرقان:٧٧].

وأما الثلاث اللاتي عليه: فالمكر والبغي والنكث، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ [الفتح:١٠]، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر:٤٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ﴾ [يونس:٢٣]"(١).

وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: كان يقال: إن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا يعذب العامَّة بذنب الخاصَّة. ولكن إذا عمل المنكر جهارًا استحقوا العقوبة كلهم(٢).

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/٤٢٦- ٤٢٧). حلية الأولياء (٥/١٨١)، تاريخ دمشق (٦٠/٢٢٥- ٢٢٦).

(٢) أخرجه مالك في (الموطأ) [٣٦٣٦]، وابن المبارك في (الزهد) [١٣٥١]، وأبو نعيم في (الحلية) (٥/٢٩٨)، والبيهقي في (شعب الإيمان) [٧١٩٧]، والحميدي [٢٧١].

وفي الحديث: ((**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه، أوشك أن يعمهم الله بعقاب**))(١).

وفي رواية: ((**إذا رأوا المنكر**))(٢). وفي رواية: ((**ما من قوم يعمل فيهم بالمعاصي، ثم يقدرون على أن يغيروا، ثم لا يغيروا، إلا يوشك أن يعمهم الله منه بعقاب**))(٣).

وعن حذيفة بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابًا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم**))(٤).

قال القاضي أبو بكر ابن العربي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وهذا الفقه عظيم، وهو أن الذنوب منها: ما يُعَجِّل الله عَزَّوَجَلَّ عقوبته، ومنها: ما يمهل بها إلى الآخرة، والسكوت عن المنكر تتعجل عقوبته في الدنيا بنقص الأموال والأنفس والثمرات، وركوب الذل من الظلمة للخلق..."(٥).

---

(١) أخرجه أحمد [٢٩]، وابن حميد [١]، وأبو داود [٤٣٣٨]، والترمذي [٢١٦٨]، والبزار [٦٥]، وابن حبان [٣٠٤]، والبيهقي [٢٠١٨٩]، والحميدي [٣]. قال الإمام النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: "إسناده صحيح". رياض الصالحين (ص:٩٧)، الأذكار (ص:٣٣١).

(٢) أخرجه أحمد [١، ١٦، ٥٣]، وابن ماجه [٤٠٠٥]، والنسائي في (الكبرى) [١١٠٩٢]، وأبو يعلى [١٢٨]، وابن حبان [٣٠٥]، والضياء [٥٨].

(٣) أخرجه أبو داود [٤٣٣٨]، والبيهقي [٢٠١٩١].

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة [٢١٦٩]، وأحمد [٢٩]، والترمذي [٢١٦٩]، وقال: " هذا حديث حسن".

(٥) عارضة الأحوذي (٩/١٥).

وقد جاء في الحديث: عن زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دخل عليها فزعًا يقول: ((**لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترب، فتح اليوم من ردْمِ يأجوج ومأجوج مِثْلُ هذه**))، وحلَّقَ بإصبعه الإبهام والتي تليها، قالت زينب بنت جحش رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: فقلت يا رسول الله: أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: ((**نعم إذا كثر الخَبَثُ**))(١).

وقد أخبر الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن هلاك بعض الأمم بسبب المعاصي وكفران النعم فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف:٩٦]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل:١١٢].

قال ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: "الحذر الحذر من المعاصي فكم سلبت من نعم؟! وكم جلبت من نقم؟! وكم خربت من ديار؟!"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: "المعاصي تُزِيلُ النِّعَم، ومن عقوباتها أنها تُزِيلُ النِّعَمَ الحاضرة، وتَقْطَعُ النِّعَمَ الواصِلَة، فتُزِيلُ الحاصل، وتَمْنَعُ الواصل فإنَّ نِعَمَ اللهِ ما حُفِظَ مَوْجُودُهَا بمثلِ طَاعَتِه، ولا اسْتُجْلِبَ مَفْقُودُهَا بمثلِ طَاعَتِه؛ فإن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وقد جعلَ الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى لكل شيء سببًا وآفة، سَبَبًا يَجْلِبُه، وآفَةً تُبْطِلُهُ، فجعل أسباب نعمه الجالبة لها طاعته، وآفاتها المانعة منها معصيته، فإذا أراد حفظ نعمته على عبده ألهمه رعايتها بطاعته فيها، وإذا أراد زوالها عنه خذله حتى عصاه بها"(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٣٣٤٦، ٣٥٩٨، ٧٠٥٩، ٧١٣٥]، مسلم [٢٨٨٠].

(٢) لطائف المعارف (ص:١٤٦- ١٤٧).

(٣) الجواب الكافي (ص:١٠٦).

والحاصل أن الفساد أنواع، منها: الفساد الأخلاقي، والفساد الاجتماعي، والفساد السياسي، والفساد الإداري، والفساد المؤسسي، والفساد الاقتصادي، والفساد البيئي..إلى غير ذلك مما سيأتي بيانه.

ويتفاوت الخطر والأثر بحسب ذلك الفساد ومدى انتشاره وتفشيه.

والإفساد في الأرض من كبائر الذُّنُوبِ المتوعد عليها بالعذاب في الآخرة، كما جاء في الحديث: عن خولة الأنصارية رَضِيَ اللَّهُ عَنهَا، قالت: سمعت النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إن رجالًا يَتَخَوَّضُونَ في مال الله بغير حَقٍّ، فلهم النَّارُ يوم القيامة**))[1].

ولا يخفى أن تفشي الفساد مما يهدد تقدم الأمم، ويهدم المبادئ والقيم، ويدمر الأخلاق، ويفسد الذِّمم، ويُذهب بركة الأرزاق، ويهدر الجهود، ويضعف البلاد، ويطمع الأعداء.

"وقد حثَّ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى على تحصيل مصالح الآخرة بمدحها، ومدح فاعليها، وبما رتب عليها من ثواب الدنيا والآخرة وكرامتهما، وزجر الله جَلَّ وَعَلَا عن ارتكاب المفاسد بذمها، وذم فاعليها، وبما رتبه عليها من عقاب الدنيا والآخرة وإهانتهما.

ويعبر عن المصالح والمفاسد: بالمحبوب والمكروه، والحسنات والسيئات، والعرف والنكر، والخير والشر، والنفع والضر، والحسن والقبح"[2].

وقد غلب في القرآن استعمال الحسنات في المصالح، والسيئات في المفاسد[3].

---

(١) صحيح البخاري [٣١١٨]. وسيأتي في (السرقة).

(٢) الفوائد في اختصار المقاصد، عز الدين بن عبد السلام (ص:٣٧- ٣٨).

(٣) انظر: قواعد الأحكام، عز الدين بن عبد السلام (٥/١).

و"إذا اجتمعت مصالح ومفاسد فإن أمكن تحصيل المصالح ودرء المفاسد فعلنا ذلك؛ امتثالًا لأمر الله عَزَّوَجَلَّ فيهما؛ لقوله جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦]. وإن تعذر الدرء والتحصيل فإن كانت المفسدة أعظم من المصلحة درأنا المفسدة، ولا نبالي بفوات المصلحة"(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها، فإذا تعارضت كان تحصيل أعظم المصلحتين بتفويت أدناهما، ودفع أعظم المفسدتين مع احتمال أدناها هو المشروع"(٢).

وفي (منهاج السنة): "فإن الشريعة مبناها على تحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد، وتقليلها بحسب الإمكان، ومعرفة خير الخيرين وشر الشرين، حتى يقدم عند التزاحم خير الخيرين، ويدفع شر الشرين"(٣).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وليعلم العاقل أن العقل والشرع يوجبان تحصيل المصالح وتكميلها، وإعدام المفاسد وتقليلها، فإذا عرض للعاقل أمر يرى فيه مصلحة ومفسدة، وجب عليه أمران: أمر علمي، وأمر عملي، فالعلمي: معرفة الراجح من طرفي المصلحة والمفسدة، فإذا تبين له الرجحان وجب عليه إيثار الأصلح له"(٤).

فحيث وجدت المصلحة فثمَّ شرع الله عَزَّوَجَلَّ، وحيثما كانت المفسدة فقد حاربتها الشريعة، وهذا من غايات بعثة الرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ. وقد شُرع لأجل ذلك -في كل شريعة- حدود وعقوبات رادعة زاجرة.

---

(١) قواعد الأحكام (١/٩٨).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٨٤).

(٣) منهاج السنة النبوية (٦/١١٨).

(٤) الجواب الكافي (ص:٢١٢).

٢ – نماذج من المفسدين في الأرض من خلال الآيات:

هذا وقد ذمَّ اللهُ عَزَّوَجَلَّ الفساد والإفساد، وذكر نماذج من المفسدين من الأمم التي خلت بأوصافهم، وعاب عليهم أعمالهم الشنيعة، من أمثال:

أ. فرعون وجنوده:

فقد جاء ذمُّ إفساد فرعون في آيات كثيرة، وذكر عاقبته في الدنيا والآخرة، فمن ذلك: قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:١٠٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ﴾ [يونس:٨٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤]، وقال سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عن آل فرعون: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ آيَاتُنَا مُبْصِرَةً قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿١٣﴾ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾﴾ [النمل:١٢-١٤].

وذكر الله عَزَّوَجَلَّ عاقبة آل فرعون في الدنيا والآخرة فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ﴾ [البقرة:٥٠]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ﴾ [الأنفال:٥٤]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا مُوسَى مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾ قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا ﴿١٠٢﴾ فَأَرَادَ أَنْ يَسْتَفِزَّهُمْ مِنَ الْأَرْضِ فَأَغْرَقْنَاهُ وَمَنْ مَعَهُ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الإسراء:١٠١-١٠٣]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ

لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ عَنْ آيَاتِنَا لَغَافِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس:٩٠-٩٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٩٦﴾ إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ﴿٩٧﴾ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ وَأُتْبِعُوا فِي هَذِهِ لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ بِئْسَ الرِّفْدُ الْمَرْفُودُ ﴿٩٩﴾﴾ [هود:٩٦-٩٩]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنْصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتْبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [القصص:٤٠-٤٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر:٤٥-٤٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ ﴿٥٤﴾ فَلَمَّا آسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥٥﴾ فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفًا وَمَثَلًا لِلْآخِرِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [الزخرف:٥٤-٥٦]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَفِي مُوسَى إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَى فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿٣٨﴾ فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [الذاريات:٣٨-٤٠]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾﴾ [القمر:٤١-٤٢]، وقال جَلَّ وَعَلَا عن فرعون: ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴿٢٤﴾ فَأَخَذَهُ اللَّهُ نَكَالَ الْآخِرَةِ وَالْأُولَى ﴿٢٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِمَنْ يَخْشَى ﴿٢٦﴾﴾ [النازعات:٢٤-٢٦].

ب. الذين عقروا الناقة:

جاء في القرآن الكريم ذكر الذين عقروا الناقة وقالوا حين عقروها: نبيِّت صالحًا وأهله فنقتلهم، ثم نقول لأولياء صالح: ما شهدنا من هذا شيئًا وما لنا به علم، فدمَّرهم الله عَزَّوَجَلَّ أجمعين، كما قال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا

يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل:٤٨-٥١].

ج. قوم لوط:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت:٢٩- ٣٠].

د. السحرة:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١].

والنماذجُ من ذمِّ المفسدين، وبيانِ سوء أفعالهم وعاقبتهم في القرآن الكريم كثيرةٌ.

ثانيًا: صور الإفساد ومسبباته:

لا يخفى أن للإفساد في الأرض صورًا كثيرة، وأن كل صورة منها من مسببات الفساد الإفساد، فمن هذه الصور:

١ – الكفرُ بالله عَزَّوَجَلَّ، والشرك به، والصدُّ عن سبيله:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾ [النحل:٨٨]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِهِ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٨٦]، وقد تقدَّم ذِكْرُ الشِّرك وبيانُ خطره. ولا يخفى أن فساد الاعتقاد هو أساس لكل فساد، وأن سعي الإنسان تبع لما يعتقد.

٢ – النفاق:

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن المنافقين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾﴾ [البقرة:١١-١٢].

وقد حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ ورسوله الكريم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ المؤمنينَ من المنافقين، وجاء في الكتاب والسنة بيان صفاتهم وأعمالهم، وما فيها من الإفساد في كثيرٍ من النصوص؛ ليكون كل مسلم على بينة وبصيرة.

فمن صور إفساد المنافقين: إهلاكهم للحرث والنسل، كما أخبر الله عَزَّوَجَلَّ عن سوء صنيعهم وإفسادهم في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهِدُ اللَّهَ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾﴾ [البقرة:٢٠٤-٢٠٦].

وإهلاك الحرث والنسل كناية عن اختلال ما به قوام أحوال الناس.

قيل: إهلاك الحرث والنسل هنا إشارة إلى ما صنع الأخنس بن شريق الثقفي(١)، إذ بيتهم وأحرق زروعهم وأهلك مواشيهم، أو كما يفعله ولاة السوء بالقتل والإتلاف، أو بالظلم حتى يمنع الله عَزَّوَجَلَّ بشؤمه القطر فيهلك الحرث والنسل.

وعن ابن عباس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: أنها نزلت في نفر من المنافقين تكلموا في خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم، فأنزل الله في ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ﴾ [البقرة:٢٠٧].

وقيل: بل ذلك عام في المنافقين كلهم، وفي المؤمنين كلهم.

﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفَسَادَ﴾: لا يرتضيه، فاحذروا غضبه عليه.

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ﴾ في الإفساد والإهلاك. ﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾: حملته الأنفة وحمية الجاهلية على الإثم الذي يؤمر باتقانه؛ لجاجًا، من قولك: أخذته بكذا إذا حملته عليه، وألزمته إياه.

﴿فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ﴾: كفته جزاء وعذابًا. وجَهَنَّمُ علم لدار العقاب، وهو في الأصل مرادف للنار. وقيل معرب(٢).

قال ابن جزي رَحِمَهُٱللَّهُ: قوله عَزَّوَجَلَّ: "﴿وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ﴾ على القول بأنها في الأخنس، فإهلاك الحرث: حرقه الزرع، وإهلاك النسل: قتله الدواب، وعلى القول بالعموم: فالمعنى مبالغته في الفساد، وعبَّر عن ذلك بإهلاك الحرث والنسل؛ لأنهما قوام معيشة ابن آدم؛ فإنَّ (الحرث) هو الزرع والفواكه وغير ذلك من النبات، و(النسل) هو الإبل والبقر والغنم وغير ذلك مما يتناسل.

---

(١) وكان رجلًا حلو المنطق، إذا لقى رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ألان له القول، وادعى أنه يحبه، وأنه مسلم، وقال: يعلم الله أني صادق.

(٢) انظر: الكشاف (١/٢٥٠)، تفسير البيضاوي (١/١٣٣)، النسفي (١/١٧٤)، تفسير ابن كثير (١/ ٥٦٢).

﴿أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ المعنى: أنه لا يطيع من أمره بالتقوى؛ تكبرًا. والباء يحتمل أن تكون سببية أو بمعنى: (مع). وقال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: هي كقولك: أخذ الأمير الناس بكذا، أي: ألزمهم إياه، فالمعنى: حملته العزة على الإثم"(١).

٣ – الجحود:

كما قال الله عَزَّوَجَلَّ عن آل فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [النمل:١٤].

٤ – الظلم وقتل النفس التي حرم الله عَزَّوَجَلَّ:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٤]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا﴾ [المائدة:٣٢]، ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿وَكَانَ فِي الْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا تَقَاسَمُوا بِاللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُ وَأَهْلَهُ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ [النمل:٤٨-٥١]. والتبييت كل عمل دُبِّر ليلًا، والمقصود به هاهنا: القتل. فالتبييت لا يكون إلا لقصد غدر. والمعنى: أنهم يغيرون على بيته ليلًا فيقتلونه وأهله غدرًا من حيث لا يعرف قاتله، ثم ينكرون أن يكونوا هم قتلوهم ولا شهدوا مقتلهم.

(١) تفسير ابن جزي (١/١١٦- ١١٧).

وعندما قال الله عَزَّوَجَلَّ للملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ كان جواب الملائكة: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٣٠].

إن حقَّ الإنسان في الحياة هو أغلى الحقوق وأقدسها على الإطلاق؛ لأن الحياة هي أثمن ما وهبه الله عَزَّوَجَلَّ للإنسان؛ ولهذا فقد اعتبر الإسلام أن الاعتداء على هذا الحقِّ بالقتل هو أفظع جريمة يرتكبها الإنسان في حقِّ أخيه الإنسان، وقد أغلظ الله عَزَّوَجَلَّ العقوبة عليها، وشدَّد في التحذير منها، فيتعيَّن معاقبة من ينشر الفساد، ويلجأ إلى القتل بدافع اللصوصية والاعتداء على الحرمات، فمثل هذا الإنسان يُعدُّ مصدر قلق وخطر يهدِّد حياة الآخرين، وفي قتله صيانة لحياتهم وأمنهم.

٥ - السحر:

يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا أَلْقَوْا قَالَ مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السِّحْرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾ [يونس:٨١]. فالسحرة مفسدون في الأرض، والساحر خبيث النفس، يسعى غالبًا إلى إلحاق الضرر بالمسحور، ولا يظهر السحر إلا على يد فاسق لا يتورع عن الاستعانة بالشياطين، وعن التلفظ بكلمات من الكفر والفحش المخالف للشرع.

والسحر من كبائر الذنوب المتوعد عليها بالعذاب، كما جاء في حديث: أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**اجتنبوا السبع الموبقات**))، قالوا: يا رسول الله وما هن؟ قال: ((**الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل**

الربا، وأكل مال اليتيم، والتولي يوم الزحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات))[1].

ويدلُّ على عِظم هذا الذنب: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد قرَنَه بالشرك، وعدَّه من السبع الموبقات، لما يترتَّب عليه من الأضرار الحسية والمعنوية، فهو من الذنوب العظيمة المهلكة، المورثة للآفات في الدنيا، والمتوعد عليها بالعذاب الشديد في الآخرة. والساحر من أعظم المفسدين في الأرض.

٦ – بخس الموازين والتطفيف بالكيل:

قال الله عَزَّ وَجَلَّ عن على لسان شعيب عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف:٨٥]، وقال: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [هود:٨٥].

٧ – نقض العهد، وقطع ما أمر الله عَزَّ وَجَلَّ به أن يُوصل:

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة:٢٧]، ويقول جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ [الرعد:٢٥].

يقول الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد:٢٢-٢٣].

---

(١) صحيح البخاري [٢٧٦٦، ٦٨٥٧]، مسلم [٨٩].

٨ – الإسراف وإغفال الحقوق:

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [البقرة:٦٠].

٩ – إيقاد نيران الفتن والحروب:

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن اليهود: ﴿كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [المائدة:٦٤].

١٠ – البغي والأشر والبَطَر:

قال الله عَزَّوَجَلَّ عن قارون: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [القصص:٧٦-٧٧].

١١ – الطغيان:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْتَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾﴾ [الفجر:١٠-١٢]، وقال الله عَزَّوَجَلَّ لموسى وهارون عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى﴾ [طه:٤٣]، وقال: ﴿فَأَمَّا مَنْ طَغَى ﴿٣٧﴾ وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى ﴿٣٩﴾﴾ [النازعات:٣٧-٣٩].

١٢ – ترك ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، وإتيان ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه:

إن من أعظم الفساد: ترك ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، وإتيان ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه. وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بالصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، وبما فيه مصلحة ونفع للمكلف في دنياه وآخرته، ونهاه عن عما يضر به في دنياه وآخرته. والتقوى إنما تكون بصيانة المرء نفسه عما يضره في آخرته، ولا يخفى أن ما يضره في آخرته يضره كذلك في دنياه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام:١٥١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَنْ تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف:٣٣].

وإتيان ما حرم الله عَزَّوَجَلَّ من الفواحش من أعظم الفساد: قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلُوطًا إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ إِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الْفَاحِشَةَ مَا سَبَقَكُمْ بِهَا مِنْ أَحَدٍ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ أَئِنَّكُمْ لَتَأْتُونَ الرِّجَالَ وَتَقْطَعُونَ السَّبِيلَ وَتَأْتُونَ فِي نَادِيكُمُ الْمُنْكَرَ فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتِنَا بِعَذَابِ اللَّهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قَالَ رَبِّ انْصُرْنِي عَلَى الْقَوْمِ الْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [العنكبوت:٢٨-٣٠].

١٣ – السرقة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُمْ بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ السِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا الْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَارِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا وَأَقْبَلُوا عَلَيْهِمْ مَاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا نَفْقِدُ صُوَاعَ الْمَلِكِ وَلِمَنْ جَاءَ بِهِ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا بِهِ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ ﴿٧٣﴾﴾ [يوسف:٧٠-٧٣].

١٤ – الابتداع في دين الله عَزَّوَجَلَّ:

إن من أهم أسباب الفساد، وصوره المنكرة: الابتداع في دين الله عَزَّوَجَلَّ؛ فإن الابتداع في دين الله عَزَّوَجَلَّ يُضِلُّ النَّاس عن الحقِّ، ويُفرِّقُ كلمتهم، فهو من أهم من أسباب الاختلاف والتخاصم، والتعصب للأهواء المتباينة.

وقد عدَّ ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ (الابتداع) العقبة الثانية في طريق الهداية بعد الكفر بالله عَزَّوَجَلَّ؛ لعظم خطره. قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "العقبة الثانية: وهي عقبة البدعة، إما باعتقاد خلاف الحق الذي أرسل الله عَزَّوَجَلَّ به رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنزل به كتابه، وإما بالتعبد بما لم يأذن به الله عَزَّوَجَلَّ من الأوضاع والرسوم المحدثة في الدين، التي لا يقبل الله عَزَّوَجَلَّ منها شيئًا، والبدعتان في الغالب متلازمتان، قل أن تنفك إحداهما عن الأخرى، كما قال بعضهم: تَزَوَّجَتْ بِدَعَةُ الأقوال ببدعة الأعمال، فاشتغل الزوجان بالعرس، فلم يَفْجَأْهُمْ إلا وأولاد الزنا يعيثون في بلاد الإسلام، تَضِجُّ منهم العباد والبلاد إلى الله جَلَّ وَعَلَا. وقال شيخنا: تَزَوَّجَتْ الحقيقة الكافرة، بالبدعة الفاجرة، فتولد بينهما خسران الدنيا والآخرة.

فإن قطع هذه العقبة، وخلص منها بنور السُّنَّة، واعتصم منها بحقيقة المتابعة، وما مضى عليه السلف الأخيار، من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وهيهات أن تسمح الأعصار المتأخرة بواحد من هذا الضرب! فإن سمحت به نصب له أهلُ البدع الحَبَائِل، وبغوه الغَوَائِل[١]، وقالوا: مبتدع محدث"[٢].

(١) "(الغوائل): جمع غائلة، وهي الخصلة التي تغول، أي: تهلك في خفية". التوقيف على مهمات التعاريف (ص:٢٥٤). و(الغوائل) الدواهي. و(بغى يبغي بغيًا): إذا تعدى وظلم.

(٢) مدارج السالكين (١/ ٢٣٧- ٢٣٨).

قال الإمام الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فقد -والله- عم الفساد، وظهرت البدع، وخفيت السنن، وقلَّ القوَّال بالحقِّ، بل لو نطق العالم بصدق وإخلاص لعارضه عدة من علماء الوقت، ولمقتوه وجهلوه -فلا حول ولا قوة إلا بالله-"(١).

وقد جاء في باب (التحريض على لزوم السنة، والترغيب في ذلك، والتحذير من البدعة، وبيان كونها من المضلات): عن العرباض بن سارية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنه قال: وعظنا رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال قائل: يا رسول الله، كأن هذه موعظة مودع؟ فماذا تعهد إلينا؟ فقال: ((**أوصيكم بالسمع والطاعة؛ فإنه من يعش منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها، وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**))(٢).

وعن جابر بن عبد الله رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا أنَّ رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كان يقول في خطبته: ((**أما بعد، فإن خير الحديث كتاب الله، وخير الهدى هدى محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**))(٣).

ومن الأدلة كذلك على ذم البدع، وبيان أنها تُضِلُّ عن الحقِّ قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [الأنعام:١٥٣].

---

(١) سير أعلام النبلاء (١١/١٠٢).

(٢) أخرجه أحمد [١٧١٤٥]، والدارمي [٩٦]، وابن ماجه [٤٣]، وأبو داود [٤٦٠٧]، والترمذي [٢٦٧٦] وقال: "حسن صحيح"، كما أخرجه البزار [٤٢٠١]، وابن حبان [٥]، والطبراني في (الكبير) [٦١٨]، والحاكم [٣٢٩]، وقال: "صحيح ليس له علة"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٢٠٣٣٨].

(٣) صحيح مسلم [٨٦٧].

قال بعض السلف في قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، قال: السبل: البدع والشبهات، ذكره مجاهد رَحِمَهُ اللَّهُ وغيره[1].

وفي الحديث: "خط رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خطًّا، وخطَّ عن يمين ذلك الخط وعن شماله خطًّا، ثم قال: ((**هذا صراط ربك مستقيمًا، وهذه السبل على كل سبيل منها شيطان يدعو إليه**))، ثم قرأ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾"[2].

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥]. روي عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن معنى قوله جَلَّوَعَلَا: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ قال: هو الأهواء المختلفة[3]. وعلى هذا يكون معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، أي:

---

(١) انظر: تفسير مجاهد (ص:٣٣١)، تفسير الطبري (٢٢٩/١٢)، تفسير ابن أبي حاتم (١٤٢٢/٥)، زاد المسير (٩٣/٢)، تفسير القرطبي (١٣٨/٧)، ذم الكلام وأهله (٣١٨/٤)، الباعث على إنكار البدع والحوادث، لأبي شامة (ص:١١)، الاعتصام (ص:٧٧).

(٢) أخرجه الطيالسي [٢٤١]، وأحمد [٤١٤٢]، وعبد بن حميد [١١٤١]، والدارمي [٢٠٨]، وابن ماجه [١١]، والبزار [١٦٧٧]، والنسائي في (الكبرى) [١١١٠٩]، وابن حبان [٦]، والحاكم [٢٩٣٨]، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

(٣) قال السيوطي رَحِمَهُ اللَّهُ: "أخرج ابن جرير [١٣٣٥٦]، وابن المنذر، وابن أبي حاتم [٧٤١٢] عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال: يعني: من أمرائكم، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: سفلتكم، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يعني: بالشيع الأهواء المختلفة..". الدر المنثور (٢٨٣/٣). وقال الواحدي رَحِمَهُ اللَّهُ في (الوسيط) (٢٨٤/٢): "قال ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل، والسدي: يبث فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقا يقاتل بعضكم بعضًا، ويخالف بعضكم بعضًا، وهو معنى قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، أي: بالخلاف والقتال".

تكفير البعض للبعض حتى يتقاتلوا. وقيل: معنى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام:٦٥]: ما فيه إلباس من الاختلاف(١).

قال القاضي رَحِمَهُ ٱللَّهُ(٢): "ظاهر القرآن يدل على أن كل من ابتدع في الدين بدعة من الخوارج وغيرهم فهو داخل في هذه الآية؛ لأنهم إذا ابتدعوا تجادلوا وتخاصموا وتفرقوا وكانوا شيعًا"(٣).

وأخرج ابن أبي حاتم: عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أنه قال في تفسير قوله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿١٠٦﴾﴾ [آل عمران:١٠٥- ١٠٦]: "تبيض وجوه أهل السنة، وتسود وجوه أهل البدعة"(٤).

فتبين أن من أهم أسباب التفرق والاختلاف والضلال والإفساد: الابتداع في الدين، والتعصب للأهواء المتباينة، وقد قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾ [الأنعام:٦٥]. روي عن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا أن معنى قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾

---

(١) انظر: الاعتصام (ص:٨١-٨٢).

(٢) هو القاضي إسماعيل بن إسحاق بن إسماعيل بن حماد بن زيد الجهضمي الأزدي، المتوفى سنة [٢٨٢هـ]. انظر: الأعلام (٣١٠/١). ومن كتبه: (أحكام القرآن)، وهو مطبوع في (دار ابن حزم).

(٣) الاعتصام (ص:٨١).

(٤) انظر: تفسير القرآن العظيم، لابن أبي حاتم (٧٢٩/٣). قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أخرجه ابن أبي حاتم وأبو نصر في (الإبانة) والخطيب في (تاريخه)، واللالكائي في (السنة)". الدر المنثور (٢٩١/٢)، وانظر: تفسير ابن كثير (٧٩/٢)، الكشف والبيان (١٢٤/٣)، تفسير البغوي (٤٨٩/١)، الخازن (٢٨٢/١)، زاد المسير (٣١٣/١).

قال: هو الأهواء المختلفة(١). وعلى هذا يكون معنى قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، أي: تكفير البعض للبعض حتى يتقاتلوا. وقيل: معنى: ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ [الأنعام:٦٥]: ما فيه إلباس من الاختلاف(٢).

١٥ - اتباع الهوى:

إن اتباع الهوى يؤدي إلى فسادٍ عظيم، وبلاءٍ عام، كما قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾ [المؤمنون:٧١].

"قال مجاهد، وأبو صالح والسدي: الحق هو الله عَزَّوَجَلَّ، والمراد: لو أجابهم الله عَزَّوَجَلَّ إلى ما في أنفسهم من الهوى، وشرع الأمور على وفق ذلك، ﴿لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾، أي: لفساد أهوائهم واختلافها، كما أخبر عنهم في قولهم: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾، ثم قال: ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ [الزخرف:٣١- ٣٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ وَكَانَ الْإِنْسَانُ قَتُورًا﴾ [الإسراء:١٠٠]، وقال: ﴿أَمْ لَهُمْ نَصِيبٌ مِنَ الْمُلْكِ فَإِذًا لَا يُؤْتُونَ النَّاسَ نَقِيرًا﴾ [النساء:٥٣]. ففي هذا كله تبيين عجز العباد واختلاف آرائهم وأهوائهم، وأنه تعالى هو الكامل في جميع صفاته وأقواله وأفعاله، وشرعه وقدره، وتدبيره

---

(١) قال السيوطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أخرج ابن جرير [١٣٣٥٦]، وابن المنذر، وابن أبي حاتم [٧٤١٢] عن ابن عباس في قوله: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ﴾، قال: يعني: من أمرائكم، ﴿أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ يعني: سفلتكم، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ يعني: بالشيع الأهواء المختلفة..". الدر المنثور (٣/٢٨٣). وقال الواحدي في (الوسيط) (٢/٢٨٤): "قال ابن عباس، ومجاهد، ومقاتل، والسدي: يبث فيكم الأهواء المختلفة فتصيرون فرقا يقاتل بعضكم بعضًا، ويخالف بعضكم بعضًا، وهو معنى قوله: ﴿وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ﴾، أي: بالخلاف والقتال".

(٢) انظر: الاعتصام (ص:٨١-٨٢).

لخلقه، تعالى وتقدس، فلا إله غيره، ولا رب سواه"[1]. فالحقُّ واحدٌ ثابت، والأهواء كثيرة متقلبة. وبالحقِّ الواحد يدبِّر الكون كله، فلا ينحرف ناموسه؛ لهوى عارض، ولا تتخلف سنته؛ لرغبة طارئة. ولو خضع الكون للأهواء العارضة، والرغبات الطارئة لفسد كله، ولفسد الناس معه، ولفسدت القيم والأوضاع، واختلت الموازين والمقاييس وتأرجحت كلها بين الغضب والرضى، والكره والبغض، والرغبة والرهبة، والنشاط والخمول..وسائر ما يعرض من الأهواء والمواجد والانفعالات والتأثرات.. وبناء الكون المادي واتجاهه إلى غايته كلاهما في حاجة إلى الثبات والاستقرار والاطراد، على قاعدة ثابتة، ونهج مرسوم، لا يتخلف ولا يتأرجح ولا يحيد. ومن هذه القاعدة الكبرى في بناء الكون وتدبيره، جعل الإسلام التشريع للحياة البشرية جزءًا من الناموس الكوني، تتولاه اليد التي تدبر الكون كله، وتنسق أجزاءه جميعًا. والبشر جزء من هذا الكون خاضع لناموسه الكبير فأولى أن يشرع لهذا الجزء من يشرع للكون كله، ويدبره في تناسق عجيب. بذلك لا يخضع نظام البشر للأهواء فيفسد ويختل، إنما يخضع للحق الكلي، ولتدبير صاحب التدبير.

١٦ – الغلول والاختلاس:

للغلول صور عديدة منها:

أ. الغلول في الفيء أو الغنائم، وهذا هو المشهور.

ب. الغلول في الزكاة.

ج. هدايا العمَّال.

د. الاختلاس من الأموال العامَّة.

هـ. اغتصاب الأرض أو العقار وما أشبه ذلك.

---

(١) تفسير ابن كثير (٥/٤٨٤- ٤٨٥).

وقد جاء التحذير من الغلول في الكتاب والسنة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَغُلَّ وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٦١]. قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: (أن يغل) -بفتح الياء وضم الغين-. وقرأها آخرون: (أن يغل) -بضم الياء وفتح الغين-، والمعنى على القراءة الأولى: يخون، وعلى الثانية يحتمل أمرين، الأول: يخان، يعني: أن يؤخذ من غنيمته، والثّاني: يُخَوَّن، أي: ينسب إلى الغلول(١).

وقد عظَّم النبيُّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمر الغلول وجعله من الكبائر(٢).

وقد جاء في الحديث: عن ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((**من فارق الروح جسده وهو بريء من ثلاث دخل الجنة: الكبر، والدين، والغلول**))(٣).

وعن ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**لا يَغُلُّ مؤمن**))(٤)، "أي: كامل الإيمان، فالغلول دلالة على نقص الإيمان؛ ولذلك عدَّه الذهبي وغيره من الكبائر"(٥).

---

(١) انظر: بصائر ذوي التمييز (٤/١٤٤- ١٤٥)، تفسير القرطبي (٤/٢٥٥).

(٢) انظر: تفسير الرازي (٩/٤١٢).

(٣) أخرجه أحمد [٢٢٣٦٩]، والدارمي [٢٦٣٤]، وابن ماجه [٢٤١٢]، والترمذي [١٥٧٢]، والنسائي في (الكبرى) [٨٧١١]، والطبراني في (الأوسط) [٧٧٥١]، والحاكم [٢٢١٧] وقال: تابعه أبو عوانة عن قتادة في إقامة هذا الإسناد. قال الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "تابعه أبو عوانة على شرط البخاري ومسلم". وأخرجه أيضًا: والبيهقي [١٠٩٦٤].

(٤) أخرجه الطبراني في (الكبير) [١١٥٧٨]، و(الأوسط) [٢٧٥]. قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (٥/٣٣٩): "رواه الطبراني في (الكبير) و(الأوسط)، وفيه روح بن صلاح، وثقه ابن حبان والحاكم وضعفه ابن عدي، وبقية رجاله ثقات".

(٥) فيض القدير (٦/ ٤٥١).

وعن أبي حميد الساعدي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: استعمل النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رجلًا من الأَزْد، يقال له: ابن الأُتْبِيَّة[1] على الصدقة، فلما قدم قال: هذا لكم وهذا أهدي لي، قال: ((**فَهَلَّا جلس في بيت أبيه أو بيت أمه، فينظر يُهْدَى له أم لا؟ والذي نفسي بيده لا يأخذ أحد منه شيئًا إلا جاء به يوم القيامة يحمله على رقبته، إن كان بعيرًا له رُغَاءٌ، أو بقرة لها خُوَارٌ، أو شاة تَيْعَرُ**))، ثم رفع بيده حتى رأينا عُفْرَةَ إِبْطَيْه: ((**اللهم هل بلغت، اللهم هل بلغت**)) ثلاثًا[2].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قام فينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذات يوم، فذكر الغلول، فعظمه وعظم أمره، ثم قال: ((**لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته بعير له رغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته فرس له حمحمة، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته شاة لها ثغاء، يقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته نفس لها صياح، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته رقاع تخفق، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك، لا ألفين أحدكم يجيء يوم القيامة على رقبته صامت، فيقول: يا رسول الله، أغثني، فأقول: لا أملك لك شيئًا، قد أبلغتك**))[3].

---

(١) عند مسلم: ((رجلًا من الأسد، يقال له: ابن اللتبية)). و(الأسد) ويقال له: الأزدي من (أزد) شنوءة. ويقال لهم: الأسد والأزد. و(تيعر) معناه: تصيح، واليعار: صوت الشاة.

(٢) صحيح البخاري [٢٥٩٧، ٦٦٣٦، ٧١٧٤]، مسلم [١٨٣٢].

(٣) صحيح البخاري [٣٠٧٣]، مسلم واللفظ له [١٨٣١].

١٧ – الإفساد من خلال مناهج التربية والتعليم:

لا يخفى أن مناهج التربية والتعليم لها أثر عظيم في توجيه فكر الطالب؛ فإذا كانت المناهج نافعة وصالحة أورثت الاستقامة والفضائل، وإن كانت فاسدة أورثت الانحراف والضلال.

وقُلْ مِثْلَ ذلك في المعلِّم، فإن كان داعيةَ ضلالٍ أورثَ الضَّلال والجهل المركب، وإن كان مستقيم الفكر والسلوك أورث العلم النافع والاستقامة.

١٨ – سوء التبليغ:

إنَّ من شأن دعاة الباطل: التلبيس على الناس، وإظهار الباطل في صورة الحقِّ، ومَزْج الحقِّ بالباطل بالكتمان والتلبيس والتعمية، وتشويه الحقائق من خلال وسائل الإعلام ومنابر الدعوة.

وفي الحديث: ((**سيخرج قوم في آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية..**)) الحديث(١).

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "معناه: صغار الأسنان، ضعاف العقول. قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**يقولون من خير قول البرية**)) معناه: في ظاهر الأمر، كقولهم: لا حكم إلا لله، ونظائره من دعائهم إلى كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ–والله أعلم–"(٢).

---

(١) صحيح البخاري [٣٦١١، ٥٠٥٧، ٦٩٣٠]، مسلم [١٠٦٦].

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/١٦٩)، وانظر: حاشية السندي على سنن النسائي (٧/١١٩).

وعند مسلم: ((**يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تَرَاقِيَهُم، يَمْرُقُون من الإسلام كما يَمْرُقُ السهم من الرَّمِيَّة**))(١).

"فقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**يحسبون أنه لهم**)) واضح فيما قلنا، ثم إنهم يطلبون اتباعه بتلك الأعمال؛ ليكونوا من أهله، وليكون حجة لهم، فحين ابتغوا تأويله وخرجوا عن الجادة كان عليهم لا لهم"(٢)، "أي: أنهم يفهمونه على غير وجهه، فهم يظنون أنهم على شيء وهم بخلاف ما ظنوا؛ يظنون أنهم على حق وهم على باطل؛ للشبه التي عرضت لهم، وللباطل الذي أشربته قلوبهم"(٣).

وقد حذَّرنا الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من (سوء التبليغ) أيما تحذير، فحذَّر من الرؤوس الجهال، وأئمة الضلال. فمن تكلَّم في العلم بغير أمانة فقد مسَّ العلم بقرحة، ووضع في سبيل فلاح الأمة حجر عثرة.

ويعظم الفساد والخطر إذا تصدَّر المنافقون منابرَ الدَّعوة والإعلام، وتبوؤا المناصب العالية، فأشاعوا الباطل وروجوا له، وأخمدوا صوت الحق، فاغتر بهم خلق كثير، فضلوا وأضلوا، وقد حذَّرنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داعية يظهر خلاف ما يبطن، فقال عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي: كل منافق عليم اللسان**))(٤).

---

(١) صحيح مسلم [١٠٦٦].

(٢) الاعتصام، للشاطبي (ص:٧١٦).

(٣) من (شرح سنن أبي داود) من دروس الشيخ عبد المحسن العباد البدر.

(٤) أخرجه أحمد [١٤٣]، وابن حميد [١١]، والبزار [٣٠٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٤١]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٨٧/١): "رواه البزار وأحمد وأبو يعلى، ورجاله موثقون". وأخرجه البزار [٣٥١٤]، والطبراني في (الكبير) [٥٩٣]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٦٣٩] عن عبد الله بن بريدة، عن عمران بن حصين. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (١٨٧/١): "رواه الطبراني في (الكبير) والبزار، ورجاله رجال الصحيح".

١٩ – الركون إلى الظلمة:

إن من أعظم أسباب الفساد، وصوره المنكرة: ركون بعض من المنتسبين لطلب العلم إلى الظالمين ومداهنتهم، وثأثر العامَّة بهم؛ لما يترتب على ذلك من إخفاء الحق، ونصرة الباطل؛ فلذلك حذَّر الحقُّ جَلَّ وَعَلَا من ذلك فقال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ أَوْلِيَاءَ ثُمَّ لَا تُنْصَرُونَ﴾ [هود:١١٣].

وقد تقدم بيان ذلك مفصلًا.

وقد حذَّر النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ داعية يظهر الإذعان والصلاح، وينتحل صفة العلماء، فيتصدر للدعوة، وهو يبطن ما يبطن من مكرٍ وإعراض، ومن غايات يتوصل بها إلى مكاسب دنيوية، يتقلَّب لأجلها ويتلوَّن، فمثل هذا ضالٌّ مُضِلٌّ، وهو أكثرُ خطرًا وإفسادًا من معرضٍ ظاهر الإعراض؛ لكونه يتسبَّب في إضلال غيره؛ ولخُبْثِ غايته وقصده، فقد جاء في الحديث: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي: كل منافق عليم اللسان**))(١). وعند أبي يعلى: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: ((**كنا نتحدث أن ما يهلك هذه الأمة: كل منافق عليم اللسان**))(٢). قوله: ((**كل منافق عليم اللسان**)) "أي: كثير علم اللسان جاهل القلب والعمل، اتخذ العلم حرفة يتأكل بها، ذا هيبة وأبهة يتعزز ويتعاظم بها، يدعو النَّاس إلى الله ويفر هو منه، ويستقبح عيب غيره ويفعل ما هو أقبح منه، ويظهر للنَّاس التَّنسك والتَّعبد، ويسارر ربَّه بالعظائم إذا خلا به ذئب من الذئاب لكن عليه ثياب، فهذا هو الذي حذَّر منه الشَّارع هنا؛ حذرًا من أن يخطفك بحلاوة لسانه، ويحرقك بنار عصيانه، ويقتلك بنتن باطنه وجنانه.

---

(١) تقدم.

(٢) معجم أبي يعلى [٣٣٤].

قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: والمنافقون أخبثُ الكفرة وأبغضهم إلى الله تعالى وأمقتهم عنده؛ لأنهم خلطوا بالكفر تمويهًا وتدليسًا، وبالشُّكر استهزاء وخداعًا؛ ولذلك أنزل فيهم: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ﴾ [النساء:١٤٥] انتهى(١).

ويدخل في هذا الباب: فساد ذي الوجهين: وقد جاء في الحديث: التحذير منه؛ لعظيم خطره وضرره، كما رَوَى أبو هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ في (الصحيح): عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: ((**تجد من شر الناس يوم القيامة عند الله: ذا الوجهين، الذي يأتي هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه**))(٢).

قال القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "إنَّما كان ذو الوجهين شرَّ الناس؛ لأنَّ حالَه حالُ المنافقين؛ إذ هو مُتملِّق بالباطل والكذب، يُدْخِل الفسادَ بين الناس، والشُّرور، والتقاطع، والعداوة، والبغضاء"(٣).

وقال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: " قوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في ذي الوجهين: إنه من شرار الناس فسببه ظاهر؛ لأنه نفاق محض وكذب وخداع وتحيل على اطلاعه على أسرار الطائفتين، وهو الذي يأتي كل طائفة بما يرضيها، ويظهر لها أنه منها في خير أو شر، وهي مداهنة محرمة"(٤).

وَعَدَّ ابن حجر الهيتمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (الزواجر) ذا الوجهين صاحب كبيرة فقال: "الكبيرة الثالثة والخمسون بعد المائتين: كلامُ ذي اللِّسانين، وهو ذو الوجهين الذي لا

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (عقبات في طريق الهداية)، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٣٤٨).

(٢) صحيح البخاري [٣٤٩٤، ٦٠٥٨]، مسلم [٢٥٢٦].

(٣) المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم (٦/٤٧٨).

(٤) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦/٨٠).

يكون عند الله وجيهًا"[١]. وقال الخادمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: ذو اللسانين: الذي يتكلم بين الْمُتَعَادِيَيْنِ المتخاصمين؛ إيقادًا لنيران الخصومة، وإيقاظًا للهب الفتنة[٢].

ويدخل في هذا الباب: التحريش بين الناس بقصد الإفساد، فهو حرام؛ لأنه وسيلة لإفساد ذات البين، والله عَزَّوَجَلَّ لا يحب الفساد.

ومن صور التحريش: النميمة. جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة**))، قالوا: بلى، قال: ((**صلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة**))[٣]. وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بإصلاح ذات البين فقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١].

٢٠ – التصدر قبل التمكن والرسوخ والتأهل:

ومن سوء التبليغ: (التصدر قبل التمكن والرسوخ والتأهل)؛ لأنَّه يورث آفاتٍ لدى المتلقي، وقد يكون سببًا للانحراف والشذوذ، وله كذلك أثر لا يخفى على صاحبه، فهو مما يورث الكِبر والعجب والغرور والزيغ. و"التصدر قبل التأهل هو آفة في العلم والعمل. وقد قيل: من تصدر قبل أوانه، فقد تصدى لهوانه"[٤].

---

(١) الزواجر عن اقتراف الكبائر (٣٩/٢).

(٢) بريقة محمودية (٣/ ٢٣٩).

(٣) أخرجه أبو داود [٤٩١٩]، والترمذي [٢٥٠٩]، وقال: "حسن صحيح"، وأخرجه أيضًا: ابن حبان [٥٠٩٢].

(٤) حلية طالب العلم (ص:١٩٨)، وانظر: تاريخ الإسلام، للإمام الذهبي (١٠٢/٢٨)، سير أعلام النبلاء (٢١/١٣)، طبقات الشافعية الكبرى، للسبكي (٣٩٨/٤)، طبقات الشافعية، لابن قاضي شهبة (١٨١/١)، شذرات الذهب (٢٧/٥).

وقد ذكر القاضي ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن من آداب العالِم في دَرْسِه: "أن لا ينتصب للتدريس إذا لم يكن أهلًا له، ولا يذكر الدرس مِنْ عِلْمٍ لا يعرفه، سواء أشرطه الواقف أو لم يشرطه؛ فإن ذلك لعب في الدين، وازدراء بين الناس. قال النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور**))(١).

وعن الشبلي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من تصدر قبل أوانه فقد تصدى لهوانه.

وعن أبي حنيفة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: من طلب الرياسة في غير حينه لم يزل في ذلٍّ ما بقي"(٢).

وذكر الإمام البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (صحيحه)، كتاب الإيمان، باب (الاغتباط في العلم والحكمة): وقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: ((**تَفَقَّهُوا قبل أن تُسَوَّدُوا**))، قال أبو عبد الله(٣): وبعد أن تُسَوَّدُوا وَقَدْ تَعَلَّمَ أصحاب النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ في كِبَرِ سِنِّهِمْ(٤).

قوله: (وقال عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: تَفَقَّهُوا قبل أن تُسَوَّدُوا) هو بضم المثناة وفتح المهملة وتشديد الواو، أي: تُجْعَلُوا سادةً(٥).(٦).

---

(١) صحيح البخاري [٥٢١٩]، مسلم [٢١٢٩، ٢١٣٠]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تفسير قوله جَلَّ وَعَلَا: ﴿لا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ﴾ الآية [آل عمران:١٨٨]، "يعني: بذلك المرائين المتكثرين بما لم يعطوا، كما جاء في (الصحيح) عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((من ادعى دعوى كاذبة؛ ليتكثر بها لم يزده الله إلا قلة)) صحيح مسلم [١١٠]، وفي (الصحيح): ((المتشبع بما لم يعط كلابس ثوبي زور))". تفسير ابن كثير (١٨١/٢). قال العلامة المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ينبغي للعالم أن لا ينتصب للتدريس والإفادة حتى يتمكن من الأهلية، ولا يذكر الدرس من علم لا يعرفه، سواء شرط الواقف أم لا؛ فإنه لعب في الدين، وإزراء به" فيض القدير (٢٦٠/٦).

(٢) تذكرة السامع والمتكلم في أدب العالم والمتعلم، للقاضي بدر الدين ابن جماعة (ص:٧٠-٧١).

(٣) أي: البخاري.

(٤) صحيح الإمام البخاري (٢٥/١).

(٥) فتح الباري، لابن حجر (١٦٦/١).

(٦) من كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٣٤٣-٣٤٥).

والشيطانُ يزيِّن للإنسان سوء عمله فيراه حسنًا، ويظنُّ أنه على حقٍّ، وهو على باطل، ويغترُّ الناس به، ويظنُّون أنه صاحب علم، وأن هذا الذي قاله إنما قاله عن علم ومعرفة، وإنما هو في الحقيقة ضلالٌ وانحرافٌ في العلم؛ لأنه تصور للفساد بصورة الصلاح أو عكسه، وقد قال الله جَلَّوَعَلَا منكرًا على هؤلاء وأمثالهم سوء صنيعهم: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [فاطر:٨]. وقد ذمَّ الله عَزَّوَجَلَّ أقوامًا رأوا الخير شرًا وعكسه ولم يعذرهم فقال: ﴿الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف:١٠٤].

قال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا: "إنَّ من أعظم البلوى: أن يُزَيَّن للإنسان الفساد حتى يَرى أنه مصلح؛ وليس كل من ادَّعى شيئًا يصدق في دعواه؛ لأنهم قالوا: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة:١١]، فقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة:١٢]، وليس كل ما زينته النفس يكون حسنًا، كما قال تعالى: ﴿أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾"(١).

وفي الحديث: ((**سيخرج قوم في آخر الزمان، أحداث الأسنان، سفهاء الأحلام، يقولون من خير قول البرية، لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يمرقون من الدين، كما يمرق السهم من الرمية..**)) الحديث(٢).

قال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: "معناه: صغار الأسنان، ضعاف العقول. قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**يقولون من خير قول البرية**)) معناه: في ظاهر الأمر، كقولهم: لا حكم إلا لله، ونظائره من دعائهم إلى كتاب الله عَزَّوَجَلَّ-والله أعلم-"(٣).

---

(١) تفسير الفاتحة والبقرة، محمد بن صالح العثيمين (٤٨/١)، بتصرف يسير.

(٢) صحيح البخاري [٣٦١١، ٥٠٥٧، ٦٩٣٠]، مسلم [١٠٦٦].

(٣) شرح النووي على صحيح مسلم (١٦٩/٧)، وانظر: حاشية السندي على سنن النسائي (١١٩/٧).

وعند مسلم: ((**يخرج قوم من أمتي يقرءون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرءون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تَرَاقِيَهُم، يَمْرُقُون من الإسلام كما يَمْرُقُ السهم من الرَّمِيَّة**))(١).

"فقوله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: ((**يحسبون أنه لهم**)) واضح فيما قلنا، ثم إنهم يطلبون اتباعه بتلك الأعمال؛ ليكونوا من أهله، وليكون حجة لهم، فحين ابتغوا تأويله وخرجوا عن الجادة كان عليهم لا لهم"(٢)، أي: أنهم يفهمونه على غير وجهه، فهم يظنون أنهم على شيء وهم بخلاف ما ظنوا؛ يظنون أنهم على حق وهم على باطل؛ للشبه التي عرضت لهم، وللباطل الذي أشربته قلوبهم.

٢١ - القدوة السيئة:

إنَّ للقدوة أثرًا في تحديد وجهة الإنسان في فكره وسلوكه، ولا سيما في المراحل الأولى من نشأته؛ لأنَّ من طبيعة الإنسان التفاعل مع محيطه، والتشبه بمن يتخذهم أسوة له، ويُكِنُّ لهم احترامًا، ويحفظ لهم مكانة وقدرًا؛ ولذلك فإن القدوة الحسنة تهدي إلى الحقِّ، وإلى البرِّ والتقوى، والصَّلاح والإصلاح، كما أنَّ للقدوة السَّيئة من الأثرِ في الشَّرِّ والإفسادِ والضَّلال والإضلال ما لا يخفى على أولي البصائر مما سيأتي توضيحه.

ويوصف الإمام بأنه أُسوة وقدوة للمأمومين، فإذا كان إمامًا في الخير والصلاح أثَّر في أتباعه، فأثمر الاقتداء والتأسي: قيمًا وأخلاقًا واستقامة، وإذا كان إمامًا في الشَّر أثَّر فيهم، فأورث انحرافًا وضلالًا عن الحقِّ.

---

(١) صحيح مسلم [١٠٦٦].

(٢) الاعتصام، للشاطبي (ص:٧١٦).

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء:٧٣]، وقال سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة:٢٤]. وفي المقابل: قال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١]، ﴿أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ﴾ [البقرة:٢٢١].

والمعنى: يدعون إلى النَّار، ويقودون إليها الأتباع والأنصار. فالأئمة: جمع إمام، وهو من يُقتدى به في عمل من خيرٍ أو شرٍّ.

وقد قال الله عَزَّوَجَلَّ عن فرعون وملئه: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ﴾ [القصص:٤١]، فكان فرعون وملؤه أسوة في الشر والضلال والجبروت، يَقتدي بهم أهلُ العتو والكفر بالله عَزَّوَجَلَّ، فهم يحثون على فعل الشرور والمعاصي، وتدسية النفوس بالفسوق والآثام التي تلقي بفاعلها في النار.

وما كفاهم أن كانوا ضالين كافرين بالله عَزَّوَجَلَّ ورسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، بل دأبوا على إضلال سواهم، وتحسين العصيان لهم، وبذا قد ارتكبوا جريمتين، فباؤوا بجزاءين: جزاء الضلال، وجزاء الإضلال.

وكما كانوا في الدنيا أئمَّة في الشر والجبروت والضَّلال، فإنهم سيكونون كذلك في الآخرة أئمَّة وقادة، لكن إلى النَّار، ﴿وَيَوْمَ القيامة لاَ يُنصَرُونَ﴾ [القصص:٤١].

وقد جاء في الحديث الشريف: **((من سن في الإسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم شيء))**(١).

---

(١) صحيح مسلم [١٠١٧].

وجاء في كتاب النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى هرقل -عظيم الروم- يدعوه إلى الإسلام: ((**سلام على من اتبع الهدى، أما بعد، فإني أدعوك بدعاية الإسلام أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين..**)) الحديث(١).

ومن الأحاديث الواردة في ذمِّ (القدوة السيئة) قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أبغض الناس إلى الله ثلاثة: ملحد في الحرم، ومبتغ في الإسلام سُنَّةَ الجَاهليَّة، وَمُطَّلِبُ دم امرئ بغير حق؛ لِيُهَرِيقَ دَمَهُ**))(٢). فقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (ومبتغ في الإسلام سُنَّةَ الجاهليَّة)، أي: ما كان عليه أهلها من الاعتقادات والأعمال الباطلة.

ومن الأحاديث الواردة في ذمِّ (القدوة السيئة): ما جاء عن كعب بن عُجْرَة قال: قال لي رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**أُعِيذُكَ بالله يا كعب بن عُجْرَةَ من أمراء يكونون من بعدي، فمن غَشِيَ أبوابهم فَصَدَّقَهُمْ في كذبهم، وأعانهم على ظلمهم فليس مني ولست منه، ولا يرد علي الحوض، ومن غَشِيَ أبوابَهم أو لم يَغْشَ ولم يُصَدِّقْهُمْ في كذبهم، ولم يُعِنْهُمْ على ظلمهم، فهو مِنِّي وأنا منه، وسَيَرِدُ عَلَيَّ الحَوْضَ..**)) الحديث(٣).

ويقول الله عَزَّوَجَلَّ في أصحاب (القدوة السيئة): ﴿لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [النحل:٢٥]، ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٢﴾ وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالًا مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ ﴿١٣﴾﴾ [العنكبوت:١٢-١٣].

---

(١) صحيح البخاري [٧، ٢٩٤١، ٤٥٥٣]، مسلم [١٧٧٣].

(٢) صحيح البخاري [٦٨٨٢].

(٣) أخرجه الترمذي [٦١٤]، وقال: "حسن غريب"، وأخرجه أيضًا: الطبراني في (الكبير) [٢١٢] -وقد تقدم-.

والقرآن قد جاء يهدي جميع متبعي الملل والأديان السابقة إلى استعمال عقولهم مع ضمائرهم؛ للوصول إلى العلم والهدى في الدين، وألا يجمدوا على ما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم؛ فإن الحقَّ أحقُّ أن يُتَّبع. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف:٢٢-٢٥]. فدلت الآيات على أنهم آثروا القدوة السيئة على الحسنة فضلوا، فاستحقوا العذاب.

والأمة بأمسِّ الحاجة إلى القدوة الحسنة. وأعظم قدوة للناس رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثم وُرَّاثُ رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الصَّحابة والتَّابعين والسَّلف الصالح، ومن سار على هديهم، واقتفى أثرهم، ودعا إلى هذا الدين، وهو على بصيرة وبينة من العلماء الصالحين، والقادة المخلصين..فهم بناة الأجيال الحقيقيون، والهداة إلى سواء السبيل.

وهناك مقومات للقدوة الحسنة أهمها: التخلق بالأخلاق الفاضلة، والسَّير وفق شرع الله عَزَّوَجَلَّ، واتِّباع هدي النَّبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والتَّمسك بسُنَّته؛ فإنَّ العلم والعمل ركنا القدوة الحسنة، والبناء في التربية على أساسٍ راسخٍ منبثقٍ من العقيدة من غير زيغٍ أو ابتداع، وأن يكون صاحب همَّةٍ؛ فإنَّ رؤية المجدين تبعثُ في النَّفس الهمَّة؛ لتقليدهم والتَّشبه بهم.

ومن صفات الإمام القدوة: الاستقامة، والاعتدال، والحِلم، والحكمة، والتثبت، والرِّفق، واللين، والصَّبر، والإخلاص، والصِّدق، وأن يكون عالما بمقاصد التشريع، والأصول والاستنباط، وبصيرًا بمناهج الدعوة، ومطلعًا على اختلاف الفقهاء، آخذًا في الاعتبار مراعاة أحوال الناس، ومتدرجًا في دعوته بما يتلاءم مع طبيعة المخاطَبين، وأن يكون حريصًا على هداية قومه، ناصحًا، أمينًا، بعيدًا عن الجهل والحمق والصِّفات المذمومة.

وأن يرتكز في دعوته على كتابِ الله عَزَّوَجَلَّ، وسُنَّةِ رسوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأن ينهج نهج السَّلف والتَّابعين ومن تبعهم بإحسان من الأئمة والعلماء المخلصين العاملين.

وأن يكون تقيًا ورعًا يقدِّم رأي الشَّارع الحكيم على كل رأي، وأن يكون بعيدًا عن النفاق والمداهنة والغلو والتشدد والتكفير، وكل خلق ذميم.

ومن صفات الإمام القدوة: أن يفقه علوم الآلة التي يستند إليها في التفسير والاستنباط، وأن يكون قدوة في العمل؛ فإن لسان العمل أبلغ من لسان القول، ولا خير في قول لا يصدقه العمل[1].

٢٢ – الغزو الفكري، وهيمنة ثقافاته على المجتمع.

٢٣ – كثرة الغلاة والمتطرفين وتمكينهم:

ولا يخفى أن الغلاة والمتطرفين معول هدم للمجتمع وحضارته، وتمكينهم هو عمل من يكيد للأمة، ويطمع في مقدراتها، ويسعى إلى تهجير أهلها.

٢٤ – الفساد الاجتماعي والأخلاقي:

جاءت الشريعة الإسلامية بما فيه صلاح الناس، فأوجبت واجباتٍ، وفرضت حدودًا، وأحلَّت للناس الطَّيبات، وحرَّمت عليهم الخبائث والفواحش ما ظهر منها وما بطن.

ومن الفواحش المحرمة: جريمة الزنا، وهي من كبائر الذنوب، ومن أفحش الجرائم، فهي أصلٌ لكثيرٍ من المفاسد، وهي من أعظمِ الآفاتِ أثرًا وفتكًا في جسد الأمة.

---

(١) انظر ذلك مفصلًا في (عقبات في طريق الهداية) (ص:٣٥٧-٣٦٧).

وقد تقدم بيان ذلك مفصلًا.

ومن الفساد الأخلاقي: الإقرار بالمنكر، حيث يُنزِّلُ المقِرُّ بالفاحشة في أهله ومحارمه منزلة من يجترح المعاصي، ويجاهر بها، من حيث الإثم والعقاب في الآخرة، كما جاء في الحديث: عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة: العاق لوالديه، ومدمن الخمر، والمنان عطاءه. وثلاثة لا يدخلون الجنة: العاق لوالديه، والديوث، والرجلة**)). وفي رواية: ((**المرأة المترجلة تشبه بالرجال**))(1).

و(الديوث) هو الرجل الذي لا غيرة له على أهله. و(الدياثة) -بالكسر-: فعله(2). وفي اصطلاح الفقهاء عرفت الدياثة بألفاظ متقاربة يجمعها معنى واحد، لا يخرج عن المعنى اللغوي، وهو عدم الغيرة على الأهل والمحارم(3).

ومن هنا كانت غيرة الرجل على أهله ومحارمه محمودة ومطلوبة، وهي علامة على كمال الرجولة والشهامة والمروءة، وتركها دياثة مذمومة شرعًا وطبعًا.

٢٥ – سوء التربية:

إن التربية الأولى لها أثرٌ في صياغة شخصية الإنسان وأخلاقه في بيته ومجتمعه، وبسوء التربية تألفُ النَّفس المعاصي، وتنساق وراء العواطف والرغائب.

---

(١) أخرجه أحمد [٥٣٧٢]، والبزار [٦٠٥٠، ٦٠٥١]، قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٨/١٤٧- ١٤٨): "رواه البزار بإسنادين ورجالهما ثقات". وأخرجه أيضًا: النسائي [٢٥٦٢]، وأبو يعلى [٥٥٥٦]، والروياني [١٤٠٠]، والطبراني في (الكبير) [١٣١٨٠]، و(الأوسط) [٢٤٤٣]، والحاكم [٢٤٤] وقال: "صحيح الإسناد". ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي في (السنن) [٢١٠٢٥]، وفي (شعب الإيمان) [٧٤١٧].

(٢) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، مادة: (ديث) (١/٢٠٥).

(٣) الموسوعة الفقهية الكويتية (٢١/ ٩٦)، وانظر: الزواجر عن اقتراف الكبائر (٢/٨١- ٨٣).

فإما أن يغرس المربِّي أو المعلِّم الفضائلَ في نفوس أبناءه وطلابه، أو الرذائل.

والبيئة تؤثِّر في الفطرة، وفي التفكير، وينعكس أثرها على سلوك الابن أو الطالب، وعلى علاقاته الاجتماعية.

ولذلك كانت التربية من أعظم أنواع المسؤولية، فإذا كان الأب مسؤولًا عن تغذية طفله، فلا يهمله حتى يتعرض جسمه للهزال أو المرض أو الموت، فهو مسؤول عن تغذيته روحيًّا أيضًا، فلا يهمله حتى يتعرض لما هو أشد خطرًا من هزاله أو مرضه، وذلك حين يتعرض لموت القلب أو الروح.

وإذا أقصي الإيمان عن ميدان التربية، فإن السلوك يتفاوت تفاوتًا كبيرًا حسب المؤثرات التالية: أ. اختلاف معادن الناس. ب. الغنى المطغي. ج. الفقر المنسي. د. الامتياز العلمي الذي يؤدي إلى غرور العلم. هـ. الوضع السياسي. و. المدرسة. ز. الأصدقاء. ح. البيئة والحي. ط. المدرسين والمحيط العلمي. ي. الأسس التربوية والمنهج الدراسي.

يقول الشيخ الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ: "وفي الأعصار الأخيرة لما خفَّت قبضةُ الإيمان على زمام السلوك ومبادئ التربية شرع كل امرئ يتصرف في حياته الخاصة ومع غيره بدافع من طبيعته، ومن الظروف المحيطة به، ونشأ عن ذلك انحدار في المستوى الأخلاقي والسلوكي والإنساني.

وإنني لأنظر إلى الأحداث الجارية في المدن والقرى فأرى ما يضيق به الضمير الحي، وما يقشعر له البدن الرقيق. ولئن كان إفلاس المربين سبب خذلان كبير لأمتنا، فإن الهجوم الغربي على بلادنا زادها بلبلة وضيعة؛ لأنه هجوم يعمل في دأب وعناء على تشتيت قوى الإيمان كلَّما تجمَّعت، وعلى غمر الأرجاء بصنوف الفساد والإغراء، حتى تخرج أجيال تتقبل الإلحاد باسم الحرية العقلية.

وأغلب النفوس الحائرة، والجماعات الجائرة لها وجهة نظر تستسيغ بها أبشع الأفعال؛ فإن الهوى نسج على بصرها حجابًا، وأبعدها عن رؤية الواقع.

وحاضر العالم الإسلامي تسود تربيته من هذا القبيل ضلالات شتى، فكم من جهل يسمى علمًا؟ ومن بدعة سميت: سنة؟ ومن انحراف سمي: استقامة؟ وهكذا انتشرت بيننا عناوين مزيفة، ومفاهيم مشوهة، جعلت المنكر معروفًا، والمعروف منكرًا. وأمة تتخبط في حياتها على هذا النحو تحرم من التوفيق لا محالة.

وإلى جانب هذه المورثات تسربت مع حضارة الغرب ضلالات أخرى زادت الأمة العليلة مرضًا، فالفوضى تسمى: حرية، والعلاقات الجنسية تسمَّى: حبًّا أو صداقة.. وهكذا تضطرب موازين الأمور.

والتربية الناجحة تعتمد على حقائق مقررة، ومسلمات لا تقبل جدلًا، فإذا ساءت البيئة، وسادت أجواءها الشكوك فهيهات أن تنشأ أجيال يوثق بأدبها وعفافها وعدالتها.

والأرض الإسلامية في أمس الحاجة إلى قواعد من التربية تنهض على أصول دينية ثابتة تشد النفوس إلى عرى الإيمان الراسخ"(١).

٢٦ – المسكرات:

تقدم أن الخمر من الآفات العظيمة التي تفتكُ بجسدِ الأمة، وتهددُ حضارتها بالاضمحلال، وقيمها بالزوال، وثرواتها بالتلف؛ فهي تفتحُ أوسع أبواب الشَّر، وتقود إلى جرائمَ كبيرة، وآثامٍ خطيرة، فتهدم سياج الأخلاق، وتفسد الدين، وتهلك الأبدان، وتضيع الأموال، وتدمر العقول، وتؤذن بالهلاك، فما حلَّت في مجتمع إلا وانتشرت فيه الرذيلة، وانعدمت الفضيلة عند من يتعاطى هذه السموم، ومن يروج لها.

---

(١) انظر: كيف نفهم الإسلام، للشيخ محمد الغزالي (ص:١٣٦) فما بعد، بتصرف.

٢٧ – الفساد في المعاملات المالية:

وضع الإسلام ضوابط للمعاملات المالية، فأحل البيع، وحرم الربا، والرشوة، والغش، والخداع، والتزوير، والتغرير، والمكر، والمكس[١]، والحلف الكاذب، والتلبيس، والخيانة، والغلول والاختلاس، والتطفيف في الكيل، والبخس في الميزان[٢]، وأكل أموال الناس بالباطل، ونهى عن التبذير والإسراف[٣]، فهذه الأفعال والأوصاف القبيحة لا تكون خُلُقًا

---

(١) (المكس)، -بفتح الميم وسكون الكاف بعدها مهملة-، وهو من يتولى الضرائب التي تؤخذ من الناس بغير حق. وفي (شرح السنة): "صاحب المكس هو الذي يأخذ من التجار إذا مروا مكسًا باسم العشر، فأما الساعي الذي يأخذ الصدقة، ومن يأخذ من أهل الذمة العشر الذي صولحوا عليه فهو محتسب ما لم يتعد فيأثم بالتعدي والظلم". شرح السنة، البغوي (١٠/٦٠-٦١)، ونحوه في (معالم السنن) (٣/٥)، وانظر: مرقاة المفاتيح (٦/٢٤١٢). قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمكاس فيه شبه من قاطع الطريق، وهو شرٌّ من اللص؛ فإن من عسف الناس، وجدد عليهم ضرائب، فهو أظلم وأغشم ممن أنصف في مكسه، ورفق برعيته، وجابي المكس، وكاتبه، وآخذه من جندي وشيخ وصاحب زاويةٍ شركاء في الوزر، أكلون للسحت". الكبائر، للذهبي (ص:٢٧٥)، بتحقيق: مشهور بن حسن.

(٢) إن التطفيف من الصفات الذميمة، والخصال القبيحة، وهو من كبائر الذنوب المتوعد عليها بالعذاب في الكتاب والسنة، وهو أكل لأموال الناس بالباطل، وقد أرسل الله عَزَّوَجَلَّ رسولًا، وهو شعيب عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لأجل التحذير من هذه الخصلة التي تفشت في قومه، فدعاهم إلى الإيمان، وترك ما هم عليه من هذه الفعلة القبيحة، فلما أبوا أهلكهم بسوء فعلهم من بخس المكيال والميزان. ولأهمية هذا الموضوع فقد جاءت (سورة المطففين) مصدَّرةً بتحذيرٍ بالغٍ، وهو الموضوع الأبرزُ في السورة؛ فلذلك كانت التسمية للسورة بهذا الاسم. ومن الآيات التي تحذِّر من التطفيف، وتأمر بإيفاء المكيال والميزان، وتنهى عن التطفيف فيهما قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [الأنعام:١٥٢].

(٣) لا يخفى أن الإسراف في الإنفاق خُلُقٌ مذموم، وهو من الأمراض الاجتماعية والاقتصادية الخطيرة التي تهدد الأمم والشعوب؛ فإنَّ البذخ والترف هدرٌ للمال في غير فائدة، ويؤثر على طبقات المجتمع الأخرى من الفئة المتوسطة والفقيرة. فضلًا عن تسببه في معاصي ومخالفات، كقصد السمعة والرياء، والتقصير في طلب=

للمسلم بحالٍ؛ لأنَّ طهارة نفسِه مكتسبة من عقيدته وإيمانه بالله عَزَّوَجَلَّ، والإيمان يقتضي العمل الصالح، وحسن الخلق، ولا يتجانس مع تلك الأفعال والأخلاق الذَّميمة.

وقد جاءت التشريعات تحثُّ التجار على الصِّدق في المعاملة والبرِّ والتقوى، وتنهى عن الغش والخداع والتَّضليل، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قال: **((نهى رسول الله** صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ **عن بيع الحصاة، وعن بيع الْغَرَر))**[1].

قال الإمام النووي رَحِمَهُٱللَّهُ: "نهي النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عن (بيع الحصاة) و(بيع الغرر). أما (بيع الحصاة) ففيه ثلاث تأويلات:

أحدها: أن يقول: بعتك من هذه الأثواب ما وقعت عليه الحصاة التي أرميها، أو بعتك من هذه الأرض من هنا إلى ما انتهت إليه هذه الحصاة.

والثاني: أن يقول: بعتك على أنك بالخيار إلى أن أرمي بهذه الحصاة.

والثالث: أن يجعلا نفس الرمي بالحصاة بيعًا، فيقول: إذا رميت هذا الثوب بالحصاة فهو مبيع منك بكذا.

=الحق، والتكاسل عن أداء الطاعات، وقد يؤدي إلى تضييع كثير من الحقوق والواجبات، من حيث الانشغال بملذات الدنيا ونعيمها، والغفلة عن الآخرة. وقد سمى الله عَزَّوَجَلَّ المبذِّرين للمال: ﴿إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ﴾ [الإسراء:٢٧]؛ لأنهم يفسدون نظام المعيشة بإسرافهم، ويكفرون النعمة بعدم حفظها، وعدم وضعها في مواضعها بالاعتدال، ولذلك قال عقبه: ﴿وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا﴾، أي: "إنَّ الشيطان يعمل، وأعماله كلها في الضَّلال والإضلال، فقد ضيَّع أعماله في الباطل، وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير. وهو جاد في ذلك، ضارٍ عليه؛ لرسوخه في نفسه. والمبذِّر يضيِّع أمواله في الباطل، وقد كان يمكنه أن يجعلها في الخير. وقد أخذت عادة التبذير بخناقه واستولت عليه؛ فهو أخو الشيطان؛ لمشاركته له في وصفه، كمشاركة الأخ لأخيه. وهو أخوه بامتثاله لأمره، وصحبته له في الحال وفي المآل، وفي سوء العاقبة في العاجل والآجل. آثار ابن باديس (٢٤٣/١)، وانظر: تفسير المنار (٢٠٥/١١). وانظر ذلك مفصلًا في كتاب: (عقبات في طريق الهداية)، د. عبد القادر محمد المعتصم دهمان (ص:٨٥٥-٨٨٣).

(١) صحيح مسلم [١٥١٣].

وأما النهي عن بيع الغرر فهو أصل عظيم من أصول كتاب البيوع، ويدخل فيه مسائل كثيرة غير منحصرة، كبيع الآبق، والمعدوم، والمجهول، وما لا يقدر على تسليمه، وما لم يتم ملك البائع عليه، وبيع السمك في الماء الكثير، واللبن في الضرع، وبيع الحمل في البطن، وبيع بعض الصبرة مبهمًا، وبيع ثوب من أثواب، وشاة من شياه، ونظائر ذلك. وكل هذا بيعه باطل؛ لأنه غرر من غير حاجة"(١).

وعن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**نهى عن النَّجْش**))(٢). و((**النجش**)): هو أن يزيد الإنسان في ثمن السلعة أو يمدحها وليس له رغبة في شرائها، ولكن يريد خداع غيره.. إلى غير ذلك من البيوع المنهي عنها؛ لما فيها من الخداع والتضليل والكتمان والظلم.

والواجب على مَن باع سلعةً فيها عيبٌ أن يُبيِّن هذا العيب للمشتري ولا يكتمه، كما جاء في الحديث: عن عقبة بن عامر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**المسلم أخو المسلم، ولا يَحِلُّ لمسلم باع من أخيه بيعًا فيه عيبٌ إلا بَيَّنَهُ له**))(٣). فإذا بيَّن العيب برأ البائع في الدنيا والآخرة، وليس للمشتري الحقُّ في ردِّ السلعة إلا إذا رضي البائع، فأقالَه بيعته، أمَّا إذا لم يُبيِّن البائع عيبَ السلعة، فللمشتري الردُّ.

والحاصل أن النظام الاقتصادي الإسلامي نظام متكامل، يعمل على إعانة المحتاجين من غير استغلال لهم، كما أنه يقرر عقاب من يأكل أموال الناس بالباطل بما يكون زجرًا له، حتى لا يعود إلى فعله، وليكون عبرة لغيره، وردعًا لمن تسول له نفسه أكل أموال الناس

---

(١) شرح النووي على صحيح مسلم (١٠/١٥٦).

(٢) صحيح البخاري [٢١٤٢، ٦٩٦٣]، مسلم [١٥١٦].

(٣) أخرجه ابن ماجه [٢٢٤٦]، والروياني [١٨٣]، والطبراني [٨٧٧]، والحاكم [٢١٥٢]، وقال: "صحيح على شرط الشيخين"، ووافقه الذهبي. وأخرجه أيضًا: البيهقي [١٠٧٣٤].

بغير وجه حق. والقاعدة: أن الصدق أساس في التعامل، فلا ينبغي أن يتصف المؤمن بما يقابل الصدق من الكذب والغش والخداع -ولا سيما مع الحاجة إلى البيان-.

فقد جاء في الحديث: ((**البَيِّعَان بالخيار ما لم يَتَفَرَّقَا، -أو قال: حتى يَتَفَرَّقَا- فإن صدقا وَبَيَّنَا بورك لهما في بيعهما، وإن كتما وكذبا محقت بركة بيعهما**))(١).

والمعنى: إن كتما شيئًا مما يجب الإخبار به شرعًا كان ذلك من الغش والخداع، وإخفاء الحقيقة.

٢٨ - الفساد في الحكم والقضاء:

وقد تقدم بيانه في (الظلم).

٢٩ - الفساد البيئي:

لا يخفى أن الاهتمام بالبيئة مظهر حضاري، وخلق إنساني، ومطلب تحثُّ عليه الشَّريعة، وتُحَرِّم ما يقابله من إفساد البيئة؛ لعموم ضرره، وعظيم أثره.

إن إفساد البيئة يتنافى مع الدين والأخلاق، وهو من الإيذاء والإضرار الذي نهى الشارع عنه، فلا ضرر ولا ضرار.

ويتفاوت الإيذاء والإضرار من حيث الأثر، ولا شك أن إفساد البيئة من مظاهر الإفساد العام الذي يتعدى ضرره إلى كثير من الناس والبهائم والزروع، فلذلك فهو من أعظم أنواع الإفساد الذي يعظم فيه الإثم.

(١) صحيح البخاري [٢٠٧٩، ٢٠٨٢، ٢١١٠]، مسلم [١٥٣٢].

وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ الإنسان خليفة في الأرض، واستعمره فيها، وأعطاه من النِّعم ما يعينه على القيام بهذه المهمة، فهيأ له فيها كل المقومات اللازمة، فسخر له: الأرض والماء والهواء والفضاء والأنعام.

وحث على عمارة الأرض واستثمار ثرواتها، والاستفادة من خيراتها، وإصلاحها، وحمايتها من إفساد المفسدين؛ فإن الفساد يظهر في البر والبحر بفعل الإنسان، وتلويث البيئة يُعتبر من الفساد ويكون في البرِّ والبحر. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم:٤١].

ومن أهم مقاصد بعثة الرسل: الحث على عمارة الكون بالمحبة والرحمة والإصلاح والتعاون على البر والتقوى، والبعد عن العبث والإفساد.

ومن نعم الله عَزَّوَجَلَّ العظيمة أنه سخر للإنسان ما في الكون، وجعل ما فيه من المخلوقات مذللة له.

والمؤمن ينتفع مما سخر الله عَزَّوَجَلَّ له من غير اعتداء أو إفساد أو ظلم، وينفع الآخرين، ويتعاون معهم، ويشكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه الوافرة.

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [البقرة:٢٩]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ﴾ [إبراهيم:٣٢]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١٠﴾ يُنْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١١﴾﴾ [النحل:١٠-١١].

ومن شأن المؤمن أن يكون رحيمًا ومحسنًا، ولا يقف مفهوم الإحسان في الإسلام عند إحسان المرء لنفسه ولغيره من أبناء جنسه، ولكنه يشمل عموم المخلوقات بما في ذلك الحيوان والنبات.

والفساد البيئي له صور كثيرة لا تخفى على أولي البصائر:

فمن الفساد البيئي: رمي الأوساخ والقاذورات وبقايا الطعام وسائر المخلَّفات في الشوارع.

ومن ذلك: أن يتجه دخان المصانع والمعامل إلى بيوت الناس، وما يترتب على ذلك من انتشار الأمراض والأوبئة، ولا يقتصر الضَّرر على ما يصيب الناس، بل كذلك ما يصيب الزروع والبهائم. ومن ذلك: الإسراف في إحراق وقود السيارات ووسائل النقل دون النظر إلى مدى تأثير ذلك على البيئة، وإلى ما يمكن استبداله منها بمصادر طاقة نظيفة.

ومن ذلك: قطع الأشجار النافعة وحرقها، وتلويث مياه البحار والأنهار، وردم الآبار وتلويثها.

ومن ذلك: إهمال سقي الزرع، والإضرار بالتربة من خلال إفسادها بنحو المواد الكيميائية..إلى غير ذلك.

ومن أسباب الوقاية من آفات الفساد البيئي:

أ. العناية بنظافة البيت والشارع والحي والمدرسة:

وقد جاء في الحديث: أن من حقِّ الطَّريق عدم التسبب في إيذاء أحد من المارة، وكما جاء أن إماطة الأذى عنه من أعمال البر، فعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إياكم والجلوس على الطرقات**))، فقالوا: ما لنا بد، إنما هي مجالسنا نتحدث فيها، قال: ((**فإذا أبيتم إلا المجالس، فأعطوا الطريق حقها**))، قالوا: وما حق الطريق؟ قال: ((**غض البصر، وكف الأذى، ورد السلام، وأمر بالمعروف، ونهي عن المنكر**))(١).

(١) صحيح البخاري [٢٤٦٥، ٦٢٢٩]، مسلم [٢١٢١، ٢١٦١].

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**كل سُلاَمَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة**))(١).

وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**الإيمان بضع وسبعون –أو بضع وستون– شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**))(٢).

ب. الامتناع عن قطع الأشجار النافعة، وسن القوانين الرادعة:

وفي وصية الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: "أوصيكم بتقوى الله، لا تعصوا، ولا تغلوا، ولا تجبنوا، ولا تغرقوا نخلًا، ولا تحرقوا زرعًا، ولا تحبسوا بهيمة، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تقتلوا شيخًا كبيرًا، ولا صبيًّا صغيرًا، وستجدون أقوامًا حبسوا أنفسهم للذي حبسوها فذروهم وما حبسوا أنفسهم له.."(٣)..إلى غير ذلك.

---

(١) صحيح البخاري [٢٩٨٩]، مسلم [١٠٠٩].

(٢) صحيح مسلم [٣٥].

(٣) مسند أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، لأبي بكر أحمد بن علي المروزي، بتحقيق: شعيب الأرناؤوط (ص:٧١-٧٢)، و(ابن زنجويه) كما في (كنز العمال) [١٤١١]، وأخرجه ابن عساكر (٥٠/٢)، فوائد ابن أخي ميمي الدقاق [٥٤٩]، الكامل في التاريخ (١٩٦/٢).

ومن الأحاديث التي فيها: الحثُّ على عمارة الأرض وتنميتها -حتى ولو كانت في آخر أيامها- قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة**[1] **فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليغرسها**))[2].

وهو مبالغة في الحثِّ على غرس الأشجار، وحفر الأنهار؛ لتبقى هذه الدار عامرة إلى آخر أمدها المحدود المعدود المعلوم عند خالقها عَزَّ وَجَلَّ، فكما غرس لك غيرُك فانتفعت به، فاغرس لمن يجيء بعدَك؛ لينتفعَ -وإن لم يبق من الدنيا صُبَابَة-[3].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما من مسلم يغرس غرسًا، أو يزرع زرعًا، فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة، إلا كان له به صدقة**))[4].

وفي رواية: عن جابر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ما من مسلم يغرس غرسًا إلا كان ما أكل منه له صدقة، وما سرق منه له صدقة، وما أكل السَّبُعُ منه فهو له صدقة، وما أكلت الطير فهو له صدقة، ولا يَرْزَؤُهُ أحد إلا كان له**

(١) "الفَسِيلُ: صغار النخل، وهي: الوَدِيُّ، والجمع: فُسْلَان، مثل: رغيف ورغفان، الواحدة: فَسِيلَة، وهي التي تقطع من الأُمِّ، أو تقلع من الأرض فتغرس. و(رجل فَسْل): رديء. المصباح المنير، مادة: (فسل) (٤٧٣/٢)، وانظر: لسان العرب (٥١٩/١١).

(٢) أخرجه أحمد [١٢٩٨١]، وعبد بن حميد [١٢١٦]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٤٧٩]، والبزار [٧٤٠٨]. قال الهيثمي رَحِمَهُ اللَّهُ (٦٣/٤): "رواه البزار، ورجاله أثبات ثقات، لعله أراد بقيام الساعة: أمارتها ".وأخرجه أيضًا: ابن الأعرابي في (معجمه) [١٧٩]، والضياء [٢٧١٤]، وقال: "إسناده صحيح".

(٣) فيض القدير (٣٠/٣). و(الصَّبَابة) -بالفتح-: رقة الشوق وحرارته. و(الصُّبَابة) -بالضم-: بقية الماء واللبن وغيرهما تبقى في الإناء والسقاء. والمعنى: وإن لم يبق من الدنيا إلا الوقت اليسير.

(٤) صحيح البخاري [٢٣٢٠]، مسلم [١٥٥٣].

صدقة))[1]. ففيه: حثٌّ على عمارة الأرض، ولو كان المنتفع من الزرع البهائم لنال الزارع الأجر.

وقد جاء في الحديث: التحذير من قطع السِّدرَ الذي يُظِلُّ النَّاس:

والسدر هو الشجر الذي ينبت في الفلاة، ويستظل به الناس، فيتقون به حرَّ الشمس، ويقيلون تحته في أثناء الطريق، وقد كان الرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ وصحابته الكرام رضوان الله عليهم يستظلون بالشجر.

وقد حذَّرنا الشارع من قطع السدر أو إتلافه؛ لما في ذلك من الإضرار بالناس والبهائم، ولأنه من العبث والظلم، ولا يخفى ما للزرع والأشجار من فائدة تدوم ما بقيت حية، وقد تقدم بيانه مستقلًا.

ج. عدم تلويث المياه، وسن القوانين الرادعة:

وقد جاء في الحديث: النهي عن تلويث المياه، كما صحَّ: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن النبي صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه قال: ((**لا يَبُولَنَّ أَحَدُكُمْ في الماء الدَّائِم الذي لا يَجْرِي، ثم يَغْتَسِلُ فيه**))[2]. وعن جابرٍ رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ أنه ((**نهى أن يُبَالَ في الماءِ الرَّاكِدِ**))[3].

د. الامتناع عن الإسراف في كل شيء ولا سيما في استهلاك المياه.

هـ. العناية بطهارة الجسد والثياب.

و. الحد من انتشار الأمراض السارية واتخاذ أسباب الوقاية المناسبة.

---

(١) صحيح مسلم [١٥٥٢]. قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيۡهِوَسَلَّمَ: ((ولا يرزؤه)) أي: لا ينقصه ويأخذ منه.

(٢) صحيح البخاري [٢٣٩]، مسلم [٢٨٢].

(٣) صحيح مسلم [٢٨١].

٣٠ – الصَّدّ عن بيوت الله عَزَّوَجَلَّ، ومنع ذكر الله عَزَّوَجَلَّ، وإقامة الصلوات، ودروس العلم النافع فيها، والسعي في خرابها.

٣١ – كتمان الحق، وكتمان الشهادة عند طلبها والحاجة إليها، وقول الزور.

٣٢ – قتل الحيوان وتعذيبه:

إذا تقرر أن الإيذاء من الفساد، فإن الإيذاء لا يقف في التشريعات الإسلامية على إيذاء المرء لنفسه وإخوانه من بني جنسه، ولكنه يشمل المخلوقات الأخرى التي جعلها الله عَزَّوَجَلَّ مذللة منقادة للإنسان، ينتفع الإنسان من لحومها وأصوافها وأوبارها وأشعارها وركوبها..الخ، وهذه المخلوقات تحقق توازنًا في الطبيعة، وهي من نِعَم الله عَزَّوَجَلَّ على الإنسان، ومن الجحود والنكران: الإساءة إلى البهائم، وعدم الإحسان إليها؛ فإن مفهوم الإحسان في الإسلام لا يقف على إحسان المرء لنفسه وإخوانه من أبناء جنسه، ولكنه يشمل المخلوقات الأخرى. وقد تقدم بيانه مستقلًا.

الخلاصة:

ويتبين مما سبق: أن الفساد يتفاوت من حيث الخطر والأثر، وأن أعظم الفساد: الشرك بالله عَزَّوَجَلَّ، وافتراء الكذب عليه، والإعراض عن آياته، وأن من أعظم الفساد: البعد عن التمسك بالكتاب والسنة في سائر مناحي الحياة، والاحتكام إلى القوانين الوضعية، وأن الفساد يؤذن إذا كثرت مظاهره بتفكك المجتمع، وهدم قيمه وثوابته، كما يؤذن بسخط الله عَزَّوَجَلَّ وأليم عقابه.

وأن من أنواع ما توعد عليه بالعذاب في الآخرة: كالشرك، والنفاق، وقتل النفس التي حرَّم الله، والظلم، وأكل أموال الناس بالباطل، والغش، والرشوة، والربا، والسرقة، والحرابة وقطع الطريق، والتطفيف بالكيل، ونقض العهد، وقطع ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به أن يوصل، والربا، وترك ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به من العبادات كالصلاة والزكاة، وإتيان ما حرَّم الله عَزَّوَجَلَّ من الفواحش، والجور في الحكم، وفساد القضاء، ومؤاخذة غير الجاني، والاقتصاص من غير الباغي، وتعذيب الحيوان، وقطع السِّدرَ الذي يُظِلُّ النَّاس..إلى غير ذلك.

وقد أفردت موضوع (الإفساد في الأرض صوره وأسبابه، وسبل الوقاية منه في ضوء الكتاب والسنة)، وقد قسمته على النحو التالي:

المطلب الأول: الفساد في الاعتقاد:	**المطلب الثاني:** الفساد في الأخلاق والسلوك:	**المطلب الثالث:** الفساد في المنهج:	**المطلب الرابع:** الفساد في المعاملات:
أولًا: الكفرُ بالله عَزَّوَجَلَّ، والشرك به، والصَّدُّ عن سبيله.	**أولًا**: ترك ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، وإتيان ما نهى الله جَلَّوَعَلَا عنه.	**أولًا**: الابتداع في دين الله عَزَّوَجَلَّ.	**أولًا**: الظلم وقتل النفس التي حرم الله عَزَّوَجَلَّ.
ثانيًا: النفاق.	**ثانيًا**: التكالب على الدنيا.	**ثانيًا**: سوء التربية.	**ثانيًا**: ضياع الأمانة وفساد الذمم.
ثالثًا: الجحود.	**ثالثًا**: اتباع الهوى.	**ثالثًا**: الإفساد من خلال مناهج التربية والتعليم.	**ثالثًا**: بخس الموازين والتطفيف بالكيل.
رابعًا: السحر.	**رابعًا**: الفساد الاجتماعي.	**رابعًا**: الغزو الفكري، وهيمنة ثقافاته على المجتمع.	**رابعًا**: نقض العهد، وقطع ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به أن يُوصل.
–	**خامسًا**: المسكرات.	**خامسًا**: القدوة السيئة.	**خامسًا**: الفساد في المعاملات المالية.
–	**سادسًا**: الإسراف وإغفال	**سادسًا**: سوء التبليغ.	**سادسًا**: السرقة.

	الحقوق.		
–	**سابعًا**: المجاهرة بالمعاصي.	**سابعًا**: الغلو والتطرف.	**سابعًا**: الغلول والاختلاس.
–	**ثامنًا**: تغيير الخلق.	**ثامنًا**: الغرور.	صور الغلول: ↓ ١ – الغلول في الفيء أو الغنائم، وهذا هو المشهور. ٢ – الغلول في الزكاة. ٣ – هدايا العمَّال. ٤ – الاختلاس من الأموال العامَّة. ٥ – اغتصاب الأرض أو العقار.
–	**تاسعًا**: الإفساد باللسان.	**تاسعًا**: التصدر قبل التمكن.	–
–	**عاشرًا**: الطغيان.	**عاشرًا**: كتمان الحق، وكتمان الشهادة عند طلبها والحاجة إليها، وقول الزور.	–
–	**الحادي عشر**: البغي والأشر والبَطَر.	**الحادي عشر**: الصَّدّ عن بيوت الله عَزَّوَجَلَّ، والسعي في خرابها.	–
–	–	**الثاني عشر**: إيقاد نيران الفتن والحروب.	–
المطلب الخامس: الفساد في الحكم والقضاء:	**المطلب السادس: الفساد البيئي:**	–	–
أولًا: التحذير من الفساد في الحكم والقضاء وبيان خطورته.	**أولًا**: التحذير من الفساد البيئي وبيان خطورته.	–	–
ثانيًا: الركون إلى	**ثانيًا**: صور الفساد البيئي:	–	–

الظلمة.	↓		
–	١ – رمي الأوساخ والقاذورات وبقايا الطعام وسائر المخلَّفات في الشوارع.		
–	٢ – تلويث البيئة بالدخان الضار. ٣ – قطع الأشجار النافعة وحرقها، وتلويث مياه البحار والأنهار، وردم الآبار وتلويثها. ٤ – إهمال سقي الزرع، والإضرار بالتربة من خلال إفسادها بنحو المواد الكيميائية. ٥ – قتل الحيوان وتعذيبه.		

ثالثًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج:

١ – الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الفساد، وبيان آفاته وعواقبه:

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتحذير من الفساد ومحاربته، والصلاح والإصلاح طريق العزة، وعنوان الفلاح، وسبيل إلى النجاة في الآخرة، والحياة الطيبة في الدنيا، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾ وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود:١١٦-١١٧]. قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "﴿أُولُو بَقِيَّةٍ﴾، يقول: ذو بقية من الفهم والعقل، يعتبرون مواعظ الله عَزَّوَجَلَّ ويتدبرون حججه، فيعرفون ما لهم في الإيمان بالله عَزَّوَجَلَّ، وعليهم في الكفر به. ﴿يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ﴾، يقول: ينهون أهل المعاصي عن معاصيهم، وأهل الكفر بالله عن كفرهم به، في أرضه. ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ﴾، يقول: لم يكن من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد في الأرض، إلا يسيرًا، فإنهم كانوا ينهون عن الفساد في الأرض، فنجاهم الله عَزَّوَجَلَّ من عذابه، حين أخذ من كان مقيمًا على الكفر بالله عذابُه، وهم اتباع الأنبياء والرسل عَلَيْهِمُ ٱلسَّلَامُ"[1].

(١) تفسير الطبري (١٥/٥٢٧).

ويقول عَزَّوَجَلَّ: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل:٩٧].

قال الإمام الغزالي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مبينًا مكانة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وخطر إغفال هذا الواجب: "إنَّ الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر هو القطب الأعظم في الدين، وهو المهم الذي ابتعث الله عَزَّوَجَلَّ له النبيين أجمعين، ولو طوي بساطه وأهمل علمه وعمله؛ لتعطلت النبوة، واضمحلت الديانة، وفشت الضلالة، وشاعت الجهالة، واستشرى الفساد، واتسع الخرق، وخربت البلاد، وهلك العباد"(١).

وقد جاء في الحديث: عن النعمان بن بشير رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا، عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**مثل القائم على حدود الله والواقع فيها، كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مروا على من فوقهم، فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا ولم نؤذ من فوقنا**)). ثم قال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ((**فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعًا، وإن أخذوا على أيديهم نجوا، ونجوا جميعًا**))(٢).

فينبغي النظر بعين البصيرة إلى عاقبة الفساد وآثاره، والاعتبار بمن كان الفساد سبب هلاكهم أو تخلفهم.

وقد حذَّر الله عَزَّوَجَلَّ العبادَ من الفساد والإفساد في غير آية، وبين عاقبة المفسدين؛ ليعتبر الناس، وليكونوا على بينة، فيجتنبوا ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه، ويتبعوا نهج المصلحين.

---

(١) انظر: إحياء علوم الدين، للإمام الغزالي (٢/٣٠٦).

(٢) صحيح البخاري [٢٤٩٣]، وهو كذلك في (صحيح البخاري) [٢٦٨٦] بلفظ: ((مثل المدْهِنِ في حدود الله)) الحديث.

والسَّعيد من اعتبر بغيره، والشَّقيُّ من اعتبر به غيره. ويستفادُ من قصص من وقف عند حدود الله عَزَّوَجَلَّ، وأخذ بأحكام دينه، ومن أخبار الذين تعدَّوا حدوده، واتبعوا أهوائهم، ونبذوا أحكام دينه ظهريًّا: الاعتبارُ بالعاقبة والمآل، فيكون ذلك دافعًا لاختيار طريق المحسنين، ونبذ طريق المفسدين؛ فمما يعين على ترك طريق الهوى: ملاحظة العاقبة، والاعتبار بالمآل. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص:٧٧]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٨٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص:٨٣].

٢ – التمسك بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، والعمل بما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ:

إن الإصلاح قائم على دعائم أهمها: التمسك بكتاب الله عَزَّوَجَلَّ وسنة نبيه صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ والعمل بما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به ورسوله صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ﴾ [الأعراف:١٧٠].

قال الإمام أحمد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: وإنما جاء خلاف من خالف؛ لقلة معرفتهم بما جاء عن النبي صَلَّاللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وقلة معرفتهم بصحيحها من سقيمها(١).

فلذلك يروج الباطل على من لا علم عنده ولا معرفة، ولا اعتناء له بنصوص الكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين.

روي عن محمد بن سيرين رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: إنَّ قومًا تركوا طلب العلم، ومجالسة العلماء، وأخذوا في الصلاة والصيام حتى يبس جلد أحدهم على عظمه، ثم خالفوا السنة

(١) إعلام الموقعين (١/٤٤)، الفقيه والمتفقه، للخطيب (٢/٣٣٢)، إيقاظ همم أولي الأبصار (ص:١١٩).

فهلكوا، وسفكوا دماء المسلمين، فوالذي لا إله غيره ما عمل أحد عملًا على جهل إلا كان يفسد أكثر مما يصلح[1].

٣ – الرجوع إلى العلماء الراسخين فيما أشكل فهمه، والتبس أمره:

إن الأمة تحتاج ولا سيما عند تلاطم الفتن، والتباس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخ، والنظر الثاقب، وتمكينهم؛ حتى يعلو صوت الحق، وتخمد سَوْرَةُ الباطل، لكن الرجوع إلى المصلحين قبل وقوع الفتن خير من الرجوع إليهم بعد وقوعها؛ فمن شأن المصلحين أنهم يحذرون من الخطر قبل وقوعه؛ ليكون الناس على بينة وبصيرة، وأنهم يَبْدَؤون بالأهم فالأهم، ويركزون على ما يخشى وقوعه في القريب، من نحو ما وقع في بلد مجاور ويخشى انتقاله، أو من نحو ما يثيره بعض دعاة الفتنة ويخشى تفشيه وانتشاره.

ومنذ أكرم الله عَزَّوَجَلَّ هذه الأمة ببعثة نبيه صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وأفواج الدعاة المصلحين يتعاقبون فيها، علماء ربانيون، ودعاة مصلحون، داعين إلى الحق، ومرشدين للخلق، حاكمين بالقسط، آمرين بالمعروف، وناهين عن المنكر.

والناس إن خلو من العلماء الربانيين تخطَّفتهم شياطين الإنس والجن، وتقاذفتهم الضلالات والفتن.

والعلماء ورثة الأنبياء عَلَيْهِمُٱلسَّلَامُ يبينون للناس أمر دينهم، ويدعونهم بالحجة والبيان، ولكن قد يشتبه الحق ويلتبس على كثيرين –ولا سيما في كثير من البلاد النائية أو القرى البعيدة–؛ بسبب بعدهم عن الدعاة المستبصرين والمصلحين؛ ولما يحدثه الغزو الفكري وصراع الثقافات، وتصدر كثيرٍ من الجهال منابر الدعوة، وهم يسيئون أكثر مما يصلحون؛ ولذلك انتشرت في مجتمعاتنا أمراض خطيرة من الغلو والتعصب والتكفير، وعمل الإعلام على إبراز واقع المسلمين، وهي أمراض تفتك بجسد الأمة، وتمزق وحدتها، ما لم يقم المصلحون من هذه الأمة، من أهل العلم وأصحاب البصائر والقلوب بنشر العلم والمحبة،

(١) الاستذكار، لابن عبد البر (٦١٦/٨).

وإرشاد الأنام إلى سبل السلام، وهدايتهم إلى الطريق الأقوم، وإلى المنهج الأحكم، والصدع بالحق، ومحاجة المغالين، الذين يجهدون في طمس معالم الحق، والتلبيس على العامة، فيرفعون رايات الظلام، ويستقطبون فئة من العوام، وهذا واقع مشاهد..فكان لزامًا على المصلحين: التبصير والتنوير والتحذير.

ولا يخفى أن الرؤوس الجهال وزعماء الضلال يحملون الناس على الضلال، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَانْطَلَقَ الْمَلَأُ مِنْهُمْ أَنِ امْشُوا وَاصْبِرُوا عَلَى آلِهَتِكُمْ إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ يُرَادُ ۝٦ مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي الْمِلَّةِ الْآخِرَةِ إِنْ هَذَا إِلَّا اخْتِلَاقٌ ۝٧﴾ [ص:٦-٧].

وتحتاج الأمة في الفتن عندما يلتبس الحق بالباطل أن ترجع لأهل العلم الراسخ، والنظر الثاقب، وتحذر من خطيب مصقع(١)، وواعظ جاهل يشوّه الحقائق، ويغطي العقل بلهب العواطف. روي عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ أنه قال: "الفتنة إذا أقبلت عرفها كل عالم، وإذا أدبرت عرفها كل جاهل"(٢). و"كان الحسن رَحِمَهُ ٱللَّهُ يبصر من الفتنة إذا أقبلت كما نبصر نحن منها إذا أدبرت"(٣).

وقد جاء في الحديث: عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أنَّ رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: ((**إنَّ أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان**))(٤).

وعند أبي يعلى عن عمر بن الخطاب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: ((**كنا نتحدث أن ما يهلك هذه الأمة كل منافق عليم اللسان**))(٥).

---

(١) يقال: (خطيب مِصْقَع) بكسر الميم، أي: بليغ ماهر بالخطبة. و(مسقع) بالسين مثل مصقع.

(٢) أخرجه ابن سعد في (الطبقات) (١٢٢/٧)، والبخاري في (التاريخ الكبير) (٣٢١/٤)، وأبو نعيم في (الحلية) (٢٤/٩).

(٣) المجالسة (٨٦/٦).

(٤) تقدم.

(٥) تقدم.

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، فإن الناس إنما يقتدون بعلمائهم وعبادهم، فإذا كان العلماء فجرة، والعباد جهلة عمت المصيبة بهما، وعظمت الفتنة على الخاصة والعامة"(١).

وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والفتنة إذا وقعت عجز العقلاء فيها عن دفع السفهاء"(٢).

وقال سفيان الثوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "اتقوا فتنة العابد الجاهل والعالم الفاجر؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون"(٣).

"وقد كان يقال: إن مثل الفتنة كمثل الدرهم الزيف يأخذه الأعمى ويراه البصير"(٤).

وقال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قد رأينا والله أقوامًا يسرعون إلى الفتن، وينزعون فيها، وأمسك أقوام عن ذلك هيبة لله جَلَّ وَعَلَا، ومخافة منه، فلما انكشفت إذ الذين أمسكوا أطيب نفسًا، وأثلج صدورًا، وأخف ظهورًا من الذين أسرعوا إليها، وينزعون فيها، وصارت أعمال أولئك حزازات على قلوبهم كلما ذكروها، وايم الله لو أن الناس يعرفون من الفتنة إذا أقبلت كما يعرفون منها إذا أدبرت لعقل فيها جيل من الناس كثير، والله ما بعثت فتنة قط إلا في شبهة وريبة، إذا شبت رأيت صاحب الدنيا لها يفرح ولها يحزن ولها يرضى ولها يسخط، ووالله لئن تشبث بالدنيا وحدب عليها ليوشك أن تلفظه وتقضى منه"(٥).

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/١٦٠).

(٢) منهاج السنة (٣/٣٤٣).

(٣) شعب الإيمان [١٧٥٢]، أخلاق العلماء (ص:٨٧)، الزهد والرقائق، لابن المبارك (٢/١٨)، المعجم، لابن المقرئ [٥٥]، أخبار الشيوخ وأخلاقهم (ص:١٨٦)، صفحات مشرقة من حياة السلف (ص:١١٤)، موسوعة أقوال الإمام أحمد بن حنبل [٤٢٤٢].

(٤) تفسير ابن أبي حاتم (٩/٣٠٣٣)، الدر المنثور، للسيوطي (٦/٤٥٠).

(٥) حلية الأولياء، لأبي نعيم الأصبهاني (٢/٣٣٦).

٤ - تعميق معنى الأمانة ومنزلتها في النفوس -ولا سيما عند الناشئة-، وتقبيح الخيانة وتبيين آفاتها وآثارها.

٥ - الحدود الرادعة، والرقابة الناجعة والمتابعة:

وقد كان النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يحارب الفساد، ويعزز مفاهيم النزاهة، وقيم الشفاقية من خلال إقامة الحدود من غير محاباة، ومن خلال متابعة نزاهة الولاة، وتعظيمة لأمر الغلول، وبيان عاقبته وآثاره

فلا بدَّ من العدل والصدق في سائر الحدود والأحكام والمعاملات من غير تمييز، ولا محاباة. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء:١٣٥].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى﴾ [المائدة:٨].

وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾ [الأنعام:١٥٢].

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [المائدة:٤٢].

وقد تقدم بيان ذلك مفصلًا.

وتكون الوقاية من آفات الفساد من خلال المتابعة لأحوال الولاة والعمال.

٦ - التفقه في الدين، واتباع الأساليب الحكيمة في الدَّعوة:

واتِّباع الأساليب الحكيمة في الدَّعوة إلى الله عَزَّوَجَلَّ التي تُرَغِّبُ ولا تُنَفِّر هو منهج العلماء المصلحين، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [البقرة:٢٦٩]. فمن دعائم الإصلاح: الحكمة والموعظة والجدال بالتي هي أحسن.

ولا بد يكون المصلح واسع الاطلاع على ثقافات الأمم، وعلى حظٍّ من علم النفس والاجتماع وطبائع الأفراد والشعوب، ملمًا بآليات الإقناع ووسائله، يستند في دعواه إلى الأدلة الواضحة العقليَّة والنقليَّة، والحجج البينة، ويقرر دعواه ببساطة ووضوح، وتسلسل منطقي، فيبني الحكم على قراءة دقيقة للواقع، وفقه لمقاصد التشريع، وعلى مقدمات ونتائج واضحة ومترابطة تلبي حاجات ورغبات المدعو.

ويعتمد في عملية الإقناع على المصداقية والدِّقة والوضوح، والاهتمام بما يحفز المتلقي على الاستجابة، كالإثارة والتشويق وغير ذلك.

والحوار من أهم وسائل الاتصال مع الآخرين، فهو مطلب إنساني؛ فإن الإنسان مدني بالطبع، يحتاج إلى التواصل مع الآخرين، والحوار وسيلة إلى التعاون بين المتحاورين؛ للوصول إلى الحقيقة وتجليتها أو إلى نتائج أفضل؛ ليكشف كل طرف منهم ما خفي على صاحبه، وفيه: البحث والتنقيب من أجل الاستقصاء والاستقراء في تنوع الرؤى والتصورات. كما يعكس الحوار الواقع الحضاري والثقافي للأمم والشعوب، حيث تعلو مرتبته وقيمته وفقًا للقيمة الإنسانية لهذه الحضارة أو تلك. وتعد الندوات واللقاءات والمؤتمرات إحدى وسائل ممارسة الحوار الفعال، الذي يعالج القضايا والمشكلات التي تواجه الإنسان المعاصر.

والأمم التي يسودها الجهل والتخلف هي التي تقمع فيها الحريات، وإنك لتلحظ في كثير من البلاد التي أنهكتها الحروب والصرعات تأخرًا في العلم والاقتصاد، وما ذلك إلا نتيجة للاستبداد والظلم والقهر، والتنازع على السلطة، وحمل الناس على قناعات بعيدة عن الواقع، ولا تخدم إلا فئة معينة، فيقتل الإبداع، ويسود الاستبداد الذي يعمل في دأب على التخلص من المفكرين المصلحين. وقد أخبر الحق سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ عن فرعون أنه قال بسبب تكبره واستعلائه: ﴿مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر:٢٩]. والواقع يشهد لذلك الانحدار الفكري بسبب ذلك؛ فإن العصور الوسطى –

مثلًا- والتي كانت السلطة هي المرجع الأخير في شؤون العلم كانت عصورًا متخلفة خلت من كل إبداع.

والحكمة تقتضي مراعاة أحوال الناس، والتماس الأعذار، والرفق بهم، والحرص على الهداية، والحلم والصبر على المدعو، والنصح والإرشاد، وسائر الأخلاق الكريمة. يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد أوصى الله عَزَّوَجَلَّ موسى وهارون عَلَيْهِمَاالسَّلَامُ لما أمرهما بالذهاب إلى فرعون، وهو إمام الكفر في زمانه، قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿اذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى ﴿٤٣﴾ فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٣-٤٤].

والرسول صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو إمام المصلحين، يدعو الناس بحكمة ورفق ومراعاة لحالة كل فرد، كما جاء في الحديث: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، فقالوا: السام عليكم، قالت عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا: ففهمتها، فقلت: وعليكم السام واللعنة، قالت: فقال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**مهلًا يا عائشة، إن الله يحب الرفق في الأمر كله**))، فقلت: يا رسول الله، أولم تسمع ما قالوا؟ قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**قد قلت: وعليكم**))(١).

وفي رواية: ((**مه يا عائشة، فإن الله لا يحب الفحش والتفحش**))(٢).

وفي رواية: عن عائشة رَضِيَٱللَّهُعَنْهَا أن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قال: ((**يا عائشة: إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطي على العنف، وما لا يعطي على ما سواه**))(٣).

---

(١) صحيح البخاري [٦٠٢٤، ٦٠٣٠، ٦٤٠١]، مسلم [٢١٦٤، ٢١٦٥].

(٢) صحيح مسلم [٢١٦٥]..

(٣) صحيح مسلم [٢٥٩٣].

وقال عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ: ((**إن الله** عَزَّوَجَلَّ **ليعطي على الرفق ما لا يعطي على الخرق**[١]**، وإذا أحب الله عبدًا أعطاه الرفق، ما من أهل بيت يحرمون الرفق إلا قد حرموا**))[٢].

وعن أنس بن مالك رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ أن أعرابيًّا بال في المسجد، فقاموا إليه، فقال رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**لا تزرموه**))، ثم دعا بدلو من ماء فصب عليه[٣].

فمن الصفات التي يحبها الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: الرفق واللين، والحلم والأناة؛ لقول رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للأشج -أشج عبد القيس-: ((**إن فيك خصلتين يحبهما الله: الحلم، والأناة**))[٤].

ومن شأن المصلح أن يكون حريصًا على هداية الناس، ودعوتهم إلى الخير، وأن يتحمل في سبيل الكثير من المشاق، فهو يريد للناس الهداية والخير والرشاد، وهو يدعوهم بقلب مشفق، وبرفق ولين؛ فإن السمات الأخلاقية أعظم سلاح.

ويحرص المنهج الإسلامي في الدعوة على البحث عن أدنى وسيلة لإدخال الناس في دين الله عَزَّوَجَلَّ، بينما يبحث الغلاة للمسلم عن أدنى شبهة لإخراجه من دين الله عَزَّوَجَلَّ.

فمن شأن المسلم أن يحرص على تشجيع الناس وترغيبهم في الإسلام والتآلف والمحبة والتعاضد والتعاون، ومن شأن الغلاة البحث والتنقير عن شبهات منفرة وصادة.

---

(١) -بضم أوله المعجم وسكون الراء- ضد الرفق. و(الخرق) -بفتحتين- مصدر، و(الأخرق) وهو ضد الرفيق وبابه طرب، والاسم (الخرق) بالضم.

(٢) أخرجه الطبراني في (الكبير) [٢٢٧٤]، قال الهيثمي رَحِمَهُ ٱللَّهُ (١٨/٨): "رواه الطبراني، ورجاله ثقات". وضعفه العراقي في (تخريج الإحياء) (ص:١٠٨٣)، قال الشيخ الألباني في (صحيح الترغيب والترهيب) [٢٦٦٦]: "حسن لغيره".

(٣) صحيح البخاري [٦٠٢٥]. (لا تزرموه): لا تقطعوا عليه بوله.

(٤) صحيح مسلم [١٧].

٧ – الارتكاز إلى القانون الأخلاقي في الدعوة من نحو: الاستقامة، والتسامح، والعفو، وحسن الخلق..الخ.

٨ – مكافحة التطرف والغلو والتشدد:

إن من المفاهيم الخاطئة لمعنى الاستقامة: ما يظهرُ في سلوكِ البعض بناءً على سوءِ فهم، وبُعْدٍ عن منهج الاعتدال والتَّوسط الذي هو شأن الدُّعاة والمصلحين، وانحرافٍ عن النَّهج المعرفي السَّليم إلى مزالقَ خطيرةٍ من الغلوِّ والتَّشدد، حيث ينمو التَّطرف إلى حدٍّ كبير.

ولا شك أن سوءَ الفهم ينعكسُ على السَّلوك والتَّطبيق العملي، فينتجُ عن ذلك انحرافٌ وضلالٌ في الفهمِ والتَّصور والسُّلوك والتَّطبيق، فيضِلُّ عن الحقِّ، ويُضِلُّ غيره إذا كان داعية ضلال.

والمجتمعات التي يحكمها الجهل والاستبداد ويتفشى فيها الفساد والإفساد إنما تحمل ضعاف النفوس على متابعة الضَّلال، والانغماس في أوحاله.

٩ – مكافحة الرشوة وفرض العقوبات الرادعة، والرقابة الناجعة التي تردع المفسدين.

١٠ – مكافحة الغلول والاختلاس من الأموال العامة.

١١ – مكافحة المتاجرة بالنفوذ والسلطة، وإساءة استغلال الوظائف، والحرص على أن يكون الرجل المناسب في المكان المناسب، وأن يكون الاختيار قائمًا على أساس الكفاءة، فيقدم الأعلى كفاءة وتأهُّلًا على من هو دونه. ومكافحة المحسوبية من نحو: تقديم ذوي القربى في شَغلِ الوظائف والمناصب.

١٢ – مكافحة الغش، والتحذيرُ منه، وبيانُ حرمته وخطورته وعاقبته، ومعاقبة من تسوِّلُ له نفسُه أكلَ أموال الناس بغير حقٍّ؛ ليكون عبرة لغيره:

١٣ – مكافحة غسيل الأموال: وهو عمليَّة تحويل كميّات كبيرة من الأموال التي تمَّ الحصول عليها بطُرقٍ غير قانونيّة إلى أموالٍ نظيفةٍ وقابلة للتّداول في النَّشاطات العامَّة.

ويُعرفُ غسيل الأموال أيضًا بأنه: طريقةٌ تُستخدم لإخفاء وتغطية المصادر التي يتمُّ من خلالها كسب الأموال؛ من خلال استخدام وسائل استثمار غير مشروعة، ومن ثم تستثمر أرباحها في نشاطات مشروعة وقانونية.

١٤ – المحافظة على الممتلكات العامة من خلال الرقابة الناجعة، وتعزيز مفهوم الوطنية في نفوس الناس، ولا سيما الناشئة، والتوعية والإرشاد إلى محبة الوطن، وبيان حقوقه، وذلك من خلال التربية والتعليم والإعلام بما يتناسب وأحكام الشريعة، وبما فيه مصلحة الإنسان على هذه الأرض.

١٥ – توفير الأمن والأمان لأبناء الوطن كافة، والضرب بيدٍ من حديد على أيدي المفسدين والمخربين.

١٦ – العمل على محاربة الأسباب المؤدية إلى انتشار الفقر، والجهل، والرذيلة، والفساد والمرض.

١٧ – إتاحة فرصة العمل التي تتناسب مع رغبات العاملين وميولهم، وشغل أوقات الشباب بما فيه نفع لهم ولبلدهم، من خلال الدورات التدريبية النافعة، والرحلات الترفهية الهادفة.

١٨ – مكافحة البطالة؛ لأن العمل يشغل الإنسان، ويسد حاجته، ويعالج أمراضًا يسببها الفراغ، منها: التطلع إلى ما عند الآخرين، وربما يؤول ذلك إلى الحسد وفساد الأخلاق، والسعي إلى إزالة النعمة عن المحسود.

١٩ – العناية بالمبدعين، والاستفادة من مجالات إبداعهم، وتوفير ما يلزمهم وينمي مهاراتهم.

٢٠ – الإصلاح في مجال التربية والتعليم.

٢١ – الإصلاح في مجال المعاملات.

٢٢ – الإصلاح من خلال وسائل الإعلام.

٢٣ - الإصلاح في النصح والإرشاد.

٢٤ - الإصلاح في المجال الاقتصادي:

ومن ذلك: تشجيع الاستثمار من خلال الحوافز والتسهيلات لرجال الأعمال، وإعداد الكوادر للنهوض بالاقتصاد، وتشجيع الصناعات المحلية والتطوير في سائر الصناعات بما يواكب العصر، ويفي بالمصالح.

٢٥ — الإصلاح في المجال الجنائي، ومكافحة الفساد في القضاء:

وقد تقدم بيان ذلك.

٢٦ — مكافحة ظاهرة التكفير، وتجنب إطلاق الحكم بالتكفير والتضليل؛ لأن الحكم بالتكفير قضائي لا إفتائي، يحكم به القضاة الراسخون في العلم، والمعروفون بالورع والتقوى.

٢٧ - إصلاح ذات البين في النزاع والخصومات بين الأفراد، وبين الجماعات من القبائل والطوائف، وبين الإخوة، وبين الزوجين، وبين الأقارب والأرحام:

وقد أمر الله عَزَّوَجَلَّ بإصلاح ذات البين فقال جَلَّوَعَلَا: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال:١]. قوله تعالى: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾، أي: أحوال بينكم، يعني: ما بينكم من الأحوال، حتى تكون أحوال ألفة ومحبة واتفاق(١).

وقال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٩ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ [الحجرات:١٠-١١]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَابْعَثُوا حَكَمًا مِنْ أَهْلِهِ وَحَكَمًا مِنْ أَهْلِهَا إِنْ يُرِيدَا إِصْلَاحًا يُوَفِّقِ اللَّهُ بَيْنَهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾ [النساء:٣٥]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَإِنِ امْرَأَةٌ خَافَتْ مِنْ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا أَنْ يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا

---

(١) الكشاف (٢/١٩٥).

صُلْحًا وَالصُّلْحُ خَيْرٌ وَأُحْضِرَتِ الْأَنْفُسُ الشُّحَّ وَإِنْ تُحْسِنُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَالْمُعَلَّقَةِ وَإِنْ تُصْلِحُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٢٩﴾﴾ [النساء:١٢٨-١٢٩].

والاشتغال بالصلح بين المتخاصمين أفضل من الاشتغال بنوافل العبادات؛ لما في الإصلاح بين الناس من نفع يتعدى إلى غير واحد فيكون سببًا في وصل أرحام قطعت، وإلى تآلفِ قلوبٍ بين إخوان أو جماعات يؤول إلى وصل بعد هجر وخصام، وذلك يؤدي إلى متانة المجتمع، وقوته بتآلف أفراده وتماسكهم.

وقد جاء في الحديث: عن أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**ألا أخبركم بأفضل من درجة الصيام والصلاة والصدقة؟**))، قالوا: بلى، يا رسول الله قال: ((**إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة**))(١).

وفي رواية: ((**وإن البغضة هي الحالقة**))(٢).

وفي (المرقاة): "قال الأشْرَف: المراد بهذه المذكورات النوافل دون الفرائض. قلت: والله أعلم بالمراد إذ قد يتصور أن يكون الإصلاح في فساد يَتَفَرَّعُ عليه سفك الدماء، ونهب الأموال، وهَتْكُ الحُرُم أَفْضَلُ من فَرَائِض هذه العبادات الْقَاصِرَةِ مع إمكانِ قَضَائِهَا على فَرْضِ تركها، فهي من حقوق الله عَزَّوَجَلَّ التي هي أهون عنده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من حقوق العباد، فإذا كان كذلك، فيصح أن يقال هذا الجنس من العمل أفضل من هذا الجنس، لكون بعض أفراده أَفْضَلَ كَالْبَشَرِ خَيْرٌ من الْمَلَكِ، والرَّجُلُ خَيْرٌ من المرأة"(٣).

---

(١) أخرجه أحمد [٢٧٥٠٨]، والبخاري في (الأدب المفرد) [٣٩١]، وأبو داود [٤٩١٩]، والترمذي [٢٥٠٩]، وقال: "حسن صحيح". وأخرجه أيضًا: البزار [٤١٠٩]، وقال: "إسناده صحيح". كما أخرجه: الخرائطي في (مكارم الأخلاق) [٣٨٥]، وابن حبان [٥٠٩٢]، والطبراني في (مكارم الأخلاق) [٧٥]، والبيهقي في (شعب الإيمان) [١٠٥٧٨].

(٢) الأدب المفرد [٤١٢].

(٣) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (٣١٥٣/٨).

وقوله: ((**وإن البغضة هي الحالقة**))؛ لأن في تباغضهم افتراق كلمتهم وتشتت أمرهم، وفى ذلك ظهور عدوهم عليهم ودروس دينهم[(١)].

وفي (المرقاة): "قوله: ((**هي الحالقة**))، أي: الماحية والمزيلة للمثوبات والخيرات، والمعنى: يمنعه شؤم هذا الفعل عن تحصيل الطاعات والعبادات.

وقيل: المهلكة من حَلَقَ بعضُهُم بَعْضًا، أي: قَتْلٌ مأخوذٌ من حَلْقِ الشَّعْر.

وفي (النهاية)[(٢)]: هي الخصلة التي من شأنها أن تحلق، أي: تهلك، وتستأصل الدين كما يستأصل الموس الشعر.

وقيل: هي قطيعة الرحم والتظالم[(٣)].

وقال الطيبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ[(٤)]: فيه حث وترغيب في إصلاح ذات البين واجتناب عن الإفساد فيها؛ لأن الإصلاح سبب للاعتصام بحبل الله عَزَّوَجَلَّ، وعدم التفرق بين المسلمين، وفساد ذات البين ثُلْمَةٌ في الدين، فمن تعاطى إصلاحها ورفع فسادها نال درجة فوق ما يناله الصائم القائم المشتغل بِخُوَيْصَةِ نفسه، فعلى هذا ينبغي أن يحمل الصلاة والصيام على الإطلاق، والحالقة على ما يَحْتَاجُ إليه أَمْرُ الدِّينِ"[(٥)].

والإصلاح بين الناس معدود من الصدقات، كما جاء في الحديث: عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، قال: قال رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: ((**كل سُلاَمَى من الناس عليه صدقة، كل يوم تطلع فيه الشمس، يعدل بين الاثنين صدقة، ويعين الرجل على دابته فيحمل**

---

(١) شرح صحيح البخاري، لابن بطال (٩/٢٥٩).

(٢) انظر: النهاية في غريب الحديث والأثر، مادة: (حَلَقَ) (١/٤٢٨).

(٣) قال الزمخشري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الحالقة قطيعة الرحم والتظالم؛ لأنها تجتاح الناس وتهلكهم كما يحلق الشعر يقال: وقعت فيهم حالقة لم تدع شيئًا إلا أهلكته". الفائق في غريب الحديث والأثر (١/٣١٣)، وانظر: فيض القدير (٣/١٢٦).

(٤) شرح الطيبي على مشكاة المصابيح (الكاشف عن حقائق السنن) (١٠/٣٢١٤).

(٥) مرقاة المفاتيح (٨/٣١٥٤).

عليها، أو يرفع عليها متاعه صدقة، والكلمة الطيبة صدقة، وكل خطوة يخطوها إلى الصلاة صدقة، ويميط الأذى عن الطريق صدقة))[1].

قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "((**يعدل بين الاثنين صدقة**))، أي: يصلح بينهما بالعدل"[2].

٢٨ - الإصلاح مهمة الجميع كل بحسب قدرته وطاقته، وفي نطاق حياته الاجتماعية، وهو أوجب على العلماء المصلحين.

٢٩ - تقويم انحراف بعض الآباء بالحكمة والإصلاح والإرشاد، فإن لم ينفع فبالعقوبات الرَّادعة.

٣٠ - التربية السليمة المبنية على القيم والأخلاق الفاضلة والالتزام بأحكام الشرع الحنيف وآدابه، وصيانة الأولاد عمَّا يضرُّهم في الآخرة من خلال بعث روح المراقبة لله عَزَّوَجَلَّ والخوف منه، وقد تقدم بيان ذلك.

٣١ - الرَّقابة الحكيمة على الأولاد في البيت والحيِّ والمدرسة، وتشملُ الإشرافَ على وسائل التواصل، والتشجيعَ على متابعة الإعلام الهادف، والتَّحذير من الإعلام المضلِّ، وحظرَ المواقع التي تثيرُ الغرائز، وتروِّج للفساد الأخلاقي، أو للغلوِّ في الدِّين، كما تشملُ تفقدَ أحوالهم في المدرسة والجامعة، والنأيَ بهم عن رفقاء السوء.

٣٢ - النظر بعين البصيرة إلى آثار سوء أو إهمال التربية من الفساد الأخلاقي إلى العقوق والحرمان من برِّ الأولاد، وقد يفضي الإهمال إلى الانحراف وانتشار الجريمة.

(١) أخرجه البخاري [٢٩٨٩]، ومسلم [١٠٠٩]. و((سلامى)) قال الإمام النووي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "هو بضم السين وتخفيف اللام، وأصله: عظام الأصابع وسائر الكف، ثم استعمل في جميع عظام البدن ومفاصله" شرح النووي على صحيح مسلم (٥/٢٣٣).

(٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٧/٩٥).

٣٣ – أن يستشعر المربِّي المسؤوليةَ العظيمة المنوطة به في التوجيه والتربية والإرشاد والتحذير والمتابعة، وأنه سَيُسْأل أمامَ الله عَزَّوَجَلَّ عمَّا خُوِّلَ له، وائتُمنَ عليه، ووكِلَ إليه.

٣٤ – أن يَتَخلَّقَ المربِّي بالمحاسن التي وردَ الشرعُ بها، وحثَّ عليها، والخلالِ الحميدة، والشِّيم المرضية التي أرشدَ إليها.

٣٥ – النأي بالأولاد عن مواطن الشبهات والمعاصي والبدع:

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يجب أن يتجنب الصبي إذا عقل: مجالس اللهو والباطل والغناء، وسماع الفحش والبدع ومنطق السوء؛ فإنه إذا علق بسمعه عسر عليه مفارقته في الكبر، وعزَّ على وليه استنقاذه منه"(١). وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "الصبي إذا رأى صبيًا مثله يفعل شيئًا تشبَّه به، وسار بسيرته مع الفساق؛ فإن الاجتماع بالزناة واللوطيين [مثلًا] فيه أعظم الفساد والضرر على النساء والصبيان والرجال.."(٢).

٣٦ – التشجيع الدَّائم للأولاد، وترغيبهم في طلب العلم النافع، والعمل الصالح، وحضور مجالس العلماء، وتقديم الهدايا والمكافآت التشجيعية كلما قَدَّموا أعمالًا نبيلة أو حققوا نجاحًا في حياتهم.

٣٧ – معالجة الأخطاء التي تقع من الأبناء بحكمة وتفهُّم.

٣٨ – تحقيق الأمان في المجتمع بين الرعية بحيث يأمن الإنسان على نفسه وماله وعرضه.

٣٩ – تحقيق التَّكافل بين النَّاس، فيأخذ غنيهم بيد فقيرهم، وقويهم بيد ضعيفهم، ويصبح الجميع إخوة متحابين.

---

(١) تحفة المودود بأحكام المولود (ص:٢٤٠).

(٢) مجموع الفتاوى (١٥/٣١١).

٤٠ – التحذير من الظلم والتبصير بآثاره، وعواقبه المهلكة، ومكافحة أسبابه، ونصرة المظلوم، ومعاقبة الظالم.

٤١ – أن يحذر المكلف من آفات النفس والتي قد تكون من مسبباب الظلم والفساد كالغضب.

٤٢ – الابتعاد عن مواطن الفتن والشُّبهات، وأسباب الشَّرِّ، ودواعي المعصية، وعن المفسدين والغلاة.

٤٣ – الابتعاد عن المجادلة الباطلة؛ فإنها مما تفسد ذات البين(١).

٤٤ - شكر الله عَزَّوَجَلَّ على نعمه، والإخلاص في عبادته، والإكثار من الذكر والدعاء:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف:٥٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ وَبَوَّأَكُمْ فِي الْأَرْضِ تَتَّخِذُونَ مِنْ سُهُولِهَا قُصُورًا وَتَنْحِتُونَ الْجِبَالَ بُيُوتًا فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾ [الأعراف:٧٤].

٤٥ - نزاهة المصلحين:

وهذه النزاهة قائمة على الإخلاص لله عَزَّوَجَلَّ في القول والعمل:

والإخلاص هو أساس قبول الأعمال، والتأثير في المدعوين، فمن غير الإخلاص يفقد الكلام أثره، وحيث إن المصلح أسوة لغيره فلا ينبغي أن يناقض فعله قوله؛ لأن لسان العمل أنطق وأبلغ من لسان القول، والأعمال أعلى صوتًا من الأقوال، يقول الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة:٤٤]. ويقول جَلَّوَعَلَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝ كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ۝﴾ [الصف:٢-٣].

(١) انظر: فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف) (٣١٦/٩).

وفي الحديث: ((**يُجَاءُ بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَيُلْقَى فِي النَّارِ، فَتَنْدَلِقُ أَقْتَابُهُ فِي النَّارِ فَيَدُورُ كَمَا يَدُورُ الْحِمَارُ بِرَحَاهُ، فَيَجْتَمِعُ أَهْلُ النَّارِ عَلَيْهِ، فَيَقُولُونَ: أَيْ فُلانُ مَا شَأْنُكَ؟! أَلَيْسَ كُنْتَ تَأْمُرُنَا بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَانَا عَنْ الْمُنْكَرِ؟! قَالَ: كُنْتُ آمُرُكُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَلا آتِيهِ وَأَنْهَاكُمْ عَنْ الْمُنْكَرِ وَآتِيهِ**))(١).

والسلاح لا ينفع الإنسان إن ملكه ولم يستخدمه، فإذا دهمه خطر، فإن كان جاهلًا لم ينفعه جهله، وإن كان عالما لم ينفعه علمه، ولا خير في قول لا يصدقه العمل.

والنزاهة تقتضي قول الحق والعدل والصدق من غير محاباة ولا تمييز. وقد تقدم بيان ذلك.

٤٦ - رفع الإشكال واللبس ودفع الشُّبَه عن الناس من خلال إظهار الحق، وكشف زيف الباطل.

٤٧ — أن يؤسس نهوضنا على قواعد ديننا فلا خير لنا فيه، ومهما نبتغي العزة بغير ما أعزنا الله به أذلنا الله عَزَّوَجَلَّ.

٤٨ - صحبة أهل العلم الخير والصلاح، والإكثار من سماع المواعظ التي ترغب في الآخرة.

٤٩ - أن يجعل المصلح تقوى الله عَزَّوَجَلَّ نصب عينه، فلا يقول إلا حقًّا، ولا ينطق إلَّا صدقًا.

٥٠ - الحذر من دعاة الباطل:

ينبغي التمييز بين العلماء الربانيين العاملين، ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب:٣٩]، الذين يصلحون ولا يفسدون، ويجمعون ولا يفرقون، وبين من سواهم من دعاة الباطل.

---

(١) صحيح الإمام البخاري [٣٠٩٤، ٦٦٨٥]، مسلم [٧٦٧٤].

فمن صفات دعاة الباطل: التلون على حسب المصالح، ومن شأنهم: التلبيس على الناس، وإظهار الباطل في صورة الحقِّ، ومَزْجُ الحقِّ بالباطل بالكتمان والتعمية، فهم دعاة فساد، وأئمة ضلال.

ومنهج أهل الحقِّ: العمل على بيان الحق، وتمييزه عن الباطل، والتحذير من أئمة الضلال، وكشف خداعهم وتزويرهم. وقد تقدم بيان ذلك.

ومن علامات الساعة: أن يقبض العلم بقبض العلماء، فيبقى ناسٌ جُهَّال يُسْتَفْتُونَ فَيُفْتُونَ برأيهم من غير علم ولا هدى، فَيَضِلُّونَ وَيُضِلُّونَ، كما جاء في الحديث: ((**إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رؤوسًا جهالًا، فسئلوا فأفتوا بغير علم، فَضَلُّوا وَأَضَلُّوا**))[1].

والأمم عندما يرتفع منها العلم: يفشو الجهل، وتنتشر فيها الفوضى بأنواعها، فتتخذ رؤوسًا جُهَّالًا لأمور دينها وأمور دنياها، فيقودونها بغير علم، فَيَضلون ويُضلون، ويَهلكون ويُهلكون، ويفسدون ولا يصلحون.

قال الحافظ ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "وفي هذا الحديث: الحثُّ على حفظ العلم، والتحذير من تَرْئِيس الجهلة، وفيه أن الفتوى هي الرِّيَاسَة الحقيقية، وذَمُّ من يُقْدِمُ عليها بغير علم"[2].

قال الخطابي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "قد أعلم رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أن آفةَ العلم: ذهابُ أهله، وانتحالُ الجُهَّال وَتَرَؤُسُهُمْ على النَّاس باسمه. وَحَذَّرَ النَّاسَ أن يقتدوا بمن كان من أهل هذه الصِّفة، وأخبر أنهم ضُلَّالٌ مُضِلُّونَ، وأَنْذَرَ به صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في حديث آخر عن أنس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: لَأُحَدِّثَنَّكُمْ حَدِيثًا لا يُحَدِّثُكُمْ أَحَدٌ بعدي سَمِعَه، سمعت رسول الله

---

(١) صحيح البخاري [١٠٠]، مسلم [٢٦٧٣].

(٢) فتح الباري، لابن حجر (١/ ١٩٥)، وانظر: فيض القدير (٢/٢٧٣).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: ((**إن من أشراط الساعة: أن يرفع العلم ويظهر الجهل**))[1]. قال أبو سليمان رَحِمَهُ اللَّهُ: يريد -والله أعلم-: ظهور الْجُهَّالَ الْمُنْتَحِلِينَ لِلْعِلْمِ الْمُتَرَئِسِينَ على الناس به قبل أن يَتَفَقَّهُوا في الدِّينِ وَيَرْسَخُوا في عِلْمِه[2].

٥١ - المسارعة الى الأعمال الصالحة، ولا سيما في زمان انتشار الظلم والفساد، وغلبة الهوى على النفوس والطباع؛ فإن الثبات على الحق في مثل ذلك الوقت أفضل وأعظم.

٥٢ - أن يكون التاجر فقيهًا بأحكام مهنته:

وسيأتي بيان ذلك.

٥٣ - أن يعطي التاجرُ المالَ حقَّه، فيُؤدِّي زكاة ماله والحقوق الواجبة عليه، وأن يكون محبًّا للخير، متصدقًا، ومحسنًا على الفقراء:

وسيأتي بيان ذلك.

٥٤ - البعدُ عن الغش، والتحذيرُ منه، وبيانُ حرمته وخطورته وعاقبته، وسنُّ قوانينَ لمن تسوِّلُ له نفسُه أكلَ أموال الناس بغير حقٍّ:

والغش من أشد الإيذاء؛ لما فيه من الخداع، والإضرار بالآخرين، وإيصال الشر إليهم، وتزيينه لهم من غير علمهم. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٥٨]. وسيأتي بيان ذلك.

٥٥ - أن لا ينشغل التاجر بمعاشه عن معاده، وأن يتذكر الموت، والحساب في الآخرة:

وسيأتي بيان ذلك.

---

(١) صحيح البخاري [٨١، ٦٨٠٨]، مسلم [٢٦٧١].

(٢) العزلة، لأبي سليمان الخطابي (ص:٨٢)، وانظر: بدائع السلك في طبائع الملك (٢/٤٥١).

٥٦ - أن تكون سائر المعاملات قائمة على الصدق والتناصح بين المسلمين، والبعد عن الغش في النصيحة:

وسيأتي بيان ذلك.

٥٧ - رسوخ الإيمان بقضاءِ الله عَزَّوَجَلَّ وقَدَرِه في النَّفس، وإيثار القناعة والصبر والرضا، وعدم الالتفات إلى ما خُصَّ به الغير من أمور الدنيا الفانية، والإيمان بأن الأرزاق وحظوظ الدنيا إنما تجري بالمقادير، وأن نفسًا لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها، وأن ما قُدِّر للإنسان لا بدَّ أن يأتيه. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَعِيشَتَهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ [الزخرف:٣٢].

٥٨ - ملازمة الصِّراط المستقيم، والبناء على أساسٍ سليمٍ من العلمِ والفقه والمعرفة، والاحتراز عن الطُّرق الملتوية التي تُضلُّ الباحث.

٥٩ - الإخلاصُ في طلب الاستقامة، والسَّداد في القول والفعل:

أمرنا رسولنا الكريم صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بتحري السَّداد في القول والفعل في قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**سَدِّدُوا وقَارِبُوا**))(١)، أي: اطلبوا السَّداد، وهو الصَّواب، وذلك بين الإفراط والتفريط لا غلو ولا تقصير. وقوله: ((**وقاربوا**))، أي: إن عجزتم عن السَّداد فقاربوه، أي: اقربوا منه، وهو مثل قوله في حديث آخر: ((**استقيموا ولن تحصوا**))(٢)،

---

(١) صحيح البخاري [٦٤٦٣، ٦٤٦٤، ٦٤٦٧]، مسلم [٢٨١٨].

(٢) أخرجه ابن المبارك في (الزهد) [١٠٤٠]، والطيالسي [١٠٨٩]، وأحمد [٢٢٣٧٨]، والدارمي [٦٨١]، وابن ماجه [٢٧٧]، وابن حبان [٨]، والطبراني [١٤٤٤]، والحاكم [٤٤٧]، والبيهقي [٣٨٤] عن ثوبان، وله طرق أخرى. قال الإمام الزيلعي رَحِمَهُ اللَّهُ: "روي من حديث: ثوبان، ومن حديث: جابر، ومن حديث: عبد الله بن عمرو بن العاص، ومن حديث: سلمة بن الأكوع، ومن حديث: أبي أمامة" تخريج أحاديث الكشاف (٢/٢٣٢)، وفي (الزوائد) (١/٤١): "رجاله ثقات أثبات، إلا أنه منقطع بين سالم وثوبان، فإنه لم يسمع منه بلا خلاف، لكن له طرق أخرى متصلة".

أي: وجوه الاستقامة، فغاية الأمر أن تقدروا على مقاربة الاستقامة(١). قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "فالسداد: هو حقيقة الاستقامة، وهو الإصابة في جميع الأقوال والأعمال والمقاصد"(٢).

وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "والمطلوب من العبد: الاستقامة. وهي السَّداد. فإن لم يقدر عليها فالمقاربة. فإن نزل عنها: فالتفريط والإضاعة. وأخبر في حديث ثوبان رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: أنهم لا يطيقونها. فنقلهم إلى المقاربة. وهي أن يقربوا من الاستقامة بحسب طاقتهم. كالذي يرمي إلى الغرض، فإن لم يصبه يقاربه"(٣).

٦٠ - الفهم الدَّقيق الواعي لحقيقة الدنيا والآخرة، وعلاقة كل منهما بالأخرى، وسبل تحقيق التوازن بينهما(٤)، والبعدُ عن الغلوّ والتَّشدد برعاية حدِّ التَّوسط في كلِّ الأمور الدِّينية والدُّنيوية:

وقد ربط الإسلام الإنسان بغاياتٍ ومقاصدَ سامية، وهو يحقق توازنًا بين الروح والمادة، وبين الدِّين والدُّنيا، وبين القيم والحاجات، وبين العاطفة والعقل. والإنسان كما أراده الله عَزَّوَجَلَّ ليس الذي ينقطع عن العالم، وينسحب من الحياة، ويتفرَّغ للعبادة، ويتعطَّل فلا يعمل، بل أوجدَ الإسلامُ توازنًا بين القيم الرُّوحية والقيم الماديَّة، وقرَّرَ أنَّ أيَّ طغيانٍ لأحدهما على الآخر يؤدي إلى خللٍ كبير في الحياتين -الروحية والمادية- معًا.

---

(١) انظر: طرح التثريب في شرح التقريب (٢٤١/٨)، إكمال المعلم، للقاضي عياض (١٧٧/٨)، شرح النووي على صحيح مسلم (١٦٢/١٧).

(٢) جامع العلوم والحكم (٥١١/١).

(٣) مدارج السالكين (١٠٥/٢-١٠٦).

(٤) انظر: آفات على الطريق (ص:١٨٦).

قال الحافظ الذهبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "أما من بالغ في الجوع كما يفعله الرهبان، ورفض سائر الدنيا، ومألوفات النفس، من الغذاء والنوم والأهل، فقد عرض نفسه لبلاء عريض، وربما خُولِطَ في عقله، وفاته بذلك كثير من الحنيفية السمحة، وقد جعل الله عَزَّوَجَلَّ لكل شيء قدرًا، والسعادة في متابعة السنن، فَزِنِ الأمورَ بالعدل، وصم وأفطر، ونم وقم، والزم الورع في القُوْت، وارض بما قسم الله لك، واصمت إلا من خير"(١).

٦١ – الدُّعاء، والاستغفار، والصَّلاة:

الدُّعاء صلةٌ بين العبدِ وربِّه عَزَّوَجَلَّ، وهو يجعلُ العبدَ قريبًا من ربِّه عَزَّوَجَلَّ، وخير الدُّعاء وأنفعه: أن يسألَ العبدُ ربَّه الهدايةَ إلى طريقِ الاستقامة، وأن يوفقه الله تعالى إلا استخلاص الحق والثبات عليه، والله عَزَّوَجَلَّ يوفِّقه ويعينه ما دام مخلصًا لربِّه جَلَّوَعَلَا في سؤاله الاستقامة والثبات على طاعته وشرعه، وقد أرشدنا اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلى خير ما يسألُ العبدُ ربَّه سُبْحَانَهُوَتَعَالَى من قوله: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٦-٧]، ولأهمية ذلك الدعاء فإنه يكرر في كلِّ ركعةٍ من الصلاة.

والصَّلاة خيرَ الأعمال التي تقرُّب من الله عَزَّوَجَلَّ، وتجعلُ المؤمن مع موعدٍ متجددٍ مع ربِّه عَزَّوَجَلَّ، والدُّعاءُ والصَّلاةُ وسائرُ العبادات تُنَمِّي في العبدِ شعورَ المراقبة، ذلك الشُّعور الذي يدفع العبد إلى فعل الخيرات وترك المنكرات. قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [العنكبوت:٤٥]. وفي الحديث: ((**استقيموا، ولن تحصوا، واعلموا أن خير أعمالكم الصلاة، ولا يحافظ على الوضوء إلا مؤمن**))(٢).

---

(١) سير أعلام النبلاء (١٤/٦٦).

(٢) تقدم تخريجه.

ولما كان من طبيعة الإنسان أنه قد يقصِّر في فعل المأمور، أو اجتناب المحظور، وهذا خروج عن الاستقامة، أرشده الشرع إلى ما يعيده لطريق الاستقامة من الاستغفار والتوبة؛ لأنَّ ذنوب العبد قد تحرمه التوفيق، فإذا ألزم العبدُ قلبَه الاستغفار، فإن كان محتارًا هُدِي، وإن كان مضطربًا سَكَن. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "ومن اتصف بهذه الصفة -أي: صفة الاستغفار- يسَّرَ الله عليه رزقه، وسهَّل عليه أمره، وحفظ عليه شأنه وقوته"(١).

و"في قوله عَزَّوَجَلَّ: ﴿فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ﴾ [فصلت:٦] إشارة إلى أنه لا بد من تقصير في الاستقامة المأمور بها، فيجبر ذلك بالاستغفار المقتضي للتوبة والرجوع إلى الاستقامة"(٢).

٦٢ – التَّأكد من صِحَّة النَّقل، ودرء التَّعارض بين العقل والنَّقل، وقراءة النَّقل بالعقل، وتقويم العقل بالنقل، والاستضاءة بأنوار الوحي من الكتاب وصحيح السنة:

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿قَدْ جَاءَكُم مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ۝١٥ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١٦﴾ [المائدة:١٥-١٦]، وقال جَلَّوَعَلَا: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء:٩]. وقد قيل: الاستقامة ضدُّ الاعوجاج، وهي مرور العبد في طريق العبوديَّة بإرشاد الشَّرع والعقل(٣).

٦٣ – إدراك أن العقل وحده لا يحيط بجميع المطالب.

٦٤ – النَّظرُ بعين البصيرة إلى العاقبة:

لا يخفى على العبدِ الفَطِنِ أنَّه لا بدَّ من الاستقامة لأجل النَّجاة والفلاح، وأنَّ ما يقابلها: الانحرافُ والزَّيغ والضَّلال. وقد صرَّح الله جَلَّوَعَلَا بمدح المستقيمين، وبيَّن

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٢٩).

(٢) جامع العلوم والحكم (١/ ٥١٠).

(٣) التعريفات (ص:١٩).

سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنه يتولاهم بعنايته وتوفيقه في الدُّنيا، ويتغمدهم برحمته ويكرمهم بجزيل عطائه في الآخرة، فما أحسنها من عاقبة!!

قال الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَبْشِرُوا بِالْجَنَّةِ الَّتِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَشْتَهِي أَنْفُسُكُمْ وَلَكُمْ فِيهَا مَا تَدَّعُونَ ۝٣١﴾ [فصلت:٣٠-٣١]، وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ۝١٣ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ۝١٤﴾ [الأحقاف:١٣-١٤].

ومن اهتدى فإنه ينتفع بالهداية والاستقامة لنفسه، قال الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾ [يونس:١٠٨]. قال أبو جعفر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: "يقول تعالى ذكره لنبيه صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ﴿قُلْ﴾، يا محمد، للناس: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾، يعني: كتاب الله، فيه بيان كل ما بالناس إليه حاجة من أمر دينهم. ﴿فَمَنِ اهْتَدَى﴾، يقول: فمن استقام فسلك سبيل الحق، وصدَّق بما جاء من عند الله من البيان. ﴿فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ﴾، يقول: فإنما يستقيم على الهدى، ويسلك قصد السبيل لنفسه، فإياها يبغي الخيرَ بفعله ذلك لا غيرها. ﴿وَمَنْ ضَلّ﴾، يقول: ومن اعوج عن الحق الذي أتاه من عند الله، وخالف دينَه، وما بعث به محمدًا والكتابَ الذي أنزله عليه. ﴿فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾"[1]. وقال جَلَّ وَعَلَا: ﴿مَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾ [الإسراء:١٥].

٦٥ - أن يحذر السَّالكُ كيدَ الشيطان ووسوسته وخطواته.

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٢٢٠).

٦٦ – مطالعة سير السَّلف الصَّالح ممن عرفوا بدقة الفهم والاستقامة، والحرص على تنظيم دروسٍ تُذَكِّرُ بِسِيَرِهم واستقامتهم.

٦٧ – "محاسبة النفس للوقوف على جوانب الضعف والخلل فيها.

٦٨ – التَّذكير الدَّائم بفوائد وثمرات التطبيق والعمل، وبعواقب ومضار إهدار هذا الالتزام، أو التخلي عنه.

٦٩ – الاستعانة بالله عَزَّوَجَلَّ واللجوء إليه"(١).

٧٠ – معاملة المتنطعين أو المغالين في الدِّين برفقٍ وحكمة، والعمل على توسيع مداركهم وتأهيلهم بالعلم والتربية، وتبصريهم بآفات وآثار الغلوّ والتَّشدد على الفرد وعلى المجتمع.

٧١ – العناية بمصادر الإعلام والتَّثقيف والتوعية، ومكافحة الغلوّ والتَّشدد والفراغ من خلال التربية والتَّعليم والعمل النافع، وتنظيم البرامج والدَّورات التَّثقيفية.

٧٢ - إخلاصُ النية في طلب الحقِّ، وإعمال العقل، والاهتداء بأنوار الوحي:

إنَّ من أسباب الضَّلال والغواية: عدم إخلاص النية في طلب الحق، كمن يسلك طريق الالتزام من أجل غايات أخرى، كتحصيل منفعة دنيوية، أو الدنو من صاحب سلطان، أو من محبوب؛ ولذلك فإنَّ أمثالَ هؤلاء لا يسلكون طريقًا مستقيمًا، بل يتقلَّبُون بحسبِ المصالح.

٧٣ – أن يقوم العلماء بواجبهم في التبليغ وبيان طريق الهداية، والترغيب فيه، والتحذير من الطرق المضلة.

٧٤ - السعيُ إلى تكميلِ النَّفس بالعلمِ والمعرفة، واتباع منهج من البحث سليم من الآفات، فإن المعرفة السليمة تُبصِّر السالك، وتنير له الدرب.

---

(١) انظر: آفات على الطريق (ص:١٨٩).

٧٥ – السعي إلى المعالي في المجالات كافة، وتجنب ما يعيق سير المكلف، وقد يقتضي ذلك الهجرة والتضحية بالمحبب الآني من أجل هدف مرتقب، وغاية سامية.

٧٦ – السعادة بابتغاء مرضاة الله عَزَّوَجَلَّ في كل الأمور، وهي تقتضي اغتنام الوقت بالطاعات، وتجنب المحظورات، والاشتغال بما ينفع المكلف في دنياه وآخرته.

نهاية الجزء الأول

فهرس موضوعات الجزء الأول

مقدمة.. ٥

تمهيد.. ١١

١ – التَّحذير من النار من خلال الآيات.......................... ١١

٢ – أحاديث في التَّحذير من النَّار.......................... ١٤

٣ – بين الوعد والوعيد.......................... ١٧

المبحث الأول: الكفر.......................... ٢٧

أولًا: تعريف الكفر وبيان أنواعه.......................... ٢٧

١ – الكفر لغة.......................... ٢٧

٢ – الكفر في الاصطلاح.......................... ٢٧

٣ – أوجه ورود الكفر في القرآن الكريم.......................... ٣٠

ثانيًا: التحذير من الكفر الأكبر، وبيان أنواعه.......................... ٣١

١ – التحذير من الكفر الأكبر المتوعد عليه بالنار.......................... ٣١

٢ – أنواع الكفر الأكبر.......................... ٣٢

ثالثًا: التحذير من الكفر الأصغر، وبيان صوره.......................... ٣٤

١ – التحذير من الكفر الأصغر.......................... ٣٤

٢ – صور الكفر الأصغر.......................... ٣٤

رابعًا: التحذير من آفة التكفير.......................... ٣٨

خامسًا: الوقاية من الغلو في التكفير والعلاج........ ٥٠
سادسًا: النتائج........ ٥١
سابعًا: الوقاية من خطر الكفر والعلاج........ ٥٦
المبحث الثاني: الشرك بالله تعالى........ ٥٩
أولًا: تعريف الشرك........ ٥٩
ثانيًا: الشرك المتوعد عليه بالنَّار........ ٦٢
ثانيًا: الوقاية من خطر الشرك........ ٧٤
المبحث الثالث: النفاق........ ٦٩
أولًا: خطورة النفاق وبيان عاقبته........ ٦٩
ثانيًا: الوقاية من خطر النفاق والعلاج........ ٧٤
المبحث الرابع: السحر........ ٨٨
أولًا: تعريف السحر........ ٨٨
ثانيًا: الفرق بين السحر والمعجزة والكرامة........ ٩٣
ثالثًا: السحر من الكبائر المتوعد عليها بالعذاب........ ٩٥
رابعًا: الوقاية من آفات السحر والعلاج........ ١٠٤
المبحث الخامس: قاتل النفس بغير حق........ ١٢٣
أولًا: القتل بغير حق من الذنوب المتوعد عليها بالنار........ ١٢٣
ثانيًا: الوقاية من آفات القتل........ ١٣٢
المبحث السادس: الاعتداء في القتل بعد العفو أو الصلح........ ١٣٥
أولًا: خطورة الاعتداء في القتل بعد العفو أو الصلح........ ١٣٥
ثانيًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب........ ١٤١

المبحث السابع: شرب الخمر ١٤٥
أولًا: تعريف المسكر ١٤٥
ثانيًا: آفات الخمر وبيان أنه من الذنوب المتوعد عليها بالنار ١٤٧
ثالثًا: الوقاية من هذا الداء والعلاج ١٥٣
المبحث الثامن: الكِبْر ١٥٥
أولًا: الكبر من الذنوب المتوعد عليها بالنَّار ١٥٥
ثانيًا: الوقاية من آفات الكبر والعلاج ١٦٠
المبحث التاسع: ترك الصلاة ١٦٥
أولًا: مكانة الصلاة وعقوبة تاركها ١٦٥
ثانيًا: الوقاية من آفات ترك الصلاة والعلاج ١٧٦
المبحث العاشر: ترك الزكاة ١٨٥
أولًا: مكانة الزكاة وعقوبة تاركها ١٨٥
ثانيًا: الوقاية من آفات ترك الزكاة والعلاج ١٩٥
المبحث الحادي عشر: الإفطار في رمضان من غير عذر ٢٠٩
أولًا: تعريف الصوم ٢٠٩
ثانيًا: صيام رمضان ركن من أركان الإسلام ٢١١
فضائل شهر رمضان ٢١٤
ثالثًا: عقوبة من أفطر في رمضان من غير عذر ٢٢١
رابعًا: الوقاية والعلاج من آفات الإفطار من غير عذر ٢٢٥
المبحث الثاني عشر: الزنا ٢٢٩

أولًا: بيان خطورة الزنا وعاقبته وآثاره........................ ٢٢٩
ثانيًا: الوقاية من آفات الزنا والعلاج........................ ٢٤٠
المبحث الثالث عشر: الربا........................ ٢٦٥
أولًا: الربا من الكبائر المتوعد عليها بالعقاب........................ ٢٦٥
ثانيًا: الوقاية من آفات الربا والعلاج........................ ٢٧٢
المبحث الرابع عشر: الفِرَار من الزَّحْف........................ ٢٧٧
أولًا: خطورة الفرار من الزحف وبيان عاقبته........................ ٢٧٧
ثانيًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج........................ ٢٨٣
المبحث الخامس عشر: ترك جهاد الأعداء عند تعينه........................ ٢٩٣
أولًا: تعريف الجهاد وبيان فضله ومراتبه........................ ٢٩٣
ثانيًا: خطورة ترك الجهاد عند تعينه........................ ٣٠٥
ثالثًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج........................ ٣١٧
المبحث السادس عشر: الانتحار........................ ٣٢١
أولًا: الانتحار من حيث كونه من الكبائر المتوعد عليها بالنار........................ ٣٢١
ثانيًا: سبل الوقاية من آفة الانتحار........................ ٣٣٣
المبحث السابع عشر: الرياء........................ ٣٤٥
أولًا: تعريف الرياء وبيان خطره........................ ٣٤٥
١ – تعريف الرياء لغة واصطلاحًا........................ ٣٤٥
٢ – أسباب الرياء........................ ٣٤٧
٣ – بيان ما يورث الرياء من الأخلاق المذمومة........................ ٣٤٨

٤ – أمارات الرياء.. ٣٤٨
٥ – أقسام الرياء.. ٣٥٠
٦ – ما يتوهم أنه رياء وليس برياء.. ٣٥٣
ثانيًا: التحذير من الرياء وبيان خطره وعاقبته.. ٣٥٤
إجمال مضار الرياء.. ٣٦٦
ثالثًا: الوقاية من الرياء والعلاج.. ٣٦٩
المبحث الثامن عشر: ترك العمل بالعلم.. ٣٨٣
أولًا: أهمية العمل بالعلم وخطورة ترك العمل.. ٣٨٣
ثانيًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج.. ٤٠١
المبحث التاسع عشر: كتمان الحق.. ٤٠٥
أولًا: كتمان الحق من الذنوب المتوعد عليها بالنار.. ٤٠٥
ثانيًا: الوقاية من آفة الكتمان والعلاج.. ٤١٦
المبحث العشرون: الغرور.. ٤١٧
أولًا: الغرور من الذنوب المتوعد عليها بالنار.. ٤١٧
ثانيًا: الوقاية من آفات الغرور والعلاج.. ٤٢٧
المبحث الحادي والعشرون: الظلم.. ٤٣٣
أولًا: التَّحذير من الظُّلم وبيان كونه من الذُّنوب المتوعَّدِ عليها بالنَّار..... ٤٣٣
١ – تعريف الظلم.. ٤٣٣
٢ – أسباب الظلم.. ٤٤٧
٣ – أنواع الظلم.. ٤٤٨
ثانيًا: الوقاية من آفات الظلم والعلاج.. ٤٧٤

المبحث الثاني والعشرون: أكل مال اليتيم................ ٤٩٣
أولًا: تعريف اليتيم والتحذير من أكل مال اليتيم........................ ٤٩٣
ثانيًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج........................ ٥٠٤
المبحث الثالث والعشرون: الذي يقطع السِّدرَ الذي يُظِلُّ النّاس..... ٥١٣
أولًا: ما جاء في التحذير من قطع السِّدرَ الذي يُظِلُّ النَّاس............. ٥١٣
ثانيًا: الوقاية من هذا الفعل والعلاج.................................. ٥١٤
المبحث الرابع والعشرون: تعذيب الحيوان................ ٥١٧
أولًا: خطورة تعذيب الحيوان والقسوة عليه............................ ٥١٧
ثانيًا: الوقاية من مخاطر تعذيب الحيوان والعلاج...................... ٥٢٤
المبحث الخامس والعشرون: المكر والخديعة................ ٥٣١
أولًا: المكر والخديعة من الذنوب المتوعد عليها بالنار................ ٥٣١
ثانيًا: الوقاية من آفات المكر والخداع والعلاج........................ ٥٤٨
المبحث السادس والعشرون: الأمن من مكر الله واليأس من رحمته.. ٥٥٥
أولًا: التحذير من الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ، واليأس من رحمته.......... ٥٥٥
ثانيًا: الوقاية في خطر الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ، واليأس من رحمته والعلاج.. ٥٧١
١ – الوقاية في خطر الأمن من مكر الله عَزَّوَجَلَّ.......................... ٥٧١
٢ – الوقاية من خطر اليأس من رحمة الله عَزَّوَجَلَّ، والعلاج.............. ٥٧٨
المبحث السابع والعشرون: الإفساد في الأرض والحرابة وقطع الطريق..... ٥٨٧
أولًا: التَّحذير من الإفساد في الأرض والحرابة وقطع الطريق............ ٥٨٧
١ – تعريف الفساد وبيان خطره وآثاره................................. ٥٨٧
٢ – نماذج من المفسدين في الأرض من خلال الآيات.................... ٦٠٨

ثانيًا: صور الإفساد ومسبباته.. ٦١٠
١ – الكفرُ بالله عَزَّوَجَلَّ، والشرك به، والصَّدُّ عن سبيله................... ٦١١
٢ – النفاق.. ٦١١
٣ – الجحود... ٦١٣
٤ – الظلم وقتل النفس التي حرم الله عَزَّوَجَلَّ......................... ٦١٣
٥ – السحر.. ٦١٤
٦ – بخس الموازين والتطفيف بالكيل...................................... ٦١٥
٧ – نقض العهد، وقطع ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به أن يُوصل................. ٦١٥
٨ – الإسراف وإغفال الحقوق... ٦١٦
٩ – إيقاد نيران الفتن والحروب.. ٦١٦
١٠ – البغي والأشر والبَطَر.. ٦١٦
١١ – الطغيان.. ٦١٦
١٢ – ترك ما أمر الله عَزَّوَجَلَّ به، وإتيان ما نهى الله عَزَّوَجَلَّ عنه.......... ٦١٧
١٣ – السرقة... ٦١٧
١٤ – الابتداع في دين الله عَزَّوَجَلَّ.. ٦١٨
١٥ – اتباع الهوى.. ٦٢٢
١٦ – الغلول والاختلاس.. ٦٢٣
١٧ – الإفساد من خلال مناهج التربية والتعليم............................ ٦٢٦
١٨ – سوء التبليغ.. ٦٢٦
١٩ – الركون إلى الظلمة... ٦٢٨
٢٠ – التصدر قبل التمكن والرسوخ والتأهل................................. ٦٣٠

٢١ - القدوة السيئة..٦٣٣
٢٢ — الغزو الفكري، وهيمنة ثقافاته على المجتمع......................٦٣٧
٢٣ — كثرة الغلاة والمتطرفين وتمكينهم..............................٦٣٧
٢٤ — الفساد الاجتماعي والأخلاقي..............................٦٣٧
٢٥ — سوء التربية..٦٣٨
٢٦ — المسكرات..٦٤٠
٢٧ — الفساد في المعاملات المالية..................................٦٤١
٢٨ — الفساد في الحكم والقضاء......................................٦٤٤
٢٩ - الفساد البيئي..٦٤٤
٣٠ - الصَّدّ عن بيوت الله عَزَّوَجَلَّ، والسعي في خرابها......................٦٥٠
٣١ - كتمان الحق، وكتمان الشهادة عند طلبها والحاجة إليها، وقول الزور.....٦٥٠
٣٢ - قتل الحيوان وتعذيبه..٦٥٠
الخلاصة..٦٥٠
ثالثًا: الوقاية من الآفات في هذا الباب والعلاج........................**٦٥٣**

نهاية الجزء الأول

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع
@DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com
الأزهر: شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر.
01050144505 - 0225117747
المنصورة: عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر.
01007868983 -0502357979

دار اللؤلؤة للنشر والتوزيع
المنصورة - مصر
بالعلم تبنى الأمم

@DarElollaa @DarElollaa
Dar_Elollaa@hotmail.com
الأزهر : شارع محمد عبده خلف الجامع الأزهر .
01050144505 - 0225117747
المنصورة : عزبة عقل - بجوار جامعة الأزهر .
01007868983 - 0502357979

Elollaa-Designs